المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية الدعوة والاعلام
الدراسات العليا
قسم الدعوة والاحتساب

أسلوب الامامين القرطبي والقرافي في دعوة النصارى إلى الاسلام

دراسة مقارنة

بحث مقدم لقسم الدعوة والاحتساب لنيل درجة الدكتوراه

إعداد الطالب
بيان صالح حمن

إشراف

أ.د. زاهر بن عواض الألمعي
الاستاذ في كلية أصول الدين
وعضو مجلس الشورى سابقاً

العام الجامعي ١٤٢٠ - ١٤٢١هـ

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كلية الدعوة والإعلام

الدراسات العليا

قسم الدعوة والاحتساب

أسلوب الإمامين القرطبي والقرافي في دعوة النصارى إلى الإسلام

دراسة مقارنة

بحث مقدم لقسم الدعوة والاحتساب لنيل درجة الدكتوراه

إعداد الطالب

بيان صالح حسن

إشراف

أ.د. زاهر بن عواض الألمعي

الأستاذ في كلية أصول الدين

وعضو مجلس الشورى سابقا

العام الجامعي ١٤٢٠ -١٤٢١هـ

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾[1] ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾[2]﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما﴾[3][4].

ولقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وحمّل أمته من بعده مهمة تأدية الرسالة، وفي مقدمتهم العلماء حيث قال: «وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة النساء الآية: ١.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٧٠-٧١.

(٤) أصل خطبة الحاجة عند مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الجمعة٧، باب تخفيف الصلاة والخطبة١٣، حديث رقم٤٣، ٤٤، ٤٦، ج١، ص٥٩٢-٥٩٣، موسوعة الكتب الستة، ط/ الطبعة التركية، إسطنبول، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، وانظر: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، خطبة الحاجة، ص١٣-١٤، ط٤، المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ، فقد استقصاها وأبان طرقها.

دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[1].

لقد منّ الله على المسلمين وشرفهم أن جعل منهم أئمة يهدون بالحق إلى الحق وبه يعدلون، يخرجون الناس من ظلمات عبودية غير الله إلى نور التوحيد الخالص قال تعالى: ﴿الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾[2].

وموضوع هذه الدراسة يرتبط بإحدى مهام العلماء التي ورثوها عن النبي صلى الله عليه وسلم وهي العلم ومهمة تبليغه إلى الناس، ومن ثم جاءت هذه الدراسة تحت عنوان:

«أسلوب الإمامين القرطبي والقرافي في دعوة النصارى إلى الإسلام -دراسة مقارنة-»

وقد جاءت مقدمة هذا الموضوع على هذا النحو:

- تحديد مصطلحات الدراسة.
- أهداف الدراسة.
- أهمية الموضوع وسبب اختياره.
- الدراسات السابقة.

---

(١) أبو داود السجستاني، سنن أبي داود، كتاب العلم١٩، باب الحث على طلب العلم١، حديث رقم ٣٦٤١، ج٤، ص ٥٧-٥٨، موسوعة الكتب الستة، ط/ الطبعة التركية، اسطنبول، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م. ومحمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، كتاب العلم٤٢، باب في فضل الفقه على العبادة١٩، حديث رقم٢٦٨٢، ج٥، ص.٤٨-٤٩. موسوعة الكتب الستة، ط/ الطبعة التركية، إسطنبول، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م . ومحمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم١٧، حديث رقم٢٢٣، ج١، ص٨١، موسوعة الكتب الستة، ط/ الطبعة التركية، إسطنبول، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م. وقد صححه ناصرالدين الألباني، فانظر: صحيح سنن أبي داود، ج٢، ص٦٩٤، حديث رقم٣٠٩٦، ط١/، المكتب الإسلامي، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م بيروت.

(٢) سورة إبراهيم آية: ١.

- مشكلة الدراسة والتساؤلات.
- منهج الدراسة.
- مصادر الدراسة.
- الصعوبات.
- تقسيم البحث.
- الشكر والعرفان.

❑ تحديد مصطلحات الدراسة

يحتوي عنوان البحث مجموعة من المفردات لا بد من تحديد المقصود منها حتى يكون الموضوع واضحا وهي:

١- أسلوب.

٢- القرطبي والقرافي.

٣- دعوة.

٤- النصارى.

٥- الإسلام.

١- أسلوب:

الأسلوب لغة:

هو الطريق ، والوجه، والمذهب، يقال سلكت أسلوب فلان في كذا: طريقته ومذهبه، ويُجمع على أساليب، والأسلوب: الطريق تأخذ فيه، والأسلوب: طريقة الكاتب في كتابته، والأسلوب: الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول، أي أفانينه، ويطلق الأسلوب أيضا على عنق الأسد، والشموخ في الأنف[1].

---

(١) انظر: محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ج١، ص٤٧٣، مادة سلب، ط/ دار صادر بيروت، ومحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج١، ص١٧٩، ط١/، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م، بيروت. والمعجم الوسيط، ج١، ص٤٤١، مادة سلب، ط/ دار إحياء التراث العربي.

وأما في الاصطلاح:

فإنه يطلق على عدد من المعاني وذلك بحسب تعلقه بفن من الفنون أو علم من العلوم، فهناك أسلوب التربية، وأسلوب التدريس... وغيرها، وكثيرا ما تستخدم هذه الكلمة عند أهل الأدب، الذين يعرفون الأسلوب بمعناه العام بأنه: «طريقة الكتابة، أو طريقة الإنشاء، أو طريقة اختيار الألفاظ، وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح، والتأثر»(١).

أو هو «الضرب من النظم والطريقة فيه»(٢).

وعرفوه أيضا بأنه: «القالب الذي يصب فيه الكاتب فكره وعاطفته، وهو المنهاج الذي ينهجه في الإفصاح عما في نفسه، وهو الطابع الذي يطبع به كتابته ويتسم به إنتاجه»(٣).

فالأسلوب في فن الأدب يقصد به الطريقة التي يعبر فيها الشاعر أو الكاتب عما في نفسه من خواطر ومشاعر وأحاسيس، وهناك من عرّف الأسلوب بتعريف شامل فقال: «هو مجموعة من الألفاظ والتراكيب التي يسوق المتكلم أو الكاتب عبرها الأفكار والمعاني»(٤).

ولما كانت الكلمة المسموعة والمقروءة مما يعتمد عليها الداعية في تبليغ دعوته

---

(١) أحمد الشايب، الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، ص٤٤، ط٧/ مكتبة النهضة المصرية، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م، مصر.

(٢) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٣٦١، صحح أصله: محمد عبده، ومحمد محمود الشنقيطي، وعلق عليه: محمد رشيد رضا، ط١/، دار الكتب العلمية، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، بيروت.

(٣) عبد الحميد حسن، الأصول الفنية للأدب، ص١٨٣، ط/ مكتبة الأنجلو المصرية.

(٤) نذير محمد مكتبي، خصائص الخطبة والخطيب، ص٤٧، ط١/ دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، بيروت.

فإن هذه التعريفات لا تبعد كثيرا عن تعريف الأسلوب في علم الدعوة، ولكن لكون هذه الدراسة تعنى بأسلوب الدعوة فلا بد من إبراز التعريف الاصطلاحي للأسلوب في مجال الدعوة إلى الله، وقد عرفه المهتمون بهذا الجانب بعدد من التعريفات، أذكر منها ما يلي:

الأسلوب هو: «الطريق أو المذهب الذي يلجأ إليه الداعي إلى الله ليحقق بذلك أهداف الدعوة»[١].

وهو كذلك: «ما يتعاطاه رجل الدعوة من طرق وصيغ يتوصل من خلالها إلى إبلاغ الحق إلى الناس، وتبصيرهم بما ينفعهم ودفع ما يضرهم»[٢].

وأيضا هو: «الطريقة أو الكيفية التي تقدم بها مضمون الدعوة للناس»[٣].

وهو أيضا: «ما بُلغت به أوامر الله تعالى وإرشاداته إلى المدعويين، وهو لا يخرج عما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية»[٤]، وهذا التعريف غير مانع، لأنه يدخل تحته الأساليب والوسائل والمناهج، فلفظ (به) لا تشعر باختصاص الأسلوب، وأوامر الله سبحانه وتعالى تُبلغ بمناهج ووسائل وأساليب، فلم يوضح التعريف شيئا من ذلك.

وتطلق كلمة أساليب الدعوة أيضا على «الطرق التي يسلكها الداعي في دعوته،

---

(١) د. علي عبد الحليم محمود، فقه الدعوة إلى الله، ص٢١٥، ط١/ دار الوفاء، ١٤١٠هـ، المنصورة.

(٢) صالح بن عبد الله بن حميد، مفهوم الحكمة في الدعوة، ص٣٥، ط/ وزارة الشؤون الإسلامية، ١٤١٧هـ الرياض.

(٣) محمد داود، من أدب الدعوة، ص٣٦، ط/ دار المنار.

(٤) أبو المجد السيد نوفل، أساليب الدعوة في القرآن الكريم، الأساليب التطبيقية، بحث في مجلة هذه سبيلي، الصادرة عن المعهد العالي للدعوة الإسلامية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ص٢٣٠، العدد الرابع، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ط/ إدارة الثقافة بالجامعة.

أو كيفيات تطبيق مناهج الدعوة»[١].

وأغلب هذه التعريفات تؤكد على كلمة الطريق أو الطريقة في تعريف أسلوب الدعوة، وذلك لأن من بين المعاني اللغوية للأسلوب أنه الطريق، وبذلك فإنه ليس هناك اختلاف جوهري في تعريف مصطلح الأسلوب في علم الدعوة، ومن خلال التعريف اللغوي، والتعاريف الاصطلاحية المذكورة آنفا يمكن القول بأن المقصود من أسلوب الدعوة في هذه الدراسة هو: الطريقة التي يتبعها الداعية ويسلكها لإيصال الحق بالحق إلى المدعو بغرض التأثير عليه.

وقد يخلط البعض في إطلاق المنهج على الأسلوب والأسلوب على المنهج، وذلك لاشتراك الكلمتين في المعنى اللغوي، فكلاهما يأتي بمعنى الطريق، وإذا كان لا يضير استخدام المنهج والأسلوب بصفتهما كلمتين مترادفتين في الأحاديث العامة إلا أنه ينبغي في الدراسات العلمية أن يتم التفريق بينهما بشكل دقيق، وبخاصة في العلوم التي تستخدم الكلمتين مصطلحا لمعاني محددة، وعلى كل فالمنهج هو اسم جامع للأساليب والوسائل المستخدمة، أو هو الخطط والنظم الدعوية، بينما الأساليب هي كيفيات وطرق تطبيق وتنفيذ تلك الخطط والنظم، فالمنهج أعم وأشمل، والأسلوب يمثل عنصرا من عناصر المنهج، والعكس غير صحيح[٢].

٢- القرطبي والقرافي -رحمهما الله-:

أ/ القرطبي هو: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكرالأنصاري، الخزرجي ، عاش في القرن السابع، وتوفي سنة ٦٧١هـ.

ب- أما القرافي فهو: أبو العباس شهاب الدين ابن أبي العلا أحمد بن إدريس

---

(١) د. محمد البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، ص٤٧، ط/ ٢، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ ١٩٩٣، بيروت.

(٢) انظر: د. محمد البيانوني، ص٤٧، ود. سعيد إسماعيل صيني، قواعد أساسية في البحث العلمي، ص٢٥-٢٦، ٨٩، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م، بيروت.

ابن عبد الرحمن المشهور بالقرافي، ولد سنة ٦٢٦هـ وتوفي سنة ٦٨٤هـ في مصر.[١]

٣- الدعوة:

الدعوة لغة: مصدر دعا يدعو دعاء، وتأتي كلمة دعا في الاستعمال اللغوي بمعان عدة، فهي تأتي بمعنى: ساق، وطلب، وسأل، واستغاث، ونادى، وندب، وسمى... الخ. واسم الفاعل منها داع، أو داعية، والجمع دعاة، وهم قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة[٢]، والنبي ﷺ داعي الله[٣].

والدعوة في أصلها اللغوي: «أن تميل الشيء إليك بصوت أو كلام يكون منك»[٤]، وهو الأقرب إلى المعنى الاصطلاحي للدعوة، حيث يستعمل الداعية وسيلة الكلام في إمالة الناس إليه وإلى ما يدعو إليه.

-الدعوة اصطلاحا:

تعددت تعريفات مصطلح الدعوة بتعدد مقاصد الذين كتبوا في فن الدعوة، فالبعض منهم كان ينظر إليها وكأنها مترادفة مع مفهوم الإسلام، فعرفها بقوله: «دين الله الذي بعث به الأنبياء جميعا، تجدّد على يد محمد ﷺ خاتم النبيين، كاملا وافيا لصلاح الدنيا والآخرة»[٥].

---

(١) سيأتي التعريف المفصل بالعالمين موضوع الدراسة في المبحث الثالث من الفصل الأول، من هذا البحث، إن شاء الله.

(٢) انظر: ابن منظور ، لسان العرب، ج١٤ص٢٥٧، وما بعدها، مادة (دعو).

(٣) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٢، ص١٦٨٣، مادة «دعا».

(٤) الزبيدي: تاج العروس، ج١٠، ص١٢٧، مادة (دعو).

(٥) محمد الراوي، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ص٣٩، ط٣/ مكتبة الرشد، ١٤١١هـ ١٩٩١م، الرياض.

والبعض الآخر نظر إلى الجانب العلمي للدعوة وكونها علما من العلوم التي لها أسس وقواعد فعرفها بقوله: «العلم الذي به تعرف كافة المحاولات الفنية المتعددة الرامية إلى تبليغ الناس الإسلام بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق»[١].

وهذا تعريف جيد موفق، فقد بيّن صاحبه بأن الدعوة علم له أصوله وقواعده لممارسة تبليغ الناس الإسلام كله.

وهناك من عرف الدعوة بتعريف فضفاض يصعب فيه تبين الملامح الخاصة لمعنى الدعوة، فقال: إنه: «برنامج كامل يضم في أطوائه جميع المعارف التي يحتاج إليها الناس ليبصروا الغاية من محياهم وليستكشفوا معالم الطريق التي تجعلهم راشدين»[٢].

أما التعريفات التي لها علاقة بهذه الدراسة فهي التي أعطت الدعوة معنى النشر، ومنها:

أن الدعوة هي: «حث الناس على الخير والهدى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل»[٣]، وهذا تعريف لم يشر إلى الوسائل التي تعين في حث الناس على الخير والهدى، كما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمكن أن يدخل تحت الخير والهدى، فلا حاجة لهذا التكرار في التعريف.

وهناك من يعرف الدعوة بأنها: «تبليغ الناس جميعا دعوة الإسلام، وهدايتهم إليها قولا وعملا في كل زمان ومكان بأساليب ووسائل خاصة تتناسب مع المدعويين

---

(١) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، ص ١٠، ط، دار الكتاب المصري، القاهرة.

(٢) محمد الغزالي، مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، ص١٧، ط٤/ دار الكتب الحديثة، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م، مصر.

(٣) علي بن محفوظ، هداية المرشدين إلى طريق الوعظ والخطابة، ص١٧، ط٥/ مطبعة دار الكتاب، ١٣٧١هـ-١٩٥٢، القاهرة.

على مختلف أصنافهم»[١]، وهذا تعريف جيد وقد يؤاخذ على عدم ذكره قضية هداية الناس إلى الاعتقاد ما دام قد ذكر القول والعمل.

وقد عُرفت الدعوة أيضا بأنها: «الطلب بشدة وحثٍ على الدخول في دين الإسلام اعتقادا وقولا وعملا وظاهرا وباطنا»[٢]، وقد يُشعر هذا التعريف أن الدعوة خاصة بغير المسلمين للدخول في الإسلام، كما أنه لا حاجة لتقييد الطلب بالشدة، والإطلاق أفضل.

وقيل أيضا أن الدعوة هي: «الدعوة إلى توحيد الله والإقرار بالشهادتين وتنفيذ منهج الله في الأرض قولا وعملا كما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة -سنة رسول الله ﷺ - ليكون الدين كله لله»[٣]، وهذا التعريف فيه تكرار وتطويل لا تحتمله التعريفات.

وقيل في الدعوة أيضا أنها: «منهج يقوم على بيان الحق والخير والهدى وكشف وسائل الباطل وأساليبه بشتى الطرق والأساليب والوسائل والمناهج»[٤].

أو هي: «تبليغ الإسلام للناس، وتعليمه إياهم، وتطبيقه في واقع الحياة»[٥].

وهذه التعريفات في مجملها تصب في معنى واحد، ألا وهو معنى النشر،

---

(١) محمد أمين حسن، خصائص الدعوة الإسلامية، ص١٧، ط١/ مكتبة المنار، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، الأردن.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ج١، ص١٦، ط١/ دار القلم، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦، دمشق.

(٣) د. توفيق الواعي، الدعوة إلى الله، الرسالة الوسيلة الهدف، ص١٨، ط١، مكتبة الفلاح، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، الكويت.

(٤) علي بن صالح المرشد، مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، ص٢٢، ط١/ مكتبة لينة، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م، دمنهور.

(٥) د. أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، ص١٧.

ولذلك يمكن القول بأن الدعوة: عملية نشر متقنة للإسلام في الناس كافة بوسائل وطرق مشروعة.

والمقصود بـ (عملية): أي أن الدعوة جهد مقصود يقوم به الداعية بتفاعل مستمر مع المدعو.

والمقصود بـ (نشر): فيه ذكر للهدف من العملية الدعوية.

والمقصود بـ (متقنة): أي أن الدعوة تحتاج إلى إتقان ولا يتأتى ذلك إلا بمعرفة أصول الدعوة، وفقهها، وفنونها، واكتساب الخبرات.

و (الإسلام) هو الرسالة التي يريد الداعية إيصالها إلى المدعو.

والمقصود بـ (في الناس كافة): إشارة إلى المدعو، ويدخل فيه الناس جميعا مسلمهم وكافرهم، أبيضهم وأسودهم.

والمقصود بـ (بوسائل وطرق مشروعة): فيها تحديد لركن من أركان الدعوة، وما ينبغي أن تلتزم به هذه المناهج والوسائل والأساليب.

٤- النصارى:

النصارى هم أمة المسيح -عليه السلام- وسيأتي التعريف بهم مفصلا في المبحث الثاني، من الفصل الأول.

٥- الإسلام:

الإسلام والاستسلام في اللغة: الانقياد[١].

أما في الاصطلاح فيطلق على: استسلام الإنسان لله بقلبه وقصده، وإخلاص العمل بما أمر الله به خالصا لوجهه، وهذا التعريف يصلح أيضا لتعريف الدين المشترك الذي بعث به جميع الأنبياء، ويطلق الإسلام خاصة على ما اختص به

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٢٩٣ ،مادة (سلم).

محمد ﷺ من الدين والشرعة والمنهاج[١].

والمقصود بالإسلام في هذه الدراسة هو: «مجموع ما أنزله الله تعالى على رسوله محمد ﷺ من أحكام العقيدة، والأخلاق، والعبادات والمعاملات، والإخبارات في القرآن الكريم والسنة المطهرة»[٢].

❐ أهداف الدراسة:

تتمثل أهداف الدراسة في:

١- الإسهام في إثراء المكتبة الدعوية بدراسة دعوية علمية.

٢- الكشف عن أسلوب عالمين بارزين من علماء المسلمين في دعوة النصارى.

٣- إبراز بعض الجهود التي بذلها بعض علمائنا وبخاصة الإمامان القرطبي والقرافي -رحمهما الله تعالى- في المدافعة عن الدين الإسلامي.

٤- الإفادة مما رسمه هذان العالمان من أسلوب علمي في دعوة النصارى.

٥- توضيح الفرق بين أسلوب هذين العالمين اللذين أسهما في دعوة النصارى لمعرفة أوجه الاتفاق والاختلاف، وأسبابه.

٧- تقويم الأسلوب الدعوي الذي سار عليه هذان العالمان.

٨- الوصول إلى الخصائص التي تميزت بها أساليب هذين العالمين في دعوة النصارى.

---

(١) انظر: أحمد بن تيمية، مجموعة فتاوى شيخ الإسلام، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد قاسم النجدي، وابنه محمد، ج٧، ص٤١٠، ٦٣٦، ط، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ-١٩٩١م، الرياض.

(٢) عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، ص١٠، ط٣/ دار عمر بن الخطاب، ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م، الاسكندرية.

❐ أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تأتي أهمية هذا الموضوع نظرا للأهداف التي يرنو البحث إلى تحقيقها، بالإضافة إلى أن هذه الدراسة تتعلق بموضوع كان وما زال يحوز على جانب مهم في مجال الدعوة، وهو التدافع الدعوي بين الدين الإسلامي والملة النصرانية. فالله سبحانه وتعالى قرر في كتابه العزيز أن اليهود والنصارى لن يقر لهم قرار ولن يهدأ لهم بال حتى يردّوا المسلمين عن دينهم ويتبع المسلمون دين أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل إن هدى الله هو الهدى، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير**﴾[1]، وفي الوقت نفسه أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وأمته تبعا بدعوة النصارى إلى الحق والطريق المستقيم، قال تعالى: ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾[2].

فهذه الدراسة تغطي أحد الجوانب الرئيسة المتعلقة بجانب المدعو، والفئة التي تعنى بها هذه الدراسة هم النصارى الذين ما زالوا يحتفظون بثقلهم الكمي، وكذلك الكيفي في العالم فيما حققوه من تقدم مادي، مما يجعل كشف أسلوب قويم في دعوتهم وإبرازه، واتباعه أمرا له أهميته القصوى.

وليس هناك أي ضرر من اختلاف زمن العالمين اللذين تتناولهم هذه الدراسة عن زماننا؛ لأن ذلك لن يكون حائلا دون الإفادة من التراث الغني الذي تركاه لنا، وبخاصة أن القضايا العقدية الرئيسة في الديانة النصرانية والتي تمثل صلب الخلاف بين دعوة الإسلام والديانة النصرانية من تثليث، ونسخ، وتحريف، ونبوة محمد ﷺ، ما زالت قائمة حتى هذا اليوم، فما بذله علماؤنا من قبل في دعوة

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٦٤.

النصارى إلى الإسلام زاد ينبغي التزود به، ولا نفرط في الإفادة منه، وهذه الدراسة تجعل بين أيدينا أساليب دعوية يمكن أن نفيد منها ونطبقها في حياتنا الدعوية المعاصرة.

أما الأسباب التي جعلت الباحث يختار هذا الموضوع، ويبرز أهميته، فيمكن تقسيمها إلى قسمين رئيسين: أسباب موضوعية، وأسباب ذاتية.

أولا: الأسباب الموضوعية:

١- أن الصراع بين الإسلام والنصرانية بكل أشكاله سواء أكان عقديا، أم فكريا، أم سياسيا، أم عسكريا...الخ أمر ما زلنا نعيشه، وعلينا - نحن المسلمين - إعداد العدة في جميع المجالات لخوض هذه المعركة بمختلف أنواعها.

٢- أهمية الموضوع ، وجِدَّته حيث لم أجد -حسب اطلاعي المحدود- من تناوله تناولا علميا من الزاوية المنهجية التي عَنونتُ بها بحثي.

٣- أن العالمين اللذين تم اختيارهما ليكونا موضوع البحث يحملان مميزات موضوعية يمكن تلخيصها فيما يلي:-

أ/ ذكرت الدراسات السابقة بأن كلاً من القرافي، وأبي عبد الله القرطبي بالإضافة إلى غيرهما من العلماء مثل: أبي البقاء الجعفري[١]، والإمام ابن تيمية[٢] من أبرز من كتب عن النصرانية في القرنين السادس والسابع

---

(١) صالح بن الحسين الجعفري، أديب، ناظم، متكلم، من تصانيفه تخجيل من حرف الإنجيل توفي سنة ٦٦٨هـ. انظر: حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ص٣٧٩، ط/ مكتبة المثنى بغداد، وعمر كحالة، معجم المؤلفين، ج٥، ص٦، ط/ مكتبة المثنى بيروت.

(٢) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، أحد أشهر أئمة أهل السنة، ولد بحران سنة ٦٦١هـ، وترعرع في بيت علم وفضل، فنبغ منذ صغره في علوم كثيرة حتى أصبح إماما في الأصول والفروع، وله مواقف مشهودة في الرد على أهل البدع والضلال ومجاهدة التتار، توفي في سجنه بدمشق سنة ٧٢٨هـ. انظر: إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ج١٤، ص١٤٩وما بعدها، تحقيق: أحمد عبد الوهاب فتيح، ط١/ دار الحديث، ١٤١٣هـ القاهرة.

الهجريين، وتعد كتبهم حجة في هذا المجال.[١]

ب/ أن الشيخ أبا عبد الله القرطبي-رحمه الله- عاش في الأندلس[٢]في القرن السابع، وهي بلاد كانت الديانة النصرانية هي السائدة فيها قبل الفتح الإسلامي، وقد بقيت ثلة من النصارى على دينها، ولهذا فإن وجود هذا العالم في وسط يعيش فيه النصارى يجعله أعرف بخصائص النصارى النفسية، والدينية، والسلوكية لدعوتهم والرد عليهم.

ج/ أن الصراع بين الإسلام والنصرانية الذي شهدته الأندلس التي كان ينتمي إليها القرطبي كان يسير جنبا إلى جنب مع الصراع العسكري بين الفريقين، وقد تصدى العلماء للجانب الدعوي بكل اقتدار.

د/ أن الإمام القرطبي عالم ومفسر بارع، مكنته قدرته العلمية لإخراج كتاب قيّم في الرد على افتراءات النصارى، وتخرصاتهم، ودعاواهم الباطلة.

هـ/ عاش الإمام أحمد القرافي في القرن السابع الهجري في مصر، وبالإضافة إلى كون مصر من البلاد التي كانت الديانة النصرانية هي السائدة فيها قبيل الفتح الإسلامي، فإن كونها معقل الكنيسة الأرثوذكسية

---

(١) انظر، عبد المجيد الشرفي، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع الهجري، ص١٤-١٥، ط. الدار التونسية للنشر. تونس.

(٢) يطلق لفظ الأندلس على إسبانيا الإسلامية بصفة عامة، وكان في بادئ الأمر يطلق على شبه جزيرة إيبيريا الواقعة في جنوب غرب أوروبا، باعتبار أنها جميعها كانت في يد المسلمين، ثم انحسرت التسمية بانحسار الدولة الإسلامية في المنطقة حتى أصبح في نهاية الأمر يطلق على مملكة غرناطة الصغيرة عندما لم يبق للمسلمين في إسبانيا غيرها، وبعض المراجع تطلق لفظ الجزيرة على الأندلس وهي شبه جزيرة من باب التغليب كما يطلق على شبه جزيرة العرب لفظ جزيرة العرب. انظر: د. أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص١٩، ٢١، ط، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية.

الشرقية يجعل دعوة النصارى الذين يعيشون فيها يكتسب أهمية كبرى، ووجود الشيخ القرافي في هذه البيئة يجعله قادرا على فهم الديانة النصرانية وطقوسها وخبايا كنائسها، ومن ثم كان قادرا على إبراز إنحراف الديانة النصرانية ودعوة أهلها إلى الإسلام.

و/ أن القرافي عالم فقيه مالكي، أصولي، صاحب التصانيف العديدة، ومن بين ما ألفه كتاب (الأجوبة الفاخرة) وهو كتاب أجاب فيه عن الشبهات التي تعمي قلوب النصارى اعتمادا على ما في القرآن من نصوص أساءوا فهمها، وكذلك له كتاب (أدلة الوحدانية) الذي بيّن فيه أحوال مجامعهم، ومخالفاتهم لما جاء في التوراة والإنجيل، وقد فند في هذين الكتابين شبهاتهم وأبان لهم الحق الذي ينبغي أن يسلكوه، والباطل الذي عليهم أن ينبذوه.

ز/ أن العالمين اللذين تم اختيارهما في هذه الدراسة يمتد وجودهما الجغرافي من مصر شرقا إلى الأندلس غربا، فهما عاشا في بيئات مختلفة، وذلك مما يثري الموضوع، حيث تتنوع الأساليب الدعوية وتتعدد جوانبها.

٤- أن دراسة أساليب الدعوة تعد من الجوانب الرئيسة التي يعنى بها قسم الدعوة والاحتساب في كلية الدعوة والإعلام.

٥- أن المسلمين وبخاصة الدعاة منهم ما زالوا بحاجة ماسة لاتباع أسلوب دعوي علمي لدعوة النصارى، ولا يتأتى ذلك إلا بدراسات علمية تضع بين يدي الدعاة منهجا مؤصلا يخدم الدعوة في الواقع المعاصر.

ثانيا: الأسباب الذاتية:

١- لما كان الباحث ينتمي إلى بلد يعيش فيه مسلمون ونصارى، فإن دراسته لأسلوب العلماء في دعوة النصارى تعطيه أرضية علمية خصبة تعينه في دعوة النصارى إلى الإسلام بإذن الله تعالى.

٢- لقد كانت دراسة الباحث في مرحلة الماجستير عن الدعوة الإسلامية في إرتريا، وهو موضوع وصفي لحال الدعوة الإسلامية في إرتريا في حقبة تأريخية معينة، بينما تأتي هذه الدراسة لكشف أسلوب دعوة النصارى عند بعض علماء المسلمين، مما يعطي ذلك الباحث فوائد علمية جديدة لم يسبق له أن اطلع عليها في دراسته السابقة.

❑ الدراسات السابقة:

بعد الاطلاع على فهارس الرسائل الجامعية، ومراجعة مكتبات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وجامعة الملك سعود، ومركز الملك فيصل للدراسات لم يجد الباحث دراسة تناولت أسلوب دعوة النصارى عند العالمين المختارين في هذا البحث، ولكن هناك دراسات لها صلة بجزئية من هذه الدراسة، أو أن هذا البحث يعد امتدادا لها.

ويمكن تقسيم هذه الدراسات إلى قسمين: دراسات جامعية، ودرسات غير جامعية.

أ/ دراسات جامعية:

هناك نوعان من هذه الدراسات وهي: دراسة موضوع معين، ودراسة تحقيق وتعليق.

١- هناك رسالة دكتوراه في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة التونسية بعنوان الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي للباحث الدكتور عبد المجيد الشرفي.

وهذه الدراسة مبنية على أساس أن القرون الأربعة الأولى تمثل الفترة التي تحددت فيها سمات الجدل مع النصارى بصفة شبه نهائية.

وقد بدأ الدارس فيها بعرض المعتقدات النصرانية في تطورها التأريخي في

فترة البحث، ثم أفسح المجال لأصحاب الردود، وأورد ردودهم بنصوصها وألفاظها، والظروف التي كتبت فيها، مع إبراز أغراض الردود الضمنية وأبعادها، كما اهتم بالتنسيق والتبويب، ومدى تحقيق المجادلات لغرضها الذي وضعت من أجله، والبحث عن النتائج المترتبة عليها.

وقد حاول الدارس من خلال منهج التحليل والتركيب الوصول إلى معرفة ما إذا كانت المجادلات متطابقة ومسار الفكر الإسلامي ككل، وإلى إبراز مقاصد المفكرين وبيان أثر النواة الدينية التي يستندون إليها.

وقد قسم الردود في غرضها إلى ردود ذات أغراض جدلية، وردود ذات أغراض تمجيدية، وتمثلت الأغراض الجدلية في التثليث، والتجسيد، والصلب، والفداء، والكتب المقدسة، والديانة النصرانية في ميزان الإسلام، مع مناقشة ذلك كله بالأدلة النقلية والعقلية.

وتمثلت الأغراض التمجيدية في أمية النبي صلى الله عليه وسلم، ومعجزاته، والتبشير به وإعجاز القرآن.

وقد توصل الدارس إلى نتائج منها: دخول عدد متزايد من النصارى في الإسلام من جهة في فترة البحث، وإنشاء ردود من قبل النصارى المتشبثين بدينهم على الإسلام من جهة أخرى. كما توصل الدارس إلى عدم اعتماد المسلمين في ردهم على نصوص القرآن والحديث إلا في نطاق ضيق جدا، واعتمادهم على تأويل نصوص كتب النصارى، وإيراد الأدلة العقلية والمنطقية متى كانت معتمد الخصم، ولم يتم ألبتة إكراه النصارى على الدخول في الإسلام وإن كانت الردود قوية عنيفة.

وهذه الدراسة أفدت منها من حيث إعطائي خلفية لفترة تأريخية سابقة للفترة التي اخترتها لدراسة نماذج من العلماء الذين كان لهم جهد في الرد على النصارى ودعوتهم إلى دين الإسلام.

٢- منهج الرسول ﷺ في دعوة أهل الكتاب، رسالة دكتوراة في كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة لمحمد ولد سيدي ولد حبيب.

وفي هذه الدراسة قام الباحث بدراسة الأحاديث التي خاطبت أهل الكتاب - اليهود والنصارى - واستنبط منها منهج الرسول ﷺ في دعوة أهل الكتاب، وتوصل إلى أن الرسول ﷺ استخدم عدداً من الوسائل في دعوتهم، من المكاتبة وإرسال الرسل، والمصالحة، وكان في أسلوبه الحكمة، والعفو، والحلم، والمعاملة الحسنة لأهل الذمة والوفود، بالإضافة إلى مجاهدتهم بالسيف، وكان لذلك ثمرات منها إسلام عدد كبير منهم.

وهذه الدراسة أفادت الباحث فيما يتعلق بمدى التزام العالمين اللذين تم اختيارهما بالأساليب التي اتبعها الرسول ﷺ في دعوة النصارى.

٣- منهج القرآن الكريم في دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام، رسالة ماجستير في كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للطالب حمود بن أحمد الرحيلي، وقد تحدث فيها عن اليهود والنصارى عامة في البداية، ثم تتبع الآيات التي تناولت أهل الكتاب وذكر حجج القرآن وبراهينه التي دعت الكتابيين إلى الإسلام.

وقد تحدث الباحث في الفصل الثالث عن أساليب القرآن في دعوة أهل الكتاب وتوصل إلى أن القرآن الكريم خاطب أهل الكتاب بالكثير من الأساليب الدعوية، كالترغيب والترهيب، وأسلوب التأنيب، والتهديد، والإنذار. كما أعطى القرآن لهم حقوقا كثيرة لم تعط لغيرهم من أهل الديانات الأخرى. وجادلهم بالتي هي أحسن. كما أظهر الباحث مفردات ما دعت إليه الآيات التي تناولت أهل الكتاب.

وعلى هذا فإن الفصل الثالث له بعض العلاقة ببحثي هذا، وإن كانت طريقة تناوله للأساليب تختلف عن الطريقة التي اتبعتها، فقد جعل من الأساليب التي جاء بها القرآن: موافقة دعوة محمد ﷺ في الأصول لما دعا إليه الأنبياء السابقون، والدعوة إلى ملة إبراهيم، وإبطال مزاعم أهل الكتاب بأنهم على ملة إبراهيم، والدعوة إلى الإيمان بكتب الله ورسله، والدعوة إلى كلمة سواء، وقطع الحجة عليهم بإرسال خاتم الرسل، وأسلوب الترغيب، وتأنيبهم على عدم إسلامهم، والتهديد والإنذار بالعقوبة..وهكذا.

ولهذا فإن المعلومات التي يفاد منها من هذه الدراسة محدودة لاختلاف أسلوب التناول.

٤- الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه في الكتاب والسنة، رسالة ماجستير في كلية التربية قسم الثقافة الإسلامية جامعة الملك سعود بالرياض للباحث خالد بن عبد الله القاسم.

تحدث الباحث في بداية بحثه عن خصائص الإسلام التي تعطي مجالا للحوار مع أهل الديانات الأخرى.

ثم تحدث عن الحرية في الشريعة الإسلامية المانحة حقوق إقامة الحوار مع أهل الديانات، وتحدث أيضا عن أهداف الحوار، ومعنى الحوار، والجدال، والمصطلحات المتقاربة معها. ثم تناول أركان الحوار والشروط التي يجب توفرها في المحاور المسلم والمحاور الكتابي.

وتحدث عن موضوعات الحوار التي حاور فيها القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب مع عرض نماذج لبعض الحوارات بين المسلمين وأهل الكتاب لمعرفة مدى اقتدائهم بالكتاب والسنة.

ثم في النهاية بيَّن مناهج الجدل والحوار مع أهل الكتاب مستنبطا من القرآن الكريم والسنة النبوية وعلماء السلف الصالح، وقد تمثل هذا المنهج في الاستفهام الإنكاري، والقصص القرآني، وضرب الأمثلة، والوعظ والتذكير، والتحدي والمباهلة، والاستدلال باستحالة ما يدّعونه عقلا، وإظهار سوابقهم مع رسلهم، وإثبات أن دعواهم خالية من الحجة والبرهان، والاستدلال بنصوص كتبهم، والاستدلال بلازم كلامهم ، والاستدلال بتحريف كتبهم، وإثبات تناقضهم، وإبطال دعواهم بإثبات نقيضها، والاستدلال عليهم بإظهار التشهي والتحكم.

وكانت من أبرز النتائج التي توصل إليها احتواء القرآن الكريم على أفضل المناهج العقلية في حواره مع أهل الكتاب، ووجوب دعوة أهل الكتاب، واستخدام كافة المناهج العقلية التي تكون حقا في ذاتها، وجواز الاحتجاج بما يسلمون به من

مقدمات لبيان تناقضهم واضطرابهم.

إن الجزء الأخير الذي تناول مناهج الجدل والحوار مع أهل الكتاب المستنبطة من القرآن والسنة النبوية له علاقة بالموضوع المراد دراسته هنا؛ وذلك فيما يتعلق بعرض أسلوب العالمين المختارين هنا بمنهج القرآن الكريم والسنة النبوية حتى يتم التعرف على مدى سلوك العلماء مسلك القرآن والسنة في دعوة أهل الكتاب.

٥- منهج القرطبي في أصول الدين، رسالة ماجستير مقدمة من الطالب/ أحمد عثمان المزيد، إلى قسم العقيدة بكلية أصول الدين، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وفيها ترجمة مفصلة للإمام القرطبي -رحمه الله- ومنهجه في تقرير التوحيد بأنواعه الثلاثة، وفي تقرير أركان الإيمان، وموقفه من الفرق المبتدعة كالصوفية والرافضة والخوارج وغيرهم.

وهذا البحث لا علاقة له ببحثي لأنه لم يتعرض لعقائد النصارى، ولعل ترجمة القرطبي وحياته هي الملتقى بين البحثين، وهذا ليس بأمر أساس.

٦- القرطبي ومنهجه في التفسير، للقصبي محمد زلط، رسالة دكتوراه، مطبوعة بدار الأنصار في القاهرة، وقد تحدث فيها الدارس عن القرطبي وبيئته، ومصادره في التفسير، ومنهجه فيه، والأسس التي قام عليها ذلك المنهج، وبيان القيمة العلمية لتفسيره، وتأثره بالمفسرين الذين سبقوه.

٧- القرطبي مفسرا، رسالة ماجستير مقدمة من الطالب/ علي بن سليمان العبيد، إلى قسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وفيه تحدث الباحث عن ترجمة القرطبي، وسبب تأليفه لتفسيره، وطريقة العرض التي سلكها والكتب التي نقل عنها وشيوخه في التفسير ومنهجه، وتركيزه على آيات الأحكام، واهتمامه بالعقيدة، ومنزلة كتابه العلمية.

٨- القرطبي المفسر سيرة ومنهج، ليوسف عبد الرحمن الفرت، أشار المؤلف إلى أن كتابه دراسة بحثية علمية، وهو مطبوع بدار القلم، في الكويت، وقد تناول فيه حياة القرطبي والمؤثرات البيئية في عصره، والمصادر البارزة في تفسيره، وما فيه

من علوم القرآن.

وواضح أنه لا علاقة أساسية بين هذه البحوث الثلاثة وبحثي سوى في ترجمة الإمام القرطبي وحياته.

٩- منهج أهل السنة والجماعة في الرد على النصرانية، دراسة علمية من خلال جهود الإمام ابن تيمية -رحمه الله- رسالة ماجستير، مطبوعة بمكتبة التربية الإسلامية بالقاهرة، للدارس عبد الراضي بن محمد عبد المحسن، وتحدث فيها عن دوافع ابن تيمية لدراسة النصرانية، ومصادره ومؤلفاته في النصرانية، ومنهجه في دراسة النصرانية، وخصائص منهجه، وآرئه في تبديل دين المسيح -عليه السلام- وحججه في الرد على دعاوى النصارى الرافضة لنبوة محمد ﷺ، وحاول في خاتمة البحث أن يتحدث عن القيمة العلمية لمنهج ابن تيمية، وقارن بين ابن تيمية والقرافي -رحمهما الله- في الهدف والمنهج، والمصادر، والدقة العلمية، في ست صفحات فقط، من صحيفة ٤١٧ إلى صحيفة ٤٢٣، وهذه الجزئية فقط لها علاقة ببحثي هذا، وقد حصر كلامه في الحقيقة على كتاب الأجوبة الفاخرة ولم يتعرض لكتاب الأدلة الوحدانية، ولعله لم يطلع عليه، وعلى كل فدراسته تعنى بجانب مقارنة الأديان، ولا علاقة لها بأساليب دعوة النصارى.

١٠- الإمام شهاب الدين القرافي وأثره في الفقه الإسلامي، رسالة دكتوراه في الفقه المقارن للطالب عبد الله إبراهيم صلاح، قدمها إلى كلية الشريعة بالأزهر، ومطبوعة بمركز دراسات العالم الإسلامي بمالطا، وهي دراسة فقيهة لكتابي الذخيرة والفروق للقرافي، ومقارنة آراؤه الفقهية واختياراته الخاصة، بالإضافة إلى ترجمته وعصره وحياته. وعلاقة هذا البحث ببحثي لا يتجاوز التعريف بالقرافي وعصره.

١١- دراسة وتحقيق كتاب الأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة للقرافي، رسالة ماجستير، في كلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، تحقيق الطالب سالم بن محمد القرني، وقد اكتفى في تحقيقه

بالباب الأول والثاني، وأما البابان الثالث والرابع فلم يدرسهما.

وقد سار المحقق في ذلك وفق قواعد تحقيق المخطوطات من مقابلة بين نسخ المخطوطات ووصفها، وبيان مصادرها، وتصحيح المصحَّف منها، ووضع عناوين جانبية لها ...الخ. والشيء الذي أضافه في تحقيقه أنه تعقب المؤلف فيما لا يوافقه فيه، وأبدى وجهة نظره على بعض الألفاظ التي لا يرى فيها رأي المؤلف.

كما أنه صدّر الكتاب بترجمة عن المؤلف، ومؤلفاته، ومنهجه في كتابه الأجوبة الفاخرة، وسيره فيه، وبواعث تأليفه.

وهذه الدراسة تعين الباحث هنا من حيث إنها تزوده بنص مخدوم تقل فيه نسبة الأخطاء إلى أدنى الدرجات، مما لو كان النص مخطوطا أو محققا تحقيقا تجاريا.

وقد رأيت في دليل الرسائل الجامعية في المملكة العربية السعودية أن الطالب/ ناجي محمد داود سلامة يحقق كتاب الأجوبة الفاخرة، للحصول على درجة الدكتوراه في كلية الشريعة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة[1].

ب/ دراسات غير جامعية:

هذه الدراسات هي من النوع الذي يمكن تصنيفه تحت الجهود التحقيقية الخاصة لبعض المهتمين بالتراث العلمي، ونذكر منها ما يلي:

أ/ تحقيق كتاب الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام، وإثبات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، لأبي عبد الله القرطبي، قدم له وحققه وعلق عليه د. أحمد حجازي السقا.

ب/ تحقيق كتاب الأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة، للإمام شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، حققه: مجدي محمد الشهاوي، وكذلك هناك تحقيق آخر للدكتور بكر زكي عوض، والأخير أوسع وأكثر تعليقا.

---

(١) انظر: د. زيد عبد المحسن الحسين، دليل الرسائل الجامعية في المملكة العربية السعودية، ص٢٧، رقم٤٠٤، ط٢، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.

ج/ تحقيق كتاب أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية للقرافي، حققه عبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية.

وفي هذه التحقيقات قام المحققون بالتقديم للكتاب المحقق من ناحية قيمة الكتاب، وموضوعه، وأسباب تأليفه، وترجمة المؤلف غالبا، وقارنوا بين النسخ التي توفرت لديهم، وعلقوا على النص الأصيل في الهامش بإضافات رأوا أنها تخدم النص الأصيل، وتوضح مبهماته، مع عزو الآيات والأحاديث، وعزو النصوص الأخرى المقتبسة التي وردت في النص الأصيل إلى مصادرها في بعض الأحيان.

وهذه الدراسات ترتبط بهذا البحث من ناحية توفيرها نصاً مخدوما نوعا ما لمصادرها الأصيلة، بحيث يتمكن الباحث من صب جل اهتمامه في استنباط الأسلوب الدعوي الذي سار عليه العالمان في دعوة النصارى.

❑ مشكلة الدراسة والتساؤلات:

تصاغ مشكلة البحث في كثير من الأحيان على شكل سؤال يحتاج إلى إجابة محددة، وفي كثير من الأحيان يكون هذا الأسلوب أنسب لنوعية البحوث التي يجريها بعض الباحثين؛ وذلك لتركيز الاهتمام على موضوع المشكلة[1]، ولهذا تتداخل المشكلة البحثية مع تساؤلات الدراسة؛ لذلك فإن بالإمكان إيراد عدد من التساؤلات لتمثل مجمل التساؤلات مشكلة البحث في الوقت نفسه، ومن هذه التساؤلات التي تحاول هذه الدراسة الإجابة عليها ما يلي:

* ما الأسلوب الذي حدده العلماء المسلمون لأنفسهم في دعوة النصارى إلى الإسلام؟
* ما الأسلوب الذي سارا عليه القرطبي والقرافي في دعوتهما للنصارى؟

---

(١) انظر: د. أحمد بدر، أصول البحث العلمي، ص٨٦، د. أحمد سليمان عواد، ود. فتحي حسن ملكاوي، أساسيات البحث العلمي في التربية والعلوم الإنسانية عناصره ومناهجه، ص٦٠، ط١/ مكتبة المنار، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م، الزرقاء، الأردن.

* ما أوجه الاختلاف بين العالمين المختارين في الأسلوب الذي اتبعاه في دعوة النصارى؟
* ما الخصائص التي تميز بها أسلوب هذين العالمين في دعوة النصارى؟
* كيف يمكن تطبيق الأسلوب الذي اتبعه القرطبي والقرافي قديما في العصر الحاضر؟
* كيف وُفق القرطبي والقرافي في اختيار الأسلوب الأمثل والمناسب للمدعويين من النصارى؟
* ما الدروس الدعوية التي يستفيدها الداعية من أسلوب هذين العالمين في دعوة النصارى؟
* ما الأسباب التي جعلت هذين العالمين يتبعان أسلوبا دون آخر لدعوة النصارى؟
* ما التأثير المباشر وغير المباشر للبيئة التي عاش فيها الإمامان في أسلوب دعوتهما للنصارى .

❑ منهج الدراسة:

تعتمد هذه الدراسة في تحقيق الأهداف الموضوعة لها على أكثر من منهج علمي تتمكن من خلاله -بإذن الله تعالى- الابتعاد قدر الإمكان من الوصول إلى نتائج خاطئة، وهذه المناهج هي:

١- المنهج الاستنباطي:-

الاستنباط هو : «استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن وقوة القريحة»(١) وهو أحد مناهج البحث العلمي «الذي يؤكد صدور النتائج ضرورة عن مقدمات

---

(١) علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، ضبطه وفهرسه: محمد بن عبد الحكيم القاضي، ص٣٩، ط١/ دار الكتاب المصري، ١٤١١هـ-١٩٩١م، القاهرة..

معلومة ما دامت متفقة مع قواعد منطقية معينة هي قواعد التقابل»[١]، ويطلق البعض على هذا المنهج الاستنتاج أو الاستدلال، فقد جاء في تعريف الاستدلال أنه: «عملية ننتقل فيها من قضايا منظورة إليها في ذاتها (بصرف النظر عن صدقها أو كذبها) إلى قضايا أخرى ناتجة عنها بالضرورة، ووفقا لقواعد منطقية صرفة»[٢].

فالباحث يستخدم هذا المنهج لاستنباط الأسلوب الذي سار عليه العالمان في دعوة النصارى من خلال ما بين يديه من تراثهما، وسيكون هذا الاستنباط من القضايا التي عالجها العالمان في دعوتهما للنصارى بطريقة علمية للوصول إلى نتائج جديدة صادرة بالضرورة عن تلك المقدمات؛ لتكون هذه النتائج بمثابة أسلوب القرطبي والقرافي في دعوة النصارى.

٢- المنهج الاستقرائي:-

الاستقراء هو «الانتقال من قضايا جزئية تشير إلى وقائع أو ظواهر، وتعتبر مقدمة إلى قضية عامة، ويمكن اعتبارها نتيجة تشير إلى ما سوف يحدث»[٣].

ويشير علماء البحث العلمي إلى وجود التداخل والترابط بين الاستقراء والاستنباط؛ لأن الاستنباط أو الاستدلال إذا كان من أكثر من قضيتين يُسمى (أي الاستدلال) استقراء، فالاستقراء لا يمكن أن يستغني عن الاستنباط، مما يجعل الأمرين يسيران معا[٤].

---

(١) د. جلال محمد موسى، منهج البحث العلمي عند العرب، ص.٣٤، ط.١، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٢م.

(٢) د. عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، ص.٨٣، ط، وكالة المطبوعات، ١٩٧٧م، الكويت.

(٣) د. حنان عيسى سلطان، ود. غانم العبيدي، أساسيات البحث العلمي بين النظرية والتطبيق، ص.١٦، ط. دار العلوم، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م الرياض.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ص.١٦-١٩.

والباحث هنا سيقوم باستقراء بيانات المصادر والمراجع التي لها علاقة بالجانب الدعوي، والتي خلفها هذان العالمان جزءاً جزءاً، ثم يدرس العلاقات التي بينها، وينظمها حتى يصل من خلالها إلى استنتاج نتائج جديدة تمثل أسلوب القرطبي والقرافي في دعوة النصارى.

٣- منهج المقارنة:-

منهج المقارنة هو نوع من التجريب غير المباشر، وهو أحد المناهج الرئيسة المستخدمة في العلوم الاجتماعية، وعن طريق المقارنة يمكن كشف ارتباطات حالات توجد فيها ظاهرة معينة، وحالات أخرى لا تتحقق فيها الظاهرة(١).

ويمكن للباحث هنا أن يستفيد من هذا المنهج في مقارنة أسلوب العالمين المختارين بعضهما ببعض؛ حتى يتمكن من معرفة خصائص أسلوب كل واحد منهما، ومدى توافقها، وتباينها.

هذه هي المناهج الأساس التي تعتمد عليها هذه الدراسة.

أما الخطوات التفصيلية الأخرى فقد اتبع الباحث فيها الأساليب المعتبرة في علوم مناهج البحث، ومن ذلك:

- عزو الآيات القرآنية إلى سورها، وأرقامها.
- تخريج الأحاديث النبوية من مصادرها الأصيلة، والحكم عليها بناء على أقوال أهل العلم والاختصاص في هذا المجال.
- ترجمة أغلب الأعلام الذين ورد ذكرهم في أصل الدراسة.
- عزو نصوص (الكتاب المقدس) إلى مكانه في التراجم الحديثة، والإشارة إلى الاختلاف الموجود بين ما أورده العالمان، وبين الترجمة الحديثة المتداولة في هذا العصر.

---

(١) انظر: د. حسين عبد الحميد أحمد رشوان، العلم والبحث العلمي، دراسة في مناهج العلوم، ص.١٥٠، ط.٤/ المكتب الجامعي الحديث، ١٩٨٩م.

❐ مصادر الدراسة:

هناك مصادر أساس لهذا البحث تتمثل في الكتب التالية:

١- الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام للإمام أبي عبد الله القرطبي، تحقيق وتقديم وتعليق الدكتور/ أحمد حجازي السقا.

هذا الكتاب ألفه صاحبه ردا على كتاب بعث به أحد النصارى من طليطلة، إلى قرطبة سماه «تثليث الوحدانية في معرفة الله».

والإمام القرطبي فند كل ما جاء في كتاب النصراني هذا ورد عليه وعلى غيره من كتب القوم التي كانت متداولة في عصره من خلال كتابه الإعلام الذي اشتمل على أربعة أبواب.

فقد جعل الباب الأول في بيان مذاهب النصارى في الأقانيم وإبطال قولهم فيها، وذكر قولهم في تعليل التثليث، وأدلتهم ورد عليها.

والباب الثاني في بيان مذاهب النصارى في الاتحاد والحلول وكيفية تجسد المسيح، مع حكاية كلام المتقدمين منهم والمتأخرين، والرد عليهم جميعا، وفي خاتمة هذا الباب ذكر مذهب أحد علماء النصارى ونقده نقدا شديدا.

أما الباب الثالث فكان في النبوات، وذكر كلام النصارى فيها، وأمر المسيح المنتظر، وبين الحق فيها، وحاول إثبات ذكر محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل رغم تحريفها، كما تحدث في هذا الباب عن معنى النبوة، والمعجزة، وبين معجزات عيسى عليه السلام ودلالاتها.

واستدل على ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بإخبار الأنبياء به قبله، وبقرائن أحواله، وبما جاء في القرآن الكريم، وبالمعجزات التي أجريت على يديه.

أما في الباب الرابع فقد أبان أن النصارى متحكمون في أديانهم وأنهم لا مستند لهم في أحكامهم إلا محض أغراضهم وأهوائهم ، وهم قد خرجوا على تعاليم التوراة ، وذكر أسرار الكنيسة والطقوس النصرانية.

كما ذكر في هذا الباب عقائد الإسلام وأصول أحكامه، ورد فيه على شبه النصارى حول الإسلام.

٢- الأجوبة الفاخرة في الرد عن الأسئلة الفاجرة، للقرافي.

نشر هذا الكتاب أول ما نشر كاملا دون تحقيق على هامش كتاب الفارق بين المخلوق والخالق، لعبد الرحمن الباجي، وظهر فيما بعد أكثر من تحقيق للكتاب، وقد حُقق جزء منه علميا كما سبقت الإشارة إلى ذلك في فقرة الدراسات السابقة من هذه المقدمة.

وهذا الكتاب تم تأليفه ردا على أسئلة أنشأها بعض النصارى مشيرا أن غيره هو القائل، وأنه هو السائل، مشتملة على الاحتجاج بالقرآن الكريم على صحة مذهب النصرانية.

وقد جاء كتاب القرافي في أربعة أبواب، الباب الأول في بيان ما التبس على السائل من القرآن الكريم متتبعا فيه رسالته حرفا حرفا إلى آخرها.

والباب الثاني في أسئلة لأهل الكتاب (النصارى واليهود) من عادتهم الولع بإيرادها - غير أسئلة الرسالة المذكورة - والجواب عنها، وذلك من أجل أن يحيط من قرأ كتاب الأجوبة الفاخرة بجميع ما يسأل عنه أهل الكتاب وأجوبته الحقيقية الدقيقة.

أما الباب الثالث ففي معارضة أسئلة النصارى بمائة سؤال يتعذر على الفريقين من أهل الكتاب الجواب عنها.

أما الباب الرابع وهو الأخير: فهو في إبداء ما في كتبهم مما يدل على صحة الدين الإسلامي وإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، بحيث يكون استدلالهم الباطل معارضا بالاستدلال الصحيح.

٣- أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية، للقرافي، تحقيق عبد الرحمن محمد سعيد دمشقية.

هذا الكتاب إهداء من الإمام القرافي -رحمه الله- للسلطان المملوكي الناصر

لدين الله[1] وقد رأى القرافي أن أولى ما تصرف إليه الهمم الذب عن حوزة الدين، وحراسة بيضة المسلمين بالبحث في الملل والأديان، وإقامة الدليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى.

فجاء هذا الكتاب الذي جمع فيه مذاهبهم، وخاطبهم بفصوص نصوصهم، وجادلهم مجادلة الأقران.

وقد قسم الكتاب إلى أربعة أصول:

الأصل الأول في حكاية مذهب النصارى على جليته، وكيف استدلوا ـ بزعمهم ـ على صحته من المنقول، واعتقاد كل فريق منهم في الإله عن طريق المعقول، وسبب وضعهم للأمانة [ما صدر عن مجمعهم الأول من مبادئ وقرارات] وحكاية مذاهبهم العشرة، وكيف كفّر بعضهم بعضا ولعن بعضهم بعضا، وكيف ارتكبوا في هذه المجامع الضلالات، ووقعوا في حيرة في معرفة خالقهم.

أما الأصل الثاني فهو في الرد عليهم، وفيه كشف أسرارهم، وبيان ارتكابهم المستحيل ومخالفتهم لما جاء في التوراة والإنجيل.

والأصل الثالث في بيان غلط النقلة للأناجيل وبيان تناقضها.

والأصل الرابع والأخير في ذكر النبي الأمي في الإنجيل كما أخبر عنه في القرآن الكريم.

هذه هي المصادر الأساس التي تعتمد عليها هذه الدراسة بالإضافة إلى مصادر ومراجع أخرى مذكورة في فهرس المصادر والمراجع.

---

(١) هو الكامل محمد بن محمد العادل ابن أيوب، أحد ملوك بني أيوب، ولد بمصر سنة ٥٧٦هـ ولي الديار المصرية في عهد والده، وتولاها مستقلا بعد وفاة والده سنة ٦١٥هـ، وكان يحب مجالس العلم والعلماء، ويباحثهم، وشهد عهده نوعا من الأمن والازدهار في شتى المجالات، توفي بدمشق سنة ٦٣٦هـ. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٧١، والصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص١٩٣، والزركلي، الأعلام، ج٧، ص٢٩.

❑ الصعوبات:

بحمد الله تعالى لم تواجه الباحث صعوبات تذكر سواء من ناحية المصادر والمراجع، أم من ناحية تعطيل البحث، أو تأخيره، وإن وجدت فهي صعوبات يمكن أن تواجه أي باحث يرجو أن يصل ببحثه إلى ما هو أفضل وأحسن، ومن ذلك أني كنت أود أن أطلع على كتاب: أعز ما يطب للمهدي ابن تومرت، ولكني لم أستطع الاطلاع عليه، بالرغم من عثوري على ذكر له في فهرس مكتبة الملك عبد العزيز، ومكتبة جامعة الملك سعود بالرياض إلا أن أمناء المكتبة لم يتمكنوا من العثور عليه، وهو على كل حال ليس مرجعا أساسا في البحث.

❑ تقسيم البحث:

يتكون هذا البحث من مقدمة وسبعة فصول، وخاتمة، وفهارس.

أما المقدمة : فتشتمل على: التعريف بمفردات موضوع الدراسة، أهداف الدراسة، أهمية الموضوع وأسباب اختياره، الدراسات السابقة، المشكلة البحثية، تساؤلات الباحث، منهج البحث، مصادر البحث، الصعوبات، تقسيم البحث، الشكر والعرفان.

وأما الفصل الأول : فهو مدخل عام يتحدث عن عالمية الدعوة الإسلامية وواجب الدعاة حيالها، وفيه تعريف بالنصارى وفرقهم، وترجمة الإمامين القرطبي والقرافي بشيء من التفصيل، بالإضافة إلى مصادر الدراسة.

وأما الفصل الثاني: فيتناول البيئة السياسية والاجتماعية والدينية والصراع الدعوي بين المسلمين والنصارى في عصر القرطبي، كما يتناول الآثار الإيجابية والسلبية لهذه البيئة على أسلوب القرطبي في دعوة النصارى.

وأما الفصل الثالث: ففيه الحديث عن أنواع أسلوب الاستدلال بالمنقول والمعقول و أنواع الأساليب العاطفية والفنية وقيمتها في دعوة النصارى إلى الإسلام عند القرطبي.

وأما الفصل الرابع: فقد تناول البيئة السياسية والاجتماعية والدينية والصراع الدعوي بين المسلمين والنصارى في عصر القرافي، كما يتناول الآثار

الإيجابية والسلبية لهذه البيئة على أسلوب القرافي في دعوة النصارى.

وأما الفصل الخامس: فالحديث فيه عن أنواع أسلوب الاستدلال بالمنقول، والمعقول، وأنواع الأساليب العاطفية والفنية وقيمتها في دعوة النصارى إلى الإسلام عند القرافي.

وأما الفصل السادس: فقد تم عقده للمقارنة بين سمات أسلوب القرطبي والقرافي في دعوة النصارى إلى الإسلام مع بيان أبرز وجوه الاتفاق والاختلاف بين أسلوبيهما.

وأما الفصل السابع: فهو تقويم لأسلوب الإمامين، وفيه تمهيد مختصر عن ضوابط التقويم، ثم تناول نتائج التقويم والدروس الدعوية المستخلصة من أسلوب الإمامين في دعوة النصارى إلى الإسلام.

وأما الخاتمة: فقد اشتملت على ملخص البحث، و أهم النتائج، والتوصيات.

وفي الختام جاءت الفهارس التي حوت فهرسا للآيات، وفهرسا للأحاديث، وفهرسا للأعلام، وفهرسا للمراجع، وفهرسا للموضوعات.

❑ الشكر والعرفان:

وفي الختام لا يسعني إلا أن أشكر الله -سبحانه وتعالى- قبل كل شيء على ما منّ به عليّ من دراسة هذا الموضوع، ووفقني في إتمامه، وأسأله أن يكون خالصا لوجهه الكريم.

واتباعا لقوله ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[1] أجدني مسرورا أن أشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ممثلة في كلية الدعوة والإعلام،

---

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب٣٥، باب شكر المعروف١٢ حديث رقم٤٨١١، ج٥، ص١٥٧، والترمذي، كتاب البر والصلة٢٨، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك٣٤، حديث رقم١٩٥٤، وقال حديث حسن صحيح. وجاء بلفظ، «من لا يشكر الناس لا يشكر الله» وقد صححه الألباني، في صحيح سنن أبي داود، ج٣، ص٩١٣، حديث رقم٤٠٢٦. وفي صحيح سنن الترمذي، ج٢، ص١٨٥، رقم الحديث١٥٩٢، ط١/ المكتب الإسلامي، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م بيروت.

بعمدائها السابقين، وعميدها الحالي، ووكلائها على إتاحتهم لي فرصة مواصلة التعليم العالي، فلهم مني الشكر أجزله، ومن الله سبحانه وتعالى الأجر والمثوبة آمين.

ولا يفوتني أن أشكر كل الأساتذة الذين أسهموا في هذا البحث بالتوجيه والإرشاد عندما كان مخططا يُدرس في مجلس الكلية ومجلس القسم، وفي فترة البحث كلها، وأشكر فضيلة الأستاذ الدكتور/ زاهر بن عواض الألمعي الذي قبل الإشراف على هذا البحث، وفتح لي قلبه، ثم منزله واستقبلني فيه على الرحب والسعة طوال مدة البحث التي امتدت أربع سنوات، ومتعني بتوجيهاته السديدة وآرائه المفيدة التي أخرجت هذا البحث بهذا الشكل، وأشكر سلفا المناقشين الكريمين اللذين قبلا مناقشة هذا البحث وتقويمه.

وهذا البحث إنما هو جهد بشري قاصر، فما كان فيه من التوفيق والسداد فمن الله سبحانه وتعالى، وما كان فيه من زلات فمني ومن الشيطان، وأسأل الله أن يعفو عني ويقيل عثرتي إنه جواد كريم، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول

مدخل عام

المبحث الأول: عالمية الدعوة الإسلامية وواجب الدعاة نحوها.
المبحث الثاني: تعريف بالنصارى وفرقهم.
المبحث الثالث: ترجمة الإمامين القرطبي والقرافي.
المبحث الرابع: مصادر الدراسة.

المبحث الأول

عالمية الدعوة الإسلامية وواجب الدعاة حيالها

ما كان الله العزيز الحكيم ليذر عباده سدى يتيهون في خضم الجهالات والكفر والإلحاد، بل كان الله بعباده رؤوفا رحيما، فبعث إلى جميع أمم الأرض رسلا مبشرين ومنذرين تترى ، يبينون للناس سبل الهدى والرشاد، ويهدونهم إلى الصراط المستقيم؛ ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، ويقودوهم إلى سعادة الدارين.

لقد منّ الله على أمم الأرض فخص كل أمة برسول من أنفسهم يتكلم بلغتهم ويفهم طبعهم وطبيعة حياتهم، قال تعالى: ﴿**وإن من أمة إلا خلا فيها نذير**﴾[1]، وقال: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم**﴾[2]، فانقطعت الحجة عن الناس، ولزمهم الانقياد بما جاءت به الرسل، فإن تولوا فجزاؤهم جهنم يصلونها، قال تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**﴾[3]، وقال: ﴿**رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**﴾[4].

ثم ختم الله سبحانه وتعالى رسالاته برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وجعلها رسالة متميزة، ومنفردة بخصائص لم تكن للرسالات السابقة، ومن هذه الخصائص خصيصة العالمية، إذ «ليس من الحكمة أن تختم هداية الله للبشر برسالة خاصة بزمن معين أو طائفة مخصوصة، وإلا فمن الذي يرشد الإنسانية بعد هذه الفترة المعينة من التاريخ؟ وأي هدى ينظم لها حياتها المستقبلة؟ والله أرحم

---

(١) سورة فاطر، آية: ٢٤.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٤.

(٣) سورة الإسراء، آية:١٥.

(٤) سورة النساء، آية١٦٥.

بعباده أن يتركهم سدى»[١]

والمقصود بعالمية الدعوة الإسلامية أن تكون متخطية للحواجز التي تعارف عليها الناس من العصبية القومية، أو العرقية، أو الجنسية، أو غيرها من الحدود الزمانية والمكانية، بل الدعوة الإسلامية هي دعوة موجهة إلى بني الإنسان من حيث كونهم بشرا بقطع النظر عن العوامل والفوارق العارضة التي لا تدخل في حقيقة بشرية البشر، فهي تخاطب فطرة البشر التي فطروا عليها، وهي بذلك دعوة الفطرة، قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[٢]، فالناس أجمعون بعد رسالة محمد ﷺ ملزمون باتباع دعوة الإسلام، وهي صالحة للتطبيق في أي إقليم، أو بيئة أو زمن. أي أنها لا تعترف بالحدود المكانية والزمانية، بل تستمر خالدة بعد العصر الذي بدأت فيه، والناس كلهم مهما اختلفت أجناسهم، وألوانهم، ولغاتهم يطيقون تطبيقها في أنفسهم، فهي لا تفوق قدرة البشر بحيث يجدون العنت من اتباعها، بل ما أسهلها وأيسرها لمن وفقه الله في اعتناقها[٣].

ولا ريب أن الله تعالى عندما خص هذه الدعوة بميزة العالمية فإنه سبحانه وتعالى جعلها تشتمل في ذاتها على خصائص تجعل هذا الدين عالميا صالحا للناس جميعا في كل زمان ومكان، وهذه الخصائص التي ينهض بها الإسلام ويقوم بها حق القيام ويوفي بها تتمثل في النقاط التالية:

١- «وفاؤه بحاجة الإنسانية جميعا فيما يصون وحدتها ويرعى إنسانيتها

---

(١) عطية صقر، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ص٦٩، ط١/ مؤسسة الصباح للنشر والتوزيع، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

(٢) سورة الروم، آية: ٣٠.

(٣) انظر: عطية صقر، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ص٣٤، وسليمان الخطيب، أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، ص٢٠٨، ط١، الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٦هـ وإبراهيم عوضين، الإسلام والإنسان، ص٢٨٣، الكتاب السابع والعشرون، ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م.

ويحمي أفرادها في العاجل والآجل.

٢- تشريعاته التي تضمن قيام الإنسانية كلها في محيط واحد لا تنزع معه إلى عصبية دم أو اختلاف لون أو فرقة جنس.

٣- اتساقه مع حقائق الكون، وخصائص الوجود بحيث لا يتعارض مع ما يثبت من حقائق العلم أو يختلف مع منطق الفكر»[1].

٤- حفظ الله تعالى لمصدر تشريعات الإسلام بحيث لا يدخل عليها تحريفات البشر القاصرة.

وعقيدة المؤمن فيما يتعلق بعالمية الرسالة المحمدية عقيدة راسخة وهي من المعلوم من دين الإسلام بالضرورة، وإنكار ذلك أو الشك فيه يخرج من ملة الإسلام، يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: «إن الذي يدين به المسلمون أن محمدا صلى الله عليه وسلم بعث رسولا إلى الثقلين الإنس والجن، أهل الكتاب وغيرهم، وأن من لم يؤمن به فهو كافر مستحق لعذاب الله، مستحق للجهاد، وهو مما أجمع أهل الإيمان بالله ورسوله عليه»[2] والأدلة على ذلك كثيرة من القرآن، والسنة قولا وعملا.

*** أدلة عالمية الدعوة الإسلامية من القرآن:**

وردت آيات عديدة تشير بوضوح تام إلى عالمية رسالة الإسلام، منها المكي، ومنها المدني، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿**قل أي شيء أكبر شهادة، قل الله شهيد بيني وبينكم ، وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ**﴾[3]. «أي أوحي إليّ هذا القرآن الذي تلوته عليكم لأجل أن أنذركم به، وأنذر به من بلغ إليه... من موجود ومعدوم سيوجد في الأزمنة المستقبلة، وفي هذه الآية من

(١) محمد الراوي، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ص٥٦.

(٢) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج١، ص٣٦٨، تحقيق: د. علي بن حسن ابن ناصر، ود. عبد العزيز بن إبراهيم العسكر، ود. حمدان بن محمد الحمدان، ط١/ دار العاصمة، ١٤١٤هـ الرياض.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٩.

الدلالة على شمول أحكام القرآن لمن سيوجد كشمولها لمن كان موجودا وقت النزول»[1] وقال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض...الآية﴾[2]، وهذا أمر من عند الله إلى رسوله محمد ﷺ أن يبلغ الناس جميعا بأنه رسول إليهم أبيضهم وأسودهم، عربهم وعجمهم، وقد علق صاحب الظلال على هذه الآية بقوله: «إنها الرسالة الأخيرة، فهي الرسالة الشاملة التي لا تختص بقوم ولا أرض ولا جيل، ولقد كانت الرسالات قبلها رسالات محلية قومية محدودة،... حتى إذا جاءت الرسالة الأخيرة جاءت كاملة في أصولها، قابلة للتطبيق المتجدد في فروعها، وجاءت للبشرية جميعا... وجاءت وفق الفطرة الإنسانية التي يلتقي عندها الناس جميعا»[3]، وقال تعالى في مطلع سورة الفرقان: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾[4].
وقد أخرس القرآن بهذه الآية أولئك الذي حاولوا التشكيك في عالمية الدعوة الإسلامية، وادعوا بأن فكرة نشر الإسلام خارج الأمة العربية لم تكن موجودة في العهد المكي، وهذه الآية المكية تبين بوضوح بأن العالمية ارتبطت بالدعوة الإسلامية منذ نشأتها، وكلمة العالمين في الآية تشير إلى أن الرسالة تشمل الثقلين الجن والإنس[5].

وهناك آيات قرآنية أخرى تؤكد عالمية الدعوة الإسلامية وذلك كقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[6]، وقوله تعالى ﴿وما أرسلناك إلا كافة

---

(١) محمد علي الشوكاني، فتح القدير، ج٢، ص١٠٥، ط/ دار الفكر، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣، بيروت.

(٢) سورة الأعراف آية: ١٥٨.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٣، ص١٣٧٩، ط١٢، دار الشروق، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م بيروت.

(٤) سورة الفرقان، آية: ١.

(٥) انظر: محمد الشوكاني، فتح القدير، ج٤، ص٦٠، وسيد قطب في ظلال القرآن، ج٥، ص٢٥٤٨.

(٦) سورة الأنبياء آية: ١٠٧.

للناس بشيرا ونذيرا﴾[١] وفي شأن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾[٢] ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾[٣].

• **أدلة عالمية الدعوة الإسلامية من السنة القولية:**

بيّن المصطفى عليه الصلاة والسلام عموم رسالته وعالميتها بأقوال صريحة لا تقبل التأويل، كما صرح بأن العالمية في رسالته هي إحدى الخصائص التي اختصت بها عن بقية الرسالات التي سبقته، قال صلى الله عليه وسلم: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة»[٤]. وهذا الحديث يؤكد الامتداد البشري للدعوة الإسلامية، ومما يؤكد الامتداد الجغرافي لعالمية الدعوة الإسلامية وأنها تشمل بقاع الأرض كلها ولا تنحصر في إطار الجزيرة العربية جغرافيا ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قد مات كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتُنفقَن كنوزهما في سبيل الله»[٥]، وفي حديث آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ

---

(١) سورة سبأ آية ٢٨.

(٢) سورة ص آية: ٧٨، وسورة التكوير، آية: ٢٧.

(٣) سورة القلم، آية٥٢.

(٤) البخاري، صحيح البخاري / كتاب الصلاة٨، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهور٥٦١، ج١، ص١١٣، ط/ الطبعة التركية، استانبول. ودار سحنون، تونس.

(٥) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة٥٢، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء١٨، حديث رقم٢٩١٨، ج٤، ص٢٢٣٦-٢٢٣٧.

ملكها ما زُوي لي منها، وأُعطيت الكنزين الأحمر والأبيض...»[١]، وأيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنكم ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما، أو قال: (ذمة وصهرا)، فإذارأيت رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة فاخرج منها»[٢]

في هذه الأحاديث أبان رسول الله ﷺ أن الإسلام سيغطي أرض الشام وفارس التي كان يحكمها كل من قيصر، وكسرى، كما أشار إلى أن الإسلام سيمتد شرقا وغربا مطلقا، وذكر أرض مصر صراحة، وهذه نبوءة قالها محمد صلى الله عليه وسلم وتحققت بعد وفاته، فقد انتشر الإسلام في بلاد فارس وأرض الشام، ومصر وغيرها من بلاد العالم، وهذه الأحاديث بجانب كونها بشرى لصحابته بأنهم سيفتحون مشارق الأرض ومغاربها فإنها في الوقت نفسه تشير إلى أن الإسلام ليس خاصا بقوم أو أرض ما، وأن على الصحابة ومن بعدهم العمل على إيصال الإسلام إلى مشارق الأرض ومغاربها، فما كان لنبي أن يعد بفتح البلاد ويتعد الحدود إن كان يعلم أن حدود رسالته لا تتجاوز العرب وجزيرتهم.

ولعله من المناسب أن نختم هذه الأحاديث بما له علاقة بالنصارى الذين يعنى هذا البحث بهم، فقد صرح خاتم النبيين بأن رسالته شاملة لهم وتعنيهم كغيرهم من الناس، ولا خيار لهم في اتباع الدين الذي جاء به، فقد أقسم عليه الصلاة والسلام على استحقاق اليهود والنصارى النار إن أعرضوا عن تقبل دعوة الإسلام، وتنكبوا عن مناصرة النبي الأمي الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فقال: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن

---

(١) المصدر السابق، كتاب الفتن٥٢، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض٥، رقم الحديث٢٨٨٩، ج٤،ص٢٢١٥.

(٢) المصدر السابق، كتاب فضائل الصحابة٤٤، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر٥٦، رقم الحديث٢٥٤٣، ج٤،ص١٩٧٠.

بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[١].

• أدلة عالمية الدعوة الإسلامية من السنة العملية:

أيد المصطفى ﷺ أقواله بخطوات عملية ترسخ مبدأ عالمية الدعوة الإسلامية، فكان من أوائل الذين أسلموا في مكة بجانب من أسلم من العرب بلال الحبشي[٢]، وصهيب الرومي[٣]، فلم يكن لون هذا أو عرق ذاك مانعا من الدخول في الإسلام، ولم تختلف نظرة الرسول ﷺ في دعوة كل من بلال الحبشي وصهيب الرومي الغريبين في مكة عن دعوة أبي بكر الصديق[٤] أو عمر بن الخطاب[٥] -رضي الله عنهم-، وقد آمن أيضا في العهد المكي النجاشي[٦] ملك الحبشة وهو خارج حدود

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان١، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأنه إلى جميع الناس.٧٠، رقم الحديث.١٥٣، ج١، ص١٣٤.

(٢) بلال بن رباح الحبشي المؤذن، وأمه حمامة، اشتراه أبوبكر الصديق وأعتقه، شهد المشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم، مات بالشام عام ٢٠هـ، انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، ج١، ص١٦٥، ط١، مطبعة السعادة ١٣٢٨هـ.

(٣) صهيب بن سنان بن مالك، قيل أن الروم سبوه وهرب منهم، أسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم، وشهد المشاهد معه، توفي سنة ٣٨هـ وهو ابن سبعين. انظر المصدر نفسه، ج٢، ص١٩٥-١٩٦.

(٤) أبو بكر الصديق عبد الله بن عثمان القرشي، صاحب رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها، ورفيقه في الهجرة، شهد المشاهد كلها معه، وهو أول الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة توفي سنة١٣هـ. المصدر نفسه، ج٢، ص٣٤١-٣٤٢.

(٥) عمر بن الخطاب القرشي العدوي، ثاني الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ولد قبل البعثة بثلاثين سنة، وكان إسلامه فتحا على المسلمين، الإصابة، ج٢، ص٥١٨.

(٦) هو أصحمة بن أبجر النجاشي ملك الحبشة، أسلم على عهد رسول ﷺ ولم يهاجر إليه، وكان ردءا للمسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة، المصدر نفسه، ج١، ص١٠٩.

الجزيرة العربية، فقد ثبت عن النبي ﷺ: «أنه نعى النجاشي يوم توفي وقال: استغفروا لأخيكم، ثم خرج بالناس إلى المصلى فصفوا وراءه وصلى عليه وكبر أربع تكبيرات»[١]، فهذه دلائل وبراهين واضحة تبين أن مبدأ العالمية في نشر الإسلام قد بدأ منذ فجر بعثة محمد ﷺ ولم يكن كما ادعى بعض المستشرقين وحاولوا أن يثبتوا أن الدعوة الإسلامية كانت محلية في الأصل ثم طمحت بعد اتساع رقعة الفتوح أن تأخذ الصبغة العالمية بجهود الخلفاء الذين جاءوا من بعد رسول الله ﷺ بل كانت عالمية والرسول يُصد بالتكذيب والمقاومة في مكة[٢].

وعندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة كان من أوائل الذي آمنوا به سلمان الفارسي[٣]، ووجد النبي ﷺ اليهود فيها وفيما جاورها من القرى، فدعاهم إلى الإسلام، فأسلم من أسلم، وعاهد منهم من عاهد، ثم قاتل منهم من استحق القتال، فقد قال رسول الله ﷺ لعلي ابن أبي طالب[٤] -رضي الله عنه- يوم خيبر عندما قال: «...نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب٦٣، باب موت النجاشي٣٨، ج٤، ص٢٤٦، ومسلم في كتاب الجنائز١١، باب في التكبير على الجنازة٢٢، رقم الحديث٩٥١ ج٢، ص٦٥٧، بنحوه.

(٢) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٥، ص٤٥٤٨، وعباس محمود العقاد، الإسلام دعوة عالمية، ص١٢٧ وما بعدها، ط/ المكتبة العصرية، بيروت

(٣) سلمان الفارسي، أبو عبد الله، قيل أصله من أصبهان، كانت أول مشاهده الخندق؛ لانشغاله بالرق، وشهد المشاهد بعدها، قيل توفي سنة ست وثلاثين، ابن حجر، الإصابة، ج٢،ص٦٢-٦٣.

(٤) علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن عم النبي ﷺ، ولد قبل البعثة بعشر سنين، شهد المشاهد كلها إلا غزوة تبوك تخلف عنها بأمر من النبي ﷺ ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الخلفاء الراشدين، توفي سنة ٤٠هـ، انظر: المصدر نفسه، ج٢، ص٥٠٧-٥١٠.

إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فو الله لأن يهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم»[١].

وكان رسول الله ﷺ قد بدأ منذ السنة السادسة للهجرة في بعث الرسائل إلى أمراء وملوك عصره النصارى منهم والمجوس، يدعوهم فيها إلى الإسلام ويبشرهم بالسلامة إن أسلموا وينذرهم من عقاب الله إن هم تولوا وأعرضوا، فأرسل دحية بن خليفة الكلبي[٢] إلى قيصر ملك الروم، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي[٣] إلى كسرى ملك فارس، وبعث عمرو بن أمية الضمري[٤] إلى النجاشي ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي بلتعة[٥] إلى المقوقس ملك الإسكندرية، وبعث في السنة الثامنة عمرو بن العاص السهمي[٦] إلى جيفر وعباد ابني الجلندي الأزديين[٧] ملكي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد٥٦، باب دعاء النبي إلى الإسلام،١٠٢، ج٤، ص٥.

(٢) دحية بن خليفة الكلبي، قيل أن أول مشاهده أحد، وكان حسن الصورة، وكان جبريل ينزل على صورته، توفي في خلافة معاوية انظر: ابن حجر، الإصابة، ج١، ص٤٧٤.

(٣) عبد الله بن حذافة السهمي، هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة، وشهد بدرا وغيرها، توفي في خلافة عثمان بن عفان. انظر: المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩٦.

(٤) عمرو بن أمية الضمري، أسلم حين انصرف المشركون من أحد، وكان أشد العرب جرأة وشجاعة، مات في خلافة معاوية، انظر: المصدر نفسه، ج٢، ص٥٢٤.

(٥) حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، أسلم قديما، وشهد بدرا وغيرها، فيه نزلت أول سورة الممتحنة، توفي سنة ٣٠هـ انظر: المصدر نفسه، ج١، ص٣٠٠.

(٦) عمرو بن العاص بن وائل القرشي السهمي، أسلم قبل الفتح سنة ٨هـ تولى غزوة ذات السلاسل، قاد الفاتحين إلى مصر وتولاها، مات سنة٤٣، عن عمر دام ٩٠ سنة، انظر: المصدر نفسه، ج٣، ص٢-٣.

(٧) جيفر وأخيه أسلما على يد عمرو بن العاص ولم يريا النبي ﷺ انظر: المصدر نفسه، ج١،ص٢٦٤.

عمان،... كما بعث غير ذلك من الكتب إلى اليمامة، والبحرين واليمن[1].

والملاحظ أن هذه الكتب شملت النصارى والمشركين والمجوس من العرب والروم والحبش، والفرس، ومن كان تحتهم من الأجناس الأخرى، وقد جاء في الكتاب الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيصر عظيم الروم النصراني ما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الإريسيين (الفلاحين) و﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾»[2].

أما الكتاب الذي أرسله إلى كسرى بن هرمز ملك الفرس فقد حمل ما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، فإن تسلِم تسلَم، وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك»[3]، وقد أساء كسرى هذا الاستقبال لكتاب رسول الله ﷺ، فمزقه، فدعا عليه رسول الله أن يمزق كل ممزق، فقد جاء في حديث صحيح: «أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين يدفعه عظيم

(١) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق/ د. محمد خليل هراس، ج٤، ص٣٦٠، ط/ مكتبة الجمهورية.محمد بن سعد البصري/ ابن سعد /، الطبقات الكبرى، ج١، ص٢٥٨ وما بعدها، ط١/ دار بيروت، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، بيروت.

(٢) الآية في سورة آل عمران، آية٦٤، والحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي١، باب٦، ج١، ص٦. وكتاب الجهاد٦٥، باب دعاء النبي إلى الإسلام١٠٢، ج٤، ص٢-٥.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، ص٢٦٤.

البحرين إلى كسرى، فلما قرأه خرّقه، فحسبت أن سعيد بن المسيب[1] قال: فدعا عليهم النبي ﷺ أن يمزقوا كل ممزق»[2].

إذن فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحرك عمليا نحو نشر الإسلام عالميا بغض النظر عن لغة المدعو أو لونه أو جنسه أو ديانته، فالكل سواء أمام دعوة الإسلام، والكل مطالب بأن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيم لوازم هذه الشهادة في حياته كلها، وقد ثبت بالقرآن، والسنة الصحيحة أنه صلى الله عليه وسلم رسول إلى الناس كافة بل إلى الثقلين الإنس والجن، فلا مكان للشك والارتياب في هذه المسألة.

• واجب الدعاة حيال عالمية الدعوة الإسلامية:

بما أنه قد تقرر فيما سبق من الكلام عالمية دعوة الإسلام، فإنه ينبغي على الدعاة تجاه هذه الخصيصة التي امتازت بها رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، أن يكونوا على مستوى هذه العالمية، وذلك بأن يكونوا عالميين في بث أنشطتهم، وعالميين في فهم واقع الحياة، وفي طرح القضايا، ولا يكونوا بمعزل عما يجري حول العالم من حوادث وتطورات، فهم مطالبون بأن يتفاعلوا مع العالم بحيث يبرزون موقف الإسلام من المشكلات التي تعاني منها الحضارة الإنسانية المعاصرة، وتصوره لحل هذه المشكلات، فإن انزواء الدعاة في حيز جغرافي أو جنسي، أو غير ذلك مما يحد من أنشطتهم الدعوية لهو أمر يرفضه ما امتازت به الدعوة الإسلامية من خصيصة العالمية، فالمسؤولية إذن مسؤولية عالمية، وانطلاقة الدعاة يجب أن تكون عالمية ما داموا قادرين على الاتصال بالعالم أجمع، وتقصيرهم في ذلك ينافي الإيمان بعالمية الرسالة، فإن «مما يدخل في أحكام رسالته صلى الله عليه وسلم للناس كافة أن الله تعالى لا يقبل إيمان أحد بلَغته دعوته على وجهها الصحيح إلا

---

(١) سعيد بن المسيب، ولد في خلافة عمربن الخطاب، من كبار التابعين الفقهاء العلماء، مات سنة ٩٤هـ، وهو ابن ٧٥ سنة، انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٥، ص١١٩-١٤٣.

(٢) البخاري، كتاب الجهاد٥٦، باب دعوة اليهودي والنصراني١٠١، ج٣، ص٢٣٥.

بالإيمان به واتباعه، وأنه يجب على أمته أي أمة الإجابة، وهم الذين اهتدوا بما جاء به من الإيمان والإسلام أن يبلغوا دعوته لجميع الناس من جميع الأمم على الوجه الذي يحرك إلى النظر، ويجب أن يكون القائمون بذلك منهم جماعات تتعاون عليه إذ لا يغني الأفراد غناء الجماعات... وتبليغ الدعوة إلى الإسلام على الوجه الذي تقوم به الحجة يختلف باختلاف الزمان والمكان والأفراد والأقوام»[1].

ومن باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فإنه يجب على الدعاة التعامل مع وسائل الاتصال الحديثة بما يخدم النشاط الدعوي، ما دامت هذه الوسائل لا تحتوي في ذاتها على محظور شرعي، وقد تطورت وسائل الاتصال -سواء المطبوع منها والمسموع، والمسموع المرئي- في عصرنا الحاضر فتخطت الحواجز الطبيعية والاصطناعية التي كان من الممكن أن تقف عائقا من الوصول إلى المدعويين في أقطار المعمورة المختلفة، حيث أمكن اليوم مشاهدة حدث يقع في أقصى شرق العالم في حينه على الهواء مباشرة في أقصى غرب العالم، ودخلت الأقمار الصناعية وأجهزة الحاسب الآلي والإنترنت في مضمار الاتصالات ونظم المعلومات، فلا بد من الإفادة من هذا التسخير الإلهي في بث دعوة الإسلام إلى العالم أجمع بأسلوب شامل شائق يتناسب والقدرات العقلية والعلمية، والخلفيات الثقافية للمدعو، فإن أسلوب عرض موضوعات الدعوة على المدعو له أهمية بالغة، فمن الناس من يستهويه الأسلوب العاطفي، ويستجيب له، ومنهم من لا يقتنع إلا بالأسلوب العلمي، أو غير ذلك من الأساليب الدعوية المتعارف عليها في علم الدعوة.

والداعية في عالمنا المعاصر تنتظره مهام كبيرة وكثيرة وشاقة في الوقت نفسه، فهو مطالب بوضع الخطط والبرامج الدعوية الكفيلة بتقدم عملية نشر الدعوة الإسلامية على مستوى العالم يوما بعد يوم، وذلك من خلال عقد المؤتمرات والندوات التي تجمع المهتمين بالعمل الدعوي نظريا وتطبيقيا، ثم تنفيذ هذه الخطط وإحيائها

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشيهير بتفسير المنار، ج٩، ص٣٠٨، ط٢، دار المعرفة، بيروت.

في الواقع العملي.

فعلى الدعاة أن يبلغوا الإسلام للعالم المتعطش إلى معرفة الدين الصحيح الذي يكفل للناس السعادة في الدارين، وأن يجعل الدعاة الإسلام واقعا عمليا في حياة المسلمين العامة والخاصة في عقيدتهم، ومعاملاتهم، وأخلاقهم، وفي أنظمتهم الاجتماعية، والسياسية، وعلاقاتهم المحلية والدولية، بالإضافة إلى صد كل من يحاول النيل من الإسلام والمسلمين، والوقوف بالمرصاد لكل الشبه والأراجيف التي يثيرها المنصرون وأصحاب الأهواء والملل والنحل الأخرى، وتفسير حقائق الإسلام تفسيرا علميا عصريا يتصل بالثقافات الحاضرة وتنقيته من كل بدعة تشوه نقاء عقائده وعباداته، وأخلاقه، وتشريعاته الأخرى[1].

---

(١) انظر: عطية صقر، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ص٤٩٥-٥٠٦.

المبحث الثاني

تعريف بالنصارى وفرقهم

النصارى هم: «أمة المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته -عليه السلام- وهو المبعوث حقا بعد موسى -عليه السلام- المبشر به في التوراة»[1]، ويطلق على ديانتهم النصرانية أو المسيحية[2]، وهي في الأصل دعوة إلهية جاءت متممة لرسالة التوراة التي جاء بها موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل داعية إلى التوحيد والتهذيب الوجداني، والرقي النفسي وغيرها من الأخلاق الفاضلة، والشعائر الربانية، إلا أن يد التحريف قد طالت أصولها فامتزجت بمعتقدات وفلسفات بشرية أخرجتها عن ماهيتها الأصيلة[3]، ثم جاءت الرسالة المحمدية فنسختها إلى يوم القيامة، إلا أن هناك أمة من الناس ما زالت تعتقد عدم نسخ الديانة النصرانية، كما تعتقد بقاءها على أصولها ديانة نقية إلى يومنا هذا وهم النصارى.

وقد تعرضت الديانة النصرانية منذ نشأتها في عهد المسيح عليه السلام لاضطهاد شديد من قبل اليهود الذين جاءت الرسالة لهم خاصة، حيث كانوا يكيدون لها لدى قياصرة الدولة الرومانية، وكانت أشد سنوات الاضطهاد عام ٦٤ و١٠٦ و٢٤٩-٢٥١، و٢٨٠م، وانتهى هذا الاضطهاد في عام ٢٨٤م. وقد أثر هذا الاضطهاد المتتابع على أمور كثيرة في الديانة النصرانية منها: تدوين كتبهم ورواياتها

(١) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ج١، ص٢٢٠، ط/ مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م، مصر

(٢) الأفضل إطلاق كلمة النصرانية والنصارى؛ لأن الله سماهم بذلك، قال تعالى: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير» البقرة: ١٢٠.

(٣) انظر: متولي يوسف شلبي، أضواء على المسيحية دراسات في أصول المسيحية، ص١٦، ط/الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع. والندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص٤٩٩، ط١، عام ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

وفقدان سندها، مما أتاح الفرصة للفلسفة الرومانية الوثنية في الغرب، ومدرسة الإسكندرية الفلسفية في الشرق بعد أن دخل أهل مصر في النصرانية أفواجا في القرن الثاني والثالث والرابع الميلادي التأثير في عقيدة النصارى، مثل: عقيدة التثليث، والفداء...الخ[١]، كما تأثرت بأمور أخرى أجبرت رجال الدين منهم على الدعوة إلى إقامة عدة مجامع لتدارس أمور الديانة النصرانية.

• المجامع النصرانية:

المجامع هي جماعات أو هيئات شورية قد رسم رسل النصارى[٢] نظامها، يجتمع لها عدد من علماء دينهم للنظر في الأمور المتعلقة بأصول دينهم وفروعه على السواء[٣].

وتنقسم المجامع إلى قسمين:

١- مجامع عامة: وهي التي يجتمع فيها رجال الكنائس النصرانية في كل أنحاء المعمورة، وتسمى مجامع مسكونية.

٢- مجامع خاصة: وهي التي تعقدها كنائس مذهب أو أمة في دائرتها الخاصة، وتسمى مجامع مكانية، ويمكن تقسيم المجامع الخاصة إلى قسمين، مجامع ملية وهي الخاصة بطائفة معينة، ومجامع إقليمية وهي الخاصة بإقليم أو منطقة جغرافية معينة، وتعد المجامع العامة أهم من الخاصة -بطبيعة الحال- في

---

(١) انظر: محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص٢٩-٣٩، ط٣، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ومتولي يوسف شلبي، أضواء على المسيحية، ص٢١-٢٣.

(٢) يطلق النصارى كلمة الرسل السبعون على الذين اختارهم المسيح وأرسلهم ليعلموا المسيحية، وهناك مائة وعشرون آخرون خطب فيهم بطرس (أحد حواريي عيسى) امتلؤوا بعده بروح القدس وراحوا يدعون للمسيحية. د. أحمد شلبي، مقارنة الأديان، المسيحية، ص١٩٢، ط٥، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٧م.

(٣) انظر: محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص.١٢٠، ط٣، دار الفكر العربي، ومتولي يوسف شلبي، أضواء على المسيحية، ص٩٤، ود. أحمد شلبي، مقارنة الأديان، المسيحية، ص١٩٥.

قراراتها وتوصياتها؛ لأنها تشمل جميع المذاهب النصرانية. والهدف من عقد هذه المجامع إقرار عقيدة ما أو رفض عقائد أخرى.[1] كما هو ملاحظ في القرارت التي اتخذتها هذه المجامع في الأسطر التالية، حيث كانت قراراتها واضحة الاعتداء على المبادئ العقدية، والتشريع الذي لا ينبغي أن يكون إلا لله.

ومن أهم المجامع التي خرجت بقرارات مهمة وجديدة في الوقت نفسه:

١- مجمع نيقية: عُقد سنة ٣٢٥م بدعوة من قسطنطين إمبراطور الرومان[2] في ذلك العصر، وخرج المجمع بقرار ألوهية المسيح، وأنه من جوهر الله، وعدم التصريح لمن ترمل من الكهنة بالزواج مرة أخرى، وتدمير الكتب التي تخالف الآراء التي أقرها هذا المجمع، وإن كانت بعضها مما تعمل به الكنيسة الآن؛ لأن المجامع التي جاءت من بعد ذلك قد أقرتها كرسالة بولس إلى العبرانيين والرسالة الثانية لبطرس، وغيرها من الرسائل.

٢- مجمع القسطنطينية الأول: عُقد في عام ٣٨١م وتقرر فيه ألوهية روح القدس، وبذلك تم التثليث وأقانيمه بصورته الحالية.

٣- مجمع أفسس الأول: عُقد في عام ٤٣١م واتخذوا فيه قرارا بأن مريم العذراء والدة الله، وأن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، ولعنوا نسطور الذي قال ببشرية المسيح.

---

(١) انظر: محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص١٢٠-١٢١.

(٢) هو قسطنطين بن قسطس، وأمه هيلانة ، واسمه الأصلي فلايفيسو فاليريوس، ويعرف بقسطنطين الكبير، ولد سنة ٢٧٥م في نيس ، وهو أول امبراطور روماني يدخل النصرانية، وأمر ببناء الكنائس في كل بلد، وتولى الحكم عام ٣٠٦م، ورأس أول مجمع نصراني في نيقية (تقع حاليا في تركيا) الذي وضعت فيه الأمانة الأرثوذكسية، وتوفي سنة ٣٣٧م. انظر: ابن تيمية، الجواب الصحيح، ج٤، ص٢١٠، والرد على المنطقيين، ص٢٨٩، الهامش، والموسوعة العربية العالمية، ج٨، ص١٧١، ط١/ مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، الرياض.

٤- مجمع خلقدونية: كان عقده في سنة ٤٥١م، وقرروا فيه بأن للمسيح طبيعتين لا طبيعة واحدة، وأن الألوهية طبيعة وحدها، والناسوت طبيعة وحده، والتقت الطبيعتان في المسيح، وقد رفض الأرثوذوكس هذا القرار، وانفصلت بذلك الكنيسة الأرثوذوكسية نهائيا عن الكنيسة الغربية.

٥- مجمع روما: تم عقده في عام ٨٦٩م وقرر انبثاق روح القدس من الآب والابن ، وأن جميع النصارى يخضعون لرئيس كنيسة روما.

٦- مجمع القسطنطينية المنعقد سنة ٨٧٩م الذي قرر انبثاق روح القدس من الآب فقط، وبذلك تم انقسام الكنيسة إلى غربية (الكاثوليك) وشرقية (الأرثوذوكس)، فأصبح مركز الغربية في روما والشرقية في القسطنطينية.

وبهذا تعد المجامع المسكونية قد انتهت، وإن كانت الكنيسة الغربية ترى أن مجامعها مسكونية رغم أنف الكنائس التي تخالفها، وقد عقد في روما مجمع في عام ١٢٢٥م وقرر امتلاك الكنيسة البابوية الغفران، ومجمع آخر في سنة ١٨٦٩م الذي قرر عصمة البابا، ومجمع آخر عقد في ١٩٦٣م اعترفت الكنيسة بأنه ليس من المؤكد أن الذي صلب هو المسيح(١).

• **عقيدة النصارى:**

الأصل في عقيدة الديانة النصرانية التوحيد الخالص، والإيمان برسالة عيسى عليه السلام، وبما جاء به من الإنجيل، مصدقا لما جاء في التوراة، ومبشرا برسول يأتي من بعده اسمه أحمد، قال تعالى: ﴿**وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك مايكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به، أن اعبدوا الله ربي وربكم، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتني**

---

(١) انظر: أحمد القرافي، أدلة الوحدانية، ص٣٧-٥٥، محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص١٢٢-١٤٨، ود.أحمد شلبي، مقارنة الأديان -المسيحية- ص١٩٥-١٩٧، وبشير كعدان، التبرئة قضية سياسية، ص٢٦-٢٧، ط، دار الجمهورية ١٩٦٥م دمشق.

كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾[1] وقال تعالى: ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾[3].

إلا أن يد التحريف قد طالت عقيدة النصرانية واتخذ هذا التحريف شكلا رسميا بعد مجمع نيقية الذي أُقر فيه هذا النص: «نؤمن بالله الواحد الآب، ملك كل شيء وصانع ما يُرى وما لا يرَى، وبالابن الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد بكر الخلائق كلها، الذي وُلد من أبيه قبل العوالم كلها، وليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم، وخلق كل شيء من أجلنا ومن أجل معشر الناس، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس وصار إنسانا، وحُبل به، وولد من مريم البتول، وصلب وقتل أيام فيلاطوس، ودفن ثم قام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء، ونؤمن بروح القدس الواحد وروح الحق الذي يخرج من أبيه، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا وبجماعة واحدة قدسية مسيحية جاثليقية وبقيام أبداننا وبالحياة الأبدية الدائمة أبد الآبدين»[4].

ومن ذلك التاريخ تمثلت أسس العقيدة النصرانية في ثلاث نقاط:

١- التثليث: وهو الإيمان بثلاثة أقانيم التي هي عناصر متلازمة لذات الخالق.

٢- تجسد الابن ليصلب فداء للبشرية، وقيامه من قبره بعد ثلاثة أيام ورفعه.

---

(١) سورة المائدة آية:١١٦-١١٧.

(٢) سورة المائدة آية:٤٧.

(٣) سورة الصف آية: ٦.

(٤) الشهرستاني، الملل والنحل، ج١، ص٢٢٣. والقرافي، أدلة الوحدانية، ص٣٨.

٣- أن الابن يدين ويحاسب الأحياء والأموات على خطاياهم.[١]

وتتفق الكنائس كلها في عقيدة التثليث، والخلاف بينها هو في العنصر الإلهي في المسيح، أهو الجسد الذي تكوّن من الروح القدس، ومن مريم العذراء الذي باختلاطه بالعنصر الإلهي صار طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، أم أن الأقنوم الثاني له طبيعتان ومشيئتان، ويفهم من عبارات النصارى أن في اللاهوت ثلاثة يعبدون، وهم متغيرون وإن اتحدوا في الجوهر والقدم والصفات، مع التشابه الكامل بينهم، وبهذا يحاول النصارى الجمع بين التثليث والوحدانية!![٢].

ويقول دارسو علم الأديان ومقارنتها أن التثليث في النصرانية جاء تدريجيا بفعل تأثير الحضارات القديمة المصرية والسامية واليونانية والرومانية، «فليس في الإنجيل كلمة واضحة عن الثالوث، وكلمة الثالوث نفسها لم تعرف في عهد المسيح وكتّاب الأناجيل الرسمية، ولم ترد فيها ولم يذكر العهد القديم الثالوث ولا ما يفهم منه صراحة أو رمزا... ويعتمد المسيحيون في إثبات التثليث على ما جاء في إنجيل متي ١٩/٢٨ «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس» ومن هذه الفقرة قامت لدى المسيحيين دعوى التثليث،... وهذه الفقرة لا دليل فيها على الثالوث وتأليه من يتكون منهم جميعا وإن كان الكلمة والروح أعقبا الآب فعطفهما عليه لا يعطيهما حكمه، ... وقد ذهب جمهور علماء البروتستانت أن هذه الفقرة مقحمة في رسالة يوحنا الأولى»[٣].

بل إن قضايا الموت من أجل التكفير عن خطايا الناس والتعميد والعشاء الرباني من الأمور التي انتقلت إلى النصرانية من ديانات وعادات لأمم سبقت الديانة

(١) انظر: محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص٩٩، ود. أحمد شلبي، مقارنة الأديان -المسيحية- ص١٢٦.

(٢) انظر: محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص١٠٠-١٠٣.

(٣) أحمد عبد الغفور عطار، الديانات والعقائد في مختلف العصور، ج٢، ص١٥٠-١٥٢، ط١، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

النصرانية، وكانت هذه العقائد الدخيلة في النصرانية تخضع لجدل واسع عند تطويعها وإدراجها في النصرانية[١].

• **كتب النصارى:**

بعث الله نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام وآتاه الإنجيل مصدقا لما في التوراة وهاديا إلى الصراط المستقيم، قال تعالى: **﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾**[٢].

ولكن النصارى أداروا ظهورهم للتقوى وشطوا عن الهدى والنور فاتخذوا لأنفسهم كتابا مقدسا وإنجيلا[٣] مبجلا لا يمت بأي صلة إلى القدسية الحقيقية للإنجيل الحق.

ويتكون الكتاب المقدس لدى النصارى من قسمين : العهد القديم الذي يضم التوراة بأسفارها الموسوية وكتب الأنبياء الذين سبقوه، والعهد الجديد الذي يعد خالصا للنصارى دون اليهود، ويضم الأناجيل الأربعة -متي، ومرقس، ولوقا، ويوحنا- ورسائل الرسل.

ويمكن تقسيم العهد الجديد الذي تم إقراره في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م إلى ثلاثة أقسام:

أ] الأسفار التاريخية: وهي الأناجيل الأربعة، ورسالة أعمال الرسل التي كتبها لوقا، وسميت بالأسفار التاريخية لاعتنائها بشرح حياة المسيح وحكاية أحواله وبعض أقواله وعظاته، بينما تعنى رسالة أعمال الرسل بقصة

---

(١) انظر: شارل جنيبير، المسيحية نشأتها وتطورها، ص١٦٤، ترجمة: عبد الحليم محمود، ط/ المكتبة العصرية، بيروت. ود. أحمد شلبي، مقارنة الأديان، المسيحية، ص١٣٠.

(٢) سورة المائدة آية٤٦.

(٣) الإنجيل كلمة عبرانية أو سريانية أويونانية بمعنى البشرى أو الخبر السار المفرح. انظر: محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ج١ ص٦٥٥، ط٣، دار المعرفة، سنة١٩٧١م بيروت، وابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص٦٤٨.

معلمي النصرانية وخاصة بولس.

ب] الأسفار التعليمية: وتعنى بالناحية التعليمية التي تُبين بها الديانة، وتنسب أربعة عشر منها إلى بولس وحده، ورسالة إلى يعقوب، ورسالتان إلى بطرس، وثلاث إلى يوحنا، ورسالة إلى يهوذا.

ج] رؤيا يوحنا اللاهوتي: ويتضمن رؤاه وأحلامه، ويقول النصارى إنه رآها في اليقظة.[١]

والملاحظ في الأناجيل أن النصارى لا يدعون نزولها على عيسى عليه السلام من عند الله، أو أن المسيح أملاهم إياها، بل هي إلهامات وأخبار كتبت من بعده في أزمان مختلفة.

فإنجيل متي كتبه بالعبرانية أو السريانية متي وهو أحد تلاميذ المسيح الاثنا عشر، والنصارى مختلفون في تاريخ تأليفه حيث يمتد الخلاف من سنة ٣٧ إلى ٦٤ من الميلاد.، وإنجيل مرقس كتبه يوحنا الملقب بمرقس، وهو ليس من تلاميذ المسيح الاثني عشر، وألفه باللغة اليونانية في الستينات من ميلاد المسيح، أما إنجيل لوقا فقد كتبه باللغة اليونانية في ٥٣م وقيل ٦٣م وقيل ٦٤م لوقا الطبيب، وهو ليس من تلاميذ المسيح، ولا من تلاميذ تلاميذه.

وأما إنجيل يوحنا فقد ألفه باللغة اليونانية في التسعينات من ميلاد المسيح يوحنا أحد حواريي المسيح، ومن النصارى من يرى أنه ليس من الحواريين، ويختلف هذا الإنجيل عن الأناجيل الثلاثة الأخرى بتصريحه بألوهية المسيح، فآثار الفلسفة اليونانية وبعض الديانات الوثنية واضحة فيه، والخلاف بينه وبين من سبقوه وبخاصة

---

(١) انظر: أبو محمد علي بن حزم الظاهري الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج١، ص١٤، تحقيق: د. محمد إبراهيم نصر، ود. عبد الرحمن عميرة، ط١، شركة عكاظ للنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م جدة، محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص٦٩، ود. أحمد شلبي، مقارنة الأديان، المسيحية، ص٢٠٢-٢٠٥.

متي كبير جدا.[١]

وقد سبق القول أن العهد الجديد كله كتب من قبل أناس آخرين غير المسيح بعد رفع المسيح، وعقيدة النصارى في هذا الأمر أن القديسين الذين كتبوا الأناجيل كانوا رسلا، وكتابتهم للأناجيل كانت عن طريق الإلهام، أو الوحي بالمعنى لا بالألفاظ، ولهذا يؤمنون أن كل ما في الإنجيل حق وصدق لا يشوبها شك ولا يكدرها ريب[٢]، وذلك بالرغم من أن (لوقا) أحد مؤلفي الإنجيل استهل كلامه بعبارة تفيد أن سبب تأليف إنجيله ليس كما يعتقد النصارى، إذ قال: «إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداما للكلمة، رأيت أنا أيضا إذ تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفليس لتعرف صحة الكلام الذي علِّمتَ به»[٣]

ومصادر النصارى في دينهم سواء أكان العهد القديم أو العهد الجديد أي الكتاب المقدس بأكمله يفقد أهم الشروط التي ينبغي أن تتوفر في مصادر العقائد السماوية، ألا وهو السند المتصل؛ لأن نسبة كلام ما أو أحكام وإرشادات إلى نبي مرسل أو حواري ملهم ليس كغيره من الروايات التاريخية وقصصها التي لا يترتب عليها حكم أو عقيدة ومبدأ، أو تشريع ودين.

والمهتمون بعلم مقارنة الأديان ودراستها من المسلمين والنصارى، يبدون ملاحظات كثيرة حول الأناجيل، كما سلم ببعض هذه الملاحظات بعض رجال الدين

(١) انظر: ابن حزم الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٢، ص١٣-١٤، ومحمد أبوزهرة، محاضرات في النصرانية، ص٤٠-٥٤، وأحمد عبد الغفور عطار، الديانات والعقائد في مختلف العصور، ج٣، ص٣٦٠.

(٢) انظر: محمد أبو زهرة، محاضرات في النصراني، ص٧٦، ود. أحمد شلبي، مقارنة الأديان، المسيحية، ص٢٢٦.

(٣) الكتاب المقدس، إنجيل لوقا، ١/١-٤. ط١٩٨٣م المصورة عن ط١٨٨٣م، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

النصارى، ويمكن تلخيص هذه الملاحظات في النقاط التالية:

- أن الأناجيل تفتقد السند المتصل، وتتميز بالاضطراب وعسر التحقيق.
- أن مؤلفي الأناجيل لم يلتمسوا الحقيقة الواقعية، واتبع كل منهم هواه وخطته في تنسيق وترتيب الحوادث التاريخية في مؤلفه.
- أن كاتبي الإنجيل مجهولون، إما نسبا أو صنعة أو علاقة بالكتاب المدون.
- أن أصول هذه الأناجيل معترف بضياعها، وأن بعضها ترجمة الترجمة، بل وغير موثوق ببعض ترجماتها إما لجهل المترجم أو لضياع الأصل أو لكليهما معا.
- بنيت هذه الأناجيل على المعتقدات التي سادت في النصرانية بواسطة بولس ورسائله التي ألفها قبل كتابة هؤلاء الكتّاب لأناجيلهم؛ فجاءت الأناجيل متأثرة برسائل بولس(١).
- أن اختيار بعض الأناجيل، ورفض البعض الآخر، من بين أسفار كثيرة كانت تنسب للمسيح -عليه السلام- ومريم العذراء والحواريين لم يكن قائما على أساس واضح وقويم، بل تدخلت السلطة السياسية في تقرير كتب وعقائد معينة، كما كان ذلك في مجمع نيقية الذي عقد بدعوة من إمبراطور

---

(١) بولس : هو بولس القديس ، ولد في طرسوس بآسيا الصغرى، واسمه الأصلي شاؤول، روماني الجنسية نشأ نشأة يهودية، فكان يضطهد المسيحيين الأول، كُلف بمقاومة المسحيين في دمشق، عام ٣٥، وانضم إلى المسيحية فيما بعد بعد قصة ادعى أنها حدثت له في طريق دمشق، وسمى نفسه بولس، وأصبح من أنشط دعاة النصرانية في القرن الأول، وبولس هذا هو الذي أفسد المسيحية وأدخل فيها التثليث، وأحل الخمر، وعدم الختان ، ثار اليهود ضده، وقبض عليه في أورشليم وسيق إلى روما وحكم عليه بالإعدام، وصلب وقطع رأسه بالسيف.

الموسوعة العربية الميسرة ص.٤٤، بإشراف محمد شفيق غربال، ط٢، دار الشعب، ١٩٧٢م

الرومان سنة ٣٢٥م وقد حضر مجالس المجمع بنفسه[(١)].

• **فرق النصارى وكنائسهم:**

تعددت الفرق في الديانة النصرانية منذ القرن الأول لنشأة النصرانية، ويصعب حصر الفرق النصرانية جميعا بجميع مذاهبها، واتجاهاتها، حيث «بلغت في عصرنا الحاضر أكثر من الخمسين والمائتين»[(٢)] ولكن يمكن الإشارة إلى أبرز الفرق التي ظهرت في عصور متفاوتة.

فهناك من الفرق القديمة التي كانت تختلف اختلافا بائنا عن عامة الفرق النصرانية؛ وذلك لإيمانها بالتوحيد المجرد، «منهم أصحاب أريوس، وكان قسيسا بالإسكندرية، ومن أقواله: التوحيد المجرد، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق وأنه كلمة الله تعالى التي بها خلق السماوات والأرض، وكان في زمن قسطنطين الأول باني القسطنطينية...

ومنهم أصحاب بولس الشمشاطي، وكان بطريركا بأنطاكيا، وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح، وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام، خلقه الله تعالى في بطن مريم من غير ذكر، وأنه إنسان لا إلهية فيه ألبتة، وكان يقول لا أدري ما الكلمة؟ ولا روح القدس»[(٣)].

أما الفرق الأخرى التي تركز خلافها حول طبيعة المسيح وإن اتفقت في التثليث والشرك بالله فهي:

---

(١) انظر: رحمة الله بن خليل الله الهندي، إظهار الحق، تحقيق: د. محمد أحمد عبد القادر ملكاوي، ج١، ص١٠٩، وما بعدها، ط٣/ رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م الرياض، شارل جنيبير، المسيحية نشأتها وتطورها، ص١٧-١٨و-٣٨، ود. أحمد شلبي، مقارنة الأديان، المسيحية، ص٢٠٤، ومتولي يوسف شلبي، أضواء على المسيحية، ص٥٠. وأحمد عبد الغفور، الديانات والعقائد في مختلف العصور، ج٢، ص٣٨٩ و٤٦٧.

(٢) أحمد عطار، الديانات والعقائد في مختلف العصور، ج٢، ص٥٠٠.

(٣) ابن حزم الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج١، ص١٠٩-١١٠.

- النسطورية: وهم أصحاب نسطور الذي كان بطريركا في القسطنطينية حيث قال إن مريم ولدت الإنسان، ولم تلد الإله، وأن الله -تعالى عن كفرهم- لم يلد الإنسان وإنما ولد الإله، واتحدت اللاهوت بجسد المسيح كإشراق الشمس في كوة على بلورة وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم[1].

- الملكانية: طائفة نصرانية من الطقس البيزنطي، يقولون «أن عيسى إله تام كله، وإنسان تام كله، وليس أحدهما غير الآخر، وأن الإنسان منه هو الذي صلب وقتل، وأن الإله منه لم تنله شيء من ذلك، وأن مريم ولدت الإله والإنسان، وأنهما شيء واحد»[2].

- اليعقوبية: وهم فرقة من أتباع يعقوب البرذعاني، وكان راهبا بالقسطنطينية، قالوا بأن المسيح هو الله نفسه، حيث امتزج الناسوت واللاهوت فصار من الاتحاد شيء واحد جامع [3] تعالى الله عن قولهم.

- المارونية: مذهب منسوب إلى يوحنا مارون الذي ادعى في سنة ٦٦٧م بأن للمسيح طبيعتين اثنتين، ولكن مشيئة واحدة[4].

- الانقسام بين الكنيسة الغربية والشرقية: وهذا الانقسام كان الأبرز أثرا في الديانة النصرانية، وكان السبب الرئيس لهذا الانقسام خلافا يتصل بالعقيدة، وقد كان أساس الاختلاف بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما، حيث قالت كنيسة

---

(١) انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج١، ص٢٢٤، وابن حزم الأندلسي، الفصل، ج١، ص١١١، ود. أحمد شلبي، مقارنة الأديان، المسيحية، ص١٨٩.

(٢) ابن حزم، الفصل، ج١، ص١١٠-١١١، وانظر: الموسوعة العربية الميسرة، ص١٧٤٢.

(٣) انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج١، ص٢٢٦، وابن حزم الأندلسي، ج١، ص١١١-١١٢، محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص١٥٩.

(٤) انظر: محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص١٦٠. ود. أحمد شلبي، مقارنة الأديان، المسيحية، ص١٩٢.

القسطنطينية بأن روح القدس منبثق من الآب وحده، بينما قالت كنيسة روما أنه منبثق من الآب والابن، بالإضافة إلى أن الشرقية تقول بأن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، والغربية تقول بالطبيعتين والمشيئتين، وفي الأمور الفرعية تستعمل الخبز والخمر في العشاء الرباني بدل الفطيرة، وتجيز أكل الدم والمخنوق، وأكل الرهبان دهن الخنزير، ولبس الأساقفة الخواتم في أصابعهم، وحلق الكهنة لحاهم.

وتعرف كنيسة روما بالكنيسة الغربية، أو الكاثوليكية (أي العامة)، أو اللاتينية، أو البطرسية أو الرسولية، بينما تعرف كنيسة القسطنطينية بكنيسة الروم الأرثوذكسية، أو الكنيسة الشرقية، أو اليونانية، وقد انفصلت بعض الكنائس الأرثوذكسية عن الكنيسة الشرقية الأم واستقلت بنفسها لخلاف ما[1].

- الكنيسة البروتستانتية: وتسمى كنيستهم الكنيسة الإنجيلية، وقد تأسست هذه الفرقة التي عرفت بحركة الإصلاح الديني ثورة على الاستبداد الذي كانت تقوم به الكنيسة الكاثوليكية من إحراق للمخالفين، وتجاوز لتعاليم الكتاب المقدس، وكان من أبرز المؤسسين مارتن لوثر الألماني (١٤٨٣-١٥٤٦م) وزونجلي السويسري (١٤٨٤-١٥٣١م) وكلفن الفرنسي (١٥٠٩-١٥٦٤م)، وكان من أبرز مبادئها الخضوع التام للكتاب المقدس، وعدم قصر فهمه وتفسيره لرجال الدين، وأن ليس للكنائس من يترأس عليها رئاسة عامة، بل لكل كنيسة رئاسة خاصة، وأنه ليس للكنيسة حق الغفران، ومن مبادئهم أيضا إنكار الرهبنة التي تخالف غريزة الإنسان، وعدم اتخاذ الصور والتماثيل في الكنائس والسجود لها...الخ[2].

---

(١) انظر: محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص١٦١-١٦٢، ود. أحمد شلبي، مقارنة الأديان، المسيحية، ص١٣٧ وما بعدها، وأحمد عبد الغفور عطار، الديانات والعقائد في مختلف العصور، ج٣، ص٥٠٢ و٥٢٢-٥٢٣.

(٢) انظر: محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص١٦٧ وما بعدها، ود. أحمد شلبي، مقارنة الأديان، المسيحية، ص٢٤١، وأحمد عطار، الديانات والعقائد، ج٣، ص٥٢٤.

• شعائر النصارى وعباداتهم:

من الشعائر النصرانية التي تأتي بعد العقائد في أهميتها:

١-التعميد: وفيه يتم رش جسم المُعَمَّد بالماء أو غمس بعضه أو كله باسم الآب والابن وروح القدس من قبل كاهن، وقد يكون ذلك في أثناء الطفولة أو في آخر حياة الشخص المعمَّد ويختلف ذلك حسب المذاهب .

٢- العشاء الرباني: وهو ما يتناوله النصارى من الخمر والخبز ، إشارة إلى آخر عشاء تناوله المسيح مع تلامذته قبل صلبه، ويعتقد بعض النصارى أن من تناول العشاء الرباني استحال الخبز والنبيذ في جسمه إلى دم المسيح ولحمه.

٣- تقديس الصليب وحمله.

وهناك عبادتان في النصرانية هما الصوم والصلاة، والصوم اختياري لا إجباري، ويختلف ميقاته حسب فرقهم، أما الصلاة فهي ركن عندهم، ولا بد أن تقدم باسم المسيح، وأن يسبقها الإيمان الكامل بما عندهم، وليس للصلاة عبارات محددة ولا عدد معين من الصلوات في اليوم والليلة، ويمكن أن تكون في الصباح والمساء، ويعتمدون في كثير من أحكامهم على ما في التوراة، وفي كتبهم بعض الإشارات إلى قضايا الزواج والطلاق، وحكمها[١].

---

(١) انظر في عبادات النصارى وشعائرهم: محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص١١١-١١٧، ود. أحمد شلبي، مقارنة الأديان، المسيحية، ص١٦٧-١٧١.

المبحث الثالث

ترجمة الإمامين القرطبي والقرافي

المطلب الأول

ترجمة الإمام القرطبي

يشتكي كثير من الباحثين من قلة المعلومات الخاصة بترجمة الإمام القرطبي والمتعلقة منها بمراحل حياته العلمية والعملية، وحياته الخاصة، وجوانب أخرى كثيرة، مما أدى إلى الاعتماد على النزر اليسير الموجود منها في كتب التراجم،[1] لذا فإن هذه الترجمة أيضا ستتأثر بهذا الشح، مع المحاولة قدر الإمكان على إعطاء ما أمكن صيده من المعلومات.

- **اسمه ونسبه:** هو الإمام العالم العلامة أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن فرْحْ الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي.[2]

فكنيته إذن أبو عبد الله، وينتسب إلى الخزرج إحدى قبيلتي الأنصار؛ فإن جميع الأنصار من الأوس والخزرج الذين سكنوا المدينة المنورة قبل الإسلام[3]،

(١) انظر: القصبي محمود زلط، القرطبي ومنهجه في التفسير، ص٦، ط/ دار الأنصار، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م القاهرة. وأحمد مزيد، منهج الإمام القرطبي في أصول الدين، ص٣٩، رسالة ماجستير ،ط/ غير منشورة.

(٢) محمد بن أحمد الذهبي، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، المجلد الحادي والعشرين، ص٥، مخطوط، صورة ميكروفيلم، رقم ٨١٩/ف، المكتبة المركزية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض، وابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق: د. محمد الأحمدي أبو النور، ج٢، ص٣٠٨، ط/ مكتبة دار التراث، القاهرة.

(٣) انظر: عز الدين ابن الأثير الجزري، اللباب في تهذيب الأنساب، ج١، ص٤٠، ط/ دار صادر، بيروت، وعمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج١، ص٣٤٢، ط٢، دار العلم للملايين، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م بيروت.

والأندلسي نسبة إلى الأندلس موطنه، والقرطبي نسبة إلى قرطبة، المدينة الأندلسية التي ولد فيها، وقد اشتهر بهذا اللقب حتى إنه عندما يُذكر القرطبي بإطلاق لا تنصرف أذهان العلماء وطلبة العلم إلا إليه[1].

• **مولده**: ولد الإمام القرطبي في مدينة قرطبة، ولم تذكر المصادر تأريخ ولادته، وتوقع بعض الباحثين أن يكون قد ولد في عصر الموحدين في نهايات القرن السادس[2] أو بداية القرن السابع بالنظر إلى سنة وفاته ومجموعة من الأحداث التي عاصرها القرطبي وذكر تأريخها.

وقد عاش القرطبي الفترة الأولى من حياته في قرطبة بالأندلس، حيث نشأ في أسرة متواضعة، متوسطة الحال، في كنف والده المزارع الذي قتله النصارى وهو يقوم بالحصاد[3]، ومارس الإمام القرطبي في فترة شبابه عملا متواضعا يكسب من خلاله الرزق الحلال، فقد قال بنفسه: «ولقد كنت في زمن الشباب أنا وغيري ننقل التراب من مقبرة عندنا تسمى بمقبرة اليهود خارج قرطبة، وقد اختلطت بعظام من هناك... إلى الذين يصنعون القرمد للسقوف»[4].

(١) انظر: مشهور حسن محمود سلمان، الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، ص١٤، ط١، دار القلم، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م الكويت.

(٢) انظر: د. القصبي محمود زلط، القرطبي ومنهجه في التفسير، ص٨.

(٣) انظر: أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، ج٤، ص٢٧٢، ط/ دار الكتب المصرية، ١٣٧٤هـ-١٩٥٣م.

(٤) القرطبي، التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، ص٢٥، ط/ المكتبة السلفية، المدينة المنورة. وفي بعض النسخ القرميد للشقف، والأول أقرب إلى الصواب، والقرمد والقرميد: الآجُرّ، والجمع قراميد، وهي حجارة مصنوعة يوقد عليها حتى تنضج بالنار، ويبنى بها أو يغطى بها وجه البناء. ويقال لطابق الدار أيضا قرمد وقرميد.

انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٣٥٢، مادة (قرمد)، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ج٢، ص٧٣٠، ط٢، مطابع دار المعارف، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م مصر.

ثم انتقل إلى مصر، ولم تذكر المصادر متى انتقل إلى مصر؟ وكيف انتقل؟ وما الأسباب التي دعته لهذا الانتقال؟ إلا أن الشيء المؤكد أن القرطبي كان في قرطبة في ربيع الآخر عام ثمانية وعشرين وستمائة للهجرة، حيث صرح في معرض ذكره لحديث قرأه على أحد شيوخه بهذا التاريخ في قرطبة(١)، وصرح كذلك أنه سمع من شيخه أبي محمد عبد المعطي بالإسكندرية(٢)، وقد رحل الشيخ عبد المعطي من الإسكندرية إلى مكة في عام ٦٣٧هـ(٣)، مما يعني أن انتقال القرطبي إلى مصر كان ما بين ٦٢٨ و٦٣٧هـ(٤)، حيث سكن الإسكندرية مدة من الزمن، وأغلب الظن أن يكون قد غادر قرطبة في أيام سقوطها عام ٦٣٣هـ حيث غادرها علماء المسلمين وعامتهم في هذه الفترة.

• **حياته العلمية**: نشأ الإمام القرطبي في مدينة قرطبة التي هي « أعظم علما، وأكثر فضلا بالنظر إلى غيرها من الممالك... وهي قاعدة الأندلس وقطبها... ومستقر السنة والجماعة... مجمع علماء الأنام... وإليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء... وبها أنشئت التآليف الرائقة وصنفت التصانيف الفائقة»(٥).

وقد تلقى القرطبي تعليمه على يد كثير من مشايخ عصره في الأندلس قبل

---

(١) انظر: أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، ج٣، ص٢٣٧.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ج٤، ص٢١٤، وج١٠، ص٤٢٢، وترجمة الشيخ عبد المعطي تأتي في شيوخ القرطبي إن شاء الله.

(٣) انظر: تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي المكي، العقد الثمين في تأريخ البلد الأمين، تحقيق: فؤاد سيد، ج٥، ص٤٩٧، ط١٣٨٥هـ-١٩٦٦م القاهرة.

(٤) انظر: أحمد المزيد، منهج الإمام القرطبي في أصول الدين، ص٣٢.

(٥) أحمد المقري، نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب، ج٢، ص٤و٨و٩، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط١، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٦٧هـ-١٩٤٩م القاهرة.

انتقاله إلى مصر، فقد تلقى القرآن بالروايات السبع، حيث «تلا بالسبع في بلده على أبي جعفر بن أبي حجة»[١] وقد سمع من مشايخه في الأندلس والإسكندرية الحديث وروى عنهم، وقد قال في معرض مناقشته لحديث سمعه من شيخه أبي العباس القرطبي[٢] «وقد تصفحت كتاب الترمذي أبي عيسى وسمعت جميعه، فلم أقف على هذا الحديث فيه، فإن كان في بعض النسخ فالله أعلم، وأما كتاب النسائي، فسمعت بعضه وكان عندي كثير منه فلم أقف عليه وهو نُسَخ»[٣].

فيفهم من هذا النص تلقيه علم الحديث سماعا من مشايخه، حتى أصبح «من أهل العلم بالحديث والاعتناء التام بروايته»[٤] كما تلقى شروح الأحاديث أيضا على يد علماء عصره، فقد سمع أيضا من شيخه أبي العباس ابن عمر القرطبي بالإسكندرية بعض كتابه (المفهم في شرح صحيح مسلم)[٥]، وكان يكثر من قراءة كتب العلماء الذين سبقوا عصره منذ بداية حياته العلمية في الأندلس، فقد حكى بنفسه أنه قرأ أكثر كتب المقرئ أبي عمر عثمان بن سعيد بن عثمان المتوفى سنة أربع وأربعين وأربعمئة[٦].

إذن فإن الإمام القرطبي لم يبخل بجهده ولا وقته في سبيل الحصول على العلم وجمع أكبر قدر ممكن من المعارف والمعلومات النافعة، حيث تلقى تعليمه في كل من

---

(١)أبو عبد الله محمد بن محمد المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: إحسان عباس، السفر الخامس، القسم الثاني، ص٥٨٥، ط/ دار الثقافة بيروت.

الشيخ أبو جعفر تأتي ترجمته في شيوخ القرطبي إن شاء الله.

(٢) تأتي ترجمته في شيوخ القرطبي إن شاء الله.

(٣) القرطبي، التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، ص٣٤.

(٤) أبو عبد الله المراكشي، الذيل والتمكلة، السفر الخامس، القسم الثاني، ص٥٨٥.

(٥) ابن فرحون، الديباج المذهب، ج٢، ص٣٠٩.

(٦) انظر: القرطبي، التذكرة، ص٦١٢.

قرطبة، والإسكندرية، والمنصورة، والقاهرة، ومنية بني خُصْيَب، فقد كان من «المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة، وأوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة وتصنيف»[١] حتى أصبح «إماما متقننا متبحرا في العلم له تصانيف مفيدة، تدل على كثرة اطلاعه»[٢] ولم يكن مجرد ناقل للمعلومات فحسب، بل كان ذا قدرة فائقة على التحليل والاستنتاج «علَماً من الغواصين على معاني الحديث، حسن التصنيف، جيد النقل»[٣]، متعدد المعارف والثقافة، جمع علوم التفسير، والفقه، والقراءات، والحديث، والتاريخ، واللغة، والأصول، والعقائد، والدعوة والإرشاد، ومعلومات أخرى في مجال الزراعة والطب[٤]

وقد شهد له كثيرون بالفضل والعلم والصلاح والزهد، فقد «كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا .... قد اطرح التكلف يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية[*]»[٥].

• **شيوخه**: تتلمذ الإمام القرطبي على يد كثير من علماء عصره في الأندلس ومصر، مما يعني تلقيه العلوم والفنون المختلفة من مصادر متعددة، مما يجعل أُفُقه

---

(١) ابن فرحون، الديباج المذهب، ج٢، ص٣٠٨.

(٢) الذهبي، تأريخ الإسلام، ص٥، مخطوط، فيلم رقم ٨١٩/ف.

(٣) أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٥، ص٣٣٥، ط/ دار الفكر، والمقري، نفح الطيب، ج٢، ص٤٠٩-٤١٠.

(٤) انظر: مشهور حسن سلمان، الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، ص١٨١-١٨٥.

(*) مفهوم الزهد عند القرطبي هو: «قصر الأمل، وليس بأكل الخشن ولبس العباءة» الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج١٠، ص٣٥٥.

(٥) ابن فرحون، الديباج المذهب، ج٢، ص٣٠٨-٣٠٩. والمقري، نفح الطيب، ج٢، ص٤٠٩، والداودي، طبقات المفسرين، ج٢، ص٦٩.

العلمي واسعا، وذخيرته المعرفية تتميز بالكفاية والمتانة، ويصعب حصر جميع المشايخ الذين تلقى القرطبي على أيديهم العلوم المختلفة حقيقة، إلا أنه يمكن الاقتصار على من تسعفنا المصادر بذكرهم، وتعطينا فكرة كافية لتحصيله العلمي ومكانته العلمية، ومن مشايخ القرطبي الذين اشتهر أخذه عنهم يمكن ذكر التالية أسماؤهم:

أ] شيوخه في الأندلس:

١- أبو عامر يحيى بن ربيع الأشعري، المولود سنة ٥٦٣هـ ، وكان علما من أعلام الأندلس، ولي القضاء في قرطبة وغرناطة، وتوفي عام ٦٣٩هـ، وقيل ٦٤٠هـ[(١)].

٢- أبو جعفر أحمد بن محمد القيسي، الملقب بابن أبي حجة، المولود بقرطبة سنة ٥٦٢هـ، وكان من الزاهدين الورعين، مقرئا ذا باع في صنعة التجويد، محدثا حافظا، أقرأ القرآن، وأسمع الحديث، ودرّس النحو بقرطبة، ذكره القرطبي في كتابه التذكرة، وكان ممن تلا عليه القرآن بالقراءات السبع، أسره النصارى في البحر، فابتلي بالتعذيب هو وأهله وأولاده، وتوفي إثر ذلك سنة ٦٤٣هـ بميورقة.[(٢)]

ومن آثاره (منهج العباد) جمع فيه ما اجتمع عليه صحيحا البخاري ومسلم من أحاديث الأحكام، و(تفهيم القلوب بآيات علام الغيوب) و (تسديد

---

(١) انظر: ابن فرحون، الديباج المذهب، ج٢، ص٣٥٨،وعمر رضا كحالة، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، ج١٣، ص٢٠٥، وذكر صاحب الذيل والتكملة، في السفر الخامس، القسم الثاني، ص٥٨٥، والقرطبي في تفسيره ج٣، ص٢٣٧ أنه من شيوخه.

(٢) ميورقة: جزيرة تقع شرقي الأندلس. انظر: شهاب الدين ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٢٤٦، ط/ دار صادر، ١٣٧٦هـ١٩٥٧م بيروت.

اللسان لذكر أنواع البيان) وغيرها.[(١)]

٣- ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع، ولد بقرطبة سنة ٥٦٩هـ، كان من أهل الصلاح، وقد تولى القضاء بقرطبة، فكان عدلا في أحكامه، خرج من قرطبة سنة ٦٣٣هـ، عندما دخلها النصارى، فذهب إلى إشبيلية وأقام بها حتى توفي[(٢)]، قال القرطبي في تفسيره، «سألت شيخنا ربيع بن عبد الرحمن»[(٣)] مما يدل على أنه من شيوخ القرطبي.

وقد أضاف البعض شيخين آخرين هما أبو الحسن علي بن قُطرال المتوفى ٦٥١هـ وأبو محمد ابن حَوْط الله المتوفى ٦١٢هـ ضمن شيوخ القرطبي، واستدل على الأول بما ذكره القرطبي في تفسيره ج٣، ص٢٧٢، أنه استفتاه في قضية وفاة والده، وهذا ليس بدليل كاف على تتلمذه، وإن كان هناك نوع من الاحتمال، كما أنه لم يذكر دليله على تتلمذ القرطبي على ابن حوط الله.[(٤)]

ب] شيوخه في مصر:

١- عبد المعطي بن محمود بن عبد المعطي بن عبد الخالق أبو الثناء اللخمي الإسكندراني، ولد في الإسكندرية وعاش فيها، من فقهاء المالكية الزهاد الوعاظ،

---

(١) انظر: المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الأول، القسم الثاني، ص٤٨٤، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج١، ١٢٣، ط، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م. والقرطبي، التذكرة، ص٦٤٣، وخير الدين الزركلي، الأعلام، ج١، ص٢١٩، ط٥، دار العلم للملايين، ١٩٧٩م بيروت.

(٢) انظر: ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج١، ص٣٢٣، وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغوين والنحاة، ص٢٤٧، ط١، مطبعة السعادة، ١٣٢٦هـ القاهرة.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٤، ص٢٧٢.

(٤) مشهور حسن محمود سلمان، الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، ص٦٨-٦٩،

رحل إلى مكة المكرمة في آخر عمره، وتوفي فيها عام ٦٣٨هـ. ومن مصنفاته: شرح الرعاية، والدلالة في فوائد الرسالة القشيرية، وشرح منازل السائرين[1].

٢- أبو محمد عبد الوهاب بن ظافر بن علي بن فتوح ابن أبي الحسن المقدسي المعروف بابن رواج المالكي، ولد عام ٥٥٤هـ، وكان ذا دين وفقه وتواضع، من محدثي الإسكندرية الكبار، أخذ عنه الناس في مسجده بالإسكندرية علوم الحديث ، ومن بينهم القرطبي، توفي بالإسكندرية سنة ٦٤٨هـ[2] وقد نص القرطبي على أخذه عن ابن رواج[3].

٣- أبو الحسن علي بن هبة الله بن سلامة بن المسلم بن أحمد بن علي اللخمي المصري الشافعي المعروف بابن الجميزي، المولود بمصر سنة ٥٥٩هـ، قرّأ بالقراءات العشر، وكان مسند الديار المصرية في وقته، وعليه مدار الفتوى ببلده، تلقى عنه الكثير من أهل العلم، ومن بينهم القرطبي، توفي بمصر عام٦٤٩هـ عن تسعين عاما[4].

---

(١) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٤، ص٢١٤، ج١٠، ص٤٢٢، ج١١، ص٤٣، والمراكشي، الذيل والتكملة ، السفر الخامس، القسم الثاني، ٥٨٥.

(٢) انظر:أبو عبد الله شمس الدين الذهبي، تذكرة الحفاظ،ج٤، ص١٤١١، ط/ دار إحياء التراث العربي، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٢٤٢، وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، حسن المحاضرة في تأريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، ج١، ص١٧٧، ط١، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨٧هـ-١٩٦٨م مصر

(٣) انظر: القرطبي، التذكرة، ص٢٦٢، ٣٥١ ، ٤٢٢ ، ٤٩٣ ، ٥٨٩، والتذكار في أفضل الأذكار في فضل القرآن وقارئه ومستمعه والعامل به وحرمة القرآن وكيفية تلاوته، تحقيق: ثروت محمد نافع، ص٧٩، ٨٨، ط/ دار التوحيد، القاهرة.

(٤) انظر: القرطبي، التذكرة، ص١٣٨، والتذكار، ص٥٨، وعبد الوهاب بن علي السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، ومحمود محمد الطناحي، ج٨، ص٣٠١-٣٠٤، ط١، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٢٤٦، والسيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص٤١٣، والزركلي، الأعلام، ج٥، ص٣٠.

٤- الصدر البكري الحسن بن محمد القرشي التيمي النيسابوري الدمشقي، ولد بدمشق سنة ٥٧٤هـ وكان من أهل الحديث، موصوفا بالفصاحة، وله من المصنفات: ذيل على تأريخ دمشق، توفي في مصر سنة٦٥٦هـ[١].

٥- الشيخ المحدث العالم العلامة أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم ابن عمر الأنصاري القرطبي، المعروف بابن المزين، ولد في قرطبة سنة ٥٧٨هـ، وانتقل إلى مصر صغيرا، درّس في الإسكندرية، فأخذ الناس عنه وانتفعوا بعلمه وكتبه، ومن مصنفاته (المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم) و(تلخيص لصحيح البخاري) و(كشف القناع عن حكم الوجد والسماع) وغيرها، توفي بالإسكندرية سنة٦٥٦هـ.[٢]

٦- أبو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة بن سعد المنذري الشامي المصري الشافعي، المولود بمصر سنة ٥٨١هـ في الفسطاط، شيخ الإسلام الحافظ المحقق، العالم العلامة، قرأ القرآن بالسبع

---

(١) انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٤، ص١٤٤٤، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٤، الأتابكي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٦٩، الزركلي، الأعلام، ج٢، ص٢١٥، وأشار القرطبي في تفسيره ج١٥، ص١٤١، والداودي في طبقات المفسرين، ج٢، ص٦٩، والمقري في نفح الطيب، ج٢، ص٤٠٩ على تتلمذ القرطبي عند الحسن البكري.

(٢) انظر: المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الثاني، ص٥٨٥، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٧، ص٢٦٤، ط/ النشرات الإسلامية، ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م، المقري، نفح الطيب، ج٢، ص١٦٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٤١، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٣، السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص٢١٥، ونص القرطبي في تفسيره ج٤، ص١٣، ج٥ ص٤٤، ج٨، ص١٤٧، ج١٣، ص٢٣٦، ج١٤، ص٢٢٩، وصاحب الذيل والتكمة، السفر الخامس، القسم الثاني، ص٥٨٥، وشمس الدين محمد بن علي الداودي في طبقات المفسرين، ج٢، ص٦٥، تحقيق: علي محمد عمر، ط١، مكتبة وهبة، ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م القاهرة، في تتلمذ القرطبي على الشيخ أحمد القرطبي.

ودرس النحو وتفقه، رحل في طلب الحديث إلى مكة والمدينة ودمشق وحران والإسكندرية وغيرها من البلدان حتى كان شيخ الحديث في مصر مدة طويلة، توفي سنة ٦٥٦هـ بمصر، بعد أن ترك مجموعة من المصنفات منها: مختصر صحيح مسلم، ومختصر سنن أبي داود، والترغيب والترهيب، والتكملة لوفيات النقلة،(١) وقد سمع القرطبي منه في مصر(٢).

• **تلاميذه:** لم تذكر المصادر أحدا من تلاميذه سوى ابنه شهاب الدين أحمد القرطبي، حيث روى عنه بالإجازة،(٣) ولعل الإمام القرطبي انشغل بالتأليف وتحصيل العلم عن التدريس، وتعليم الناس، فقد ترك وراءه تراثا فكريا لا يستهان به، أو كان من شدة تواضعه يرى نفسه طالب علم أكثر منه شيخا معلِّما، أو لسبب من الأسباب لم يصل إلينا شيئا عن تلامذته، وخاصة أن المعلومات عن ترجمته شحيحة جدا لا تسمن ولا تغني من جوع.

ولكن صاحب كتاب (الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير) ذكر خمسة من

(١) انظر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٣١٩، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م بيروت، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٤٠، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٧، السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٥٩، السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص١٦٦. وجمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص٦٣،ط/ المؤسسة المصرية العامة، والكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٦١٠.

(٢) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٨، ص٩.

(٣) انظر: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، طبقات المفسرين، تحقيق: علي محمد عمر، ص٩٢،ط١، مكتبة وهبة، ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م، القاهرة، والداودي، طبقات المفسرين، ج٢، ص٧٠، وأحمد المزيد، منهج القرطبي في أصول الدين، ص٤٩، وعلي العبيد، القرطبي مفسرا، ص٦٥. وغيرهم.

تلاميذ القرطبي، اثنان منهم ذكرتهما كتب التراجم، بينما ظفر بنفسه بعد البحث المضني على ثلاثة آخرين من تلاميذ القرطبي[1]، والخمسة هم:

١- ابنه شهاب الدين أحمد القرطبي.

٢- أبو بكر محمد ابن الإمام الشهيد كمال الدين أبي العباس أحمد بن علي ابن محمد الميموني القسطلاّني، المصري، فقيه مالكي، زاهد، ولد بمصر سنة ٦١٤هـ، ونشأ بمكة، صحب العلماء والفضلاء وسمع منهم، كما سمع الأربعين على أبي عبد الله القرطبي، توفي سنة ٦٨٦[2].

٣- أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد الثقفي العاصمي الغرناطي، المولود بجيان سنة ٦٢٨هـ، ساد الناس في القراءات، وأحكم العربية، وعمل تأريخا للأندلس سماه (صلة الصلة البشكوالية)، توفي بغرناطة عام ٧٠٨هـ[3]، وذكر صاحب الذيل والتكملة أن القرطبي كتب إلى أبي جعفر من مصر[4]، فهو تلميذه إذن بالمكاتبة.

---

(١) مشهور حسن سلمان، الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، ص٨٩ وما بعدها.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٤٥، محمد بن رشيد الفهري، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، ج٣، ص٤١٥-٤٢٥-٤٢٩، ط١، الشركة التونسية، ١٤٠١هـ، والأتابكي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٧٣، والذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق: محمد السعيد زغلول، ج٣، ص ٣٦٢، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ١٩٨٥م بيروت

(٣) انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٤، ص١٣٨٤، وابن فرحون، الديباج المذهب، ج١، ص١٨٨، والمراكشي، الذيل والتكملة، ج١، القسم الأول، ص٣٩-٤٥، وجمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق: يوسف نجاتي، ج١، ص١٩٧، ط/ دار الكتب المصرية، ١٣٧٥هـ١٩٥٦م.

(٤) انظر: المراكشي، الذيل والتكملة، ج٥، القسم الثاني، ص٥٨٥.

٤- إسماعيل بن محمد بن عبد الكريم الخراستاني، ولد في عام٦٣٩هـ، كان يخدم في الدواوين، حسن الخلق، سمع من القرطبي، مات في ٧٠٩هـ[(١)]، ولم يحدد صاحب الدرر الكامنة، من هو القرطبي هذا إلا أن سنه يحتمل أن يكون سمع من الإمام القرطبي صاحب التفسير.

٥- ضياء الدين أحمد بن أبي السعود بن أبي المعالي البغدادي، المعروف بالسطريجي، ذكر القرطبي أنه ناوله جميع كتابه التذكرة، وأذن له أن يناوله من شاء[(٢)].

• **جهوده في دعـوة النصارى:** لم يصل إلى عصرنا -حسب اطلاع الباحث- من جهود القرطبي الدعوية الخاصة بالنصارى سوى كتابه الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، وهو الكتاب المدروس في هذا البحث، ومؤلفاته الأخرى تعنى بجوانب عامة من الإسلام، وهي وإن كانت تصب في بيان الإسلام، وهو في حد ذاته دعوة إلى الإسلام لمن يقرؤه من المسلمين وغير المسلمين، إلا أن الموجه إلى النصارى خاصة منه كان كتاب الإعلام، كما أن جوانب المناظرة وغيرها من أوجه الدعوة لم يصل إلينا شيء يذكر.

• **تراثه الفكري والعلمي:** خلف الإمام القرطبي مجموعة من المؤلفات، في فنون مختلفة، تنبئ عن مكانته العلمية والأدبية، وجهوده الواسعة في خدمة الدين الإسلامي، ونشر المعارف الإسلامية، وإسهامه الواضح في توعية الناس بما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ومن هذه المؤلفات:

---

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، ج١، ص٣٧٩، ط/ دار الكتب الحديثة، القاهرة.

(٢) انظر، مشهور حسن سلمان، الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، ص٩٤، نقلا من التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، مخطوط بخط المصنف، نسخة شستربتي، (ل٢٣٤/أ).

أ/ المطبوع:

١-الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام. وهو الكتاب الذي يتناوله هذا البحث بالدراسة.[١]

٢- التذكار في أفضل الأذكار، وهو كتاب «يحتوي على فضل القرآن وقارئه ومستمعه والعامل به وحرمته، وحرمة القرآن، وكيفية تلاوته، والبكاء عنده...»[٢] «ووضعه على طريقة التبيان للنووي لكنه أتم منه وأكثر علما»[٣]، وقد ذكره أكثر من ترجم للإمام القرطبي[٤]

٣- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، وهذا الكتاب فيه «ذكر الموت وأحوال الموتى، وذكر الحشر والنشر، والجنة والنار، والفتن والأشراط»[٥]، وذكرت بعض المصادر هذا الكتاب ضمن مؤلفات القرطبي، كما ذكره

---

(١) كارل بروكلمان، تأريخ الأدب العربي، الملحق ج١، ص٧٣٧، النسخة الألمانية (PROF. DR. C. BROCKELMANN/GESCHICHTE DER ARABISCHEN LITTERATUR, ERSTER SUPPLEMENTBAND, LEIDEN, E.J. BRILL, 1937.)، إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج٢، ص١٢٩، ط، وكالة المعارف، إستانبول، ١٩٥١م.

(٢) أبو عبد الله القرطبي، التذكار، ص١٣-١٤.

(٣) ابن فرحون، الديباج المذهب، ج٢، ص٣٠٩.

(٤) ابن فرحون الديباج المذهب، ج٢، ص٣٠٩، الداودي، طبقات المفسرين، ج٢، ص٧٠، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٣٣٥، حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ٣٨٣، محمد ابن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ص١٩٧، ط/ المطبعة السلفية، ١٣٤٩هـ القاهرة.

(٥) القرطبي، التذكرة، ص٣.

القرطبي في مواطن كثيرة من تفسيره الجامع[١].

٤-الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآي الفرقان، قال القرطبي في مقدمة كتابه هذا: «فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع الذي استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغل به مدى عمري، وأستفرغ فيه مُنَّتي بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا يتضمن نكتا من التفسير واللغات والإعراب والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات...»[٢] وقد شهد بعظم نفع هذا التفسير العلماء الأجلاء، فهو «من أجل التفاسير، وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلة...»[٣]، وهو «أقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسنة، وأبعد عن البدع»[٤].

٥- قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكسب والصناعة، ذكر هذا الكتاب القرطبي في تفسيره، وبعض الذين ترجموا له، وقد ورد بلفظ، قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة في بعض

---

(١) ابن فرحون، الديباج المذهب، ج٢، ص٢٠٨، وخليل أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢، ص١٢٢، باعتناء: درينغ، مطبعة وزارة المعارف، ١٩٤٩، إستانبول. والسيوطي، طبقات المفسرين، ص٩٢، الداودي، طبقات المفسرين، ج٢، ص٦٩، وحاجي خليفة، ج١، ٣٩٠، وغيرها،

وذكره القرطبي في تفسيره ج١، ص١٣٧، ٢٧٨، ج٢، ص١٩٣ وغيرها.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١، ص٢.

(٣) ابن فرحون، الديباج المذهب، ج٢، ص٢٠٩.

(٤) أحمد بن تيمية، دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، ج١، ص١١٨، إعداد: محمد السيد الجليند، ط٢، مؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٤هـ ١٩٨٢م، دمشق.

المواضع والأول أصح[١].

ب/ المخطوط والمفقود:

٦- أرجوزة جمع فيها أسماء النبي صلى الله عليه وسلم[٢]

٧-الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلا، هذا الكتاب ذكره أغلب من ترجم للقرطبي[٣]، ويقع في ثلاثة أجزاء، الجزء الأول مفقود، والبقية ما تزال مخطوطة، نسخة منه في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة، برقم ٨٨ أدعية وتوحيد، وصورة منها في المكتبة المركزية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فيلم رقم ٢٢٨-٢٣٠ف.

٨- الإعلام في معرفة مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام[٤].

٩- الانتهاز في قراء أهل الكوفة والبصرة والشام وأهل الحجاز[٥].

١٠- التقريب لكتاب التمهيد، وهو في مجلدين ضخمين، في خزانة القرويين بفاس، برقم ١١٧/٨٠[٦]

---

(١) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٥، ص١٦٥، وج١٣، ص١٦، وابن فرحون، الديباج المذهب، ج٢، ص٣٠٩، والداودي في الطبقات، ج٢، ص٧٠، والبغدادي، هدية العارفين، ج ٢، ص١٢٩، والزركلي، الأعلام، ج٥، ص٣٢٢.

(٢) انظر: ابن فرحون، الديباج، ج٢، ص٣٠٩، والداودي، الطبقات، ج٢، ص٧٠، وحاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ص٦٢، محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص١٩٧، وأحمد المزيد، منهج القرطبي في أصول الدين، ص٦٠.

(٣) انظر: ابن فرحون، الديباج، ج٢، ص٣٠٩، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢، ص١٢٢، والداودي، الطبقات، ج٢، ص٦٩.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٥، ص١١٣و١١٧، وغيرها من المواضع.

(٥) ذكره القرطبي في التذكار في أفضل الأذكار، ص٢٦.

(٦) انظر، الزركلي، الأعلام، ج٥، ص٣٢٢.

١١- اللمع اللؤلؤية في شرح العشرينات النبوية[١].

١٢- المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس[٢]

١٣- منهج العباد ومحجة السالكين والزهاد[٣].

والملاحظ أن هناك كتبا ذكرها القرطبي في بعض كتبه، ولم يذكرها الذين ترجموا له.

• **وفاته**: توفي الإمام القرطبي رحمه الله بعد عمر قضاه في تحصيل العلم والتأليف والتصنيف في شهر شوال من سنة ٦٧١هـ بمنية بني خُصَيْب[٤] بصعيد مصر، وهناك شبه اتفاق بين المترجمين على سنة وفاته[٥].

---

(١) القرطبي، الجامع، ج١٠، ص٢٦٨، وج١٦، ص١٤٦.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٧٣، وج٣، ص٩و٢١٠، وج٨، ص٣، وج١٢، ص١٠٠، وغيرها من المواضع

(٣) المصدر نفسه، ج١٥، ص٢١٦.

(٤) قيل: منية بني خُصَيْب، أو منية ابن خصيب، أو منية الخصيب، نسبة إلى الخصيب ابن عبد الحميد صاحب خراج مصر في عهد هارون الرشيد العباسي،وهي مدينة تقع شمال أسيوط بمصر على الشاطئ الغربي للنيل في الصعيد الأدنى، وهي المعروفة الآن بـ "المنيا". انظر: المقريزي، الخطط، ج١، ص٣٨٥، والحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٢١٨، الأتابكي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٠٩.

(٥) انظر: ابن فرحون، الديباج المذهب، ج٢، ص٣٠٩، محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص١٩٧، الذهبي، تاريخ الإسلام، ص٥، مخطوط، فيلم رقم٨١٩/ف المكتبة المركزية، جامعة الإمام، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٣٣٥، أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، الدليل الشافي على المنهل الصافي، ج٢، ص٥٨٦، تحقيق: فهيم شلتوت، ط/ جامعة أم القرى مكة المكرمة. وغيرها من المصادر التي ترجمت له.

المطلب الثاني

ترجمة الإمام القرافي

• **اسمه ونسبه:** هو الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي العلا إدريس بن عبد الرحمن بن عبد الله بن يَلِّين الصنهاجي البَهْفَشيمي البَهَنْسي المشهور بالقرافي[١].

فكنيته إذن أبو العباس، ويلقب بشهاب الدين، وينتسب إلى قبيلة صنهاجة إحدى فروع البرانس السبعة، والبرانس إحدى فرعي البربر، وصنهاجة أكبر قبائل البرانس[٢].

والبهفشيمي: نسبة إلى بَهَفْشيم القرية التي وُلد فيها، وهي بلدة من قرى بوش، في صعيد مصر الأسفل[٣].

والبهنسي: نسبة إلى بَهَنْسا، وهي بلدة بصعيد مصر[٤]

والقرافي: نسبة إلى القرافة، وهي محلة بمصر القديمة سكنتها قبيلة قرافة أحد بطون المعافر،[٥] واشتهر الإمام شهاب الدين بهذه النسبة لأنه سكن البقعة المسماة بهذا الاسم لا لكونه من قبيلة قرافة، وذلك حسب ما ذكره في كتابه العقد المنظوم

---

(١) انظر ترجمته في: ابن فرحون، الديباج المذهب، ج١، ص٢٣٦، ومحمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص١٨٨، الزركلي، الأعلام، ج١، ص٩٥، وعمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج١، ص١٥٨، وغيرها من المصادر المشار إليها في هامش هذا المطلب.

(٢) انظر: أبو العباس أحمد الناصرى، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج١، ص٦٤-٦٦، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، ط/ دار الكتاب، ١٩٥٤م الدار البيضاء.

(٣) انظر: الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٥٠٨، والأتابكي، المنهل الصافي، ج١، ص٢١٥

(٤) انظر: ابن الأثير، اللباب، ج١، ص١٩٢.

(٥) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٢.

في الخصوص والعموم[١].

• **مولده**: ولد القرافي في قرية بهفشيم المصرية سنة ٦٢٦هـ[٢]، ولم تذكر المصادر متى هاجرت أسرته من المغرب إلى مصر.

• **حياته العلمية**: نشأ القرافي في بلدته الصغيرة، ولعله تلقى فيها القرآن، والمبادئ الأولى للقراءة والكتابة، ثم انتقل إلى مصر القديمة، فنال من مناهل العلم فيها مختلف العلوم والمعارف، حيث درس في المدرسة الصاحبية،[٣] وجلس في حلقات الشيوخ والعلماء الذين عاصروه، فلزم شيخه العز بن عبد السلام[٤] وسنه خمس عشرة سنة، وهو يجتهد منذ ذلك في التردد على حلق العلم في المدارس

---

(١) انظر: سالم محمد القرني، تحقيق الأجوبة الفاخرة، ص٥١، وقد ذكر أنه نقل هذه المعلومة من مخطوط العقد المنظوم الموجود في مكتبة المسجد النبوي بالمدينة، برقم٢٥١/١١، وقد زرت مكتبة المسجد النبوي بالمدينة المنورة بتاريخ ١٤١٩/٨/٢٦هـ واطلعت على مخطوط مصورفي ميكروفيلم، برقم ١٦٧،و ٣٨٦، ويحتوي على ٢٠١ لوحة، ويعود تاريخ نسخه إلى ٩٩٣/١/١٥هـ، ولم أعثر على المعلومة التي تبين سبب اشتهار القرافي بلقبه، وكنت قد اطلعت قبل ذلك على نسخة مايكروفيلم أيضا، برقم ٢٠٠٥، في مكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة في ١٤١٩/٨/٢٥هـ، إلا أن الفيلم كان يعاد تصويره فلم يسمح لي بالاطلاع عليه لأكثر من ربع ساعة، ولم أجد فيه المعلومة المذكورة.

(٢) المصدر السابق، ص٥٠، عن النسخة الخطية للعقد المنظوم، وهدية العرفين، ج١، ص٩٩.

(٣) انظر: د. عياضة بن نامي السلمي، شهاب الدين القرافي، حياته وآراؤه الأصولية، ص١٢، ط/ مكتبة الرشد، الرياض، وعبد الله إبراهيم صلاح، الإمام شهاب الدين القرافي وأثره في الفقه الإسلامي، ص٦٦، ط١/ مركز دراسات العالم الإسلامي، ١٩٩١م، مالطا.

(٤) تأتي ترجمته في شيوخ القرافي ص٨٢ من هذا البحث.

والمساجد[1]، «وجدّ في طلب العلم فبلغ الغاية القصوى،... جمع فأوعى، وفاق أضرابه جنسا ونوعا»[2]، إليه انتهت رئاسة الفقه المالكي، وقصده طلبة العلم، وأجمع الشافعية والمالكية على أنه من أفضل ثلاثة علماء في عصره بالديار المصرية، وعُد من العلماء المجتهدين، حرر أحد عشر علما في ثمانية أشهر، وقيل ثمانية علوم في أحد عشر شهرا،[3] فقد حاز قصب السبق في علوم كثيرة، حيث برع في الفقه، والأصول، واللغة، والمنطق، والعقليات وعلم الكلام، وله معرفة بالتفسير، وأوتي مقدرة فائقة في تخريج المسائل الفقهية على القواعد الأصولية، ومهارة بمعرفة القواعد الكلية، وكان مناظرا قديرا، يناظر أصحاب الجدل من المسلمين والكفار بنَفَس طويل، ويجعل لكل قدره، بل أضاف إلى علومه الطب والهندسة والرياضيات، وعلم الفلك،[4] وكان يرى أن الفقيه والحاكم ينبغي أن يكون لديه إلمام بمختلف العلوم، فيقول: «وكم يخفى على الفقيه والحاكم الحق في المسائل الكثيرة بسبب الجهل بالحساب والطب والهندسة، فينبغي لذوي الهمم العالية أن لا يتركوا الاطلاع على العلوم ما أمكنهم»[5]، فالثقافة الواسعة، والإلمام بالعلوم المعاصرة مما يساعد الفقيه، على إصدار فتاواه، والحاكم

---

(١) انظر: القرافي، الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، ص١٢، مقدمة الكتاب لمحققه الشيخ/ عبد الفتاح أبو غدة، ط/ مكتبة المطبوعات الإسلامية، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م، حلب.

(٢) ابن فرحون، الديباج المذهب، ج١، ص٢٣٩.

(٣) انظر: ابن فرحون الديباج المذهب، ج١، ص٢٣٨-٢٣٩، والسيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص٣١٦.

(٤) انظر: ابن فرحون، الديباج المذهب، ج١، ص٢٣٦، السبكي، طبقات الشافعية، ج٥، ص٤١-٤٢، والكتبي، فوات الوفيات، ج٤،ص ٢٨، وعياضة السلمي، شهاب الدين القرافي حياته وآراؤه الأصولية، ص١٤ وما بعدها، وعبد الله إبراهيم صلاح، الإمام شهاب الدين القرافي وأثره في الفقه الإسلامي، ص٧١ وما بعدها.

(٥) أحمد بن إدريس القرافي، الفروق، ج٤، ص١١، ط، دار المعرفة، بيروت.

في إصدار أحكامه، والداعية أيضا في التعامل مع المدعوين. بل إن القرافي كانت لديه مهارة في الابتكارات العلمية والتصنيع، فقد صنع بنفسه شمعدانا يتغير ضوؤه كلما مرت ساعة من الليل، وفيه أشياء تتحرك في ساعات معلومة من الليل[١].

وقد أعطى من وقته الكثير في سبيل نشر العلم، حيث كان «معتكفا على التعليم على الدوام»[٢]، فدرّس في مدرسة طيبرس، وجامع مصر، وكذلك في مدرسة الصالحية زمنا، ثم مُنع منها، ثم عاد إليها مرة أخرى حتى توفاه الله[٣]، «وكان أحسن من ألقى الدروس وحلى من بديع كلامه نحور الطروس[٤]، إن عرضت حادثة فبحسن توضيحه تزول ، وبعزمته تحول»[٥]، فهو يمتلك إذن مواصفات المعلم الناجح الذي يوصل المعلومة إلى المتعلم بأيسر الطرق وأقربها فهما.

• شيوخه:

من شيوخ الإمام القرافي:

١- ابن الحاجب، أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الكردي المالكي، برع في الفقه والأصول والنحو والصرف والعروض، ولد سنة ٥٧٠هـ بمصر، ثم انتقل إلى دمشق سنة ٦١٧هـ وكان محبا للشيخ عزالدين بن عبد السلام، شاركه في سجنه وارتحاله إلى مصر سنة ٦٣٩هـ، ودرّس في المدرسة الفاضلية، ثم توجه إلى الإسكندرية ليقيم فيها فمات سنة ٦٤٦هـ رحمه الله تعالى تاركا مجموعة من التصانيف منها الإيضاح شرح المفصل، والكافية في النحو

---

(١) انظر: الزركلي، الأعلام، ج١، ص٩٥.

(٢) التنبكتي: نيل الابتهاج، بهامش الديباج، ص٢٣٥، ط١، عباس شقرون، ١٣٥١هـ القاهرة.

(٣) انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٦، ص٢٣٣.

(٤) الطروس، جمع طِرْس، وهي الصحيفة. انظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة (طرس)، ج١، ص٧٥٩.

(٥) ابن فرحون، الديباج المذهب، ج١، ص٢٣٦.

وغيرها[1].

٢- شمس الدين عبد الحميد بن عيسى الخسروشاهي الشافعي، عالم في الفقه والأصول وعلم الكلام والطب، ولد سنة ٥٨٠هـ بخسروشاه،[2] ثم قدم الشام ودرّس وأفاد، ثم انطلق إلى الكرك ثم إلى مصر، ثم عاد إلى دمشق وتوفي بها سنة ٦٥٢هـ، وله من الآثار: مختصر المهذب لأبي إسحاق الشيرازي، وتتمة الآيات البينات لفخر الدين الرازي، وغيرها.[3]

٣- زكي الدين عبد العظيم المنذري، ذكره القرافي في كتابه الفروق[4].

٤- عزالدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي الشافعي، شيخ الإسلام والمسلمين، الملقب بسلطان العلماء، ولد في دمشق، سنة ٥٧٧هـ، برع في الفقه والحديث والأصول، والتفسير، والعربية، واشتهر بالصلابة في الدين، درّس وأفتى، وتولى خطابة جامع دمشق إلى أن عُزل وسجن سنة ٦٣٨هـ بسبب موقفه الرافض لتسليم الفرنجة قلعة من قلاع المسلمين، فاتجه بعد ذلك إلى مصر سنة٦٣٩هـ، وتولى فيها خطابة جامع عمرو بن العاص، والقضاء فترة طويلة من

---

(١) انظر:عبد الوهاب بن علي السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٥، ص٨٠، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ومحمود محمد الطناجي، ط١، عيسى البابي الحلبي، مصر. وابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٢٣٤، والكتبي، فوات الوفيات، ج٢،ص٣٥٠، والسيوطي، بغية الوعاة، ج٢، ص١٣٤، وابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠٠-٢٦٤.

(٢) قرية من قرى تبريز بينها وبين مرو فرسخان. انظر: عبد المؤمن البغدادي، مراصد الاطلاع ، ج١، ص٤٦٧، تحقيق: علي البجاوي، ط١،دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٣هـ.

(٣) انظر: ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٢٥٥، والكتبي، فوات الوفيات، ج٢، ص٢٥٧، وابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٠، وابن فرحون، الديباج المذهب، ج١، ص٢٤٥.

(٤) انظر: القرافي، الفروق، ج٢، ص١٩١، والأتابكي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٦٣. وقد سبقت ترجمته بالتفصيل في شيوخ القرطبي ص٦٩، من هذا البحث.

الزمن، ثم اعتزل في بيته حتى توفي سنة ٦٦٠هـ ومن آثاره: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ومقاصد الصلاة، وقد أكثر القرافي عنه ولازمه وتأثر به،[1] وقال عنه: «وكان من أعيان العلماء وأولي الجد في الدين، والقيام بمصالح المسلمين خاصة وعامة، والثبات على الكتاب والسنة غير مكترث بالملوك فضلا عن غيرهم، لا تأخذه في الله لومة لائم»[2].

٥- محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد بن شرف الدين أبو بكر شمس الدين المقدسي، ولد بدمشق عام ٦٠٣هـ، وفيها تلقى العلم، ثم انتقل إلى بغداد وسمع الحديث بها، وتفقه، وأقام مدة ثم انتقل إلى مصر واستقر بها، وانتفع بعلمه خلق كثير، وصار شيخ مذهب الحنابلة علما ورئاسة وديانة وصلاحا، ولي مشيخة خانقاه سعيد السعداء، ودرس بالمدرسة الصالحية، ووصل إلى درجة قاضي قضاة الحنابلة، وكان زاهدا محتقرا للدنيا، غير مكترث بها، كثير التواضع والبر والصلة والصدقة، سمع القرافي عليه مصنفه: وصول ثواب القرآن، اعتزل الناس في آخر حياته سوى تدريسه بالمدرسة الصالحية إلى أن توفي عام ٦٧٦هـ، وله بالإضافة إلى ما سبق كتاب الجدل، وعيون الأخبار.[3]

٦- شرف الدين الكركي محمد بن عمران بن موسى بن عبد العزيز بن محمد ابن حزام الشريف الحسيني، ويعرف بالشريف الكركي، ولد بفاس بالمغرب، سنة ٦٢٧هـ وفيها تفقه بمذهب المالكية، ثم رحل إلى مصر وصحب العز بن عبد السلام، وتفقه عليه في مذهب الشافعية، علت مكانته حتى أصبح شيخ المالكية والشافعية بمصر والشام، ويقال إنه أتقن أكثر من ثلاثين فنا من العلوم، ولي قضاء الكرك

---

(١) انظر: السبكي، طبقات الشافعية، ج٨، ص٢٠٢، وابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٣٠١، وابن كثير البداية والنهاية، ج١٣، ص١٨٠، ٢٦٤، ابن فرحون، الديباج، ج١، ص٢٣٦.

(٢) القرافي، الفروق، ج٢، ص٢٥١.

(٣) انظر: ابن فرحون، الديباج المذهب، ج١، ص٢٣٦، وابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٣٥٣، وابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ٣٠٩-٣١٠، وقطب الدين موسى اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٣، ص٢٧٩، ط١، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ١٣٨٠هـ.

ودرّس بالمدرسة الطيبرسية، توفي بمصر سنة ٦٨٨هـ وقيل ٦٨٩هـ.[١]

• تلامذته: درّس الإمام القرافي في مراكز العلم التي كانت منتشرة في عصره، وأفاد خلقا كثيرا، ولكن المصادر وكتب التراجم لا تحفظ في الغالب إلا من اشتهر من التلاميذ وبلغ مكانة علمية يشار إليها بالبنان؛ لذا فإن ما سيذكرون هنا يمثلون بعضا ممن تلقى العلم على يد الإمام القرافي، وهم:

١- تقي الدين أبو القاسم عبد الوهاب بن خليفة بن بدر العلامي ، وقيل العلائي، المشهور بتقي الدين ابن بنت الأعز، كان فقيها نحويا أديبا، تولى القضاء والوزارة، ومشيخة الخانقاة، وخطابة الأزهر، والتدريس بالمدرسة الشريفية، والمدرسة الصلاحية، قرأ الأصول على القرافي، وتعليقة القرافي على المنتخب إنما صنعها لأجله، توفي بالقاهرة سنة ٦٩٥هـ، ودفن بالقرافة.[٢]

٢- محمد بن إبراهيم بن محمد اليقوري، -ويقور بلدة بالأندلس-[٣]، كنيته أبو عبد الله، عالم بالحديث والأصول، سمع من علماء الأندلس، زار مصر في طريقه إلى الحج، وتتلمذ على القرافي في علم الأصول، ثم رجع إلى الأندلس، ومن مصنفاته إكمال الإكمال على صحيح مسلم، واختصر كتاب القرافي الفروق، ورتبه، توفي سنة ٧٠٧هـ بمراكش.[٤]

---

(١) انظر: ابن فرحون، الديباج المذهب، ج٢، ص٣٢٦. والسيوطي، بغية الوعاة، ج١، ص٢٠٢-٢٠٣.

(٢) انظر: الكتبي، فوات الوفيات، ج٢، ص٢٧٩-٢٨٠، والأتابكي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٨٢، والسبكي، طبقات الشافعية، ج٨، ص١٧٢، وابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٤٢١، وابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٨٦.

(٣) المقري، نفح الطيب، ج٢، ص٥٣.

(٤) انظر: محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ٢٠٧-٢٠٨، وابن فرحون، الديباج المذهب، ج٢، ص٣١٦، كحالة، معجم المؤلفين، ج٨، ص٢١٦، والبغدادي، إيضاح المكنون، ج١، ص١١٦، ط/١٣٤٦هـ-١٩٥٤م.

٣- شهاب الدين المرداوي أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الولي المقدسي المقرئ الفقيه الحنبلي الأصولي النحوي، المولود بالشام سنة ثمان وأربعين وستمائة، كان ذا دين وزهد، سمع من علماء الشام، ورحل إلى مصر فقرأ بها القراءات، وقرأ الأصول على القرافي، وعلا كعبه فيها وفي العربية، وتفقه على مذهب الحنابلة ثم رجع إلى دمشق، وانتقل بعد ذلك إلى حلب ، ثم استوطن بيت المقدس، وتصدر لإقراء القراءات وعلوم العربية، وصنف تصانيف كثيرة في القرآن وعلومه، توفي بالقدس سنة ٧٢٨هـ[1].

٤- أبو حفص عمر ابن أبي اليمن علي بن سالم بن صدقة اللخمي الإسكندري الشهير بتاج الدين الفاكهاني، ولد سنة ٦٥٤هـ بالإسكندرية، تمكن في الحديث والأصول والفقه والعربية، مع الدين المتين والصلاح، سمع عن كثير من علماء عصره منهم القرافي، رحل إلى دمشق ثم عاد إلى الإسكندرية، وتوفي فيها سنة٧٣٤هـ، له شرح على العمدة في الحديث، وشرح الأربعين للنووي، والإشارة في العربية وشرحها.[2]

٥- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن راشد القفصي ، فقيه أصولي مالكي، أخذ عن علماء المشرق والمغرب، لازم القرافي وانتفع به، وأجازه، حج سنة ٦٨٠هـ، ثم عاد بعلم واسع، وتولى قضاء مدينة قفصة التونسية، ثم عزل ، درس عليه جماعة، وله آثار مفيدة تشهد على فضله وعلمه، منها: الشهاب الثاقب في شرح مختصر ابن الحاجب، والمذهب في شرح قواعد المذهب في ستة مجلدات، توفي في تونس،

---

(١) انظر: ابن العماد، شذرات الذهب، ج٦، ص٨٧، وابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص١٥٥، والسيوطي، الدرر الكامنة، ج١، ص٢٧٦.

(٢) انظر: محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص٢٠٤، والسيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص٤٥٨، وابن كثير البداية والنهاية، ج١٤، ص١٨٤، وابن فرحون ، الديباج المذهب، ج٢، ص٨٠، وابن العماد، شذرات الذهب، ج٦، ص٩٦-٩٧، والسيوطي، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٥٤-٢٥٥.

سنة٧٣٦هـ[1].

٦- إبراهيم بن يخلف أبو إسحاق التنسي المطماطي، إمام عالم، وفقيه عامل، كان مالكي المذهب، وإليه انتهت رئاسة العلم في إفريقيا والمغرب، أخذ عن القرافي وعن غيره من علماء المشرق المنطق والجدل، ومن مصنفاته: شرح التلقين للقاضي عبد الوهاب المالكي في عشرة أسفار، ولم تذكر كتب التراجم تأريخ مولده ووفاته.[2]

• **جهوده في دعوة النصارى:** كان للإمام القرافي اهتمام خاص بدعوة النصارى إلى الإسلام، وإظهار الحق لهم وإبطال الباطل الذي يعتقدونه صحيحا، وكانت له إسهامات في هذا المجال، وقد وصل إلينا كتابان من مؤلفاته خص بهما النصارى بالرد وبيان الحق، أحدهما الأجوبة الفاخرة في الرد عن الأسئلة الفاجرة، والآخر أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية، وهما الكتابان المدروسان في هذه الأطروحة، كما كان للإمام القرافي جهد آخر وإن كان ما وصل إلينا منه مجرد إشارات، ومن ذلك مناظرته للنصارى، فقد سبقت الإشارة إلى أنه كان يناظر المسلمين والكفار، بل نص في كتابه الأجوبة الفاخرة على مناظرته بعض النصارى وعجزهم عن بيان عقيدتهم فقال: «ولقد اجتمع بي بعض أعيانهم المبرزين في حلبة سباقهم ليتحدث في أمر دين النصرانية، فقلت بحضرة جماعة من العدول: أنا لا أكلف النصارى إقامة دليل على صحة دينهم!! بل أطالبهم كلهم بأن يصوّروا دينهم تصويرا يقبله العقل، فإذا صوروه اكتفيت منهم بذلك من غير مطالبتهم بدليل على صحته، فحاول هو نفسه تصوير دينهم فعجز عنه، قال: ما كلفنا بالتصوير، بل كلفنا المسيح بالاعتقاد، فلا نلتزم ما لا يلزمنا، وما ليس من ديننا، فجنح إلى ما قدمته لك من السكون إلى التقليد وعدم النظر فيما يصح ويفيد.

فقلت له: الاعتقاد لا بد فيه من أن تثبت شيئا لشيء أو تنفيه عنه، فهو مركب

---

(١) انظر: مخلوف، شجرة النور الزكية، ص٢٠٧-٢٠٨، وابن فرحون، الديباج المذهب، ج٢، ص٣٢٨، وأحمد التنبكتي، نيل الابتهاج، ص٢٣٥، ط١، عباس شقرون، ١٣٥١هـ مصر.

(٢) التنبكتي، نيل الابتهاج، ص٣٥-٣٧، ومحمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص٢١٨.

من تصورين: تصور المحكوم عليه وتصور المحكوم به، وأنتم -على ما قلت- مكلَّفون بالاعتقاد، ومن كُلِّف بمركب كُلِّف بمفرداته، فمتى كلفت بالاعتقاد كلفت بالتصوير، فأنتم حينئذ مكلفون بالتصوير، فصوِّر لي دينك؟ فانقطع ورأى أنه قد أصيب من مأمنه ولزمه السؤال من قوله»[1]، ثم طلب إمهاله ثلاثة أيام للرد على هذا السؤال ولكنه لم يعد.

إذن فإنه كان للإمام القرافي صولات وجولات، في دعوة النصارى والرد على شبهاتهم على قدر يتناسب مع ثقلهم السكاني، وأهمية نشر الدعوة في وسطهم.

• **تراثه الفكري والعلمي**: ترك الإمام القرافي وراءه إرثا علميا ضخما تمثل في مجموعة من المؤلفات العلمية المختلفة الفنون، بلغ ما وصل إلينا منها بكامله أو بعضه أو وصلنا اسمه فقط أكثر من ثلاثين كتابا، وهي:

أ] المطبوع:

١- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، وهو أحد الكتب المدروسة في هذه الرسالة.

٢- الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام،[2] طبع بتحقيق أكثر من محقق، منهم الشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

٣- أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية، وهو أحد الكتب المدروسة في هذه الرسالة.

٤- الاستغناء في أحكام الاستثناء،[3] طبع بتحقيق الدكتور طه محسن

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢٦، تحقيق: مجدي محمد الشهاوي، ط/ مكتبة القرآن، القاهرة.

(٢) انظر: البغدادي، هدية العارفين، ج١، ص٩٩، والصفدي، الوافي بالوفيات، ج٦، ص٢٣٣-٢٣٤، ونسب القرافي الكتاب إلى نفسه في الفروق، ج٤، ص٦-٧.

(٣) انظر: ابن فرحون، الديباج المذهب، ج١، ص٢٣٦، والبغدادي، هدية العارفين، ج١، ص٩٩، ونسبه القرافي إلى نفسه في شرح تنقيح الفصول، ص٢٤٦-٢٤٧.

عبدالرحمن.

٥- الأمنية في إدراك النية،[١] طبع بتحقيق عبد الله إبراهيم صلاح ضمن كتابه الإمام شهاب الدين القرافي وأثره في الفقه الإسلامي.

٦- أنوار البروق في أنواء الفروق، ويعرف بالأنوار والأنواء، أو كتاب الأنوار والقواعد السنية في الأسرار الفقهية، وهو مشهور بالفروق.[٢]

٧- تنقيح الفصول في الأصول، وقد طبع كمقدمة ثانية لكتاب الذخيرة.[٣]

٨- الخصائص في قواعد العربية[٤].

٩- الذخيرة، وهو موسوعة فقهية عامة وفي الفقه المالكي خاصة، طبع الجزء الأول منه، وبعض الأجزاء حققت كبحوث علمية للدراسات العليا في جامعتي أم القرى بمكة، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والجزء الثالث منها مفقود.[٥]

١٠- شرح تنقيح الفصول في الأصول، له أكثر من طبعة.

---

(١) نسب القرافي هذا الكتاب إلى نفسه، انظر: تحقيق: نفائس الأصول في شرح المحصول، ص٧٧٧، رسالة دكتوراه مقدمة من عبد الكريم بن علي النملة، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بالرياض، ط/ غير منشورة.وقد حقق الطالب مساعد ابن قاسم الفالح، كتاب الأمنية، ونال عليه درجة الماجستير في كلية الشريعة، بجامعة الإمام عام ١٤٠١هـ.

(٢) انظر: القرافي: الفروق، ج١، ص٤.

(٣) انظر: القرافي، الذخيرة، ص٥٠.

(٤) انظر: الزركلي، الأعلام، ج١، ص٩٥. وطبعته وزارة الثقافة والإعلام العراقية، ببغداد، بتحقيق طه محسن. انظر: د. عبد الهادي الفضلي، فهرست الكتب النحوية المطبوعة، ص٩١، ط١/ مكتبة المنار،١٤٠٧هـ-١٩٨٦م، الزرقاء، الأردن،

(٥) انظر: عبد الكريم النملة، في تحقيقه لنفائس الأصول للقرافي، القسم التحقيق، ص٩٠.

ب] المخطوط والمفقود:

١١- الأجوبة الواردة على خطب ابن نباتة الكبير[1].

١٢- الاحتمالات المرجوحة[2].

١٣- الاستبصار فيما يدرك بالأبصار[3]، له نسخ خطية في مكتبة سعد أفندي بأستنبول برقم (١٢٧٠)، ونسخة في دار الكتب بالقاهرة، برقم ٨٣ حكمت تيمور، وغيرهما.

١٤- الانقاد في الاعتقاد[4].

١٥- البارز للكفاح في الميدان[5].

١٦- البيان في تعليق الإيمان[6].

١٧- التعليقات على المنتخب[7].

---

(١) انظر: ابن فرحون، الديباج المذهب، ج١، ص٢٣٨، والبغدادي، هدية العارفين، ج١، ص٩٩، وغيرهما من الكتب التي ترجمت للقرافي.

(٢) انظر: المصدرين نفسيهما، الأجزاء والصفحات نفسها.

(٣) انظر: المصدرين نفسيهما، الأجزاء والصفحات نفسها. وحاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ص٧٧.

(٤) انظر: ابن فرحون، الديباج المذهب، ج١، ص٢٣٧، واختار المحقق عنوان الانتقاد بدلا من الانقاد، والبغدادي، هدية العارفين، ج١ ص٩٩، ومحمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص١٨٨، وذكره القرافي في كتابه الاستغناء في موضعين، ص٣٥٨و٣٦٣.

(٥) انظر: ابن فرحون، الديباج المذهب، ج١، ص٢٣٨، والبغدادي، هدية العارفين، ج١، ص٩٩.

(٦) انظر: المصدرين السابقين، الصفحات نفسها.

(٧) انظر: ابن فرحون، الديباج المذهب، ج١، ص٢٣٦، والسبكي، طبقات الشافعية، ج٦، ص٦٤، والأتابكي، المنهل الصافي، ج١، ص٢١٦، ومخلوف، شجرة النور الزكية، ص١٨٨. والمنتخب هو: مؤلف في أصول الفقه للإمام الفخر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ.

١٨- شرح الأربعين في أصول الدين للفخر الرازي[١]

١٩- شرح تهذيب المدونة، لأبي سعيد البراذعي المتوفى ٣٧٢هـ[٢].

٢٠- شرح الجلاب لأبي القاسم ابن الجلاب[٣].

٢١- العقد المنظوم في الخصوص والعموم،[٤] نسخة خطية بمكتبة المسجد النبوي بالمدينة، ميكروفيلم رقم١٦٧، و٣٨٦، أصول فقه، وبرقم ٢٠٠٥ في المكتبة المركزية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وغيرها من النسخ في دار الكتب بالقاهرة، وقد حققه د. محمد الختم في رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى، بمكة المكرمة.

٢٢- العموم ورفعه[٥].

٢٣- القواعد الثلاثون في علم العربية،[٦] نسخة مخطوطة منه ضمن مجموع رقمه (٥/١٠١٣) المكتبة الوطنية باريس.

٢٤- القواعد الصغرى في الأصول، ذكر في صفحة عنوان مخطوط العقد المنظوم في الخصوص والعموم المنسوخة سنة٩٩٣هـ، بمكتبة المسجد النبوي بالمدينة المنورة.[٧]

---

(١) انظر: ابن فرحون، الديباج، ج١، ص٢٣٧، والبغدادي، هدية العارفين، ج١، ص٩٩، ومخلوف، شجرة النور الزكية، ص١٨٩، وذكره القرافي في الفروق، ج٣، ص٢٧، والاستغناء، ص٣٦٢.

(٢) الديباج المذهب، ج١، ص٢٣٧، وهدية العارفين، ج١، ص٩٩، وشجرة النور الزكية، ١٨٨.

(٣) انظر: المصادر نفسها، والصفحات نفسها.

(٤) انظر: البغدادي، هدية العارفين، ج١، ص٩٩، وحاجي خليفة، كشف الظنون، ج٢، ص١١٥٣.

(٥) الديباج المذهب، ج١، ص٢٣٧.

(٦) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج١، ص٤٨١، النسخة الألمانية.

(٧) سالم القرني، في تحقيقه للأجوبة الفاخرة، ص٧٦.

٢٥- القواعد الكبرى في الأصول، أيضا مذكور في صفحة عنوان مخطوط العقد المنظوم.

٢٦- لوامع الفروق في الأصول، نسخة منها في فاس برقم ١٣٨٤[١].

٢٧- المعين على كتاب التلقين، منه نسخة خطية بجامع القرويين بفاس، صورة مايكروفيلم منه في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، رقم (١١٢٥).

٢٨- المناظر في الرياضيات[٢].

٢٩- المنجيات والموبقات في الأدعية وما يجوز منها وما يكره وما يحرم، نسخة منه في مكتبة البلدية في الإسكندرية، برقم ١٦، فقه مالكي[٣].

٣٠- نفائس الأصول في شرح المحصول لفخر الدين الرازي، أو أسرار نفائس الأصول شرح المحصول، وقد حقق الكتاب كل من الشيخ عياضة السلمي، وعبد الكريم النملة، وعبد الرحمن المطيري، في رسالة دكتوراه مقدمة إلى قسم الفقه، في كلية الشريعة، بالرياض.

٣١- اليواقيت في أحكام المواقيت[٤]، نسخة خطية منه في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط بالمغرب، برقم ٢/١٢٤، ونسخة أخرى في الخزانة الملكية بالرباط برقم (٣٩٠٦)[٥].

---

(١) انظر: بروكلمان، ج١، ص٦٦٦، الملحق، النسخة الألمانية.

(٢) البغدادي، هدية العارفين، ج١، ص٩٩.

(٣) انظر: بروكلمان، تأريخ الأدب العربي، ج١، ص٤٨٢، النسخة الألمانية.

(٤) انظر: الديباج المذهب، ج١، ص٢٣٧، وهدية العارفين، ج١، ص٩٩، وذكره القرافي في كتابه الفروق، ج٣، ص٢٩٢.

(٥) انظر: د. عياضة السلمي، شهاب الدين القرافي حياته وآراؤه الأصولية، ص٧٣.

• **وفاته**: توفي الإمام القرافي -رحمه الله- في آخر يوم من جمادى الآخرة بدير الطين بالقرب من مصر القديمة، ودفن بالقرافة، وذلك في عام ٦٨٤هـ على أرجح الأقوال[١].

(١) انظر: ابن فرحون، الديباج المذهب، ج١، ص٢٣٩، وعمر كحالة، معجم المؤلفين، ج١، ص١٥٨، ود. عياضة السلمي، شهاب الدين القرافي حياته وآراؤه الأصولية، ص٦٥، وسالم القرني، في تحقيقه لكتاب الأجوبة الفاخرة، ص٥٤.

المبحث الرابع

مصادر الدراسة

تعتمد هذه الدراسة على عدد من المصادر والمراجع، ولكن هناك مصادر أساس ترتكز عليها تحليلات هذه الدراسة وتُستنبط منها موضوع الدراسة، وهي:

١- الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام للإمام أبي عبد الله القرطبي، تحقيق وتقديم وتعليق الدكتور / أحمد حجازي السقا.

هذا الكتاب طُبع بتحقيق وتقديم وتعليق الدكتور أحمد حجازي السقا، ويقع في حوالي أربعمائة صفحة من القطع المتوسط بدون مقدمات المحقق وملاحق، وقد ألفه صاحبه ردا على كتاب بعث به أحد النصارى من طليطلة، إلى قرطبة سماه «تثليث الوحدانية»، وهو في الوقت نفسه رد على كتب كثيرة ورسائل للنصارى الكاثوليك في الأندلس، فقد ذكر بالنقد مجموعة من الكتب النصرانية التي كانت معروفة في عصره ككتاب (المسائل) و (الحروف) و (مصحف العالم الكائن) وغيرها من الرسائل والكتب التي ألفها قسس النصارى وأساقفتهم.

والإمام القرطبي فند في كتابه كل ما جاء في كتاب النصراني ورد عليه من خلال كتابه الإعلام الذي اشتمل على أربعة أبواب.

فقد جعل الباب الأول في بيان مذاهب النصارى في الأقانيم وإبطال قولهم فيها، وذكر قولهم في تعليل التثليث، وأدلتهم والرد عليها.

والباب الثاني في بيان مذاهب النصارى في الاتحاد والحلول وكيفية تجسد المسيح، مع حكاية كلام المتقدمين منهم والمتأخرين، والرد عليهم جميعا، وفي خاتمة هذا الباب ذكر مذهب صاحب كتاب مصحف العالم الكائن، ونقده نقدا شديدا.

أما الباب الثالث فكان في النبوات، وذكر كلام النصارى فيها، وأمر المسيح المنتظر، وبين الحق فيها، وحاول إثبات ذكر محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة

والإنجيل رغم تحريفهما، كما تحدث في هذا الباب عن معنى النبوة، والمعجزة، وبين معجزات عيسى عليه السلام ودلالاتها.

واستدل على ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بإخبار الأنبياء به قبله، وبقرائن أحواله، وبما جاء في القرآن الكريم، وبالمعجزات التي أجريت على يديه.

أما في الباب الرابع فقد أبان أن النصارى متحكمون في أديانهم وأنهم لا مستند لهم في أحكامهم إلا محض أغراضهم وأهوائهم ، وهم قد خرجوا على تعاليم التوراة ، وذكر أسرار الكنيسة والطقوس النصرانية.

كما ذكر في هذا الباب عقائد الإسلام وأصول أحكامه، ورد فيه على شبه النصارى حول الإسلام.

وهذا الكتاب قد ألفه في الأندلس في القرن السابع الهجري وبالتحديد في مدينة قرطبة، وذلك قبل سقوطها، فقد قال في أثناء حديثه عن معجزة ظهور الإسلام على الدين النصراني: «وحسبك شاهدا على ذلك فتح هذه الجزيرة الأندلسية على يدي جماعة من العرب قليل عَددهم وعُددهم»[(١)] ، ومما يدل على تأليف الكتاب في القرن السابع الهجري قوله: «وهذا دين محمد رسولنا صلى الله عليه وسلم قائم منذ ستمائة سنة ونيف»[(٢)] ، ولعله يقصد ستمائة سنة ونيف منذ البعثة المحمدية، ويوافق ذلك بدايات القرن السابع، وقد ورد في نص آخر في مقدمة الكتاب ما يشعر أن القرطبي كتب رده للنصراني في مدينة قرطبة قبل سقوطها في عام ٦٣٣هـ، حيث قال: «فقد وقفت ـ وفقك الله ـ على كتاب كتب به بعض المنتحلين لدين الملة النصرانية سماه (تثليث الوحدانية) بعث به من طليطلة أعادها الله إلى مدينة قرطبة حرسها الله»[(٣)] ، فقوله عند ذكر مدينة طليطلة أعادها الله، وعند ذكر مدينة قرطبة حرسها الله دليل على أن مدينة طليطلة كان قد استولى عليها النصارى وأخذوها من المسلمين،

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٣٣٩-٣٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٢١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٣.

بينما مدينة قرطبة كانت ما تزال في يد المسلمين في أثناء كتابته للكتاب، فهو يدعو للأولى أن تعود إلى المسلمين، وللثانية بأن يحرسها الله من اعتداء النصارى واستيلائهم عليها.

ذكر هذا الكتاب صاحب كتاب (إظهار الحق) واطلع عليه في القسطنطينية بمكتبة كوبرلي، واستفاد منه، ونسبه إلى أبي عبد الله القرطبي[١]، وورد ذكره أيضا في (هدية العارفين)[٢] و (تأريخ الأدب العربي)[٣]، ونسبه الدكتور القصبي زلط في دراسته لمرحلة الدكتوراه (القرطبي ومنهجه في التفسير)[٤] إلى القرطبي وكذلك يوسف عبد الرحمن الفرت في رسالته للدكتوراه أيضا (القرطبي المفسر سيرة ومنهج)[٥]، ومشهور حسن سلمان في (الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير)[٦].

وللكتاب نسخ مخطوطة، منها نسختان في مكتبة كوبرلي بتركيا إحداهما تحت رقم ٧٩٤، وقد تم الفراغ منها في السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين وثمانمائة، نقلا عن نسخة فُرغ منها في ضحوة سادس شهر شعبان سنة ست وعشرين وسبعمائة بدمشق، والثانية برقم ٨١٤، وكان الفراغ منها في سلخ رجب سنة ثمان وسبعين وألف للهجرة، نقلا من نسخة كان الفراغ منها في

---

(١) انظر: رحمة الله الهندي، إظهار الحق، ج٢، ص٣٩٥-٣٩٧.

(٢) البغدادي، هدية العارفين، ج٢، ص١٢٩.

(٣) كارل بروكلمان، تأريخ الأدب العربي، ج١، ص٧٣٧، الملحق، النسخة الألمانية.

(٤) القصبي محمود زلط، القرطبي ومنهجه في التفسير، ص٤٧-٤٨.

(٥) يوسف عبد الرحمن الفرت، القرطبي المفسر سيرة ومنهج، ص٩١، ط١، دار القلم، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م الكويت.

(٦) مشهور حسن محمود سلمان، الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، ص١٤٢-١٤٣.

العاشر من صفر سنة خمس وخمسين وسبعمائة للهجرة.[1].

وهناك نسخة أخرى ثالثة في الخزانة العامة بالرباط، كان الفراغ منها أواخر يوم الخميس شهر جمادى الأولى سنة اثنين وأربعين ومئة وألف بجزيرة جربة. وتوجد صورة منها في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية،[2].

وعندما أخرجه الدكتور أحمد حجازي السقا مطبوعا اعتمد على نسخ مصورة بالميكروفيلم في معهد إحياء المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية عن النسخ الموجودة في كوبرلي، وقد شك في نسبة الكتاب إلى أبي عبد الله القرطبي اعتمادا على أن الفراغ من المخطوط كان سنة ست وعشرين وسبعمائة، وأن صاحب (الديباج المذهب) لم يعدّ الإعلام من مؤلفات القرطبي، وأن أسلوبه يختلف عن أسلوب القرطبي المفسر، مما يحتمل أن يكون مؤلفه عالم قرطبي آخر غير المفسر، وذلك بالرغم من ذكره نسبة كارل بروكلمان[3] الكتاب إلى أبي عبد الله القرطبي المفسر[4].

والحقيقة فإن المحقق لم يبذل جهدا كبيرا في التحقق من نسبة الكتاب فلم يوفق في الملاحظات التي أوردها كلها، لأن في صلب الكتاب ـ كما سبق ذكره ـ ما يدل

---

(١) انظر: د. رمضان ششن وزملاؤه، فهرس مخطوطات مكتبة كوبرلي، ج١، ص٣٨٧، وص٣٩٥، ط/ منظمة المؤتمر الإسلامي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

(٢) انظر: مشهور حسن سلمان، الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، ص١٤٣.

(٣) كارل بروكلمان، مستشرق ألماني متخصص في تاريخ الأدب العربي، ولد سنة ١٢٨٥هـ ١٨٧٨م، نال شهادة دكتوراه في الفلسفة واللاهوت، ودرّس في عدة جامعات ألمانية، وله كتاب تأريخ الأدب العربي، وتأريخ الشعوب الإسلامية، توفي سنة ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م. انظر: الزركلي، الأعلام، ج٥، ص٢١١-٢١٢.

(٤) انظر: القرطبي، الإعلام، مقدمة المحقق: أحمد السقا، ص٥.

أن الكتاب تم تأليفه في النصف الأول من القرن السابع، قبل سقوط قرطبة أي قبل عام ٦٣٣هـ، كما أن صاحب كتاب الديباج المذهب لم يذكر جميع مؤلفات القرطبي، فقد غفل عن غير كتاب الإعلام، مما أثبتها القرطبي في بعض كتبه، بل إن جوانب عديدة من حياة الإمام القرطبي لم توضِّح معالمها كتبُ التراجم التي ترجمت لحياته، وأما الأسلوب فإن نوعية الموضوع واختلاف الفترة الزمنية له دور في اختلاف أسلوب كتابة مؤلف ما، ولا يعقل أن يكون حديث المرء ردا على أعدائه المعتدين كحديثه مع أصدقائه المقربين.

وقد ذهب الباحثان علي بن سليمان العبيد، وأحمد بن عثمان المزيد إلى نفي نسبة هذا الكتاب إلى أبي عبد الله القرطبي، وظنا أن يكون لعالم قرطبي آخر لم يحدداه، وذلك بحجة أن ليس في الكتاب ذكر لبعض شيوخ القرطبي أو لبعض كتبه مما كان من عادة القرطبي في كتبه الأخرى، كما أن المعلومات الواسعة المتعلقة بالتوراة والإنجيل في كتاب الإعلام لا تظهر عند أبي عبد الله في تفسيره[1].

إلا أن هذا غير كاف للجزم بنفي الكتاب عن أبي عبد الله القرطبي لأن ذكر الشيوخ والكتب في أثناء الحديث تأتي لمناسبة، وإذا لم توجد المناسبة فلا داعي لها، كما أن نفي معرفة القرطبي بالتوراة والإنجيل اعتمادا على أنه لم يظهر ذلك في تفسيره ليس دليلا كافيا، لأن القرطبي لم ينص على أنه لا علم له بالتوراة والإنجيل في تفسيره، ونظرا لوضع تفسيره وفق منهج معين منها: الإضراب عن روايات المؤرخين وقصص المفسرين إلا ما لا بد منه والتعويض عن ذلك بتبيين آي الأحكام،[2]

---

(١) انظر: علي بن سليمان العبيد، القرطبي مفسرا، ص٧٩-٨١، رسالة ماجستير، ط/ غير منشورة. وأيضا: أحمد بن عثمان المزيد، منهج الإمام القرطبي في أصول الدين، ص٦٢-٦٣، رسالة ماجستير،ط/ غير منشورة.

(٢) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١، ص٣.

والابتعاد نوعا ما عن الإسرائيليات[١] يجعل كتابه في التفسير بعيدا عن ذكر عقائد النصارى وتفاصيل دينهم. بل إن اختلاف مواقفه وآرائه في بعض القضايا أيضا غير كاف للنفي والإثبات الجازم، فمثلا: ذكر القرطبي في كتابه التذكرة في أحوال الموتى اختلاف الآراء في مريم بنت عمران، هل هي نبية؟ أم صديقة؟ واكتفى بذلك، بينما رجح في تفسيره نبوة مريم[٢]، والكتابان مجزوم بنسبتهما إليه، وأيضا هناك كلمات يرددها القرطبي في مواقف معينة نجدها في كتاب الإعلام وفي تفسيره مثل قوله «أعادها الله» عند ذكر مدينة استولى عليها النصارى بعد أن كانت إسلامية[٣].

وقد حُقق الكتاب تحقيقا علميا في جامعة أم القرى في رسالة دكتوراه، وقد أثبت الباحث الكتاب للقرطبي من خلال القرائن التي وجدها في المخطوطات الثلاثة التي اعتمد عليها[٢].

٢- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، للقرافي.

هذا الكتاب نشر كاملا دون تحقيق على هامش كتاب الفارق بين المخلوق والخالق، لعبد الرحمن الباجي، وأخرجته مفردا دار الكتب العلمية في لبنان عام ١٤٠٦هـ، في ١٩٥ صفحة من دون تحقيق أو تعليق واكتفت بعزو الآيات القرآنية إلى سورها ورقم آياتها، وقد حقق جزء منه علميا كما سبقت الإشارة في المقدمة من قبل الباحث سالم القرني، وقد ظهر أيضا بتحقيق مجدي محمد الشهاوي، في

---

(١) انظر: محمد محمد أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، ص١٣٧، ط٤، مكتب السنة المحمدية، ١٤٠٨هـ القاهرة.

(٢) انظر: القرطبي، التذكرة في أحوال الموتى، ص٦، والجامع لأحكام القرآن، ج٤، ص٨٢.

(٣) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٣، ص٢٣٧، والإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، ص٤٣.

(٢) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٤٧ وما بعدها، تحقيق ودراسة، فايز سعيد صالح عزام، رسالة دكتوراه جامعة أم القرى، كلية الشريعة، عام ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، ط، غير منشورة.

مائتي صفحة تقريبا من القطع المتوسط، إلا أن تحقيقه اختصر على عزو الآيات وتخريج الأحاديث، وعزو بعض الأقوال إلى مصادرها، ولم يخرج النصوص المتعلقة بكتب النصارى، كما أخرج الكتاب الباحث بكر زكي عوض بتعليقات أوسع ونشرته مكتبة وهبة في ١٤٠٧هـ الطبعة الثانية.

والكتاب تم تأليفه ردا على أسئلة أنشأها بعض النصارى مشيرا أن غيره هو القائل، وأنه هو السائل، مشتملة على الاحتجاج بالقرآن الكريم على صحة مذهب النصرانية.

وقد جاء كتاب القرافي في أربعة أبواب، الباب الأول في بيان ما التبس على السائل من القرآن الكريم متتبعا فيه رسالته حرفا حرفا إلى آخرها.

والباب الثاني في أسئلة لأهل الكتاب النصارى واليهود عادتهم يتولعون بإيرادها - غير أسئلة الرسالة المذكورة - والجواب عنها، وذلك من أجل أن يحيط من قرأ كتاب الأجوبة الفاخرة بجميع ما يسأل عنه أهل الكتاب وأجوبته الحقيقية الدقيقة.

أما الباب الثالث ففي معارضة أسئلة النصارى بمائة سؤال يتعذر على الفريقين من أهل الكتاب الجواب عنها.

أما الباب الرابع وهو الأخير: فهو في إبداء ما في كتبهم مما يدل على صحة الدين الإسلامي وإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، بحيث يكون استدلالهم الباطل معارضا بالاستدلال الصحيح.

وهذا الكتاب وإن كان موجها في الأصل للنصارى، فإن القرافي شمل في حديثه اليهود والنصارى معا، وكان يصرح بذكر اليهود إذا كان الخطاب موجها إليهم خاصة، ويذكر الفريقين إن كان الحديث يعني الفريقين[١]، وقد أغفلت في أثناء دراستي ما كان موجها لليهود خاصة.

والكتاب مذكور في كتب التراجم التي ترجمت للقرافي ومنها: الديباج المذهب[٢]

---

(١) انظر: الأجوبة الفاخرة، ص١٠٠، ١٠٢، ١٠٨، ١١٨.

(٢) انظر: ابن فرحون، الديباج المذهب، ج١، ص٢٣٦.

وهدية العارفين[١]، والأعلام[٢]، وشجرة النور الزكية[٣]، وله نسخ عديدة من المخطوطات[٤].

٣- أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية، للقرافي،[٥]

هذا الكتاب حققه عبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية، من مخطوطة مصورة في مايكرو فيلم بمؤسسة الملك فيصل الخيرية برقم (١٠٥)، فجاءت مطبوعة في مائة صفحة تقريبا من القطع المتوسط، والكتاب إهداء من القرافي للسلطان المملوكي الناصر لدين الله[٦]، وقد رأى القرافي أن أولى ما تصرف إليه الهمم الذب عن حوزة الدين، وحراسة بيضة المسلمين بالبحث في الملل والأديان، وإقامة الدليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى.

فجاء هذا الكتاب الذي جمع فيه مذاهبهم، وخاطبهم بفصوص نصوصهم، وجادلهم مجادلة الأقران.

وقد قسم الكتاب إلى أربعة أصول:

الأصل الأول في حكاية مذهب النصارى على جليته، وكيف استدلوا - بزعمهم - على صحته من المنقول، واعتقاد كل فريق منهم في الإله عن طريق المعقول، وسبب وضعهم للأمانة [ما يصدر عن مجامعهم من مبادئ وقرارات] وحكاية مذاهبهم العشرة، وكيف كفّر بعضهم بعضا ولعن بعضهم بعضا، وكيف ارتكبوا في هذه

---

(١) البغدادي، هدية العارفين، ج١، ص٩٩.

(٢) الزركلي، الأعلام، ج١، ص٩٥.

(٣) محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص١٨٨.

(٤) للتوسع في أمر المخطوطات وما يتعلق بها انظر: تحقيق سالم محمد القرني للأجوبة الفاخرة، ص٨.

(٥) البغداي، هدية العارفين، ج١، ص٩٩.

(٦) سبقت ترجمته في ص٣٠.

المجامع الضلالات، ووقعوا في حيرة من معرفة خالقهم.

أما الأصل الثاني فهو في الرد عليهم، وفيه كشف أسرارهم، وبيان ارتكابهم المستحيل ومخالفتهم لما جاء في التوراة والإنجيل.

والأصل الثالث في بيان غلط النقلة للأناجيل وبيان تناقضها .

والأصل الرابع والأخير في ذكر النبي الأمي في الإنجيل كما أخبر عنه في القرآن الكريم.

هذه هي المصار الأساس التي استفرغ الباحث فيها جهده لاستخراج أسلوب الإمامين القرطبي والقرافي في دعوة النصارى إلى الإسلام، فهذه الكتب الثلاثة هي بمثابة المنابع والدعائم الأساس المبينة لأسلوب الإمامين في دعوة هذه الفئة من الناس إلى الإسلام.

الفصل الثاني

بيئة القرطبي

المبحث الأول: الحالة السياسية والاجتماعية والدينية في عصره
المبحث الثاني: الصراع الدعوي بين المسلمين والنصارى في عصر القرطبي.
المبحث الثالث: آثار هذه البيئة على أسلوب القرطبي في دعوة النصارى. الآثار الإيجابية - الآثار السلبية.

المبحث الأول

الحالة السياسية والاجتماعية والدينية في عصره

لما كان المرء ابن بيئته يتفاعل مع معطيات الأحوال السائدة حوله يعطي ويأخذ منها ويؤثر ويتأثر، كان لا بد من الحديث هنا عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية التي أحاطت بالإمام القرطبي، علها تساعد المهتمين والباحثين لمعرفة بعض الجوانب التي كان لها دور في دفع الإمام القرطبي للكتابة عن الفساد الموجود في الدين النصراني واختياره لأسلوب معين من أساليب الدعوة الإسلامية لمخاطبة النصارى الذين كانوا في عصره وبيئته الأندلسية.

* الحالة السياسية:

لقد سبق الحديث عن أن الإمام القرطبي ولد في بداية القرن السابع، وهو العصر المعروف في تأريخ الأندلس بعصر السيطرة المغربية الممتد من عام ٤٧٩هـ حتى ٦١٢هـ،[١] وعاش القرطبي في جزء من العصر الذي كانت الأندلس تعد فيه قطرا من أقطار الدولة الموحدية الكبرى التي كان مركزها في مراكش، وقد قامت الدولة الموحدية على أسس دينية تستند إلى الإمامة الدينية ومبدأ المهدي المنتظر، وكانت إمامة مؤسس دولة الموحدين المهدي ابن تومرت[٢] مصدر السلطات الدينية والسياسية معا، كما أن هيكل الدولة الموحدية الأساس كان يقوم على أسس قبلية، وكانت الأندلس تنقسم إلى عدة ولايات، وكان لكل ولاية أندلسية حكومتها المحلية

---

(١) انظر: أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص٧٩-٨١، ط/ موسسة الثقافة الجامعية.

(٢) هو محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي البربري، أبو عبد الله الملقب بالمهدي، وهو مهدي الموحدين، وواضع أسس الدولة المؤمنية الكومية، ولد سنة ٤٨٥هـ . وهو من قبائل جبل السوس بالمغرب الأقصى، رحل إلى المشرق طلبا للعلم سنة ٥٠٠هـ، ثم عاد إلى المغرب، غلا فيه أتباعه فوصفوه بالعصمة، له كتاب «أعز مايطلب» و «كنز العلوم» وهما مطبوعان، توفي سنة ٥٢٤هـ انظر: الزركلي، الأعلام، ج٦، ص٢٢٨.

تضم إلى جانب الوالي الموحدي عدداً من الوزراء وأصحاب المناصب، وكانت إشبيلية عاصمة الدولة الموحدية ومجمع جيوشها في الأندلس، وقد انتقلت العاصمة إلى قرطبة لمدة يسيرة ثم عادت إلى إشبيلية[١].

وشهد عصر القرطبي انهيار الدولة الموحدية التي بدأ نجمها بالأفول في عام ٦٠٩هـ حيث هُزم جيش الموحدين في الأندلس في موقعة العقاب[٢] من قبل النصارى، بسبب سوء تدبير القيادة الموحدية وإعجابهم بكثرة عددهم. وبعد هذه الموقعة جعل الضعف يسري في جسم الدولة الموحدية، وينخر عظامها، والفساد السياسي يعم أعلى قممها، فبعد وفاة الخليفة الموحدي محمد الناصر بن يعقوب سنة ٦١٠هـ الذي هزم في موقعة العقاب خلفه ابنه يوسف المستنصر الذي كان قاصرا دون الحادية عشر، ومولعا بالراحة واللهو والعبث، فازداد الضعف في أيامه حتى توفي سنة ٦٢٠هـ.

وشهدت الأندلس صراعا داخليا بين الموحدين أنفسهم حيث ظهرت فيهم ظاهرة خلع الخلفاء وانتزاع الخلافة، واستعانوا لتحقيق مآربهم الشخصية بالنصارى، وقدموا لهم تنازلات كثيرة، وقبلوا بشروط مخزية، وسلموهم الحصون والقلاع، واستقدموا آلافا من المرتزقة القشتاليين النصارى لحماية عرش الموحدين، بل إن بعض ولاة مدن الأندلس لحق بالنصارى ودخل في دينهم، كما ظهرت في المجتمع ثورات قومية متعددة تهدف إلى تحرير الأندلس من الموحدين الذين تخاذلوا عن تأدية واجب الدفاع عن الأندلس من هجمات النصارى، وتحوّل معاركهم إلى معارك داخلية شخصية وإلى مصانعة النصارى الأسبان، وكانت من أبرز الثورات

---

(١) انظر: محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص٦١٥-٦٤١، ط١، مطبعة لجنة التأليف، ١٣٨٤هـ-١٩٦٣م القاهرة.

(٢) انظر: ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، ص٦٣، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وزملاؤه، ط١، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م، بيروت.

التي شهدها هذا العصر ثورة المتوكل محمد بن يوسف بن هود[١] في شرق الأندلس، ومحمد بن الأحمر[٢] في أواسط الأندلس ثم في الجنوب، وأبي جميل زيان بن مردنيش[٣] في بلنسية[٤] وغيرهم.

كانت الفترة ما بعد سنة ٦٢٠هـ فترة عصيبة تميزت بالاضطراب والفوضى السياسية ولم تكن ثمة حكومة موحدة في أية منطقة من المناطق، مما أفقد البلاد الأمن والاطمئنان، فصارت غارات النصارى تتوالى على مدن المسلمين وقراهم

---

(١) محمد بن يوسف بن هود الجذامي، أبو عبد الله من أعقاب بني هود من ملوك الطوائف، ثار على الموحدين بالصخيرات من أعمال مرسية، وتلقب بالمتوكل، سنة ٦٢٥هـ ودعا للخليفة العباسي، فبايعه أهل شاطبة وقرطبة وإشبيلية، توفي سنة ٦٣٥هـ. انظر: الزركلي، الأعلام، ج٧، ص١٤٩-١٥٠.

(٢) أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد من آل نصر ابن الأحمر الخزرجي، ولد في أرجونة عام ٥٩٥هـ ونشأ فيها جنديا مقداما، عُرف بالشيخ، ولقب بالغالب بالله، مؤسس دولة بني الأحمر في الأندلس، توفي في عام ٦٧١هـ. انظر: الزركلي، الأعلام، ج٧، ص١٥١.

(٣) أبو جميل زيان بن أبي الحملات مدافع بن الرئيس يوسف أبي الحجاج بن سعد بن مردنيش، ثار على دولة الموحدين في بلنسية، وعقد البيعة لنفسه ودعاللخليفة المستنصر العباسي، سنة٦٢٦هـ انظر: محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين، القسم الثاني، ص٣٩٤-٣٩٥

(٤) انظر: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المغربي، العبر وديوان المبتدأ والخبر وأيام العرب والعجم والبربر...، المعروف بتأريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٦٨، ط/دار الكتاب اللبناني ١٩٧٧م بيروت لبنان. والمقري، نفح الطيب، ج١، ص٤٢٠-٤٢١، وج٦، ص١١٧-١١٨. ومحمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين، القسم الثاني، ص٣٨٩، و٦٤١-٦٤٣، ويوسف أشباخ، تأريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة: محمد عبد الله عنان، ص٣٩٩-٤٠١ و٤٠٩ .ط٢، مؤسسة الخانجي، ١٣٧٧هـ١٩٥٨م، القاهرة.

وهاهو والد الإمام القرطبي يقتل في إحدى الغارات المباغتة على قرطبة وهو يعمل في حقله سنة٦٢٧هـ[١]، بينما كاد الإمام القرطبي نفسه يفقد حياته على يد فارسين من فرسان النصارى بحصن يسمى حصن منثور من أعمال قرطبة، حيث خرج فارسان من العدو في طلبه ولكن الله نجاه منهما[٢].

وكان هذا الوضع السياسي المنهار «وما اقترن به من محن ونوائب، وتشريد لأهل القواعد المفتوحة، وضياع للأموال والثروات مليئا بالأزمات الاقتصادية وأهوال الغلاء والجوع والحرمان والأوبئة، وكان من أشد ما عانت الأمة الأندلسية عقب انهيار الحكم الموحدي وما ترتب عليه من انهيار خط دفاعها القديم وقوعها فريسة هينة للغزو النصراني»[٣].

ويصف الإمام القرطبي الوضع المتردي الذي وصل إليه عصره في أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿**ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض... الآية**﴾[٤] قائلا: «ولعمر الله لقد أعرضنا نحن عن الجميع بالفتن، فتظاهر بعضنا على بعض ليس بالمسلمين بل بالكافرين، حتى تركنا إخواننا أذلاء صاغرين يجري عليهم حكم المشركين، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[٥].

هذا هو الوضع في الأندلس عامة ومدينة قرطبة أيضا لم تكن تختلف في وضعها السياسي عن الوضع العام، فقد سرى روح الخصام بين أهالي قرطبة

---

(١) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٤، ص٢٧٢.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ج١٠، ص٢٦٩.

(٣) محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين، القسم الثاني، ٦٢٧-٦٢٨.

(٤) سورة البقرة، آية٨٥.

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٢، ص٢٢.

وسادت الفرقة بينهم بسبب الأحقاد والمنافسات بين الأمراء في أنحاء الأندلس، ومات فيهم روح الإخلاص والصبر والجهاد، فقد ذكر الإمام القرطبي في أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿... قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾[1] قائلا: «الآية تحريض على القتال واستشعار للصبر واقتداء بمن صدق ربه. هكذا يجب علينا نحن أن نفعل، لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك، حتى ينكسر العدد الكبير منا قدام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا»[2].

وشهدت قرطبة صراعا سياسيا بين ولاة الموحدين - الذين كان من المفترض أن يكونوا يدا واحدة، - حيث كانوا يثورون خدمة لمصالحهم الشخصية على بعضهم البعض، ويسلمون في سبيل متعة دنيوية زائلة الحصون والقلاع الإسلامية لملك قشتالة النصراني (فرناندو الثالث) ثمنا لمعاونته لهم، وقد قَتل أهل قرطبة وجيان آخر ولاة الموحدين على قرطبة أبا الربيع بن أبي حفص المعيّن من قبل خليفة الموحدين في ٦٢٥هـ، وأعلنوا ولاءهم لمحمد بن يوسف بن هود، ومن ثم صار أهل قرطبة يتقلبون ولاء وطاعة بين محمد بن هود ومحمد بن الأحمر اللذين كانا غريمين يلتمس كل منهما ود ملوك النصارى حفاظا على ملكهما، وقد قدما كثيرا من التنازلات بغية أن يقف النصراني مع أحدهما ضد أخيه المسلم، حتى سقطت قرطبة في يد العدو يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال سنة ٦٣٣هـ وهما ينظران إليها دون أن يحركا ساكنا[3].

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٤٩.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٣، ص٢٥٥.

(٣) انظر: ابن خلدون، العبر، ج٤، ص١٦٩، والمقري، نفح الطيب، ج١، ص٤٢٢، ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ص٢٩٢و٣٣١. وضيا باشا، الأندلس الذاهبة، ج٣، ص٨٣، ترجمة: عبد الرحمن أرشيدات، ط١، وزارة الثقافة، ١٩٨٩م، الأردن. ود. أحمد فكري، قرطبة في العصر الإسلامي، تأريخ وحضارة، ص١٤٨-١٥١، ط/ مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٣م الإسكندرية.

هذا هو الوضع السياسي في الأندلس الذي تميز بغلبة الهوى، وحب الزعامة والرياسة، وموالاة للكفار ونفرة وعداوة بين المسلمين أنفسهم، واستنصار بالنصارى واستظهار بهم لنيل حظ من حظوظ الدنيا، وانفراط عقد الأمن والطمأنينة، وتساقط للحصون والقلاع والقواعد الإسلامية المهمة، وانهيار الدولة الإسلامية القوية دولة الموحدين، وبالمقابل هناك عدو جمع كل قواه وتوحد لاغتنام الفرصة السانحة، يتربص لاحتلال أرض المسلمين، وسبي الذراري وقتل الأنفس، واسترقاق الأحرار، ونشر الملة النصرانية في ربوع الأندلس التي طهرها الله من دنس الكفر لعدة قرون من الزمان.

* الحالة الاجتماعية والدينية:

كان للوضع السياسي المضطرب وضعف الدولة الإسلامية أثر بارز على جوانب متعددة من حياة المجتمع الأندلسي، فقد كانت الحالة الاقتصادية في الأندلس والمغرب مثلا أيام عنفوان دولة الموحدين جيدة، حيث تقدمت الزراعة وارتقت أساليبها الفنية وتنوعت المحاصيل، وتطورت الصناعات الحربية والمدنية وبخاصة صناعة الأقمشة والصناعات الجلدية والورقية، كما ازدهرت التجارة الداخلية والخارجية وعم الرخاء، بينما تغير الحال وتبدل تماما بعد هزيمة الموحدين الساحقة في موقعة العقاب؛ فانتشرت المجاعة، وعم الغلاء وعُدمت الأقوات، ونُهبت أموال التجار[1]، فأصبح الناس عامة معدمين لا يملكون قوتهم اليومي، يشغل جل تفكيرهم الوضع السياسي والأمني والاقتصادي المتردي، ولا تتيح لهم هذه الظروف العصيبة الجو النفسي المستقر الذي يساعد على الرقي في مختلف الجوانب.

وإذا ما أريد إعطاء صورة عن الوضع الاجتماعي في البيئة التي عاش فيها القرطبي فإن سكان مدينة قرطبة كانوا «ينقسمون من ناحية الجنس والدين إلى

---

(١) انظر: ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ص٢٦٦-٢٦٧، ومحمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتأريخ العرب المتنصرين، ص٤٣٩، ط٣، القاهرة، ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م، ومحمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين، القسم الثاني، ص٦٢٦-٦٢٧.

عرب وصقالبة ومولدين، ومستعربين، ويهود»[١]، ففي هذه المدينة الواحدة أهل ثلاثة ديانات: مسلمون، ونصارى ـ الذين يطلق عليهم المستعربين ـ، ويهود يعيشون تحت الحكم الإسلامي بكل حرية، يمارسون طقوسهم الدينية ويتعبدون في كنائسهم «وكان للمستعربين جملة كنائس داخل حدود قرطبة وفي أرباضها[٢] ومن ذلك كنيسة كانت في حي الطرازين، وأخرى في حي الرقاقين، وثالثة كانت تدعى كنيسة القديسين الثلاثة، وكان عادة يلحق بكنائس الأرباض أديرة»[٣].

وكان المذهب النصراني السائد في الأندلس مذهب الملكانية[٤]، وهؤلاء هم الذين قصدهم الإمام القرطبي -رحمه الله- في دعوته؛ ويتضح ذلك من ذكر بعض عقائدهم وآرائهم التي كان يوردها بين حين وآخر، وهي متفقة مع مذهب الملكانية، حيث يقول: «تزعمون أن اللاهوت تدرع بناسوت المسيح وسكن في ظلمة الرحم مدة...»[٥]، ويقول في موقف آخر: «ثم أعجب من ذلك أنهم يقولون: الكلمة هي الله، والله هو المسيح»[٦]، وهو عين مذهب الملكانية الذين قالوا: «إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح، وتدرعت بناسوته»[٧]، ونقل عنهم أيضا اعتقادهم انبثاق روح القدس من

---

(١) د. أحمد فكري، قرطبة في العصر الإسلامي، ص٢٤٨.

(٢) الربض: له معان عدة، منها: أنه كل ما في البطن من المصارين وغيرها سوى القلب والرئة، ومن المجاز الربض: سور المدينة وما حولها وقيل الفضاء حول المدينة، وهذا هو المقصود فيما يبدو. انظر: محمد الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج٥، ص٢٩، مادة «ربض» ط/دار صادر، ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م بيروت.

(٣) د. أحمد فكري، قرطبة في العصر الإسلامي، ص١٤٨.

(٤) ابن حزم، الفصل، ج١، ص١١٠.

(٥) القرطبي، الإعلام، ص٥٠.

(٦) المصدر نفسه، ص٤١٨.

(٧) الشهرستاني، الملل والنحل، ج١، ص٢٢٢.

الآب والابن[١]، وهو رأي الكنيسة الغربية المعروفة الآن بكنيسة روما، أو الكنيسة الكاثوليكية.

وبالرغم من ذلك فإن الإمام القرطبي يعرض بعض معتقدات مذاهب النصارى الأخرى أيضا، كالأريوسية، واليعقوبية، والنسطورية، وبعض أقوال آحادهم[٢] التي لا يضبطها ضابط، وذلك بما يخدم أهدافه الدعوية، ويشمل الرد كافة مذاهب النصارى.

أما اليهود وكانوا يسمون أهل الذمة فيبدو أن عددهم كان قليلا في قرطبة، وبالرغم من أنه كان لهم فيها حي يعرف باسمهم، لكن لم يكن لهم في قرطبة شأن يذكر»[٣].

أما من ناحية طبقات المجتمع فسكان قرطبة كانوا ينقسمون إلى طبقتين: طبقة الخاصة وطبقة العامة، فطبقة الخاصة تتكون من سلالة العرب الفاتحين وهم الحجازيون واليمنيون والشاميون الذين كانوا يمثلون الطبقة الممتازة التي تتمتع بمناصب الشرف والنفوذ، حيث استأثروا بأعظم المناصب وأعلى المراتب في الجيش، والولايات، والهيئات الدينية التي توارثوها أجيالا، بالإضافة إلى جمهرة من الأعيان، وكبار التجار، وفئة الموالي والجواري الخاصين بالخلفاء. أما الطبقة العامة فهم معظم أهل المدينة الذين اشتهروا بالشغب وإثارة القلاقل والثورة[٤].

وبما أن قرطبة كانت قاعدة بلاد الأندلس ودار الخلافة لعدة قرون كان أغلب أهلها من أعيان البلاد وسراة الناس، وكان فيها أعلام العلماء وسادات الفضلاء

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٨٠.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١٢٧ وما بعدها.

(٣) د. أحمد فكري، قرطبة في العصر الإسلامي، ص٢٤٦.

(٤) انظر: د. أحمد فكري، قرطبة في العصر الإسلامي، ص٢٤٨-٢٥١، وضيا باشا، الأندلس الذاهبة، ج٣، ص٤٠٤و٤٠٦.

وأجلاء الغزاة[(١)]، وكان لهم محاسن منها الظرف في اللباس والتظاهر بالدين والمواظبة على الصلاة، والتستر[(٢)] بأنواع المنكرات والتفاخر بأصالة البيت وبالجدية وبالعلم، والاحتفال بخزائن الكتب الذي صار من مظاهر التعين والرياسة[(٣)].

ولعل العصر الذي عاش فيه القرطبي ظهرت فيه بعض المنكرات التي لا تسر الغيورين على دينهم الذين يحسبون للمنكرات مهما صغرت ألف حساب، فقد سطر القرطبي في كتبه مشاهداته لأحوال المجتمع الذي عاش فيه، فهو يصفه في بعض الأحيان بقلة الدين، وتفشي الباطل وظهوره على الحق قائلا: «يتقارب أحوال أهله [أهل آخر الزمان] في قلة الدين حتى لا يكون فيهم من يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، كما هو اليوم لغلبة الفسق وظهور أهله»[(٤)].

وفي أثناء شرحه لحديث أشراط الساعة يقول: «وأما ما يتقدم من هذه من قبض العلم وغلبة الجهل واستيلاء أهله، وبيع الحكم، وظهور المعازف، واستفاضة شرب الخمور، واكتفاء النساء بالنساء، والرجال بالرجال، وإطالة البنيان، وزخرفة المساجد، وإمارة الصبيان، ولعن آخر هذه الأمة أولها، وكثرة الهرج، فإنها أسباب حادثة ورواية الأخبار المنذرة بها بعد ما صار الخبر بها عيانا تكلف، لكن لا بد من

---

(١) انظر: المقري، نفح الطيب، ج٢، ص٩٤.

(٢) الستر بالفتح: مصدر سترت الشيء أستره، إذا غطيته فاستتر هو، وتستَّر أي تغطَّى، والسُّترة: ما استتر به كائنا ما كان، وكذلك الستار. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٣٤٣، مادة (ستر)، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٣، ص١٣٢.

والمقري يقصد أن أهل قرطبة كانوا يستترون عن الأعين إذا ارتكبوا منكرا، ولا يجاهرون، ولا يقصد أنهم كانوا يجعلونها ساترا كما قد يُفهم من اللفظ، والله أعلم.

(٣) انظر: المقري، نفح الطيب، ج٢، ص١٠-١١.

(٤) القرطبي، التذكرة، ص ٦٣٠.

ذكرها حتى يوقف عليها، وتحقق بذلك معجزة النبي صلى الله عليه وسلم[١]»[٢].

والقرطبي هنا يرى في مجتمعه الذي عاصره كثيرا من المظاهر التي تنبئ بانتشار علامات يوم القيامة، وهي في الوقت نفسه تبرز التدهور الذي وصل إليه المجتمع الأندلسي بالنظر إلى ما كانت عليه الأحوال قبل ذلك.

وعند شرحه لقوله صلى الله عليه وسلم: «ويرى الرجل يتبعه أربعون امرأة»[٣]

---

(١) أورد الحديث في كتابه التذكرة ص٦٢٤ هكذا: «وذكر أبو نعيم من حديث مكحول عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: للساعة أشراط، قيل وما أشراطها، قال: علو أهل الفسق في المساجد وظهور أهل المنكر على أهل المعروف، قال أعرابي فما تأمرني يا رسول الله، قال دع وكن حلسا من أحلاس بيتك» غريب من حديث مكحول لم نكتبه إلا من حديث حمزة»

هذا الحديث أورده أبو نعيم الأصفهاني، في حلية الأولياء وطبقة الأصفياء، ج٥، ص١٨٧-١٨٨، ط٣، دار الكتاب العربي، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م بيروت. وقد ذكر أبونعيم في الحديث الذي أورده قبل هذا الحديث أن مكحول لم يلق حذيفة ففيه إرسال.

والحلس: اسم لما يبسط في البيت تحت حر الثياب، والمتاع ونحوه، ومن المجاز الحلس: الكبير من الناس للزوم محله لا يزايله، ويقال: هو حلس بيته إذا لم يبرح مكانه. انظر: الزبيدي، تاج العروس، ج٤، ص١٣٠.

(٢) القرطبي، التذكرة، ص٦٢٥.

(٣) الحديث متفق عليه رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه قال لأحدثنكم حديثا لا يحدثكم أحد بعدي سمعت رسول الله ﷺ يقول من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل ويظهر الزنا وتكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد» كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل، ج١، ص٢٨. وروى مسلم عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل بالصدقة من الذهب ثم لا يجد أحدا يأخذها منه ويُرى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة يلُذن به من قلة الرجال وكثرة النساء» وفي رواية «وترى الرجل» كتاب الزكاة، ١٢، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها١٨، حديث رقم١٠١٢، ج٢، ص٧٠٠.

يقول القرطبي: «يريد والله أعلم أن الرجال يقتلون في الملاحم وتبقى نساؤهم أرامل فيقبلن على الرجل الواحد في قضاء حوائجهن ومصالح أمورهن كما في الحديث الآخر قبله حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد الذي يسوسهن ويقوم عليهن من بيع وشراء وأخذ وعطاء، وقد كان هذا عندنا أو قريبا منه بالأندلس»[١].

فالقرطبي يشتكي من الحال السيئ الذي وصل إليه المجتمع الأندلسي في عصره، حيث انتشرت عادات سيئة بعيدة عن المبادئ والتعاليم الإسلامية، كالتباغض والحسد، وانعدام الثقة بين الإخوة، والمنافسات غير الشريفة التي قضت على التماسك الاجتماعي والترابط بين الأمة الواحدة، وحدوث شرخ في البنية الأسرية للمجتمع وذلك لقلّة عدد الرجال وكثرة عدد النساء؛ فانعدم التوازن الجنسي في المجتمع، ويعني ذلك وجود بيئة صالحة لانتشار الفساد الخلقي، وضعف القوة الاقتصادية والحربية للمجتمع، ولا غرابة فإن هذا العصر كان أسوأ ما شهدته الأندلس الإسلامية، حيث انحصرت الدولة الإسلامية في النهاية في دولة بني الأحمر بغرناطة.

---

(١) القرطبي، التذكرة، ص٦٣٩.

المبحث الثاني

الصراع الدعوي بين المسلمين والنصارى في عصره

الصراع بين الحق والباطل سنة من سنن الله في أرضه في أي وقت وزمان، ويستمر هذا الصراع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد جعل الله هذا الصراع من أسباب بقاء الحق واستمراره وصلاح الأرض وحفظ الدين والتعبد لله، قال تعالى: ﴿...ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾[1] وقال: ﴿...ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾[2].

«فدفع الناس بعضهم ببعض من السنن العامة وهو ما يعبر عنه علماء الحكمة في هذا العصر بتنازع البقاء، ويقولون إن الحرب طبيعة في البشر لأنها من فروع سنة تنازع البقاء العامة، وأنت ترى أن قوله تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ ليس نصا فيما يكون بالحرب والقتال خاصة، بل هو عام لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس الذي يقتضي المدافعة والمغالبة»[3] ليبقى الأمثل والأصلح للأرض ومن عليها؛ لأن الله ناصر من نصرالحق واتبعه وأراد الإصلاح في الأرض، ولا يتخلف نصر الله عن أوليائه إلا لأمر أحدثوه؛ فيكون السبب في تخلف النصر من عند أنفسهم.

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»، وقال: «لا تزال طائفة من أمتي

---

(١) سورة البقرة آية٢٥١.

(٢) سورة الحج آية ٤٠.

(٣) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج٢، ص٤٩٧.

يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»[١].

شهدت الأندلس في عصر القرطبي -رحمه الله- صراعا دعويا مريرا متعدد الأشكال فمنها الحرب القتالية، ومنها الحرب الكلامية الفكرية، ولإن كان يصعب حصر المواقع الحربية والمناوشات القتالية والهجمات العسكرية المتبادلة بين الطرفين - وهو غير مطلوب هنا - إلا أنه من الضروري الإشارة إلى أهم الأمور التي صاحبت هذا الصراع الحربي، فعلى سبيل المثال كانت من أبرز المعارك الحربية التي وقعت في الأندلس بين المسلمين والنصارى في هذا العصر موقعة العقاب سنة٦٠٩هـ التي أعدّ لها النصارى إعدادا كبيرا، فبالإضافة إلى جيوش الممالك النصرانية في إسبانيا - قشتالة وأرغون وليون ونبرة والبرتغال - كانت الجيوش النصرانية المتطوعة تأتي تباعا إلى طليطلة طيلة السنة التي سبقت موقعة العقاب، وذلك بعد أن بعث فرناندو ملك قشتالة أسقفاً إلى البابا أنوصان الثالث الذي كان يتمتع بروح صليبية عالية في روما يرجوه بأن يدعو أمم أوروبا النصرانية لدعمه في حرب المسلمين في إسبانيا، وقد نفذ البابا رغبة ملك قشتالة فكتب إلى الأساقفة يدعوهم إلى دعوة النصارى إلى الحرب المقدسة ضد المسلمين، وقد كان الكرسي الرسولي يتمتع لدى الممالك الإسبانية النصرانية ولدى الأمم النصرانية في أوروبا أجمع بمكانة راسخة ونفوذ قوي، وحرص الإسبان على الصفة الصليبية لمعاركهم ضد المسلمين استدرارا لعطف الأمم النصرانية المجاورة واستجلابا للمتطوعة المرتزقة النصارى من أنحاء متفرقة، وقد بلغت الوفود الصليبية التي جاءت لمحاربة المسلمين أكثر من مائة ألف مقاتل، بالإضافة إلى الأموال والمؤن والأسلحة التي قدمت من فرنسا وإيطاليا، وقد كان لرجال الدين النصراني دور كبير في معركة العقاب، فقد كان

---

(١) الحديثان رواهما مسلم، في كتاب الإمارة٣٣، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين»٥٣، الأول عن ثوبان رضي الله عنه، ج٢، ص١٥٢٣، حديث رقم١٩٢٠، والثاني عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، ج٢، ص١٥٢٤،حديث رقم١٩٢٣.

الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين وينفقون عليهم، على رأسهم مطران أربونة وأسقفا بوردو ونانت، كما قدم من فرنسا عدد من الأحبار يقودون جماعات من المحاربين، بالإضافة إلى غيرهم، وأمر البابا بدوره في روما بصيام ثلاثة أيام تقربا إلى الله لانتصار الجيوش النصرانية على المسلمين في الأندلس، وأقيمت الصلوات العامة، وارتدى رجال الدين والرهبان والراهبات السواد، وساروا حفاة، في مواكب دينية طافت الشوارع وانتقلت من كنيسة إلى كنيسة مظهرة الخضوع والخشوع، وألقى البابا بنفسه موعظة صليبية حث فيها النصارى للتضرع إلى الله من أجل إخوانهم الإسبان الذين يحاربون المسلمين[(١)].

وبهذا يتضح للعيان الصفة الصليبية للحروب التي كانت تخوضها الممالك النصرانية في إسبانيا ضد المسلمين، فالصراع لم يكن لغرض جغرافي قطري أو إقليمي توسعي أو لطمع اقتصادي، أو ما إلى ذلك من الأهداف، بل كان الهدف هو طرد المسلمين من جزيرة الأندلس وإقصاء دين الإسلام عن أوروبا وإحلال دولة

---

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق: محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، ص٣١٩، ط١،مطبعة الاستقامة،١٣٦٨هـ ١٩٤٩م ،وابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، قسم الموحدين، ص٢٦٣. ومحمد عبد المنعم الحميري، الروض المعطارفي خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ص٤١٦، ط، مكتبة لبنان، ١٩٧٥م، بيروت، محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين، القسم الثاني، ص٢٨٨-٢٨٩، ٢٩٣-٢٩٤، ويوسف أشباخ، تأريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص٣٥٨-٣٦٠ و د. عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ص٤٩١، ط٢، دار القلم، ١٤٠٢هـ ١٩٨١م دمشق، بيروت، ود. أحمد فكري، قرطبة في العصر الإسلامي، تأريخ وحضارة، ص١٤٧.

نصرانية مكان الدولة المسلمة.

وقد نشط النصارى بعد انتصارهم في موقعة العقاب، فأصبحوا يسجلون انتصارا وراء انتصار، ويتقدمون في كل يوم خطوة نحو الأراضي الإسلامية، فصارت المدن والحصون والقلاع الأندلسية تسقط تباعا، وكانت من أبرز المعالم في هذه الحروب أن النصارى كلما استولوا على بقعة ما فيها مسجد كانوا يقومون بتحويله إلى كنيسة فورا.

وقد كانت الظروف مواتية للإجهاز على ما تبقى من الدولة الإسلامية في الأندلس، نظرا للصراعات الداخلية التي عمت دولة الموحدين، كما أن ملوك إسبانيا الثلاثة كانوا يتحكمون في مصاير جهة معينة من دولة الإسلام في الأندلس، فكان خايمي الأول ملك أرجوان من ناحية الشرق، وفرناندو الثالث ملك قشتالة من ناحية الوسط وألفونسو التاسع ملك ليون من ناحية الغرب، فلما رأى هؤلاء الفرصة مواتية للانقضاض على الدولة الإسلامية المتهالكة، انهالوا بالضربات على المسلمين في الأندلس أولا من الغرب ثم من الوسط والشرق، حتى لم يبق من أندلس الإسلام سوى بني الأحمر، وقد وصلت ذروة هذه الانتصارات النصرانية على المسلمين في عهد فرناندو الثالث[١] وذلك بالاستيلاء على مدينة قرطبة عاصمة الخلافة الإسلامية القديمة، وإشبيلية أعظم حواضر الأندلس، ولهذا اقترن ذكر فرناندو الثالث بحماسته الدينية وروحه الصليبية في حروبه ضد المسلمين وخدماته الكبيرة التي قدمها للدين النصراني بإنهاء السيادة الإسلامية في جزيرة الأندلس؛ مما جعل بابا كلمنضوس العاشر يسبغ عليه صفة

---

(١) فرناندو الثالث ملك قشتالة، توفي سنة ١٢٥٢م، وهو في الرابعة والخمسين من عمره بعد أن حكم ٣٦ عاما، ودفن في إشبيلية آخر وأعظم فتوحاته. انظر: محمد عنان، عصر المرابطين والموحدين، القسم الثاني، ص٤٩٤.

القداسة في سنة ١٦٧١م ليعرف بعد هذا التاريخ بالقديس فرناندو[١].

هذا فيما يتعلق بالصراع الدعوي الذي اتخذ الشكل العسكري الحربي، وقد كان هناك صراع من نوع آخر له فرسانه وجنوده، وهو الصراع الفكري، الصراع الذي يهدف إلى إقناع الطرف المقابل ببطلان المبادئ والأفكار التي يحملها، ومن ثم يجب عليه الانتقال إلى المبادئ القيمة الصالحة للطرف الآخر، وهذا النوع من المعارك قديم قدم الوجود الإسلامي في الأندلس، وإن كان ما وصل إلينا منه قليل، إلا أنه لم يكن قليلا في الواقع، وإن لم يجد عناية من المصادر التي أرخت للأندلس حسب الدلائل الموجودة للصراع الإسلامي النصراني في الأندلس،[٢] ومما يمكن ذكره من الكتب التي كان موضوعها الجدل العقائدي والردود على النصارى : الفصل في الأهواء والملل والنحل لابن حزم[٣] ورسالة الباجي[٤] في الرد على الراهب من إفرنسا، في القرن الخامس

---

(١) انظر: محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين، القسم الثاني، ص٣٦٢، ٣٩٩، ٤٩٤.

(٢) انظر: يوسف بن علي العريني، الحياة العلمية في الأندلس في عهد الموحدين، ص٢٦٨، رسالة ماجستير، ط، غير منشورة.

(٣) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري الأندلسي، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام، ولد عام ٣٨٤هـ كانت له ولأبيه من قبله رياسة الوزارة وتدبير المملكة، فزهد بها وانصرف إلى العلم والتأليف، فألف في الأدب والأديان والفرق، والفقه والأصول ، توفي عام ٤٥٦هـ انظر، الزركلي، الأعلام، ج٤، ص٢٥٤.

(٤) أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد التجيبي القرطبي الباجي، ولد في باجة بالأندلس، سنة ٤٠٣هـ، فقيه مالكي كبير، من رجال الحديث، رحل إلى الحجاز وبغداد، والموصل ودمشق، وغيرها، وعاد إلى الأندلس وتولى القضاء في بعض أنحائها، وتوفي فيها سنة ٤٧٤هـ انظر الزركلي، الأعلام ج ٣ ص١٢٥، وابن فرحون، الديباج، ج١، ص٣٧٧

الهجري، وكذلك كتابان للخزرجي[١]، أحدهما مقامع الصلبان، والآخر مقام المدرك في إفحام المشرك في القرن السادس الهجري[٢]، إلا أن هذه المعارك الفكرية لم تكن تسير بشكل متساو في الأندلس كلها، بل كانت تشتد في المدن التي يسيطر عليها النصارى أو التي يحاولون السيطرة عليها[٣]، وذلك بغية إيجاد أرضية مناسبة وتوطئة المناخ لتحويل المسلمين إلى دين النصارى قبل الاستيلاء على المدن؛ لأن الهدف لم يكن الأرض فحسب بل تغيير الدين أيضا.

وفي العصر الذي نحن بصدده ظهرت كتابات ترد على النصارى في الشبهات التي يثيرونها دائما ذودا عن حياض العقيدة الإسلامية، ودعوة للنصارى باتباع الدين الصحيح، منها: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام للقرطبي، والأجوبة

---

(١) أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي، قرطبي سكن غرناطة، ثم استوطن فاس، أُسر سنة ٥٤٠هـ وحُمل إلى طليطلة، وبها ألف كتابه مقامع هامات الصلبان ورواتع رياض الإيمان، ردا على رسالة بعث بها قس ينتسب إلى القوط يدعو فيها الخزرجي إلى اعتناق النصرانية ونبذ الإسلام، وله أيضا كتاب مقام المدرك في إفحام المشرك، خرج من الأسر سنة٥٤٢هـ وتوفي سنة٥٨٢هـ. انظر المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الأول القسم الأول، ص٢٣٩-٢٤١.

(٢) انظر، أحمد الخزرجي، مقامع الصلبان، ص٥، مقدمة المحقق: عبد المجيد الشرفي، ط/ مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية بالجامعة التونسية، ١٩٧٥م.

(٣) انظر: يوسف العريني، الحياة العلمية في الأندلس في عهد الموحدين، ص٢٦٨.

على المسائل الصقلية لابن سبعين[1].

وقد أشار القرطبي -رحمه الله- إلى بعض المكاتبات والردود التي كانت تدور في إطار التصارع الدعوي بين المسلمين والنصارى في الأندلس، فقد ذكر صاحب كتاب تثليث الوحدانية أنه قد وصل إليه كتاب من بعض المسلمين، وادعى أنه يحوي سبا وشتما، ولكن القرطبي اطلع على هذا الكتاب فوجده على غير ما قال النصراني، وتبين له أن السبب هو سوء فهم النصراني لقول المسلم[2]. إلا أن القرطبي لم يبين تفصيلات هذا الكتاب، عنوانه، كاتبه، عصره...الخ.

وقد أشار إلى كتاب آخر فصّل فيه قليلا، حيث ذكر أن أساقفة طليطلة بعثوا به إلى أحد قضاة قرطبة بعد أن بذلوا جهدهم واجتمعوا على كتابته في بطاقة صغيرة تتكون من ثلاثين سطرا، لحنوا في تسعة عشر موضعا فيها، وقد أجابهم القاضي

---

(١) ابن سبعين هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الإشبيلي المرسي الرقوطي، قطب الدين، أبو محمد، المولود في عام٦١٣هـ ١٢١٦م، من زهاد الفلاسفة، ومن القائلين بوحدة الوجود، درس العربية والآداب في الأندلس، وانتقل إلى سبتة، وحج واشتهر أمره، وقد كفره كثير من الناس، توفي ٦٦٩هـ ١٢٧٠م، انظر: المقري، نفح الطيب، ج٢، ص١٩٦، والزركلي، الأعلام، ج٣، ص٢٨٠.

والكتاب الذي ألفه كان ردا على أسئلة فلسفية تبكيتية بعث بها ملك الروم صاحب صقلية فردريك الثاني الذي لم يجد إجابات تشفيه من قبل علماء المسلمين بالمشرق ومصر والشام والعراق واليمن، فلما بعث بها إلى المغرب تصدى لها ابن سبعين بإجابات فلسفية ممثلا المسلمين، فنالت إجاباته إعجاب الملك. والردود مطبوعة في كتاب بعنوان الكلام على المسائل الصقلية، عني بتصحيحه وتعليق بعض الحواشي عليه محمد شرف الدين يالتقايا، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٤١م

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٢١٦، ٢٢٨.

-رحمه الله- بأحسن إجابة[١].

ومما يدخل في هذا الإطار أيضا اهتمام النصارى بالنصوص الإسلامية وبذلهم الجهود في سبيل ترجمتها، ومنها ترجمة القرآن الكريم من قبل رجل يدعى روبير دي كتون Robert de ketton في عام ٥٤٠هـ[٢]، وترجمة أخرى قام بها مارك الطليطلي Marc de Tolede حيث ترجم القرآن في عام٦٠٧هـ وترجم مرشدة ابن تومرت العقدية في ٦١٠هـ إلى اللغة اللاتينية، وقد كفانا هذا المترجم عناء البحث عن الأسباب والدوافع الحقيقية التي جعلته ينبري لترجمة القرآن الكريم ولعقيدة ابن تومرت حيث قال في مقدمة ترجمته لمرشدة ابن تومرت: «بعد أن قمت منذ ثلاث سنوات بترجمة القرآن وهو كتاب الكفرة الإسماعيلين! بدأت - وكنت محقا في ذلك - في ترجمة الكتيب الذي ألفه ابن تومرت عن التوحيد، وقد قمت بهذا العمل بناء على أمر سيدنا رئيس أساقفة طليطلة والرئيس الديني الكاثوليكي لأسبانيا وبعد إلحاح من جانب الأستاذ موريس رئيس شمامسة طليطلة ، ولقد قمت لذلك بترجمة كتيب ابن تومرت بعد أن انتهيت من ترجمة القرآن لكي يتسنى للمسيحيين أن يأخذوا أكبر قدر من المعلومات يتمكنون عن طريقها من الرد على المسلمين ومحاربهم»[٣].

والملاحظ من سياق هذا النص أن المهتمين بالترجمة كانوا من رجال الدين النصراني، ويبدو أن طليطلة التي تعد أول مدينة ذات شأن خسرها المسلمون في

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص٤٩، ذكر ذلك في أثناء بيانه أن صاحب كتاب تثليث الوحدانية مقلد لذلك الكتاب الذي سُبق به، والقاضي هو أبو مروان بن ميسرة، وتأتي ترجمته في ص١٢٧.

(٢) انظر: أحمد الخزرجي، مقامع الصلبان، ص٨-٩، مقدمة المحقق: عبد المجيد الشرفي، نقلا عن F. De La granja, milagros 323.

(٣) يوسف العريني ، الحياة العلمية في الأندلس في عهد الموحدين، نقلا من كتاب أعز ما يطلب لابن تومرت ، مقدمة المحقق/ عمار الطالبي، ص٢١

الأندلس في النصف الثاني من القرن الخامس أصبحت رأس الحربة التي تطعن في عقيدة الإسلام وتشكك المسلمين في دينهم، فقد كانت أغلب الرسائل والكتب الداعية لاعتناق النصرانية ونبذ الإسلام تأتي من هذه المدينة، وبذلك أصبحت مركزا تنصيريا مهما يقوم بإعداد البحوث والدراسات والترجمات ذات الصبغة التنصيرية.

فما من شك أن النصارى كانوا قد عزموا على إيجاد حركة تنصيرية قوية واسعة النطاق تسير جنبا إلى جنب مع الغزو العسكري الذي بدأ يميل لصالحهم في القرن السابع سعيا منهم لتزامن الانتصارات الفكرية مع الانتصارات العسكرية التي تحققت، فقد كانت ترجمة القرآن سنة ١٢١٠م ٦٠٧هـ، وترجمة مرشدة ابن تومرت سنة ١٢١٣م ٦١٠هـ، وهذا يجعل الترجمتين متزامنتين مع موقعة العقاب سنة ٦٠٩هـ التي كانت بداية النهاية للوجود الإسلامي في الأندلس[١].

وإنه لأمر محزن أن تحقق هذه الحملات التنصيرية شيئا من مقاصدها وتستطيع أن تتغلغل وسط المجتمع المسلم في الأندلس بل على المستويات القيادية العليا، ويحز في النفس أن يجد المرء الذين كانوا يقودون الأمة المسلمة يتجاوزون قضية التعاون مع النصارى ويصل الأمر بهم أن يمرقوا من الإسلام ويلحقوا بدين النصارى؛ فيعبدون الصليب بعد أن كانوا يعبدون الله الواحد الأحد، فهذا والي الموحدين على قرطبة عبد الله البياسي، في سنة ٦٢٢هـ، قد خرج عن طاعة الموحدين عام ٦٢٣هـ، واستعان بالنصارى عليهم ودلهم على عورات المسلمين في تلك البلاد وأدخلهم أرض المسلمين وسلمهم الحصون، وقام بأعمال شنيعة أخرى منها دخوله في دين النصرانية وهو شيخ مسن[٢].

وهناك أيضا أحد أحفاد المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين الذي ولي بلنسية من

---

(١) انظر يوسف العريني، الحياة العلمية في الأندلس في عهد الموحدين، ص٢٧٠.

(٢) انظر: ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، القسم الثالث، ص٢٧٠-٢٧١.

قبل الموحدين في الفترة من ٦٢٠ إلى ٦٢٦هـ ويدعى أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد المؤمن، حيث لحق بالنصارى بعد أن ثار عليه أهل بلنسية، ودخل دين النصرانية، وغير اسمه إلى بثنتي Vicente وتزوج بامرأة نصرانية من أهل سرقسطة، وقد كان هذا المرتد يضمر التنصر منذ عهد بعيد عندما كان واليا على بلنسية حيث كانت بينه وبين البابا وملك أرجوان رسل ورسائل سرية تنبئ عن إعجابه بدين النصرانية(١).

فإذا كان هذا ممن يُرجى منهم أن يكونوا حماة الدين والعقيدة، وحماة حرمات المسلمين، فماذا يُرجى من العوام الذين لا يفقهون من أمور دينهم إلا اليسير أو لا يفقهون شيئا؟ وكيف للأمة أن تنتصر على عدوها إن كان على قممها مثل هذه الشخصيات التي تقف على جرف هار من دينها؟ وكيف لمثل هؤلاء أن يضحوا بأموالهم وأنفسهم في نصرة الإسلام؟ إذن فلا غرابة أن يفقد المسلمون الأندلس بتلك الطريقة المخزية المذلة التي يندى لها الجبين.

---

(١) انظر: ابن خلدون، العبر، ج٤، ص١٦٧-١٦٨، وابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، القسم الثالث، ص٢٨٩، ومحمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين، القسم الثاني، ص٣٩٦و٣٩٨.

المبحث الثالث

آثار هذه البيئة على أسلوب القرطبي في دعوته للنصارى

يتفاعل الإنسان مع البيئة التي تحيط به ويعيش فيها؛ ونتيجة لهذا التفاعل يتأثر ببيئته قليلا كان هذا التأثر أو كثيرا، وسواء أكانت البيئة علمية، أم ثقافية، أم سياسية، أم فكرية، أم اقتصادية، أم اجتماعية... أم غير ذلك من البيئات المختلفة. فالإنسان بطبيعته جزء لا يتجزأ من البيئة التي يعيش فيها، يتأثر بها سلبا أو إيجابا، وقد يؤثر فيها إذا كان ممن تظهر بصماتهم على مسيرة الحياة العامة، ويخلد ذكراهم في سجل التاريخ.

وتتأثر العملية الدعوية بجميع عناصرها: من داع، ومدعو، ووسيلة، ورسالة، وأثر، بتفاعلها بالبيئة المحيطة بها، فليس الداعي الذي يعيش في بيئة مسلمة محضة يكون كالذي يعيش في بيئات تعيش فيها ملل ونِحل مختلفة في عرضه للدعوة، واختياره لطبيعة الموضوع الدعوي الذي يتفق وحاجات المدعو، ونوع الوسيلة، وكذلك تختلف خصائص المدعوين، ومميزات الوسائل المستخدمة في الدعوة، والرسالة الدعوية من حيث المضمون والأسلوب من بيئة إلى أخرى.

ولقد سبق الكلام في الصفحات الماضية عن البيئة التي عاش فيها القرطبي -رحمه الله- في الأندلس، والظروف السياسية والاجتماعية والدينية التي عاصرها القرطبي، ويمكن الحديث عن آثار هذه الظروف التي أحاطت به في أسلوبه لدعوة النصارى إيجابا وسلبا:

أ/ الآثار الإيجابية:

١- سعة المعلومات.

٢- الوضوح والشجاعة في عرض القضايا.

٣- قلة استخدام أساليب أهل الكلام والمنطق.

٤- ضرب الأمثلة من واقع البيئة.

ويمكن الحديث عنها بتوسع فيما يلي:

١- سعة المعلومات:

كانت الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين في أوجها، حيث بلغ التفكير الأندلسي قمة نضجه في القرن السادس وبداية القرن السابع، وازدهرت المعاهد العلمية في المغرب والأندلس في مدينة قرطبة -التي عاش فيها صاحبنا القرطبي- وفي مدن إشبيلية، وغرناطة، وبلنسية، وقصدها الطلاب من أنحاء متفرقة، فظهرت فيها التصانيف الرائقة، والتآليف الباهرة، وانتشرت المكتبات المزودة بأنفس الكتب وأندرها في مختلف العلوم والفنون، وتهافت الناس على البحث والطلب لأنواع المعارف والعلوم والآداب، وأنفقوا في سبيل ذلك المال الوفير، وعلى رأسهم الدولة الموحدية حيث كفلت العلماء والطلاب، فأصبح الغنى العلمي مقدما عندهم على الغنى المادي، والجهل أشر من الفقر، ورغب كثير منهم بحياة الفقر مع العلم عن حياة الغنى مع الجهل.(١)

بل إن من النتائج التي توصل إليها بعض الباحثين «أن الأحوال السياسية المضطربة في عصر القرطبي وفي البيئة التي عاش بهما حياته لم تلق ظلالها القاتمة على الحياة العلمية في الأندلس ومصر، وكأنما كان اهتمام المسلمين بعلمهم لبعث مجدهم، ولتعويض الخسائر الجسيمة التي ألمت بحواضرهم، وحضارتهم، ومن هنا ترك علماء المسلمين في هذا العصر موسوعات في علوم الإسلام والعربية ما زالت منارات يهتدى بهداها العالمون والمتعلمون إلى يومنا هذا»(٢).

إذن فإن هذا الزخم العلمي وهذه الحياة العلمية المتقدمة أعطت الإمام القرطبي

---

(١) انظر: المقري، نفح الطيب، ج٢، ص٩، ومحمد عنان، عصر المرابطين والموحدين، القسم الثاني، ص٦٤٥-٦٤٦، وإبراهيم العريني، الحياة العلمية في الأندلس في عهد الموحدين، ص٢٤-٣٥و٣٦-٥٠، ومحمد عنان، نهاية الأندلس، ص٤٣٦-٤٣٩.

(٢) يوسف عبد الرحمن الفرت، القرطبي المفسر ، ص٣٤٢.

-رحمه الله- فرصة الاطلاع الواسع على المعارف والعلوم المختلفة، سواء أكانت العلوم الشرعية، أو علوم اللغة العربية، وعلوم أهل الكتاب من يهود ونصارى، فهو عندما يخاطب النصارى يستدل على حديثه بما جاء في القرآن الكريم، والسنة المطهرة، ويلزمهم بما جاء في كتبهم، سواء أكان الكتاب المقدس عندهم، أم كتب ألفها بعض أساقفتهم في فروع دينهم وأصوله، ويظهر الكثير من تناقضاتهم فيها، كما يستشهد على آرائه بشواهد اللغة العربية، وبالأحداث التاريخية، والحكم والأمثال والأشعار وغيرها مما يعضد حجته ويقوي دليله.

ومما يدل على سعة اطلاعه واتساع معارفه أنه كان يعيد ما جاء في كتاب تثليث الوحدانية الذي كان مدار النقاش في كتابه الإعلام إلى أصله، ويشير إلى المواضع التي نقلت عن مصادر أخرى، ويبين النص الصحيح وما حدث فيه من الخطأ والتحريف، فعلى سبيل المثال يقول القرطبي في بداية رده على مقدمة صاحب كتاب تثليث الوحدانية: «وأدل دليل على بلادته وجهله أن هذه الخطبة التي صدر بها كتابه، على ما عليه من تثبيج[1] النظم وعدم الفصاحة إنما نقلها من رسالة (عبد الرحمن بن غصن) ختن (شبيب)[2] التي كان أساقفة النصارى كتبوا بها إلى الإمام الزاهد (أبي مروان بن

---

(١) ثَبج الكتاب والكلام تثبيجا: لم يبينه، وقيل لم يأت به على وجهه، والثَّبَج: اضطراب الكلام وتفنينه، وتعمية الخط وترك بيانه. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص٢٢٠، مادة (ثبج) والفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج١، ص٢٨٦، مادة (ثبج) ولها معان أخرى كثيرة.

(٢) لم أجد لهما ترجمة ولعلهما من مستعربي الأندلس، كما يفهم من كلام القرطبي.

ميسرة)[١] ونسبوها لعبد الرحمن ، وكانوا قد اجتمعوا على كتابتها بطليطلة -أعادها الله- فلما كتبوها بعثوا بها إلى القاضي (أبي مروان بن ميسرة)، فبعد أن بذلوا جهدهم، وأجهدوا جهدهم كتبوا له رسالة مفتتحها هذه الخطبة في بطاقة صغيرة عدد أسطارها نحو ثلاثين لحنوا فيها وصحفوا في تسعة وعشرين موضعا منها، ومع ذلك فأخلوا بالكلام.... ثم ليته إذ نقل إلى كتابه كلامهم لم يفسر المعنى، ولم يغير اللفظ. بل غيره تغييرا يدل على عدم الهجاء، وقلة الحفظ»[٢].

بل إنه كان يجد من كلام السائل ما يشبه كلام من سبقه من علماء النصارى فيربط كلامه بما أورده كبار أقستهم ليبين إن كان تكراراً لما قالوه أو تناقضا وخروجا عما ذهبوا إليه، أو تقليدا غير موفق[٣].

---

(١) في المخطوط والمطبوع ابن ميسرة، وما وجدته في نفح الطيب وتاريخ قضاة قرطبة ابن مسرة بدون ياء، فهناك احتمال بأن يكون هناك خطأ من ناسخ المخطوط أو أنه رجل آخر غير الذي ذكر في الكتابين المذكورين، ولم أجد له ترجمة، وكل ما وجدته أن صاحب تاريخ قضاة قرطبة قال: «سمعت الفقيه أبا مروان عبد الحكم بن مسرّة يقول....» ولم يترجم له ضمن قضاة الأندلس رغم أن القرطبي لقبه هنا بالقاضي. انظر: أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النُّباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ط: مركز الموسوعات العالمية، بيروت. وفي نفح الطيب ورد اسم أبي مروان بن مسرة في ترجمة بعض الأعلام الذين تتلمذوا عليه، ويمكن الخلوص من كلام المقري أن أبا مروان من العلماء الذين عاشوا في القرن السادس الهجري. انظر: المقري، نفح الطيب، ج٣، ص٢٦٣-٢٦٤، وج٤، ص٣٩٠.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٤٩.

(٣)انظر: المصدر نفسه، ص١٢٦، ١٥٦. حيث جاء مثلا في ص١٢٦: «من عجيب أمر هذا السائل...أن المذهب الذي أبداه من اتخاذ الله واسطة (صوت الصدى) إنما حمله على تقليده لكتاب أغشتين»

وهكذا ساعدت البيئة الأندلسية الإمام القرطبي في معرفة مصادر المدعو عن قرب بكم وافر، والاطلاع على عقائدهم، وعباداتهم، وعاداتهم، وخرافاتهم وحكاياتهم مما مكنه من أن ينوع في طرق الرد عليهم وكشف عوراتهم وخباياهم بأسلوب الداعية الخبير بخصائص المدعو واتجاهاته العقلية، والثقافية، وميوله العاطفية....

٢- الوضوح والشجاعة في عرض القضايا:

إن مما ساعد على ظهور مثل هذه المؤلفات النافعة في تراث المسلمين سياسة الدولة الموحدية المتجهة نحو إطلاق الحرية الكاملة تجاه البحث والتفكير والكتابة عامة، بالإضافة إلى أن الموقف الرسمي للدولة الموحدية تجاه النصارى كان موقفا واضحا يدعو إلى مجاهدة النصارى باللسان والسنان وبجميع الوسائل الممكنة حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون، كما أن الشعور بعزة الإسلام وذل الكفر لدى عامة مسلمي الأندلس علمائهم وعوامهم كان دافعا قويا لأن يسلك القرطبي في رده على ادعاءات النصارى بصحة عقيدتهم ودينهم مسلك الوضوح والشجاعة، ويستعمل كل ما يحلو له من أساليب النقد والنقض دون مواربة أو خوف، ولم توثر تلك المواقف المخزية التي كانت تظهر من قبل بعض ساسة وأمراء بعض إمارات الدول الأندلسية الإسلامية من التودد للنصارى بغية تعاونهم ضد بعض الإمارات الإسلامية المنافسة لهم في اتجاهات العلماء ومواقفهم من النصرانية، بل كان موقف العلماء دائما ضد هذه التحالفات التي أدت إلى انهيار دولة الإسلام في الأندلس بعد قرون من الزمان، ولم يكن المجال مفتوحا لمثل الدعوات التي تُسمع في عصرنا هذا والتي تنادي بالتقارب بين الأديان، وحماية مشاعر المواطنين النصارى الذين يشاركون المسلمين في وطن واحد؛ فتقف سدا منيعا أمام كل من يحاول دعوة النصارى أو غيرهم من أهل الملل إلى الإسلام بإبراز فساد دينهم وعيوبه وإظهار محاسن الإسلام ومزاياه.

٣- قلة استخدام أساليب أهل الكلام والمنطق:

عُرِّف علم الكلام بأنه «العلم الذي يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة»[١]، وقد تطور علم الكلام حتى اختلط بمسائل الفلسفة ودخلت فيه مصطلحات منطقية بعيدة عن منهج الكتاب والسنة، وذلك عندما ترجم المسلمون كتب المنطق[٢] اليوناني؛ فذمه علماء أهل السنة والجماعة، وانتشر هذا الفن في مجال الجدال العقائدي بشكل كبير.

واستنادا إلى نتائج الدراسات السابقة فإن بيئة الأندلس العلمية والفكرية لم تعرف المناوشات الكلامية التي برزت في المشرق الإسلامي، ولعل الأسباب تكمن في أن

---

(١) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج١، ص٨٢١.

والتعريف يشعر بأن علم الكلام محمود عند أهل السنة وابن خلدون يقصد بأهل السنة الأشاعرة، وليس كذلك، وفي ص٨٥٣ نسب علم الكلام أيضا إلى الفرق المبتدعة كالمعتزلة وغيرهم وذلك إما لما فيها من الحجاج والجدال، وهو الذي كان يسمى كلاما، وإما أن أصل طريقة أهل الكلام نفي صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى، وهذا دليل على أن علم الكلام ليس من طريقة أهل السنة والجماعة في إثبات العقائد وإن كان استخدمه بعضهم من باب الإلزام.

(٢) عرف المنطق بأنه: «آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر» الجرجاني، التعريفات، ص٢٤٣. والتعريف يجعل العصمة لمتبع قوانين المنطق وهذا غير مسلم به، فالعصمة عن الخطأ لا تكون إلا لمن عصمه الله. وللإمام ابن تيمية جهود في نقض المنطق، وبيان تهافته فمن أراد المزيد فليرجع إلى كتاب الرد على المنطقيين، والمجلد التاسع من مجموع فتاواه.

الإمام مالكاً[1] كان من أوائل العلماء الذين رفضوا الكلام وكان المذهب السائد في الأندلس مذهبه، وكانت عناية الأندلسين في رحلاتهم العلمية إلى بلاد المشرق بالعلوم العملية التي يحتاجون إليها كعلم القرآن والحديث والفقه، وأن الفِرق التي وجدت لها منفذا إلى بلاد الأندلس لم يكتب لها النجاح، بل انحسرت في محيط ضيق. كما أن الاشتغال بالفلسفة لم يكن له رواج في عصر الموحدين ولا يستطيع صاحبه إظهاره بشكل عام، وكذلك لم يجد تشجيعا إلا من خلفاء محدودين في فترة محدودة حيث برز فيها بعض الفلاسفة[2] المنتسبين إلى الإسلام، إلا أن الصفة العامة للحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين قلة الاشتغال بعلوم الفلسفة والمنطق، وعدم الاحتفال بها، بل

---

(١) هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر، إمام دار الهجرة، وصاحب كتاب الموطأ، ولد سنة ٩٣هـ، وطلب العلم وهو حدث، علّم وأفتى وعمره إحدى وعشرون سنة، وبلغ منزلة من العلم والفقه والفضل مبلغا عظيما، حتى صار أحد الأئمة الأربعة، توفي -رحمه الله- سنة ١٧٩هـ.

انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٤٨، وقد أورد الذهبي عن مواقفه مع المبتدعة من أهل الكلام، وموقفه السني من آيات الصفات، في ص٩٨ وما بعدها.

(٢) ظهر كل من الفيلسوف أبوبكر بن عبد الملك بن طفيل المتوفى سنة٥٨١هـ، وأبو الوليد محمد ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥هـ في عهد الخليفتين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨-٥٨٠هـ) وابنه يعقوب المنصور (٥٨٠-٥٩٥هـ)، حيث شجعا الاشتغال بالفلسفة. انظر: يوسف العريني، الحياة العلمية في الأندلس، ص٢٧٧-٢٧٩.

رفضه والنفرة منه وتبديع المشتغلين به ورميهم بالزندقة.[١]

وواضح من أسلوب القرطبي في دعوته للنصارى ورده على صاحب كتاب تثليث الوحدانية أنه لم يكن يستعمل مصطلحات المنطق إلا في نطاق محدود، حيث احتاج إلى ذلك؛ ولأن الخصم كان يحاول في بعض الأحيان سلوك طرق أهل الكلام والمنطق، فمثلا: استعمل الإمام القرطبي كلمة واجب الوجود في التعبير عن الله سبحانه وتعالى، واستعمل بشكل محدود مصطلح الجوهر[٢] وغيرها من الكلمات التي تعارف المشتغلون بالمنطق على مدلولاتها ومعانيها[٣].

واستعمال القرطبي -رحمه الله- لهذه المصطلحات كان على ما يبدو تبكيتا للسائل الذي حسب أنه قادر على أن يقنع غيره بصحة العقيدة النصرانية باستخدام بعض أساليب الاستدلال المنطقية، كما أن القرطبي لم يكن مغرقا في تعاطي مصطلحات أهل

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص٢٦٤، و٢٧٧-٢٧٩. والمقري، نفح الطيب، ج٣، ص١٧٦ و١٨٥-١٨٦، ومحمدعاطف العراقي، النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد، ص٤٢، ط٢، دار المعارف،١٩٧٩م، القاهرة. حيث نقل ما يفيد ذلك عن مصدر لم أجده لابن طملوس. أبوالحجاج يوسف بن محمد، المدخل لصناعة المنطق، ج١، ص٨، تحقيق: ميخائيل آسين بلاثيوس السرقسطي، ط/ المطبعة الأبيرقة، مدريد١٩١٦م.

(٢) الجوهر: «ماهية إذا وجدت في الأعيان كانت لا في موضع، وهو منحصر في خمسة: هيولي، وصورة، وجسم، ونفس، وعقل؛ لأنه إما أن يكون مجردا أو غير مجرد...» الجرجاني، التعريفات، ص٩٢.

(٣) انظر على سبيل المثال الإعلام، ص٧٣، حيث استخدم القرطبي -رحمه الله- كلمة واجب الوجود، وفي ص٧٧، استخدم كلمة الجوهر في معرض الرد على النصراني بألفاظه نفسها، وقد أنكر القرطبي في نهاية المطاف على النصراني استخدام هذا اللفظ المحدث الذي لم يرد في أي كتاب من كتب الأنبياء في حق الله سبحانه وتعالى

الكلام والمنطق؛ لذلك فإن الذي يقرأ كتاب الإعلام لا يجد مشقة في فهمه جملة وتفصيلا، ولا يحتاج إلى معرفة المصطلحات الخاصة بالمنطق، بل يجد النقاش واضحا جليا لكل من يفهم اللغة العربية، وأساليبها وعباراتها.

٤- ضرب الأمثلة بواقع الأندلس:

مما يلفت الانتباه في أسلوب القرطبي -رحمه الله- أنه عندما يحاول إقناع المدعو بقضايا وأمور معينة يحاول الاستدلال بالواقع الذي يعيشه المدعو والداعي، فهو يستفيد من الواقع ويوظفه نحو الوصول إلى هدفه، ففي استدلاله بهذه الآية: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[1] التي تعد المؤمنين بانتصار الإسلام على غيره من الديانات، وكيف أن هذه النبوءة التي تعد إحدى المعجزات القرآنية الدالة على صدق رسول الإسلام محمد ﷺ الذي بعث بالقرآن قد تحققت، فقال القرطبي مستشهدا على ذلك بحالة الأندلس: «وحسبك شاهدا على ذلك فتح هذه الجزيرة الأندلسية على يد جماعة من العرب قليل عَددهم وعُددهم، كثير دينهم ومددهم، على أعداء من النصارى لا تحصى، وجنود لا تستقصى، ولكن صدق الله عبده، وأنجز وعده، وهزم الأحزاب وحده»[2].

كما استشهد ببعض القصص والحكايات التي افتعلها قسس النصارى في الأندلس، وهي من قبيل الحيل والخدع التي يموهون بها على عوام النصارى كادعائهم ظهور يد المسيح لهم في يوم معلوم من السنة، وقصة الثريا المعلقة بين الأرض والسماء بإحدى كنائسهم، حيث ينزل إليها نور من السماء فيوقد ذبال الثريا، وأن مريم العذراء نزلت من السماء في ليلة النصف من شهر أغسطس وكست رأس أحد المطارنة بجامع

---

(١) سورة الصف، الآية٩.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٣٣٩-٣٤٠.

طليلطة بقجيلة[١]، وجسمه بثياب مزينة، إلى غير ذلك من الخرافات التي تنبه إليها بعض الحذاق فعرف سرها وأفسد حيلها.[٢]

والملاحظ هنا أن للبيئة الأندلسية حضوراً في أسلوب القرطبي، فهو يحاول من خلال ضرب الأمثلة الواقعية ربط المدعو بالحياة التي يعيشها لأنه أقرب إلى فهمها ومعرفة مجرياتها، وهو خبير بالأحداث الواقعة فيها، وهذا ما يؤكد القول بأن الإمام القرطبي كان متفاعلاً مع بيئته في عرض دعوته إلى النصارى.

ب/ الآثار السلبية:

١- بروز العقيدة الأشعرية.

٢- الشد العصبي، والشدة في اللهجة.

ويمكن الحديث عنها بتوسع فيما يلي:

١- بروز العقيدة الأشعرية:

من الآثار السلبية للبيئة الأندلسية العلمية على أسلوب دعوة الإمام القرطبي للنصارى بروز العقيدة الأشعرية[٣] في تناوله لبعض قضايا العقيدة، بالرغم من أن الأندلسيين ساروا على طريقة السلف في العقيدة، واستمروا على المذهب السني ردحا

---

(١) لم أجد معناها في القواميس العربية، ولعلها من الكلمات الدخيلة في اللغة العربية من لغة أهل الأندلس الأصليين، ومن الواضح من تعبير القرطبي أنها شيء يغطى به الرأس. والله أعلم.

(٢) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٣٨٤-٣٨٦.

(٣) نسبة إلى إمام المتكلمين أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري اليماني البصري، ولد سنة ٢٦٠، وقيل ٢٧٠هـ وقد أعطاه الله ذكاء وقوة فهم، رجع عن تأويله لصفات الله إلى مذهب أهل السنة والجماعة في آخر حياته، من كتبه الإبانة، ومقالات الإسلاميين، توفي ببغداد سنة ٣٢٤هـ انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٥، ص٨٥ وما بعدها.

من الزمن، حتى قام بعض علمائهم بالتتلمذ على أئمة المذهب الأشعري في بلاد المشرق الإسلامي، وجلبوا معهم المصنفات الكلامية للمذهب الأشعري فبدأ بالانتشار بين علماء الأندلس وطلابها في القرن الخامس الهجري.[1]

وظهر تأثر القرطبي بالمدرسة الأشعرية في تأويله لبعض صفات الله تعالى كتفسيره للاستواء بالاستيلاء بقوله: «لأنا نريد بقولنا هو على العرش مستوي، واستوى على العرش: أن العرش تحت قبضته، ومسخر بقدرته، والاستواء عليه، إنما هو بمعنى الاستيلاء على ما يعرفه العرب من كلامها»[2] إلى غير ذلك من مسالك الأشاعرة في تأويل الصفات.

٢- الشد العصبي وشدة اللهجة:

شهدت الأندلس في القرن السابع الهجري صراعا عسكريا قويا بين المسلمين والنصارى، وقد تبين في المبحث الماضي الاتجاهات التي سار عليها الصراع بين النصارى والمسلمين، وكيف أن الصراع الفكري كان له حضور قوي في حياة أهل الأندلس، وقد أوجد عنف الصراع الإسلامي النصراني وشدته أثرا ملموسا في أسلوب الخطاب النصراني الإسلامي من كلا الجانبين.

فإن أبا عبيدة الخزرجي مثلا في كتابه مقامع الصلبان «لا يتحاشى استعمال عبارات السب والشتم في بعض المواضع، ويبدي الكثير من الترفع على مخاطبه، والاحتقار له ولقومه، رغم أنه كان أسيرا فيهم، ولكنها لعمري قاعدة تكاد تكون مطلقة

---

(١) انظر: يوسف العريني، الحياة العلمية في الأندلس، ص٢٦٥-٢٦٧.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص١٣٢. نقل عن الأشعري غير واحد من أئمة أصحابه أن الاستواء بمعنى الاستيلاء. انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٥، ص١٨٧ونسب ابن خلدون تأويل الاستواء إلى الأشاعرة، العبر، ج١، ص٨٥٤-٨٥٥. والصحيح الذي عليه مذهب أهل السنة والجماعة أن الله مستو استواء حقيقيا يليق بجلاله ولا يشبه استواء المخلوقين.

في هذا النوع من التأليف في القديم سواء صدر عن المسيحيين أو عن المسلمين»[١].

وقد سار على الأسلوب الشديد اللهجة نفسه أيضا الإمام ابن حزم في الفصل، وكذلك الإمام القرطبي -رحمهما الله-، فيقول على سبيل المثال للمخاطَب: «اسكت فض الله فاك، فما أكذبك وما أجفاك، تتقول علينا بما لا نقول... اسمع يا لُكع[٢] على أنك لا تحسن أن تسمع...»[٣]، ويقول له: «فإذا بالمتكلم يهرف بما لا يعرف، وينطق بما لا يحقق، ناقض ولم يشعر، وعمي من حيث يظن أنه يستبصر...دل بقوله على ضعف عقله، وبمكاتبته على سوء محاولته، تعاطى درجة النظار، وسود بأباطيله ذلك الطومار[٤]...»[٥] ويقول بصيغة الجمع موجها خطابه للنصارى عامة: «لكنكم لستم عند العقلاء أهلا لقبول حق، ولا لرد باطل، فليس ردكم بأولى من قبولكم»[٦].

ومما يدل على أن الطرف المقابل الذي يمثله النصارى كان له الاتجاه نفسه أسلوب الوعيد والتهديد الذي استخدمه صاحب كتاب تثليث الوحدانية بالإساءة إلى الإسلام عبر كتب يرسلها إلى كل بلد؛ وذلك لأنه فهم من كتابات بعض المسلمين السب

---

(١) أبو عبيدة الخزرجي، مقامع الصلبان، ص٢٤-٢٥، مقدمة المحقق د. عبد المجيد الشرفي.

(٢) لُكع: اللئيم، والعبد، والأحمق، ومن لا يتجه لمنطق ولا غيره. الفيروزآبادي القاموس المحيط، ج٢، ص١٠١٩، مادة (لكع).

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٢٢٢.

(٤) الطامور والطومار: الصحيفة، وجمعه: طوامير. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٥٠٦مادة (طمر).

(٥) القرطبي، الإعلام، ص٤٣.

(٦) المصدر نفسه، ص٢١٨.

والشتم للمسيح[١]، كما أن الإمام القرطبي -رحمه الله- يعيد سبب الشدة في مخاطبة النصارى إلى ما ارتكبوه من بعض الأقوال الشنيعة التي يستثيرون بها مشاعر المسلمين، فيقول: «...وربما أغاظوا في بعض الأقوال لما ارتكبوا فيها من القبيح المحال، فأطلقت عليهم اللعنة حسب ما تقتضيه البغضاء والإحنة»[٢].

إذاً فالجو العام والسمة البارزة في المناظرات الدينية بين المسلمين والنصارى كان جوا تحيط به العداوة والبغضاء، جوا يعكس قوة الصراع النصراني الإسلامي في الأندلس؛ لذا كان الشد العصبي، والتشدد في الخطاب، واستعمال الكلمات البعيدة عن اللطف واللين، من الأمور التي شاعت وانتشرت في أساليب الدفاع عن الدين المعتنَق، والهجوم على دين المخالفين.

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص٢١٦.

(٢) المصدر السابق، ص٤٣٨.

الفصل الثالث
أسلوب القرطبي في دعوة النصارى إلى الإسلام

المبحث الأول: أسلوب الاستدلال بالمنقول وقيمته في دعوة النصارى

المبحث الثاني: أسلوب الاستدلال بالمعقول وقيمته في دعوة النصارى

المبحث الثالث: أسلوب القرطبي العاطفي والفني وقيمته في دعوة النصارى.

تمهيد:

تهدف العملية الاتصالية الدعوية إلى إقناع المدعو (مستقبل الرسالة الدعوية) بمضمون الرسالة «ولعل من أهم عناصر الرسالة الإقناعية بعد المضمون هو الأسلوب الذي يعالج به المضمون ويقدم به، ولا فرق في ذلك بين أن تكون عملية الاتصال الإقناعية للدعوة أو الدعاية أو الإعلان، أو لتأسيس علاقة طيبة»[(١)].

فعنصر الأسلوب في العملية الدعوية يمثل جانبا مهما من جوانب نجاح الدعوة وانتشارها، وعلى الدعاة أن يعيروا الأسلوب الذي يعرضون به دعوتهم الاهتمام الذي يستحقه «فالأسلوب ليس شيئا رخيصا ولا شيئا ممتهنا، بل يجب على حامل الدعوة أن يتقن الأسلوب كل الإتقان، فبه تُنشر الدعوة، وتُوضَّح الطريقة، وبحسن استخدامه تُقاد الأمة، وبنجاح تنفيذه تبلغ الغاية المقصودة...»[(٢)].

والإمام القرطبي -رحمه الله- كان له أسلوب خاص في دعوة النصارى إلى الإسلام، وسلك في سبيل ذلك طرقا متعددة ومختلفة، منها: النقلي، والعقلي، والفني، والعاطفي...الخ؛ وذلك من أجل إقناع النصارى بأن الإسلام هو الدين الحق، وأن محمدا ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين الذي ينبغي تصديقه فيما جاء به، ومتابعته في أمره، وأن ما دون ذلك هو الباطل الذي يجب التبرؤ منه.

وفي الأسطر القادمة -إن شاء الله- يعرض الباحث الأساليب التي سار عليها القرطبي في دعوة النصاري إلى الإسلام.

---

(١) د. إسماعيل صيني، مدخل إلى الإعلام الإسلامي، ص٢٣٧، ط، دار الحقيقة، القاهرة، ١٤١١هـ

(٢) سميح عاطف الزين، الإسلام وثقافة الإنسان، ص٧٠٦، ط٨، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

المبحث الأول

أسلوب الاستدلال بالمنقول وقيمته في دعوة النصارى

* **تمهيد:**

تعريف الاستدلال بالمنقول:

الدليل في اللغة: «ما يستدل به، والدليل: الدَّال. وقد دلَّه على الطريق يدُله دَلالة، ودِلالة، ودُلولة. والفتح أعلى»[(١)].

والاستدلال: تقرير المدلول[(٢)]، أو طلب الدليل[(٣)]، أو طلب معرفة الشيء من جهة غيره، والفرق بين الدلالة والاستدلال أن الدلالة ما يمكن الاستدلال به، والاستدلال فعل المستدل[(٤)].

والاستدلال في الاصطلاح: هو: «إثبات الحكم المدعى بدليله»[(٥)].

أو «هو حركة الفكر أثناء انتقاله من موضوع إلى آخر ينتج أو يلزم عنه»[(٦)]

أو هو: «عملية عقلية ينتقل فيها الفكر من مقدمة أو أكثر وما يترتب عليها من نتائج»[(٧)]

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص٢٤٨، مادة (دلل).

(٢) الجرجاني، التعريفات، ص٣٥.

(٣) انظر: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ج٢، ص٢٣، ط، دار الكتب العلمية، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م، بيروت.

(٤) انظر: أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة، ص٦١، ٦٥، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، ط٤، دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، بيروت،

(٥) نجم الدين الطوفي الحنبلي، علم الجذل في علم الجدل، ص٣٨، تحقيق: فولفهارت هاينريتشس، ط، دار فرانز شتاينر بفيسبادن، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

(٦) د. عزمي إسلام، الاستدلال الصوري، ص١١، ط، المطبعة العصرية، الكويت.

(٧) د. حنان عيسى سلطان، وزميلها، أساسيات البحث العلمي، ص١٥.

أو «هو البرهان الذي يبدأ من قضايا يسلم بها، ويسير إلى قضايا أخرى تنتج عنا بالضرورة، دون الالتجاء إلى التجربة، وهذا السير إما بواسطة القول...»[(١)] أو غيره.

والمشتغلون بالمنطق والمختصون بعلوم البحث العلمي يفرقون بين الاستدلال والبرهان، وبين الاستدلال كعملية منطقية أولية، والاستدلال كمنهج، ويقسمون الاستدلال إلى مباشر وغير مباشر... إلى غير ذلك من المصطلحات التي قد لا تكون الفروق فيها واضحة[(٢)].

ومن خلال هذه التعريفات المتشابهة يمكن القول بأن الاستدلال بمفهومه المبسط القريب الذي يخدم هذا البحث هو: ما يعتمد عليه المدعي من البراهين في إثبات دعواه أو نقض دعوى خصمه؛ أوهو: «إيراد الدليل لدعم القضية، سواء أكان بطلب المخالف أو استطراد من المستدل»[(٣)].

والاستدلال إما أن يكون سمعيا أوعقليا أو حسيا أو شرعيا أو مركبا من جميع ذلك أو من بعضه[(٤)]، وبذلك يمكن أن تتداخل الأدلة وتتعاضد فيحمل الدليل الواحد أكثر من وجه يمكن الاستدلال به.

---

(١) د. عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، ص٨٢. وانظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، ص١٤٩، ط٤، دار القلم، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م، دمشق.

(٢) انظر: المصادر الثلاثة السابقة.

(٣) د. زاهر عواض الألمعي، مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص٧١، ط٣، مطابع الفرزدق التجارية، ١٤٠٤هـ، الرياض.

(٤) انظر: الطوفي، علم الجذل، ص٣٩-٤١، وعبد الملك الجويني، كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، ص٨، تحقيق: د. محمد يوسف موسى، وعلي عبد المنعم عبد الحميد، ط، مكتبة الخانجي، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م، وعبد الرحمن الميداني، ضوابط المعرفة، ص١٣٤.

وعلى هذا فإن المقصود بالاستدلال بالمنقول في هذا المبحث هو التعرف على النصوص التي نقلها الإمام القرطبي من مصادر أخرى لإثبات دعواه ودعم قضيته التي يدعو إليها، ودحض دعوى الطرف المقابل.

المطلب الأول

أنواع الاستدلال بالمنقول عند القرطبي في دعوة النصارى

هناك مجموعة من النقول استدل بها القرطبي -رحمه الله- في دعوة النصارى، منها المنقول من القرآن والسنة، ومنها المنقول من الكتب المقدسة لدى النصارى، ومنها ما هو منقول عن علماء الإسلام أو علماء النصارى، وفي هذا المطلب يستعرض الباحث أنواع المنقولات التي استدل بها القرطبي، ومجالات الاستدلال بها، ليكون المطلب القادم تحليلا لهذه المنقولات لمعرفة قيمة هذا النوع من الاستدلال في دعوة النصارى.

أولا: الاستدلال بالمنقول من القرآن والسنة:

يعد الاستدلال بالمنقول من القرآن الكريم من الأساليب التي ورثها علماء الإسلام من رسولنا محمد بن عبدالله ﷺ ، حيث كان يستشهد بما جاءه من الوحي من القرآن في دعوته لأمته، سواء كان هذا الاستدلال في خطبه أم محاوراته ومناقشاته وإرشاداته، وتوجيهاته وإصدار تعاليمه...الخ، وباعتبار أن السنة النبوية مصدر تشريعي آخر ووحي موضح ومبين لما جاء في القرآن الكريم، عمد علماء الإسلام إلى الاستدلال بأقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته في أمور دينهم وبيان الحق للناس والرد على المخالفين.

أ/ الاستدلال بالمنقول من القرآن الكريم:

اتخذ الإمام القرطبي أسلوب الاستدلال بالمنقول من القرآن طريقا لدعوة النصارى إلى الإسلام في أثناء مناقشته لهم في قضايا متعددة، ويمكن ذكر القضايا التي استدل عليها القرطبي بما جاء في القرآن في النقاط التالية:

١- بيان صفات الله سبحانه وتعالى:

استدل القرطبي -رحمه الله- بقوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[1] وذلك في معرض رده على خصمه الذي أثار سؤالا يقول:«إن

---

(١) سورة الشورى، آية ١١.

كتابكم يقول إن موسى سمع الله، وكلمه تكليما، فكيف كان ذلك؟....»[١].

فاستدلاله بهذه الآية كان لنفي الكيفية عن صفاة الله التي ظن السائل أن الإيمان بصفاته تعالى يقتضي العلم بكيفية صفة الله سبحانه وتعالى.

والآية نفسها أيضا أوردها القرطبي في معرض مقارنته لما جاء في التوراة من وصف الله تعالى بصفات فيها تشبيه الخالق بالإنسان ذي الجوارح[٢] بما يستحقه الله من صفات الكمال والجلال، وتنزيهه عن كل نقص وعيب، وعلو شأنه فوق كل الوجود.

وفي المجال نفسه يذكر القرطبي عقيدة النصارى في صفة سمع الله سبحانه وتعالى، حيث يشير إلى ماجاء في كتبهم أن الله سبحانه وتعالى طلب من بني إسرائيل أن يضربوا القرن في عسكرهم بشدة إذا لقوا العدو حتى يسمعهم الله[٣] فعقب على هذا بقوله: «فأين هذا من وصف الله تعالى نفسه في كتابه على لسان نبيه ورسوله حيث قال: ﴿**وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى**﴾[٤]»[٥]. فاستدل على فساد عقيدتهم المنافية لكمال الله سبحانه وتعالى بما جاء في القرآن من إثبات صفة علم الله الكامل لكل ما يدور تحت ملكه، فلا يخفى عليه شيء من ذلك مهما خفي واستتر.

٢- تصحيح فهم النصارى لنصوص القرآن ومنهج الإسلام:

يظن النصارى في بعض الأحيان أنهم عثروا على مرادهم في نصوص القرآن

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص١٠٥وما بعدها.

(٢) انظر: القرطبي، الإعلام، ص١٩٥.

(٣) النص في الترجمة الحديثة «إذا ذهبتم إلى حرب في أرضكم على عدو يضر بكم تهتفون بالأبواق فتُذكرون أمام الرب إلهكم وتخلَّصون من أعدائكم» سفر العدد ٩/١٠، الكتاب المقدس، طبعة العيد المئوي، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، ١٩٨٣م.

(٤) سورة طه، آية ٨-٧.

(٥) القرطبي، الإعلام، ١٩٥-١٩٦.

الكريم؛ فيحاولون الاستدلال على مذهبهم الفاسد وعقيدتهم الباطلة ببعض الآيات القرآنية، وذلك نتيجة لسوء فهمهم وقصر إدراكهم لمدلولات الآيات القرآنية، ولتصحيح مثل هذا الفهم الخاطئ استدل القرطبي بقوله تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾[١] وقوله تعالى: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿هاؤم اقرأوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على محاسبة الله عباده يوم القيامة؛ لإعطاء صورة واضحة لكيفية المحاسبة وأحوال الناس في ذلك اليوم المهيب قائلا: «إن محاسبة الله للخلق تكون على وجوه جائزة في العقل واردة في النقل، لا تحتاج إلى شيء مما تخيلته»[٤] وذلك أن صاحب كتاب تثليث الوحدانية تصور المحاسبة يوم القيامة على طريقة مذهبه من أن المسيح هو الذي يأتي ويحاسب الناس استنادا إلى قوله تعالى: ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾[٥] وأن المحاسِب يخاطب الناس ويتكلم معهم، وهو مدرك بالحواس[٦].

وكذلك استدل القرطبي بقوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك﴾[٧]، في سياق رده على المجادل الذي استدل بقوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي

---

(١) سورة المؤمنون، آية١٥.

(٢) سورة الإسراء، آية١٤.

(٣) سوة الحاقة، آية١٩.

(٤) القرطبي، الإعلام، ١٢٢.

(٥) سورة الفجر، آية٢٢.

(٦) انظر: القرطبي، الإعلام، ص١١٦، ١٢٢.

(٧) سورة النحل، آية٣٣.

الأمـر وإلى الله ترجع الأمـور﴾[١] على أن المقصـود بالمقـبل مع الملائكة هو عيسى ابن مريم عليه السلام، بينما فسرها القرطبي على تقدير محذوف مستدلا بآية سورة النحل، بأن المقصود أن يأتي أمر الله وحكمه، قائلاً: «فكيف لا ننكر ذلك ولم يدل على وقوعه دليل عقل ولا صحيح نقل؟ وليس معنى الإتيان في هذه الآية إلا كالمجيء في الآية المتقدمة[٢]، وكلاهما ليس المراد به المجيء الذي هو نقل الأقدام، بل المجيء والإتيان لهما معان أخر يعرفها العرب المؤمنون»[٣].

وفي موضع آخر يُرى القرطبي يرد على استدلال النصارى بقول الله تعالى: ﴿**إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه**﴾[٤] ظانين أن فيها ما يؤيد قولهم بالاتحاد قائلين: «فإن عيسى رسول الله

---

(١) سورة البقرة، آية ٢١٠.

(٢) يقصد قوله تعالى: ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾ سورة الفجر، آية ٢٢.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص١٢٥.

والتفسير الذي ذهب إليه القرطبي مخالف لمذهب أهل السنة والجماعة، فقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم: «يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم، قياما شاخصة أبصارهم إلى السماء، ينظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي» ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: «إن هذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة المثبتين للصفات الاختيارية كالاستواء والنزول، والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه أو أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم، فيثبتونها لمعانيها على وجه يليق بجلال الله وعظمته من غير تشبيه ولا تحريف، ولا تعطيل» تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: محمد زهري النجار، ج١، ص٢٥٦-٢٥٧، ط١، مكتبة الهدى الإسلامية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

(٤) سورة النساء، آية ١٧١.

وكلمته، فناسوته: رسول الله، ولاهوته: كلمة الله، على ما أخبر به كتابكم»[١]. فيقول القرطبي -رحمه الله-: «فلا حجة لهم في ذلك لوجوه: أحدها: أنهم لا يصدقون بكتابنا، فلا يستدلون به على شيء، والثاني: أنهم إن استدلوا على غرضهم بشطر هذه الآية، فإن صدرها يرد عليهم استدلالهم وكذلك الآيات التي بعدها»[٢] ثم يورد الآية كلها: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا بالله، ورسله، ولا تقولوا ثلاثة. انتهوا خيرا لكم. إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض، وكفى بالله وكيلا. لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا﴾[٣].

أما في جانب تصحيح الفهم الخاطئ لدى النصارى فيما يتعلق بمنهج الإسلام في الاعتقاد، فإن القرطبي -رحمه الله- يبين أن منهج الإسلام في الاعتقاد مبني على تحريم التقليد، واستنهاض العقول للنظر، وأن الله تعالى قد بيّن للناس مسالك العبر، وأوجب النظر الصحيح المفضي إلى العلم، واستدل بقوله تعالى: ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون، وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، قال أو لوجئتكم بأهدى مما وجدتم

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص١٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣٧.

(٣) سورة النساء، آية:١٧١-١٧٣.

عليه آباءكم. قالوا: إنا بما أرسلتم به كافرون﴾[١] ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾[٢]﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[٣] فكانت هذه الآيات أدلة داحضة لما ادعاه مخاطب القرطبي النصراني أن أهل الأديان جميعا -المسلم وغيره- يقلدون من قبلهم ولا يعملون عقولهم ![٤]

٣- إثبات نبوة محمد ﷺ:

من القضايا الأساس التي ينكرها النصارى نبوة محمد عليه أفضل السلام والتسليم، ومن حجج القرطبي على نبوة محمد ﷺ أن ما جاء به من الدين اعتبر أصول مصالح العالم فأوجبها، وهي المتمثلة في أصول المصالح الخمسة: حفظ الدماء، والأموال، والأنساب، والعقول، والدين، فاستدل على حفظ الدماء بقوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾[٥]، وعلى حفظ العقول بقوله تعالى: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله، وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾[٦]، وعلى حفظ الأنساب وعدم اختلاطها وانتساب الكل إلى شيعته استدل بقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم

---

(١) سورة الزخرف، آية:٢٢-٢٤.

(٢) سورة يونس، آية:١٠١.

(٣) سورة الحج، آية:٤٦.

(٤) انظر: القرطبي، الإعلام، ص١٧١.

(٥) سورة البقرة، آية١٧٩.

(٦) سورة المائدة، آية٩٠-٩١.

شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾[١] واكتفى بالإشارة على تشريع الزواج وتحريم السفاح، واستدل على حفظ الدين بقوله تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[٢] وذلك بعد أن أشار إلى أن الله حرم الكفر والعصيان، وأوجب الإيمان وبعث في سبيل ذلك الرسل وأنزل الكتب[٣].

وزيادة في الاستدلال على صدق رسالة محمد ﷺ نقل آيات كثيرة تنبئ عن صفات الرسول ﷺ التي تدل على ما آتاه الله من العلم كقوله تعالى: ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما﴾[٤] وعلى خوفه من الله واجتهاده في العبادة بقول الله تعالى: ﴿إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا﴾[٥] ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر﴾[٦] وعلى عظيم خُلقه الذي لم ينل شرفه أحد من الخلق، بقوله تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[٧]، كما رد على شبهتهم واتهامهم له ﷺ بأنه أشاع العداوة والبغضاء بين الناس بقوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[٨] إلى غير ما آية من الآيات الدالات على أوصاف النبي عليه أفضل الصلاة وأتم

---

(١) سورة الحجرات، آية١٣.

(٢) سورة الذاريات، آية٥٦-٥٨.

(٣) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٢٩٦-٢٩٨. ولم يأت بآية على حفظ المال، واكتفى بالإشارة إلى أن الله شرع قطع يد السارق، وقتل المحارب...ص٢٩٦، وقد تغني آية تحريم الميسر السابقة

(٤) سورة النساء، آية١١٣.

(٥) سورة المزمل، آية٥.

(٦) سورة المدثر، آية١-٣.

(٧) سورة القلم، آية٤.

(٨) سورة التوبة، آية:١٢٨.

التسليم[1].

ويواصل القرطبي في إثبات نبوته ﷺ بالأدلة المنقولة من الكتاب العزيز فيذكر تأييد الله سبحانه لرسوله ﷺ بالمعجزات الدالات على صدقه، فيأتي بأعظم معجزة أيد الله بها رسوله وهي معجزة القرآن الكريم التي تحدى بها جميع الخلائق قائلا: ﴿...لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾[2]، فاستدل بهذه الآية على ثبوت حجة الرسول ﷺ لظهور عجز المخاطبين على الإتيان بمثل القرآن.

ثم بين وجوه إعجاز القرآن الكريم واستدل على ذلك من المنقول من القرآن نفسه فاستدل على فصاحة القرآن الرائقة، وبلاغته، وجزالة أسلوبه بقوله تعالى: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾[3]، ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي لعلكم تذكرون﴾[4]، ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾[5]، واستدل على نظمه العجيب وأسلوبه الغريب بقوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا، فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا، قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا، قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا، قال كذلك قال ربك هو عليّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا،

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٢٩٩-٣١٤، وص٤٥٠.

(٢) سورة الإسراء، آية:٨٨.

(٣) سورة الأعراف، آية:٩٩.

(٤) سورة النحل، آية:٩٠.

(٥) سورة البقرة، آية:١٧٩.

فحملته فانتبذت به مكانا قصيا﴾[1] واستدل على إعجاز القرآن في جانب ما تضمنه من الإخبار بالمغيبات بقوله تعالى: ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون﴾[2] ﴿الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾[3] ﴿سيهزم الجمع ويولّون الدبر﴾[4] ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له الحافظون﴾[5]، فهذه الآيات أخبرت حين نزولها بأمور غيبية تحقق بعضها في حياة النبي ﷺ وما زال بعضها الآخر مشاهدا إلى يومنا هذا، والإمام القرطبي كان يورد هذه الآيات وما أشبهها مع بيان المقصود بها، وأسباب نزولها، وبيان معانيها والقصص التي رافقتها، ومواقف الصحابة والمشركين منها، مع تأييد بعضها بالأحاديث النبوية.[6]

وأضاف على معجزة القرآن الكريم معجزة انشقاق القمر واستدل عليها بقوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر﴾[7] باعتبارها

---

(١) سورة مريم، آية ١٦-٢٢. وقد أورد القرطبي حتى الآية ٣٦.

(٢) سورة الفتح، آية:٢٧.

(٣) سورة الروم، آية:١-٦.

(٤) سورة القمر، آية:٤٥.

(٥) سورة الحجر، آية:٩.

(٦) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٣٢٤-٣٤١.

(٧) سورة القمر، آية١-٣.

إحدى المعجزات الكونية التي أيد الله بها رسوله الكريم[١].

٤- بيان حقيقة المسيح عليه السلام:

جاء القرآن وفيه البيان الشافي لما اختلف فيه النصارى، وعلى هذا الأساس يستدل القرطبي بما جاء في القرآن من الحديث عن عيسى -عليه السلام- ونبوته، ويرى أن المسلم يملك أدلة قاطعة كثيرة يعول عليها، وإن وُجد ما يستدل به من كلام النبيين -إن صح- على نبوة عيسى -عليه السلام- فهي زيادة في أنواع الأدلة لا في اليقين نفسه[٢]؛ لذا فإنه بعد أن يذكر من كتبهم عددا من الفقرات التي تدل على براءة عيسى -عليه السلام- مما يدّعونه في شأنه، يبدأ بتصوير الموقف المخزي للنصارى يوم القيامة أمام الله وأمام الذي يظنون أنه سينجيهم. ويستدل على ذلك بما جاء في قوله تعالى: ﴿يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾[٣] فيقول خجلاً متبرأً فزعا من قبيح ما نسبتموه إليه ﴿سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق. إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾[٤].

ومرة أخرى يستعرض قول النصارى الغلاة واليهود الجفاة الذين قالوا بالإفك في حق مريم البتول، والموقف الحق الذي يقبله العاقل مستدلا بما أخبر به الرسول ﷺ عن الله سبحانه وتعالى: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٣٤٩.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص٢١٣.

(٣) سورة المائدة، آية:١١٦

(٤) سورة المائدة، آية:١١٦-١١٧.

قبله الرسل، وأمه صديقة﴾[1] فالقرطبي -رحمه الله- يؤكد على أن المسلم يعرف عيسى -عليه السلام- حق معرفته ويؤمن بنبوته وشريعته، ومعجزاته، ويحيل عليه الإلهية، والمستحيلات العقلية التي شوهت بها النصارى نقاء الديانة التي دعا إليها المسيح -عليه السلام- بالتحريف والتبديل، ويستدل بقوله تعالى: ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾[2] ﴿وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا، إن كل من في السموات إلا آتي الرحمن عبدا﴾[3] ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾[4] وبما قاله المسيح -عليه السلام- عندما تكلم في مهده عن نفسه ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا، وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا﴾[5]، ويبطل القرطبي المحاولات الساعية إلى تخويفه وترهيبه بعيسى -عليه السلام- حيث ادعى النصراني بأن عيسى -عليه السلام- متحكم على جميع الأمم، فيفند هذه العقيدة الباطلة، ساندا الحكم لله الذي أوجد الخلائق بعد أن لم تكن، والمعيد لها بعد الفناء مستدلاً بقوله تعالى: ﴿قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم

---

(١) سورة المائدة، آية:٧٥.

(٢) سورة التوبة، آية: ٣٠-٣١.

(٣) سورة مريم، آية: ٩٢-٩٣.

(٤) سورة آل عمران، آية:٧٩.

(٥) سورة مريم، آية: ٣٠-٣١.

وأمه ومن في الأرض جميعا، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾[١][٢].

ويمضي الإمام القرطبي -رحمه الله- في الاستدلال بما جاء في القرآن من ذكر الحقائق عن عيسى -عليه السلام- وذلك عندما يقوم بتحليل النصوص الإنجيلية التي يعتمد عليها النصارى في القول بصلوبية عيسى -عليه السلام- ويبين أن النصوص تحتمل عدم صلبه، وأن النصارى واليهود غير متأكدين من أمر المصلوب يقينا، يؤكد ذلك مستدلا بقوله تعالى: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقينا، بل رفعه الله، وكان الله عزيزا حكيما﴾[٣][٤].

٥- بيان حال النصارى:

يجد القرطبي -رحمه الله- حين يقرأ ما كتبه النصارى وتقوّلوه بأفواههم من الأباطيل والترهات المناقضة للعقل والمنطق والشرع انطباق الكثير من الآيات التي تصف سلوك الكفار عامة في التعامل مع قضايا الاعتقاد والاستدلال عليها، فيبين عدم معرفة السائل -صاحب كتاب تثليث الوحدانية- بما يقول ويتكلم، وانطباق قول الله تعالى: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم كالأنعام بل هم أضل﴾[٥] عليه، وقال استدلالا على انغلاق عقول النصارى، وقلة فهمهم لمخالفتهم ضرورات العقل: فإنهم «لو فتح عليهم بابا من السماء ﴿فظلوا فيه

---

(١) سورة المائدة، آية:١٧.

(٢) انظر: القرطبي، الإعلام، ص١٠١، ٢١٢، ٢٢٩، ٢٥٤، ٢٥٥.

(٣) سورة النساء، آية:١٥٧-١٥٨.

(٤) انظر: الإعلام، القرطبي، ص٤١٦.

(٥) سورة الفرقان، آية:٤٤.

يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾[١] »[٢].

وبما أن صفة اتباع الهوى، ومجانبة العقل ظاهرة في كثير من الناس، فإن النصارى الذين اعتقدوا التثليث أولى الناس بذلك، وهم لا يتبعون ما في كتبهم، بل يتبعون محض أهوائهم وتحكماتهم، وإن التحكم والهوى ظاهر حتى في كتبهم التي حرفوها، وقالوا في الأنبياء شنيع القول مما لا يقبله العقل ولا الشرع، واستدل القرطبي -رحمه الله- في أثناء مناقشتهم على صدق ذلك عليهم بقوله تعالى: **﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾**[٣]، **﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾**[٤]، **﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾**[٥][٦].

واستدل الإمام القرطبي على أن واقع القسيسين في الأندلس الذين كانت لهم قوانين مخففة عن غيرهم من عوام النصارى في فاحشة اللواط مثلا، ليس أمرا مستغربا بقوله تعالى: **﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلم يعذبكم بذنوبكم، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء، ويعذب**

---

(١) سورة الحجر، آية:١٤-١٥.

(٢) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٤٣-٤٥.

(٣) سورة الفرقان، آية٤٣-٤٤. يرى إمام الحرمين أن إيراد مثل هذه الآيات مما يستعان بها على دفع الخصم فيما يتعذر فيه رسْم النظر، أو لا يَقصِد بالمناظرة طلب الحق، وابتغاء الرشد، أو يقصد به التلهي والمباهاة، فإذا أوردتها أبرقت الخصم حرا لخجله، فيتجنب المقاصد الذميمة إن شاء الله. انظر: الجويني، الكافية في الجدل، ص٥٦٥.

(٤) سورة القصص، آية: ٥٠.

(٥) سورة البقرة، آية:١٠٢.

(٦) انظر: القرطبي، الإعلام ص٥١، ٨٨، ٢٠٠.

من يشاء، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾[١] فهم يرون أن لهم الحظوة والمنزلة عند الله من دون الناس[٢].

ولكن في الوقت نفسه لا يستدل القرطبي على فساد حالهم فقط، بل ينصفهم ويعرف حقهم، ويستدل على ذلك أنه كان منهم من عرف الحق واهتدى بقوله تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يُدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾[٣] «فهؤلاء الذين عرفوا شرعة المسيح -عليه السلام- وعلموا ما عهد إليهم من نعت محمد ﷺ، خير الأنام فبادروا لتصديقه ولم يمكنهم العدول عن طريقه، ولولا حرمة هؤلاء الأولياء الذين كانوا منكم لما بقي ستر الله عليكم»[٤].

وقد يورد الإمام القرطبي -رحمه الله- نقلاً من القرآن الكريم لا على سبيل الاستدلال بل لأغراض أخرى مثل: التحدي، والترهيب، فهو مرة يتحداهم بالإتيان بالتوراة مستندا إلى قوله تعالى: ﴿فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾[٥]، ويخاطب النصارى قائلا: «وعلى الجملة فإنا نقول لمن كذب محمدا ﷺ أو شك في رسالته ما قال الله تعالى في كتابه محتجا على من أصر على تكذيبه: ﴿وإن كنتم

---

(١) سوة المائدة، آية:١٨.

(٢) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٤٠٩.

(٣) سورة المائة، آية:٨٢-٨٤.

(٤) القرطبي، الإعلام، ص١٧٨.

(٥) سورة آل عمران، آية٩٣.

في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾[١]»[٢]، ومرة أخرى يخوفهم بآي الوعيد والعذاب مباشرة في أثناء حديثه ورده على افتراءاتهم وكذبهم على الله ورسله بقوله تعالى: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾[٣] ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾[٤] ﴿ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[٥][٦].

ب/ الاستدلال بالمنقول من السنة:

يمثل الاستدلال بالمنقول من السنة النبوية أحد الدعائم الأساس في بيان الإسلام، والدفاع عن حماه، وقد استدل القرطبي بما جاء في السنة النبوية من الأحاديث في دعوة النصارى إلى الإسلام، والرد عليهم، وقد يلتزم في نقله لفظ الحديث، أو يكتفي بالمعنى، ويصرح بذلك في بعض الأحيان، فيقول «نقلته بالمعنى»[٧]، ويحرص في بعض الأحيان أن تكون الأحاديث التي يذكرها في قضية ما من الأحاديث الصحيحة المتواترة، وقد لا يلتزم ذلك في بعض الأحيان، فيقول مثلا في اكتفائه بالصحيح في قضية المعجزات التي جرت على يده ﷺ: «فلنقتصر من ذلك

---

(١) سورة البقرة، آية:٢٣-٢٤.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٣٤٧، وانظر: ص٤٢٥.

(٣) سورة الشعراء، آية:٢١٨.

(٤) سورة الزمر، آية:٦٠.

(٥) سورة التحريم، آية:٦.

(٦) انظر: القرطبي، الإعلام، ص١١٩، ١٢٣، ٢١٨.

(٧) القرطبي، الإعلام، ص٣٤٦.

على ما تناقله علماء الأمصار العدول من نقلة الأخبار مما صح نقله، واشتهر ذكره وجمله»[١]، وقد تمثلت استدلالات القرطبي بالسنة في المجالات التالية:

١- ذات الله تعالى:

ذهب محاور القرطبي النصراني إلى أن الذي يُرى يوم القيامة هو الواسطة ويقصد بذلك المسيح -عليه السلام-، واستشهد على ذلك بحديث رسول الله ﷺ على رؤية الله سبحانه وتعالى[٢]، فرد القرطبي عليه بامتناع ذلك عليه لأن استدلاله بما يُعرِض عنه غير مقبول، وقال: «إنك نقلت ذلك الحديث فأجحفت ، وبالمعنى أخللت وإنما صوابه: «إنكم ترون ربكم ولا تضاهون في رؤيته إلا كما تضاهون في رؤية القمر ليلة البدر»[٣] وهذا لا حجة لك فيه، فإنا نقول: إن الله تعالى هو المرئي لا غيره

---

(١) المرجع السابق، ص٣٤٨.

(٢) الحديث أورده النصراني مضافا إلى الله قائلاً: «أن ربكم قال: «ترون ربكم ولا تضامون في رؤية القمر ليلة البدر»، القرطبي، الإعلام، ص١١٦-١١٧.

(٣) أخرجه البخاري عن جرير بن عبد الله قال كنا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا لا تضامون أو لا تضاهون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وغروبها فافعلوا» البخاري، ج١، ص١٤٣، كتاب مواقيت الصلاة٩، باب فضل صلاة الفجر٢٦. وجاء في روايات أخرى بلفظ: «هل تضارون في القمر ليلة البدر» «هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة» البخاري، ج٥، ص١٧٩، كتاب تفسير القرآن٦٥، -سورة النساء- باب إن الله لا يظلم مثقال ذرة٨.

لا تضامون: بضم أوله مخففا أي لا يحصل لكم ضيم حينئذ، وروي بفتح أوله والتشديد من الضم، والمراد نفي الازدحام. ومعناه لا تظلمون فيه برؤية بعضكم دون بعض فإنكم ترونه في جهاتكم كلها، والتشبيه برؤية القمر للرؤية دون تشبيه المرئي تعالى الله عن ذلك. انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ج٢، ص٣٣.وج١٣، ص٤٢٧، ط، المكتبة السلفية

لا تضارون: بفتح أوله والضاد المعجمة وتشديد الراء بصيغة المفاعلة من الضرر، وأصله لا تضاررون بكسر الراء وفتحها، أي: لا تضرون أحدا ولا يضركم بمنازعة ولا مجادلة ولا مضايقة... لا تضاهون: لا يشتبه عليكم ولا ترتابون فيه، فيعارض بعضكم بعضا... انظر: فتح الباري، ابن حجر، ج١١، ص٤٤٦.

بالأبصار في الدار الآخرة على ما تقدم[١]، وأنتم تقولون إن المرئي الواسطة، وهذا الحديث يعرف معانيه أهله...»[٢].

٢- إثبات نبوة محمد ﷺ:

نقل الإمام القرطبي -رحمه الله- مجموعة من الأحاديث تدل على ثبوت نبوة محمد ﷺ، سواء ما كان منها المتعلق بأوصاف النبي ﷺ الخلقية والخُلقية، أو المعجزات الخارقة التي وقعت على يديه: كحادثة انشقاق القمر، وحبس الشمس، ونبع الماء وتكثيره، وتكثير الطعام، وكلام الشجر والجمادات وشهادتها له بالنبوة، وفي كلام ضروب من الحيوانات وتسخيرهم، وإحياء الموتى، وإبراء المرضى وذوي العاهات، وإجابة دعائه، وجُمل من بركاته، وما أخبر به من الأمور المستقبلية، وعصمته من الذين أرادوا به كيدا، وما وقع لأصحابه والتابعين لهم من الكرامات[٣].

ففي استدلال القرطبي بأوصاف النبي ﷺ على صدق نبوته التي اختار فيها الاختصار، أورد عددا من الأحاديث التي فيها ذكر لصفاته المميزة مع بيان وجه الاستدلال منها، واكتفى بالإشارة إلى بعض الأوصاف دون ذكر نص الحديث، ومما ذكره في كمال خلقته وجمال صورته ﷺ إنه ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد... طيب الرائحة والعُرف[٤] وعلل على كون هذا الأمر من دلائل النبوة أن الجمال والحسن محبوب ومرغوب بالطبع، «والقبح منفور عنه، ومقصود الله تعالى

---

(١) ذكر القرطبي في ص١٢٤ من (الإعلام)، كلاما في الرؤية كلاما لا يُسلم له به.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص١٢٥.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص٢٩١ وما بعدها، و٣٤٨ وما بعدها.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ص٢٩٢. روى البخاري أن رسول الله ﷺ كان: «أحسن الناس وجها وأحسنه خلقا، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير» كتاب المناقب٦١، باب صفة النبي ﷺ ٢٣، ج٤، ص١٦٥. وفي ص١٦٧ روى قول أنس رضي الله عنه: «ما مسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف النبي ﷺ ولا شممت ريحا قط أطيب مَن ريح أو عرف النبي ﷺ».

أن يحب الأنبياء، ولا ينفر منهم، والحسن موجب لذلك»[١].

وفي صفة العلم استدل بقوله ﷺ: «الناس كأسنان المشط»[٢] و «الخمر جماع الإثم وأم الخبائث والكبائر»[٣] فالحديثان يدلان على ما أعطيه ﷺ من العلم وجوامع الكلم، لأن فيهما حفظ الدماء بتقنين العدل، وحفظ العقول بتحريم الخمر، وذلك بالرغم من قوله ﷺ: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا، يشير

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٢٩٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٩٦، وحديث: «الناس سواء كأسنان المشط وإنما يتفاضلون بالعافية، والمرء كثير بأخيه، ولا خير في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى» أخرجه أبو الشيخ عبد الله بن جعفر بن حيان الأصفهاني، في كتاب الأمثال في الحديث النبوي، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، ص٢٠٣، حديث رقم١٦٦و١٦٧، ط٢، الدار السلفية، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م، بومباي، الهند. وذكر الحديث أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، في كتاب الموضوعات، تحقيق، عبد الرحمن محمد عثمان، ج٣، ص٨٠، ط١، المكتبة السلفية، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م، المدينة المنورة. وقال السيوطي: الحديث موضوع من طريق، وضعيف من طريق آخر، انظر: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، ج٢، ص٢٩٠، ط، دار المعرفة بيروت. وذكر الحديث بلفظ: «الناس كأسنان المشط...» إسماعيل بن محمد العجلوني، في:كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، تحقيق: أحمد القلاش، ج٢، ص٤٣٣، رقم الحديث٢٨٤٧، ط٤، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م بيروت. والألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة، رقم الحديث٩٥٦.

(٣) القرطبي، الإعلام، ٢٩٧، روى الدارقطني ثلاثة أحاديث متفرقة تشبه ما ذكره القرطبي، وهي: «والخمر جماع الإثم»، و«الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر من شربها وقع على أمه وخالته» و«الخمر أم الخبائث» علي بن عمر الدارقطني، سنن الدارقطني، كتاب الأشربة وغيرها، ج٤، ص٢٤٧، تحقيق، السيد عبد الله المدني، ط، دار المحاسن للطباعة، ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م القاهرة. وقد ذكر أبو الطيب العظيم أبادي في التعليق المغني أثناء شرحه للحديث الأول أن فيه راو مجهول يروي المناكير، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٨٥٣.

بيديه ثلاثا والشهر هكذا وهكذا، ويخنس بإحدى أصابعه يعني في الثالثة»[١].

وفي صفة الصبر والحلم استدل بقوله ﷺ في موقعة أحد: «إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة»[٢]، وذلك عندما أشار عليه بعض الصحابة بأن يدعو على المشركين.

وفي صفة التواضع استدل بقوله ﷺ: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضا»[٣] وذلك عندما قام له أصحابه، وقال: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٢٩٨، والحديث رواه البخاري، كتاب الصوم٣٠، باب قول النبي ﷺ لا نكتب ولا نحسب١٣، ج٢، ص٢٣٠، ومسلم، ج٢، ص٢٣٠، كتاب الصيام١٣، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال٢، حديث رقم١٠٨٠. ولفظه أقرب.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٢٩٩. والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة٤٥، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها٢٤، رقم الحديث، ٢٥٩٩، ج٣، ص٢٠٠٧.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٣٠١. والحديث جاء في سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في قيام الرجل للرجل، رقم الحديث٥٢٣٠، ج٥، ص٣٩٨، وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٥، ص٢٥٣ ط دار الفكر العربي، بيروت، والحديث فيه اضطراب، وهو ضعيف، ولكن معنى الحديث صحيح من حيث دلالته، لما جاء عن أنس رضي الله عنه: «ماكان شخص في الدنيا أحب إلي من رؤية رسول الله ﷺ وكانوا لا يقومون له لما يعلمون من كراهيته لذلك» أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ص١٣٦، والترمذي، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل، حديث رقم ٢٧٥٤، ج٥، ص٩٠، وقال حسن صحيح، وصححه الألباني، في صحيح سنن الترمذي، ج٢، ص٣٥٦، حديث رقم٢٢١١. انظر: محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء على الأمة، رقم الحديث٣٤٦، ط١، مكتبة المعارف، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م الرياض.

العبد وأجلس كما يجلس العبد»[١].

واستدل على عدله وصدقه ﷺ بما جاء عنه: «إني أريد أن ألقى الله، وليس لأحد منكم يطالبني بمظلمة في أهل ولا مال»[٢].

وفي زهده ﷺ استدل القرطبي بقوله ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا»[٣] وبقوله: «اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين»[٤]

وعلى جوده وكرمه ما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- «كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في رمضان، وكان أجود بالخير من الريح

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٣٠١. وروى الحديث الإمام أحمد في الزهد، ص١٧، تحقيق ودراسة: محمد السعيد بسيوني، ط١، دار الكتاب العربي، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، بيروت. وقال الألباني: الحديث صحيح لشواهده الكثيرة، محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، وشيء من فقهها وفوائدها، ج٢، ص٧٢، رقم الحديث٥٤٤، ط٤، المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م بيروت.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٣٠٣، والحديث رواه أبو داود في سننه بلفظ: «وإني لأرجو...»، كتاب البيوع والإجازات، باب في التسعير٥١، حديث رقم٣٤٥١، ج٣، ص٧٣١، وصححه محمد ناصر الدين الألباني، في صحيح سنن أبي داود، ج٢، ص٦٦٠، حديث رقم ٢٩٤٥، ط١، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٣٠٤. والحديث جاء عند مسلم في صحيحه، ج٣، ص٢٢٨١، كتاب الزهد والرقاق٥٣، رقم الحديث١٠٥٥.

(٤) القرطبي، الإعلام، ص٣٠٤، الحديث أخرجه أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي في سننه، ج٤، ص٥٧٧، رقم الحديث٢٣٥٢، وقال حديث غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، ج٢، ص٢٧٥، رقم الحديث١٩١٧.

المرسلة»[١].

وعلى وفائه بالعهد ما روي عن النبي ﷺ لمن أخلفه في الوعد: «يا فتى لقد شققت عليّ. أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك»[٢].

وعلى حسن سمته وكثير حيائه ومروءته حديث: «كان ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها»[٣].

وعلى شجاعته ونجدته حديث: «كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة، فانطلق أناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعا قد سبقهم إلى الصوت وقد استبرأ الخبر على فرس عري لأبي طلحة[٤] وفي عنقه السيف، وهو يقول: «لن تراعوا لن

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٣٠٥، والحديث متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي١، باب كيف كان بدء الوحي٥ ، ج١، ص٤، ومسلم في صحيحه، ج٢، ص١٨٠٣، كتاب الفضائل٤٣، باب كان النبي أجود الناس بالخير من الريح المرسلة١٤، رقم الحديث٢٣٠٨،

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٣٠٦. وروى الحديث أبوداود في سننه، كتاب الأدب، باب في العدة٩٠، رقم الحديث٤٩٩٦، ج٥، ص٢٦٨، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الشهادات، باب من وعد غيره شيئا، ج١٠، ص١٩٨، ط، دار المعرفة، بيروت. وقال المنذري: الحديث فيه راو لا يحتج بحديثه، انظر: أبو الطيب محمد شمس الحق أبادي، عون المعبود، ج١٣، ص٣٤٠-٣٤١.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٣٠٨. وأخرج الحديث البخاري في صحيحه، ج٤، ص١٦٧، كتاب المناقب٦١، باب صفة النبي ﷺ ٢٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل٤٣، باب كثرة حيائه ﷺ١٦، رقم الحديث٢٣٢٠، ج٢، ص١٨٠٩.

(٤) أبو طلحة زيد بن سهل بن الأسود النجاري الأنصاري، زوج أم سليم، صحابي شهد العقبة، وبدرا وغيرها من المشاهد، مات سنة ٥٠ أو ٥١هـ غازيا في البحر، وهو الذي تصدق بأحب أمواله بئر بيرحاء. انظر: ابن حجر، الإصابة، ج١، ص٥٦٦-٥٦٧.

تراعوا»[١].

وعلى خوفه من الله واجتهاده في العبادة قوله ﷺ: «والله إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية»[٢]، وكان يقول: «يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله فإني أتوب إلى الله في اليوم والليلة مائة مرة»[٣].

واكتفى في بعض الصفات بالإشارة إليها دون ذكر ما ورد فيها من نصوص الأحاديث بلفظها، كشرف نسبه ﷺ، حيث ذكر فضل نسبه ﷺ وأنه من خير قرون بني آدم، وتم اصطفاؤه من خيار الناس؛[٤]، ثم قال: «وكذلك الرسل تبعث في

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٣١٠، والحديث بهذا اللفظ رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل ٤٣، باب في شجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب١١، رقم الحديث٤٨. ج٢، ص١٨٠٣، وجاء في صحيح البخاري بلفظ مختلف، كتاب الجهاد والسير٥٦، باب الشجاعة في الحرب والجبن٢٤، ج٣، ص٢٠٩، وكذلك ، كتاب الجهاد والسير٥٦، باب الركوب على الدابة الصعبة والفحولة من الخيل٥٠،ج٣، ص٢١٨.

(٢) الحديث بتمامه: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني أعلمهم بالله وأشدهم له خشية» روه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالسنة٩٦، باب ما يكره من التعمق والتنازع٥، ج٨، ص١٤٥، ورواه مسلم أيضا في صحيحه، كتاب: الفضائل٤٣، باب: علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته٣٥، رقم الحديث٢٣٥٦، ج٢، ص١٨٢٩.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٣١٣، وروى الحديث مسلم في صحيحه بلفظ: «يا أيها الناس...»، كتاب الذكر والدعاء٤٨، باب استحباب الاستغفار والتستكثار منه١٢، رقم الحديث٢٧٠٢، ج٣،ص٢٠٧٥.

(٤) لم يذكر القرطبي حديثا بعينه، وقد جاء في صحيح البخاري أنه ﷺ قال: «بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت فيه» البخاري، كتاب المناقب٦١، باب صفة النبي ﷺ ٢٣، ج٤، ص١٦٦.

أشرف أنساب قومها صلى الله عليهم؛ ذلك ليكون أميل لقلوب الخلق إليهم»[(١)].

وفي جانب المعجزات التي جاءت بها الأحاديث استدل بقوله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها»[(٢)]، وفي هذا الحديث إخبار بما يجري في المستقبل وما ينتظر الإسلام من ظهور في مشارق الأرض ومغاربها.

ومن أحاديث المعجزات كذلك حديث نبع الماء من بين أصابعه حيث قال القرطبي: «روى الجم الغفير، والعدد الكثير أن النبي ﷺ خرج في بعض أسفاره، وحانت صلاة العصر فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه. فقال رسول الله ﷺ: «هل مع أحد منكم ماء؟» فأتي بماء في إناء، فوضع يده في ذلك الإناء وسمى الله، قالت الصحابة فرأينا الماء يخرج من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضأوا كلهم. قيل لأنس: كم تراهم؟ قال: نحوا من سبعين. وقد اتفق له مثل هذا مرة أخرى، وكانوا نحوا من ثلاثمائة»[(٣)].

ومما أكرم الله به صحابة رسول الله ﷺ من الكرامات ما جرى للعلاء بن

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٢٩٤.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٣٤١، وأخرج الحديث مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة٥٢، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض٥، رقم الحديث٢٨٨٩، ج٣، ص٢٢١٥.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٣٥١، وردت أحاديث كثيرة في نبع الماء من بين أصابعه ﷺ، عند البخاري ومسلم وغيرهما، وأقرب الأحاديث ما رواه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء٤، باب التماس الوضوء إذا حانت الصلاة٣٢، ج١، ص٥٠، وانظر أيضا باب الوضوء من التور٤٦، ج١، ص٥٨، وكتاب المناقب٦١، باب علامات النبوة في الإسلام٢٥ ج٤، ص١٥٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل٤٣، باب في معجزات النبي ﷺ ٣، حديث رقم٢٢٧٩، ج٢، ص١٧٨٣.

الحضرمي[١] -رضي الله عنه- حيث بعثه رسول الله ﷺ في غزاة فحال بينهم وبين الموضع الذي يريدونه قطة من البحر، فدعا الله باسمه الأعظم، ومشوا على الماء»[٢] وقد عده القرطبي من دلائل نبوة محمد ﷺ لأن الكرامات التي أكرموا بها إنما هي لإيمانهم برسالة محمد ﷺ واتباعهم الدين الذي جاء به.

٣- براءة عيسى عليه السلام من ادعاء النصارى:

رد الإمام القرطبي على دعوى النصارى في اتحاد اللاهوت والناسوت في شخص المسيح -عليه السلام- بأدلة مختلفة وأيدها بقوله: «وقد جاءنا على لسان من دلت المعجزة بصدقه أن الله تعالى إذا حشر الخلائق في صعيد واحد -يعني يوم القيامة- فيقال للنصارى: ماكنتم تعبدون؟ فيقولون كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقول لهم: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، ثم يقال لهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا»[٣].

٤- التعامل مع أخبار النصارى:

بين القرطبي في أكثر من موطن من كتابه المنهج العام في التعامل مع

---

(١) هو عبد الله بن عماد بن أكبر الحضرمي، استعمله النبي ﷺ على البحرين وأقره أبو بكر ثم عمر -رضي الله عنهم أجمعين- مات سنة أربع عشرة ، وقيل سنة إحدى وعشرين، وكان يقال أنه مجاب الدعوة، خاض البحر بكلمات قالها، وذلك مشهور في كتب الفتوح. ابن حجر، الإصابة، ج٢، ص٤٩٨.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٣٨٣، أخرج الحديث ابن أبي الدنيا بأكثر من طريق. انظر: أبوبكر عبد الله بن أبي الدنيا، مجابو الدعوة، تحقيق: محمد عبد القادرعطا، ص٨٠-٨٢، رقم الحديث٤٠، ٤١، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م بيروت.، والبيهقي، دلائل النبوة، ج٢، ص٥٣٥٢، وذكر ابن كثير الذي أورد هذا الأثر أن هذه القصة أوردها البخاري في التاريخ الكبير، وقد بحثت عنها فيه ولم أجدها، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج٦، ص١٥٣،٢٥٢-٢٥٣.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص١٠١. والحديث متفق عليه، مسلم، كتاب الإيمان١، باب معرفة طريق الرؤية٨٤، حديث رقم١٨٣، ج١، ص١٦٨

نصوص الكتاب المقدس لدى النصارى الذي بيد النصارى واستدل على ذلك بما جاء في السنة النبوية قائلا: «ونحن يجب علينا أن نتوقف في أخباركم ولا نقطع بتصديقكم، ولا بإكذابكم، بل نقول ما أمر الله به الرسول وبلغنا عن ألسنة النقلة العدول: «آمنا بالله ورسله»[(١)] فإن صدقتم لم نكذبكم، وإن كذبتم لم نصدقكم، ومع تسليم ذاك جدلا، فلا بد أن نباحثكم ونتفقه فيما حكيتم»[(٢)].

٥- بيان بعض الأحكام الشرعية ومحاسنها وحكمتها:

يفهم بعض النصارى بعض الأحكام الشرعية بطريقة عجيبة تبين جهلهم بالإسلام وتحاملهم عليه من غير دليل ولا فهم صحيح؛ لذا فإنهم قد يصورون بعض الأحكام الشرعية بطريقة شنيعة بعيدة كل البعد عن مراميها ومقاصدها، ومن ذلك أن النصارى شوهوا -قصدا أو دون قصد- المقصد من أمر الإسلام بزواج المطلقة ثلاثا من غير زوجها الأول ثم طلاقها منه لصحة عودتها بعقد جديد إلى زوجها الأول بأنه أمر بالزنا، وقد تصدى لهذه الفرية القرطبي -رحمه الله- وأبان الحكمة من تشريع الطلاق في الإسلام، ومنع البائنة من العودة إلى زوجها دون أن تنكح زوجا غيره، واستدل على القيود التي وضعها الإسلام لتنظيم هذه المسألة بقوله ﷺ: «لعن الله المحلل والمحلل له»[(٣)].

وفي إبراز محاسن التشريع الإسلامي ذكر تحريم آنية الذهب والفضة ولبس

(١) روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، (وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم) سورة العنكبوت، آية:٤٦، كتاب: الاعتصام بالسنة٩٦، باب: لا تسألوا أهل الكتاب عن شي، ٢٥، ج٨، ص١٦٠.

(٢) القرطبي، الإعلام ص٦٤، وقد ذكر كلاما قريبا من هذا في ص١١٠.

(٣) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٢٢٤، وما قبلها وما بعدها. والحديث رواه الترمذي في سننه، كتاب النكاح، باب ما جاء في المحلل والمحلل له٢٨، رقم الحديث١١٢٠، ج٣، ص٤٢٨، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، ، ج١، ص٣٢٦رقم٨٩٣، ٨٩٤.

الحرير لما في ذلك من التبذير والسرف، وهو يناسب ترف أهل الجنة ويشبهه، فكان ذلك سبب منعه، واستدل بقوله ﷺ: «من شرب في آنية الذهب والفضة لم يشرب بها في الآخرة، ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[1].

هذه أبرز استدلالات القرطبي بالسنة النبوية في دعوة النصارى إلى الإسلام وهناك غيرها أيضا إلا أن في هذه الكفاية لإعطاء فكرة مناسبة عن أنواع استدلالاته بالمنقول من السنة النبوية.

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٤٤٥. وجاء عند مسلم في صحيحه: «لا تشربوا في إناء الذهب والفضة ولا تلبسوا الديباج والحرير فإنه لهم في الدنيا، وهو لكم في الآخرة يوم القيامة»، كتاب اللباس٣٧، باب تحريم استعمال إناء الذهب...٢، رقم الحديث٢٠٦٧، ج٢، ص١٧٣٧، وفي رواية أخرى لمسلم: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»، كتاب اللباس٣٧، باب تحريم استعمال إناء الذهب...٢، رقم الحديث٢٠٧٣، ج٢، ص١٧٤٥.

ثانيا: الاستدلال بالمنقول من الكتب المقدسة لدى النصارى:

نقل الإمام القرطبي -رحمه الله- من الكتاب المقدس لدى النصارى الذي يحتوي على العهد القديم والعهد الجديد عددا من النصوص للاستدلال على فساد معتقد النصارى وبطلانه، وطريقته في التعامل مع ما جاء في هذا الكتاب أنه في بعض الأحيان يورد النص كاملا، ويكتفي في أحيان أخرى بالإشارة إلى ما جاء فيه ثم يبين موقفه من ذلك دون ذكر النص، سواء أكان بالنفي عن وجود نص صريح لقضية ما، مثل نفيه أن يكون الخواريون قد رووا عن المسيح -عليه السلام- بوجه صحيح أو نص صريح أنه قال أنا الله، أم لغير ذلك كأن يقول: أنه ورد في الإنجيل كذا وكذا في غير ما موضع....[1]، وقد تمثلت الاستدلالات من المنقول من هذا الكتاب في المجالات التالية:

١- إثبات دخول التحريف فيه:

يحاول الإمام القرطبي -رحمه الله- إثبات أن الكتاب المقدس لدى النصارى فاقد عنصر التواتر في نقله، وأنه غير سالم من الخطأ والزلل لدخول يد التحريف عليه، ويثبت ذلك بالنصوص التي وردت في الكتاب نفسه، وذلك لاشتمالها على المحال الشرعي والعقلي، أو لتناقض النصوص، أو غير ذلك مما يشهد على نفي نسبة هذا الكتاب كله إلى الله سبحانه وتعالى.

ومما أورده على وجود المحال فيه ما جاء في السفر الأول: «ورأى الله أن قد كثر فساد الآدميين في الأرض فندم على خلقهم، وقال سأذهب الآدمي الذي خلقت على الأرض، والخشاش، وطيور السماء؛ لأني نادم على خلقها جدا»[2]، ويرى القرطبي أن هذه الفقرة تضمنت كفرا لوصفها الله سبحانه وتعالى بالندم، فكأنه لا

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٦٧، ١٢٠، ١٩٤-١٩٥.

(٢) سفر التكوين، ٦/٥-٦، وفي الترجمة الحديثة «فحزن الرب أنه عمل الإنسانَ في الأرض وتأسف في قلبه».

يعلم مآل المندوم عليه، وهذا في حق الله محال، لذلك فالنص كذب وباطل.[١]

ومما نقله للاستدلال على التحريف أيضا ما جاء في العهد القديم مما لا يليق بالأنبياء -عليهم السلام- حيث جاء فيه عن لوط -عليه السلام- «أنه طلع من صاغار فسكن الجبل هو وابنتاه معه، فجلس في مغار هو وابنتاه، فقالت الكبرى للصغرى قد شاخ أبونا، وليس على الأرض رجل يدخل علينا، نسقي أبانا الخمر ونضطجع معه في مضطجعه، ففعلتا وحملتا منه بولدين موآب وعمون»[٢].

وشبيه بذلك أنهم ادعوا أن أحد أبناء يعقوب -عليه السلام- ضاجع سرية أبيه، ولما علم يعقوب بذلك قال لابنه: «فضل العز، فائرا كالماء، فلذلك لم أفضلك بالسهم الزائد حيث امتهنت فراشي»[٣].

ويستنكر القرطبي -بعد ذكره هذين النقلين وغيرهما مما يشبههما- أن يوقع الله أنبياءه المكرمين في مثل هذه الرذائل ويهينهم، بل ويخلد ذكر فواحشهم في الآخرين؛ لأن ذلك مما لا يليق بالأنبياء عقلا ونقلاً، وإذا لم يكن هذا الكلام محرفا فإن من كثرة ما ينسب الزنا والفاحشة في العهد القديم إلى بني إسرائيل يستلزم أن يكونوا كلهم بني زنى[٤].

ومما استدل به القرطبي على تحريف التوراة من التوراة نفسها ماجاء فيها عن موسى -عليه السلام-: «أن موسى توفي في أرض مؤاب بإزاء فغور ولم

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص١٩٤.

(٢) سفر التكوين، ١٩/ ٣٠-٣٨، النص في الترجمة الحديثة أكثر تفصيلا، ولكن المحتوى واحد، فلعله اكتفى بنقل المعنى

(٣) سفر التكوين، ٤٩/٣-٤. وقصة زنا ابن يعقوب بسرية أبيه مذكورة في سفر التكوين أيضا ٣٥/ ٢١-٢٢.

(٤) انظر: القرطبي، الإعلام، ص١٩٦-١٩٧، ١٩٩.

يعرف إنسان موضع قبره إلى اليوم...»[١].

والقرطبي -رحمه الله- يستنتج من سياق هذا النص أن الكلام الذي فيه ليس مما أنزله الله على موسى -عليه السلام- ولا مما كتبه موسى في حياته، بدليل قوله: «ولم يعرف إنسان موضع قبره إلى اليوم» أي إلى اليوم الذي كُتب فيه هذا النص، ولم يقل أحد من اليهود والنصارى أن التوراة زيد فيها بعد موسى -عليه السلام- فلا يفرقون بين هذا الكلام وغيره، ومساق الكلام يكذبهم، ومما يؤكد ذلك أيضا الألفاظ التي جاءت بلفظ الحكاية كقوله: «وكلم الرب موسى وقال له...»[٢]، فهذه كلها تدل أن التوراة كلها ليست خالصة من الله بل فيها من أقوال البشر، بل يرى القرطبي -رحمه الله- أن السفر الأول من الكتاب المقدس لدى النصارى مما زيد على كلام الله ولم يشعروا به، ويخلص إلى حكم عام يرى أن كل حكاية في الكتاب المقدس لا يصح نسبتها إلى الله، زائدة وبخاصة الحكايات الركيكة عن الأنبياء؛ لأنه إذا جاز الزيادة في بعض المواضع من الكتاب ولم يتحرز منه جاز أن ينسحب إلى غيرها من المواضع[٣].

ويؤكد على وجود الغلط والتحريف من خلال إيراده لبعض النصوص ومقارنتها لإظهار التناقض الذي يعتريها؛ فأورد مثلا قول إبراهيم في حق لوط وأهله-عليهم السلام-: «يا رب أتهلك الأبرار مع الفجار»[٤]، وقارن هذا الكلام بما سبق من نسبة الزنا بابنتي لوط -عليه السلام- واعترض على النصارى بقوله: كيف يصح أن يكون لوط وابنتيه من الأبرار كما أطلق عليهم هنا ثم يقعون في الزنا ولا يعصم الله نبيه[٥]،

---

(١) سفر التثنية ٥/٣٤.

(٢) سفر العدد ٤/٢١، و١٥/١.

(٣) انظر: القرطبي، الإعلام، ص١٨٨-١٨٩.

(٤) سفر التكوين، ١٨/٢٣.

(٥) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٢٠١.

وفي الإطار نفسه أورد ما جاء في حق إبراهيم -عليه السلام- «لأباركك بركة تامة، ولأكثر نسلك، ويتبارك بنسلك جميع الشعوب لأنك أطعتني»[١]، وبيّن معارضته لما كتبوه من حكايات تتناول ذرية إسحاق -عليهم السلام- بما لا يليق كزنى رأوبين ابن يعقوب بن إسحاق بسرية والده[٢] وزنى يهوذا ابن يعقوب بكنته ثامار[٣]، فهل البركة في الذرية تقتضي ذلك؟[٤].

وإذا كان هذا في العهد القديم فإن العهد الجديد أيضا لم يخل من هذا التحريف والتلاعب، وقد استدل على ذلك القرطبي ببعض النصوص المنقولة من العهد الجديد نفسه فقال: «ومن أظهر دليل على وقوع الغلط فيه أن في إنجيل متاؤوش[٥] الحواري حين ذكر نسب عيسى -عليه السلام- حيث نزل خطيب مريم أبا لعيسى، فقال: «ابن يوسف بن يعقوب بن متان بن اليعازر بن اليد بن أخيم». وعدّ إلى إبراهيم الخليل تسعة وثلاثين أبا، ثم في إنجيل لوقا يقول: «ابن يوسف بن هالي بن متثات بن لاوي بن ملكي بن ينا. وعدّ إلى إبراهيم نيفا وخسمين أبا».[٦]

فيا ليت شعري كيف يجوز مثل هذا على الله؟ أو كيف ينقل هذا في كتاب معلوم عن الله؟ وقد أراد بعض أساقفتهم أن يرقع هذا الخرق المتسع بأن قال أحد النسبين طبيعي نسب التوليد، والآخر نسب شرعي نسب الولاء والكفالة، والتناقض باق بعد اختراع هذا الهذيان»[٧].

---

(١) سفر التكوين، ٢٢/١٧-١٨.

(٢) انظر: سفر التكوين، ٣٥/٢١-٢٢.

(٣) انظر: سفر التكوين٣٨/١٥-١٩.

(٤) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٢٠١-٢٠٢.

(٥) في التراجم الحديثة إنجيل متى.

(٦) النص الأول في إنجيل متى ١/١٧، والنص الثاني في إنجيل لوقا ٣/٢٣.

(٧) القرطبي، الإعلام، ص٢٠٧.

وبالرغم أنه لم يلتفت إلى هذا التوجيه الذي اخترعه الأساقفة إلا أنه يواصل في حشد النصوص المتناقضة لبيان أن الإنجيل ليس من عند الله فيقول: «وفي الإنجيل لمتاؤوش أن المسيح قال لبطرس: «طوبى لك يا شمعون بن الحمامة، وأنا أقول إنك الحجر، وعلى هذا الحجر أبتني بيتي، فكل ما حللته على الأرض يكون محلولا في السماء، وما عقدته على الأرض يكون معقودا في السماء». ثم بعد أحرف يسيرة قال له بعينه: «اذهب يا شيطان ولا تعارض، فإنك جاهل بكوني»[(١)].

فكيف يكون شيطان جاهل يطيعه صاحب السماء، وهذا غاية التناقض»[(٢)].

«وفي الإنجيل أيضا: «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي غير مقبولة ولكن غيري يشهد»[(٣)] ثم في موضع آخر من الإنجيل أنه قال: «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق، لأني أعلم من حيث جئت وإلى أين أذهب»[(٤)]

فكيف تكون شهادته حقا وباطلا، ومقبولة وغير مقبولة؟ وكيف يجمع بين هذين في كتاب ينسب إلى الله»[(٥)].

فكل هذه النصوص دليل واضح على تهافت نقلة الإنجيل، ووقوع الغلط الذي لا يحصى في نقله، والعجيب أنها تكون في إنجيل واحد وفي إصحاح واحد وقد تكون في فقرات متوالية في بعض الأحايين، وقد أكثر القرطبي من مثل هذه النقول، ولعل النقل القادم يُوضح بجلاء هذا التناقض العجيب، فقد نقل القرطبي نصا إنجيليا يقول: «لم آت لأنقض شريعة من قبلي إنما جئت لأتمم»[(٦)] ثم أتبعها بكلام جاء بعد

---

(١) النص في إنجيل متى ١٦/١٨-١٩ ، ٢٣.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٢١٠.

(٣) إنجيل يوحنا ٣١/٥.

(٤) المصدر نفسه ١٤/٨.

(٥) القرطبي، الإعلام، ص٢٠٦.

(٦) إنجيل متى ١٧/٥.

هذا الكلام بكلمات يسيرة يخالف هذا النص، وفيه نقض صريح لشريعة موسى -عليه السلام- مثل: «أما علمتم أنه قيل للقدماء من فارق امرأته فليكتب لها كتاب طلاق، وأنا أقول لكم من فارق امرأته منكم فقد جعل لها سبيلا إلى الزنا، ومن زُوّج مطلقة فهو فاسق»[١] وقوله: «أما بلغكم أنه قيل للقدماء العين بالعين والسن بالسن، وأنا أقول لكم لا تكافئوا أحدا بسيئة ولكن من لطم خدك اليمنى فانصب له اليسرى، ومن أراد مغالبتك وانتزاعك قميصك فزده أيضا رداءك»[٢].

ثم يعقب القرطبي -رحمه الله- على هذا الأمر قائلا: «كيف يصح أن يقول «لم آت لأنقض شريعة من قبلي» ثم ينقضها حكماً حكماً؟ ثم قوله: «جئت متمما» لا يصح أيضا فإن شريعة موسى كانت تامة كاملة والتام لا يتمم والكامل لا يكمل، فهذا تناقض وفساد، وعيسى -عليه السلام- منزه مبرأ عن كل تناقض وفساد»[٣].

وإذا كانت التحريفات السابقة هي تحريفات مثبتة في العهد القديم والجديد فإن للنصارى طريقة أخرى أيضا في التحريف، وهي إخفاء الموجود فيها عن أعين الناس وأسماعهم وذلك لهوى وأغراض في نفوس القسيسين، وقد تعامل مخاطِب القرطبي بهذه الطريقة حيث أورد نصا مبتورا فيه بعض قصة هاجر مع إبراهيم -عليه السلام- محاولة منه للإساءة إلى الرسول ﷺ لأنه من نسل إسماعيل -عليه السلام- فاختار التزوير والتحريف والكذب على الله حتى لا يفتضح أمره، فما كان من الإمام القرطبي إلا أن نقل الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين بأكمله تقريبا لبيان مكانة هاجر وابنها إسماعيل -عليه السلام- عند الله وأنه قد مدحهما في التوراة كما مدح سارة وابنها إسحاق -عليه السلام-[٤]، وهذا نوع من أنواع

---

(١) المصدر السابق ٣١/٥.

(٢) المصدر السابق ٣٨/٥-٤٠.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٢١٠.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ص٢٢٠-٢٣١.

التزوير والتحريف الذي يعمد إليه النصارى في إضلال الناس والصد عن سبيل الله.

٢- إثبات نبوة محمد ﷺ.

ورد في العهد القديم والعهد الجديد فقرات تدل على رسالة محمد ﷺ بعضها صريح باسمه كما أورده القرطبي، وبعضها الآخر بأوصافه وأوصاف قومه وأصحابه وبلده، وقد حشد لذلك نصوصا كثيرة في حوالي سبع عشرة صفحة فيها ذكر النبي المنتظر المتطابقة أوصافه بأوصاف النبي محمد -عليه أفضل الصلاة والتسليم- وسأكتفي بذكر بعض منها للدلالة على أسلوبه في التعامل مع هذه النصوص.[1]

ومما استدل به القرطبي في هذا الشأن من العهد القديم ورأى أنه نص يدل دلالة صريحة على نبوة محمد ﷺ ما جاء في صحف النبي حبقوق «جاء الله من التيمن وتقدس من جبال فاران، وامتلأت الأرض من تحميد أحمد، وتقديسه، وملك الأرض بهيبته»[2] وقال أيضا: «تضيء له الأرض وستنزع في قسيك إغراقا، وترتوي السهام بأمرك يا محمد»[3].

وقد نقل القرطبي أيضا نصا من أحد التراجم للزبور عدّها من أصح التراجم

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ٢٦٣-٢٨٠.

(٢) حبقوق ٣/٣-٤، وبدلا من «من تحميد أحمد» «من تسبيحه» في الترجمة الحديثة.

(٣) النص في الترجمة الحديثة مختلف وليس فيه ذكر محمد، يقول النص: «الشمس والقمر وقفا في بروجهما لنور سهامك الطائرة لِلَمعان برق مجدك، بغضبٍ خطرت في الأرض بسخطٍ دُسْتَ الأمم، خرجتَ لخلاص شعبك لخلاص مسيحك...» حبقوق ٣/١١-١٢. القرطبي، الإعلام، ص٢١٩.

وأسندها إلى وهب بن منبه الذي رأى أنه أوثق وأعلم في هذا المجال[١]، وهذا النص هو ما قاله الله لداود -عليه السلام-: «اسمع ما أقول، ومر سليمان، فليقله للناس من بعدك: إن الأرض لي أورثها محمدا وأمته، فهم خلافكم لم تكن صلاتهم بالطنابير، ولا قدسوني بالأوتار»[٢].

ونقل أيضا ما قاله أشعيا النبي عن الله: «عبدي الذي سرت به نفسي، أنزل عليه وحيي، فيظهر في الأمم عدلي، يوصي الأمم بالوصايا، لا يضحك، ولا يسمع صوته في الأسواق، يفتح العيون العور، ويُسمع الآذان الصم، ويحيي القلوب الغلف، وما أعطيه غيره.

أحمد يحمد الله كثيرا، يأتي من أقصى الأرض، تفرح البرية، وسكانها يهللون الله على كل شرف، ويكبرونه على كل رابية، لا يضعف، ولا يُغلب ولا يميل إلى الهوى، ولا يسمع في الأسواق صوته، ولا يذل الصالحين الذين هم كالعصفة الضعيفة، بل يقوي الصديقين، وهو ركن للمتواضعين، وهو نور الله الذي لا ينطفئ، ولا يخاصم حتى تثبت في الأرض حجتي، وينقطع العذر به، وإلى توراته ينقاد

(١) انظر: القرطبي، الإعلام ص٢٦٨. ووهب هو أبو عبد الله بن منبه الأبناوي الصنعاني، مؤرخ، عالم بأخبار الكتب القديمة، وبالإسرائيليات، يعد من التابعين وأصله من الفرس، ولد بصنعاء عام٣٤هـ، وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها، وتوفي فيها عام١١٤هـ. انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٦، ص٧٠، أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٦، ص٣٥-٣٦.تحقيق: إحسان عباس، ط، دار صادر، بيروت، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٥٤٤. الزركلي، الأعلام، ج٨، ص١٢٥-١٢٦.

(٢) قال القرطبي النص في المزمور الخامس ولا يوجد شيء يشبه هذا في المزمور الخامس في الترجمة الحديثة، ولكن في المزمور السابع والثلاثين الفقرة التاسعة والثلاثين: «الصديقون يرثون الأرض» وليس فيه ذكر لاسم محمد.

الحق»[١].

فاستدل القرطبي بهذه النصوص لأن فيها تصريحا باسم محمد وأحمد صلى الله عليه وسلم، وبعض صفاته، والنص الأخير تناوله بالشرح والتحليل وإقصاء الشبهات التي يمكن أن يتمسك بها النصارى، فذهب إلى أن قوله: «يوصي الأمم» تصريح ينفي أن يكون المقصود عيسى ابن مريم -عليه السلام- لأنه لم يبعث إلا إلى بني إسرائيل بدليل قوله في الإنجيل: «إني لم أبعث إلى الأجناس، وإنما بعثت إلى الغنم من نسل إسرائيل»[٢]، وكذلك قال للحواريين: «لا تسلكوا في سبيل الأجناس ، ولكن اختصروا بالضرورة إلى الغنم الرابضة من بني إسرائيل»[٣]. كما أن وصف قومه بالتهليل والتكبير إخبار بآذانهم وتلبيتهم، ووصفه بأنه لا يضعف ولا يُغلب إخبار للفتوحات المبينة والنصر المؤزر الذي واكب دعوته، ولا ينطبق هذا على المسيح لأن النصارى يزعمون أن عيسى -عليه السلام- قد غُلب على نفسه وصُلب

(١) أشعيا، ١/٤٢ وما بعدها، والترجمة فيها اختلافات كثيرة وكبيرة، وفوق كل ذلك ليس فيها ذكر لاسم أحمد. وقد روى البخاري كلاما قريبا من هذا عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمروبن العاص -رضي الله عنهما- قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا » البخاري، كتاب البيوع٣٤، باب كراهية السخب في الأسواق٥٠، ج٣، ص٢١.

(٢) انجيل متى، ٢٤/١٥.

(٣) إنجيل متى ٥/١٠-٦. إلا أنه يمكن أن يعارض هذا بما جاء في متى١٩/٢٨ «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس» ولم يورد القرطبي هذا النص ليرد عليه وليقول فيه رأيه، فلعلها لم تكن في النسخ التي كانت عنده، والله أعلم.

وأهين...، وقوله «لايخاصم حتى تثبت في الأرض حجتي» تصريح بالقرآن الذي عجز عن الإتيان بمثله الأمم[١].

فالملاحظ أن النصوص السابقة تضمنت التصريح باسمه ومقترنة ببعض أوصافه، وبعض الأوصاف التي تنطبق على أمته، وحاول القرطبي هنا أن يؤيد ما ذهب إليه من الرأي المخالف لتفسيرات النصارى لهذه النصوص بما جاء في الكتاب المقدس نفسه، حيث دعم قوله بما جاء من قول المسيح -عليه السلام- في إنجيل متى، وهذا الأسلوب في حد ذاته أسلوب مقنع يُلزم الخصم ويفحمه.

واستدل أيضا على نبوة محمد ﷺ من العهد القديم بما جاء فيها من ذكر لنسل قومه وأرضه التي يظهر فيها، ومن ذلك ما قاله الله تعالى لموسى -عليه السلام- «إني أقيم لبني إسرائيل من إخوتهم نبيا مثلك أجعل كلامي على فيه، فمن عصاه انتقمت منه»[٢]، «لا يخلف من بني إسرائيل نبي مثل موسى»[٣] وجاء عن إسماعيل -عليه السلام- جد العرب: «إنه يضع فسطاطه في وسط بلاد إخوته»[٤]، فخلص القرطبي من هذه النصوص الثلاثة أن المبَشر به هو نبينا محمد ﷺ لأن العرب هم إخوة بني إسرائيل كما صرحت بذلك التوراة، والروم سكان الأردن وإن كانوا من نسل عيسو بن إسحاق -عليه السلام- من إخوة بني إسرائيل إلا أنه لم يأت منهم نبي سوى أيوب -عليه السلام- واستنبط من قوله: «أجعل كلامي على فيه» أن المقصود به القرآن الكريم الذي هو كلام الله الذي جاء به محمد صلى الله

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام ص٢٧٣-٢٧٤.

(٢) تثنية، ١٨/١٥.

(٣) تثنية، ٣٤/١٠. في الترجمة الحديثة: «ولم يقم بعدُ في بني إسرائيل مثل موسى...» فالنفي بلفظ الماضي، لا للمستقبل، وكأن كاتب السفر يقصد إلى يوم كتابته للنص. والله أعلم.

(٤) تكوين، ١٦/١٢، في الترجمة الحديثة «وأمام جميع إخوته يسكن».

عليه وسلم[١].

ومما استدل به في هذا الشأن ما جاء في التوراة «جاء الله من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران ومعه جماعة من الصالحين»[٢]، وأضاف إليها ترجمة أخرى تقول: «أقبل السيد من سيناء، ومن شعير تراءى لنا، وأقبل من جبال فاران ومعه آلاف من الصالحين، ومعه كتاب ناري وهو ختم الأجناس، وجميع الصالحين في قبضته، ومن تدانى من قدميه يصب من علمه»، وقد علق القرطبي على هذا النص بأن المقصود بالمقبل من سيناء إنزال التوراة وتكليم موسى -عليه السلام-، والمُشرِق من جبل ساعير -جبال الروم- ظهور دين المسيح -عليه السلام-، وبما أن فاران هي مكة بدليل ما جاء في التوراة : «إن الله أسكن هاجر وابنها إسماعيل فاران»[٣] فإن استعلانه من جبال فاران هو بعثة محمد ﷺ الذي جاء بكتاب فيه الوعيد على المخالف بالنار، وتبعه الآلاف من الصالحين[٤].

وفي هذه النقول ينحى القرطبي إلى تفسير التوراة بالتوراة حيث استعان بما جاء في مواضع من التوراة لشرح بعض الألفاظ التي جاءت في مواضع أخرى من التوراة نفسها لتأييد تفسيره للفقرات الواردة فيها.

ومن الأوصاف التي عدها القرطبي منطبقة على أمة محمد ﷺ ما جاء في المزمور: «سبحوا الرب تسبيحا حديثا، سبحوا الذي هيكله الصالحون، ليفرح إسرائيل بخالقه، وبنو صهيون من أجل أن الله اصطفى لهم أمة، وأعطاهم النصر وسدد الصالحين منهم بالكرامة، يسبحون الله على مضاجعهم، ويكبرونه بأصوات مرتفعة، بأيديهم سيوف ذات شفرتين، لينتقم الله بهم من الأمم الذين لا يعبدونه،

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٢٦٤.

(٢) تثنية، ٣٣/١-٣. وقد ورد عن حبقوق شبيه بهذا سبق ذكره.

(٣) تكوين، ٢١/ ٢١.

(٤) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٢٦٤-٢٦٥.

يوثقون ملوكهم بالقيود وأشرافهم بالأغلال»[١].

وعقب القرطبي على هذا النص لبيان أن أمة محمد ﷺ هي المقصودة هنا لأنها الأمة التي تحمل سيوفا بشفرتين، وأن نبيها هو المبعوث بالسيف، وهم أهل التكبير بأصوات مرتفعة، فقال موجها خطابه للنصارى «أخبرونا يا هؤلاء الجاحدون للحق المعرضون عن أخبار الصدق مَن هذه الأمة التي سيوفها سيوف ذوات شفرتين، ينتقم الله بهم من الأمم الذين لا يعبدونه؟ ومن المبعوث بالسيف من الأنبياء؟ ومن الذين يكبرون الله بأصوات مرتفعة في الأذان؟ هذه أوصاف محمد صلى الله عليه وسلم وأوصاف أمته بلا ريب ولا رجم غيب»[٢].

ولم يكتف بالنصوص التي فيها أوصاف النبي المنتظر للدلالة على إثبات نبوة محمد ﷺ بل جاء بنص عام آخر يصف قصر عمر دعوة الكذابين بقوله: «لا تمتد دعوتهم ولا يتم قربانهم، وأقسم الرب بساعده أن لا يظهر الباطل، ولا تقوم لمدع كاذب دعوة أكثر من ثلاثين سنة»[٣]، فقيام دين محمد ﷺ لأكثر من ستمائة عام -أي حتى عهد القرطبي- يدل على صدق النبي ﷺ كما حدده هذا النص.[٤]

أما استدلال القرطبي -رحمه الله- بما جاء في العهد الجديد فتمثل في المنقولات التالية من أقوال المسيح -عليه السلام- «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وسأرغب إلى الآب في أن يبعث إليكم البرقليط ليكون معكم إلى الأبد، روح

---

(١) مزامير، مزمور١٤٩، وفي الترجمة الحديثة «لأن الرب راض عن شعبه» بدلا من «من أجل أن الله اصطفى لهم أمة». القرطبي، الإعلام، ص٢٦٦.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٢٦٧.

(٣) أسندها القرطبي إلى صحف دانيال، وليس فيه مثل هذا الكلام في الترجمة الحديثة، ولكن في المزامير، مزمور ٨/١٠٩ جاء في وصف الكذاب ما نصه «لتكن أيامه قليلة ووظيفته ليأخذها آخر».

(٤) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٢١٩، و٢٧٧.

الحق الذي لا تقبله الدنيا لأنها لا تراه ولا تعرفه...»[١]، «سينفعكم ذهابي لأني إن لم أذهب لم يأتكم البرقليط وإن ذهبت سأبعثه إليكم، وإذا قدم سيعرف الدنيا بالمأثم والعدل والحكم، فأما المأثم فتركهم الإيمان بي، وأما العدل فذهابي إلى الأبد، ولا تروني بعدها...»[٢]، «الذي يبغضني يبغض أبي... فإذا أقبل البرقليط الذي أبعث إليكم من عند الآب، الروح الصادق المنبثق من الآب، هو يؤدي الشهادة عني...»[٣].

ووجه استدلال القرطبي من هذه النصوص يكمن في كلمة البرقليط التي تعني بالرومية محمدا بالعربية، فعد هذا تصريحا باسم محمد ﷺ وأنه لا يشك في ذلك إلا مكابر ومعاند عن رؤية الحق الواضح.[٤]

ومما نقله من العهد الجديد ما جاء فيه من قول المسيح: «إن التوراة وكتب الأنبياء يتلو بعضها بعضا بالنبوة والوحي حتى جاء يحيى، وأما الآن فإن شئتم

---

(١) يوحنا، ١٤/١٥-١٨.

(٢) المصدر نفسه، ١٦/٧-١٤.

(٣) المصدر نفسه ١٥/٢٣-٢٧. في الترجمة الحديثة لا وجود لكلمة «البرقليط»، ويوجد بدلا عنها كلمة «المعزي» وهو من تحريفاتهم المستمرة على مر التاريخ، ويرى القرطبي أن إسناد المسيح -عليه السلام- البعث إلى نفسه فيه تحريف بدليل النص الأول الذي فيه «سأرغب إلى الآب» -الإعلام، ص٢٧٠- الذي جاء في الترجمة الحديثة بلفظ: «وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيا».

(٤) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٢٦٨-٢٦٩. وقد استدل الإمام ابن تيمية أيضا بكلمة البرقليط التي أوردها بلفظ الفارقليط، وذكر أقوالا في معناها، منها: الحماد، والحامد، والمعز، والحمد، ورجح أن يكون معناها: الحمد، وهي بشارة بمحمد ﷺ، انظر: ابن تيمية، الجواب الصحيح، ج٥، ص٢٨٧-٢٩٣،

فاقبلوا، فإن إيل مزمع أن يأتي ، فمن كانت له أذنان سامعتان فليسمع»[١].

ومن استنباطاته من هذا النص: أن فيها بشرى بمحمد ﷺ؛ لأن كلمة (إيل) تعني الله؛ إذن فإن مجيئه يعني مجيء رسوله بكتابه وأمره كما قال في التوراة «جاء الله من سيناء»[٢]، ولا يمكن أن يكون المقصود غير محمد من الأنبياء -عليهم صلوات الله جميعا- لأن المقصود هنا إتيان نبي من الأنبياء بكلام الله تعالى، ولا مكان هنا لزعم المعاندين الذين قالوا أن المقصود عودة الأنبياء السابقين إلى الدنيا؛ لأنه لم يثبت شيء على لسان نبي من الأنبياء مثل ذلك، إلا ما جاء على لسان محمد صلى الله عليه وسلم من رجوع عيسى -عليه السلام- في آخر الزمان وقتله الدجال، لأن هذا مبني على أنه لم يمت ولم يقتل بل رفعه الله[٣].

يلاحظ على تعامل القرطبي -رحمه الله- مع نصوص الكتاب المقدس المبشرة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم أنه يعتمد في بعض الأحيان على الاستنتاجات من مساق اللفظ وفحوى الكلام، ولما كانت مثل هذه الاستنتاجات قابلة للأخذ والرد من قبل المدعو النصراني فإنه كثيرا ما كان يحاول الرد على الاعتراضات التي يمكن أن يعترض بها معترض لما ذهب إليه من المواقف والآراء، ويحاول ربط النقول بعضها ببعض وتفسيرها بما جاء في كتبهم نفسها، فهو قد يذكر نصا من العهد القديم ليؤيد به تفسيره لما جاء في العهد الجديد، أو بالعكس من ذلك يذكر نصا من العهد الجديد ليؤكد على ما قاله من توجيه وتفسير لبعض نصوص العهد القديم.

٣- بيان حقيقة عيسى عليه السلام.

لم يكن اعتماد الإمام القرطبي -رحمه الله- في نفي ألوهية المسيح -عليه

(١) متى ١١/١٤-١٥. في الترجمة الحديثة «إيليّا» بدلا من «إيل»، وأحمد السقا محقق كتاب الإعلام يقول: إن القرطبي وإن كان ناقلا إلا أن الصحيح «إيليا» بدليل ما جاء في سفر ملاخي ٤/٥ «هاأنذا أرسل إليكم إيليّا النبي» وهي تشير إلى محمد ﷺ.

(٢) تثنية ٣٣/١.

(٣) انظر: القرطبي، الإعلام، ٢٧٠-٢٧٢.

السلام- ونفي بنوته لله، وإثبات بشريته ونبوته على الاستدلال من المنقول من نصوص الكتاب والسنة فحسب بل استدل بما يستدل به النصارى في إثبات عقائدهم، فاستدل بما جاء في العهد الجديد من الأقوال للدلالة على بطلان معتقد النصارى فكان مما استدل به على نفي الألوهية عن المسيح وإثباتها لله وحده بما جاء عن المسيح -عليه السلام- عندما سأله عالم من العلماء عن أول العهود: «إن السيد إلهك إله واحد» وبعد كلمات «فقال له العالم قلت الحق يامعلم، إن الله وحده ولا إله غيره»[(١)]. وقال المسيح -عليه السلام- عندما حاول إبليس خداعه: «قد صار مكتوبا أن تعبد السيد إلهك، وتخدمه وحده»[(٢)]، وقوله: «إذا صليتم فقولوا يا أبانا السماوي تقدس اسمك، وقرب ملكك»[(٣)]، وقوله عن نفسه حين قرب رفعه: «سيلقى ابن الإنسان ما كُتب له... يا أبتاه إنك قادر على جميع الأشياء فرج عني هذه الكأس»[(٤)]، وقال «إلهي إلهي لمَ أسلمتني»[(٥)].

بهذه النصوص وبغيرها استدل القرطبي على براءة عيسى -عليه السلام- مما يدعيه النصارى وأن الأناجيل تدل على خلاف ما يقول النصارى من تأليه المسيح وجعله إلها آخر مع الله -تعالى الله عن ذلك-[(٦)].

ومن استدلالات القرطبي في نفي بنوة المسيح -عليه السلام- لله ما قاله

---

(١) إنجيل مرقس، ١٢/٢٩و٣٢. وفي الترجمة الحديثة: «الرب إلهنا رب واحد» بدلا من «إن السيد إلهك إله واحد»

(٢) إنجيل متى، ٤/١٠. في الترجمة الحديثة أكثر وضوحا: «لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد»

(٣) إنجيل لوقا، ١١/٢، وإنجيل متى، ٦/٩-١٠.

(٤) إنجيل متى ٢٦/٢٤ و٣٩.

(٥) إنجيل متى، ٢٧/٤٦.

(٦) انظر: القرطبي، الإعلام ص٥٠-٥١، ١٠٠، ١٣٤.

المسيح -عليه السلام- للحواريين: «ما تقولون أنتم؟ فأجابه سمعون بيطر وقال له: أنت المسيح ابن الله فنهاهم»[١]، وكان ينتهر الذين يقولون له «أنت ابن الله»[٢] عندما كان يخرج الجنون عن المجانين[٣].

وقد حاول القرطبي -رحمه الله- توجيه النصوص التي وردت فيها لفظ الآب والابن وروح القدس، وذكر أن منها ما هو متشابه يقبل احتمالات كثيرة، منها ما ذهب إليه النصارى ومنها عكس ما ذهبوا إليه؛ لأن ليس في الإنجيل نص صريح يعين الآب والابن وروح القدس، ولم يستبعد القرطبي أيضا من التأويلات للفظ الآب -إن صح أن عيسى كان يطلقها على الله- أن تكون بمعنى ذو حفظ له وذو رحمة وحنان عليه وعلى عباده الصالحين، فهو لهم بمنزلة الأب الشفيق الرحيم، ويحتمل أن يكون فيه تجوّز بإطلاق هذا اللفظ عليه؛ لأنه معلمه وهاديه ومرشده، ومما يدعم هذه التأويلات ما جاء عن المسيح -عليه السلام- «فإذا كنتم أنتم على شرتكم تعرفون إعطاء الخيرات أولادكم، فكيف أبوكم السماوي»[٤]، وكذلك قوله: «أنا أعلم أنكم من نسل إبراهيم ولكن تريدون قتلي، لأنكم لا تعلق بكم في وصيتي فأعلمكم بما رأيت عن الآب، وأنتم إنما تعملون ما رأيتم من أبيكم ، فأجابوه وقالوا: إنما أبونا إبراهيم، فقال لهم: إن كنتم بني إبراهيم فاقفوا أثره، ولا تريدوا قتلي، على أني رجل وذنبي إليكم، الحق الذي سمعت عن الله ولم يفعل إبراهيم غير هذا، إنكم تقفون آثار أبيكم، فقالوا له: لسنا أولاد زنا، وإنما نحن بنو الله، فقال لهم: لو كان الله أباكم لحفظتموني، لأنني منه»[٥].

---

(١) إنجيل لوقا، ٩/٢٠-٢١. وفي الترجمة الحديثة: «مسيح الله» بدلا من «المسيح ابن الله».

(٢) إنجيل لوقا، ٤/٤١.

(٣) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٦٦.

(٤) إنجيل متى، ٧/١١.

(٥) إنجيل يوحنا، ٨/٣٧-٤٢.

فخرج القرطبي من هذا بنتيجة مردها أن احتمال لفظ الآب والابن لهذه التأويلات يجعله من المتشابهات الذي لا ينبغي أن يصار إليه في الاحتجاجات وخصوصا في مجال الاعتقادات[١].

فإذا لم يكن عيسى -عليه السلام- إلها أو ابن الله كما ادعى النصارى فلم يبق إلا أن يكون بشرا رسولا أيده الله بالمعجزات، وهذا ما تؤكده الأناجيل التي بيد النصارى فقد جاء فيها عن عيسى -عليه السلام- أنه قال حين خرج من السامرية ولحق بجلجال «إنه لم يكرم أحدا من الأنبياء في وطنه»[٢]، وقال: «إنه لم يقبل أحد من الأنبياء في وطنه فكيف تقبلوني»[٣]، وعندما أحيا الميت إشفاقا على أمه قالوا له: «إن هذا النبي لعظيم، وإن الله قد تفقد أمته»[٤]، وقال عيسى -عليه السلام- عن نفسه: «لست أقدر أن أفعل من ذاتي شيئا لكني أحكم بما أسمع لأني لست أنفذ إرادتي بل إرادة الذي بعثني»[٥].

وقد نقل القرطبي في هذا المجال حوالي أحد عشر نصا فيها دليل على نبوة المسيح -عليه السلام- وهي إما صريحة في إثبات النبوة له من أقواله وأقوال الناس له، حيث لم يصفوه بأنه إله بل قالوا إنه نبي، وإما ضمنية. وإن المعجزات التي كان يأتي بها لم تكن من عند نفسه بل كانت من عند من أرسله، كما قال ذلك بنفسه، وأنه إذا ما أراد أن تجري معجزة ما على يديه تضرع إلى الله وتذلل له وخضع؛ ليقضي له حاجته، كما في الأناجيل، بل إن فيها أنه كان يدعو ولا يستجاب له كما

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٦٤-٦٦.

(٢) إنجيل يوحنا، ٤٤/٤. وفي التراجم الحديثة: «الجليل» بدلا من «جلجال».

(٣) إنجيل لوقا، ٢٤/٤.

(٤) إنجيل لوقا، ١٦/٧.

(٥) إنجيل يوحنا، ٣٠/٥.

حدث في أمر صلبه -حسب زعم النصارى- حيث دعا أن لا يصلب فصلب[١]، فمعجزاته لا تدل على ألوهيته بل على نبوته ورسالته.[٢]

وبالرغم من تناول القرطبي -رحمه الله - قضية صلب المسيح -عليه السلام- من جانب أن خبرها ظني وليس يقيني-أي ليس بمتواتر بحيث يحصل بنقله العلم-[٣]، بالإضافة إلى إثباته التحريف والتناقض في الإناجيل، فإنه نقل نصوصا من الإنجيل تناولت هذه القضية بهدف استقراء هذه النصوص وتحليلها، وقد توصل في النهاية إلى أن النصوص تحتمل أن يكون المصلوب المسيح -عليه السلام- أو غيره، ونقل خمسة نصوص من العهد الجديد من أناجيل مختلفة منها: «وقف على المسيح يهوذا، أحد الاثني عشر، ومعه جماعة برماح وعصي، وكان معهم قواد القسيسين، وأكابر بني إسرائيل، وكان يهوذا قد قال لأولئك الأعوان من قبّلته من الجماعة فهو المراد، فاحبسوه، وفي ذلك الوقت دنا يهوذا إلى ياشو[٤]، وقال: السلام عليك يا معلم، فقال له ياشو: يا صديق لم أقبلت هنا، فعند ذلك تعلقت الجماعة به وحبسته»[٥]، و«أنه لما قبضوا عليه تخلى عنه التلاميذ، وهربوا، فاتبعه شاب عريانا، وهو ملتف في ردائه، فقبضوا عليه، فأسلم لهم الرداء، ونجا عريانا»[٦]، و«أن بِلاط[٧] لما أخبره أنه جلجالي وعلم أنه من طاعة هيرودوس بعثه إليه»[٨]، و«أن يهوذا الدال عليه لما أبصر

(١) كما جاء في إنجيل متى٢٦/٣٩، إنجيل مرقس ١٤/٣٦.

(٢) انظر، القرطبي، الإعلام، ص١٣٤، ٢٤٧-٢٤٩.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص٤١٦.

(٤) ياشو في التراجم الحديثة: يسوع.

(٥) إنجيل متى، ٢٦/٤٧-٥٠.

(٦) إنجيل مرقس، ١٤/٥١.

(٧) في الترجمة الحديثة: بيلاطس.

(٨) إنجيل لوقا، ٢٣/٧.

ما فعل به ندم، ورد الثلاثين درهما على قواد القسيسين، وقال: أخطأت إذ أسلمت دما صالحا، فقالوا له: ما علينا، أنت ترى، فألقى الدراهم في البيت، وتوجه إلى موضع خنق فيه نفسه»[١].

فكان من تحليل القرطبي لهذه النصوص أن ذهب إلى احتمال أن يكون يهوذا قد كذب على اليهود فأشار إلى غير المسيح، لأنهم لم يكونوا يعرفون المسيح، واعتمدوا على شهادته في أخذه، وقد سأله بِلاط عن بلده، وبخاصة أن يهوذا كان قد تاب، وندم، وأن المسيح قال له (يا صديق) عندما أقبل مع الأعوان، كما أنه رمى الدراهم واعترف بخطئه حتى قتل نفسه، ويحتمل أيضا أن يكون المسيح قد أطلق مع الجماعة التي أطلقها الأعوان[٢]، أو أن يكون الأعوان أخذوا رشوة وتركوه كما تركوا الشاب مقابل ردائه، وما دام أحد تلامذته سلمه مقابل رشوة فما المانع أن يطلقه الأعوان مقابل رداء، ولا يستبعد أيضا أن يكون الله قد رفع المسيح وصور شيطانا تشبه لهم بالمسيح فأخذوه ، وهذا مما لا يدفعه العقل لأن الله على كل شيء قدير[٣].

فنحى القرطبي هنا منحى التشكيك في مدلول النص، وذلك لقبول النص عددا من التأويلات لا يمتنع أحد منها، وذلك للوصول بالنصارى إلى الحق الذي ينبغي اعتقاده، ألا وهو رفع المسيح -عليه السلام- إلى السماء وانتفاء صلبه.

٤- إثبات مخالفة النصارى لنصوص كتابهم:

يتبنى النصارى في كثير من الأحيان شعائر ومعتقدات لا وجود لها في أناجيلهم المعتبرة عندهم، أو قد تظهر منهم مواقف مخالفة لما جاء في أناجيلهم في أثناء مناقشاتهم ومجادلاتهم لأهل الأديان الأخرى.

---

(١) إنجيل متى، ٢٧/٤-٥.

(٢) جاء ما يفيد ذلك في إنجيل يوحنا، ٨/٤.

(٣) انظر: القرطبي، الإعلام، ص، ٦١٤-٦١٦.

ومما استدل به القرطبي -رحمه الله- في هذا المجال أن نقل نصا من إنجيل يوحنا يقول: «من يقبله منهم وآمن باسمه، أعطاهم سلطانا ليكونوا أولاد الله، وهم الذين لم يتولدوا من دم ولا شهوة لحوم، ولا شهوة رجل لكن توالدوا من الله فالتحمت الكلمة وسكنت فينا وأينا عظمته كعظمة ولد الله الفرد المحشو رضوانا وصدقا»[١] وذلك ردا على مخاطب القرطبي النصراني الذي استدل بقوله «فالتحمت الكلمة وسكنت فينا» على اتحاد الكلمة (الآب) بالمسيح، فاعتبر القرطبي هذا الاستدلال في غير محله ويخالف سياق النص، وبعد أن عتب على النصراني عدم إيراده النص بكامله، أورد القرطبي النص بكامله وأبدى وجهة نظره القائلة: أنه على فرض التسليم بصحة هذا النص فإنه يعني أن كل من آمن بعيسى -عليه السلام- فإنه توالد من الله والتحمت الكلمة به، وسكنت فيه، لا المسيح خاصة، وهذا التأويل هو الذي يوافق سياق اللفظ ومساق الكلام، فلا دليل للنصارى في هذا النص على اتحاد الكلمة بالمسيح[٢].

واستدل القرطبي على دعوى النصراني بنسخ كتابهم شرع اليهود بقول عيسى-عليه السلام-: «لم آت لأنقض شريعة من قبلي، إنما جئت لأتممها»[٣].

وفي سياق تبكيت المدعو النصراني الذي ظن أنه يدافع عن دينه ويتبع ما في كتابه فادعى الانتصاف ممن ظلمه فبين له القرطبي أن هذا يخالف ما جاء في إنجيله القائل: «لا تكافئوا أحدا بسيئة، ولكن من لطم خدك اليمنى فانصب له اليسرى...»[٤]، وأنه بهذا صار أول من رد شرع الإنجيل، فكيف يرجى فلاحه وهذا

---

(١) إنجيل يوحنا، ١/١٠-١٤. وفي الترجمة الحديثة: والكلمة صار جسدا وحل بيننا» بدلا من «فالتحت الكلمة وسكنت فينا»

(٢) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٩٣-٩٥.

(٣) إنجيل متى، ٥/١٧. القرطبي، الإعلام، ص١٧٣.

(٤) إنجيل متى ٥/٣٩ وما بعدها.

حاله مع كتابه؟[١]

ومما يدخل في هذا المجال أن القرطبي -رحمه الله- وجد من كتب النصارى التي ألفها بعض القسيسين ما تزعم أن النعيم والعذاب الأخروي غير حسي، فعمد القرطبي إلى ما ورد في إنجيلهم: «لتطعمن ولتشربن في مائدتي في ملك الله»[٢] استدلالا منه على أن النصارى لا يبنون عقائدهم على ما جاء في كتبهم بل على أهوائهم وتحكماتهم الباطلة[٣].

٥- الرد على شبهاتهم حول الشرع الإسلامي:

قد يتشكك النصارى في بعض أحكام الشريعة الإسلامية، أو يحاولون التشكيك وإثارة الشبهات حولها، وفي الحقيقة هناك شبهات كثيرة يلوكها النصارى في ألسنتهم ليصدوا عن سبيل الله، وقد وجد القرطبي طريقا للرد عليهم في ذلك من خلال ما جاء في كتبهم، فنقل قول المسيح -عليه السلام- لتلامذته: «إني كنت أرسلتكم وليس معكم مزود، ولا خف، فهل ضركم ذلك أو نقصكم شيئا؟ قالوا: لا. قال: أما الآن فمن لم يكن له كيس فليأخذ كيسا، ومزود فليشتر مزودا، ومن لم يكن له سيف فليبتع من ثيابه وليشتر سيفا»[٤]، وذلك للدلالة على بطلان عيبهم الإسلام دعوته للجهاد والقتال؛ لأن المسيح -عليه السلام- أمر تلامذته باشتراء السيوف للقتال، لعلمه أن محمدا ﷺ يبعث بعده بالسيف، فلا مجال هنا للشبهة المتعلقة بتشريع الجهاد في الإسلام[٥].

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٢٢٦.

(٢) إنجيل لوقا، ٢٢/٣٠.

(٣) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٤٣٢-٤٣٥.

(٤) انجيل لوقا، ٢٢/٣٥-٣٦.

(٥) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٤٥١.

ثالثا: الاستدلال بالمنقول من أقوال علماء النصارى وقسيسيهم:

ينقل الإمام القرطبي من أقوال علماء النصارى المنتشرة في كتبهم ورسائلهم ليستدل بذلك على فساد آرائهم وشذوذ معتقداتهم وتناقضها مع كتبهم المقدسة، وابتداعهم لأمور ما أنزل الله بها من سلطان اتباعا لأهوائهم، ويمكن تلخيص أبرز مجالات استدلال القرطبي بالمنقولات من أقوال هؤلاء في النقاط التالية:

١- قضية العقيدة في الله:

تعد قضية التثليث واتحاد اللاهوت بالناسوت من أسس العقيدة النصرانية، ومع ذلك فإن لهم فيها أقوالا متعددة، وآراء متباينة تسعى إلى جعل هذه القضية مقبولة، وقد نقل القرطبي بعض أقوال علماء النصارى ليقارن كلام صاحب كتاب تثليث الوحدانية الذي ذهب إلى أن أقانيم التثليث تعني أسماء أفعال الله من القدرة والعلم والإرادة، بكلام القسيسين المعتبرين، الذين خالفوا هذا الرأي، وقالوا أن الأقانيم صفات، فنقل كلام أغشتين(١) القائل: «وهذا قولنا في الأقانيم الثلاثة التي لا يمكن جحدها منه، ولا وصفه بغيرها... فهذا قولنا في التثليث الذي وصفه الإنجيل وأمرنا بالإيمان به»(٢)، فخرج القرطبي من هذا الكلام بأن هذا القسيس صرح بأن الأقانيم صفات ولم يقل أيضا أن الله واحد ثلاثة.

ونقل أيضا من كلام أحد أحبار النصارى ذكر أنه صاحب كتاب (المسائل

---

(١) أورد الاسم القرطبي بهذا اللفظ، وهو في التراجم الحديثة: أوغسطين، وهو قديس ولد في طاجست بشمال إفريقيا سنة ٣٥٤م، من أم نصرانية وأب وثني، وتردد في اعتناق النصرانية والمانوية والفلسفة اليونانية حتى استقر في نهاية الأمر على النصرانية، رحل إلى إيطاليا ثم عاد إلى موطنه وأصبح أسقفا يدعو إلى النصرانية ، وقد توفي سنة ٤٣٠م. انظر: عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، ص١٥، ط مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٩م القاهرة. ويوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، ص١٥ وما بعدها، ط، دار المعارف بمصر، ١٩٥٧م.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٦٠-٦١.

السبع والخمسين) القائل: «لا نقول إن التثليث ممتزج في أقنوم واحد كقول (شباليش) ولا إلهية متحدة أو متبعضة الذات كفرية (آريش) بل أقنوم الآب غير أقنوم الابن، وأقنوم الابن غير الروح، لكن التثليث المقدس ذات واحدة»[١]، وذلك للدلالة على اختلافهم في قضية التثليث وتناقضهم فيما بينهم، بل إنهم يتناقضون مع أنفسهم بأقوال لا يقبله عقل سليم ولا فكر سديد.

ونقل أيضا عن قسيس آخر[٢] خالف ما ذهب إليه صاحب كتاب (تثليث الوحدانية) في حياته سبحانه وتعالى، وجعلها من أسماء السلوب والنفي أي أنه حي لنفي ميت، بينما وجد القرطبي أن من كلام أقستهم ما يفيد بأن الحياة ليست ترجع إلى نفي الموت، وأثبت هذا النص: «الباري تعالى لم يزل حيا بروحه، وناطقا بكلمته، فمهما قلت: لم يزل حيا، ولم يزل ناطقا أوجبت في نطقك لحياته ونطقه الأزلية،... وروحه -أعني حياته- أقنوم خاص كامل، لم يزل»[٣].

وذكر القرطبي أنه وقف على رسالة قس كان في طليطلة فيها حكايات فاسدة، وأقوال تشهد على فضل دين الإسلام الذي التزم العقل السليم، والنقل الصحيح، وعلى قلة عقول النصارى الذين بلغ بهم الأمر إلى أن ساووا الله سبحانه وتعالى مساواة تامة بالمسيح -عليه السلام- تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، فقد قال هذا القس: «هبط الله بذاته من السماء، والتحم ببطن مريم... وهو الإله التام، والإنسان التام، ومن تمام رحمته على الناس أنه رضي بهرق دمه عليهم في خشبة الصليب... لأنه لم يكن في الحكمة الأزلية أن ينتقم الله من عبده العاصي آدم الذي ظلمه، واستهان بقدره، فلم يرد الله الانتقام منه، لاعتلاء منزلة السيد، وسقوط منزلة العبد. أراد أن ينتصف من الإنسان الذي هو إله مثله، فانتصف من خطيئة آدم بصلب

(١) المصدر السابق، ص٦١.

(٢) لم يذكر اسم القسيس ، لكنه ذكر بأنه صاحب كتاب (الحروف)، وقال عنه أنه قسيس معروف عندهم. انظر: القرطبي، الإعلام، ص٧٠، ٧٥.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٧٥.

عيسى المسيح الذي هو إله مساو معه»[١].

وقد قصد الإمام القرطبي -رحمه الله- من نقل هذه النصوص وغيرها مما تناولت قضية أقانيم التثليث عند النصارى بيان ضلالهم فيها، واختلاف آرائهم وتخبطهم، وكان يحرص في نقله أن يكون عن قسيس معتبر عند النصارى، وممن يعترف به النصارى في علمه ومعرفته بشرعهم، وبخاصة إذا كان مقصده إثبات أن النصراني المدعو والمردود عليه من خلال كتاب الإعلام خالف المتعارف عليه في عقائد النصارى، حتى أنه في بعض الأحيان يقول إن كلام السائل «لم يقل به أحد -فيما علمت- من عقلاء النصارى»[٢].

وقد تعددت النقول الخاصة بعقيدة النصارى عن علمائهم عند القرطبي، وكان لا يذكر في بعض الأحيان اسم المنقول عنه فيكتفي بالإشارة إلى موطنه، ويذكر في بعض الأحيان اسم القس وكتابه كما فعل بـ(أغشتين)، حيث ذكر كتابه (مصحف العالم الكائن)، بينما يكتفي في أحيان أخرى بذكر اسم الكتاب، كأن يقول قال صاحب كتاب (الحروف)، الذي نقل منه ما يقارب الصفحة والنصف، أو صاحب كتاب (المسائل) الذي نقل منه صفحة كاملة فيها عرض لأقوال كثيرة وأراء متباينة للنصارى في قضية الأقانيم، وعقب عليها القرطبي بقوله: «وإذا وقفت على هذه الأقاويل الضعيفة والآراء السخيفة لم تشك في تخبطهم في عقائدهم وحيرتهم في مقاصدهم، قالوا في الله تبارك وتعالى بآرائهم واتبعوا فيها ظاهر أهوائهم فهم في ريبهم يترددون ولجهالهم مقلدون، وبضلاّلهم مقتدون»[٣].

وبعد أن يكون القرطبي قد سلك أسلوب المقارنة لهدم أقوال النصارى بعضها ببعض، والرد عليهم بلسان أقستهم، يختار في هذه الحالة الإعراض عن الأقوال الفاسدة جميعها والاكتفاء بمناقشة الآراء التي يحسبها أقرب إلى الملة الإسلامية،

(١) المصدر السابق، ص٢٥٠-٢٥١.

(٢) المصدر السابق، ص٦٩.

(٣) المصدر السابق، ص٨١.

وأحسنها في اتباع طريق البحث والنظر، فيناقش قائلها ويحاول بيان الحق له بالأدلة العقلية والنقلية[١].

٢- مخالفتهم لنصوص كتبهم المقدسة:

رأى الإمام القرطبي -رحمه الله- أن الأهواء قد فعلت فعلتها في شعائر الديانة النصرانية، وأظهر مدى التحكم والتشهي الذي أحاط بكثير من العبادات والشعائر النصرانية، فهي إما أن تكون زيادات على ما جاء في التوراة، أو إلغاء بعض ما جاء فيها أو تأويله بتأويلات فاسدة يخرجه عما كان متعارفا عليه والعمل عليه، وقد أثبت هذا الأمر القرطبي بما نقله من كتب فقهائهم الذين كتبوا في فروع الديانة النصرانية، ومما وقف عليه القرطبي في بعض كتبهم الفقهية تأويلاتهم لبعض المحرمات التي وردت في التوراة، ومن ذلك قولهم بعد ذكر المحرمات: «فأما الميتة في التوراة فإنما نعني بذلك ألا تميتوا الأحياء، ولا تغموا الحق في الشهادة، ولا ترفعوا الطعام وتمنعوه السائل والجائع، فأما الميتة والمنخنقة فما في أكلها غبطة لذي عقل، فمن شاء أكل ومن شاء ترك، وأما الدم فيعنى به ألا يقتل أحد بريئا، ويهريق دمه، وعنى بالخنزير: الزنا، والكفر بالله.... فهذا هو المراد بتحريم هذه الأشياء، وأما تلك المذكورات بأعيانها فمن شاء أكلها ومن شاء تركها»[٢].

وفيما يتعلق بالشعائر أيضا أولوا كثيرا مما جاء في التوراة وزادوا ونقصوا على كثير مما جاء فيها، فقد نقل القرطبي عن القس حفص بن البر[٣] من بعض كتبه -دون ذكر أسماء هذه الكتب- بعض المسائل المتعلقة بشعائر النصارى التي خالفوا فيها كتابهم المقدس: كزيادتهم في الصيام ثلاثة أيام عما صامه كل من موسى

(١) انظر: المصدر السابق، ص٦٩، ٧٩-٨٣.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٣٩٧-٣٩٨.

(٣) ذكر القرطبي أن حفص بن البر قس نشأ في ذمة المسلمين يدفع الجزية، وتعلم من علومهم حتى فاق النصارى أجمعين، وهو يعد من أكيس علماء النصارى. انظر: القرطبي، الإعلام، ص٤٢٢.

وإلياس، وعيسى -عليهم السلام-، واختلاقهم سبعة أعياد رأوا أنها وافقت أياما شريفة حدثت للمسيح، وجعلهم القرابين خبزا وخمرا، بعد أن كانت عجولا وجزورا وخرافا في التوراة، وتقديس دورهم وبيوتهم بالملح لأن اليسع -عليه السلام- قدس ماء عين كانت مرة بالملح، وتصليبهم على وجوههم في صلاتهم لحكايات عن قسطنطين، كما نقل من كتاب المسائل بأن العذاب والنعيم الأخروي غير مادي ولا محسوس[(١)].

ومن نماذج هذه النقول يمكن الاكتفاء بتأويلهم معنى الختان الوارد في التوراة التي جاء فيها «إذا حبلت المرأة وولدت ذكرا..وفي اليوم الثامن يختن لحم غرلته»[(٢)] فأولوا هذا النص الصريح قائلين: «إنما عنى بالختان نقاوة القلب، وصفاء النية، وذهاب الغلوفة... فما على الإنسان أن يختن لحمه؛ إذ لا منفعة له في ذلك فمن شاء اختتن ومن شاء ترك، والأحسن أن تترك الأجساد تامة غير ناقصة كما بها خلقنا الله عزو جل»[(٣)]، وقد قارن القرطبي هذا الموقف المنافي للتعليمات الإلهية، والرد الصريح لما يعتقدون أنه جاء من عند الله، بل وتفضيلهم عدم الختان مع اعترافهم بأن الأنبياء إبراهيم، وموسى وعيسى -عليهم السلام- قد اختتنوا، واتهام الله -سبحانه وتعالى - بأنه يشرع أمورا غير نافعة، مما يدل على تواقحهم على التشريع الإلهي وعدم مبالاتهم، وشدة إغراقهم في التحكم والتشهي.

ومما استدل به على ما اخترعوه من الأمور المخالفة لأحكام التوراة، -ولم ينص إنجيلهم عليها- ما شرعوه بمحض تحكماتهم في مسائل الغفران والكفارات والتعامل مع المذنبين وما أجمع عليه أساقفة طليطلة في جريمة اللواط، ونقل عنهم قولهم: «دعتنا هذه الفاحشة المنتنة أن يحكم بأجمعنا أن كل من أتى هذه الفاحشة أن يفعل به عقاب، فإن كان راكب هذه الفاحشة أسقفا فليعزل، ويبعد إبعادا شديدا

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص٤٢٢-٤٣٢.

(٢) اللاويين، ١٢/٢-٣.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٤٢٠.

دائما، وإن كان من غيرهم فينكل به نكالا شديدا، ويضرب الفاعل والمفعول مائة سوط، وينفيان النفي الدائم، ولا يعطيهم أحد من الأقسة توبة، ومن أعطاها لهم وتقبل قربانهم عُزل وأُبعد ولم يعط هو أيضا توبة، وأغرموا خمسة أرطال ذهبا»[١].

٣- بيان شبهاتهم حول الإسلام:

كان من أسلوب القرطبي -رحمه الله- أن يعرِّض الشبهات التي يثيرها النصارى نصا كما قالوها، وقد أثبت ذلك عنهم بنقله من كتبهم نصوص كلماتهم، فقد نقل عن صاحب كتاب (الحروف) الذي كان يعرض بنبينا محمد ﷺ في أثناء شرحه لتحذير عيسى -عليه السلام- من أنبياء الكذب الذين يأتون بلباس الحملان قائلاً: «وقد رأينا نفاذ قوله هذا فيمن ادعى النبوة، فأظهر سمة الحملان ثم عمل عمل الذئاب، فأمر بخلاف الوصايا من العداوة للناس عامة، والتحريض على قتل من خالفه، والأمر بالقصاص والانتقام.

ثم أمر بالإكثار من النساء، ورخص في طلاقهن، وأحل تزويج المطلقات الفاجرات، ثم ردهن إلى الأزواج الأولين بعد طلاق ثان، وأحل ذلك لهن من الرجل الثاني إلى الأول...»[٢].

هذه هي مجمل القضايا التي سلك فيها القرطبي أسلوب الاستدلال بالمنقول مما جاء في كتب علمائهم المتعلقة بقضايا الدين النصراني، وهناك أيضا جوانب أخرى سلك فيها هذا المسلك: كبيان ما ينبغي اتباعه من قواعد البحث والنظر والحوار والمجادلة التي لم يسرِ عليها مناقش القرطبي، فاستدل عليها بما جاء من قول (أغشتين) في كتابه (مصحف العالم الكائن).[٣]

رابعا: الاستدلال بأقوال العلماء والحكماء والخصوم:

أيد القرطبي -رحمه الله- كثيرا من الآراء التي اعتمدها بأدلة منقولة من

---

(١) المصدر السابق، ص٤٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص٤٤٨.

(٣) انظر: المصدر السابق، ٥٧-٥٨.

أقوال العلماء المسلمين، وبعض الحكماء، بالإضافة إلى أقوال خصوم الإسلام التي فيها مؤشرات تدعم موقفه، ودعوته، ومن ذلك :ما نقله من العلماء المسلمين، وإن كان في كثير من الأحيان لا يسند الأقوال إلى قائليها، فمثلا يقول: «والذي ذهب إليه أكثر علمائنا أن القرآن خارج عن مقدور البشر وليس من جنس مقدورهم...»(١) في معرض استدلاله على صحة نبوة محمد ﷺ بالمعجزة الكبرى القرآن الكريم.

وقد يسنده في بعض الأحيان، ويذكر القائلين، وذلك مثل: تعليقه على حديث حبس الشمس لرسول الله ﷺ حتى صلى العصر،(٢) فقال: «وذكر هذا الحديث

---

(١) المصدر السابق، ص٣٢٨. وقد أورد القرطبي في الإعلام كلام القائلين بالصرفة وهم إبراهيم النظام من المعتزلة والمرتضى من الشيعة، ولم يرد عليهم ولعله ذكر ذلك استطرادا.

(٢) الحديث: «أن النبي ﷺ كان يوحى إليه ورأسه في حجر علي -رضي الله عنه- فلم يصل العصر حتى غربت الشمس، فلما ارتفع الوحي عن رسول الله ﷺ قال له: يا علي أصليت العصر؟ قال لا. فقال رسول الله ﷺ : اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك، فاردد. قال الراوي، فرأيتها غربت، ووقفت على الجبال والأرض وذلك بالصهباء في خيبر. انظر: أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي، شرح مشكل الآثار، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ج٣، ص٩٤، حديث رقم١٠٦٨، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م، قال المحقق: إسناده ضعيف. وانظر: القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق: محمد أمين قرة علي وزملاؤه، ج١، ص٥٤٨-٥٤٩، ط، مكتبة الفارابي، ومؤسسة علوم القرآن، دمشق، وانظر: ابن الجوزي، الموضوعات، ج ١، ص٣٥٥-٣٥٧، وقال: حديث موضوع بلا شك، ومن طريق آخر فيه راو ضعيف. وقال ابن كثيرفيه: «وهو مستنكر من جميع الوجوه، وقد مال إلى تقويته أحمد بن صالح المصري، و الطحاوي، والقاضي عياض.... وحكم بضعفه آخرون من كبار حفاظ الحديث ونقادهم، كعلي بن المديني، وإبراهيم بن يعقوب الجوزجاني... وكذلك صرح بوضعه شيخاي الحافظان الكبيران أبو الحجاج المزي، وأبو عبد الله الذهبي.» ابن كثير، البداية والنهاية، ج٦، ص٢٧٦.

الطحاوي[١] من طريقين، قال عياض[٢]: وهذان الطريقان ثابتان، رواتهما ثقات، حكاه البكري»[٣].

وذكر قول الواقدي[٤] في قضية تأريخية تبين عدد المحاربين من الصحابة ومن قابلهم من أعدائهم في حروب الشام، حيث كانوا «ثمانمائة ألف من النصارى المستعربة وغيرهم، وهم [الصحابة] زهاء ثلاثين ألفا خيلهم ورجلهم»[٥] وذلك في معرض استدلاله للكرامات التي أكرم بها الله الصحابة -رضوان الله عليهم- الدالة على صدق ما يحملون من الرسالة، ويتبعون من الدين.

ومما نقله من أقوال الحكماء قول حكيم من ملوك الهند عندما ذكرت له الملل

---

(١) أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة المصري الطحاوي، ولد سنة ٢٣٩هـ في مصر بدأ بالمذهب الشافعي ثم انتقل إلى المذهب الحنفي، وإليه انتهت رياسته في زمانه، له: أحكام القرآن، وشرح مشكل الآثار، توفي سنة٣١٢هـ بمصر. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٧١-٧٢، والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٥، ص٢٧-٣٣.

(٢) القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، ولد سنة ٤٧٦هـ في سبتة، عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم ولي قضاء سبتة وغرناطة، وله: شرح صحيح مسلم، والشفا بتعريف حقوق المصطفى، توفي في مراكش سنة٥٤٤هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٨٣-٤٨٥، والزركلي، الأعلام، ج٥، ص٩٩.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٣٥٠.

(٤) أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي، ولد بالمدينة سنة ١٣٠هـ، ورحل إلى بغداد، كان عالما بالمغازي، والسيرة، والفتوح، وله: فتوح الشام، المغاري، أخبار مكة، وتوفي ببغداد سنة٢٠٧هـ. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٤، ص٢٣٨، وابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٣٤٨.

(٥) القرطبي، الإعلام، ص٣٨٢.

الثالث: «أما النصارى وإن كان مناصبوهم من أهل الملل يجاهدونهم بحكم شرعي، فقد أدت آراؤهم إلى أن لا نرى بحكم عقولنا لهم عقولا، فاستثنى هؤلاء القوم -يريد النصارى- من جميع العوالم؛ فإنهم قصدوا مضادة العقل..واعتقدوا كل شيء مستحيل ممكنا... وبنوا من ذلك شرعا لا يؤدي ألبتة إلى صلاح نوع من أنواع العالم، إلا أنه يصير العاقل إذا تشرع به أخرق، والمرشد سفيها... فلو لم تجب مجاهدة هؤلاء القوم لعموم أضرارهم التي لا تحصى وجوهها لكفى. وكما يجب قتل الحيوان المؤذي بطبعه...»[1]، فاستدل بقول هذا الحكيم الذي لا يتهم بمخاصمة النصارى والميل إلى الإسلام، فهذه شهادة رجل محايد، رأى بمجرد العقل سذاجة المعتقد النصراني، ومصادمته لأبسط القواعد العقلية.

وأما نقله من أقوال الخصوم الذين لم يستطيعوا أن يحجبوا شمس الحقيقة بالرغم من كرههم وعداوتهم الواضحة لما جاء به الإسلام، فشهدوا بما رأوا وسمعوا، ومنهم الوليد بن المغيرة[2] الذي قال في القرآن: «والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر مورق، وما يقول هذا بشر»[3]، قال هذا وهو يعرف ما يقول، لأنه من تلك الأمة التي نزل القرآن بلغتها، فهو من الذين يعرفون أسرار البلاغة العربية وأساليبها الفصيحة؛ لذا استدل القرطبي بكلام هذا العربي القرشي على فصاحة القرآن وبلاغته المعجزة.

---

(١) المصدر السابق، ١٦٧.

(٢) الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم، من قضاة العرب وزعمائهم في الجاهلية، أدرك الإسلام وهو هرم ولم يسلم، وكان من أشد الناس عداوة وأذى لرسول الله ﷺ، مات بعد الهجرة بثلاثة أشهر، وهو والد الصحابي خالد بن الوليد رضي الله عنه. انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٧١. والزركلي، الأعلام، ج٨، ص١٢٢.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٣٣٠.

المطلب الثاني

قيمة أسلوب الاستدلال بالمنقول في دعوة النصارى

عند محاولة النظر في قيمة أي أسلوب من أساليب الاستدلال ينبغي ربطه بعدة متغيرات مهمة، مثل: القضية التي تم الاستدلال عليها، ونوع الاستدلال الذي يسلكه المدعو في معارضة الداعي، وعقيدة المدعو، ومدى إيمانه بما يستدل به عليه، إلى غير ذلك من المتغيرات التي يمكن أن توثر في قبول المدعو للحجة، واقتناعه بها.

أولا: قيمة أسلوب الاستدلال بالمنقول من القرآن والسنة في دعوة النصارى:

يبدو للوهلة الأولى، وبنظرة غير متأنية، أن أسلوب الاستدلال بالمنقول من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة في دعوة النصارى أسلوب غير سديد؛ لأن النصارى لا يؤمنون أصلا بما جاء فيهما، بينما لو كان المدعو من المسلمين لكان الأمر طبعيا.

إلا أن هذا التصور قد يصح في بعض الأحيان، ولكن في أحيان أخرى نجد أن أسلوب الاستدلال بالقرآن والسنة في دعوة النصارى له أهميته القصوى، بل قد يكون هو الأسلوب الوحيد الذي لا يمكن الاستغناء عنه في بيان قضايا معينة من قضايا الدعوة وموضوعاتها.

والقضايا التي تعامل معها الإمام القرطبي -رحمه الله- بأسلوب الاستدلال بالمنقول من القرآن الكريم والسنة النبوية متعددة، فهل كانت مما جاءت في محلها، بحيث تقنع المدعو، وتحقق هدفها الدعوي؟

سبق في المطلب الأول أن قضية بيان صفات الله تعالى كانت مما استعان فيها القرطبي بالمنقول من القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد كان موفقا عند استدلاله بقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[1]؛ لأن المدعو استفسر عن الكيفية في قضية تتعلق بأسماء الله وصفاته، فالقرطبي هنا يبين للمدعو موقف

---

(١) سورة الشورى، آية:١١.

المسلم في أمر يتعلق بأسماء الله وصفاته، في حين يحاول الخصم إدخال الداعية في متاهات ليس للعقل البشري أي طريق للخوض فيها، «وموقف السلف: أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل...»[(١)] فالموقف السديد من الداعية الالتزام بالقرآن والسنة في القضايا التي تتعلق بأسماء الله وصفاته في أثناء دعوته، لأن الأسلوب الأمثل الصحيح فيها هو الالتزام بما سمى الله به نفسه ووصفها، أو سماه به رسوله ﷺ ووصفه؛ لأنها توقيفية ولا مجال للاجتهاد فيها.

فرفض القرطبي أن يتوجه شيء من صيغ المطالب على الله تعالى، وذلك بأن يصاغ سؤال يتعلق بأسماء الله وصفاته بكيف أو لِمَ ...الخ[(٢)]، فالتزامه الرد بما ورد في القرآن والسنة كان أسلوبا حكيما.

وقد كرر الآية السابقة، بالإضافة إلى ذكر آيات أخرى في معرض استنكاره لما جاء في كتب النصاري من وصف الله تعالى بأوصاف فيها تشبيه له سبحانه وتعالى بالمخلوقين، أو تنقيص لأوصافه الكاملة.

كما صحح للنصراني حديث رؤية الله تعالى لفظا ومعنى، فأورد نص الحديث النبوي وبين أن المرئى يوم القيامة بالأبصار حقيقة هو الله ذاته لا غيره.

إذن فالقضايا المتعلقة بذات الله تعالى وأسمائه وصفاته مما لا يمكن الاستدلال عليها إلا بما جاء عن الله تعالى أو صح عن رسوله الكريم ﷺ، سواء أكان المدعو في هذه الحالة مسلما، أم نصرانيا، أم وثنيا أم غير ذلك؛ لأنه مما لا يمكن للمرء معرفة هذه الأمور إلا بوحي من الله سبحانه وتعالى.

وفي قضية تصحيح فهم النصارى لبعض نصوص القرآن ومنهج الإسلام في الاعتقاد يسلك القرطبي -رحمه الله- أسلوب الاستدلال بالقرآن الكريم، وذلك لما ادعى النصارى أن بعض آيات القرآن تؤيد عقيدتهم ومذهبهم في اتحاد اللاهوت

---

(١) ابن تيمية، الفتاوى، ج٥، ص٢٦.

(٢) انظر: القرطبي، الإعلام، ص١٠٧.

بالناسوت، فأوردوا لذلك شطر آية من كتاب الله لتأييد زعمهم، فرد عليهم بإيراد الآية كاملة؛ لأن صدر الآية والآيات التي في خاتمتها ترد على زعمهم[١].

كما ادعى النصارى أيضا أن بعض الآيات القرآنية توافق عقيدتهم، لأنها تدل على أن المحاسب يوم القيامة عيسى بن مريم -عليه السلام- فما كان من الإمام القرطبي إلا أن أبان بآيات بينات صورة الحساب يوم القيامة، ونفى زعم النصارى، وحاول في ذلك تفسير القرآن بالقرآن، وهو وإن أخفق في إصابة التفسير الصحيح الذي ذهب إليه أهل السنة والجماعة للآية التي تبين صفة مجيء الله تعالى، إلا أن الأسلوب الذي سلكه في حد ذاته لا غبار عليه، فعندما يحتج المدعو بالقرآن الكريم على شبهة ما يؤمن بها، فإن أسلم طريق، بل وأول الطرق التي يجب أن يسلكها الداعية أن يفسر القرآن بالقرآن، «وذلك لإجماع العلماء على أن أشرف أنواع التفسير وأجلها تفسير كتاب الله بكتاب الله»[٢]، وهو أصح طرق التفسير[٣] لأن الله أعلم بمراد كلامه، فهناك آيات أُجملت في مواضع فُصلت في مواضع أخرى، وفيها الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد...، وقد سمى الشيخ محمد الشنقيطي[٤] كتابه في التفسير (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقران) تأكيدا لأهمية هذا الأسلوب

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص١٣٣، ١٣٧، وانظر كذلك ص١٤٤ من هذا البحث.

(٢) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج١، ص٦٧، ط/ الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية، بالرياض.

(٣) انظر: ابن تيمية، الفتاوى، ج١٣، ص٣٦٣.

(٤) محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، مفسر، مدرس من علماء شنقيط (موريتانيا) ولد عام١٣٢٥هـ وتعلم بها، وحج عام١٣٦٧، درّس في المسجد النبوي بالمدينة المنورة، ثم الرياض، وأخيرا في الجامعة الإسلامية، وتوفي بمكة عام ١٣٩٣هـ، له: أضواء البيان، منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، آداب البحث والمناظرة. انظر: الزركلي، الأعلام، ج٦، ص٤٥.

وقيمته، فما دام المدعو قد تمسك بشبهة ما وقبل أن يستشهد بالقرآن ابتداء، فلا حجة له إذن في رفض تصحيح استشهاده بالقرآن بالقرآن نفسه لما حسب أنه حق واستشهد عليه من القرآن الكريم، وذلك بالرغم من أن احتجاج النصارى بكلمة واحدة مما جاء به محمد ﷺ على صحة ما يخالفون به المسلمين لا يصح بوجه من الوجوه، فاحتجاجهم أنه ﷺ لم يرسل إليهم، أو على صحة دينهم بشيء من القرآن حجة داحضة على كل تقدير[1]، وقد أنكر الإمام القرطبي -رحمه الله- أصلا جنوح المدعو إلى الاستدلال بما لا يعترف به قائلا: «فكيف يسوغ لك أن تحتج بما أنت منكر لأصله، ولا تعترف بأنه كلام الله، وأنت منكر لتصديق من جاء به، فلا يحل لك أن تحتج لنفسك ولا لغيرك بما تعتقد أنه كذب»[2].

ولما اتهم مناقش القرطبي أهل العقائد جميعا بمن فيهم من المسلمين بأنهم مقلدون لمن قبلهم دون التفكير والنظر، واستعمل في مغالطته هذه أسلوب التعميم الفاسد، تنبه القرطبي إلى هذه القضية التي قد لا يتنبه إليها البعض وبخاصة أنها وردت بشكل مدسوس، وأثبت أن هذه دعوى باطلة موجهة ضد منهج الإسلام في الاعتقاد، وبالرغم من أن المفروض أن يثبت المدعي هذه الدعوى ببينة من مصادر الإسلام المعتبرة، إلا أن القرطبي -رحمه الله- دحض هذه الدعوى بأدلة من القرآن المصدر الأساس للدين الإسلامي، تدل على دعوة القرآن إلى النظر والتفكر والاعتبار، وتحريم التقليد الأعمى لما كان عليه الآباء والأجداد، مع أنه كان نافيا للدعوى الخالية عن أي دليل، فارتقى القرطبي على المدعي، ونجح في إلجام خصمه، لأنه لا يمكن أن يتهم الإسلام أو غيره من الأديان بما ليس فيه لمجرد عدم الإيمان به، وأقرب طريق لإثبات شيء للإسلام أو نفيه عنه الاعتماد على مصادره المعتبرة، وقد وفق القرطبي في نفي تصور المدعي الخاطيء بأدلة صريحة من مصدر أساس للشرع الإسلامي ألا وهو القرآن الكريم.

---

(١) انظر: ابن تيمية، الجواب الصحيح، ج١، ص١٣٢، و١٤٢.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص١٠٦.

وأما في قضية إثبات نبوة محمد ﷺ فاستدل القرطبي بالآيات والآحاديث التي راعت مصالح الناس، وذكرت صفة رسول الله ﷺ، وما تضمنت من المعجزات. ولما كانت الأمم التي تؤمن بالرسل والأنبياء ترى أن للأنبياء علامات ودلائل يعرفون بها عن غيرهم من البشر، وأنهم حملة كل ما ينفع الناس من خير، وأصحاب صفات كريمة لا تتوفر في غيرهم من الناس، مؤيدون بخوارق العادات، استدل القرطبي بآيات وأحاديث تؤكد على توفر العلامات والصفات التي لا تتوفر إلا في الأنبياء من العلم، والخَلق الحسن، والخُلق العظيم في محمد بن عبد الله ﷺ، وما أيده الله به من معجزات حواها القرآن، وأثبتتها السنة الصحيحة؛ لأن دلائل النبوة من أهم الطرق التي يعتمد عليها لإثبات نبوة أي نبي من الأنبياء. فالعلامة هي: «الدليل الذي يستلزم عين المدلول، لا يكون مدلوله أمرا كليا مشتركا بين المطلوب وغيره، بل نفس العلم به يوجب العلم بعين المدلول... فآيات نبوة محمد ﷺ نفس العلم بها يوجب العلم بنبوته بعينه، لا يوجب أمرا كليا مشتركا بينه وبين غيره»[1].

ولعل النصارى يجادلون في أن الآيات والأحاديث التي تتحدث عن محاسن خلق النبي ﷺ إنماهي من وضعه هو أو وضع المسلمين، فيكون قبولهم لمثل هذه الآيات والأحاديث غير مؤكد، بالرغم من أن القرآن ورد إلينا متواترا يفيد اليقين، إلا أنه من الصعب عليهم أن ينسبوا إلى الرسول ﷺ الآيات المحكمة التي راعت مصالح العباد بهذا الشمول الذي لم تعرف البشرية مثله، وتلك المعجزات المتمثلة في تحدي القرآن الأبدي للإنس والجن بأن يأتوا بمثله، -ولم يبطل هذا التحدي أحد حتى يومنا هذا- وفي حفظه من التحريف والتبديل، وما حواه من إخبار بالغيب الذي تحقق وما زال، فهذه أمور تحدى بها القرآن جميع الأمم نصرانيهم وغير نصرانيهم، وجعلها حجة عليهم؛ لذا فإذا كان النصراني غير معترف بنبوة محمد

---

(١) ابن تيمية، الرد على المنطقيين، ص١٥١. وقال في الجواب الصحيح، ج٦، ص٤٢٦: «دلائل النبوة كلها تدل على صدق النبي».

ﷺ فعليه أن يثبت عكس ذلك، ويبطل تحدي القرآن، ويطمس حقائق أخبار القرآن الغيبية إن استطاع -ولن يستطيع-، وإلا لزمه التسليم لخصمه بالفوز والغلبة، فكان من توفيق الإمام القرطبي أن حاجهم بمثل هذه الآيات والأحاديث[١].

أما بخصوص الآيات والأحاديث التي ذكرها في سياق بيان حقيقة المسيح -عليه السلام- فإن النصراني قد يتمسك بما عنده ويرفض قبول أي شيء تناول عقيدة التثليث عنده، ومن الصعب أن يقبل الآيات مجردة، وذلك لعدم إيمانه أصلا بأن القرآن وحي أُنزل من عند الله، إلا أنه بالإضافة إلى ما في القرآن من بيان عقيدة المسلمين الصحيحة في المسيح -عليه السلام- وعرضها، فإن مما عمله القرطبي في هذا الشأن أنه استدل بالآيات التي تنفي صلب المسيح وقتله -عليه السلام- بعد أن حصر فقرات الإنجيل التي تحدثت عن هذه القضية وحللها، فخرج بنتيجة تحتمل أن يكون الأمر كما ورد في القرآن الكريم، وهذا بحد ذاته قادر على أن يدخل شيء من الشك في مسلمات النصراني، فيتأمل ويجدّ في البحث عن الحق إن كان ينشده.

أما الآيات الخاصة بوصف حال النصارى أو المنطبقة عليهم تأييدا للحال المشاهد فيهم فإنه تحدث عن الجانب السلبي والجانب الإيجابي، وهم وإن حاولوا رفض الجانب السلبي فيهم فإن واقعهم يشهد عليهم بقلة العقل ومناقضة المنطق والشرع، كما أن ذكره للجانب الإيجابي فيهم يشهد على أنه لا يعاديهم لمجرد العداء، بل إنه ينصفهم ولا يغمطهم حقهم، وفيه أيضا تطييب نفوس الذين يبحثون عن الحق ويتبعون ما أنزل الله حقيقة على موسى وعيسى -عليهما السلام- وترطيب لقلوبهم وإبراز لعدل الدين الإسلامي في الحكم على الآخرين، وذلك مما يسهل القبول لمن أراد الله له الهداية منهم.

وكان للقرطبي -رحمه الله- استدلال بالأحاديث النبوية لإبراز محاسن

---

(١) هناك أحاديث غير صحيحة استدل بها القرطبي سيتم الحديث عنها في الفصل السابع من هذا البحث.

الإسلام ومزايا شرائعه وحِكمها، وذلك توضيحا لمرامي الإسلام وأهدافه التي ترغب فيه، وتنفي التصورات الخاطئة عنه، وهذا طريق جيد في دعوة الناس عامة إلى الإسلام، «ويقدم أدلة ثابتة تترجم في الإعجاب والتقدير، وتترك أثرا حسنا في النفس البشرية، إضافة إلى أنها تترك تساؤلا داخليا ينمّ عن شك في حقيقة ما يدين به وخلل فيما يعتقده، وهو يؤدي به إلى بناء حقائق إسلامية جديدة على أنقاضها»[(١)] وتعد الأحاديث من أبرز المصادر التي تبين محاسن الإسلام وحكمة التشريع الإسلامي.

إذن فإن للاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة قيمة كبيرة في دعوة النصارى إلى الإسلام، وبخاصة القرآن الكريم الذي أنزله الله حجة على العالمين مسلمهم وكافرهم، يهوديهم ونصرانيهم ووثنيهم، فلا يمكن الاستغناء عنه لدعوة أي فئة من فئات المدعوين، فهو يحمل في طياته حقائق علمية، وتاريخية ومحاسن عقدية وشرعية تقنع كل عاقل يبتغي الحق، والله سبحانه وتعالى: «بيّن في كتابه مخاطبة أهل الكتاب وإقامة الحجة عليهم بما بيّنه من أعلام رسالة محمد ﷺ وبما في كتبهم من ذلك، وما حرفوه وبدلوه من دينهم، وصدّق بما جاءت به الرسل قبله؛ حتى إذا سمع ذلك الكتابي العالم المنصف وجد ذلك كله من أبين الحجة وأقوم البرهان»[(٢)]. إلا أن الإخفاق قد يكون في قدرة الداعية على توظيف الآيات القرآنية وفق الهدف الذي يسعى إليه، واختيار المناسب منها للمدعو حالا ومكانا وزمانا، حتى يحقق النجاح والتوفيق في إقناع من يدعوه بفساد أي معتقد غير عقيدة الإسلام.

---

(١) عبد الله محمد العوشن، كيف تقنع الآخرين، ص١٢١، ط٣، دار العاصمة للنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ الرياض

(٢) ابن تيمية، نقض المنطق، ص٩١، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة، وسليمان عبد الله الصنيع، تصحيح، محمد حامد الفقي، ط/١، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٠هـ، ١٩٥١م.

ثانيا: قيمة أسلوب الاستدلال بالمنقول من الكتب المقدسة لدى النصارى:

يعد هذا الأسلوب من أنجع الأساليب في إقناع النصارى بفساد دينهم، ذلك لأنهم يدّعون الإيمان بما في كتابهم بصفة عامة، وأن ما جاء فيها حجة لهم أو عليهم، ولذلك فإن محاجتهم ومجادلتهم بحقائق نصوص معتمدة لديهم مما يصعب على الداعية إغفاله، مع الاهتمام بالدقة في النقل والاستدلال، ولكن هل يصح احتجاج المسلمين على النصارى بالتوراة والإنجيل؟ يذهب الإمام القرطبي -رحمه الله- إلى صحة الاحتجاج بهما قائلا: «وأما نحن فيمكننا أن نحتج عليكم، وعلى اليهود بالتوراة والإنجيل، لأنا نعتقد أن الله أنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى وهما هدى قبل أن يغيرا ويبدلا وينسخا بغيرهما. وأما اليوم بعد أن ثبت عندنا ما ذكرته فلا نحتج بشيء منهما على جهة انتزاع الأحكام»[(١)]، بل من باب الإلزامات للنصارى، ليظهر عنادهم وإفحامهم[(٢)] وهو أيضا ما ذهب إليه غيره من العلماء المعتبرين[(٣)].

فالقيمة الدعوية لهذا النوع من الاستدلالات تتمثل في إلزام المدعو، وبخاصة إذا كان ممن يطلب الاستدلال بما جاء في الكتب التي يؤمن بها، بل إن القرطبي -رحمه الله- يقدم هذا النوع من الاستدلالات في بعض الأحيان استجابة لطلب

(١) القرطبي، الإعلام، ص١٠٦-١٠٧.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص٢٦٣.

(٣) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا بخلاف المسلمين فإنه يصح احتجاجهم على أهل الكتاب: اليهود والنصارى بما جاءت به الأنبياء قبل محمد ﷺ، وأهل الكتاب لا يصح احتجاجهم بما جاء به محمد ﷺ وذلك أن المسلمين مقرون بنبوة موسى وعيسى وداود وسليمان، وغيرهم من الأنبياء -عليهم السلام- وعندهم يجب الإيمان بكل كتاب أنزله الله وبكل نبي أرسله الله، وهذا أصل دين المسلمين، فمن كفر بنبي واحد أو كتاب واحد فهو عندهم كافر» ابن تيمية: الجواب الصحيح، ج١، ص١٣٢.

السائل، وليكون ذلك مؤنسا للمدعو، ودافعا له على النظر في الأدلة الأخرى التي تأتي فيما بعد من الآيات والأحاديث وغيرها[١].

وقد كانت استدلالات القرطبي على النصارى من كتبهم المقدسة من هذا الباب، فالجوانب التي تطرق إليها بهذا الأسلوب جديرة بالعناية والاهتمام، ولعل إثبات دخول التحريف في الكتاب المقدس لدى النصارى من أهم القضايا التي يمكن بها بيان فساد أسس العقيدة النصرانية، وإذا كان هذا الأمر من المسلمات لدى المسلمين بنص القرآن، إلا أن النصراني ليس من السهل أن يقتنع بذلك، وقد يعدها دعوى لا دليل عليها، ويرى أنها مما افتعله المسلمون للصد عن الديانة النصرانية، فكان من الحكمة إثبات هذا التحريف من واقع التوراة والإنجيل، فاستدل القرطبي -رحمه الله- لإثبات هذه القضية بما تضمن الكتاب المقدس لدى النصارى من محالات عقلية وشرعية، وتناقضات واضحة بين النصوص، وليّ البعض الآخر بالبتر والتأويل الفاسد من قبل القسيسين الذين شرحوا متنها بما يوافق أهواءهم، فإبراز هذه الأمور مما لا يستطيع النصراني أن يتجاهلها ويغض الطرف عنها إن كان يريد الحق، ويبني عقيدته على الدليل، ولا يستسلم للعناد والمكابرة.

أما إثبات نبوة محمد ﷺ بما جاء في العهد القديم والجديد فهو مما لا يتوقعه النصراني، بل يفاجأ به، والحقيقة أن الكتاب الذي يعتقد النصارى أنه وحي من عند الله تضمن فقرات تبشر بنبوة محمد ﷺ بطرق مختلفة، وفي مواقع متفرقة على ألسنة عدد من الأنبياء، إلا أن النصارى يحاولون حمل هذه العبارات على أنها مما بشرت بالمسيح -عليه السلام-، والنصوص التي أوردها القرطبي -رحمه الله- تمنع هذا التفسير لأن بعضها صرح باسم محمد ﷺ والبعض الآخر اكتفى ببيان صفته وصفة قومه وصفة موطنه، وإذا كانت بعض التراجم لا تصرح بالاسم كما في النسخة الحديثة التي بيد النصارى اليوم، إلا أن الأوصاف التي تنطبق على محمد

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٢٦٣.

ﷺ لا يمكن إنكارها، فهي ما زالت في صلب كتابهم المقدس، وهي أبلغ من مجرد ذكر الاسم، لأن بالإمكان أن يشترك أكثر من واحد في الاسم ولا يحصل التمييز بينهم «بخلاف ذكره بنعته وصفته وعلاماته ودعوته وصفة أمته ووقت مخرجه ونحو ذلك، فإن هذا يعيّنه ويميزه ويحصر نوعه في شخصه»[1]. إذن فإن هذا الأسلوب في إقناع النصارى برسالة محمد ﷺ له ما يبرره ويدعمه.

وإذا كان النصارى يعتقدون ألوهية المسيح -عليه السلام- وصلبه، أو بنوته لله عز وجل اعتمادا على ما جاء في مصدر عقيدتهم الأصيل العهد الجديد، فإن هذا الكتاب نفسه يصرح ببشرية المسيح ونبوته -عليه السلام-، وليست هذه النصوص نادرة الوجود، بل هي كثيرة لا يمكن تأويلها، فإنها وردت بألفاظ عديدة، والفقرات التي تشعر ببنوة المسيح -عليه السلام- وصلبه قابلة للتأويل، والاحتمالات العديدة، وأبسط ما يقال في الفقرات التي تحدثت في شخص المسيح -عليه السلام- أنها متناقضة لا يمكن الجمع بينها، وعليه لا بد من الاستفادة من أدلة أخرى للوصول إلى حقيقة المسيح -عليه السلام-، وإذا وصل الداعية مع المدعو النصراني إلى هذه المرحلة، فإنه يكون بذلك قد حقق شوطا جيدا في هز عقيدة المدعو الرئيسة والتشكيك فيها بنصوص كتاب يعترف بقدسيته.

كما أن إثبات مخالفة النصارى لنصوص كتابهم المقدس واتباعهم لأهوائهم، لا تتم إلا بعرض أفعالهم وأقوالهم مقابل هذه النصوص، وهو أسلوب ذو قيمة في مثل هذه الحالة، لأن هذه المخالفات لو كانت تجاوزات فردية لما كان في الأمر داع للبيان والتوضيح، إلا أن كونها اكتسبت الصفة الشرعية يجعلها مما ينبغي إبرازه، لإظهار فساد ديانة النصارى بتحكمات رجال الدين وشهواتهم وأهوائهم.

ولما كان النصارى لا يدَعون فرصة إلا ويحاولون التشكيك وإثارة الشبهات حول الشرع الإسلامي، بل إنهم من شدة تعصبهم وبغضهم الأعمى لدعوة الإسلام

---

(١) ابن القيم، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تحقيق: رضوان جامع رضوان، ص٨٧، ط، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، مكة المكرمة.

يقومون في بعض الأحيان بذم ما أثنى عليه كتابهم المقدس ظنا منهم أنهم يطعنون في الإسلام، وهم بذلك يسيؤون إلى دينهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وهذا ما فعله محاور القرطبي حيث أساء إلى هاجر وابنها إسماعيل -عليه السلام- مع أن التوراة التي يؤمن بها قد مدحت هاجر وابنها؛[1] لذلك فإن من الأساليب المناسبة في رد مثل هذه الشبه الاستدلال بفقرات من كتبهم تبطل شبهتهم التي أثاروها، لأن ذلك قمين بأن يتوقفوا عن إثارتها، أو أن يرضوا بانسحاب الشبهة نفسها على دينهم، وهذا يعني انقلاب الشبهة عليهم وإفحامهم.

ثالثا: قيمة الاستدلال بالمنقول من أقوال علماء النصارى وقسيسيهم:

سلك القرطبي -رحمه الله- هذا الأسلوب لأغراض منها: أن مخاطبه النصراني عوّل في بعض آرائه على بعض رجال الدين النصارى، وأن النصارى عامة أيضا يقلدون رهبانهم وقسسهم، وأن حكاية ألفاظ هؤلاء يمنع من أن يتقول عليه بالباطل، أو يُظن به الجهل بمذهبهم، أو ينسبوه إلى الكذب في شيء مما حكاه عنهم[2].

وهذه الأغراض التي حددها القرطبي تحمل في طياتها قيما دعوية تتمثل في أن المدعو إذا اعتبر في الاستدلال قول شخص ما فإن الرد عليه بقول من اعتبره أمر لا يخفى أهميته، وإذا كان هؤلاء العلماء ممن يعدون قدوة فإن الاستدلال بأقوالهم وأفعالهم له مكانة في قلوب متبعيهم، واستمساك الداعية بأدلة منسوبة إلى قائليها بشكل دقيق تبعد عن نفسه الجهل فيما يتحدث عنه، أو أن يوسم بالكذب والافتراء على مخالفيه، وهذه مما تقوي موقف الداعية وتفرض على المدعو أن يحترم الداعية وينصت إليه بكل تقدير.

ولما كان النصارى يرفعون من شأن رجال دينهم إلى مراتب تجعلهم يتولون

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٢١٥ وما بعدها.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١٤٢، و٤٠٥.

مغفرة ذنوب عامة النصارى والعصمة، فالاستدلال بأقوال مثل هؤلاء له وجه في إقناع النصارى، وقد نقل القرطبي -رحمه الله- آراء رجال الكنيسة المتناقضة في قضية تُعد من القضايا التي لا ينبغي الاختلاف فيها، وهي قضية العقيدة في الله، حيث قالوا فيها بأقوال لا يمكن جمعها على رأي واحد، مما يدل على مدى الفساد والاضطراب الذي يكتنف المعتقد النصراني.

«ومن المعلوم أن كل مبطل أنكر على خصمه شيئا قد شاركه في بعضه أو في نظيره فإنه لا يتمكن من دحض حجته وكسر باطله، لأن خصمه تسلط عليه بمثل ما سلط هو به عليه، وهذا شأن أهل الأهواء مع بعضهم بعضا، ولهذا كان عامة ما يأتون به أبدا يناقض بعضهم بعضا ويكسر أقوال بعضهم ببعض، وفي هذا منفعة جليلة لطالب الحق فإنه يكتفي بإبطال كل فرقة بقول الفرقة الأخرى»[(١)].

والقيمة الدعوية لهذا النوع من الاستدلال شبيهة بما سبق من الاستدلال بالمنقول من كتب النصارى المقدسة، إلا أنه يجب أن يكون المنقول عنه من المعتبرين لدى النصارى حتى يتم محاجة النصارى وإلزامهم بمقتضى أقوال هؤلاء العلماء، الذين يفترض فيهم شرح نصوص كتابهم المقدس وبيانه للناس، وهو ما حرص عليه القرطبي في عرض أقوال علماء النصارى، فنقل تأويلاتهم الفاسدة للختان، والمحرمات التي نصت عليها التوراة، ونقل بعض الزيادات الدالة على التحكم والتشهي الذي يسيطر على الديانة النصرانية عن قسس كانوا معتبرين لدى النصارى في البيئة الأندلسية في زمانه.

كما أورد الشبهات التي قال بها علماؤهم للصد عن الإسلام، وفندها شبهة شبهة، ونسبة هذه الشبه إلى رجال الدين النصارى مانع من انفكاك عامة النصارى عنها إذا ما تم دحضها، وإذا كانت الشبه التي يثيرها رؤوس القوم غير قادرة على الثبات أمام أدلة الإسلام الدامغة فما بال شبه العامة ورعاع الناس، ودهمائهم.

---

(١) أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية، الصواعق المرسلة على الجهمية المعطلة، ، ج٢، ص٤٥٢-٤٥٣، تحقيق: د. علي بن محمد الدخيل الله، ط١، دار العاصمة، ١٤٠٨هـ الرياض.

رابعا: قيمة الاستدلال بأقوال العلماء والحكماء والخصوم:

إن من القيم الدعوية للاستدلال بأقوال العلماء المتخصصين إعطاء الداعية المستدل ثقلا علميا يدفع عنه التقول بغير علم، ويدعم موضوع الدعوة، فسواء كانت القضية متعلقة بعلم الحديث النبوي، أم التاريخ أم غير ذلك فإن إسناد الرأي فيها إلى أهلها المعتبرين أمر له أهميته كما فعل القرطبي -رحمه الله- حيث أسند حكم بعض الأحاديث إلى الطحاوي، وأسند بعض روايات التاريخ إلى الواقدي.

والاحتجاج بأقوال الحكماء وإن كان يحتاج إلى سند ثابت صحيح فإن مدى معرفة المدعو بالحكيم المستدل بقوله واعترافه به هو الذي يحدد مدى اقتناع المدعو بأقوال ذلك الحكيم من عدمه، والرأي الذي نسبه القرطبي -رحمه الله- إلى حكيم هندي يعد مما يستأنس به، ولا يعد دليلا ملزما للمدعو النصراني.

أما نقله أقوال بعض خصوم الدعوة الإسلامية وشهادتهم للإسلام بالحق رغم ما يكنون له من كراهية وحقد، فإن مثل هذه النقول إذا توفرت فيها شروط النقل الصحيح، فإنها مما لا يمكن أن يتجاوزها المدعو بكل سهولة، فالحق ما شهدت به الأعداء، وبخاصة إذا كانت شهادة الخصم لها علاقة بمقدراته العقلية والفكرية والعلمية، كأن يعترف مثلا طبيب ما بالمعجزات الطبية الموجودة في القرآن الكريم رغم عدم إيمانه بالإسلام وعدائه السافر للديانة الإسلامية، وهذا ما فعله القرطبي -رحمه الله- حيث أيد الأدلة التي ساقها على فصاحة القرآن وبلاغته بشهادة أحد أهل الفصاحة والبلاغة الوليد بن المغيرة الذي لم يستطع أن يخفي الحقيقة الساطعة الشاهدة بفصاحة القرآن وبلاغته المعجزة، مع أنه كان عدوا للدعوة الإسلامية حتى هلك.

المبحث الثاني

أسلوب الاستدلال بالمعقول وقيمته في دعوة النصارى

• **تمهيد:**

العقل في اللغة: «العلم، أو العلم بصفات الأشياء، من حسنها وقبحها، وكمالها ونقصانها، أو العلم بخير الخَيْرَينِ وشر الشّرَّيْنِ، أو مطلق لأمور، أو لقوة بها يكون التمييز بين القبح والحسن، ولمعان مجتمعة في الذهن، يكون بمقدمات يستتب بها الأغراض والمصالح، ولهيئة محمودة للإنسان في حركاته وكلامه، والحق أنه نور روحاني، به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية»[١].

وللمهتمين بعلم الكلام والمنطق تعريفات متعددة للعقل قد لا تخدم هذا البحث، وأغلبهم على أن العقل هو العلوم الضرورية بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، وهو قريب من التعريف اللغوي[٢].

والمفهوم الاصطلاحي للأساليب العقلية يطلق على: «تلك الأساليب التي يغلب عليها مخاطبة عقل الإنسان»[٣]، لا العاطفة والوجدان، وتمثل المحاكمات العقلية، والأقيسة بجميع أشكالها، والاستقراء، والجدل والمناظرة، والحوار، وضرب الأمثال بأنواعها، والقصص التي يغلب عليها الجانب العقلي من أبرز الأساليب العقلية في مخاطبة الناس[٤].

---

(١) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٢، ص١٣٦٥، مادة (عقل).

(٢) انظر: د. عبد الكريم عثمان، نظرية التكليف، آراء القاضي عبد الجبار الكلامية، ص٧٤-٧٦، ط، مؤسسة الرسالة، ١٣١٩هـ ١٩٧١م، بيروت. وانظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج٢، ص١٣٢.

(٣) د. سعيد صيني، مدخل إلى الإعلام الإسلامي، ص٢٤٢.

(٤) انظر: د. محمد البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، ص٢٠٨-٢١١. وسعيد صيني، مدخل إلى الإعلام الإسلامي، ص٢٤٢ وما بعدها.

إذن فالمقصود هنا بأسلوب الاستدلال بالمعقول: تلك الحجج والبراهين العقلية والعلمية، التي استند عليها القرطبي -رحمه الله- في إقناع النصارى بدين الإسلام سواء أكانت هذه الأدلة العقلية مما لا تحتاج إلا إلى فطرة طبعية سليمة يستوي فيها العقلاء، أم مما تحتاج إلى نوع تأمل وتدبر فكري دقيق للوصول إلى النتيجة.

المطلب الأول

أنواع الاستدلال بالمعقول عند القرطبي في دعوة النصارى

سلك الإمام القرطبي -رحمه الله- أسلوب الاستدلال بالمعقول في دعوة النصارى إلى نبذ معتقدهم وقبول الإسلام دينا خالصا لهم، في قضايا كثيرة ببراهين عقلية مختلفة، سواء ما كان يعتمد منها على الاستدلال المباشر الذي ينتقل فيه الذهن للوصول إلى المطلوب باعتماده على قضية واحدة كالتناقض مثلا، أم كان من الاستدلال غير المباشر الذي يحتاج فيه الذهن إلى أكثر من قضية للوصول إلى النتيجة المطلوبة كالقياس والتمثيل[1]، وغيرها، ويمكن ذكر أبرز أنواع أساليب الاستدلالات العقلية للقرطبي في دعوة النصارى إلى الإسلام في النقاط التالية:

أ/ القياس (قياس الشمول):

القياس في اللغة، التقدير، من قاسه بغيره إذا قدره على مثاله[2].

أما في الاصطلاح فهو: «قول مؤلف من قضايا إذا سلمت لزمت عنها لذاتها قول آخر: كقولنا العالم متغير، وكل متغير حادث، فالعالم حادث»[3].

ويعد القياس من الطرق العلمية للاستدلال، وهو العمدة عند أهل المنطق، ويفيد العلم القطعي إذا كانت مواد مقدماته يقينة، وينزل إلى أدنى من ذلك إن كانت

---

(١) انظر: عبد الرحمن الميداني، ضوابط المعرفة، ص١٤٩ وما بعدها، ومحمد رضا المظفر، المنطق، ص٢١٣-٢١٨، ط٤، مطبعة النعمان، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م النجف.

(٢) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٧٧٨، مادة (قيس).

(٣) الجرجاني، التعريفات، ص١٩٤.

المقدمات أدنى من اليقين[١].

وقد سار الإمام القرطبي -رحمه الله- على هذا الأسلوب في أثناء توجيه خطابه إلى النصارى؛ لإثبات صدق رسول الله ﷺ فيما قاله وما جاء به، فقال: «فقد تحصل من هذا الكلام: العلم بأن محمدا ﷺ جاء بالقرآن وتحدى به وهو معجزة، وكل من جاء بالمعجزة وتحدى بها فهو صادق، فالنتيجة معلومة، وهي: أن محمدا ﷺ صادق»[٢].

فالقضية الأولى هي: أن النبي ﷺ جاء بالمعجزة وتحدى بها، والقضية الثانية: هي: كل من جاء بالمعجزة وتحدى بها فهو صادق، فالنتيجة الطبيعية من هذا أن النبي ﷺ صادق. إذن فلا بد من الإيمان بما جاء به وتصديقه في رسالته بكل ما تحويه من عقيدة وشريعة، وأخلاق...الخ.

وأيضا استخدم هذا الأسلوب في موقف آخر فقال: «ثم صرحتَ بلفظ التولد، وهو باطل من أصله، فإن المتولدات ممكنات، وكل ممكن مقدور بقدرة الله تعالى، فكل المولدات مقدورة بقدرة الله تعالى، وأنما ثبت أنها حدثت بقدرة الله تعالى فلا يقال إنها متولدات»[٣]، وذلك في معرض نفيه انقلاب العلم كلاما، في حق الله تعالى، حيث زعم النصراني ذلك قائلا: «لأن العلم لا يوقع عليه حتى يتولد كلاما»[٤].

فالقضية الأولى: كل متولد ممكن، والقضية الثانية: كل ممكن مقدور بقدرة الله، النتيجة: المتولدات مقدور بقدرة الله، إذاً فليس كل مقدور بقدرة الله تعالى متولدا، ونتيجة هذا القياس عكس ما ادعاه النصراني، وهو باطل.

---

(١) انظر: ابن تيمية، الرد على المنطقيين، ص١١٦، ومحمد المظفر، المنطق، ص٣١٩، وعبد الرحمن الميداني، ضوابط المعرفة، ص٢٢٧.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٣٢٧.

(٣) المصدر نفسه ص٧٠.

(٤) المصدر نفسه، ص٦٣، وانظر أيضا: ص٦٩-٧٠.

ب/ التمثيل (قياس التمثيل):

التمثيل: المِثْل في اللغة الشِّبْه، وتمثَّل بالشيء أي ضربه مثلا، ومثَّله له تمثيلا، أي صوَّره له حتى كأنه ينظر إليه.[١]

والتمثيل في الاصطلاح: «إثبات حكم واحد في جزء لثبوته في جزء آخر لمعنى مشترك بينهما»[٢]، فهو: «عملية فكرية، تقوم على تشبيه أمر بآخر في العلة التي كانت هي السبب في حدوث ظاهرة من ظواهره واعتبار هذا الشبه كافيا لقياس الأمر على الآخر في أن له مثل ظاهرته»[٣].

ويسمي الفقهاء هذا النوع من الاستدلال القياس[٤]، وهو من الطرق العلمية للاستدلال، ويرى أهل المنطق أنه يفيد الاحتمال إلا إذا قويت وجوه الشبه بين الأصل والفرع فيصبح الاحتمال ظنا[٥]، ويفرق المناطقة بين قياس الشمول وقياس التمثيل، بينما الإمام ابن تيمية وغيره لا يفرقون بينهما سواء في إفادة اليقين أو في حقيقتهما، فإن حقيقة أحدهما عين حقيقة الآخر وإن اختلفت صورة الاستدلال، لأن قياس الشمول هو انتقال الذهن من المعيَّن إلى المعنى العام المشترك الكلي المتناول له ولغيره، وقياس التمثيل: انتقال الذهن من حكم معيَّن إلى حكم معيَّن لاشتراكهما

---

(١) انظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج٢، ص١٣٩٤، مادة (مثل).

(٢) الجرجاني، التعريفات، ص٧٩.

(٣) عبد الرحمن الميداني، ضوابط المعرفة، ص٢٨٨.

(٤) انظر: المصدرين السابقين، وقد أورد الشوكاني عددا كبيرا من تعريفات القياس عند الفقهاء، واختار التعريف القائل بأن القياس: «استخراج مثل حكم المذكور لما لم يذكر بجامع بينهما» انظر: محمد علي الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ص١٩٨، ط١، مصطفى الباب الحلبي، ١٣٥٦هـ-١٩٧٣م القاهرة.

(٥) انظر: ابن تيمية، كتاب الرد على المنطقيين، ص١١٦، ط٦، المكتبة الإمدادية، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، مكة المكرمة، ومحمد المظفر، المنطق، ص٢١٨، و٢٨٥-٢٨٦.

في ذلك المعنى المشترك الكلي[(١)].

وقد يكون التمثيل بسيطا إذا اشتمل على تمثيل شيء بآخر مفرد يماثله في وجه من الوجوه، أو يكون مركبا إذا تم تقديمه على شكل لوحة تصور أكثر من مفرد[(٢)].

وقد استعمل القرطبي -رحمه الله- أسلوب التمثيل في دعوة النصارى، في أكثر من موضع: ففي نفيه لألوهية المسيح التي ادعاها النصارى بناء على خلق عيسى -عليه السلام- من غير أب قال: «أما من استدل على ذلك بأنه خُلق من غير أب، فيلزمه أن يعترف لآدم بالألوهية، فإنه لم يخلق من نطفة أب، بل إنما خُلق من تربة أرض ثم نفخ فيه من روحه كما فعل بعيسى، خلقه من نفخة الملك فعلقت بلحمة مريم، فنشأ منها وفيها، فتربه بمنزلة لحمه، ونفخه بمثابة نفخه، وهذا ما لا مخلص منه، ولا خروج عنه، ثم أكرمه الله بأنواع من الكرامات لم يكرم بها غيره»[(٣)].

فهنا قاس القرطبي حال عيسى بحال آدم -عليهما السلام- وأن العلة التي يدعيها النصارى لإثبات الألوهية لعيسى -عليه السلام- مشتركة بينهما، مما يعني أن آدم -عليه السلام- أيضا ينبغي أن يكون إلها، وهذا ما لم يقل به أحد، فبطل ادعاء النصارى بإيراد المماثل الذي يعد أمرا معروفا بينهم.

بل انتقل القرطبي بهم إلى قياس الأولى قائلا: «بل لو أمكن لأحد أن يقول: إن بشرا يتصور أن يكون إلها لكونه من غير أب لكان آدم أولى بذلك من حيث إنه لم يشتمل عليه أوضار الرحم، فقد شارك المسيح في كونه من غير أب، وزاد عليه أنه من غير أم، لم يتكون في ظلمة الرحم، ولم يتلطخ بدم الطمث، ولا خرج من مجرى

(١) انظر: ابن تيمية ، الرد على المنطقيين، ص١١٦، ١١٩، ١٢٠، ١٥٩، ٢٠٠، ٢٠٩، والفتاوى، ج٩، ص٢٥٩، وعبد الكريم الأثري، تسهيل المنطق، ص٥٩، ط٢، مطابع سجل العرب.

(٢) انظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الأمثال القرآنية، ص٧، ١٠، ٢٧، ط١، دار القلم، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م، دمشق - بيروت.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص١٣٦.

البول، هذا مع الاعتراف بأن ذلك كذلك، ولم يختلف في ذلك أحد، أعني أن آدم مكون مخلوق من غير أبوين»[١].

وقد استفاد القرطبي في هذا التمثيل من القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**﴾[٢]، إلا أنه جاء في القرآن على أساليب الأقيسة الإضمارية[٣]، وذلك أنه لم تذكر في هذا التمثيل سوى مقدمة واحدة، وهي إثبات مماثلة آدم لعيسى وطوى ما عداها، ومثل هذا الحذف لبعض المقدمات يعطي الكلام حسناً وطلاوة[٤].

وفي أمر إثبات نبوة محمد ﷺ اتجه القرطبي إلى تمثيل المعجزات الدالة على نبوته ﷺ بالمعجزات التي آتاها الله كلاً من موسى وعيسى -عليهما السلام-، وهي مما يؤمن به النصارى ويعتقدونه، فمثل لنبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ بنبع الماء من الحجر لموسى -عليه السلام- فقال: «وإذا تأمل العاقل المنصف هذا الباب علم أن نبينا محمداً ﷺ أوتي مثل معجزة موسى التي هي نبع الماء من الحجر...»[٥].

وقاس تكثير الطعام على يده ﷺ بقوله: «وهذا النوع من المعجزات هو من قبيل ما نقلت النصارى عن عيسى -عليه السلام- في الإنجيل، وذلك أنهم زعموا أنه أطعم من خمس خبز وحوتين: خمسة آلاف رجل سوى النساء»[٦]، فلا حجة للنصارى في الشك في هذه المعجزات، وفي دلالتها الواضحة على صدق نبوته ﷺ.

---

(١) المصدر السابق، ص١٣٦.

(٢) سورة آل عمران، آية٥٩.

(٣) هي الأقيسة التي تحذف فيها إحدى المقدمات مع وجود ما ينبئ عن المحذوف. د.زاهر الألمعي، مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص٧٦،ط٣،مطابع الفرزدق،١٤٠٤هـ الرياض.

(٤) انظر: محمد أبو زهرة، تاريخ الجدل، ص٦٤؛ ط٢، دار الفكر العربي، ١٩٨٠م القاهرة.

(٥) القرطبي، الإعلام، ص٣٥٢.

(٦) المصدر نفسه، ٣٥٦.

وقد واصل القرطبي حواره مع النصارى على هذا الأسلوب أيضا في القضايا التي يثيرون فيها الشبه ضد الجوانب التشريعية في الإسلام، فمثلا: يرد شبهتهم حول الجهاد بتمثيله بما ثبت عندهم من أن موسى بن عمران -عليه السلام- شرع له بقتال الجبارين، ويرد شبهتهم حول إباحة تعدد الزوجات في الشريعة الإسلامية بأنه لا يختلف عن ما ورد من تعدد زوجات الأنبياء الذين يؤمنون بهم، ومنهم إبراهيم ويعقوب وسليمان -عليهم السلام-، فإن كانت مثل هذه الأمور تعيب الشرائع وتنفي النبوة عن الأنبياء، فما على النصارى إلا أن يعيدوا النظر في كل ما يؤمنون به من الشرائع والنبوات، إذ لا فرق بين ما ينكرونه على المسلمين ويسلمون به في كتبهم.[1]

وإذا كان هذا من أنواع التمثيل بالأمور المعروفة الثابتة عند النصارى، فإن القرطبي أيضا اتجه إلى التمثيل بصور ذهنية عقلية لبعض القضايا التي يدين بها النصارى، ففي تصويره لعقيدة الصلب يقول: «فأنتم في هذا القول الوقاح بمنزلة رجل أخطأ عليه عبده فبقي بعد مدة غاضبا عليه وعلى غيره من عبيده، ناويا معاقبتهم، حتى ولد لنفسه ولد، فعمد إليه فقتله بذنب العبد الذي كان أذنب، ثم لم يقنع بذلك حتى ضرب نفسه ولامها وأهانها على ما صنع عبده، مع أنه قد كان متمكنا من أن يغفر لعبده، ولا يفعل هذا بولده ولا بنفسه، فأي تشف يحصل له مما فعل. بل يحصل له كل ألم ونقص، وخلل مثل السفيه الأحمق»[2].

ففي هذه الصورة التمثيلية الذهنية يوضح القرطبي بطلان عقيدة النصارى القائلة ببنوة المسيح -عليه السلام-، وألوهيته في الوقت نفسه، وصلبه وإهانته فداء لذنوب بني الإنسان من لدن آدم -عليه السلام-، ومن هذا المثل الذي أورده القرطبي يتبين عقلاً فساد دعوى النصارى.

وضرب لحال النصارى الذين كانوا في عصره في اتباعهم مذهب أحد

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص٤٥١، ٤٥٤-٤٥٥.

(٢) المصدر السابق، ص٤١٧.

قسيسيهم مثلا «برجل أعمى ادعى أنه بصير، فاستقاده عُمي، فقادهم فسقط في حفرة فسقطوا لسقوطه»[1]، وذلك لما رأى تقليد محاوره النصراني وغيره لقسيسهم المسمى أغشتين، فبين بهذا أنهم وهو سواء في الضلال وفساد الرأي.

ج/ قياس الخلف:

قياس الخلف أو دلالة التمانع وهو: «إثبات المطلوب بإبطال نقيضه»[2]، وقد استخدم القرطبي هذا الأسلوب حين أنكر النصراني على المسلمين في معرض إثارته الشبه ضد الإسلام نسبة الهدي والإضلال إلى الله سبحانه وتعالى، فنفى أن يكون الله تعالى يُضل من يشاء من عباده، كما يهدي من يشاء، فقال القرطبي: «لا يشك عاقل أن الهدى والضلال وما في معناهما أمور محدثة، وأفعال موجودة بعد أن لم تكن، وكل فعل محدث، فلا بد له من فاعل محدث بالضرورة، ففاعل الهدى والضلال وخالقهما إما أن يكون الله سبحانه أو غيره، محال أن يكون غير الله لاستحالة وجود خالقين، ويلزم منه امتناع الخلق...»[3].

أثبت القرطبي أن الذي يهدي ويُضل هو الله تعالى وذلك لانتفاء وجود محدث وموجد لأي مخلوق غير الله تعالى، والهدى والضلال مخلوقان، فإضافة خالق للضلال مع الله يعني وجود خالقين وهذا يستلزم امتناع الخلق، كما قال تعالى: ﴿**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون**﴾[4]، فأبطل النقيض ليثبت الدعوى القائلة بأن الله هو الذي يهدي ويُضل.

د/ إظهار تناقض الخصم:

التناقض في اللغة: من النَّقْض وهو ضد الإبرام، والمناقضة في القول أن يتكلم

---

(١) المصدر السابق، ص١٤٨.

(٢) أبو زهرة، تاريخ الجدل، ص٦٦، والألمعي، مناهج الجدل، ص٧٧.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٤٥٥.

(٤) سورة الأنبياء، آية٢٢.

بما يتناقض أي: يتخالف[١]، وفي الاصطلاح: «اختلاف القضيتين بالإيجاب والسلب، بحيث يقتضي لذاته صدق إحداهما وكذب الأخرى»[٢].

فإذا لم يمكن اجتماع قضيتين على الصدق، أو على الكذب في آن واحد يعد ذلك من التناقض، فلا بد أن تكون إحداهما كاذبة والأخرى صادقة.

ويعد التناقض من أنواع الاستدلال المباشر، والأصل فيه أن يكون بحرف السلب، وإذا استعمل فيها كلمة تؤدي المعنى المراد دون أن يكون فيها حرف سلب فيطلق عليه عند المناطقة مساوي النقيض[٣].

سبق الحديث عن وجود تناقض في الكتب المقدسة لدى النصارى، وقد أثبتها القرطبي -رحمه الله- من واقع نصوص الكتب التي بين يدي النصارى، وفي الأسطر القادمة سيكون الحديث عن استخدام القرطبي لأسلوب إظهار التناقض في أقوال النصارى وأفعالهم، وإثبات ذلك عليهم من خلال ما كتبه محاور القرطبي وغيره من القسيسين المعتبرين.

وقد أظهر القرطبي تناقض كلام صاحب كتاب تثليث الوحدانية من أول كلمة سطرها، وهي عنوان الكتاب قائلا: «أما قولك (تثليث الوحدانية) فكلام متناقض لفظا، وفاسد معنى، بيان ذلك: أن قوله: (تثليث الوحدانية) كلام مركب من مضاف ومضاف إليه ولا يفهم المضاف ما لم يفهم المضاف إليه، فأقول: لفظ الوحدانية مأخوذ من الوحدة، ومعناها راجع إلى نفي التعدد والكثرة، فهي إذن من أسماء السلوب، فإذا وصفنا بها موجودا فقد نفينا عنه التعدد والكثرة، والتثليث معناه تعدد وكثرة، فإذا أضاف هذا القائل التثليث للوحدة فكأنه قال: تكثير ما لا يتكثر، وتكثير ما لا يتكثر باطل بالضرورة، فأول كلمة تكلم بها هذا السائل متناقضة وباطلة

---

(١) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٨٨٧، مادة (نقض).

(٢) الجرجاني، التعريفات، ص٨١.

(٣) انظر: عبد الرحمن الميداني، ضوابط المعرفة، ص٥٥-٥٦، و١٥١وما بعدها.

بالضرورة»[١].

ومن المعلوم أن التثليث (تثليث الواحد) في عقيدة النصارى أصل تبنى عليه ديانتهم، وذلك بالرغم من أنها مما يلفظه العقل الصحيح والفطرة السليمة، لما فيها من التناقض البين الذي لا يخفى على ذي عقل.

ونقل القرطبي -رحمه الله- عنهم أيضا في مسألة الصلوبية كلاما غير متسق آخره ينقض أوله، ومن ذلك أنه لما صلب المسيح -حسب زعمهم- لم يقع شيء من دمه على الأرض، وأنه وقع منه شيء فنبت في موضعه نوع من الزهر، فقال القرطبي في ذلك: «ثم انظر كيف تناقض ذلك المتكلم على الفور في قوله: لأنه لو وقع شيء من دمه على الأرض ليبست، ثم إنه إثر ذلك قال: إلا شيء وقع فيها فنبت في موضعه النوار، فكيف يصح في عقل مجنون، فأحرى في عقل عاقل أن يتكلم بمثل هذا الهذيان أو يستحل أن يتحرك له بذلك لسان»[٢].

وأبرز القرطبي تناقضهم أيضا في ذمهم الإسلام بأنه يأمر بالقتال، وهم الذين يقولون أن قسطنطين حارب باسم الصليب وأنه انتصر على أعدائه بدعم من المسيح لأنه رفع الصليب، وأعجب من ذلك تلبسهم بالقتال وإكثارهم منه أبد الدهر، فناقضت أقوالهم أفعالهم، فهم إما أن يعتقدوا مشروعيته عندهم فلا يثيروا الشبه ضد الإسلام، وإما أن يعتقدوا عدم مشروعيته فيبحثوا عن مخارج لهم مما وقعوا فيه من إقرار قسطنطين في حربه باسم الصليب، وما يقومون به من حروب على مدى القرون الماضية[٣].

هـ/ الاستقراء:

الاستقراء في اللغة من قرأ الشيء أي: جمعه وضمه[٤]، وفي الاصطلاح:

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٥٢.

(٢) المصدر نفسه، ٤١٨-٤١٩، وانظر ص٤١٠ أيضا.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص٤٥٢.

(٤) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج١، ص١١٥، مادة (قرأ).

«الحكم على كلي لوجوده في أكثر جزئياته»[١]، أو هو: «تتبع الجزئيات كلها أو بعضها للوصول إلى حكم عام يشملها جميعا»[٢]، وهو لا يستغني عن الاستنباط[٣]، لأن الباحث بعد جمع معلوماته وبياناته المتعلقة بالقضية المبحوثة يستنبط منها حكما عاما.

وقد استخدم هذا الأسلوب القرطبي في إقناع النصارى بالحق، حيث استقرأ النصوص التوراتية فوجد فيها نصوصا تنبئ عن دخول زيادات فيها فقال: «وإذا جاز زيادة مثل هذا، ولم يتحرز منه، جاز أن يكون كل حكاية فيها لا يصح نسبتها إلى الله زائدة، ولا سيما الحكايات الركيكة»[٤]، فالحكم الكلي الذي توصل إليه القرطبي، أن الكتاب المقدس لدى النصارى مزيد فيه، وليس على أصله كما تزعم النصارى.

وأيضا استقرأ النصوص الخاصة التي تناولت قضية صلب المسيح في الإنجيل، فتوصل إلى نتيجة مفادها أن كل ما نقل النصارى في هذا الأمر غير قاطع الدلالة والورود، مما يجعل الإيمان به غير مبني على يقين.[٥]

و/ إبراز قولهم بالمحال العقلي:

«المحال: ما يمتنع وجوده في الخارج، ويراد به في الاستعمال: ما اقتضى الفساد من كل وجه كاجتماع الحركة والسكون في جزء واحد»[٦]، أي أن المحال هو

---

(١) الجرجاني، التعريفات، ص٣٥-٣٦.

(٢) الميداني، ضوابط المعرفة، ص١٨٨. وللتوسع انظر: محمد رضا المظفر، المنطق، ص٢٨٠-٢٨١، وحسين رشوان، العلم والبحث العلمي، ص١٤٤،

(٣) انظر: د. حنان عيسى وزميلها، أساسيات البحث العلمي، ص١٩.

(٤) القرطبي، الإعلام، ص١٨٩.

(٥) انظر: المصدر نفسه، ص٤١٢-٤١٦.

(٦) الجرجاني، التعريفات، ص٢١٨.

كل ما خالف القوانين والسنن الكونية التي وضعها الله في مخلوقاته.

إن الكثير من عقائد النصارى مبنية على المحال الذي لا يقبله العقل، وينفر عنه الطبع من أول وهلة، ومن ذلك عقيدة التثليث، وعقيدة الاتحاد، وقد أثبت الإمام القرطبي -رحمه الله- هذا الأمر على النصارى، ومما أخذه عليهم في ذلك قولهم بأن الاتحاد في حق الله قديم وحادث، -تعالى الله عن ذلك-، فرد القرطبي هذه المقالة مبرزا استحالتها وعدم اتساقها قائلا: «فقول لم يقل به مؤمن ولا ناكث، فإن الجمع بين القدم والحدوث مما يعلم فساده بضرورة العقل، فإن معنى القدم الذي لا أول لوجوده، والحادث هو الذي لوجوده أول، والجمع بين نفي الأولية وإثبات الأولية محال»[١].

ومن ذلك أيضا ما أثبته من بعض كتبهم التي كتبها بعض أقستهم في قضية صلب المسيح حيث اعتقدوا أن دمه لم يسقط على الأرض إنما غار في إصبعه، فأشار إلى أن هذا من المحال العقلي الذي لم يرد في كتبهم المعتبرة، بل هو من كذبهم واختراعاتهم[٢]، وأشار إلى بعض أقوالهم التي تستلزم الدور والتسلسل[٣].

ز/ الاستدلال بالتواتر:

التواتر في اللغة: التتابع[٣]، وقد حدد القرطبي -رحمه الله- المتواتر بـ: «الخبر المفيد للعلم بالمخبر عنه الذي تحيل العادة على ناقليه الغلط والتواطؤ على

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص١٠٢.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص٤١٨.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص٨٧. والتسلسل هو أن يستند وجود الممكن إلى علة مؤثرة فيه وتستند هذه العلة إلى علة مؤثرة فيها وهي إلى علة ثالثة مؤثرة فيها وهكذا تسلسلا مع العلل دون نهاية، وهذا التسلسل من المستحيلات العقلية. انظر: عبد الرحمن الميداني، ضوابط المعرفة، ص٣٢٦.

(٣) الفيروزأبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٦٧٩، مادة (وتر).

الكذب»[١] بشرط أن ينقله العدد الكثير عن مثلهم ولا ينقطع[٢]، ولا تختلف التعريفات الأخرى عن هذا التعريف الذي حدده القرطبي -رحمه الله-.

ولما كانت المتواترات من اليقينيات التي تسكن إليها النفس سكونا يزول معه الشك، ومن جنس المجربات والحسيات التي قد يشترك فيها عامة الناس ويحتج بها عليهم،[٣] أحاط القرطبي هذا النوع من الاستدلال بعناية مركزة سواء أكان في نقد كتبهم المقدسة وما زعموا نقله عن الأنبياء[٤]، أم كان في إثبات أدلته الخاصة المبينة صحة الدين الإسلامي، فعلى سبيل المثال يقول في إثبات بعض معجزات النبي ﷺ الدالة على صدقه مشيرا إلى حادثة انشقاق القمر وما جاء فيها من أخبار: «وهذا الحديث قد نقله الجم الغفير، والعدد الكثير، منهم من الصحابة، وقد نقل إلينا القرآن متواترا محصلا للعلم، يخبر عن ذلك المعنى من الانشقاق كما تلوناه آنفا، فصحت الآية وعلمت المعجزة والحمد لله»[٥] ويقول: «إن ما نقلناه من معجزات نبينا -عليه السلام- منها ما تواتر لفظه ومعناه كانشقاق القمر وغيره، ومنها ما تواتر معناه، وهو أكثر ما احتوت عليه الفصول المتقدمة،... فحصل من هذا أنا لم نستدل على إثبات نبوة محمد بأخبار الآحاد، وإنما استدللنا على ذلك بالأخبار المتواترة المحصلة للعلم. والحمد لله»[٦].

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٩٤.

(٢) المصدر نفسه، ص١٩٠.

(٣) انظر: ابن تيمية، الرد على المنطقيين، ص٩٢. وانظر: محمد المظفر، المنطق، ص٢٩٤، ٢٩٩.

(٤) انظر على سبيل المثال ص١٩٠، من كتاب الإعلام للقرطبي، حيث تكلم عن فقد التوراة التواتر.

(٥) القرطبي، الإعلام، ص٣٤٩

(٦) المصدر نفسه، ص٣٨٠-٣٨١، وانظر أيضا ص٣٥٠ وما بعدها حيث ذكر فيها عددا من أخبار معجزاته ﷺ التي وصلت إلينا متواترة.

فإيراد القرطبي لمثل هذه الأخبار التي ثبتت بالتواتر نابع من أن ذلك حجة على أي عاقل، ولا يمكنه تكذيب ذلك، لأنه ثبت بطرق علمية عقلية معتبرة يرقى إلى مرتبة اليقين، فالمتواترات عن الأنبياء من الآيات والبراهين والمعجزات يقوم بها البرهان على المنازع، وإن خالف في ذلك بعض الفلاسفة[1].

ح/ المعارضة:

المعارضة في اللغة: من عارضه، أي: جانبه، وعدل عنه، وسار حياله، وعارض الكتاب قابله، وعارض فلانا بمثل صنيعه: أتى إليه مثل ما أتى، ومنه المعارضة، كأن عرض فعله كعرض فعله[2].

وفي الاصطلاح: «هي إلزام المستدل الجمع بين شيئين والتسوية بينهما في الحكم إثباتا أو نفيا، أو إلزام الخصم أن يقول قولا قال بنظيره»[3].

والمعارضة من الأساليب الصحيحة في النظر[4]، وقد استخدمها القرطبي في إفساد عقيدة النصارى في قضية ألوهية المسيح -عليه السلام-؛ المعللة بإحيائه الأموات فقال: «إن كان إحياء الأموات يدل على الألوهية فلأي شيء لا تقولون إن إلياس واليسع كانا إلهين وأنه حل بناسوتهما اللاهوت وشأنهما في إحياء الموتى لا يقدر أحد على دفعه ولا يخفى.

ولم لا تعتقدون ألوهية النبي حزقيال إذ فر قومه وهم ألوف حذر الوباء فأماتهم الله ثم جاءهم نبيهم فقال لهم: لتحيوا بإذن الله فحيوا ورجعوا إلى قومهم، سحنة

---

(١) انظر: ابن تيمية، الرد على المنطقيين، ص٣٩١.

(٢) انظر: الفيروز آبادي، ج١، ص٨٧٦، مادة (عرض)

(٣) الشوكاني، إرشاد الفحول، ص٢٣٢.

(٤) انظر: الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ج٢، ص٥٦.

الموت على وجوههم حتى ماتوا بآجالهم، وهذا معروف عندهم ولا مدفع فيه»[(١)].

وقال في موضع آخر: «فإن كان المسيح من أجل أنه أحيا ميتا هو الله، فكل من أحيا ميتا من الحواريين[(٢)] وغيرهم هو الله، ثم كل خارق للعادة يجعلونه دليلا على ألوهيته، فإنهم يعارضون بمثل ذلك في حق غيره من الأنبياء -عليهم السلام، ويدعى ألوهيته، فلا يجدون فصلا بينهم وبين من يعارضهم»[(٣)].

فقد أبطل القرطبي -رحمه الله- بما لا يدع مجالا للشك دعوى النصارى المتضمنة ألوهية المسيح -عليه السلام- بناء على إحياء الموتى، وإتيانه بالمعجزات بإلزامهم أن يقولوا في حق غير المسيح ما قالوه فيه وذلك لاتفاق العلة التي بنوا عليها عقيدتهم، فلا يمكنهم إلا الانقطاع، والاستسلام.

ط/ إبراز التحكم والتشهي:

التحكم في اللغة من حكَمت، وأحْكَمْت، وحكَّمتُ، بمعنى منعت ورددت، وتحكَّم أي: جاز فيه حكمُه[(٤)]، والتشهي في اللغة من اشتهاه وتشهّاه أي: أحبه ورغب فيه،[(٥)] وفي عرف النظار والفقهاء أن يقول أحد الخصمين: «لا حجة لك على ما ادعيت سوى التشهي والتحكم بالباطل، فإن جاءك ما لا تشتهيه دفعته ورددته، وإن كان موافقا لما تهواه وتشتهيه -إما من تقليد من تعظمه أو موافقة ما تريده- قبلته

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص١٣٥. وقد جاء في سفر الملوك الأول ٢٢/١٧ أن إلياس أحيا ابن الأرملة، وفي سفر الملوك الثاني٤/٣٤، و١٣/٢١ أن اليسع أحيا ميتين، وانظر: قصة حزقيال (ذو الكفل) في سفر حزقيال٣٧/١ وما بعدها.

(٢) زعم النصارى أن الحواريين كانوا يحيون الأموات، انظر: متي١٠/٨، ولوقا١٠/٩.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص١٣٦.

(٤) انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص١٤١، مادة (حكم).

(٥) انظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٢، ص١٧٠٧، مادة (شهى).

وأجزته، فترد ما خالف هواك وتقبل ما وافق هواك»[١]

إذن فالمقصود من هذا النوع من أنواع الاستدلال أن يستدل المرء على خصمه بأنه لا يتبع الدليل المحض، إنما يتعسف في أخذ الأدلة التي توافق هواه وشهوته، ويرفض كل ما خالف هواه أو يتحايل عليها، فيجعل هواه وشهوته شرعا له.

ويعد هذا النوع من الاستدلال من الاحتجاجات المفحمة للخصوم القاطعة حججهم،[٢] وقد سجل الإمام القرطبي -رحمه الله- التحكم والتشهي على النصارى في مواطن كثيرة، ومن ذلك تحكمهم في قضية الأقانيم، حيث ذكر محاور القرطبي، «أن جوهرا[٣] قديما لم يزل موجودا بثلاث خواص أزليات جواهر غير متباينات...»[٤] فرد عليه القرطبي بقوله: «لأي شيء تحكمتم بتسمية الخالق جوهرا؟ وفي أي موضع كتب الأنبياء وجدتم الأمر بذلك؟ أو على لسان من بلغكم الأمر به؟ ولا تجدون لإثبات الأمر سبيلا غير التحكم، ولو كنتم ممن يستحي من الله لما تحكمتم إليه بأن سميتموه بما لم يسم به نفسه»[٥].

فبين أنهم لا يتبعون الدليل في إثبات عقائدهم، وأنهم يتحكمون بالهوى على كثير من أصول عقائدهم، وذكر خلافاتهم في مسألة التثليث والأقانيم سواء ما كان منها على مستوى المحافل التي كانوا يقيمونها أو على مستوى أفراد القسس، فقد

---

(١) أبو عبد الله محمد الدمشقي، الشهير بابن القيم، بدائع الفوائد ج٤، ص١٤٤، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٤٤.

(٣) سبق تعريف الجوهر في ص ١٣١ من هذا البحث، ومن تعريفاته أيضا: «الجوهر ما يقوم بذاته، أي: لا يحتاج في وجوده إلى شيء آخر يقوم فيه». عبد الرحمن الميداني، ضوابط المعرفة ص٣٢٨.

(٤) القرطبي، الإعلام، ص٧٧.

(٥) المصدر نفسه، ص٧٨.

أثبت أن بعضهم قال أن الأقانيم هي الوجود والعلم والحياة، والبعض منهم يرى أنها الوجود والعلم والإرادة إلى غير ذلك من الترهات التي تنبئ عن محض التحكم بلا أصل يؤيده من الوحي والكتاب.[١]

ولم يكتف القرطبي -رحمه الله- بإظهار التحكم في مجال العقيدة فحسب، بل بيّن تحكماتهم الباردة في جانب التشريع والشعائر، فبعد أن أورد نصا من التوراة يشرع الختان قال: «ثم إن النصارى بتحكمهم واستهانتهم بالشرائع تركوا العمل بذلك من غير أصل يعتمد عليه، ولا نسخ يثبت عندهم له، ومن ادعى شيئا من ذلك طالبناه بنص من الإنجيل، وليس لذلك سبيل إلا التحكم بالقال والقيل... تركوا حكم الله بالتوهم، بل بالهوى والتحكم»[٢]، وزاد أمثلة كثيرة على ذلك بما أودعوه في كتب محافلهم وما هم عليه في معظم عملهم، ونقل عن أحد كتبهم الفقهية تأويلاتهم الفاسدة لما حرمت التوراة أكله من الأطعمة بدءا باستحلالهم أكل الميتة وانتهاء بتحريم أكل الحمام واليمام، وتحدث عن الجزاءات والكفارات الواجبة التي وضعوها لمرتكبي فاحشة اللواط، وجريمة نكاح القرابات، والآتي بهيمة، والقاتل عبده، والقاتل نفسا خطأ، فأظهر ما فيها من التحكمات التي لا تستند إلى شيء من كتاب الله أو سنة رسل الله[٣].

ي/ السبر والتقسيم:

السبر في اللغة: امتحان غور الجرح وغيره،[٤] والتقسيم من قسمه يقسمه، وقسّمه أي: جزّأه[٥]، ويراد في الاصطلاح: «حصر الأوصاف في الأصل وإلغاء

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص٧٣، ٨٦، ٣٩٣.

(٢) المصدر السابق، ص٤٢٠-٤٢١.

(٣) انظر: المصدر السابق، ٣٩٤، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠١، ٤٠٤، ٤٠٦، ٤٠٧.

(٤) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٥٦٩، مادة (سبر).

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص١٥١٢، مادة (قسم).

بعض لتعين الباقي للعلية»[(١)].

ويعد السبر والتقسيم من أحد أبواب الجدل الذي يعمد فيه المجادل إلى إفساد دعوى خصمه، وذلك بالاتجاه إلى حصر أقسام الموضوع المجادل فيه، ثم إلى اختبار هذه الأقسام وبيان أن ليس في أحد منها ما يثبت دعوى المدعي، فيصل بالتدريج إلى حل القضية، وقد يسمي البعض هذا الأمر، طريقة الحل التدريجي[(٢)].

وقد استخدم القرطبي هذا النوع من الاستدلال العقلي في بيانه بطلان عقيدة النصارى في المسيح -عليه السلام- القائلة أن الكلمة خالطت جسم المسيح، ومازجته ممازجة الخمر اللبن، فقال: «ثم نقول لهم بعد ذلك في قولهم بالاختلاط وبأنهما صارا شيئا واحدا: لا يخلو أن حين اختلطا إما أن يبقى العلم موجودا بحاله، والجوهر موجودا بحاله، أو أن ينعدم أحدهما، أو أن ينعدما معا.

محال أن يبقيا موجودين بحاليهما مع فرض الاختلاط، وكونهما شيئا واحدا، فإن الواحد لا يعود اثنين إلا بإضافة غيره إليه، وإذا أضيف غيره إليه ارتفعت الوحدة بالضرورة على ما تقدم في التثليث، كذلك الاثنان لا يعودان واحدا إلا إذا انعدم أحدهما فترتفع الاثنينية بالضرورة، ومحال أن ينعدما، فإنه يؤدي إلى عدم القديم، وإلى عدم ما هو موجود في حالة وجوده، فلم يبق إلا أن ينعدم أحدهما دون الآخر، وذلك محال، فإن الموجود لا يخالط المعدوم ولا يمازجه بل يبقى الواحد واحدا.

وإذا بطلت هذه الأقسام المنحصرة بطل الامتزاج والاختلاط، ومصير الاثنين واحدا على ما قالوه»[(٣)].

فقد حصر القرطبي، هنا جميع الاحتمالات التي يمكن أن تؤدي إليها عقيدة

(١) الجرجاني، التعريفات، ص١٣٠.

(٢) انظر: محمد أبو زهرة، تاريخ الجدل، ص٦٧، والألمعي، مناهج الجدل، ص٧٤، وسعيد صيني، مدخل إلى الإعلام الإسلامي، ص٢٥٠.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص١٣٠-١٣١.

النصارى، وأثبت أن جميع الاحتمالات خاطئة، مما يدل على بطلان عقيدتهم في اختلاط الكلمة بالمسيح -عليه السلام-.

وقد تعامل بهذا الأسلوب أيضا في رده على مجموعة من الشعائر والعبادات التي ابتدعها أحبارهم ورهبانهم وألزموا بها عامة المتدينين بدين النصرانية، فقد قال في بيان ضلال النصارى في بعض الأحكام الشرعية: «ثم نقول يا معشر المحرفين لكتاب الله أخبرونا هل كان موسى بن عمران وعيسى ابن مريم ومن بينهما من أنبياء بني إسرائيل، علموا من هذه الأحكام ما علمتم أنتم أم لا؟ فإن كانوا قد علموا فما بالهم نصوا على خلاف ذلك، وحكموا بتحريم تلك الأشياء، فلم يرو قط عن واحد منهم أنه أكل خنزيرا، ولا ميتة، ولا دما، ولا شيئا مما ذكر تحريمه، وأنتم تقولون هذا، وتساعدون عليه، فكيف يمتنعون من أكل ما يحل لهم، ثم يصرحون بتحريمه؟ فعلى هذا يلزمكم أنهم كذبوا على الله ولبسوا في أحكام الله، إذ كانوا علموا تحليل تلك الأشياء، ثم صرحوا بتحريمها، والنهي عنها، وإن لم يعلموا شيئا مما علمتموه أنتم، فمن أين علمتموه أنتم، أشافهتكم بذلك الملائكة أم أرسل إليكم بذلك رسل أخر؟ أم خلق لكم بذلك علم ضروري؟ وكل ذلك لا تقدرون على ادعائه، فلم يبق إلا أنكم جاهلون بشرع الله محرفون كتاب الله...»[1].

فحصر الأمر على أن يكون الأنبياء علموا ذلك فأخفوه عن الناس، أو لم يعلموه وعلمه القساوسة بواسطة ملك أو رسول غير مذكور في أناجيلهم، وهذا كله لم يحدث، فلم يبق إلا أن يكون مما اختلقوه وزادوه من عند أنفسهم.

وفي جانب الشبهات التي أثارها النصارى ضد الإسلام استخدم هذا الأسلوب كذلك، ومن ذلك ما ذكره عن مسألة عيبهم الإسلام بتشريعه الطلاق، فحصر منعهم للطلاق إما أن يكون عقلا أو شرعا، أما عقلا فإن العقل لا يمنعها بل يجيز وجودها، وأما أن يكون شرعا، فإن مجيئه في شريعة التوراة ممانيفي أن يكون المنع من جميع الشرائع، فلم يبق إلا أن يكون المنع في بعض الشرائع، فلا

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٣٩٨-٣٩٩. وانظر: ص٤٢٣، ٤٢٥-٤٢٦، ٤٣١، ففيها مثل هذا الأسلوب.

حجة لهم في تعيير شريعة الإسلام، لأن الشرائع مختلفة في مثل هذه الأمور[١].

ك/ المقارنة، والمقابلة:

المُقَارَنة في اللغة: المصاحَبَة[٢]، والمقابلة من قابله أي واجهه، وقابل الكتاب عارضه[٣].

ويعرف البعض المقابلة بأنها: «عبارة عن مقارنة بين قضيتين أو موازنة بين شيئين لمعرفة الحق وتمييزه عن الباطل»[٤] والمقصود به هنا: الأسلوب الذي يعتمد على عرض قضيتين أو أكثر لمعرفة وجوه الاتفاق والاختلاف، والكشف عن المميزات التي تحمل كل قضية للوصول إلى الحكم المناسب.

ويعد منهج المقارنة في علوم البحث العلمي نوعا من التجريب غير المباشر، وأحد المناهج الرئيسة المستخدمة في العلوم الاجتماعية وتاريخ المذاهب والعقائد[٥]، وقد استخدم القرطبي أسلوب المقارنة في عدد من المواضع أثناء بيانه فساد الديانة النصرانية وصلاح الديانة الإسلامية.

وكان من أبرز القضايا التي اعتمد القرطبي على إيضاحها بالمقارنة قضية حفظ الله سبحانه وتعالى للقرآن الكريم، وما شاب الكتب السابقة من التغيير والتبديل بما فيها العهد القديم والجديد الذي بأيدي النصارى، حتى لا يظن الظان أن كتاب المسلمين ككتاب النصارى قابل لأن تعبث به أيدي العابثين، فقال بعد أن تحدث عن أنواع التحريف الذي شاب التوراة والإنجيل وأثبت ذلك بالحجة والدليل: «وكتابنا

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص٢٢١.

(٢) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٢، ص١٦٠٨، مادة (قرن).

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص١٣٨١، مادة (قبل).

(٤) محمد التومي، الجدل في القرآن الكريم فعاليته في بناء العقلية الإسلامية، ص٢٠٤، ط، الشركة التونسية، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، تونس.

(٥) انظر: د. حسين عبد الحميد رشوان، العلم والبحث العلمي، ص١٥٠، ١٦١.

منزه عن أمثال تلك الآفات، فإن الله تعالى تولى حفظه، وأجزل من كل صيانة حظه، فصانه بنظمه الذي لا يقدر الجن والإنس على آية منه، فلا يختلط به كلام متكلم، ولا يقبل وهم متوهم، إذ ليس من جنس كلام البشر، وهو معدود الآي والسور، ثم صانه بأن يسره للحفظ والاستظهار، فيستوي في نقله الكبار والصغار...

ومع هذا فحروفه وكلماته وآياته وسوره في الدواوين معددة، وأشكال كتب حروفه فيها مقيدة، ومع هذا فنقل الأمم التي لا تحصى عن الأمم التي لا تحصى حتى يصل ذلك إلى النبي ﷺ المصطفى مع قرب العهد، والتشمير في صيانته والجد، واستعمال القانون النحوي، وتثقيف اللسان العربي فيهما كمل الله له الصون، وحصل له بهما على فهمه أكبر العون، فلله الحمد على ما أولى، والشكر له على نعمه التي لا تحصى، فأين اللؤلؤ من الخزف؟ والياقوت من الصدف؟.»[١]

فقد أبرز القرطبي -رحمه الله- الخصائص التي ميز الله بها القرآن الكريم عن كتب الأمم السابقة والتي ساعدت في عدم تعرضه للاندثار والتحريف، بعكس الكتب السابقة فإن الله سبحانه وتعالى لم يتول حفظها ولم يتعهد بذلك لحِكَم يعلمها الله، فكان نصيبها التحريف والضياع.

وفي سعيه لإثبات نبوة محمد ﷺ تناول القرطبي بالمقارنة -بالإضافة إلى مقارنة طرق استدلالاته بالأخبار المتواترة المحصلة للعلم المثبتة لنبوة محمد ﷺ، بطرق استدلالات النصارى التي لا ترقى إلى هذا المستوى العلمي[٢]- بين ما ثبت عن الرسول ﷺ وبين ما يؤمن به النصارى ويتقولونه عن رسل الله -صلوات الله وسلامه عليهم- فلما ذكر الأحاديث الواردة الدالة على وفائه ﷺ بالعهد قولا وعملا قال: «يا هذا تأمل بعقلك. أين هذا مما يحكي اليهود والنصارى عن موسى -عليه السلام- في كتبهم من أن موسى -عليه السلام- لما أراد الخروج من مصر

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص١٩٣-١٩٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٨٠.

استعار حلي بني إسرائيل ثم فر به ليلا»[١].

وقارن أيضا في هذا الخصوص بين ثبوت النبي ﷺ وعدم جزعه أمام محاولات قريش للوثوب عليه وقتله، وبين الجزع الذي حكاه النصارى عن عيسى -عليه السلام- لما أرادوا صلبه -حسب زعمهم- فقال: «فتأمل أيها العاقل إن كنت منصفا فرق ما بين نبينا محمد -عليه السلام- وبين ما تحكيه النصارى عن المسيح في إنجيلهم»[٢].

إذن فمحمد ﷺ هو الأحق بالإيمان بنبوته ورسالته من أولئك الذين زعمت النصرانية اتصافهم بصفات لا تليق برسل الله وأنبيائه المصطفين.

وقد قارن القرطبي -رحمه الله- بين النصارى وبين أهل الأديان الأخرى، فذكر اختلاف النصارى مع اليهود في شأن عيسى -عليه السلام- الدال على أن الفريقين في شك منه وأنهم لم يثبت عندهم في حقه خبر متواتر معتبر،[٣] وذكر وجه الاتفاق والاختلاف بين مذهب النصارى وعقيدة المجوس، فبيّن أن المجوس[٤] في التثنية أقل شناعة من النصارى، وهم مع بطلان معتقدهم فشبهتهم أقوى من شبهة النصارى، ومذهب النصارى في نسبة خلق الخير إلى الله، والشر إلى الشيطان

---

(١) المصدر السابق، ص٣٠٧.

(٢) المصدر السابق، ص٣٢٠. وقد ذكر ما جاء في متي ٣٨/٢٦ أن المسيح لما استشعر بوثوب اليهود عليه قال: «قد جزعت نفسي الآن، فماذا أقول يا أبتاه؟ فسلمني من هذا الوقت» وأنه لما رفع في الخشبة صاح صياحا عظيما وقال: «إلهي إلهي لم أسلمتني» كما جاء في متي ٤٦/٢٧.

(٣) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٢٥٢-٢٥٤.

(٤) المجوسية ديانة قديمة كان يقال لها الدين الأكبر، والملة العظمى، ويثبتون أصلين اثنين، أحدهما: النور، والآخر: الظلمة، والنور أزلي عندهم، والظلمة محدثة. انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج٢، ص٢٣٠-٢٣٣.

متفق مع مذهب المجوس القائل بأن للخير إلهاً وللشر إلهاً[1]، بل قارن مذهب النصارى بعباد الأصنام فوجد أن عباد الأصنام أفضل منهم لأنهم كانوا يعبدون الأصنام ليقربوهم إلى الله زلفى، بينما النصارى يعبدون أقانيمهم لأنها أرباب من دون الله متقربون منها[2]، بالإضافة إلى مقارنات أخرى يمكن الاكتفاء بذكر ما ذكر لتكون أنموذجا عن غيرها.

ل/ التحدي:

التحدي في اللغة المنازعة والمباراة[3]، والمقصود هنا منازعة الخصم في الإتيان بمطلوب المتحدي على الوجه الذي يريده.

وقد تحدى الإمام القرطبي -رحمه الله- النصارى في مواضع كثيرة سعيا منه لإثبات انقطاعهم عن الحجة، وخلو دعاويهم عن الأدلة المقنعة، ومن ذلك تحدي القرطبي في أثناء استدلاله على نبوة محمد ﷺ بإعجاز القرآن في فصاحته ونظمه الفريد، للنصارى قائلا: «ومن تشكك في ذلك أو أبدى فيه أمرا بعد الوقوف على القرآن فهو منكر لما هو ضروري، والذي يبطل عناده ويظهر صميم جهله يقال له: ائت بسورة من مثله»[4] . وهذا مما استفاده القرطبي -رحمه الله- من قوله تعالى: **﴿وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾**[5]، وبما أن

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص١٦٥-١٦٦.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١٢٢.

(٣) الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج٢، ص١٦٧١، مادة (حدي).

(٤) القرطبي، الإعلام، ص٣٣٦.

(٥) سورة البقرة، آية:٢٣-٢٤.

الآية تخاطب من في الأرض جميعا[١]، فإن تحدي القرطبي للنصارى بهذه الآية نابع من ثقته بعدم قدرة المدعو كائنا من كان من معارضة القرآن. وبمثل هذا التحدي أيضا رد القرطبي على من اتهم القرآن بعدم صحة نسبته إلى الله وزعم أن ذلك ادعاء محض خال عن الدليل فقال: «فإن كنت تنكر ذلك فادع عصابتك البلغاء من نصارى نجران المتكلمين بلغة القرآن ليعارض بسورة من مثله، فإن فعلوا ذلك دحضت حجته، وانقطع عظيم قوله، لكنهم لما سمعوا منه القرآن تحققوا على القطع أنه ليس يقدر عليه أحد من الإنس والجان...»[٢].

ففي هذا التحدي يطالب القرطبي المدعو النصراني بأن يأتي بمثل سورة من القرآن، وليكن ذلك ممن يتقن اللغة العربية، وفي الوقت نفسه يسد القرطبي الطريق أمام المتحدَّى بأن لا يجهد نفسه في محاولات فاشلة لكسر التحدي، لأن التجارب أثبتت عدم إمكان ذلك بشهادة من كانوا أقدر على فهم لغة القرآن الكريم من النصارى مثله.

وفي إثباته للبدع والزيادات التي عمت عقائد النصارى وشعائرهم، يقف القرطبي موقف المتحدي الواثق مما يقول، فيتحداهم أن يثبتوا بنص من الإنجيل على دعواهم القائلة أن دم المسيح غار في إصبعه عندما صُلب قائلا: «فأتوا بالإنجيل فاتلوه إن كنتم صادقين»[٣]، و تحداهم في أعيادهم أيضا بأنها غير مشروعة في التوراة ولا في الإنجيل، وطلب منهم أن يأتوا بالتوراة إن كان هو كاذبا وهم صادقين وأتى بقوله تعالى: ﴿**فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين**﴾[٤]

---

(١) انظر: ابن القيم، بدائع الفوائد، ج٤، ص١٣٤.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٢١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٤١٨.

(٤) سورة آل عمران، آية٩٣. انظر: القرطبي، الإعلام، ص٤٢٥. وفي ص١١٨ تجد القرطبي في قضية أخرى يتحدى مخاطبه بأن يأتي بجميع الأسفار التي في الكتاب المقدس ذاكرا إياها واحدا واحدا بالتفصيل.

وتظهر ثقة القرطبي واضحة في هذا التحدي، وهو مما يدل على أنه قد اطلع على ما بيد النصارى من التوراة والإنجيل وجميع أسفار الأنبياء، ورسائل الحواريين التي يشتملها الكتاب المقدس لدى النصارى، واستقرأها جيدا، حتى تمكن من أن ينازعهم ويتحداهم على إيراد نص واحد من هذه الكتب يؤيد ما هم عليه من المعتقدات، ويمارسون من الشعائر والعبادات.

م/ التلازم والإلزام:

اللازم والملازمة والتلازم بمعنى واحد، ويعني امتناع انفكاكه عن الشيء، وفي الاصطلاح: كون الحكم مقتضيا للآخر اقتضاء ضروريا[1]، فالترابط بين الملزوم واللازم حتمي.

وقد سار القرطبي -رحمه الله- على أسلوب الاستدلال على النصارى بلازم كلامهم، وذلك أنهم كثيرا ما يتفوهون بألسنتم ويدّعون بدعاوى يلزم منها أمر لا يسلمون به، بل وينكرونه، وكذلك المعتقدات التي يتمسكون بها فإنه يلزم منها لوازم باطلة لا يقرها النصارى، مما يؤكد على أن أصول عقائدهم فاسدة تستلزم دائما البطلان والفساد.

ومن ذلك أن صاحب كتاب تثليث الوحدانية ذكر أن الذلة والأسرة والفرقة علامة الكافرين! (يقصد غير النصارى) فأخذ القرطبي عليه هذا الإطلاق الذي يلزم عنه لوازم لو أدركها هذا المتكلم لما تفوه بهذه الكلمة، ومنها: تكفير المسيح-عليه السلام- نفسه، لأن النصارى يزعمون بصلبه، وصفعه، وإهانته، وقتله....الخ ولا مذلة أبلغ مما نسب النصارى إلى المسيح -عليه السلام-[2].

وقال القرطبي في موقف آخر: «وأما قولك: فجعل هذه الأسماء ثلاثا، فيفهم منه أن هذه الثلاثة الأقانيم الذي تقدم ذكرها مجعولة، وأن الله تعالى هو الذي جعلها، وإذا كانت بجعل الله فهي بخلقه، وما كان بخلقه فهو محدث فيلزمك على

---

(١) انظر: الجرجاني، التعريفات، ص٢٠٢، ٢٤٠-٢٤١.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص١٨٠.

ظاهر قولك أن هذه الأقانيم محدثة باختراعه تعالى، وأنتم تقولون أنها أزليات قديمة»[١].

وقد أورد القرطبي -رحمه الله- تسعة إلزامات دفعة واحدة في أكثر من أربع صفحات، يسردها تباعا،[٢] ومن ذلك على سبيل المثال قال: «إلزام آخر: قد تقرر عند هؤلاء القوم أن علم الله اتحد بعيسى ولا خلاف بين جمهورهم في هذا المعنى، وإن اختلفت عباراتهم عنه، فعيسى عالم، والله عالم، بعلم واحد، فقد اتحد أقنوم العلم وتعدد المحل، فإذا ثبت ذلك لزم عليه أن يكون عيسى عالما بكل معلومات الله، ويكون الله تعالى عالما بكل معلومات عيسى، فإنهما عالمان بعلم واحد، فإذا علم الله أنه هو نفسه خالق المخلوقات ينبغي لعيسى أن يعلم أنه هو نفسه خالق المخلوقات كذلك، لأن علمهما واحد،... وإذا علم عيسى نفسه متغوطا بائلا، ومصفوعا ومتوجا بالشوك، ومصلوبا في خشبة، ومسمرة يداه ورجلاه فيها، فينبغي له تعالى أن يعلم نفسه كذلك -تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا- وهذا كله لازم على هذا المذهب»[٣].

فهذه الإلزامات التي ذكرها القرطبي تبين الخلل الذي يكتنف دعاوى النصارى الباطلة، وأن فيها أمورا يستحيل أن يتصورها عقل عاقل، أو يقبلها، بل إنهم أنفسهم لا يقبلون اللوازم التي يلزم منها، ولا يستطيعون في الوقت نفسه التنصل عنها، مما يدل على انقطاعهم في الحجة.

ن/ الاستدلال بما يسلمون به:

استخدم القرطبي -رحمه الله- أسلوب الاستدلال بما يسلم به النصارى من نصوص كتبهم، سواء المقدسة منها عندهم، أو مما أُثر من أقوال عن علمائهم المعتبرين الذين يعترف بعلمهم وفضلهم عندهم،[٤] أو مما يسلمون به من القضايا

---

(١) المصدر السابق، ٦٨-٦٩.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص١٣٨-١٤٢.

(٣) المصدر السابق، ص١٤١.

(٤) سبق تناول هذا الأمر بالتفصيل في قضايا الاستدلال بالمنقول في المبحث السابق.

البدهية التي لا يختلف فيها اثنان، ومن ذلك قوله: «لا يشك عاقل سليم الفطرة أن خالق العالم موجود ليس بمعدوم، وقد اعترفتم بأنه حي عالم...»[١]، ثم يواصل في مناقشة هذا الأمر، والمقصود من إيراد هذا النص أن القرطبي في تناوله بعض القضايا يستدل بما يسلم به الخصم.

وقد اتخذ هذا الأسلوب أيضا في نفي إنزال الله الإنجيلَ الذي بيد النصارى قائلا: «فقد توافق هؤلاء النصارى على أنه إنما تُلُقي عن اثنين من الحواريين، وهما متاووش ويوحنا، وعن اثنين من تلاميذ الحواريين وهما: ماركش ولوقا، وأن عيسى لم يشافههم بكتاب مكتوب عن الله كما فعل موسى، ولكن لما رفع الله عيسى -عليه السلام- إليه تفرق الحواريون في البلاد والأقاليم كما أمرهم عيسى، فكان منهم من كتب بعض سيرة عيسى...»[٢].

وبهذا يكون قد أثبت دعواه من خلال ما يعترف به النصارى، ويوافقون عليه، فحصل من واقع اعترافهم أن الإنجيل الذي بيد النصارى ليس من الكتب المنزلة على عيسى -عليه السلام- بل مما كتبه الحواريون وتلامذة الحواريين من بعده، فيصدق ما يصدق على أي كتاب كتبه بشر مخلوقون يخطئون ويصيبون.

س/ التسليم الجدلي:

التسليم في اللغة: الرضا والسلام[٣]، والمقصود به هنا: «أن يفرض المحال إما منفيا أو مشروطا بحرف الامتناع ليكون المذكور ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه، ثم يسلم وقوع ذلك تسليما جدليا، ويدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه»[٤].

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٠٣.

(٣) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج٢، ص١٤٧٨، مادة (سلم).

(٤) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج٢، ص٣٨٠، تقديم وتعليق: محمد شريف سكر، وراجعه: مصطفى القصاص، ط١، مكتبة المعارف، الرياض، ودار إحياء العلوم، بيروت، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

والإمام القرطبي -رحمه الله- يسلك هذا الأسلوب في دعوته النصارى إلى الإسلام، وحوارهم؛ ليبين تناقض خصمه، وتحكمه، وبطلان مذهبه، وقد نص على ذلك بقوله: «وذلك أن أرباب النظر ربما يسلمون ما هو معلوم الفساد ليتبين تناقض الخصم وتحكمه للعباد، وكذلك نفعل نحن بهذا الرجل»[١].

وقد سلم القرطبي جدلا باعتراض معترض على أن القرآن معجز فقط من وجه بلاغته وأسلوبه المخالف لأساليب كلام العرب، الذي لا يحصل منه الإعجاز إلا للعرب فقط، فبيّن أن التسليم بهذا القول يستلزم أن يقال: إن معجزات موسى وعيسى -عليهما السلام- لا يحصل إعجازها إلا لمن كان مطلعا بالسحر، والطب، فقال: «ولو سلمنا جدلا أنه معجز من حيث بلاغته وأسلوبه المخالف لأساليب كلامهم فقط، لقلنا إن العلم بإعجازه وإحياء الموتى وقلب العصى لا يحصل لكل العقلاء على حد سواء، ولا في زمان واحد، بل يحصل ذلك لمن علم وجه إعجاز ذلك الشيء المعجز»[٢].

وفي موقف آخر ينزل إلى التسليم للخصم بالتحام الكلمة بالمسيح -عليه السلام- ليبين بطلان هذا الالتحام ببطلان العلل التي استندوا عليها في إقرار هذا الالتحام وتبريره، فقال: «وأما قوله: فأفرد الكلمة بالالتحام لأنها الواعظة بالأمر والنهي، فقول لم يقله الإنجيل ولا دل عليه ظاهر ولا تأويل، وغاية ما في الإنجيل أن الكلمة التحمت وليس فيه: لأنها الواعظة، فمن عرّفك أن الكلمة اتحدت لهذه العلة، بل لعلها التحمت لعلة أخرى لم تعلمها أنت ولا غيرك. لعلها التحمت لا لعلة بل لنفسها، وإنما نزلنا في هذا المحل على تسليم الالتحام وإن كان باطلا بالبرهان ليتبين أن هذا المذهب هذيان»[٣].

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص١٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٩٥.

ع/ الاسترداد التاريخي:

يقوم هذا الأسلوب على استرداد الماضي تبعا للآثار التي خلفها[١]، واستنباط الدروس والعبر التي احتوتها الحقائق التاريخية التي وقعت في عهد ما من الحقب التاريخية.

واتجه الإمام القرطبي -رحمه الله- للاستدلال بالوقائع التاريخية لتأييد مواقفه ووجهات نظره الداعية إلى إقناع النصارى بدعوة الإسلام الخالدة، وكان من بين ما ذكره في هذا الصدد استدلالا على تحريف كتابهم المقدس وعدم تواتره الحوادث التي مرت باليهود، وأن التوراة مدة ملك بني إسرائيل كانت عند الكوهان الأكبر وحده، وعنه تُلقيت، وأن بخت نصر[٢] بعد أن قتل منهم من قتل أجلاهم إلى بابل ولم يبق منهم إلا عدد يسير لا يحصل العلم بقولهم، وذلك قبل خمسة قرون تقريبا قبل ميلاد المسيح- عليه السلام- ووقائع أخرى حدثت لهم بعد المسيح -عليه السلام- بأربعين سنة حتى فُرِّقوا في أنحاء المعمورة، وأن اليهود يعترفون بأن السبعين كوهانا اجتمعوا على تبديل ثلاثة عشر حرفا من التوراة في زمان القياصرة قبل المسيح -عليه السلام- وأن طائفة السامرية[٣] حرفوا التوراة تحريفا بينا، وهذه الحوادث التاريخية تؤكد على فقد التوراة طريق النقل الصحيح المحصل للعلم[٤].

---

(١) انظر: د. عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، ص١٩.

(٢) هو: بختنصر ابن الملك نابوبلصر، ملك بابل (أرض العراق العربي) عاش في القرن السادس قبل الميلاد، انتزع بلاد الموصل، وقتل اليهود ونهب بيت المقدس، فتشتت اليهود في البلاد، وقد تجبر ودعا الناس إلى السجود لتمثاله. انظر: محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ج٢، ص٥٠-٥١.

(٣) هم طائفة من اليهود ذكر ابن حزم أن توراتهم مختلفة عن توراة بقية اليهود، انظر: الفِصَل، ج١، ص٢٠٢.

(٤) انظر: القرطبي، الإعلام، ص١٩٠-١٩١.

أما ما يخص إثبات تحريف الديانة النصرانية وفق ما أثبتته الروايات التاريخية، فقد قال القرطبي: «ومما يدل على أنهم من كتابهم وشرعهم على غير علم ما استفاض في كتب التواريخ عندنا وعندهم...»[١]، ثم تناول تاريخ النصرانية منذ مبعث عيسى -عليه السلام- وذكر قصة بولس اليهودي في دخول الديانة النصرانية، وإسهامه في تحريفها، والاختلافات التي ظهرت منذ ذلك الحين في طبيعة المسيح، وافتراق النصارى إلى مذاهب شتى، وكيف أن القيصر قسطنطين بن هيلانة قد نصر المذهب المحرَّف، وابتدع الصليب، وأشار إلى ما وقع في مجامعهم ومحافلهم من اتفاقات، واختلافات، وتحريم الحلال، وتحليل المحرمات، بمحض التحكم والهوى[٢]، وقد أشار القرطبي إلى مدى مصداقية هذه الأخبار قائلا: «ولتعلم أن هذه الأخبار التي ذكرناها لا يمكنهم إنكار جملتها وإن أنكروا بعض تفاصيلها لكون هذه القصص معروفة على الجملة عندهم...ثم لو قدرنا أن هذه الوقائع لم تعلم صحتها، ولا كذبها فشرعهم قابل لأمثالها، فإن معظم معتمدهم في أمور دياناتهم إنما هو الإنجيل ونقله غير متواتر لا سيما والأحداث عندهم في أكثر الأحيان بمنامات يدعونها يجعلونها أصولا يعولون عليها...»[٣].

ومن الأخبار التاريخية التي استدل بها على نبوة محمد ﷺ الكرامات والانتصارات التي تحققت للصحابة -رضي الله عنهم- رغم قلة عَددهم وعُددهم[٤]، وأورد أيضا قصة هرقل ملك الروم مع أبي سفيان[٥] -رضي الله عنه- قبل إسلامه

(١) المصدر السابق، ص٢٤١.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص٢٤١-٢٤٧.

(٣) المصدر السابق، ص٢٤٦.

(٤) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٣٨٢.

(٥) هو صخر بن حرب بن أمية أبو سفيان القرشي، والد معاوية، ووالد أم حبيبة -رضي الله عنهم- زوج النبي ﷺ، أسلم عام الفتح، وشهد حنينا والطائف، مات في خلافة عثمان بن عفان -رضي الله عنه-. انظر: ابن حجر، الإصابة، ج٢، ص١٧٩-١٨٠.

وقد كاد هرقل أن يقود قومه إلى الإسلام لولا أنهم أبوا عليه، وأشار القرطبي أيضا إلى قصة سلمان الفارسي، ونصارى الحبشة، وأساقفة نجران[١] باعتبارها أحداثا تاريخية ينبغي الإفادة من عبرها، والحذر من تكرار الأخطاء التي سبق أن باء بها كثير من النصارى، والاسترشاد بالمواقف الإيجابية التي ظهرت من كثير من نصارى تلك الحقبة التاريخية؛ لأن هؤلاء النصارى الذين اختاروا من قبل طريق الإسلام، لم يكونوا جاهلين بكتبهم ولا بعلامات الأنبياء والمرسلين، بل كانوا على علم تام بذلك كله، وكانوا يحرصون على اتباع الحق أينما وجدوه.

ف/ المطالبة بالدليل والبرهان:

في كثير من الأحيان لا يكون للخصم أي دليل يتمسك به لإثبات دعواه، ويكون من الأنسب في مثل هذا مطالبته بالدليل الذي يؤكد دعواه، فإن لم يكن عنده فسوف ينقطع حينئذ ويخسر الجولة، والنصارى في كثير من مبادئهم وشعائرهم لا يعتمدون على دليل معتبر يستحق التمسك به، وقد أدرك القرطبي -رحمه الله- هذه النقطة فسلك في حوارهم أسلوب المطالبة بالدليل لبعض القضايا التي يؤمنون بها، فقال طالبا الدليل على أن رجال الدين لهم حق التشريع استنادا على أن الأنبياء شرعوا لهم أصل المصالح: «وإن كان الأنبياء شرعوا لكم أصل المصالح، فلا بد من الاستدلال على ذلك من كلامهم، وإذا لم تستدلوا على ذلك، فدعواكم باطلة وحجتكم داحضة»[٢]، وفي موضع آخر يطالب القرطبي محاوره بالاستدلال على فساد الدين الإسلامي بحكاية هذا الدين إن كان حقا يبني اعتقاده بصلاح النصرانية وفساد الإسلام على الدليل، وأراد أن يقنع المسلمين والنصارى بذلك، فقال: «ولقد كان ينبغي لك لو كنت على سنن النظار أهل البحث عن الحق والاعتبار أن تحكي ديننا، وتستدل بزعمك على فساده كما قد فعلنا نحن بدينكم»[٣].

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٣١٥-٣١٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٩٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٢١٨.

وقد أورد كذلك قول الله تعالى: ﴿هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[١] مطالبا النصارى بما يدل على نسخ أحكام التوراة التي أوّلها النصارى لمعان وأحكام ليس لها سند شرعي أو عقلي[٢].

ص/القلب:

القلب في اللغة: من قلبه يقلبه: حوّله عن وجهه، أو حوّله ظهرا لبطن[٣]، وفي الاصطلاح: «أن يبين القالب أن ما ذكره المستدل يدل عليه لا له، أو يدل عليه وله»[٤]، وهو من طرق النظر الصحيحة في الاعتراض على الخصم[٥]، وقد قلب القرطبي -رحمه الله- على مخاطبه دليله في قضية ظهور الله تعالى في صورة المسيح -عليه السلام- لأن النصراني اعتمد في إثبات هذه القضية على أن الله قادر على كل شيء، فقال القرطبي: «ثم إنا نقلب عليهم دليلهم، ونقول: هل يقدر الله تعالى أن يظهر نفسه من غير صورة، أم لا؟ فإن قالوا: يقدر، قلنا لهم، لا يحتاج إلى الصورة التي فرضتم، وإن قالوا لا يقدر، قلنا لهم فيلزمه العجز، وبالذي ينفصلون عن هذا به بعينه ننفصل نحن عما ألزمونا»[٦].

ق/ الاستدلال بالمشاهد المحسوس:

كان للاستدلال بما يعايشه المدعو ويحس به من الأساليب التي طرقها القرطبي -رحمه الله- وذلك أنه استدل على إثبات نبوة محمد ﷺ بمعجزات القرآن التي كانت أحد وجوهها في الإخبار بالغيب، والتي منها الوعد بإظهار الدين الإسلامي

---

(١) سورة البقرة، آية١١١.

(٢) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٢٠٧.

(٣) انظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٢١٦، مادة (قلب)

(٤) الشوكاني، إرشاد الفحول، ص٢٢٧.

(٥) انظر: الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ج٢، ص٥٦.

(٦) القرطبي، الإعلام، ص١٥١.

على الدين كله حيث قال تعالى: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾[١]، فقال إثباتا لهذا الظهور: «وحسبك شاهدا على ذلك فتح هذه الجزيرة الأندلسية على يدي جماعة من العرب قليل عَددهم وعُددهم، كثير دينهم ومددهم على أعداد من النصارى لا تحصى، وجنود لا تستقصى، ولكن صدق الله عبده، وأنجز وعده...»[٢].

وربط استدلاله لمعجزة انشقاق القمر بظواهر يشاهدها الناس ويحسون بها في حياتهم اليومية، وذلك لرد اعتراض قد يتبادر إلى ذهن المدعو ألا وهو: لو أن الانشقاق حدث حقا لما خفي على أهل الأرض كلهم، ولنقل متواترا عن أهل الأرض جميعا، فأبطل القرطبي هذا الاعتراض بثلاث نقاط محسوسة مشاهدة:

١- أن الآية ليلية، والناس من عادتهم المستمرة الغالب عليهم النوم في الليل.

٢- لعله كان في أول طلوع القمر، والناس تختلف رؤيتهم له بحسب مواقعهم، فليس كل الناس في المعمورة يرونه في وقت واحد، كما تجد ذلك في الكسوفات التي تختلف من بلد دون بلد.

٣- قد يحول بين قوم وبين القمر سحاب أو جبال، بالإضافة أن من كان في آفاق مكة قد رأوا القمر منشقا.[٣]

فهذه أمور محسوسة يعلمها الناس في أحوال القمر من اختلاف مطالعه، وتأثير الظروف الجوية، والأحوال الجغرافية على رؤيته زمانا ومكانا، ولا يجادل في هذا إلا مكابر أغمض عينيه عن شمس الحقيقة.

ر/ الاستدلال بالتعريف:

التعريف، هو: «قول يشرح به مفرد من المفردات التصورية الكلية أو الجزئية لإفادة المخاطب تصوّر هذا المفرد بكنهه وحقيقته، أو لإفادته تمييزه عما عداه تمييزا

---

(١) سورة الصف، الآية٩.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٣٣٩-٣٤٠.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص٣٤٩.

كامـلا»[1]، فـهـو إذن القـول الذي يحـدد المراد من إطلاق لفظ من الألفـاظ ويحـدده بحدود تجعله بعيدا عن الاختلاط بمعان أخرى قد يحتملها أو لا يحتملها.

أما المقصود بالاستدلال بالتعريف فهو: «أن يؤخذ من ماهية موضوع القول دليل الدعوى»[2]، فإن معرفة ماهية الشيء وحدوده تعين على تصور حقيقة الشيء وكنهه بشكل واضح، ومن ثم يمكن التعامل معه وفق هذه الحقيقة في الحكم عليه، واتخاذ موقف ما بشأنه، فمن خلال ماهية موضوع معين يمكن للمرء أن يصل إلى الحكم بصحة قضية ما أو بطلانها، كأن يتوصل من خلال معرفته لحقيقة الاتحاد والحلول مثلا إلى بطلان نسبتها إلى الله سبحانه وتعالى، ومن معرفته لحقيقة صفات الكمال إلى صحة نسبتها إلى الخالق عز وجل.

ولما كان للنصارى ألفاظ كثيرة يطلقونها في حق الله تعالى وحق المسيح عيسى ابن مريم -عليه السلام- سار القرطبي -رحمه الله- على أسلوب التعريف لكثير من المصطلحات؛ وذلك لبيان فساد الرأي الذي ذهب إليه النصارى، وصحة ما عليه أهل الإسلام من اعتقاد، فمثلا في بيانه بطلان اعتقاد إنزال الإنجيل الذي كان بيد النصارى في عصره من عند الله يورد القرطبي معنى الكتاب المنزل وحقيقته قائلا بأنه: «عبارة عن جملة من كلام الله المبلغة على لسان رسول من رسله يحكيها ذلك الرسول عن الله تعالى»[3]، وهذه الماهية لا تنطبق على إنجيل النصارى لأنهم يقرون بأن كتّابها أربعة، اثنان من تلاميذ المسيح -عليه السلام-، واثنان من تلاميذ التلاميذ.

وفي قضية الأقانيم الثلاثة التي يقول النصارى أنها ذات واحدة يعترض القرطبي على هذا القول بإيراد تعريفهم لكلمة الأقنوم القائل بأنها: «الشيء المستغني

(١) عبد الرحمن الميداني، ضوابط المعرفة، ص٦٢.

(٢) محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، ص٣١٦، ط، دار الفكر العربي.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٢٠٣. ولو قال: جملة من كلام الله...، بدلا من قوله: عبارة عن... لكان أولى، لأن كلمة عبارة قد توهم بعدم التصريح بأن الكتاب المنزل كلام الله سبحانه، وكذلك قوله «يحكيها» حتى لا يقال في القرآن بأنه حكاية عن كلام الله.

بذاته عن أصل جوهره في إقامة خاصة جوهريته»[1] فينفي أن تكون الأقانيم الثلاثة المتغايرة واحدا استنادا إلى تعريف كلمة الأقنوم.

وبرز هذا الأسلوب واضحا عند القرطبي -رحمه الله- عندما تحدث عن النبوات وإثبات نبوة محمد ﷺ حيث وضع مقدمتين لهذا الموضوع، فالمقدمة الأولى هي: عبارة عن تحديد وتعريف لبعض الألفاظ المتعلقة بالنبوات، فعرف معنى النبوة، والرسالة، والمعجزة، فقال: «فالنبي عند عقلاء أهل الشرائع إنما هو حيوان ناطق مائت كامل في نوعه مخبرا عن الله تعالى بحكم إما مشافهة أو بواسطة ملك، أو ما تنزل منزلته»[2] وعرف الرسالة بأنها: «الكلام المبلغ عن الله»[3]، ثم ذكر الدليل الذي يتحدى به وهي المعجزات فعرفها بأنها: «أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة»[4]، وكان القرطبي -رحمه الله- يشرح مفردات هذه التعريفات بالتفصيل ويبين محترزاتها، ثم تحدث في المقدمة الثانية عن عيسى -عليه السلام- وعلاقته بالمعجزات ، وتحدث عن تاريخ الديانة النصرانية ثم ذكر حصيلة المقدمتين قائلا: «فقد تحصل من هاتين المقدمتين معنى النبوة وبيان شروطها، وأن عيسى -عليه السلام- نبي ورسول إذ قد كملت فيه شروط الرسالة وأنه ليس بإله»[5].

والحاصل أنه بتحديد معنى الألفاظ وتعريف ماهية المصطلحات وجد أنها تنطبق انطباقا تاما على عيسى -عليه السلام- فتوصل إلى إثبات النبوة له وأحقيته بها، وبطلان عقيدة النصارى في رفعه إلى مرتبة الألوهية التي لا يستحقها، ولا ادعاها هو أصلا.

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٦١، وقد ذكر تعريفا لأحد القسس (صاحب كتاب الحروف) لكلمة الأقنوم في موضع آخرلا يختلف عن هذا التعريف في ص٧٩، .

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٢٣٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٣٨.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٣٩.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٥١.

المطلب الثاني

قيمة الاستدلال بالمعقول في دعوة النصارى

ميز الله سبحانه وتعالى الإنسان بما وهبه له من عقل يدرك به الصواب والخطأ، ويتعاطى به المعارف والعلوم، ويسترشد به في حياته، ولئن كان للعقل حدود زمانية ومكانية لا يمكنه تجاوزها إلا أن العقل «بما لديه من موازين فطرية يعتبر حَكَماً يرجع إليه في تمحيص المدركات بالحس، وتمحيص ما تتضمنه شهادات الآخرين وأخبارهم من معارف، فيجزم بما يراه حقا يقينا، ويقبل ما يترجح لديه منها، ويطرح ما يشك به أو ينزله إلى ما دون الرجحان، ويرفض ما يحكم بامتناعه واستحالته بناء على قوانينه الذاتية»[1].

ولا ريب أن أدلة العقل السليم توافق النقل الصريح، وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- تأكيدا لهذه المقالة كتابه المسمى «درء تعارض العقل والنقل» أو «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول»، والقرآن دعا الناس لاستعمال عقولهم في الوصول إلى الحقيقة ودعاهم إلى التفكر والتدبر، قال تعالى: ﴿**أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين، أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون**﴾[2].

وعند الحديث عن قيمة هذا الأسلوب ينبغي النظر إلى البيئة التي يعيش فيها الداعي والمدعو، فإن البيئة تؤثر في أسلوب الداعية، فإذا شاع الأسلوب العقلي في طرح القضايا العلمية في بيئة من البيئات أو عصر من العصور، فإن المسلك العقلي يجد أرضا مناسبة لإقناع المدعوين، بينما لو كان المدعو من ذوي الفطر السليمة، فلن يحتاج الداعية إلى الإغراق والتعمق الشديد في الأساليب العقلية.

و بالنظر إلى سبب تأليف كتاب الإعلام فإن الأسلوب العقلي الذي سلكه

---

(١) عبد الرحمن الميداني، ضوابط المعرفة، ص١٣٤.

(٢) الأعراف، آية ١٨٤-١٨٥.

القرطبي يعد مناسبا للمدعو، لأن المدعو في أثناء حواره كان يسلك هذا المسلك مما يدل على إيمان المدعو بأن هذا الأسلوب موصل إلى الإقناع للأمر المدعو إليه، فالمدعو إذن يرى أن الأسلوب العقلي من الأمور التي توصل إلى العلم اليقيني.

ومما يجدر ملاحظته في هذا المقام الذي يتضح فيه أهمية الاستدلال العقلي، أن هناك أمورا لا يمكن للعقل البشري وحده أن يصل فيها إلى الحقيقة، وذلك مثل الأمور المتعلقة بالغيب، وهذا يعني أن للعقل حدودا ينبغي أن لا يتجاوزها وأن يتنبه الداعية لها في أثناء دعوته كي لا يقع في هذه المزالق، وبخاصة عندما يحاور أهل العقائد المنحرفة، فإنهم قد يجرونه إلى استخدام ألفاظ ومصطلحات وأساليب غير مقبولة شرعا.

وقد اتجه القرطبي -رحمه الله- إلى مخاطبة النصارى بأسلوب عقلي في كثير من النقاط التي خالف النصارى فيها المسلمين، وذلك لأن الله قد فطر الناس جميعا على العقل السليم، ومما شجعه على سلوك هذا المسلك أيضا أن النصراني الذي وضع كتاب تثليث الوحدانية كان يحاول أن يسلك أساليب الجدل العقلي والاستدلالات المنطقية في دعم عقائد ديانته النصرانية وشعائرها، كما أن مؤلفات قسس النصارى التي نقل عنها القرطبي بعض النصوص تعطي الجانب العقلي في الاستدلال عناية ملحوظة[(١)].

وهذا بالتأكيد يجعل لأسلوب الاستدلال بالمعقول في مخاطبة النصارى ودعوتهم إلى الإسلام أهمية عظيمة وقيمة كبيرة، فمادام الطرف المقابل يتعاطى الدليل العقلي ويتعامل به ويحاول إثبات مذهبه به، فإن إبطال دعاويه بالطريق الذي اختاره، وبما اعتبره دليلا مقبولا مما يقوّي الحجة والبرهان، ففي «الحوار مع مجموعة بشرية محددة مثل اليهود أو النصارى فإن الأدلة والبراهين في العادة ترتكز على علم يقيني ودقيق لماضي تلك المجموعة وحاضرها ومستقبلها ومصيرها أيضا»[(٢)].

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٥٤، و١٤٥.

(٢) د. إسماعيل صيني، مدخل إلى الإعلام الإسلامي، ص٢٦٥.

والملاحظ في استدلالات القرطبي العقلية أنها متنوعة، والكثير منها مما يسهل فهمه على جميع مستويات عقول الناس لاستناده إلى الفطرة السليمة البسيطة، التي تجعل «البرهان يأتي قويا ويتسم بالديمومة»[١]، فمعرفة الأمثال العقلية وأقيستها مثلا مما فطر الله الناس عليها، وهو ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾[٢] فالميزان هو ميزان عادل يتضمن اعتبار الشيء بمثله وخلافه، ومن أعظم صفات العقل التي فطر الله عباده عليها معرفة التماثل والاختلاف، لذا فإن الرسل ضربت الأمثال العقلية للناس، وأرشدتهم إلى ما يعرفون به العدل والأقيسة العقلية الصحيحة، بل الرسل -صلوات الله عليهم- بينت العلوم العقلية التي بها يتم دين الناس علما وعملا، وبيّن الله ورسوله الحقائق بالمقاييس العقلية والأمثال المضروبة ، وبطريق التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين[٣].

فتوجيه الخطاب لعقل الإنسان بغرض توضيح الحقائق وبيانها له أسلوب علمي وعملي يفيد في دعوة النصارى إلى الإسلام، بل في دعوة الناس عموما إلى الحق.

ولدى تتبع الأساليب العقلية التي سلكها القرطبي -رحمه الله- يظهر للعيان تعدد أنواعها كما هو واضح في المطلب السابق، ففيها قياس الشمول والتمثيل، وهو «حجة في إثبات الأحكام العقلية وطريق من طرقها»[٤]، ويعطي التمثيل الحجاج برهانا أنور، وبيانا أبهر، وشأوا أبعد[٥]؛ لأن الأمثال نموذجات الحكمة لما غاب عن

---

(١) سعيد صيني، مدخل إلى الإعلام الإسلامي، ص٢٤٢.

(٢) سورة الشورى آية: ١٧.

(٣) انظر: ابن تيمية: الرد على المنطقيين، ص٣٧١، ٣٨٢.

(٤) الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ج١، ص١٧٨.

(٥) انظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص٩٤، تحقيق محمد رشيد رضا، ط، دار المطبوعات العربية.

الأسماع والأبصار الظاهرة، فإذ ضُربت الأمثال صار الأمر كالمعاينة فسكنت النفس وانقاد القلب، لأن النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام، وتنفر من الغربة، وقد وصف الله الذين يعقلون الأمثال ويفهمون مراميها بالعلماء[١] قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾[٢].

ولذلك جاءت الأمثال في القرآن بشكل ملحوظ، واختير لها لفظ الضرب لأنها تأتي عند إرادة التأثير وهيج الانفعال[٣]، بغرض تقريب صورة المعنى الممثل له إلى ذهن المخاطب، وإقناعه بفكرة ما يهدف القرآن إلى نشرها بين الناس[٤].

إذن فالقياس بنوعيه أسلوب عقلي له قيمته في دعوة النصارى، وهو حجة قوية يفيد اليقين إذا اعتمد على مقدمات يقينية على رأي الإمام ابن تيمية -رحمه الله-[٥]، وإن كان يرى البعض أن إفادة التمثيل القطع بالحكم يحتاج إلى شروط يتعذر استيفاؤها[٦].

وقد حرص القرطبي -رحمه الله- على أن يبين انقطاع النصارى في حججهم بالأدلة العقلية سواء ما تناوله في إثبات نبوة محمد ﷺ بالمعجزات عن طريق القياس، أو التمثيل: كحكمه بنبوة عيسى -عليه السلام- لا ألوهيته أو بنوته لله

---

(١) انظر: محمد بن علي الحكيم الترمذي، الأمثال من الكتاب والسنة، ص٢٠٤، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط، دار التراث، القاهرة. وابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ص٢٣٩-٢٤٠، راجعه وقدم له وعلق عليه، طه عبد الرؤوف سعد، ط، دار الجيل، ١٩٧٣م، بيروت.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٧٤.

(٣) انظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج١، ص٢٣٦.

(٤) عبد الرحمن الميداني، الأمثال القرآنية، ص٣٩.

(٥) انظر: ابن تيمية، الفتاوى، ج٩، ص١٨-٢٠.

(٦) انظر: عبد الرحمن الميداني، ضوابط المعرفة، ص٣.

تعالى تمثيلا لحالته بحالة آدم -عليه السلام-، وتمثيل معجزات محمد ﷺ بمعجزات موسى وعيسى -عليهما السلام-، للحكم على محمد ﷺ بالنبوة، ...الخ.

وأبرز القرطبي تناقض أقوال النصارى وتضمنها المحال في توحيد الله وتثليثه، وفي قصة صلب المسيح -عليه السلام-، ومعلوم أن من نقض ببعض كلامه بعضا، وأدى قوله إلى المحال العقلي أو الشرعي فقد انقطع[1] عن الحجة، وثبت عجزه عن إقامة البينة.

فالتناقض الذي في الديانة النصرانية يعد من القضايا التي يستحسن مناقشتها وإظهارها من قبل القائمين بأمر الدعوة إلى الإسلام: كالتناقض البين بين المبادىء والأخلاقيات التي يرفع شعارها قساوسة النصارى ورهبانهم وبابواتهم وبين تصرفاتهم غير الأخلاقية ضد الشعوب[2].

وفي استخدام القرطبي -رحمه الله- لأسلوب الاستقراء يبدو أنه اعتمد على الاستقراء التام[3] الذي يفيد اليقين، لأن الظاهر من كلامه أنه استقرأ الكتاب المقدس الذي بيد النصارى ليثبت عمليا ما أثبته القرآن الكريم من قبل بأن الكتاب المقدس عند النصارى محرف ومغير، واستقرأ أيضا بعض النصوص الخاصة بقضية معينة استقراء تاما: كقضية الصلب مثلا. وحتى إذا لم يستقرئ الكتاب المقدس استقراء تاما فإن حكمه عليه بالتحريف يمكن الوصول إليه بالاستقراء

(١) انظر: الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ج٢، ص٥٧.

(٢) انظر: عبد الله بن محمد العوشن، كيف تقنع الآخرين، ص١١٧، ط٣، دار العاصمة، ١٤١٧هـ الرياض.

(٣) ينقسم الاستقراء إلى تام وناقص، فالتام: هو الذي يتم فيه استيعاب جميع جزئيات الشيء الذي هو موضوع البحث، بالنظر والدراسة العلمية، وقد يفيد اليقين، وأما الناقص: فهو الذي تدرس فيه بعض جزئيات أو أجزاء الشيء الذي هو موضوع البحث، وقد يفيد الظن بالحكم الكلي، ولا يفيد اليقين به. انظر: عبد الرحمن الميداني، ضوابط المعرفة، ص١٩٣-١٩٥.

الناقص؛ لأن الحكم الذي كان يريد الوصول إليه في مسألة تحريف التوراة أو الإنجيل يكفيه أن يجد نصا واحدا يدل على دخول يد التحريف عليه في أي جزء من أجزائه للحكم على التوراة كاملا أو الإنجيل الذي بيد النصارى آنذاك بأنه محرف ومبدل. وعلى هذا فإن دعوى النصارى وعقيدتهم القائلة بأن كل ما في الكتاب الذي بين أيديهم وحي من عند الله تعالى باطلة.

واستخدم القرطبي أسلوب الاحتجاج بالتواتر في إثبات نبوة محمد ﷺ بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية، وفي نفي ما جاء من ضلالات لا يصح نسبتها إلى الله تعالى أو أنبيائه المكرمين في الكتاب المقدس الذي بين يدي النصارى، وهذه من أهم النقاط التي تؤخذ على الديانة النصرانية، فهي تفتقد السند المتصل المتواتر في نقل نصوص التوراة والإنجيل، والتواتر طريق صحيح في الاحتجاج وإثبات الدعاوى.

ومما استخدمه القرطبي أيضا أسلوب المقارنة، وهو مفيد في بيان فساد الديانة النصرانية، سواء أكان ذلك بمقارنة حفظ الله القرآن الكريم مقابل التحريف والتبديل الذي أصاب الكتب النصرانية، أم بالمقارنة بين مبدأ التثليث في الدين النصراني وبين التوحيد الخالص في الإسلام، وهو ما تشهد به التجارب التي عاشها بعض النصارى الذين أسلموا، يقول منصر من دولة غانا اعتنق الإسلام: «لم يكن لي خيار من المقارنة بين مبدأ توحيد الله في التصور القرآني، وبين اعتقادي في الثالوث كمسيحي، فوجدت أن المبدأ الأخير أدنى بكثير من المبدأ الإسلامي»[(١)]. ويقول هندي آخر أسلم بعد أن كان نصرانيا: «إن دراستي للقرآن الكريم وضحت أمام ناظري العديد من الإشكالات الفكرية وصححت الكثير من التناقضات التي طالعتها في الكتب السماوية»[(٢)].

---

(١) عرفات كامل العشي، رجال ونساء أسلموا، الحلقة ٩، ص٥٤-٥٥، ط١، دار القلم، ١٤٠١هـ ١٩٨١م، الكويت.

(٢) المصدر نفسه، الحلقة ٧، ص١١٨.

فأسلوب المقارنة جيد في نقل أهل الأديان والملل من باطلهم إلى الحق[١]؛ لأنه يساعد المرء على أن يرى الإيجابيات والسلبيات التي تتوفر في الموضوعات المقارنة، ويتعرف على الفروق الجوهرية التي بينها، وأي منها تؤيده الدلائل العقلية والشرعية، ومن ثم يمكن اتباعه وفقا للمرجحات التي توفرت لدى الإنسان الذي يقارن بين القضايا التي بين يديه. أو قد لا تكون هناك أصلا فروق جوهرية بين القضايا المقارنة مما يستلزم وحدة الحكم على المقارَن كما توصل القرطبي إلى اتفاق المجوس والنصارى في بعض القضايا العقدية من خلال المقارنة.

وفي أسلوب التحدي مبالغة في إظهار قوة المتحدي وعجز المُتحدَّى، ولا يخاطر بالتحدي إلا من كان يثق بقوة حجته وعجز خصمه، وهو أسلوب يراد به إفحام الخصم وتعجيزه وإسقاط كلامه، وبخاصة إذا كان الخصم من الماحكين الذين يستهويهم الجدال، وإثارة الشبه، والاستهزاء بالحق، والإساءة إلى الفكر السديد[٢].

وتظهر قيمة أسلوب مخاطبة المدعو باستعمال المسلمات لديه في إفحام الخصم المعاند، وإرشاد المسترشد وإقناعه، وإغراء المدعو لما يدعى إليه؛ ليحصل له الاعتقاد بالحق، بأقرب طريق، وذلك عندما لا تنفع معه البراهين التي قدمت إليه[٣]، ولهذا حرص القرطبي على مخاطبة النصارى بما يسلمون به من كتبهم المعتبرة، ومما اتفق عليه العقلاء جميعا، حتى يقطع الطريق عليهم بإظهار تناقضهم، وفساد رأيهم، ويلزمهم بقبول حجته.

وكان القرطبي مدركا لاستخدامه الأسلوب العقلي في مخاطبة النصارى، فعلى سبيل المثال عندما استخدم أسلوب التسليم الجدلي يقول معللا سبب استخدامه لهذا المسلك: «وذلك أن أرباب النظر ربما يسلمون ما هو معلوم الفساد ليتبين

---

(١) انظر: د. علي عبد الحليم، فقه الدعوة إلى الله، ج١، ص٢١٩.

(٢) انظر: أحمد نافع المورعي، الحكمة والموعظة الحسنة، ص٤٤٦، رسالة دكتوراه، ط، دار الأندلس الخضراء، ١٤١٨هـ ١٩٨٠م، بيروت ويحيى زمزمي، الحوار، ص٤١٦.

(٣) انظر: محمد المظفر، المنطق، ص٣١٦، ومحمد الوكيل، أسس الدعوة، ص١٣٨.

تناقض الخصم وتحكمه للعباد»[١].

فهذا النوع من أنواع الاستدلال فيه جذب انتباه الخصم والنزول معه في الموقف الذي يتبناه، حتى يدرك إلى أين يقود حقيقة القول الذي يتمسك به، ولعله يظن أنك إذا سلمت بقوله لا يمكنك الانفكاك منه، وأنك لا محالة ستصل إلى النتيجة التي وصل إليها. ولكنه عندما يكتشف أنك استطعت أن تبطل قوله بالرغم من التسليم بما يسلم به؛ فإنه حينئذ يدرك خطأ موقفه وضعف دليله، وهشاشة رأيه.

إذن ففي هذا الأسلوب العقلي الدعوي «استدراج للخصم واستجلاب لإصغائه، وربما كان من الممكن بهذه الطريقة ثنيه عن الإنكار، بعد بيان فساد العلاقة بين القضية المسلمة والنتيجة التي رتبت خطأ عليها»[٢].

أما استرداد الأحداث التاريخية في إقناع المدعو النصراني فإنه لا يخلو من بعض المخاطر التي ينبغي التنبه لها؛ لأن الروايات التاريخية التي يستخلص منها النتائج يعز إثبات الحق أو غيره منها، لأن الكثير من الأحداث التاريخية تفتقد السند المتصل المتواتر الذي يفيد اليقين، أو سندا يفيد الظن، وبخاصة الروايات النصرانية للأحداث التاريخية لحياة المسيح -عليه السلام- أو حياة الطائفة الأولى من أتباع الديانة النصرانية، بل إن الروايات الإسلامية لكثير من الأحداث التاريخية لا ترقى إلى مرتبة الاحتجاج. إذن فالعمدة في مثل هذا الأسلوب يجب أن تكون الروايات التاريخية التي تؤيدها مصادر موثوقة كالقرآن الكريم، والسنة النبوية الصحيحة، والروايات التاريخية الموثّقة، وإذا كان لا بد من الاستدلال بما لدى النصارى من روايات تاريخية فلا ينبغي أن يكون ذلك أكثر من الاستدلال بمسلمات الخصم أو من باب التسليم الجدلي الذي يقصد به إفحام الخصم وإظهار انقطاعه.

والحقيقة أن الروايات التاريخية إذا استوفت الشروط فإن لها إسهاما في كونها دليلا في يد الداعية يثبت بها دعواه ويدحض بها دعوى الخصم، وإذا بيّن الداعية

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص١٥٠.

(٢) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص٤٠٧.

للنصارى بعض مبادئ الإسلام وشريعته مستدلا بقصص الأنبياء الذين يعترفون بهم؛ فإن وقع ذلك عليهم سيكون مثيرا للانتباه، ومقبولا بعض الشيء، وداعيا لهم للتمهل والتفكر بشكل جدي.

وبصفة عامة فإن الأحداث التاريخية يستفاد منها في إثبات كثير من القضايا التي يراد إقناع النصارى بها، ومن ذلك إثبات نبوة محمد ﷺ؛ ولذلك يقول ابن تيمية -رحمه الله-: «وأما إثبات نبوة الأنبياء بما فعله [الله] بهم وبأتباعهم من النجاة والسعادة، والنصر وحسن العاقبة، وما جعله لهم من لسان الصدق، وما فعله بمكذبيهم ومخالفيهم من الهلاك والعذاب، وسوء العاقبة، وإتباعهم اللعنة في الدنيا مع عذاب الآخرة، فهذا يدل -مع صدق الأنبياء- على الرغبة في اتباعهم والرهبة من مخالفتهم، ففيه العلم بصدقهم...»[(١)].

وفي استعمال القرطبي -رحمه الله- لأسلوب الاستدلال بالتعريف تظهر قيمة هذا الأسلوب في ضبط المفاهيم والمصطلحات وتحديدها بين المتحاورين، والحد من بناء كل طرف حجته وفق مفهوم مخالف للطرف الآخر، الذي يجعل من المستحيل التقاء الطرفين وتفاهمهما، وإقناع أحدهما الآخر.

أما إذا تم تحديد المراد من المصطلحات التي يطلقها الطرفان، فإن ذلك يعين على الانطلاق من مفاهيم ثابتة متفق عليها، ومن ثم يخف الجهد المبذول للوصول إلى الحق، وقناعة أحد الطرفين أو التشبث برأيه عن بينة.

«فكل إدراك تصديقي لا ينفك عن إدراكات تصورية في ضمنه سابقة له في حصول الإدراك»[(٢)]، والإجمال في بعض الألفاظ يؤدي إلى اضطراب حبل التفاهم بين المتنازعين، فيذهب كل واحد بما يختلج في ذهنه من المعاني، فتكون الصورة

---

(١) ابن تيمية، الجواب الصحيح، ج٦، ص٤٢٦.

(٢) الميداني، ضوابط المعرفة، ص١٩، «التصور هو إدراك أي مفرد من مفردات الأشياء والمعاني، والتصديق: هو إدراك النسبة بين مفردين فأكثر، وهذه النسبة إما موجبة وإما سالبة، أي مثبتة أو منفية» انظر: المصدر نفسه، ص١٨

التي في ذهن كل منهما مختلفة عما في ذهن الآخر أو مشوشة، فيبني كل منهم منطقه عليها فلا يستقيم الحال[١].

وهذا الأمر لا يقتصر على عمليات الحوار والجدل والمناظرات التي يتم فيها تبادل الحديث بين أكثر من طرف، بل إنه يشمل جميع أشكال الاتصال بالناس، فإذا لم يدرك المدعوون مفاهيم الألفاظ التي يرسلها إليهم الداعية على شكل خطبة أو كلمة مذاعة أو غيرها من أشكال الاتصال؛ فإنهم لن يفهموا رسالته بالشكل الذي أرادها الداعية، ولن يتأثروا ويقتنعوا بما يدعوهم إليه، بل لعلهم فهموا عكس ما أراد فانقلب الثناء ذما، والمدح هجاء، ولم يقدر أن يوصل شيئا مما أراد.

---

(١) انظر: محمد المظفر، المنطق، ص١٠٥.

المبحث الثالث

أسلوب القرطبي العاطفي والفني في دعوة النصارى وقيمتهما

المطلب الأول

الأساليب العاطفية

العاطفة في اللغة من عَطَف يعطِف، أي مال، وعطف عليه، أي: أشفق،[١] وجاء في المعجم الوسيط أن العاطفة: «استعداد نفسي ينزع بصاحبه إلى الشعور بانفعالات معينة والقيام بسلوك خاص حيال فكرة أو شيء»[٢].

وقد عرفها البعض مبينا تأثيرها على العقل قائلا بأنها: «كل اضطراب أو نهج يحدث في العقل أو الشعور، أو هو أية حالة حادة للاضطراب العقلي»[٣]، وهذا التعريف فيه شيء من التعميم، فالاضطراب العقلي قد لا يكون سببه انفعالا عاطفيا.

وتُصنف العواطف إلى مجموعة من الانفعالات والمشاعر الأساس التي تضم تحتها عددا من الانفعالات، وهذه الانفعالات الأساس هي: الغضب، والحزن، والخوف، والمرح، والحب، والازدراء، والدهشة، والعار[٤].

---

(١) انظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج٢، ص١١١٦، مادة (عطف).

(٢) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ج٢، ص٦١٤، مادة (عطف).

(٣) محمد عبد الرحيم عدس، دور العاطفة في حياة الإنسان، ص٣٣٩، ط١، دار الفكر، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م، عمان، الأردن.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٣٩. وقد يستخدم البعض الوجدان بدلا من العاطفة، ويعرف الوجدان بأنها «كلمة تشمل جميع الأحوال النفسية التي يقوى فيها شعور الإنسان بما يصاحبها من لذة وألم، فالجوع والعطش والحب والبغض والسرور والحزن، واليأس والرجاء كلها وجدانات تصل إلى النفس فتحدث بها لذة أو ألما» محمد الفقي، النفس أمراضها وعلاجها في الشريعة الإسلامية، ص٥٧، ط١، مطبعة محمد علي صبيح، ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م، القاهرة.

ولعل التعريف الذي ورد في المعجم الوسيط يتوافق مع المقصود من هذه الكلمة في هذا المطلب، ويخدم التعريف الاصطلاحي.

فالأسلوب العاطفي في الاصطلاح الدعوي: هو الأسلوب الذي يركز على مخاطبة القلب وتحريك الشعور والوجدان، أو هو الذي يتسم بمخاطبة المشاعر والوجدان أكثر مما يخاطب العقل كالموعظة الحسنة بالتذكير بنعم الله، والترغيب والترهيب، والثناء، والمدح، والوعد والوعيد، والقصص العاطفية...الخ.[1]

فإذا خاطب الداعية وجدان المدعو، وحاول إحداث انفعالات نفسية عليه، وهز مشاعره، والتأثير عليه، وإمالة قلبه إليه دون أن يدعم حديثه بالمقاييس العقلية، والتجارب العلمية، فإن ذلك يعد من الأسلوب العاطفي في الدعوة إلى الله.

فالإنسان يمتلك العقل ويمتلك العاطفة، ولكل منهما ميدانه ووظيفته في حياة الإنسان، وتأثيره على سلوكه وتصرفاته، فلا يقوم العقل مقام العاطفة، ولا تقوم العاطفة مقام العقل[2]، لذلك فإن مخاطبة الإنسان ودعوته بطَرْق الجوانب العاطفية فيه مما ينبغي أن يحرص عليه الداعية ولا ينساه في أثناء حواراته، ومناقشاته، وخطبه، وأحاديثه الدعوية، بالقدر الذي يراه مناسبا لموضوع الدعوة وشخصية المدعو.

ومن هذا المنطلق أخذ القرطبي -رحمه الله- في حواره مع النصارى بهذا الأسلوب، ولم تنسه المقاييس العقلية في الاستدلال أن يحاول مخاطبة مشاعر النصارى ويحرك وجدانهم في سبيل رؤية الحق واتباعه.

١) أنواع الأساليب العاطفية عند القرطبي في دعوة النصارى:

تعددت أنواع الأساليب العاطفية عند القرطبي في مخاطبة النصارى ودعوتهم إلى الإسلام، ومن هذه الأنواع:

---

(١) انظر: د. محمد البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، ص٢٠٤-٢٠٧، و انظر: سعيد صيني، المدخل إلى الإعلام الإسلامي، ص٢٥١..

(٢) انظر: محمد عبد الرحيم، دور العاطفة في حياة الإنسان، ص٣٥٣.

أ/ الترغيب والترهيب:

الترغيب في اللغة: من رَغِب فيه، رغْبا، أراده،[(١)] وللكلمة «أصلان، أحدهما: طلب الشيء، والآخر سَعة في شيء، فالأول: الرغبة في الشيء الإرادة له، رغبت في الشيء، فإذا لم ترده قلت رغبت عنه»[(٢)].

والترهيب في اللغة: من رَهِب، رهبة، ورهْبا، ورُهْباناً أي خاف[(٣)]، ولها أصل آخر «يدل على دقة وخفة»[(٤)].

وأما في الاصطلاح فإن الترغيب هو: «ترغيب المدعو في الإسلام والرقي فيه من خلال مكاسب دنيوية وأخروية»[(٥)].

والترهيب: «كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله»[(٦)].

وعلى كل فإن المقصود بالترغيب هنا هو: إثارة مشاعر الشوق في نفس المخاطب للحصول على أمر محبب لديه.

والمقصود بالترهيب هو: إثارة مشاعر الخوف في نفس المخاطب من أمر يكره أن يلم به، وذلك طبعا لتحقيق هدف دعوي.

ويتقارن الترغيب والترهيب في الاستخدام غالبا، وهذا شائع في القرآن الكريم،

---

(١) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج١، ص١٦٩، مادة (رغب).

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٢، ص٤١٥.

(٣) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج١، ص١٧١، مادة (رهب).

(٤) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٢، ص٤٤٧.

(٥) سليمان بن عبد العزيز الدويش، أسلوب الترغيب في دعوة النبي ﷺ، مقوماته- مجالاته- آثاره، ص٧، رسالة ماجستير، كلية الدعوة بالرياض، ط، غير منشورة.

(٦) عبد الكريم زيدن، أصول الدعوة، ص٤٢١.

«فإذا ورد فيه الترغيب قارنه الترهيب في لواحقه،أو سوابقه أو قرائنه، وبالعكس...»[١] ولذلك أهمية بالغة في دعوة الناس، لأن «للنفس ميلاً غريزيا إلى ما فيه لذتها ونفورا طبعيا عما فيه ألمها»[٢]وقد يكون الترغيب والترهيب ماديا، أو معنويا، ويكون بما يحصل في الدنيا أو في الآخرة من خير أو شر، أو بما فيهما معا، وهو أسلوب حكيم أرشد القرآن إليه وسلكه الأنبياء والرسل من قبل.

والأصل في الترغيب أن يكون في كسب رضا الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة، وقد يكون بما يصيبهم من الخير العميم، والنصر والفوز والعزة والأمن والطمأنينة في الحياة الدنيا... وغيرها، كما أن الأصل في الترهيب أن يكون بالله تعالى وبصفاته، مع عدم الغفلة عن التخويف بعقاب الله في الدنيا والآخرة، [٣].

فالنفوس البشرية تختلف من فرد إلى آخر، فمنها من لها قابلية لتلقي الحق، واستعداد قوي لتقبل الخير، فترغب في كل ما هو خير وتهفوا إليه، ومن النفوس من رانت الشهوات عليها، وغطاها عن النظر إلى الحق ظلام المعاصي ومقارفة المنكرات، فلا تفيق إلا بقوارع الزجر والترهيب، ولا تسمع إلا صوت التخويف والتنديد؛ لذا فإن المزاوجة بين الترغيب والترهيب في توجيه الرسالة الدعوية لا يخلو من فوائد دعوية.

وفي استخدام القرطبي -رحمه الله- لهذا الأسلوب يلاحظ عليه التركيز على جانب الترهيب، أكثر من جانب الترغيب، ومما ذكره في جانب الترغيب أنه بعد أن خوف النصراني من الموقف المخجل الذي ينتظره يوم القيامة إن استمر على كفره قال: «فذلك المقام لا ينفعك فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل إلا ما قدمت يداك من

(١) إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ج٣، ص٢٧٣، تحقيق: عبد الله دراز، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ، ١٩٩١، بيروت.

(٢) محمد الفقي، النفس أمراضها وعلاجها، ص٦١.

(٣) انظر: د. توفيق الواعي، الدعوة إلى الله، ص٢٠٢-٢٠٥. ورقية بنت نصر الله نياز، الترهيب في الدعوة في القرآن والسنة، ص٢٦-٣٠، رسالة ماجستير، ط، غير منشورة.

حسن إيمان وصالح عمل، وسعادة قضت لك بها سابقة الأزل، فإن الملائكة والنبيين لا يشفعون إلا لمن ارتضى رب العالمين. فالله، الله، انظر في خلاص نفسك لتجني ثمار غرسك»[١].

فالقرطبي يناشد النصراني بالله ويرغبه في الإيمان بالواحد الأحد، والعمل الصالح للحصول على شفاعة الملائكة والأنبياء والمرسلين، ليجد ثمار ذلك في يوم الدين، بالدخول إلى جنة رب العالمين.

أما في جانب الترهيب فقد أكد على العقاب الأخروي الذي ينتظر النصارى إن هم لم يتركوا العقيدة الباطلة التي هم عليها، فقال لهم: «وستقفون بين يديه، ويسألكم عما افتريتم عليه، فتحيط بكم النيران، وتجركم على وجوهكم إليها ملائكة غلاظ شداد لا يطيقهم إنسان **﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة، أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾**[٢] فتنادوا إذ ذاك يا أسقفنا (بولش) انظرنا. فما منا إلا متحرق عاطش، فيقال لكم: هو في أسفل سافلين، فتصيروا إليه أجمعين، فإذا اجتمعتم معه لعن بعضكم بعضا، وجحد بعضكم بعضا»[٣].

في هذا النص يحاول القرطبي -رحمه الله- أن ينقل صورة مرهبة لما سيكون عليه النصارى يوم القيامة مستفيدا من الآيات القرآنية التي تصور وضع الكافرين يوم القيامة إما بإيرادها نصا، أو الإشارة إليها بذكره تبادل اللعن والجحود بين أهل النار، كما قال تعالى: **﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار، كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار، قال لكل ضعف ولكن لا تشعرون، وقالت أولاهم لأخراهم فما**

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص١٢٢.

(٢) سورة الزمر، آية: ٦٠.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٣٩٩.

كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾[١].

وفي موقف آخر يخاطب صاحب كتاب تثليث الوحدانية على وجه الخصوص مخوفا إياه بعذاب النار قائلا: «وأما أنت فإن مت مصرا على تكذيبك فليدخلنك الله النار، وليدخلنك في دار البوار، فلا تنتفع بشفاعة ملك مقرب ولا نبي مختار»[٢].

وكان يسعى القرطبي إلى إخافة المدعو بربطه ببعض المسلمات التي يدين بها حتى يكون الخوف على أشده، فبعد أن يذكر بعض الفقرات من الكتاب المقدس لدى النصارى التي فيها بشارة النبي حبقوق بمحمد ﷺ يقول: «فهذا النبي الصادق المصدق قد أفصح بنعته، وصرح باسم بلده، وشهد بصدقه، ومن كان الأنبياء شهوده فقد استحق مكذبه عذاب النار وخلوده»[٣].

أما ما يخص بشأن ترهيب المدعو بما يحصل له في الدنيا من مكروه، فإن القرطبي –رحمه الله– قد أورده على صيغة دعاء عام لم يوجهه إلى المخاطب وحده، بل إلى من لا يرجع عن الحق بعد ما تبين له، وإن كان هو ذاته، فقد أدخل نفسه في الدعاء، حيث قال: «وأنا أسأل الله العظيم، رب العرش الكريم، بأسمائه الحسنى، وصفاته العُلى، وبحق آدم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم، وممن بينهم من النبيين والمرسلين، وبالملائكة المقربين، وأهل طاعته أجمعين،[٤] أن يلعن من لا يرجع

---

(١) سورة الأعراف، آية:٣٨–٣٩.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص ٢١٨.

(٣) المصدر السابق، ص٢١٩.

(٤) الاقتصار على التوسل بالله وأسمائه وصفاته هو المشروع كما فعل القرطبي في أول الدعاء وآخره، أما ما أدخله في الوسط من السؤال بحق النبيين وغيرهم فهو محذور شرعا، قال علي ابن أبي العز: «وأما الاستشفاع بالنبي ﷺ وغيره في الدنيا إلى الله تعالى في الدعاء ففيه تفصيل: فإن الداعي تارة يقول: بحق نبيك، أو بحق فلان، يُقسم على الله بأحد من مخلوقاته، فهذا محذور شرعا من وجهين: =

إلى الحق إذا تبين له، وأن يعجل عليه بنقمته في الدنيا، تكون علامة على غضب الله عليه، وعلى عذابه في الآخرة العذاب الدائم. نسأل الله العظيم أن يفعل ذلك بعزته، وكرمه، آمين، آمين، والصلاة على خيرته من خلقه»[١].

فقد قرن هنا عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بأن يصيب من يعرض عن الحق أيا كان، فبالإضافة إلى جانب الإرهاب فإنه مما يلاحظ في هذا الكلام شدة ثقة القرطبي بما يدعو إليه وإيمانه التام بصدق دعواه، وأنه مستعد لأي عقاب دنيوي أو أخروي إن كان ما يدعو إليه كذبا، ولا يخاطر أحد بمثل هذا الدعاء إلا من تحقق وأيقن أنه على حق، كما دعا رسول الله ﷺ من قبل وفد نصارى نجران إلى المباهلة -أي الملاعنة- بعد أن رأى إعراضهم من بعد ما تبين لهم الهدى فأبوا عليه ذلك[٢]، فعَمَلُ القرطبي -رحمه الله- هنا يمكن أن يقال فيه أنه نوع من المباهلة، الناقصة بجانب كونه ترهيبا؛ لأن من المفسرين من قال أن قوله تعالى: ﴿قل من

= أحدهما: أنه أقسم بغير الله.

والثاني: اعتقاده أن لأحد على الله حقا، ولا يجوز الحلف بغير الله، وليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه على نفسه كقوله تعالى: ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ الروم آية: ٤٧.

...وتارة يقول: باتباعي لرسولك ومحبتي له، وإيماني به وبسائر أنبيائك ورسلك وتصديقي لهم ونحو ذلك؛ فهذا من أحسن ما يكون من الدعاء والتوسل والاستشفاع» شرح العقيدة الطحاوية، ص٢٩٤، ٢٩٩. ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، لبنان

(١) القرطبي، الإعلام، ص١٧٤.

(٢) روى البخاري عن حذيفة قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيا فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلا أمينا، ولا تبعث معنا إلا أمينا، فقال: لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة». البخاري، كتاب المغازي ٦٤، باب قصة أهل نجران ٧٢، ج٥، ص١٢٠. =

كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا﴾[1] أنها مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على حق فيما هم فيه[2]، والأفضل -والله أعلم- أن يقال في مثل هذا أنه مباهلة ناقصه، أو ابتهال من طرف واحد، لأن كلمة المباهلة أتت على وزن مفاعلة، وهي تشعر الاشتراك من أكثر من طرف واحد، والدعاء الذي دعا به القرطبي ربما لم يؤمّن عليه الطرف الآخر، ولم يوافق عليه، فهو دعاء دعا به طرف واحد معمما به كل الأطراف.

ب/ التهكم والاستهزاء:

التهكم في اللغة: التهدُّم في البئر ونحوه، وكذلك الاستهزاء والغضب الشديد[3]، والإنسان يخرج عن حد الاستقامة، وتتغير أحواله إذا اشتد غضبه[4].

والسخرية، من سخِر سخْراً وسخَرًا، أي هَزِئ، وتكون بمعنى الاستجهال[5].

فالمعنى اللغوي بين التهكم والسخرية متحد تقريبا، والتهكم في مصطلح علماء البلاغة هو: «عبارة عن إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال استهزاء

= وكان وفد نجران سبب نزول قوله تعالى: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ سورة آل عمران، آية ٦١. ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره، انظر: أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، تفسير القرآن العظيم،ج١، ص٣٤٨. ط١، دار الريان للتراث،١٤٠٨هـ-١٩٨٨م. القاهرة.

(١) سورة مريم، آية: ٧٥.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص١٣١.

(٣) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٢، ص١٥٤٠، مادة (هكم).

(٤) انظر: يحيى بن حمزة العلوي اليمني، كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج٣، ص١٦١، ط، دار الكتب العلمية، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، بيروت، لبنان.

(٥) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٥٧١، مادة (سخر).

بالمخاطب»[1]، وقد يكون هذا التعريف يغطي جانبا من جوانب التهكم والاستهزاء، ويمكن أن يضاف إليه التجهيل والتنقيص للمخاطب، لأن هذا أيضا من أبواب السخرية.

ويرى البعض أن السخرية أو التهكم والاستهزاء «أسلوب عدائي مصوغ بروح الفكاهة وأسلوبها، ويستعمله غالبا الذي بيده زمام الموقف ويشعر بالقوة والانتصار... لأهداف معينة لا لمجرد التهكم»[2].

وقد بدت على القرطبي -رحمه الله- بعض أساليب التهكم والاستهزاء في أثناء رده على ما خطه النصراني في كتابه تثليث الوحدانية، وعلى بعض القسيسين الذين اطلع على بعض أقاويلهم، فقد قال: «ثم لما فرغ هذا السائل من خطبته الغراء، البديعة الإنشاء، التي من وقف عليها علم أنه عن المعارف مصروف...»[3]، فالقرطبي -رحمه الله- لا يريد مدح خطبة النصراني ولا الثناء عليها بالغرة والإبداع، بل يصفها بذلك من باب وصف الحال بضده على سبيل التهكم والسخرية.

وعندما نقل عن بعض أقسة طليطلة وصفهم المسيح -عليه السلام- بأنه إله تام وإنسان تام قال: «فوالله لو حكي مثل هذا القول السخيف عن مجنون أو موسوس لما كان يعذر بقوله، ولبودر بضربه وقتله، حتى لا يجترئ على مثله، ونحن نربأ بأكثر المجانين والموسوسين أن يتقولوا بهذا المذهب الغث الهجين، أو ينتحلوا ركاكة هذا الدين السقيم إلا أن يكون مستغرقا في الوسوسة والجنون، فالحمق أنواع، والجنون فنون»[4]. فإن النفي عن المجانين أن يقولوا بما قاله النصارى في عيسى -عليه

---

(١) يحيى بن حمزة العلوي، كتاب الطراز، ج٣، ص١٦٢.

(٢) د. عبد الحليم حفني، أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص١٣-١٥، ٢٥، ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨م.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٥٤.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٥١.

السلام- واستبعاد تصور صدور مثل ذلك عنهم ليس من باب الحقيقة، فإن المجنون مرفوع عنه القلم، ولا يضمن أحد تصرفات المجنون القولية والعملية، ولا يستبعد حقيقة أن يقول بالمستحيلات العقلية والشرعية، إلا أن القرطبي قال ذلك استهزاء وسخرية.

أما أساليب التجهيل القوية التي ظهرت في مسلك القرطبي -رحمه الله- في أكثر من موقف، فإن منها مباغتة خصمه منذ البداية بهذا الأسلوب، وربما يكون ذلك لبيان قلة علم الخصم، ومحاولة إسقاطه عن أعين القارئ، بذكر عدم أهليته لخوض مثل هذه الحوارات والمناقشات العلمية، ففي المقدمة يقول القرطبي مشيرا إلى كتاب تثليث الوحدانية وصاحبه: «...فأمعنت النظر فيه، فإذا بالمتكلم يهرف بما لا يعرف، وينطق بما لا يحقق، ناقض ولم يشعر، وعمي من حيث يظن أنه يستبصر... يلحن إذا كتب، ويعجم متى أعرب، دل بقوله على ضعف عقله، وبمكاتبته على سوء محاولته، تعاطى درجة النظار، وسود بأباطيله ذلك الطومار[1] ليستزل به الأغبياء الأغمار... حل من عنقه ربقة العقول، فهو في كل جهالة يجول، وإليها يدعو، وبها يقول، فليته لو دفن من عواره ما كان مسطورا[2]، ولكن كان ذلك عليه في الكتاب مسطورا»[3].

لقد نزع القرطبي -رحمه الله- عن غريمه لباس المعرفة والتحقيق، وجرده عن كل سمة علمية؛ ليجعل القارئ ينفر من الاستماع إليه، ويزهد عن قراءة ما سطره في كتابه. وتُظهر هذه الشدة في اللهجة عن مدى غضب القرطبي -رحمه الله- وشدة تأثره بالافتراءات التي وجدها في ذلك الكتاب، فلعل من الأسباب الرئيسة التي دعته إلى سلوك هذا المسلك هو ما وجده من السخرية والتحرش في كلام خصمه

---

(١) الطامور، والطومار: الصحيفة. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٦٠٥، مادة (طمر).

(٢) هكذا في الأصل، ولعها مستورا؛ لأن العوار هو العيب والخرق في الثوب.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٤٣-٤٤. وقوله «كان ذلك عليه في الكتاب مسطورا»، اقتباس من قوله تعالى ﴿كان ذلك في الكتاب مسطورا﴾ سورة الإسراء آية:٥٨، وسورة الأحزاب، آية:٦

ومن ذلك أن القرطبي زخذ على النصراني تشويهه حديث امرأة رفاعة[١] قائلا: «ثم ذكرت على جهة الاستهزاء والتنقيص والازدراء والتخريص حديث امرأة رفاعة لتقبح به ديننا، وتنسب إليه شناعة، وأنت مع ذلك لم تعرف معناه ولا فهمت فحواه»[٢].

ج/ القسم:

القسم هو اليمين، والحَلْف[٣].

وبعبارة أخرى هو: «ربط النفس بالامتناع عن الشيء أو الإقدام عليه بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقادا»[٤]

والمقصود به في هذا الموضع أن يقسم الداعية في أثناء محاولته إقناع المدعو بما يدعو إليه، لأن «القسم في الخطاب من أساليب التأكيد التي يتخللها البرهان المفحم، والاستدراج بالخصم إلى الاعتراف بما يجحد»[٥].

وقد لا تكون أدوات التأكيد بمختلف أشكالها وألوانها تحمل في ذاتها دليلا

---

(١) عن عائشة – رضي الله عنها– قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظي النبي ﷺ فقالت: كنت عند رفاعة فطلقني فأبت طلاقي فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير إنما معه مثل هدبة الثوب، فقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا. حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك، وأبوبكر جالس عنده وخالد بن سعيد بن العاص بالباب ينتظر أن يؤذن له، فقال: يا أبابكر ألا تسمع إلى هذه ما تجهر به عند النبي ﷺ. البخاري، كتاب الشهادات٥٣، باب شهادة المختبي٣، ج٧، ص١٤٧، وأيضا مسلم، كتاب النكاح١٦، باب لا تحل المطلقة ثلاثا لمطلقها حتى تنكح زوجا غيره...١٧، حديث رقم١٤٣٣، ، ج٢، ص١٠٥٥، بأكثر من لفظ.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٢٢٠.

(٣) انظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٢، ص١٥١٣، مادة (قسم).

(٤) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص٢٩١، ط٨، مكتبة المعارف، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م، الرياض.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٩٠.

عقليا يؤيد المدعي في دعواه، إلا أن فيها تأثيرا وجدانيا إذا استخدمت بشكل مناسب للمقام، بحيث تبين للمخاطب مدى ثقة المدعي وإيمانه بدعواه وأدلتها، والناس في تصديق الآخرين على مراتب، فإن منهم من تكون نفسه صافية، ويكون قبوله لحجج خصمه بمجرد اطلاعه على أدلته، ومن الناس من كدرت نفوسهم الشهوات والشبهات ولا يقبلون شيئا إلا بعد التأكيدات المكرورة بالأيمان المغلظة وغيرها من الأساليب.

والقسم في دعوة الناس إلى الحق أسلوب قرآني، فقد أقسم الله بما شاء في آيات كثيرة تأكيدا للحق الذي يدعو إليه، قال تعالى: ﴿**فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون**﴾[1]، وغيرها من الآيات. وقد استخدم القرطبي -رحمه الله- أسلوب القسم بطريقتين، إحداهما: أن يحلف هو نفسه لتأكيد أمر ما، والثاني: أن يطلب من مخاطبه الحلف، ويقسم عليه، فهو يقول لمخاطبه: «فكأني والله بك -إن مت على ما أنت عليه- يؤخذ بناصيتك وقدمك وتحيط بك ملائكة ربك...»[2]، وفي موقف آخر يقول: «فأنا أسألك سؤال منصف لا مصنف، وأقسم عليك بدينك قسم متلطف لا متعجرف، هل توفرت لديك هذه الشروط أم هل أكثرها عندك مطرح مسقوط؟»[3].

ففي النص الأول أقسم القرطبي على أن مخاطبه كافر بالله صراحة، وينتظره مصير سيء إن مات على كفره وضلاله، فهو يقسم على صحة موقفه، وبطلان موقف النصراني.

وفي النص الثاني يقسم القرطبي على المخاطب بما يؤمن به، أنه على حق، وأن ما يقوله مبني على قواعد ثابتة تسكن النفس إليها وتوقن بها يقينا جازما.

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٢٣.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص١٢٣.

(٣) المصدر نفسه، ص١٨٦.

ولقد أتى القرطبي في بعض المواقف ببعض ألفاظ القسم كلفظ «لعمري»[(١)]، وهو وإن كان يُعد في علم النحو من ألفاظ القسم إلا أنه في كثير من الأحيان قد لا يكون المقصود به القسم الذي هو الحلف واليمين، بل كانت هذه طريقة في التعبير استحسنها الأدباء، فكانت لونا تعبيريا من لوازم الأدب في العصر القديم،[(٢)] فسار الناس عليها، وإلا فإنه لا يجوز للإنسان أن يحلف بغير الله، لقوله ﷺ «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[(٣)].

د/ الأشعار والأمثال السائرة:

الشعر : يطلق على منظوم القول، الموزون المقفى[(٤)].

والمثل السائر هو: «كل كلام وجيز منثور أو منظوم قيل في واقعة مخصوصة تضمن معنى وحكمة، وقد تهيأ بتضمنه ذلك لأن يستشهد به في نظائر تلك الواقعة»[(٥)].

وقد يكون المثل في الأصل صدر بيت شعر، أو عجزه، أو بيت شعر كامل، أو قد يكون من الكلام المنثور.

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص٥٤، ٨٣، ٩٩، ١٦٨، على سبيل المثال.

(٢) انظر: د. إبراهيم السامرائي، من أساليب القرآن، ص٥٢-٥٣، ط٢، دار القرآن للنشر، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، عمان، الأردن.

(٣) رواه الترمذي، في صحيحه، كتاب النذور والأيمان ٢١، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله٨، حديث رقم١٥٣٥، ج٤، ص١١٠، وقال: حديث حسن، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، ج٢، ص٩٩، برقم١٢٤١. وأخرجه أبو داود في سننه بدون كلمة (كفر)، سنن أبي داود، كتاب الأيمان والنذور١٦، باب في كراهية الحلف بالآباء ٥، حديث رقم٣٢١٥، ج٣، ص٥٧٠.

(٤) انظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٥٨٥، مادة (شعر).

(٥) ابن أبي الحديد، الفلك الدائر على المثل السائر، ص٥٠، تحقيق: د. أحمد الحفي، ود. بدوي طبانة، ط٢، دار الرفاعي، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م الرياض.

ويصنف المناطقة صناعة الشعر تحت الحجة الشعرية التي لاتلتزم بضوابط منطقية تفيد اليقين، أو الظن الراجح، بل تعتمد على مقدمات وهمية، وصور خيالية، تؤثر على المشاعر النفسية للسامعين من خلال تحريكها لمشاعر الرغبة أو الرهبة، أوالإقبال أو النفور، أو غير ذلك من العواطف الإنسانية، فتتبسط نفس المخاطب أو تنقبض وفقا لذلك[١].

فالشعر بما يحتويه من كلمات جميلة بليغة، موضوعة بشكل موزون لها نغمات معينة، تحدث في وجدان المرء نوعا من التفاعل الذي قد يدفع بالإنسان إلى الإقدام نحو أمر ما، أو الإحجام عنه وفق المعاني التي تلقى على مسامعه؛ وهذا مما يؤكد أن المجال الرئيس للشعر هو العاطفة.

ولكن هذا لا يمنع من أن يحتوي الشعر أو المثل السائر حجة منطقية تعتمد على الموازين العقلية،[٢] بل إنها تكون بذلك قد جمعت بين العقل والعاطفة فيقوى تأثيرها في النفس وتكون حجتها أبلغ.

وقد أورد الإمام القرطبي -رحمه الله- في ثنايا بيانه فساد عقيدة النصارى وإثباته صلاح الإسلام عددا من الأبيات الشعرية والأمثال العربية في مواقف متعددة، ومن ذلك ما قاله: «ولقد أحسن بعض عقلاء الشعراء في إفحام هؤلاء الأغبياء فقال:

عجبي للمسيح بين النصارى	وإلى أي والـــد نسبـــوه
أسلموه إلى اليهود وقالـوا	إنهم بعد قتلـه صلبـــوه
فإذا كان ما تقولون حقا	وصحيحا فأين كان أبـوه
حين خلى ابنه رهين الأعادي	أتراهم أرضوه أم أغضبوه
فلئن كان راضيا بأذاهـم	فاحمدوهم لأنهم عذبـوه

---

(١) انظر: عبد الرحمن الميداني، ضوابط المعرفة، ص٣٠٢.

(٢) ذكر الدكتور زاهر بعض النماذج لمثل هذه الأشعار في ص٢٨-٢٩ من كتابه مناهج الجدل، فمن أراد الاستزادة فليراجع الكتاب.

ولئن كان ساخطا فاتركـوه واعبـدوهـم لأنهـم غلبـــوه»[١].

فهذه الأبيات فيها جانب عاطفي يدعو إلى السخرية والاستغراب من تفكير النصارى وادعائهم بنوة المسيح -عليه السلام- لله، واعتقادهم في الوقت نفسه تمكن اليهود من صلبه وإيذائه وإهانته بشتى أنواع التنكيل والتعذيب. إلا أنها لا تتضمن في حقيقة الأمر حجة عقلية مبنية على أسس منطقية، فالشاعر يلزم النصارى بأن يعبدوا الذين أسخطوا والد عيسى -عليه السلام- لأنهم غلبوه، ويمكن النصارى أن يردوا على الشاعر بإلزامه بما التزم به فيعبد الذين يعتقد أنهم قد أسخطوا الله، وثبت غضبه عليهم.

إن إغضاب العبد اللهَ بعمل ما لا يستلزم أن يكون الله قد غُلب، وانتصر عليه العبد، ومن ثم تجب عبادة الغالب، وإلا للزم المسلمين أن يعبدوا من أغضب الله أيضا، وقد ثبت بنص القرآن أن اليهود قد أغضبوا الله -عز وجل- وأسخطوه بقتلهم الأنبياء، وبصدهم عن سبيل الله، وكفرهم....الخ، قال تعالى: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾[٢].

وأورد القرطبي أيضا بعض الأبيات الشعرية تمثلا بها لحاله أو لحال النصراني الذي كان يخاطبه، فمما تمثل به لحاله عندما ضاق ذرعا بكثرة الفساد في كلام النصارى حيث يحار المرء في الرد على ذلك، فقال:

«تفرقت الظباء على خراش فلا يدري خراش ما يصيد»[٣].

ويقول في منع الخصم من الاعتقاد أن عدم رد المسلمين عليه نابع من

(١) القرطبي، الإعلام، ص٤١٩. وقد أورد هذه الأبيات أيضا القرافي في كتابه: الأجوبة الفاخرة، ص ٨٩، ولم ينسبها إلى أحد، ولم أجد قائلها الأصلي.

(٢) سورة البقرة، آية: ٦١.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٤٥٧. روي البيت بلفظ: تكاثرت الظباء...، وقائله مجهول، انظر: عبد الله بن خميس، الشوارد، ج١، ص١٦١، ط، دار اليمامة، ١٣٤٩هـ ١٩٧٤م.

الضعف:

«سكت عن السفيه فظن أني   عييت عن الجواب وما عييت»[(١)].

ويقول واصفا محاولات النصارى لبث الشبهات في الدين الإسلامي، وغفلتهم عن المستحيلات العقلية التي في دينهم:

«عيون الرضا عن كل عيب كليلة   ولكن عين السخط تبدي المساويا»[(٢)].

ويقول في إعراض النصارى عن الحجج الواضحات البينات:

«لقد أسمعت لو ناديت حيا   ولكن لا حياة لمن تنادي»[(٣)].

بل إنه شدد في اللهجة عندما وجد النصراني قد أساء في اختياره الكلمات المناسبة لصدر كتابه فقال:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الجائع العاري[(٤)].

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٤٥. ولم أجد قائل البيت.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٢١، و البيت لعبد الله بن معاوية بن جعفر، بلفظ: عين الرضا...الخ، انظر: أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج٢، ص٣٤٨، تحقيق: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، ط، لجنة التأليف والترجمة، ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م القاهرة. وورد أيضا في ديوان الشافعي، ص١٠٢، د. رحاب عكاوي، دار الفكر بيروت١٩٩٢م

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٢٣٥. البيت لعمرو بن معديكرب، ويروى لدريد بن الصمة، انظر: جمال الدين ابن نباتة المصري، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ص٤٦٦، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط، المكتبة العصرية، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، صيدا، وبيروت. ونسبه صاحب الشوارد إلى بشار بن برد، ولم أجده في ديوانه، انظر: عبد الله بن خميس، الشوارد، ج١، ص١٥٢.

(٤) القرطبي، الإعلام، ص٤٨. البيت للحطيئة جرول بن أوس، وعجز البيت في الأصل: فإنك أنت الطاعم الكاسي، وليس كما أورده القرطبي، ديوان الحطيئة، ص١٠٨، شرح أبي سعيد السكري، ط، دار صادر، ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م، بيروت.

أما من الأمثال السائرة التي أوردها القرطبي -رحمه الله- قوله:

شنشنة أعرفها من أخزم[١]، لبيان أن العناد والعدول عن الحق ليس جديدا على النصارى بل قد ثبت ذلك من قبل عليهم حتى صار من طبعهم، فلما أحس القرطبي العناد في حديث النصراني وأن كلامه يعتمد على المراوغة قال هذه المقولة[٢].

ولما رأى القرطبي -رحمه الله- بعض القسس الذين كان يشار إليهم بالبنان في علم الكلام، وطرق البحث والنظر قد تلجلج كلامهم إذا أرادوا التحدث في علوم النصرانية من التثليث والأقانيم، فلا يجدون حيلة لإثبات ما يدّعون بالأدلة المنطقية؛ فيضطرون للنزول إلى الآراء الفاسدة ولا يستطيعون إصلاح ما أفسدته أيديهم من قبل مهما حاولوا قال: «وهل يصلح العطار ما أفسده الدهر»[٣].

وفي مواقف أخرى زعم النصارى بأن المسلمين يصفون الله بالجور والقساوة والظلم، ويسيئون على المسيح -عليه السلام-، فتمثل القرطبي بالمثل القائل: «رمتني

---

(١) الشنشنة: الطبيعة والعادة، وأبو أخزم الطائي: جد حاتم الطائي أو جد جده، مات ابنه أخزم وترك بنيه، فوثبوا يوما على جدهم فأدموه، فقال:

إن بنيّ زملوني بالدم ... من يلق آساد الرجال يُكْلَم

ومن يكن درىء به يقوّم ... شِنْشِنَة أعرفها من أخزم

كأنه كان عاقا. انظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج٢، ص١٤٥٢، مادة (خزم)، وج٢، ص١٥٩٠، ماد (شنن).

(٢) انظر: القرطبي، الإعلام، ص١٧٤، ٢١٨.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص٨٠، ٤٢٣. وهو عجز بيت نسب إلى أبي الزوائد الأعرابي:

عجوز ترجي أن تعود فتية ... وقد ضمر الجنبان واحدودب الظهر

تدس إلى العطار ميرة أهلها ... وهل يصلح العطار ما أفسده الدهر

انظر: محمد بن القاسم الأنباري، كتاب الأضداد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ص١٩٤، ط، دائرة المطبوعات، في الكويت، ١٩٦٠م، وعبد الله بن خميس، الشوارد، ج١، ص٢٣٤.

بدائها وانسلت»[1]؛ لأن النصارى هم الذين يقولون في الله ما ينافي كماله بإضافة الولد إليه، وجعل الشركاء له في عبادتهم، ويسيئون إلى المسيح -عليه السلام- بعبادتهم إياه، والقول عليه بما لم يقله، ونبذهم ما جاء به من توحيد الله وبشارته بمحمد ﷺ.

وتمثَّل القرطبي أيضا لمخاطبه بالمثل العربي القائل: «عدو عاقل خير من صديق جاهل» وعلل ذلك بقوله: «فإن العدو العاقل يزعه عنك عقله، والصديق الجاهل يريد نفعك فيضرك، وأنت بجهلك أردت أن تعظم المسيح فنقصته، وأن تمدحه فذممته»[2].

هـ/ التلطف في الخطاب:

التلطف من لَطَف لُطفا، أي: رفق، ودنا. تلطفوا، وتلاطفوا، أى رفقوا[3].

والمقصود بالتلطف في الخطاب أن يكون الداعي رفيقا ليّنا هيّنا في توجيه الخطاب إلى المدعو حتى يستدرجه إلى قبول ما يلقى إليه من القول.

كان القرطبي -رحمه الله- يبدي حرصه على هداية المدعو وانقياده للحق، إلا أنه قليلا ما كان رفيقا في حديثه مع المدعو، وكان جانب الشدة هو الغالب عليه، فمما يدل على حرصه أن يهتدي المدعو قوله: «فالله يعلم أني أنظر إليك، وإلى كافة خلق الله بعين الرحمة، وأسأله هداية من ضل من هذه الأمة، وأتأسف على الأباطيل التي ينتحلون»[4].

ولعل السبب في عدم تركيزه على تلطيف الخطاب مع المدعو النصراني

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٢٢٧، ٤٥٦. والمثل يضرب في من عيّر صاحبه بعيب هو فيه، انظر: أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص٩٢، تحقيق: د. إحسان عباس، ود. عبد المجيد عابدين، ط، دار الأمانة، ١٣٩١هـ ١٩٧١م، بيروت.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٢٢٩.

(٣) انظر: الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج٢، ص١١٣٥، مدة (لطف).

(٤) القرطبي، الإعلام، ص١٠١.

وجنوحه إلى الإفحام يعود إلى أن هذا المخاطب كان مجادلا ومماريا يثير الشبه حول الإسلام، ويدعي الانطلاق من أسس علمية منطقية وشرعية، والفهم العميق للدين الإسلامي والنصراني على حد سواء، فيظل الإفحام «هو الأسلوب الأمثل لمناظرة المماحكين الذين يثيرون الشبه والضلالات، فمثلهم لا ينفع معهم اللين والرفق، بل مناظرتهم وإفحامهم على الملأ الذين ضلوا بسببهم مما يدحض حججهم ويسقط هيبتهم»[1] بينما لو كان هذا المخاطب مجهول الحال لم تظهر منه بوادر العداء، أو خالي الذهن يقر بعدم اطلاعه على دين الإسلام، فلربما ركز القرطبي على لطف الخطاب ورقته.

وبالرغم من ذلك فإن القرطبي تلطف في حديثه مع النصارى حينا فذكرهم بما تفتريه اليهود على مريم وابنها عيسى -عليهما السلام- وبيّن لهم العقيدة الوسط للمسلمين في ذلك، واستعمل كلمة جميلة رقيقة فيها حض واستدراج للخصم على التزام الحق، وذلك في محاولة منه إلى كسب قلب المدعو والتأثير عليه عاطفيا؛ فيقول: «وإنما أسمعتكم هذا لتعلموا أنا نعرف ما قالت اليهود لعنهم الله في عيسى وأمه -عليهما السلام- وإنا ننزههما عما قال فيهما المبغضون لهما والمحبون الغالون فيهما. فما أجمل بكم -لو شاء الله توفيقكم- أن لو قلتم فيهما الحق الذي ينبغي لهما، أن الله جعل عيسى وأمه آية للناس، هو عبدا ورسولا، وأمه صديقة مباركة»[2].

و/ الإنكار:

يعد الإنكار من الأساليب العاطفية كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ومن استخدامات القرطبي -رحمه الله- لهذا الأسلوب أنه كان يأتي به على شكل استفهام إنكاري، بحيث يتعذر على المدعو الإجابة بشكل مقنع على ذلك، فيقول القرطبي مثلا: «وكيف يتصور أن يعقل [العاقل] الإلهية لمحدث مخلوق، يحزن تارة،

---

(١) د. طارق بن علي الحبيب، كيف تحاور دليل عملي للحوار، ص٦١، ط١، دار المسلم للنشر، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، الرياض.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص١٣٧.

ويفرح أخرى، ويجوع تارة، ويشبع أخرى...الخ»[١].

الإجابة أنه لا يتصور ذلك، فالقرطبي ينكر تصور ذلك في عقل عاقل، فكأنه يقول لا يتصور في عقل عاقل الإلهية لمحدث مخلوق...الخ.

ولعلنا نجد في القرآن هذا الأسلوب بكثرة في سياق محاورة أهل الكتاب جميعا[٢]، كقوله تعالى: ﴿**يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون**﴾[٣]، فالله يندد ويستنكر موقف أهل الكتاب في كفرهم بما أنزل الله تعالى.

٢) قيمة الأسلوب العاطفي عند القرطبي في دعوة النصارى:

إن العاطفة أو الوجدان تعطي تجارب الناس قوة التشويق وتستنهضهم إلى العمل، كما أن لها تأثيرا في العقل والجسم والإرادة، وقد يسيطر على الإنسان وجدانه فتتعطل إرادته وينشل فكره[٤]، وهذا مما يدل على قيمة العناية بالجانب الوجداني في المدعوين عند القيام بأي عمل دعوي.

وبصفة عامة فإن للأساليب الدعوية العاطفية مزايا متعددة من حيث لطفها، وسرعة تأثر المدعوين بها، وسعة مجال استعمالاتها، ولها القدرة كذلك على الدخول في قلوب المدعويين برفق وأناة وهدوء، فتلطف من حرارة الصدر، وتنعش الوجدان في تؤدة، وتدفع إلى استشعار روحانية الدعوة، ومن ثم ترطيب الفكر الثائر وحل عقد

---

(١) المصدر السابق، ص١٠٠.

(٢) انظر في ذلك: خالد بن عبد الله القاسم، الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه، ص١٨٥، رسالة ماجستير، ط١، دار المسلم، ١٤٠٩هـ الرياض فقد أشار إلى ذلك إشارات كافية.

(٣) سورة آل عمران، آية ٧٠.

(٤) انظر: محمد الفقي، النفس أمراضها وعلاجها، ص٥٧-٥٨.

التقاليد الصعبة، إلا أنه أيضا يؤخذ عليها سرعة تلاشي آثارها[١].

ومن الأساليب العاطفية التي ثبت استخدام القرطبي -رحمه الله- لها أسلوب الترغيب والترهيب، فهل في ذلك قيمة دعوية؟

يتفق أسلوب الترغيب والترهيب عامة مع فطرة الإنسان المحبة للثواب والمتعة المبغضة للأذى والعقاب، ففي الترغيب تشويق للعمل وحث على البذل، والترهيب يقرع أبواب القلوب المغلقة ويوقظ الضمائر الغافلة، فتجد الرسالة الدعوية المصاغة بهذا الأسلوب طريقها إلى لب المدعو فتفعل فعلتها في النفوس[٢].

وقد نحى القرطبي إلى التركيز على الجانب الإلهي في الترغيب والترهيب، فبدأ يخوفهم بمصيرهم يوم القيامة إن رفضوا قبول الحق، ويرغبهم بما يمكن أن ينعموا به إن هم اتبعوا الحق، وقد جمع في تخويفه لهم بما يحصل لهم في الدنيا والآخرة، بالدعاء العام الذي دعا به على كل من لم يتبع الحق بعد ما تبين له، بما في ذلك هو شخصيا، ولما لم يكن القرطبي في موقع سلطة يمكنه من إيقا ع بعض العقوبات عليهم، لم يحاول أن يخوف مخاطبيه بالسجن، والضرب، أو القتل، ونحو ذلك مما يكون عادة في يد السلاطين.

أما قيمة التهكم والسخرية فتظهر في أن لها جانبين من التأثير، فبالإضافة إلى أنها تحطم معنويات الخصم، وتثير الضيق والكآبة في نفسيته، فإنها في المقابل ترفع من معنويات الساخر، وتعيد الثقة إلى نفسه، وتجعله يشعر بالقوة والانتصار على الطرف المقابل، كما تجتذب انتباه الآخرين وتعاطف الذين يشاركون الساخر في شعوره وموقفه نحو المتهكم به، ولقد سخر القرآن من النصارى في انحرافهم

---

(١) انظر: أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، ص٢٠٧، ورؤوف شلبي، الدعوة الإسلامية في عهدها المكي ،ص٣٤٦، ط٣، دار القلم، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، الكويت.

(٢) انظر: د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ٣٢٥، وأحمد المورعي، الحكمة والموعظة الحسنة، ص٢٥٧-٢٦٠.

العقدي بطريقة بعيدة عن الإقذاع ونبو الألفاظ[1] قال تعالى: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنّى يؤفكون﴾[2]، فلم يصرح بلوازم الأكل والشرب كالخارج من السبيلين، واكتفى بالإشارة إليهما.

فالقرطبي -رحمه الله- في تهكمه المعتمد على قوة تصوير نقائض النصارى وعيوب مخاطبه جعل القارئ لكتاب الإعلام يستصغر عقليات النصارى التي قادتهم إلى القول بالأقوال المخزية التي تثير العجب والضحك، وأسقط مذهب النصارى عن عيني القارئ وأبعد أي احتمال للتأثر بهذا المذهب الغريب. كما أن هذا التهكم الذي سلكه القرطبي يمنع من محاولات أخرى من جانب الطرف النصراني لتوجيه دعوته إلى المسلمين لاعتناق الديانة النصرانية، أو بث الشبهات ضد الديانة الإسلامية وما تحتويه من عقيدة وشريعة وأخلاق.

أما قيمة أسلوب القسم في المناقشات والمناظرات وإثبات الحجج فليس المقصود منه إلزام الخصم بالحجة، ولكنه موعظة حسنة، يبين المتكلم من خلالها مدى ثقته بما يقول وسكون نفسه إليه، وتصوره له إلى حد التصديق، وهذا مما يضعف من نفسية الخصم ويقوي جانب المقسِم.[3]

وقد أكد القرآن الكريم قيمة القسم في إقناع المدعوين باستخدامه لهذا الأسلوب في تأكيد ما يدعو إليه[4]. والداعية المسلم عندما يقسم بالله للمدعوين

---

(١) انظر: عبد الحليم حفني، أسلوب السخرية في القرآن، ص١٦، ٢١، ١٢٦-١٢٧، ٤٢.

(٢) سورة المائدة، آية: ٧٥.

(٣) انظر: الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ج٢، ص٥٤، وعلي المرشد، مستلزمات الدعوة، ص١٦٣.

(٤) انظر: د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص٣٢٩-٣٥٤، حيث تكلم عن أسلوب القسم في القرآن، وأهميته في إقناع المدعوين، وجعل أسلوبَ القسم القرآني وسيلة دعوية.

المسلمين فإن ذلك قد يكون معينا على تقبل كلامه، وأقرب إلى تصديقه، أما والحالة هنا أن المدعوين هم من النصارى فإن تقبلهم لقسم الداعية لا يكون كتقبل المسلمين، إلا أنه في الحقيقة يُظهر لهم مدى إخلاص القرطبي في دعوته، وحرصه على هدايتهم، وأنه إنما ينطلق في دعوتهم لما يدعو إليه من إيمان صادق، ويقين جازم، لا من هوى نفسي وعناد شخصي ومكابرة باطلة.

وتبرز قيمة الأمثال السائرة والأشعار التي زين بها القرطبي كتابه، -بالإضافة إلى كونها قياس تمثيل- لما لها من «المكانة الأدبية، أو الأصالة التاريخية»[1]، التي تساعد المدعو على قبولها، وبخاصة أن الأمثال والأشعار سهلة الحفظ وسريعة الانتشار بين الناس، وتتكرر كثيرا على آذان المستمعين حتى قد يصل بهم الأمر إلى التسليم لا شعوريا بما يحتويه المثل أو بيت الشعر من معاني وقيم، بل قد تكون من المسلمات التي لا تقبل النقاش في بعض الأحيان، كما أن استخدام القرطبي لمثل هذا الأسلوب في وسط تلك الحجج العقلية والجدال العلمي لبعض قضايا الديانة النصرانية يعطي الكلام طلاوة ويكسر الجانب الجاف لأساليب القياس المنطقي الذي قد يسبب الملل للقارئ أو العزوف عن مواصلة القراءة.

إن الأسلوب الأدبي يتميز باستثماره الخيال، فيخاطب الوجدان ليؤثّر على الفكر، والسلوك،[2] فالدعاة الذين يتخذون الأسلوب الأدبي في التعبير عن أفكارهم يكون تأثيرهم في المدعوين عميقا وواسعا، مع ما يشتمل عليه أدبهم من حق وإقناعات منطقية مغلّفة بزينات أدبية ولمسات عاطفية مؤثرة؛ لأن تعدد جوانب المؤثرات على المدعو من مشاعر نفسية وجسدية وفكرية ووجدانية تجعله محاصرا لا

---

(١) انظر: عبد البديع صقر، كيف ندعو الناس -محاولة لتعليم طرائق الدعوة وصنعة عرضها على الناس، ص٨٠، ط، دار الاعتصام.

(٢) انظر: سعيد إسماعيل صيني، قواعد أساسية في البحث العلمي، ص٨٣، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م بيروت.

يستطيع أن يقاوم فيستسلم إلى ما يلقى إليه من القول استسلاما تاما[١].

ويستدرج الإمام القرطبي -رحمه الله- النصارى بالقول اللطيف الرقيق -وإن كان قليلا- فيبيّن لهم بأنه يريد الهداية للجميع، وليس في قلبه غلا لأحد، وأن ما يجعله يغضب هو شدة حرصه على الهداية، وبالرغم من أن الكتاب الذي كتبه أصلا كان للرد على صاحب كتاب تثليث الوحدانية الذي قال فيه بالمنكرات العظام وشنع على دين الإسلام، إلا أن القرطبي وضع في حسبانه اطلاع من كان خالي الذهن إلى كتابه فتلطّف في الخطاب حينا، ليزيل ما في النفوس من ضغائن وتصورات غير محبوبة، وهذا مما يحسب له ويحمد عليه، فإن الشدة في المواقف التي تحتاج إلى الشدة، والتلطف في المواقف التي يناسبها اللطف من الحكمة في عرض الدعوة. والله أعلم.

---

(١) انظر: عبد الرحمن الميداني، مبادئ في الأدب والدعوة، ص١٨، ١٠٢.

المطلب الثاني
الأساليب الفنية

الفن في اللغة: الحال، والضرب من الشيء، جمعه أفنان، وفنون، ومن معاني الفن: التزيين.[١]

أما المقصود بالأسلوب الفني فهو الأمر الإجرائي المتعلق بجمال التعبير وحسن الترتيب والتنسيق، وتزيين الحديث بتقديم أمور وتأخير أخرى؛ لغرض ما يخدم الهدف الدعوي.

(١) أنواع الأساليب الفنية عند القرطبي في دعوة النصارى:

يمكن التحدث عن الأنواع الفنية التي سلكها القرطبي-رحمه الله- في دعوة النصارى في النقاط التالية:

أ- تعديد طرق الاستدلال:

إن الإمام القرطبي في مناقشاته لعقيدة النصارى وعرضه ما فيها من الفساد، وبيانه لحقيقة الإسلام وحقيقة النصرانية، لم يسر على وتيرة واحدة، بل عدد في أساليبه ونوّع في مسالكه علّ متعظ يتعظ ببعض الوجوه إن لم يتعظ بالبعض الآخر، وكان هذا الأسلوب متعمدا من قِبل القرطبي، ومقصودا به أهدافا محددة، فهو يقول: «ولا يظن الظان أن هذا المذهب الذي ارتكبه هؤلاء القوم في الأقانيم والاتحاد محتاج في إبطاله إلى نظر واجتهاد، بل العقول بأوائلها تشهد بفساده، كما أن الحس يدرك بياض الجسم من سواده، وهؤلاء معاندون، وللضروريات جاحدون.

ومن كان حاله كذلك إنما يتكلم معه بضرب الأمثلة بأبين المدارك، وتعديل الإلزامات، وتكثير المسالك، ليتبين الإفحام، ويلقي يد الاستسلام»[٢].

فالمعاند قد يحاول الانسلال والانسلاخ من كل دليل يلقى إليه بإثارة جوانب ووجوه أخرى للقضية، فإذا رأى الدليل النقلي في غير صالحه انتقل إلى الدليل

---

(١) انظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٢، ص١٦٠٥، مادة (فنن).

(٢) القرطبي، الإعلام، ص١٤٢.

العقلي، وإذا رأى الدليل العقلي لا يوافق هواه انتقل إلى حجج أخرى يظن أنها في صالحه، فإذا قُدمت له جميع وجوه الأدلة ورأى أنها ضد دعواه فإنه لا شك سيكون في حصار يعزّ الخروج منه، فلا يبقى له إلا الاستسلام، وإن أبى فإنما يأبى الحق بعد أن تبين له، ولن يكون جميع العقلاء مثله في العناد ورد الحق، فلربما أفاد من ذلك غيره ممن أراد الله له الهداية.

ففي عصمة الحواريين التي حاول النصارى إثباتها بشهادة المسيح -عليه السلام- ينفي القرطبي هذه القضية ويبينها بأسلوب عقلي ونقلي، فيقول: «قلنا ما ذكرتموه عن عيسى -عليه السلام- من الشهادة، فلا يصح لكم الاستدلال بشيء مما ذكرتموه، لوجوه:

أحدها: أنكم أسندتم ذلك إلى الإنجيل، واستدللتم على صدقهم بما جاء عنهم فيه، وما جاء عنهم فيه، لا يثبت حتى تثبت عصمتهم، فلا يثبت ما ذكرتموه. لا الإنجيل، ولا عصمتهم.

الوجه الثاني: أنا لو سلمنا ذلك لكم، لما كان فيما ذكرتموه حجة ؛ لأنه ليس شيء منها ينص على أنهم معصومون فيما أخبروا به على الإطلاق، وغاية ما ذكرتموه: أن يدل على أنهم يعاونون ويؤيدون فيما يبلغون عن عيسى في بعض الأوقات، أو في بعض الأخبار والأحوال.

والوجه الثالث: أن ما ذكروه معارض بما نقلوه أيضا؛ وذلك أنهم نقلوا في الإنجيل أنه قال للحواريين «يا نسل التشكيك والكفر إلى متى أكون معكم؟ إلى متى أحتملكم؟»[1]، وأما ما قاله لبطرس فهو أيضا معارض بما حكيتم عنه أنه قال له: «تأخر يا شيطان. فإنك جاهل بمرضات الله»[2]»[3].

---

(١) النص في الترجمة الحديثة في لوقا ٤١/١٩، بلفظ قريب.

(٢) النص في متي ٢٣/١٦، «اذهب عني يا شيطان، أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس».

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٢٠٥.

فقد جمع القرطبي -رحمه الله- هنا أسلوب الاستدلال بالمعقول، والمنقول، حيث نقض استدلالهم أولا مبينا أن دعواهم هي عين دليلهم، ثم استعمل أسلوب التسليم الجدلي، وبعد ذلك عارض نصوص أدلتهم بالمنقول من كتبهم. فهذه قضية واحدة سلك في دحضها أكثر من أسلوب استدلالي. وقد يكتفي في بعض الأحيان بالرد على بعض القضايا بأسلوب واحد. وعلى كل فإن الملاحظ في أسلوبه التعدد والمزاوجة بين الأساليب.

ب- التقديم والتأخير[(١)]:

المقصود بالتقديم والتأخير هنا ما يكون من تقديم أدلة ما على أخرى أو تقديم الحديث عن قضايا معينة، أو تأخيرها لهدف دعوي.

ومما تعامل القرطبي -رحمه الله- فيه بالتقديم والتأخير أنه في موقف من المواقف قدم الاستدلال على نبوة محمد ﷺ بكتب النصارى المقدسة عندهم، ثم أتبع هذا الاستدلال بما ثبت عن النبي ﷺ من صفات ذاتية، وإرهاصات وكرامات ظهرت عليه قبل النبوة، وشهادات الناس في ذلك، وأخر الاستدلال بما جاء في القرآن الكريم، ولم يكن فعله هذا عفويا، أو جاء صدفة، بل كان لحكمة، ولم يترك القرطبي القارئ يستنتج ويجهد نفسه في معرفة الحكمة من وراء هذا التصرف، بل قال صراحة: «ولقد كان ينبغي أن نقدم الاستدلال بهذا النوع [القرآن] لكونه أعظم

---

(١) للتقديم والتأخير في علوم اللغة العربية مفهوم واسع؛ فهو يتناول اللفظة الواحدة حتى يصل إلى الجمل، ويقول ابن الأثير في كتابه المثل السائر، «إن أساليب التقديم والتأخير مما لا يحصره حد ولا ينتهي إليه شرح» انظر: ج٢، ص٢٥٢ وما بعدها.

ويقول الباحث: زيد عمر عبد الله إنه لم يجد تعريفا اصطلاحيا للتقديم والتأخير في بحثه للماجستير غير المنشور (أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم)، ص٦٨ المقدم إلى كلية أصول الدين، قسم التفسير، عام ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، بإشراف الشيخ/ محمد عبد الرحمن الراوي، ولعل السبب في ذلك اتساع مفهومه، وأن أصحاب كل فن يمكن أن ينظروا إليه من زاويتهم.

المعجزات وأوضحها وأشهرها، ولكن قدمنا النوع الأول تسكيتا للنصارى واليهود وتأسيساً، وقدمنا النوع الثاني بناء وتأسيساً»[١].

فإثبات نبوة محمد ﷺ بما جاء في التوراة أو الإنجيل من بشارات يبهت النصارى الذين ينفون النبوة عن الرسول ﷺ ويجادلون في ذلك بغير علم، وذلك بالرغم من أن أدلة القرآن الكريم أوضح، سواء أمن حيث وروده متواترا، أم مما فيه من معجزات ظاهرة تؤيد نبوة محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، فكان القرآن أولى بالذكر في البداية، بل الاكتفاء به في الاستدلال، ولكن لما كان النصارى يدّعون الإيمان بما في كتبهم، وينكرون نزول القرآن من عند الله، ومخاطب القرطبي قد طلب الاستدلال بذلك، اختار القرطبي -رحمه الله- أن يبدأ لهم بما يسلمون به، ثم يذكر ما رافقت حياة النبي ﷺ من إرهاصات النبوة ودلائلها التي أثبتتها شهادات الأصدقاء والأعداء الذين عاصروا العهد النبوي على حد سواء.

وكان من أسلوب الإمام القرطبي في نقد الديانة النصرانية أن قدم نقد أصولها، وأخر الشعائر والعبادات، فقد عقد فصلا خاصا في أواخر كتابه عن مسألة التعميد، وغفران رجال الدين ذنوب المذنبين من النصارى، واختراعهم الكفارات، وتركهم الختان، ومسائل في أعيادهم وصلواتهم...الخ[٢].

ومما يدخل في هذا الفن تقديم الهدم على البناء، أو ما يعرف بتقديم التخلية على التحلية، وهو من الأساليب المثلى التي اتبعها القرطبي «فإن التخلية متقدمة على التحلية»[٣]؛ ولذلك قدم الله سبحانه وتعالى الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله في قوله

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٣٢٣.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص٤٠٢-٤٣٧.

(٣) أبو السعود محمد بن محمد العمادي، تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج١، ص٢٥٠، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيرت، لبنان. وانظر: محمود الألوسي البغدادي، روح البيان في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج٣، ص١٣، ط٤، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، بيروت لبنان. فقد ذكر أن التقديم والتأخير في آية البقرة ٢٥٦، فيه أهتمام بوجوب التخلية.

تعالى: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾[١].

وعندما نفى القرطبي -رحمه الله- ما قاله النصارى في عيسى -عليه السلام- وما حواه مذهبهم من عقائد فاسدة، بيّن للنصارى بعد ذلك الاعتقاد الصحيح في عيسى -عليه السلام- وموقف الإسلام منه، فقال: «لا تظن أننا نرد نبوة عيسى أو أنا نشك فيها، حاشى لله، بل نحن أحق وأولى بعيسى ابن مريم منكم فإنكم قلتم فيه ما لا ينبغي له، ونسبتموه إلى ما يتبرأ منه...»[٢]، واستدل بآيات من القرآن الكريم لبيان موقف الإسلام، من عيسى -عليه السلام-.

ومن باب الهدم ثم البناء ما فعله القرطبي من ذكره محاسن الإسلام الذي أخذ جانبين:

الجانب الأول: ذكر الديانة الإسلامية وما تحويه من عقيدة وشريعة وأخلاق، إجمالا دون تفصيل.

الجانب الثاني: جانب الدفاع عن الاسلام، أو بعبارة أخرى تصحيح بعض قضايا الشرع الإسلامي التي أساء فهمها النصارى، كقضية الجهاد، وتعدد الزوجات، ومشروعية الطلاق...الخ.

وكان القرطبي في هذا الاستعراض السريع يؤكد حديثه بالأدلة العقلية والسمعية، ويأتي ببعض الحِكم لبعض أحكام الشريعة الإسلامية ويبين محاسنها، ويقارن بين ما جاء في الإسلام، وما في الديانة النصرانية من شرائع لبيان حسن شريعة الإسلام وسماحتها[٣].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٦.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٢١٢، وانظر ما قبلها.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص٤٤١، وما بعدها. من محاسن تشريع الختان التي ذكرها: أنها عبادة في بدن الإنسان يثاب على فعلها، وفيها مبالغة في النظافة، وكمال متعة الجماع، ولها أثر في انزعاج الماء الدافق.

وقد بيّن القرطبي -رحمه الله- الهدف الدعوي من ذكره لشريعة الإسلام بعد أن فنّد أباطيل الديانة النصرانية قائلا: «فأردت أن أتولى ذكر شريعتنا لئلا يتعاطى ذكرها ونقلها جهول لا يحسن ما ينقل، ولا ما يقول، كي يقف العقلاء عليها وينظروا فيها، على أن شرعنا ليس بالخفي، بل قد طبق الأرض شرقا وغربا ... فلم يُسمع بمن مجّه وطرحه غير معاند... وأنه لا يبعد أن يقف على هذا الكتاب نصراني أو يهودي لم يسمع قط من ديننا تفصيلا ولا تصريحا، بل إنما سمع له سباً وتقبيحا، فأردت أن أسرده على الجملة ليتبين حسنه لمن كان ذكي العقل صحيح الفطرة؛ فلعل ذلك يكون سبب هداه وجلاء عماه، وما توفيقي إلا بالله»[1].

إذن فالغرض واضح والهدف جلي ألا وهو نشر الإسلام، وعرض العقيدة الجديرة بالاعتناق بعد أن تبين فساد الديانة النصرانية، فليس من المعقول أن تخلي قلوب النصارى من الاعتقاد الباطل، وتتركها فارغة دون أن تملأها بالعقيدة الصيحيحة السليمة؛ فهدف الداعية من الوظيفة الدعوية التي يقوم بها لا يقتصر على إفراغ المدعو من عقيدته الفاسدة، بل لا بد له أن يبني المعتقد الجديد الصحيح مكان ذلك المعتقد الفاسد الذي انتزِع من قلب المدعو.

ج- التكرار:

التكرار في اللغة من: كرَّره تكريراً، وتَكرارا، وتكِرّة، أي أعاده مرة بعد مرة[2].

والمقصود بها هنا المعنى اللغوي نفسه تقريبا، أى إعادة الكلام حول قضية ما أكثر من مرة بأي أسلوب كان، لغرض دعوي.

والتكرار ضروري في إقناع الناس بفكرة ما، أو حملهم على سلوك محدد، فهو يساعد على إحداث التأثير المطلوب، وتعميقه بشكل أكثر، بالإضافة إلى أنه قد يمنع من التأثيرات المعاكسة غير المرغوبة[3].

---

(١) المصدر السابق، ص٤٣٩.

(٢) انظر: الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٦٥٢، مادة (كرر).

(٣) انظر: د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص٣٤٦-٣٤٧.

والإمام القرطبي -رحمه الله- يكرر بعض الأمور التي يرى أن في تكرارها فائدة، سواء أكان ذلك بإشارته الصريحة إلى أنه يكرر بعض الأقوال أم بدون إشارة، ومما صرح فيه قوله: «وقد كررنا هذا المعنى [أي نفي ألوهية المسيح وإثبات نبوته عليه السلام] في هذا الكتاب مرارا وتكرارا لكون النصارى على اختلاف فرقهم يعتقدون الإلهية على اختلاف في كيفية ذلك كما تقدم»[1] فتكراره لهذ القضية يبدو أنه نابع من كونها قضية أصيلة في الديانة النصرانية اتفقت عليها جميع مذاهبهم، فوجب التركيز عليها وبيان فسادها بوجوه متعددة، مرارا وتكرارا، لأنها أصل الانحراف العقدي عندهم.

ومن القضايا التي يكررها أيضا قضية فقد الكتاب المقدس لدى النصارى التواتر، وعدم الأمن من تحريفه والغلط في نقله مما يجعله لا يفيد العلم القطعي[2]، وقد كانت هذه القضية من المحاور الأساس التي ناقشها الإمام القرطبي بالتفصيل وأعطاها أهمية كبيرة، لأن في إثبات بطلان كتاب النصارى المقدس هدما للأساس الذي يبنون عليه عقائدهم وشرائعهم الباطلة.

ومما كرره أيضا بعض الأدلة النقلية مثل قوله صلى الله عليه وسلم : «ما يسرني أن عندي مثل أُحد ذهبا يمضي عليّ ثالثة، وعندي منه دينار، إلا شيئا

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٢٥٠.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص٢٤١، ٢٤٦، ٤١٢، وكذلك تناول مثل هذه القضية بالتفصيل في ص١٨٨، ١٨٩، وكررها إجمالا في ص١٩٢

أرصده لدَين»[١] وقد ذكر هذا الحديث في زهده ، وكذلك في جوده وكرمه ﷺ[٢]. وكرر أيضا قول الوليد بن المغيرة «والله إن لقوله لحلاوة...»[٣]، وذلك استدلالا على إعجاز القرآن في نظمه وأسلوبه العجيب مرة، وفي ذكر مواقف المشركين من دعوة الإسلام عندما سمعوا القرآن الذي أوحي إلى النبي ﷺ ، فالتكرار هنا كان لحاجة الموضوع للاستدلال بما استدل به من قبل.

وكرر أكثر من ثلاث مرات فقرة من التوراة فيها بشارة بالنبي ﷺ وهي: «يده على كل يد، ويد كل به، وسيحل على جميع حدود إخوته»[٤]، فقد أكد القرطبي -رحمه الله- على هذه الفقرة التي قيلت في إسماعيل -عليه السلام- لأنها قيلت لأجل حفيده محمد ﷺ حيث بعث بدعوة جميع الخلق إلى دين الله.

إذن فالتكرار كان واضحا في أسلوب القرطبي، ويبدو أنه كان مقصودا لإحداث تأثير ملموس في المدعو النصراني وإقناعه بالدين الإسلامي.

---

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه البخاري في صحيحه عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرة المدينة فاستقبلنا أُحد، فقال: يا أبا ذر، قلت: لبيك يا رسول الله. قال: ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهبا تمضي عليّ ثالثة وعندي منه دينار إلا شيئا أرصده لدَين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه...الخ الحديث، كتاب الرقاق٨١، باب قول النبي ﷺ ما أحب أن لي مثل أحد ذهبا١٤، ج٧، ص١٧٧، وذكر الألباني أن الحديث ورد في مصادر عدة بألفاظ مختلفة، انظر: الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، ج٥، ص٢٤٦، حديث رقم٢٢١١، وأيضا: ج٢، ص٢٤، حديث رقم١٠٢٨. ط،

(٢) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٣٠٤، ٣٠٦.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص٣٣٠، ٣٣٥.

(٤) التكوين، ١٦/١٢-١٣. وقد كرر القرطبي هذه الفقرة في ص٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣.

د- الحِوار والمجادلة:

الحِوار في اللغة من الحَوْر، وهو الرجوع، والمُحاورة، والمَحْوَرَة. والمَحُورَة: الجواب، كالحَوير، والحَوار، والحِوار. وتحاوروا: تراجعوا الكلام بينهم، والتحاور: التجاوب[١]، والمرادّة في الكلام[٢].

وفي الاصطلاح: «مراجعة الكلام والحديث بين طرفين دون أن يكون بينهما ما يدل بالضرورة على الخصومة»[٣].

فالحديث الذي يتم بين طرفين أو أكثر بحيث يراجع كل طرف من أطراف الحديث الكلام يطلق عليه حوار سواء أكان على سبيل المنازعة أم لم يكن.

والجَدَل في اللغة: «اللدد في الخصومة، والقدرة عليها، جادله، فهو جَدِل، ومِجْدَل»[٤]، وقيل إن الجدال هو: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، والأصل فيه الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجَدالة، وهي الأرض الصلبة[٥].

والجدل في الاصطلاح له تعريفات عدة، أورد صاحب التعريفات منها ثلاثة تعريفات، وهي:

١- «الجدل هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان.

٢- الجدل: دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه وهو الخصومة في الحقيقة.

---

(١) انظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٥٣٩-٥٤٠، مادة (حور).

(٢) انظر: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص١٣٥، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط، دار المعرفة، بيروت.

(٣) د. طارق بن علي الحبيب، كيف تحاور، ص٧.

(٤) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٢، ص١٢٩١، مادة (جدل).

(٥) انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص٨٩-٩٠.

٣- الجدال «عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها»[١].

ولعل التعريف الأول والثاني يخدمان التعريف المنطقي للجدل لأنه يعنى بإلزام الخصم وإفحامه بغض النظر عن صدق الدعوى أو كذبها، ويقتصر على استعمال أساليب محددة في الحجج؛ فالجدل عند المناطقة أسلوب من أساليب الاستدلال يأتي في المرتبة الثانية بعد البرهان[٢]، ويستعمل المجادل في حججه القياس والتمثيل والاستقراء...الخ، بينما في البرهان لا يكون إلا بالقياس[٣].

إلا أن من تعريفات الجدل أيضا في الاصطلاح: «تردد الكلام بين الخصمين إذا قصد كل منهما إحكام قوله ليدفع به قول صاحبه»[٤].

وهذا التعريف القريب من معنى الحوار هو المقصود هنا، لأن المراد هو الشكل الفني لتبادل الحديث بين أكثر من طرف، ومن المعلوم فإن معنى الحوار والجدال يتحد في بعض الأحيان، كقوله تعالى: ﴿**قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما، إن الله سميع بصير**﴾[٥].

وهذا المعنى أيضا قريب من معنى المناظرة التي هي: «تردد الكلام بين شخصين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه مع رغبة كل منهما في ظهور الحق»[٦].

---

(١) الجرجاني، التعريفات ، ص٨٨.

(٢) البرهان: هو «ما يفيد تصديقا جازما، وكان المطلوب حقا واقعا، والغرض منه معرفة الحق من جهة ما هو حق واقعا» محمد المظفر، المنطق، ص٣١٩-٣٢٠.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص٣٤٨-٣٤٩.

(٤) الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ج١، ص٢٢٩.

(٥) سورة المجادلة، آية: ١.

(٦) الألمعي، مناهج الجدل، ص٣٠.

وعلى كل فإن الفرق ليس بكبير بين معنى الجدال والحوار والمناظرة، إلا أن الحوار أدل على مراجعة الكلام، والمناظرة أدل إلى عمق التفكر والنظر، بينما ينحى الجدل إلى الخصومة والتمسك بالرأي، وإلزام الخصم به؛ لذلك فإن الحوار أوسع وأشمل، حيث لا تشترط المغالبة، وإن كانا -الحوار والمجادلة- في بعض الأحيان يأتيان مترادفين[١] كما جاء في الآية السابقة.

واستخدام الإمام القرطبي -رحمه الله- للحوار يقتصر على الحوار الذي افترضه هو، أي أنه كان يفترض أن النصارى يحاورونه ويناظرونه، فيرد على كتاب تثليث الوحدانية بأسلوب سؤال وجواب، أو يفترض أن يعترض النصارى على قول ما فيأخذ في بيان ذلك الاعتراض وإيراد الأدلة عليه، وقد صرح القرطبي على أنه سيسلك في الرد على النصراني هذا الطريق قائلا: «وها نحن بعون الله نجاويه مجاوزة على طريق البحث والمناظرة.... وإنما كلامنا معه بعد ذلك على طريقة المناظرة الجارية بيننا»[٢].

فلم يكن كتاب القرطبي مناقشات دارت بينه وبين النصارى بحيث يتردد الكلام بينه وبينهم شفاهة أو كتابة، وإنما كان كتابه في الأصل ردا على كتاب واحد، إلا أنه ضمنه ردودا على غير ذلك الكتاب من كتب النصارى ومعتقداتهم وآرائهم...الخ، بأساليب متعددة بغية الوصول إلى الحق بشكل أشمل وأعم.

ففي رده على إنكار النصارى النعيم والعذاب الحسي يوم القيامة يقول القرطبي: «لا يخلو أن ما تنكره إما من جهة العقل أو من جهة الشرع، فإن قال: من

---

(١) انظر: عبد الملك الجويني، الكافية في الجدل، ص١٩، تحقيق: د. فوقية حسين محمود، ط، عيسى البابي الحلبي، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، القاهرة. والندوة العالمية للشباب الإسلامي -وحدة الدراسات والبحوث، أصول الحوار، ص٩، ط٢، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م، ود. طارق الحبيب، كيف تحاور، ص٨، وخالد القاسم، الحوار مع أهل الكتاب، ص١٠٦. وانظر للاستزادة محمد أبوزهرة، تاريخ الجدل، ص٦.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص١٤٧، ١٥٠.

جهة العقل، قلنا له: كذبت وأخطأت، فإن العقل لا يدل على استحالة ذلك.....الخ.

فإن قالوا: إن كان في الجنة أكل وشرب ونكاح ولباس فيلزم عليه أن يكون في الجنة غائط وبول وولادة...وكل ذلك محال أن يكون في الجنة. قلنا لهم: هذا جهل، ولا يلزم شيء مما ذكرتم فيها...»[١] وهكذا يسير في حديثه، فإن قالوا كذا، قلنا كذا...الخ، فيخرج بذلك من الكلام الرتيب إلى جو حيوي من الحوار والمناقشة والأخذ والرد، وكأن القارئ حاضر بين طرفين يحاول كل منهما أن يثبت صحة مذهبه وبطلان مذهب الآخر، وينجذب إلى معرفة ما سيكون الرد للاعتراضات التي تظهر بين حين وآخر.

والحقيقة فإن مثل هذا الحوار المفترض وإن كان يسأل المحاور نفسه، ويمكنه التحكم في الاعتراضات التي يفترضها بحيث تكون تحت سيطرته، فإن الخطورة واضحة في أنه قد لا يستطيع أن يأتي برد يقنع القارئ للاعتراض الذي افترضه، فيخسر الجولة ويقضي على نفسه بيده، وقد كان القرطبي موفقا إلى أبعد الحدود في مثل هذا الأسلوب، وكانت الاعتراضات التي يفترضها شاملة للجانب الشرعي والجانب العقلي مما يدل على أنه لم يكن يتحكم في إيراد الاعتراضات، وأنه كان على ثقة تامة من نفسه، وبالحجج التي بين يديه، وعدم خوفه من أن ينقلب الأمر عليه.

هـ- القصة:

القصة في اللغة من قصَّ أثره قصاً وقصصا، أي تتبَّعه، وقص الخبر أي أعلمه، والقاصّ من يأتي بالقصة[٢].

والقصة فن من فنون الأدب لها تعريف خاص وضوابط معينة عند أهل الأدب، فهم يعرفونها بأنها: « مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب، وهي تتناول حادثة واحدة أو حوادث عدة، تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة تتباين أساليب عيشها

---

(١) المصدر السابق، ص٤٣٤.

(٢) انظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٨٥١، مادة (قصص).

وتصرفاتها في الحياة على غرار ما تتباين حياة الناس على وجه الأرض، ويكون نصيبها في القصة متفاوتا من حيث التأثر والتأثير... والقصة حوادث يخترعها الخيال، وهي بهذا لا تعرض لنا الواقع كما تعرضه كتب التاريخ والسير...»[١].

والمقصود بها هنا ليست القصة التي تعارف عليها أهل الأدب بمقوماتها الفنية، إنما المعني بها أي حكاية لمجموعة من الأحداث تحمل في ثناياها غرض دعوي، من خلال العبر التي تستقى منها، سواء أكانت متخيلة أم واقعية «فقد يساق الدليل في قصة ويأخذ صورته من واقع الحياة في حوادثها، فتصغي إليه الآذان، وتميل إليه النفوس، وترتاح إليه الأفئدة، وتتأثر بما فيه من عظات وعبر»[٢]. وقد تصاغ القصة بأسلوب عاطفي[٢]، أو تتضمن حقائق علمية، وبدهيات عقلية، لذلك فإنه من الأنسب أن تصنف القصة ضمن الأساليب الفنية، لأنها شكل فني تصاغ في بوتقتها القضية الدعوية المراد إقناع الناس بها.

والقصص التي ذكرها الإمام القرطبي -رحمه الله- تعد بعضها حقائق تاريخية ثابتة بالكتاب والسنة، والبعض الآخر يفتقر إلى التأكد من صحتها، لأنه يرويها بصيغة التمريض بلفظ حكي لنا، ووصف لنا عن كذا وكذا[٣].

ومن القصص الثابتة التي أوردها القرطبي في معرض استدلاله على نبوة محمد ﷺ قصة يهوديين زنيا بالمدينة فعوقبا بالتحميم والطواف بهما في شوارع المدينة، وادعى أحبار اليهود أن ذلك موجود في كتبهم، فأمرهم النبي ﷺ أن يأتوا

---

(١) د. محمد يوسف نجم، فن القصة، ص٩-١٠، ط٧، دار الثقافة، ١٩٧٩م بيروت.

(٢) الألمعي، مناهج الجدل، ص٧٩.

(٢) عدّ الدكتور البيانوني القصص العاطفية من أساليب المنهج العاطفي في الدعوة، بينما عدّ التي يغلب عليها الجانب العقلي من الأساليب التي تدخل تحت المنهج العقلي للدعوة.
انظر: المدخل إلى علم الدعوة، ص٢٠٥، ٢١١.

(٣) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٣٨٤-٣٨٥.

بالتوراة، فحاولوا إخفاء آية الرجم الثابتة عندهم، إلا أن أمرهم افتضح فعوقب الزانيان بالرجم[1].

ومن القصص التي ذكرها أيضا قوله: «حُكي أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- بينما هو يوما نائم في المسجد إذ وقف على رأسه رجل يتشهد بشهادة الحق، فاستخبره، فقال: إني كنت من بطارقة الروم، وكنت ممن يحسن كلام العرب وغيرهم، فسمعت أسيرا من المسلمين يقرأ آية من القرآن فتأملتها فإذا هي قد جُمع فيها ما أنزل الله على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة، ثم قرأ عليه: ﴿**ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون**﴾[2]»[3].

ويروي القرطبي قصصا أخرى تنبئ عن خرافات وخدع يضلل القسس بها عوام النصارى، ويمكن الاكتفاء بذكر قصة واحدة منها حيث قال: «ولقد حكى لنا من يوثق بحديثه أن رجلا من اليهود كان قد حظي عند أحد رؤسائكم بالأندلس بوصلة كانت بينهما، فرام الرئيس أن يخرج اليهودي عن دينه، ويدخله في دين النصرانية، وقال له: ألا ترى هذه الأعجوبة: ظهور يد الله المسيح لنا في يوم معلوم من السنة؟ فقال له اليهودي: يا مولاي. أنا قد رضيت من هذا الأمر بشهادتك، وصدقتك عليه، فابحث عنه، فإن كان ما يزعم هؤلاء القسيسون حقا، دخلت في دينك، فخالط الرئيس الشك. فلما دنا ذلك اليوم، مشى ذلك الرئيس إلى ذلك المشهد، وقرب مالا يهديه هنالك، فبرز إليه الأساقفة، وقربوه لتقبيل اليد، فلما ظهر له من وراء

---

(١) المصدر السابق، ص٢٤٦. والقصة وردت بعدة ألفاظ في كتب الحديث، انظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب١٦، باب قول الله تعالى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم...٢٦، ج٤، ص١٨٦، وعند مسلم، كتاب الحدود٢٩، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى٦، حديث رقم١٦٩٩ . . ١٧٠٠، ج٢، ص١٣٢٧.

(٢) سورة النور، آية: ٥٢.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٣٣٠.

الستر، وضع يده فيه، فصاحوا به، وأغلظوا له القول، يقولون له: اتق الله. الآن تخسف بك الأرض، الآن تقع عليك السماء. الآن ترسل عليك الصواعق. فقال لهم: دعوا عنكم هذا كله، فإن هذه اليد لا أخل يدي عنها حتى أعلم حقا ما تصفون عنها، أم باطلا.

فلما رأوا الحجة فروا عنه، ولم يبق معه إلا اثنان أسراً إليه، وقالا له: ما تبغي في ذلك؟ أصبوت عن دين آبائك؟ أتريد أن تحل ربطا ربط منذ ألف سنة أو نحوها؟ قال: لا. ولكني أحب الوقوف على سر هذه اليد. فقالا: هي يد الأسقف، واقف خلف هذا الستر. فقال: أحب أن أراه، فقالا: أنت وذاك. فكشفا له عن قس مجدود الخدين، واقف خلف الستر، فلما عاينه الرئيس أرسل يده، وخرج إلى عسكره. فقال له اليهودي: يا مولاي ما تأمرني به؟ أدخل في دينك، وأخرج عن ديني؟ فقال له: رأيك. خرجت منه، أو فلا خرجت»[١].

فمن خلال هذه القصص يحاول القرطبي أن يقنع المتلقي بفساد الديانة النصرانية التي تعتمد على الخرافات والترهات التي ليس لها مستند عقلي أو شرعي، كما يحاول إبراز صدق النبي محمد ﷺ فيما جاء به من خلال القصص التي تبرز فيها ثبوت دعواه، والملاحظ أن القرطبي يعطي قصص أهل الكتاب يهودهم ونصاراهم مساحة أوسع وعناية أكبر، سواء أكان ذلك في ذكره لما وقع منها في عهد النبي ﷺ أم من بعده في أزمنة أخرى، وهذا بطبيعة الحال يعد أمرا إيجابيا، لأن المتلقي هم النصارى والكلام موجه إليهم، فحكاية قصص وقعت لأمثالهم أقرب إلى الإقناع منه بقص روايات أخرى لا علاقة لها بهم أو بمن يشبههم، واليهود والنصارى يلتقون في أمر مهم ألا وهو الإيمان بالتوراة وببعض كتب الأنبياء الملحقة بالعهد القديم.

---

(١) المصدر السابق، ٣٨٤-٣٨٥. وهناك قصص عن خرافات افتضح أمرها في ص٣٨٥، ٣٨٦.

و- ذكر النتيجة:

يحاول القرطبي بعد ذكره للأدلة النقلية والعقلية التي تؤيد موقفه -باعتبارها مقدمات لنتيجة ما يريد الوصول إليها- أن يأتي بالنتيجة التي توصل إليها، ولا يترك للقارئ مجالا بأن يسهو عن الغرض الأساس الذي من أجله حشدت الأدلة، فعندما تكلم عن الأقانيم وناقشها مناقشة علمية قال: «فتحصل من هذا كله، أن الأقانيم لا يصح عندهم أن تقال على الصفات النفسية، ولا على الصفات المعنوية، ولا يعقل هنالك أمر آخر متوسط بينهما، فقولهم في الأقانيم غير معقول»[(١)].

وفي موقف آخر حشد أدلة كثيرة نقلية وعقلية بخصوص تحريف الكتاب الذي بيد النصارى، فذكر بعد ذلك ما توصل إليه من خلال ذلك الحشد الهائل من الأدلة قائلا: «فقد حصل من هذا البحث الصحيح: أن التوراة والإنجيل لا تحصل الثقة بهما، فلا يصح الاستدلال بهما لكونهما غير متواترين وقابلين للتغيير»[(٢)].

وتعد النتيجة هي النقطة الأساس التي يرمي الداعية إلى إقناع المدعو بها، وتأكيدها بشكل واضح يعد مهما ومناسبا في هذه الحالة.

وفي المجادلات التي يسعى المرء فيها للوصول إلى الصواب والحقيقة لابد من ذكر النتيجة فيها، فهي أحد العناصر الرئيسة في الحجة، فالقائم بالإقناع يحلل حديثه إلى عنصرين، عنصر المقدمات التي تستند النتيجة إليها، وعنصر النتيجة القائمة على المقدمات، ويمكن أن يذكر النتيجة بعد الانتهاء من المقدمات، أو بين مقدمتين[(٣)].

ز- الفصاحة والبلاغة:

يطلق علماء اللغة «للكلام الواحد فصيحا بليغا إذا كان واضح المعنى، سهل

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٨٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٢١١.

(٣) انظر: عبد الله العوشن، كيف تقنع الآخرين، ص١٨٨-١٨٩.

اللفظ، جيد السبك، غير مستكره فج، ولا متكلّف وخِم»[١]، وقد حرص الإمام القرطبي -رحمه الله- أن يتميز كتابه بالفصاحة اللغوية والرصانة الأدبية البليغة، وكان يؤاخذ صاحب كتاب تثليث الوحدانية على أخطائه اللغوية، وسوء تركيب عباراته في مواضع كثيرة، بل كان يعد عليه الأخطاء عدا، فيقول مثلا: «أما إخلالك بالسؤال فأول ذلك أنك لحنت في هذا الفصل في ثمانية عشر موضعا...»[٢].

وكانت أبرز الأساليب البلاغية التي ظهرت بشكل واضح في كتابه السجع[٣] والاقتباس[٤]، فمن سجعه وهو يصف حال العرب قبل الإسلام من حيث تفننهم في أساليب الكلام يقول: «فكانوا يأتون من ذلك بالسحر الحلال، ويوردونه أعذب من الماء الزلال، فيخدعون بذلك الألباب، ويذللون الصعاب، ويذهبون الإحن، ويهيجون

---

(١) أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، كتاب الصناعتين، ص١٤، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل، ط، عيسى البابي الحلبي، مصر.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٧٢. وانظر: ٤٩، ٥٠ حيث أخذه على بعض الأخطاء في التعبير.

(٣) السجع هو: «تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد» ابن الأثير، المثل السائر، ج١، ص٢٠٨.

(٤) الاقتباس هو: أن يضمن المتكلم كلامه شيئا من القرآن -دون أن ينبه إليه للعلم به- تزيينا لنظامه وتضخيما لشأنه. وهو مقبول في الخطب والمواعظ والعهود ومدح الرسول ﷺ، وقد حكى الإجماع الدكتور بدوي طبانة على أن الاقتباس من كتاب الله خاصة، وأدخل البعض الآخر الحديث النبوي مع القرآن. انظر: فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص٢٠٢، تحقيق: أحمد حجازي السقا، ط١، المكتب الثقافي للنشر، ١٩٨٩م القاهرة. ود. بدوي طبانة، معجم البلاغة العربية، ج٢، ص٦٧١، ط، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م الرياض، ود. أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ج١، ص٢٧١، ط، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

الفتن، ويجرئون الجبان، ويبسطون يد الجعد البنان...»[١].

ففي هذا النص تظهر براعة القرطبي في التعبير، وفصاحته اللغوية، وتمكنه من فنون البلاغة والبيان، فقد اختار السجع القصير الذي هو «أوعر أنواع السجع مسلكا وأصعبها مدركا، وأخفها على القلب وأطيبها على السمع»[٢]، مما يجعل هذه الكلمات تصل إلى المتلقي بخفة ورشاقة، وتجذب انتباهه، وتطرب آذانه، فيواصل السماع حتى النهاية دون أن يشعر بملل.

وفي موقف آخر يقول القرطبي -رحمه الله- في صاحب كتاب تثليث الوحدانية: «فلو بصَّر الله هذا الجاهل المغالط بعيوبه، لكان سترها وكتمانها أعظم مطلوبه، لكن جهل فقال، وحيث وجب أن يسجد بال. فنقول : يا هذا. ألنا يقعقع بالشنان؟[٣] آلآخذ بالحنيفية يدان؟ كلا. والله، فليس مع الشمس سراج، ولا شجر المرخ من الساج...»[٤].

وعلماء البلاغة يرون أن السجع البريء من التكلف والتعسف من أرفع مراتب الكلام، وأعلاها، وأجل علوم البلاغة وأسناها، لأنه ورد في التنزيل[٥]، وهو مما

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٣٢٤.

(٢) يحيى العلوي، كتاب الطراز، ص٢٣.

(٣) الشنان: جمع الشَّن، والشنّة، وهي القربة الخَلَق، وتطلق أيضا على الخلق من كل آنية صنعت من جلد، وفي المثل: لا يقعقع لي بالشنان. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص٢٤١، مادة (شنن).

(٤) القرطبي، الإعلام، ص٤٠٢. والساج ضرب من الشجرعظيم جدا، وله ورق كبير.

(٥) يرى بعض العلماء عدم جواز وصف ما جاء في القرآن من أنحاء الفواصل بالسجع بحجة أن السجع تتبعه المعاني، والفواصل تتبع المعاني. انظر: كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري، كتاب الداعي إلى الإسلام، ص٤١٢، تحقيق: سيد حسين باغجوان، ط١، دار البشائر ١٤١٩هـ-١٩٨٨م، بيروت.

تشتاق النفس إليه وتميل الطباع نحوه، وبخاصة إذا كانت الألفاظ جميلة مألوفة دالة على معان مفيدة، وغير متكلفة، ولا مستبشعة[١].

أما في جانب الاقتباس فإنه كان يقتبس من القرآن الكريم، في مواقف كثيرة في أثناء حديثه، سواء أكان لوصف حال النصارى أم لترغيبهم وترهيبهم، فيقول مثلا: «أن هؤلاء القوم متحكمون بأهوائهم في دين الله، تاركون للعمل بكتاب الله وسنن رسل الله وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا»[٢]، فكلمة ﴿**وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا**﴾[٣] جزء من آية قرانية، أدخلها القرطبي في وسط حديثه وصفا لحالهم، وانطباق الآية عليهم دون أن يشير بقوله: قال تعالى أو غير ذلك.

وفي موقف آخر يقول: «فهؤلاء لم يعرفوا الله حق معرفته ولا قدروه حق قدره، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون»[٤]، وهنا أيضا اقتبس آية من كتاب الله ترهيبا وتخويفا للمدعوين النصارى، وهي قوله تعالى: ﴿**فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون**﴾[٥]، ففي هذا الجزء من الآية وعيد شديد للنصارى جراء تحريف كتاب الله بأيديهم واستهانتهم بما أنزل الله سبحانه وتعالى .

ح- الإجمال والتفصيل:

كان الإمام القرطبي -رحمه الله- يجمل أولا ثم يفصل أحيانا، وأحيانا أخرى يفصل ثم يلخص ما تم الحديث عنه إجمالا. والإجمال والتفصيل طريقة فنية يعرض

---

(١) انظر: يحيى العلوي، كتاب الطراز، ج٣، ص٢١-٢٨، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري،ص٢٦٦-٢٦٧.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٤٠١.

(٣) سورة الكهف، آية: ١٠٤.

(٤) القرطبي، الإعلام، ص١٩٥.

(٥) سورة البقرة، آية: ٧٩.

المتكلم بها حديثه، بغية وصول المطلوب إلى أذن المستمع وعقله بطريقة منظمة ومنسقة.

ولما تحدث القرطبي عن دلائل نبوة محمد ﷺ المتمثلة في صفات الكمال البشري والفضائل التي تميز بها ﷺ قال: «فقد انحصرت صفات الكمال في أربعة أقسام: كمال ظاهر ضروري، وكمال ظاهر مكتسب، وكمال باطن ضروري، وكمال باطن مكتسب.

وقد جمع الله هذه الأربعة الأصناف للنبي ﷺ ونحن نذكرها جملة ثم نشرع بعده في التفصيل إن شاء الله تعالى...

فمن ذلك: كمال خلقته، وجمال صورته، وفصاحة لسانه، وشرف نسبه، وعزة قومه، وكرم أرضه، وقوة عقله، وصحة فهمه...الخ»[١].

ثم بدأ يفصل في الحديث عن هذه النقاط بالأدلة النقلية والعقلية، ويذكر فائدتها الدعوية، وأهميتها في تصديق الناس نبوة محمد ﷺ وتقبلهم لها، ومن ثم أثرها في انتشار الدعوة الإسلامية.

ومن الإجمال الذي أورده القرطبي بعد التفصيل أنه بعد أن أورد النصوص المنقولة عن العهد القديم المحتوية على ما لا يليق بالأنبياء قال مجملا ما جاء فيها: «فهذه الحكايات الوخيمة والأقوال غير المستقيمة تضمنت الإخبار عن لوط بأنه زنى بابنتيه، وأنهما حملتا منه من الزنى، وأن نبوة يعقوب إنما حصلت له بأن خدع إسحاق ومكر به....الخ»[٢].

وقد أكد القرطبي على أنه يلتزم في كتابه شرط الاختصار في غير ما موضع، وإن كان في بعض الأحيان قد توسع في بعض النقاط كما اعترف هو بذلك، والغالب في حديثه كان الاعتدال بين الاختصار والإطالة[٣].

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٢١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٠٠.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص٨٤، ١٠٨، ١٤٢، ٢٩١، ٤٠٥.

فهذه نماذج من الأساليب الفنية التي سار عليها القرطبي -رحمه الله- في دعوة النصارى إلى الإسلام.

٢) قيمة الأساليب الفنية عند القرطبي في دعوة النصارى:

إن للأساليب الفنية التي يختارها الداعية في الكتابة والحديث المباشر أوالحوار والجدال والمناقشات، -أي في عرض دعوته بأي شكل من أشكال الاتصال- أثرا على المدعو وإقناعه بما يدعى إليه، فالداعية الذي ينتقل من العقل إلى العاطفة، ومن الاستدلال بالمنقول إلى الاستدلال بالمعقول، ومن الإنشاء إلى الخبر، ومن السؤال إلى الجواب، ومن النداء إلى الحث، ومن الشدة إلى التلطف خير من ذلك الذي يسلك خطا واحدا لا يحيد عنه دون أن يراعي الخصائص النفسية للمدعويين، ولا الأساليب التي تتوافق وموضوع الدعوة.

والأساليب الفنية التي اختارها القرطبي -رحمه الله- يمكن القول فيها بأنها ذات قيمة دعوية، فتعديد الداعية في أساليب دعوته وتنويعها يخرجه من الجمود والسير على وتيرة واحدة، وتحريه التلاؤم والاتساق بين مضمون الدعوة والأسلوب الذي تعرض فيه يعطيه ثماراً طيبة -بإذن الله-.

فالنصارى كغيرهم من البشر يختلفون في تأثير الأساليب العقلية والعاطفية وغيرها عليهم، فمنهم من تستهويه الجوانب العقلية وتؤثر فيه بشكل أعمق القياسات المنطقية، والحجج المبنية على الاستقراء والاستنباط والمقارنة، وبعضهم من تستميله العاطفة فيتأثر بالترغيب والترهيب، واللطف والرفق؛ ولذلك فإن انتقالات القرطبي من الحوار والمناقشة الهادئة إلى القوة والشدة في العبارة، ومن العاطفة إلى المنطق العقلي والاستدلال الفكري، والتنويع في الأدلة النقلية من القرآن الكريم والسنة النبوية، وما جاء في كتب النصارى المقدسة وغيرها، بشكل متوازن مع مراعاته خصائص المدعو، يبدو واضحا جدا للعيان من خلال ما مر من الفصول، وقد احتوى بذلك جميع الأساليب التي طرقها صاحب كتاب تثليث الوحدانية من

الاستدلالات العقلية والنقلية، وزاد عليها، بحيث قطع الطريق على هذا النصراني وعلى غيره ممن يفكر في صلاح الديانة النصرانية لنفسه أو يحاول إقناع الناس بها بشبهات ما يحسبها أدلة.

ويلاحظ على القرطبي-رحمه الله- تقديمه نقد أصول الديانة النصرانية على الجوانب التشريعية والشعائر الأخرى، وهو أمر طبعي؛ لأن الأصول مقدمة على الفروع، وإذا ثبتت الأصول فإثبات الفرع أسهل، وإذا هدم الأصل فهدم الفرع أسهل، وإذا تم إقناع النصارى بفساد عقيدة التثليث، وتحريف الكتاب المقدس لديهم، وثبوت نبوة محمد ﷺ فإنه لن يكون إقناعهم شاقا بفساد شعيرة التعميد وغيرها، إلا أنه من المهم طبعا أن يستفاد من الجوانب الفرعية للديانة النصرانية للاستدلال من خلالها على إثبات فساد الأصول والفروع جميعا.

ومن الأمور التي راعى فيها القرطبي حالة المدعو أنه قدم في موقف من المواقف نصوص الكتاب المقدس لدى النصارى على نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية في الاستدلال على نبوة محمد ﷺ ، وذلك لأن الطرف المقابل أصر في طلبه على الاستدلال بنصوص كتابه ظنا منه أن القرطبي لن يجد نصا يستدل به، فاستجاب القرطبي لهذا الطلب لكسر التحدي الذي ظهر من طلب النصراني، وفي ذلك إفحام ما بعده إفحام، ولو كان القرطبي -رحمه الله- يراعي جانب نفسه لقدم أدلة القرآن الكريم؛ لأنها أقوى في الدلالة والورود من تلك، فأدلتها قطعية الثبوت والدلالة ولا تقبل التشكيك عنده وعند كل عاقل منصف.

ومما وُفق فيه القرطبي تقديمه التخلية على التحلية، ومما يؤكد على القيمة الدعوية لهذا الأسلوب أنه مما راعاه القرآن الكريم في خطابه للعالمين[1]، وذلك أن التحلية متوقفة على حدوث التخلية، فلا يمكن الجمع بين الكفر والإيمان، فلا بد للنصراني أن ينبذ عقيدة التثليث وغيرها من العقائد الفاسدة ويخلي قلبه منها قبل أن يتناول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله كما جاء في القرآن الكريم. والداعية ينبغي

---

(١) انظر: أبو السعود، تفسير أبي السعود، ج٤، ص١٨٣.

أن يحرص دائما أن يحلي بعد كل تخلية، فلعله ينجح في موقف من المواقف في زعزعة المدعو عن عقيدته، وفي هذه الحالة عليه أن يستفيد من الحالة النفسية التي وصل إليها المدعو، حيث أصبح الشك يدق قلبه، والخواء العقدي يجد طريقه فيه، فالحالة هنا تعد مناسبة لإعطاء جرعات تكون البديل المناسب لما تم إفراغه، فترك المدعو شاكا فيما يعتقد أو فارغا من أي اعتقاد غير مناسب البتة، وكأن جهد الداعية هنا قد ذهب سدا، فالغرض من الدعوة ليس إخراج المدعو من ظلمات الفساد العقدي إلى ظلمات الضياع والتردد والشك، بل لا بد من أخذ المدعو إلى نور العقيدة الصافية التي لا يكدرها شك ولا حيرة.

ولم ينس القرطبي -رحمه الله- أن يزيد التحلية حلاوة بذكر بعض محاسن التشريع الإسلامي وحِكمه البالغة نقضا لكل المحاولات التي كانت تسعى إلى إثارة الشبهات، وتشويه صورة الشريعة الإسلامية أمام أعين النصارى الذين قد تراودهم أنفسهم لاعتناق الديانة الإسلامية، فعمل القرطبي أعطى أولئك الذين قد يتخوفون من أحكام الشريعة الإسلامية، ويتأثرون بالإشاعات التي يبثها أعداء الله من دعاة الشر جرعة تزيل عنهم تلك الشبهات.

والتكرار في عرف علماء الاتصال بالجماهير يعد أسلوبا فنيا من أساليب الدعاية والإعلان، فإن مجرد تكرار فقرات أو عبارات معينة يؤدي إلى تصديقها، وإن كانت كاذبة، بشرط أن لا يصل إلى حد الإملال، وأن يعرض بأساليب متنوعة في خطوطه العامة[١].

فالتكرار ضرورة تعليمية تربوية، وتأثيره يشمل الخاصة والعامة؛ لأن الإنسان لا يتأثر دائما في فكره وعمله التأثير المطلوب والمناسب بالحوار العقلي والحجة المنطقية لأول وهلة، بل لا بد من تحويل ما يوجه إليه من معلومات من ميدان الشعور إلى ميدان اللاشعور من خلال التكرار، بحيث تمتزج الفكرة بأعماق روحه،

---

(١) انظر: د. أحمد بدر، الاتصال بالجماهير والدعاية الدولية، ص١٧٥، ط١، دار القلم، ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م، الكويت.

فيتصرف لا شعوريا وفق ذلك[١].

فإذا كانت الأكاذيب يمكن أن يصدقها الناس بواسطة التكرار فمن باب أولى أن يسهل أسلوب التكرير في إقناع الناس بالحق، وإذا كان أصحاب الدعاية والإعلان الذين يروجون لسلعهم ويهدفون إلى شراء المستهلك لسلعتهم وإن لم يقتنع بها، فإنه في مجال الدعوة لا يكفي أن يتصرف المدعو وفق ما أراد له الداعية لاشعوريا، بل لا بد أن يصل إلى مرحلة الاقتناع، فالمسألة دين يترتب عليها ثواب وعقاب. وقد جاء في القرآن الكريم أسلوب التكرار لتحقيق أهداف دعوية في سورة الرحمن وسورة المرسلات، وغيرها من المواضع كتكرار القصص[٢] بأكثر من وجه.

والقضايا التي كان يكررها القرطبي -رحمه الله- قضايا حساسة جدا في الديانة النصرانية، وهي قضايا نفي ألوهية المسيح -عليه السلام- وإثبات عدم تواتر الكتاب المقدس عند النصارى، في محاولة منه إلى شد الانتباه إلى هذين القضيتين وتأكيدهما في ذهن القارئ، حتى يحفظها ولا ينساها، فالنصراني كلما حاول أن يمسك بالكتاب المقدس عنده لقراءته، أو سمع شيئا منه على لسان قس يتلوه فستلح على ذهنه دائما قضية عدم تواتر هذا الكتاب وإمكان تحريفه، مما يدفعه إلى التساؤل الدائم والبحث عن الحق في هذه القضية التي إن جدّ فيها وأنصف فسيكون لا محالة موافقا للقرطبي -رحمه الله-، وكذلك في قضية عيسى -عليه السلام-.

---

(١) انظر: محمد أبو زهرة، الخطابة أصولها تأريخها في أزهر عصورها عند العرب، ص٦٦، ط١، دار الفكر العربي. ورمضان لاوند، من قضايا الإعلام في القرآن، ص٢٢٧، ط، مطابع الهدف.

(٢) حول فوائد تكرار القصص في القرآن الكريم انظر: عبد الوهاب بن لطف الديلمي، معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، ج١، ص٤١٤-٤١٨، رسالة دكتوراه، ط١، دار المجتمع للنشر والتوزيع، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، جدة.

ومن الأمور التي كررها أيضا كانت بعض النصوص المنقولة من القرآن الكريم، أو السنة النبوية، أو نصوص العهد القديم والجديد، وهذه كانت تتطلبها بعض المواقف لمقارنة بعض النصوص، أو قد يكون في نص واحد أكثر من دليل، فيورده في مكان ما دليلا لقضية ، وفي مكان آخر دليلا لقضية أخرى.

وأسلوب الحوار والمجادلة والمناقشات والأخذ والرد، وإدلاء كل طرف من أطراف الحديث بحجته يوجِد جوا من الحيوية للحديث، ويعطي المطلع على ذلك فرصة أكبر للتعرف على حجج الطرفين وأدلتهما، وأي الأدلة أثبت أمام نقوضات الخصم، وأيها أكثر هشاشة أمام الحجج الدامغة التي بنيت على أسس ثابتة.

وللقصص تأثيرات نفسية وانطباعات ذهنية، وتمتاز دائما بسهولة الاستيعاب والإثارة والجاذبية[1] والتشويق، فتتابع الأحداث وترابطها يشد انتباه المستمع ويتلهف لسماع نهاية القصة والنتائج التي تترتب عليها، وكلما كانت القصة ذات علاقة بالمستمع سواء أمن الناحية الدينية أم الثقافية أم الاجتماعية كان الانجذاب إليها أشد، ووقع العبر المستخلصة منها أعمق في النفس.

والقصص التي أوردها القرطبي -رحمه الله- كان الكثير منها يرتبط بالحياة الدينية والثقافية والاجتماعية للنصارى فهو يذكر الحكايات الخرافية الباطلة التي اخترعها رجال الدين النصراني والتي سادت البيئة الأندلسية حتى افتضح أمرها أمام الناس، مما يدل على أن الديانة النصرانية مبنية على الترهات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

وكذلك فإن القرطبي -رحمه الله- يحاول تسجيل شهادات النصارى من خلال ذكر القصص التي واكبت اعتناقهم الإسلام، كقصة سلمان الفارسي[2] -رضي الله

---

(١) انظر: د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص٣١٤، ود. أحمد المورعي، الحكمة والموعظة الحسنة، ص٢٨٨.

(٢) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٢٨٩-٢٩٠، وقد أوردها ابن هشام في السيرة، ج١، ص٢١٤، وما بعدها.

عنه- الذي جاء يبحث عن النبي ﷺ وفق نصيحة أسداها إليه راهب نصراني، وقصة الراهب بحيرى الذي شاهد النبي ﷺ في صباه في طريقه إلى الشام وذكر أنه سيكون له شأن، وحذر عمه من اليهود[١]، وقصة أبي سفيان مع هرقل ملك الروم الذي سأله عن دعوة الرسول ﷺ وصفاته وأعماله، فوجد أنها صفات الأنبياء،[٢] وقصة وفد نصارى نجران، وقصة البطريق الرومي الذي تشهد أمام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.... فهذه قصص فيها تأييد لرسالة الإسلام، بشهادات النصارى الذين عاصروا الإسلام وعرفوه عن قرب وأنصفوا في الحكم عليه، فآمن منهم من آمن، وكفر منهم من كفر بعد أن تبين له الحق طمعا في حظوظ الدنيا، واتباعا للهوى وإرضاء للشهوات.

إن حسن العرض والترتيب والتركيز على النتائج، واستخدام كل ما من شأنه أن يعين المتلقي (المدعو) في فهم مراد المرسل (الداعي)، لهو أسلوب حكيم في عرض الدعوة، وقد يتشتت الحديث ويستطرد المتكلم عند اشتداد المناقشات والمجادلات، وتطول المقدمات والاستدلالات، ولذلك فإنه يصبح من الضروري أن يجمل المتحدث ما سبق الحديث عنه، ويذكر النتيجة التي توصل إليها من خلال حديثه كله، «حتى في الخطابة والمحاضرات يستحسن دائما أن يجمع الإنسان شتات الموضوع في نقاط محددة يوردها في آخر الحديث بحيث يلخصها في عناصر محددة، وفي ذلك فائدة كبيرة؛ لأن كثير الكلام ينسي بعضه بعضا، وربما لا يبقى في ذهن السامع إلا هذه العناصر المحددة»[٣].

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٢٨٥-٢٨٧، وقد ذكر القصة ابن هشام في السيرة، ج١، ص١٨٠. وبحيرى هذا قيل أن اسمه جرجس، كان يسكن في صومعة تقع في بصرى بالشام، انظر هامش سيرة ابن هشام.

(٢) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٣١٥، والقصة مذكورة بطولها في صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير٥٦، باب دعاء النبي ﷺ ١٠٢، ج٤، ص٢-٥.

(٣) الندوة العالمية، أصول الحوار، ص٥٠.

وما أجمل أن يكون الحديث في ثوب قشيب من العبارات الجميلة السهلة الخفيفة على السمع، ومغلفا بأروع أساليب البيان، من الاستعارات، والكنايات، والأمثال وغيرها؛ مما يجعل القارئ يجد متنفسا يرتاح فيه من جمود تلك الأساليب الرتيبة للموازين العقلية والقياسات المنطقية، وهو ما فعله الإمام القرطبي -رحمه الله- بسلوكه بعض الأساليب الأدبية البلاغية الممتعة، ويكفي لبيان قيمة الفصاحة والبلاغة في الدعوة أن جاء القرآن الكريم بأسلوب عال من الفصاحة يعجز الخلق عن الإتيان بمثله.

الفصل الرابع

بيئة القرافي

المبحث الأول: الحالة السياسية والاجتماعية والدينية في عصره.

المبحث الثاني: الصراع الدعوي بين المسلمين والنصارى في عصره.

المبحث الثالث: آثار هذه البيئة على أسلوب القرافي في دعوة النصارى. الآثار الإيجابية- الآثار السلبية.

المبحث الأول

الحالة السياسية والاجتماعية والدينية في عصره

تمثل الأحوال السائدة في عصر من العصور وفي بيئة من البيئات أحد الروافد التي تؤثر في التكوين الفكري للناس عامة وللعلماء خاصة، ويظهر هذا التأثر في مناهجهم وأساليبهم وفي عرض أفكارهم وآرائهم. وبالمقابل يمكن للعلماء أن يؤثروا على عصر من العصور ويتركوا بصمات واضحة في سير الأحداث التاريخية، ولعل الحديث عن الأحوال السياسية والاجتماعية والدينية لعصر القرافي -رحمه الله- يعطي أرضية مناسبة لفهم الأساليب الدعوية التي اختار السير عليها، والدوافع التي جعلته يكتب في الرد على النصارى، ودعوتهم إلى نبذ معتقدهم الباطل، والانقياد لدعوة الحق.

* *الحالة السياسية:*

عاش القرافي -رحمه الله- في مصر في القرن السابع الهجري الذي شهد أحداثا جساما، وتغيرات سياسية واضحة غيرت من مجرى التاريخ، فقد عاصر القرافي سقوط الخلافة الإسلامية في بغداد أمام زحف التتار، وشهد سقوط الدولة الأيوبية، وقيام الدولة المملوكية على أنقاضها، بالإضافة إلى الاضطرابات السياسية التي كانت تتخلل عصر هاتين الدولتين.

ففي السنة التي ولد فيها القرافي أي عام ٦٢٦هـ كان ملوك بني أيوب في حالة اختلاف وشتات، قد صاروا أحزابا وفرقا، وقويت شوكة الفرنجة حتى تسلموا القدس الشريف صلحاً، وبدأ الملك الكامل محمد[1] الذي كان يحكم مصر يبسط

---

(١) هو الكامل محمد بن محمد العادل ابن أيوب، أحد ملوك بني أيوب، ولد بمصر سنة ٥٧٦هـ ولي الديار المصرية في عهد والده، وتولاها مستقلا بعد وفاة والده سنة ٦١٥هـ، وكان يحب مجالس العلم والعلماء، ويباحثهم، وشهد عهده نوعا من الأمن والازدهار في شتى المجالات، توفي بدمشق سنة ٦٣٦هـ. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٧١، والصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص١٩٣، والزركلي، الأعلام، ج٧، ص٢٩.

نفوذه في الشام[١].

وكان حكم الأيوبيين لمصر قد بدأ عام ٥٦٧هـ، حيث خُطب للخليفة العباسي، وانتهى حكمهم في عام ٦٤٨هـ[٢]، فعاش القرافي العقدين الأولين من حياته في ظل الدولة الأيوبية، وشهدت هذه الفترة اشتداد الهجمات الصليبية على المسلمين، كما شهدت اضطرابا سياسيا في الداخل، فبعد أن توفي الملك الكامل في عام ٦٣٥هـ عاشت البلاد فترة سنتين تقريبا خالية من الاستقرار، ثم آل الأمر للملك الصالح أيوب[٣] سنة ٦٣٧هـ فاستقر الحال، وفي عهده جرد ملك فرنسا لويس التاسع حملة صليبية على مصر استولى فيها على دمياط سنة ٦٤٧هـ، وتوفي الملك الصالح في هذه الظروف الصعبة، فما كان من زوجته إلا أن أخفت خبر وفاته وأرسلت إلى ابنه توران شاه[٤] فتولى مكان أبيه، وتمكن المسلمون من إلحاق هزيمة ساحقة

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٤٣.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ج١٢، ص٢٨٥، ود. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج٤ ص١٠١ ط١٣، دار الجيل، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، بيروت.

(٣) الملك الصالح أيوب بن محمد الكامل بن محمد العادل أبي بكر، أحد ملوك الأيوبيين، ولد في مصر سنة ٦٠٣هـ ونشأ فيها، ولي سنة ٦٣٧هـ، وتوفي سنة٦٤٧هـ بالمنصورة، انظر: المقريزي، السلوك، ج١، ص٢٩٦-٣٤٢، صححه ووضع هوامشه: د. محمد مصطفى زيادة، ط٢، لجنة التأليف والترجمة، ١٩٥٦م، القاهرة، والزركلي، الأعلام، ج٢، ص٣٨.

(٤) توران شاه بن الصالح أيوب بن الكامل محمد، ثامن سلاطين الأيوبيين وآخرهم بمصر، كان ملكه بعد أبيه، واستمر أقل من شهرين، قتله المماليك سنة ٦٤٨هـ وهو عائد من معركة دمياط التي انتصر فيها على الفرنج انظر: المقريزي، السلوك، ج١، ص٣٥١-٣٦١، والزركلي، الأعلام، ج٢، ص٩٠.

بالصليبين حتى تم أسر الملك لويس التاسع، عام ٦٤٨هـ[١]، وكانت الحروب الصليبية قد بدأت في سنة ٤٩٠هـ متوجهة إلى إفريقيا أولاً ثم عدلت وجهتها إلى بيت المقدس قبولا بنصيحة ملك صقلية لأسباب عديدة ذكرها المؤرخون[٢].

وقد عاش القرافي -رحمه الله- غالب سنوات عمره التي تمثل فترة نضجه الفكري وإنتاجه العلمي -أي ما يقارب الأربعين عاما-، في عهد المماليك الذين بدأ عهدهم بقتل توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، عام ٦٤٨هـ الذي لم يدم حكمه سوى شهرين، وولوا مكانه شجرة الدر[٣] زوجة الملك الصالح، إلا أن حكمها أيضا لم يستمر غير أقل من ثلاثة أشهر، فتولى السلطة بعد تنازلها عزالدين أيبك[٤] فكان هو أول سلاطين المماليك الذين حكموا مصر، وتزوج من شجرة الدر التي

---

(١) انظر:ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠١-٢٠٢، ود. حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي، ج٤، ص١٠١ وما بعدها.

(٢) انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٧٢-٢٧٣، ومحمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، ج١، ص٢٩٢. وقد ذكر ابن الأثير الأسباب التي جعلت ملك صقلية ينصح لويس التاسع بمهاجمة القدس لا مصر، فمن أراد الاستزادة فليراجعه.

(٣) أم خليل التركية، كانت من حظايا الملك الصالح نجم الدين أيوب، أعتقها وتزوجها وملكت الديار المصرية بعد مقتل ابن زوجها توران شاه مدة ثلاثة أشهرتقريبا، وتزوجت من وزيرها عزالدين أيبك فتنازلت له عن الملك، قتلت سنة ٦٥٥هـ. انظر: المقريزي، السلوك، ج١، ص٣٦١، و ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٢٥، والزركلي، الأعلام، ج٣، ص١٥٨.

(٤) عز الدين أيبك بن عبد الله التركماني الصالحي، أول ملوك الأتراك، كان من أكبر مماليك الصالح نجم الدين أيوب، مكث في الملك سبع سنين تقريبا، قتل سنة ٦٥٥هـ انظر: المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣٦٨-٤٠٤، وابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٢٥، والزركلي، الأعلام، ج٢، ص٢٣.

قتلته في عام ٦٥٥هـ لأنه نما إلى علمها أنه خطب إحدى أميرات الموصل بقصد الزواج عليها.

وعلى كل فقد صار الأمر للمماليك فيما بعد يتولى السلطة أحدهم بعد أن يعزل من سبقه أو يقتله، وقد تعرضت دولة المماليك منذ تأسيسها لعدد من الحروب بدءاً بالحملات الصليبية التي انتهت في الفترة التي تأسست فيها دولة المماليك بإطلاقهم للملك لويس التاسع، ومرورا بتصفية بقايا الأيوبيين والفرنج في الشام، وثورات الأعراب ، والمنافسات المحمومة بين المماليك أنفسهم، ثم تصديهم لهجمات التتار الذين أسقطوا الخلافة الإسلامية في بغداد وقتلوا خلقا كثيرا واستباحوها وخربوا كل شيء فيها عام ٦٥٦هـ، وتمكن المماليك من إيقاف زحفهم إلى مصر في موقعة عين جالوت[١] بقيادة الملك قطز[٢] في عام ٦٥٨هـ بل وكسر شوكتهم وإجلائهم عن الشام[٣].

---

(١) بليدة في فلسطين بين بيسان ونابلس. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص١٧٧.

(٢) الملك قطز بن عبد الله المعزي، سيف الدين التركي، ثالث ملوك المماليك بمصر والشام، تولى السلطنة بعد عزل نور الدين المنصور علي، سنة ٦٥٨هـ، دحر التتار في موقعة عين جالوت، مات سنة ٦٥٧هـ قتلاً على يد قائده الظاهر بيبرس عندما كان عائدا من موقعة عين جالوت. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٥٤، والمقريزي، السلوك، ج١، ص٤١٧-٤٣٥، والزركلي، الأعلام، ج٥، ص٢٠١.

(٣) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠١-٢٠٢، ٢٢٥-٢٢٦، ٢٤٨-٢٥١، والقرطبي، التذكرة في أحوال الموتى، ص٥٩٥، ود. حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي، ج٤، ص٣٠٨، ود. أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ص١٢١، ١٢٤-١٦٨، ط، دار النهضة العربية، ١٩٦٩م.

وكان السلطان الظاهر بيبرس[1] من أبرز سلاطين المماليك، واستمر حكمه من عام ٦٥٨هـ إلى ٦٧٦هـ، حيث عمر البلاد وفتح المدن والحصون، وحاول أن يعطي ملكه صفة شرعية باستدعائه أحد أبناء خلفاء بني العباس وهو أبو القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله في سنة ٦٥٩هـ، وبايعه خليفة للمسلمين، ودعى الناس لبيعته، وخطب له، وضرب اسمه على السكة، على أن يتولى الظاهر بيبرس إدارة البلاد وتصريف شؤونها[2]، فأصبحت مصر بهذا «دار الخلافة، وعظم أمرها وكثرت شعائر الإسلام فيها، وعلت فيها السنة، وعفت منها البدعة، وصارت محل سكن العلماء ومحط الرجال الفضلاء، وهذا سر من أسرار الله أودعه في الخلافة النبوية حيث كانت يكون معها الإيمان والكتاب»[3].

إذن فإن مصر في العصر المملوكي تبوأت مكانة مهمة في العالم الإسلامي، وصارت عاصمة الدولة الإسلامية ومقر الخلافة، وقصدها الكثير من العلماء والسادة والوجهاء الذين قدموا من العراق والشام شرقا، ومن الأندلس غربا، فاستقروا بها وأسهموا بشكل أو آخر في الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والعلمية وغيرها.

---

(١) الظاهر بيبرس العلائي البندقداري، مولده بأرض القبجاق سنة ٦٢٥هـ، وتولى الملك سنة ٦٥٧هـ فتح الكثير من المدن والحصون التي كانت بيد الفرنج، وانتزع بلادا كثيرة من التتار، وشهد عصره نهضة جيدة في البلاد، توفي سنة ٦٧٦هـ. انظر: المقريزي، السلوك، ج١، ص٤٣٦ وما بعدها، وابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٠٥-٣٠٧، والزركلي، الأعلام، ج٢، ص٧٩.

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٦٠ وما بعدها، و٣٠٥-٣٠٧، والسيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٥٢-٥٣.

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٩٤.

وقد عاصر القرافي سبعة من سلاطين المماليك في أربعين عاما تقريبا[(١)]، مما يعني أن الاستقرار السياسي لم يكن متوفرا في تلك الحقبة، وكان في الغالب يتم انتقال الملك من سلطان إلى آخر إما بالعزل والخلع، أو بإراقة الدماء بقتل السلطان ومن يقف معه مؤيدا، مما يعني أن السلاطين أنفسهم كانوا تحت رحمة الأمراء الذين كانوا يثورون على كل من لم ينل رضاهم، فإنهم إن سخطوا على أحد من السلاطين تآمروا عليه، وأبعدوه إما بالخلع أو القتل[(٢)]، وقد كان هذا الأمر ملاحظا في سلاطين الأيوبيين أيضا[(٢)].

إذن فالسمة البارزة للحالة السياسية في عصر القرافي -رحمه الله- هي شدة

(١) سلاطين المماليك الذين عاصر القرافي حكمهم:

١- المعز أيبك (٦٤٨-٦٥٥هـ) ٢- المنصور علي (٦٥٥-٦٥٧هـ)

٣- المظفر قطز (٦٥٧-٦٥٨هـ) ٤- الظاهر بيبرز (٦٥٨-٦٧٦هـ)

٥- السعيد بركة خان (٦٧٦-٦٧٨هـ) ٦- العادل سلامش (٦٧٨هـ)

٧- المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ).

انظر: د. عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ص٢٣، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩م.

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٢١-٣٢٣، والسيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٦٨-٧٠، والأتابكي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٧، وعبد الله إبراهيم، الإمام شهاب الدين القرافي وأثره في الفقه الإسلامي، ص٢٦. ود. عياضة بن نامي السلمي، شهاب الدين القرافي، حياته، وآراؤه الأصولية، ص٤٠-٤٣.

(٢) على سبيل المثال في العصر الأيوبي قُتل الملك العادل كمال الدين أبو بكر بن الملك الكامل بن أيوب خنقا بقلعة دمشق بيد أخيه الملك الصالح عام ٦٤٦هـ. انظر: ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٢٣٦. واتفق الأمراء في العصر المملوكي على عزل الملك السعيد وتولية أخيه الملك العادل سلامش عام ٦٧٨هـ. انظر: الأتابكي، النجوم، الزاهرة، ج٧، ص٢٥٩-٢٨٦.

الاضطرابات السياسية الداخلية والخارجية، وانعدام الاستقرار بشكل عام.

وقد جعلت هذه الأوضاع غير الطبيعية حياة الناس مليئة بالسخط على الأمراء الذين يحيكون المؤامرات ضد السلاطين، كما جعلتهم يكرهون حياة الاستبداد التي كان يعيشها بعض الأمراء، فكان الناس ينحازون إلى بعض السلاطين الذين يجدون فيهم العدل والإنصاف، وحب الجهاد في سبيل الله، وبخاصة أن الحروب التي خرج المسلمون منها بنصر كبير ضد الصليبيين والتتار كانت قد قاربت بين السلاطين ورعاياهم وبوجه خاص العلماء الذين وجدوا حرية ملحوظة في توجيه النصح للسلاطين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر[1].

*** الحالة الاجتماعية والدينية:**

تكوَّن المجتمع المصري في عصر المماليك الذي عاش فيه القرافي -رحمه الله-، من سبع فئات اجتماعية تقريبا، وهم: المماليك، المعممون، التجار، طوائف السكان وأرباب المهن في المدن، الفلاحون، أهل الذمة، الأقليات الأجنبية.

فالمماليك هم الطبقة العسكرية الممتازة التي تحكم بسيطرتها على البلاد وأهلها، وهم في الأصل أرقاء تمكنوا من استلام السلطة في مصر بسبب القوة العسكرية الفائقة التي كانوا يتمتعون بها؛ فأصبح الكثير منهم أمراء خصصت لهم العطايا من بيت المال، وأغدقت عليهم الهدايا، فانغمس بعضهم في الملذات وحياة اللهو.

والمعممون هم أرباب الوظائف الرسمية في دواوين الدولة والسلاطين، والفقهاء، والعلماء والأدباء، والكتّاب، وكانوا في الغالب ينالون التقدير والاحترام من قبل السلاطين، ويعيشون في سعة ورخاء.

والتجار وهم الذين كانوا يجلبون البضائع المتنوعة بالسفن البحرية والقوافل

---

(١) انظر: عبد الله إبراهيم، الإمام شهاب الدين القرافي وأثره في الفقه الإسلامي، ص٢٣، ٢٦-٢٧.

البرية من الشرق والغرب، ويمتلكون ثروة كبيرة تمكنهم من تحريك الاقتصاد في البلد، والتقرب إلى السلاطين، مع أنهم كانوا يعانون أحيانا من ضخامة الضرائب التي كان يفرضها عليهم السلاطين في أوقات الأزمات الحربية والاقتصادية خاصة.

وهناك طوائف السكان من العوام الذين يعتمدون على المهن الصناعية والتجارية الصغيرة كالباعة والسقائين، وغيرهم ممن لا يجدون أعمالا تغطي حاجاتهم، ويعيشون في المدن في ضيق وعسر بالقياس إلى حياة الأمراء والسلاطين والتجار، ومثلهم في الضيق الأعراب الذين كانوا يعيشون في البادية حيث الحياة المتواضعة البسيطة، وإن كانوا في الحقيقة مصدر قلق لدولة المماليك، وذلك لأنشطتهم المخلة بالأمن العام[1] بالاعتداء على الحجاج والآمنين من العامة.

وأما الفلاحون فكانوا يكوّنون السواد الأعظم من أهل البلاد، ولم يجدوا سوى الإهمال والاحتقار.

أما الأقليات الأجنبية فكانت تتكون من اللاتينيين والإغريق، وبعض النصارى القادمين من جورجيا والحبشة وأرمينيا وغيرها بغرض التجارة وسكنوا في المدن الساحلية.

وأما أهل الذمة فهم النصارى بفرقتيهم اليعاقبة والملكانيين، واليهود بفرقهم الثلاثة الربانيون، والسامرة، والقراء، وكانوا يمثلون أقلية لا يستهان بعددها، حيث قدروا في عصر المماليك بعشرين ألفا في القاهرة وحدها، وقد احتفظوا بأديرتهم وكنائسهم ومعابدهم، وكانت حياتهم في الحقيقة غير مستقرة رغم وصولهم في بعض الأحيان إلى بعض الوظائف الكتابية المهمة لدى الدولة، وحيازتهم للثروات الطائلة؛ وذلك لأن التغيرات السياسية والاضطرابات في السلطة الحاكمة كانت تؤثر على أسلوب المعاملة معهم، حيث يتساهل بعض السلاطين ويتشدد البعض الآخر في التعامل معهم وإلزامهم بصرامة بالقوانين المنظمة لوضع أهل الذمة في الدولة

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٥.

الإسلامية[1].

بل قد وصل الأمر في بعض الأحيان أن تتدخل الدولة الإسلامية في تعيين رأس الكنيسة المصرية، فالأيوبيون مثلا تدخلوا في تعيين البطريك[2] عام ٦٣٣هـ، وفي عهد الملك الظاهر بيبرس حاول النصارى إثارة الفتن فرأى السلطان أن يتخذ ضدهم إجراءات مشددة فألزمهم بأزياء خاصة يلبسونها، وألزمهم الذل والهوان، بل إنه في عهد المنصور قلاوون[3] ألزم النصارى بركوب الحمير ولبس الزنانير، ومنعوا من الحديث مع المسلم وهم ركوب، إلا أنه بعد انقضاء عهد المنصور قلاوون وتولي ابنه الأشرف خليل[4] وجد النصارى متنفسا، حتى وصلوا إلى مرتبة الكتاب عند الأمراء وترفعوا في تصرفاتهم وملابسهم.

---

(١) انظر: د. سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١١-٥٧، ط١، دار النهضة العربية، ١٩٦٢م، القاهرة. ود. قاسم عبده قاسم، دراسات في تأريخ مصر الاجتماعي، ص٦٣-٦٥ ، ط٢، دار المعارف، ١٩٨٣م، القاهرة، وعبد الله إبراهيم، الإمام شهاب الدين القرافي، ص٥٢.

(٢) البطريرك مرتبة أعلى في رجال الدين النصارى، (الأرثوذكس)يأتي بعدها المطران، فالأسقف، فالقس، فالشماس. انظر: المقريزي، الخطط، ج٢، ص٥٠١.

(٣) الملك المنصور قلاوون بن عبد الله التركي العلائي الصالحي الألفي، ولد سنة ٦٢٠هـ، أول ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام، وسابع ملوك المماليك، استمر حكمه حوالي اثنتي عشرة سنة، توفي سنة ٦٨٩هـ. انظر: المقريزي، السلوك، ج١، ص٦٦٣، وابن كثير البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٥٢-٣٥٣، والزركلي، الأعلام، ج٥، ص٢٠٣.

(٤) الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون، ولد سنة ٦٦٦هـ، وولي بعد وفاة أبيه سنة ٦٨٩هـ، وفي عهده أنهى الوجود الفرنجي على الساحل الشامي الإسلامي ، قتله بعض المماليك غيلة سنة ٦٩٣هـ. انظر: المقريزي، السلوك، ص٧٥٦-٧٩٣، و ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٧٣، والزركلي، الأعلام، ج٢، ص٣٢١.

ويؤكد المؤرخون أن أديرة النصارى وكنائسهم في مصر بشكل عام لم تمس بسوء بل بقيت على حالها سواء أفي عصر الأيوبيين أم في عصر المماليك[1].

ويلاحظ أنه كان لهؤلاء النصارى أثر في إفساد المجتمع في عقيدته وأخلاقه، والإخلال بالشرع، وجر المسلمين إلى التشبه بهم في بعض العادات والمشاركة في بعض الأعياد الدينية وغير الدينية[2]، كما أن الاضطراب السياسي الذي عاشته مصر، وانشغال الساسة وولاة الأمر والأمراء بالمؤامرات للتسابق إلى كرسي الحكم بجميع الوسائل أدى إلى ظهور كثير من الأمراض الاجتماعية، وقد وصف القرطبي -رحمه الله- هذا العصر بقوله: «هذا هو ذلك الزمان الذي قد استولى فيه الباطل على الحق، وتغلب فيه العبيد على الأحرار من الخلق، فباعوا الأحكام ورضي بذلك منهم الحكام، فصار الحكم مكسا، والحق عكسا لا يوصل إليه ولا يقدر عليه، بدلوا دين الله وغيروا حكم الله، سماعون للكذب أكالون للسحت»[3]. فكان الفساد المالي والإداري قد استشرى من أعلى طبقة في المجتمع إلى أدناها، وصار حب الدنيا غالبا على قلوب الناس وعقولهم.

ومن الأمراض الاجتماعية التي ظهرت في المجتمع المصري في القرن السابع، الزنا، والمخدرات، وإظهار الخمر والماخور، وانتشار الرشوة، وابتداع الاحتفالات والأعياد الكثيرة التي كانت سببا في خروج النساء واختلاطهن بالرجال، وتناول

---

(١) انظر: المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤٩٧-٤٩٨، ٥٠١-٥١٩، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٤، ص١٧٩، ود. محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص١٠٥-١٠٦، ط، دار الفكر العربي.

(٢) انظر: د. سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر المماليك، ص٢٠١-٢٠٥، ود. قاسم عبده أمين، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، ص٧٨، ٨٦.

(٣) القرطبي، التذكرة، ص٦٣١.

الكثير من المنكرات[1]، كما لوحظ البطش بالناس، وأكل أموالهم بالباطل من قبل أصحاب السلطة، وشاع التبرج بين النساء[2].

وكان بعض سلاطين بني أيوب وسلاطين المماليك يقف موقفا شرعيا من المنكرات فيبطلها ويعاقب مرتكبيها، إلا أن البعض منهم كان يقرها، وذلك مثل عمل القيان والمغنيات و بيع الخمور، وغير ذلك من الفواحش، ويفرض لذلك الضرائب والمكوس فينتهك محارم الله في سبيل حفنة من الدنانير[3].

ويعد السلطان الظاهر بيبرس من الذين سعوا بقوة لاستئصال بعض الأمراض الاجتماعية، ففي عام ٦٦٧هـ رسم بإراقة الخمور وإبطال الخواطئ البغايا، والمفسدات في مصر والشام، وقد حبس الخواطئ حتى يتزوجن، وأرسل أمره هذا إلى جميع البلاد، وأسقط المكوس التي كانت تؤخذ منهن، مما يعني أن ممارستهن للبغاء كان يتم بمباركة الدولة قبل ذلك، ثم شدد السلطان في أمر الخمور في عام ٦٦٩هـ وهدد بالقتل لكل من ثبت عصره لها[4].

وبالإضافة إلى هذه الأمراض فإن الأوبئة والمجاعة والغلاء كانت تطفوا إلى السطح بين حين وآخر، ففي عامي ٦٢٨و٦٢٩هـ كان غلاء شديد في القمح، فتدخلت الدولة في تحديد سعره، وفي سنة ٦٣٣هـ ظهر وباء كثير بمصر استمر ثلاثة أشهر، وبلغ عدد الوفيات بسببه في القاهرة وحدها دون الريف ما يزيد على اثني

---

(١) انظر: القرطبي، التذكرة، ص٦٣٩، ود. سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر السلاطين، ص١٧٦-٢٢٠، و٢٢٥ وما بعدها.

(٢) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٧، ص٢٤٩، وج١٢، ص٣١٠-٣١١، وج١٣، ص١٧، ١٢٤.

(٣) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٤، ٩٦.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ج١٣، ص٢٨٤، ٢٩٠، والسيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٩٦، ٢٩٦، وابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٣٢٤.

عشر ألفا[1]، وفي عام ٦٤٣هـ اشتد الغلاء وقاسى أهل مصر الشدائد، وفي سنة ٦٦٢هـ ألزم الملك الظاهر الأمراء والأغنياء بإطعام الفقراء، وفرق قمحا كثيرا، ورتب للفقراء خبزا معلوما يفرق عليهم كل يوم، وذلك لشدة الحاجة والفاقة[2].

إذن فالمشكلات الاجتماعية كانت كثيرة، ويلاحظ أن انعدام الاستقرار السياسي أثّر تأثيرا واضحا في بروز المشكلات الاجتماعية؛ ويظهر ذلك من الوضع المستقر الذي تميز به عصر الملك الظاهر حيث استمر حكمه ما يقارب العقدين من الزمن، ووجد فرصة كافية للعمل على محاربة الأمراض الاجتماعية؛ فبدت جهوده واضحة في التصدي للفواحش، والمنكرات، والأوبئة، والغلاء، والمجاعة.

إلا أن الجانب الذي أبدى الأيوبيون والمماليك اهتمامهم به بشكل ملحوظ كان جانب الاهتمام بالتربية العلمية للمجتمع، ومحاربة الأمية، والارتقاء بالمجتمع الإسلامي من الجهل إلى المعرفة، وذلك بالاحتفاء بحملة العلم وتقديرهم واحترامهم، وإنشاء المدارس، وتخصيص الأموال والأوقاف لها، ورعاية القائمين عليها من العلماء، والدارسين فيها من الطلاب.

ففي عصر الأيوبيين تسابق السلاطين والأمراء في إنشاء المدارس حتى وصلت في مصر وحدها بعد انقضاء مدة ملكهم إلى خمس وعشرين مدرسة، وأسس الملك الكامل على سبيل المثال دار الحديث، أو المدرسة الكاملية عام ٦٢٢هـ، وكان محبا للعلم والعلماء، ومؤْثرا لمجالستهم، شغوفا بسماع الحديث النبوي، حتى إنه كان ينصب للعلماء أسرَّة في قلعته بجانب سريره حتى يشاركهم في مناقشة الموضوعات العلمية، وكان الصالح نجم الدين أيوب الذي حكم من سنة ٦٣٧هـ إلى

---

(١) انظر: المقريزي، السلوك، ج١، ص٢٥٠.

(٢) انظر: السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢ ص٢٩٤-٢٩٥.

٦٤٦هـ محبا لأهل العلم والصلاح، ويجزل لهم العطايا[١].

وقد سار على نهج الأيوبيين سلاطين دولة المماليك الذين خلفوهم في الحكم، فعلى سبيل المثال أسس الظاهر بيبرس المدرسة الظاهرية سنة ٦٦٢هـ وجعل بها خزانة كتب تشمل أمهات الكتب، وبنى بجانبها مكتبا لتعليم أيتام المسلمين القرآن وعلوم الشريعة، بالإضافة إلى ما كان يعقد من حلقات العلم في مساجد مصر وجوامعها وأشهرها جامع عمرو بن العاص -رضي الله عنه- والجامع الأزهر[٢].

وهذا الانتشار الرائع والكبير لمنابع التربية والتعليم المتمثل في المدارس والحلق العلمية في المساجد يعني تهيؤ الفرصة المواتية للغرف من منابع العلم بكل يسر وسهولة، يستوى في ذلك جميع أفراد المجتمع، حتى الأيتام الذين لا يجدون أبا يتكفل بنفقات تعليمهم قد سنحت لهم الفرصة للتعلم من خلال ما وفره لهم أولياء الأمور من مراكز تعليمية في تلك الفترة الزمنية، كما أسهمت هذه الجهود في ظهور علماء أجلاء يشار إليهم بالبنان أمثال الشيخ/ شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي -رحمه الله-.

---

(١) انظر: المقريزي، السلوك، ج١، ص٢٩٩-٣٠٠، ٣٤١، وأحمد بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٢، ص٢٣٥، ط، ١٢٧٠هـ، بولاق. والأتابكي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٢٩-٢٣٢، وجرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج٣، ص٢٢٦، راجعها وعلق عليها: د. حسين مونس، ط، دار الهلال.

(٢) انظر: المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٠٧، ١٥٦، ٣٤٠، والأتابكي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٢٠، والسيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص١٢٠، ٢٤٥.

المبحث الثاني

الصراع الدعوي بين المسلمين والنصارى في عصر القرافي

اتخذ الصراع الدعوي بين المسلمين والنصارى أشكالا عدة في مصر في القرن السابع الهجري، ومن هذه الأشكال الغزو العسكري المتمثل في الحملات الصليبية التي كانت تجردها أوروبا ضد ثغور المسلمين في مصر والشام منذ نهاية القرن الخامس، واستمرت إلى عصر الأيوبيين والمماليك، ففي عام ٦١٥-٦١٦هـ هاجم الفرنج مدينة دمياط في محاولة منهم للاستيلاء على مصر، وتمكنوا من السيطرة على هذه المدينة الساحلية وفعلوا فيها المنكرات بأهلها رجالا ونساء وأطفالا، وحولوا مساجدها كنائس تعبد فيها الصلبان، وهددوا مصر كلها، إلا أن مساعيهم لم تكلل بالنجاح فأُخرجوا منها في عام ٦١٨هـ[١]، ثم عاودوا الهجوم على دمياط مرة أخرى في عام ٦٤٧هـ في نهاية عهد الأيوبيين وبداية عهد المماليك بقيادة لويس ملك فرنسا إلا أنهم منوا بهزيمة منكرة كانت بداية النهاية لحملاتهم المستمرة ووجودهم القوي في المنطقة[٢].

والحقيقة أن الأيوبيين والمماليك أدوا جهودا مشكورة في التصدي للهجمات العسكرية الصليبية وتصفية وجودهم في الشام، ومطاردتهم من البلاد الإسلامية، وكانت المملكة المسيحية أرمينيا الصغرى قد أدت عملا عدوانيا خطيرا ضد دولة المماليك في مصر والشام، وذلك بمساعدتها للإمارات الصليبية في الشام، وتحالفها مع مغول فارس، وتحريض قائد التتار بغزو الشام ومصر، وبقيامها بحرب اقتصادية ضد دولة المماليك حيث منعت تصدير الخشب والحديد إلى المسلمين؛ لذلك اتسمت سياسة الظاهر بيبرس بالنسبة للإمارات النصرانية التي كانت في الشام بالشدة لتعاونهم مع التتار وتصرفاتهم العدوانية التي كانت تبرز في الساحة بين فينة

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٤-٩٥، ٩٩، ١١١. والسيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٩٣-٢٩٤، وحسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي، ج٤، ص٢٣٢-٢٣٩.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠١-٢٠٢.

وأخرى؛ فاستولى بيبرس على مدينة قيسارية سنة ٦٦٣هـ ، وقلعة صغد ٦٦٤هـ ثم إمارة أنطاكيا الصليبية المهمة سنة ٦٦٦هـ، وغيرها من القلاع والمدن، وأجبر بعضها على الصلح، بما فيها طرابلس التي فتحت في عهد المنصور قلاوون في سنة ٦٨٨هـ[١]، وقد كانت نهاية الفرنج على أيدي المماليك الذين أخرجوهم من السواحل الشامية بفتح عكا سنة ٦٩٠هـ في عهد الملك الأشرف بن المنصور[٢].

وقد صهرت هذه الحروب المتتالية ضد النصارى وحملاتهم التجربة العسكرية للمسلمين، وجعلتهم أكثر قوة وتحملا للمشاق والصعوبات، وأزالت عنهم رداء الكسل والقعود، وانجذبوا خلف داعي الجهاد، واعتنوا بفنون الحرب والصناعات الحربية فاستكثروا من الأسلحة المتنوعة، والخيول، والعُدد الحربية[٣].

ولم يكن النصارى الذين عاشوا تحت الحكم الإسلامي يكنون للإسلام سوى الغدر والخيانة، فلما استقر الأمر في مصر للمماليك مثلا: عاد أهل الذمة إلى إثارة الفتن والمناوشات، فاتخذ الملك الظاهر ضدهم إجراءات قوية تلزمهم الذل والهوان، وكانوا يحاولون التغلغل إلى أصحاب السلطة من السلاطين والأمراء من خلال الوظائف الكتابية لكسب تعاطف السلاطين والتأثير عليهم للتخفيف في معاملاتهم وعدم إلزامهم بالمراكب والملابس المخصوصة لأهل الذمة؛ وذلك بغية الخروج من الذلة والمهانة التي يشعرون بها، ولكسب مكانة اجتماعية مرموقة في المجتمع، وكان موقف العامة من المسلمين يرتبط غالبا بمدى رضا السلاطين عن النصارى وغضبهم عليهم، فإذا شعروا أن السلطان غاضب على النصارى اقتنصوا هذه الفرصة وتسلطوا عليهم بنهب الأموال والضرب، حتى بلغ في بعض الأحيان إلى

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٧٤، ٢٧٦، ٢٨٠-٢٨١، ٢٨٨-٢٨٩، ٣٤٩، ود. أحمد العبادي، قيام دولة المماليك، ص٢٢٢-٢٢٩

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٥٥-٣٥٦.

(٣) انظر: عبد الله إبراهيم، الإمام شهاب الدين القرافي وأثره في الفقه الإسلامي، ج٢٠.

محاولة هدم الكنائس[١]؛ وذلك لأن النصارى «لا يخفى أمرهم على من نوّر الله قلبه، فإنه يظهر من آثارهم القبيحة إذا تمكنوا من الإسلام وأهله ما يعرف الفطن سوء أصلهم وقديم معاداة أسلافهم للدين وحملته»،[٢]، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير**﴾[٣]، ومما يوضح سوء طويتهم تجاه الإسلام في عصر المماليك، أنه في عام ٦٦٣هـ وقع في مصر حريق عظيم اتهم به النصارى، فعاقبهم السلطان عقوبة شديدة[٤].

ومن الجبهات الساخنة التي واجه فيها المسلمون النصارى بكل اقتدار كانت الجبهة الفكرية، فالكثير من العلماء وإن كان قد شارك في المعارك الحربية ضد الحملات الصليبية سواء بالمشاركة الفعلية بحمل السلاح والمقاتلة، أم بتحريض الجيوش الإسلامية لدفع العدو، وترغيبهم بالأجر والمثوبة لمن جاهد في سبيل الله وحمى حمى الإسلام من رجس الكفار،[٥] إلا أن الجبهة المهمة التي لا يحسنها غيرهم كانت الجبهة الفكرية التي تعنى بالتصدي للشبهات التي كان النصارى

---

(١) انظر: المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤٩٧-٤٩٩، ود. محمد جمال الدين، دولة بني قلاوون في مصر، ص١٠٥.

(٢) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٥٠٠.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٢٠.

(٤) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٧٤، والسيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٩٥.

(٥) انظر: أحمد بدوي، الحياة العقلية، ص٥، وانظر على سبيل المثال ترجمة الشيخ العز بن عبد السلام -رحمه الله- في طبقات الشافعية للسبكي، ج٨، ص٢١٥ لتتبين مواقفه في مجاهدة الصليبيين.

يثيرونها ضد الإسلام، والدعاوى الباطلة التي كانوا يدعونها بصلاح دينهم وبطلان سواه، فكثيرا ما كانت تجري بين رجال من النصارى ورجال من المسلمين المناظرات، كل يجادل عن دينه ويدافع عن عقيدته ويقيم الأدلة على صدقه[1]، سواء أكان في العصر الأيوبي[2] أم في العصر المملوكي، وقد أبطل علماء الإسلام هذه الهجمات وفندوا كل المزاعم التي تولاها النصارى بالمناظرات الشفاهية، والردود الكتابية المقروءة عبر الرسائل والكتب.

والإمام القرافي -رحمه الله- الذي أدرس أسلوبه في دعوة النصارى في هذا البحث كان من الذين حازوا قصب السبق في هذا المجال، فهو قد ناظر شفاهة بعض أعيانهم المعتبرين فحجهم، ويروي قصة مناظرته معهم قائلا: «ولقد اجتمع بي بعض أعيانهم المبرزين في حلبة سباقهم ليتحدث في أمر دين النصرانية، فقلت: -بحضرة جماعة من العدول-: أنا لا أكلف النصارى إقامة دليل على صحة دينهم، بل أطالبهم كلهم بأن يصوروا دينهم تصويرا يقبله العقل، فإذا صوروه اكتفيت منهم بذلك من غير مطالبتهم بدليل على صحته، فحاول هو نفسه تصوير دينهم فعجز عنه،...»[3].

وله أيضا الكتابان المدروسان هنا: الأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة، وكتاب أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية.

ويبدو أن المصادر لم تنقل إلينا جميع ما كان يدور بين المسلمين والنصارى من

(١) انظر: أحمد بدوي، الحياة العقلية، ص١٨٨.

(٢) عندما سلم صاحب قلعة شقيف النصراني قلعته لصلاح الدين الأيوبي في عام ٥٨٥هـ وسكن دمشق، كانت تجري بينه وبين المسلمين بعض المناظرات، كل يبين صحة دينه وبطلان دين الآخر. انظر: بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: د. جمال الدين الشيباني، ص٩٧-٩٨، ط١، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤م، القاهرة.

(٣) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢٦.

مناقشات ومناظرات ومجادلات، ولكن ما توفر منها نصا كاملا أو ذكره المؤرخون يعطي فكرة كافية للصراع الدعوي الشديد الذي كان عليه الحال في مصر في القرن السابع الهجري، ولعل تزامنه مع الوجود الصليبي في المنطقة يبين أن اهتمام العلماء ببيان الحق ودعوة النصارى إلى دين الحق، كان له ما يبرره، ولعل الصليبيين أيضا قد دفعوا ببعض بني دينهم من أهل الذمة في مصر لإثارة الشبهات حول الدين الإسلامي، وإظهار الدين النصراني بأنه حق.

ومما وصل إلى العصر الحاضر من تلك الجهود الدعوية منظومة الإمام الأبوصيري[١] في الرد على النصارى واليهود، وهي منظومة تتكون من خمسة وتسعين ومائتي بيت، مع هوامش له نقلها من التوراة والإنجيل والزبور للرد على اليهود والنصارى على غير طريقة النظم[٢].

وممن تصدى للرد على النصارى والدفاع عن عقيدة الإسلام أيضا أبو البقاء الجعفري (٥٨١-٦٦٨هـ) في كتابه تخجيل من حرف الإنجيل، والشيخ/ عبد العزيز بن أحمد الديريني[٣] -رحمه الله- في كتابه (إرشاد الحيارى في ردع من مارى في

---

(١) هو محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي، المشهور بالبوصيري، صوفي، ولد عام ٦٠٨هـ، أصله من المغرب، شاعر وله قصائد عدة، أشهرها قصيدة البردة، وتوفي سنة ٦٩٦هـ بالإسكندرية، انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٣، ص١٠٥-١١٢، والكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص٣٦٢، الزركلي، الأعلام، ج٦، ص١٣٩.

(٢) الكتاب مطبوع بتحقيق الدكتور/ أحمد حجازي السقا، وظهرت الطبعة الأولى في عام ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م في مطبعة دار البيان.

(٣) هو عبد العزيز بن أحمد بن سعيد بن عبد الله الشافعي عز الدين أبو محمد الدميري المصري المعروف بالديريني، ولد سنة ٦١٢هـ، وتوفي سنة ٦٩٤هـ وقيل ٦٩٧هـ، له كتاب (التيسير في علم التفسير). انظر: السبكي، طبقات الشافعية، ج٨، ص١٩٩، و البغدادي، هدية العارفين، ج١، ص٥٨٠-٥٨١، والزركلي، الأعلام، ج٤، ص١٣.

أدلة التوحيد ورد النصارى)[١].

وهناك عالمان كتبا في الرد على النصارى، ولكن احتمال كون ردهما كتباه في أثناء وجودهما في البيئة المصرية احتمال يفتقد إلى أدلة تثبت ذلك، أحدهما: نجم الدين سليمان الطوفي[٢] -رحمه الله- الذي وضع كتابا دعاه (الانتصارات الإسلامية في دفع شبه النصرانية)، حيث ألف كتابه هذا ردا على كتاب صنفه بعض النصارى طعناً في دين الإسلام[٣]، وهو في الأصل عالم بغدادي وكانت له زيارة إلى مصر، فهناك احتمال أن يكون ألف كتابه في مصر، والمصادر لم تذكر مكان تأليف كتابه المذكور؛ لذا تم إيراده هنا.

---

(١) البغدادي، هدية العارفين، ج١، ص٥٨٠-٥٨١. وذكر أحمد بدوي نقلا عن معجم المطبوعات ج١، نهر٩٠١، أن الكتاب طبع في مصر سنة ١٢٨٤هـ. انظر: أحمد أحمد بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط، دار نهضة مصر٢ ١٣٩هـ، ١٩٧٢م، القاهرة.

(٢) هو نجم الدين سليمان بن عبد الله بن عبد القوي الطوفي الحنبلي، البغدادي المعروف بابن السوقي، ولد في طوف بالعراق، سنة ٦٥٧هـ ودخل بغداد سنة ٦٩١هـ، ورحل إلى دمشق، وزار مصر، وجاور الحرمين، توفي بفلسطين، سنة ٧١٠، وقيل ٧١٦هـ. انظر: حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ص١٧٤، والبغدادي، هدية العارفين، ج١، ص٤٤٠، والزركلي، الأعلام، ج٣، ص١٢٨.

(٣) انظر: حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ص١٧٤، والبغدادي، هدية العارفين، ج١، ص٤٠٠،

والثاني هو: عبد اللطيف البغدادي[١] -رحمه الله- الذي كتب ثلاث مقالات في الرد على النصارى، وهو وإن كان بغدادي المولد والوفاة، فإنه عاش في نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع الهجري في مصر، ولم تذكر المصادر متى كتب مقالاته هذه هل في مصر أو في غيرها، وكان قد اطلع عندما كان في مصر على كتاب (الدلالة) الذي كُتب للرد على اليهود، وقد وصفه بأنه كتاب سوء يفسد أصول الشرائع والعقائد بما يظن أنه يصلحها[٢]، فلعل فكرة الكتابة في الرد على اليهود والنصارى تكونت لديه بعد اطلاعه على هذا الكتاب، فكتبها كلها أو بعضها في مصر أو كتبها بعد خروجه من مصر، إلا أنه من المرجح أن يكون قد تأثر بالبيئة المصرية التي كان يعيش فيها النصارى واليهود في كتاباته الخاصة بهم.

وقد عد صاحب كتاب (الحياة العقلية) رسالة الشيخ عز الدين بن عبد السلام -رحمه الله- التي كتبها في بيان تفضيل النبي ﷺ على جميع الأنام مما يدخل في هذا الفن[٣]، ويبدو أنه ليس كذلك، لأنه لم يُكتب للنصارى فحسب، واتصاله بدعوة النصارى غير مباشر، بل موضوعه أعم من ذلك، ويمكن تصنيفه في باب السيرة

---

(١) هو: موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي، نحوي لغوي متكلم طبيب فيلسوف، ولد سنة ٥٥٧هـ وتوفي سنة ٦٢٩هـ ببغداد، انتقل إلى أماكن كثيرة منها الشام ومصر، وبها بدأ يؤلف بعض الكتب، ودرّس في الجامع الأزهر، وكان في عام الغلاء ٦٩٧هـ في مصر، وألف في ذلك كتابا سماه الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، الذي فرغ منه عام ٦٠٣هـ عندما انتقل إلى القدس.انظر: أحمد بن القاسم موفق الدين، المعروف بابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: د. نزار رضا، ص٦٨٣-٦٩٦، ط، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥م، بيروت. والكتبي، فوات الوفيات، ج٢، ص٣٨٥-٣٨٨، والزركلي، الأعلام، ج٤، ص٦١.

(٢) انظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٦٨٧.

(٣) أحمد بدوي، الحياة العقلية، ص١٨٩، وقد ذكر أن رسالة عزالدين بن عبد السلام مخطوط بدار الكتب، رقم٦١٤، مجاميع علم الكلام.

النبوية[١].

أما علاء الدين الباجي[٢] -رحمه الله- الذي كتب في الرد على اليهود أطول مؤلف وضعه في حياته كلها، حيث كان معروفا بكتاباته المختصرة، فإنه وإن كان من أهل مصر، فإنه كتب رده على اليهود والنصارى خارج مصر في مدينة الكرك بناحية الأردن، سنة ٦٨٤هـ، وقال في مقدمة كتابه، «أما بعد فإني نظرت في توراة موسى -عليه السلام- المعربة التي بيد النصارى الملكية على ما زعموا، وهي خمسة أسفار، فسنح بخاطري أسئلة على ألفاظها فذكرتها على ترتيبها»[٣].

فالكتاب يتناول بالنقد والأسئلة المعارضة الأسفار الخمسة فقط دون غيرها من

---

(١) ذكر الدكتور/ عبد الله الوهيبي بعد أن صنف رسالة الشيخ عز الدين تحت السيرة أنها مخطوطة ولها عدة نسخ في المكتبات، ولها أكثر من عنوان، الأول: بداية السول في تفضيل الرسول ﷺ، والثاني: غايات الأصول فيما سنح من تفضيل الرسول ﷺ، وتقع في خمس ورقات، فيها ذكر اثنين وثلاثين وجها لتفضيل الرسول ﷺ على سائر المخلوقات. انظر: د. عبد الله بن إبراهيم الوهيبي، العز بن عبد السلام -حياته وآثاره ومنهجه في التفسير، ص١٥٦-١٥٧، ط٢، عام ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

(٢) هو علاء الدين علي بن محمد بن عبد الرحمن الباجي، ولد سنة ٦٣١هـ، مغربي الأصل، من أهل مصر، كان إمام زمانه في الأصول، فقيها متقنا، وله باع واسع في المناظرة، تفقه على الشيخ عز الدين بن عبدالسلام، -رحمهما الله- ولي وكالة بيت المال بالكرك، وناب في الحكم بالقاهرة، له كتاب (مختصر الأصول) و (مختصر المنطق) وغيرهما، قال السبكي، «لم يوجد كتاب أطال فيه النفس غير كتاب (الرد على اليهود والنصارى)، توفي سنة٧١٤هـ. انظر: السبكي، طبقات الشافعية، ج.١، ص٣٣٩ وما بعدها، والسيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص٥٤٤. الزركلي، الأعلام، ج٤، ص٣٣٤.

(٣) علي بن محمد أبو الوليد الباجي، على التوراة، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، ص١٧، ط١، دار الأنصار، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، القاهرة.

كتب الأنبياء، أو الأناجيل. ومعلوم أن الأسفار الخمسة[1] هي أساس شريعة اليهود، ويدخل النصارى أيضا معهم بالضرورة؛ لأنهم يأخذون بالتوراة، بل صرح الباجي أنه ينقد التوراة التي بيد النصارى الملكانية (الكاثوليك)، كما أنه تناول الكثير من عقائد النصارى المخالفة لنصوص التوراة وللعقل السليم بالطعن والنقد في أثناء نقضه التوراة، فالنصارى كلهم دون استثناء مذهب معين داخلون في نقده[2].

إذن فالقرن السابع الهجري شهد صراعا قويا بين المسلمين والنصارى في الجبهات العسكرية المتمثلة في التصدي للحملات الصليبية، وتصفية الممالك النصرانية في الشام، والجبهات الفكرية، والدعوية، المتمثلة في كتب الرد التي ذكرت آنفا وغيرها من كتب الرد التي قد تكون أُلفت ولم تصل إلى العصر الحاضر سواء بذاتها أم بالمعلومات المسجلة عنها، أو لم تتمكن أيدي الباحثين من الوصول إليها[3].

---

(١) الأسفار الخمسة هي: التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية. انظر: الكتاب المقدس، ص٣-٢٧٧.

(٢) انظر: الباجي، على التوراة، ص٧٠، ٧١، ٧٢، ففيها إشارة إلى بعض عقائد النصارى، وانظر أيضا مقدمة المحقق، ص١٠-١١.

(٣) ومما ينبغي الإشارة إليه هنا كتاب الرد على النصارى وذكر مجامعهم لأبي الحسن علي ابن يوسف بن إبراهيم القفطي، الذي ولد سنة ٥٦٨هـ بمصر ونشأ وتعلم فيها، ثم انتقل مع والده إلى بيت المقدس سنة ٥٩١هـ الذي عمل بها قاضيا، ثم انتقل معه إلى حلب سنة ٦٠٨هـ، وسكن فيها ، حيث عمل قاضيا، ثم وزيرا، وكان مؤرخا من الكتاب محبا لاقتناء الكتب، توفي بها سنة ٦٤٦هـ. ويبدو من ترجمته أنه انقطع عن البيئة المصرية وهو صبي في العقد الثاني من عمره، وكان أغلب حياته بالشام، مما يرجح تأليفه للكتاب في البيئة الشامية لا المصرية، وإن كان ينتمي إلى مصر مولدا ونشأة، مما يجعل علاقته ببيئة القرافي المصرية باهتة، وإن كانت مصر والشام في ذلك العصر تتبعان لحكم الأيوبيين. انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج١٥، ص١٧٥-٢٠٣، تحقيق: د. أحمد فريد رفاعي بك، ط، دار المأمون، مصر، ومحمد راغب الطباخ الحلبي، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، صححه وعلق عليه: محمد كمال، ج٤، ص٣٨٧-٣٩٧، ط٢، دار القلم العربي، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، حلب.

المبحث الثالث

آثار هذه البيئة على أسلوب القرافي في دعوة النصارى

بعد التعرف على الوضع السياسي والاجتماعي والديني الذي كان في مصر في عصر القرافي -رحمه الله- يمكن استنتاج بعض الآثار التي برزت في أسلوب دعوته للنصارى، ويمكن تقسيم هذه الآثار إلى إيجابية وسلبية:

أ) الآثار الإيجابية:

١- سعة المعلومات.

٢-الصراحة في النقاش.

٣- البعد عن الأساليب الفلسفية.

١- سعة المعلومات:

من المميزات الإيجابية التي تميز بها حكم الأيوبيين والمماليك تشجيع العلم والعلماء وتأسيس المدارس والاحتفاء بكل ما له صلة بالعلم والمعرفة، فزخرت البلاد بالمؤلفات في الفنون المختلفة، وإنتاج علمي ضخم ملأ خزائن الكتب. وقد ساعدت هذه البيئة العلمية المتطورة أن يطلع القرافي على مصادر مهمة تعنى بتاريخ النصرانية والأدوار التي مرت بها، وتطور العقيدة النصرانية من جيل إلى جيل عبر المجامع التي كانت تعقد بين حين وآخر.

ومما يؤكد ذلك أن القرافي عندما بدأ في كتابة مؤلفه أدلة الوحدانية ذهب في البداية إلى عرض عقيدة الديانة النصرانية في الاتحاد والحلول والتثليث والصلب والناقوس مع الأدلة التي يعتمد عليها النصارى في عقيدتهم تلك، وذكر المجامع التي عقدت على مدار تاريخ الديانة النصرانية بدءا بمجمع نيقية وانتهاء بالمجمع العاشر بالترتيب، مع ذكر أبرز الأحداث التي واكبت هذه المجامع وأهم القرارات التي توصلت إليها.[١]

---

(١) انظر: القرافي، أدلة الوحدانية، ص٢٥-٥٥.

ومما يدل أيضا على اطلاعه الواسع أنه ذكر بعض الاختلافات الموجودة في النسخ المتعددة للكتاب المقدس لدى النصارى فقال: «في التوراة في نسخة منها: أن آدم -عليه السلام- عاش مائة سنة وثلاثين سنة، ثم ولد على شبهه ولدا فسماه شيثا. وفي نسخة أخرى: لم يرزق شيثا إلا بعد مائة وخمسين سنة، وعاش بعد ولادته ثمانمائة سنة، فكان جميع عمره تسعمائة سنة وثلاثين، وفي نسخة أخرى ألف وثلاثون سنة...الخ»[1]، وقد يذكر بعض نصوص التوراة حسب ورودها بالنص العبري مع ترجمتها بالعربية[2]، بل إنه يذكر بعض المصادر التي لا يعرفها كثير من النصارى، فبالإضافة إلى الأناجيل الأربعة المعروفة ذكر إنجيلا يسمى إنجيل الصبوة الذي فيه أشياء صدرت من المسيح في حال طفولته[3].

وقد ساعد هذا الأمر القرافي في تفنيد حجج الخصم بالاسترداد التاريخي الذي يوضح التحكمات التي سادت معظم العقائد النصرانية، كما مكّن هذا الاطلاع الواسع من عقد القرافي للمقارنات بين النسخ المختلفة لكتاب النصارى المقدس، واستقراء نصوص العهد القديم والعهد الجديد واستخراج التناقضات التي حواها هذا الكتاب الذي يدعي النصارى قدسيته، ليستنتج من ذلك أن الكتاب فيه أغلاط وتحريفات واضحة يجعله غير مؤهل لاعتباره وحياً من عند الله، أو وصفه بالقدسية، كما بين مخالفة النصارى لكثير من النصوص التي بيدهم لا لدليل مرجح بل لهوى طغى على قسيسيهم، ورجال دينهم.

ومما يدل أيضا على اطلاعه الواسع بأمور الديانة النصرانية أنه لم يكتف بذكر الأمثلة الواقعية المتعلقة بالبيئة المصرية بل كان ذكره لما يجري خارج البيئة المصرية أكثر، وكان من المفترض أن تكون استشهاداته بالبيئة المصرية أكثر من غيرها لأنه عاش كل عمره في مصر، ولكنه قلب الأمر فذكر ما يجري في الشام،

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١١٤.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١٠٨.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص٤١-٤٣.

وفي الأندلس، وفي غيرها من البلاد التي يعيش فيها النصارى،وذكر ابتداع أهل مصر والإسكندرية لعيد ميكائيل، وما أحدثه النصارى في عكا بالشام في عقوبة الجاني على النفس، وبدعة الاعتراف بالذنب أمام البطريك من أجل الغفران، و ذكر تلاعب قسس النصارى بالعامة في برشلونة وبركونة ومرسيلية وغيرها من بلاد الإفرج بادعائهم في يوم معلوم أن اليهود سرقت دين النصارى[١]، وغيرها من الأمثلة الواقعية، مما يعني أن القرافي -رحمه الله- كان قد امتلك معلومات كافية قبل أن يخوض في الحديث عن الديانة النصرانية، وهذه النماذج التي مثل بها القرافي من واقع النصارى تبين أن الفساد لا يقتصر على مذهب من المذاهب أو طائفة من طوائف النصارى بل هو عام في الديانة النصرانية، وبذلك يتضح أن التحكم، والابتداع، والتحريف، والخرافات أمر طغى على الديانة النصرانية شرقا وغربا بلا استثناء.

٢-الصراحة في النقاش.

كان للموقف السياسي الواضح والبيّن تجاه النصارى في عصر المماليك أثره في توجه القرافي -رحمه الله- لتناول الدين النصراني بالرد، بل إن كتابه أدلة الوحدانية كان هدية للسلطان الملك الكامل الناصر لدين الله، الذي كان يحب كل ما له علاقة بالعلم والمعارف[٢] -مثل غيره من أمراء المماليك وملوكهم-.

ويبين القرافي سبب اختياره للرد على النصارى قائلا: «فنظرت في أهل الشرائع والمذاهب، وتفكرت فيمن هو فيها عن التوحيد ذاهب، فلم أجد سوى مذهب النصارى الضالين الحيارى المتشبثين بخيوط العنكبوت، القائلين بحلول اللاهوت في الناسوت»[٣].

---

(١) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢١، ٢٢، ١٥٩، ١٦٢.

(٢) انظر: القرافي، أدلة الوحدانية، ص١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٠.

وبالإضافة إلى السبب الذي ذكره القرافي لاختيار الديانة النصرانية للرد عليها فإنه يمكن الفهم من الجهة المهدى إليها الكتاب أن هذا النوع من التأليف كانت تشجعه القيادة السياسية في ذلك العصر، وهو أمر طبعي؛ فالمماليك كانوا يمثلون الدولة الإسلامية التي كانت تتعرض يوما بعد يوم للهجمات الصليبية القادمة من أوروبا، وتهديدات الإمارات النصرانية في الشام المعادية للإسلام، وإذا كانت القيادة السياسية تتحمل عبء الدفاع عن الإسلام أمام الحملات النصرانية بقوة السلاح، فإن عناية العلماء بمدافعة النصارى بقوة الفكر والحجة مما يصب في الاتجاه الذي تسير عليه الدولة الإسلامية، وما تمليه الاعتبارات السياسية والأمنية والدينية.

ويمكن القول أن هذا التشجيع من القيادة السياسية أثر على أسلوب القرافي -رحمه الله- من ناحية أنه وجد حرية مطلقة لبيان فساد العقيدة النصرانية، وبطلانها دون أي تحفظات أو ضغوط، بجميع الأساليب العقلية والنقلية والعاطفية والفنية.

٣- البعد عن الأساليب الفلسفية.

كانت الفلسفة اليونانية قد غزت بعض المجتمعات الإسلامية وتأثر بها بعض المسلمين، فاستخدموها في تقرير العقائد، إلا أن البيئة المصرية كانت بعيدة عن هذا المضمار، ويبدو أن العلوم الفلسفية لم تجد سوقا رائجة في مصر «فقد كان الناس في العصرين الأيوبي والمملوكي يكرهونها من صميم قلوبهم مدفوعين في ذلك بعامل الدين»[(١)].

ولذلك فإن القرافي -رحمه الله- حرص على السير وفق الأساليب العقلية التي يفهمها العقلاء، ولم يغرق في استعمال المصطلحات الفلسفية والمنطقية الصرفة، وما استخدمه كان محدودا اقتضته دواعي الرد على الخصم بما استدل به، كاستخدام

---

(١) د.عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، ص١٧١، ط٨، دار الفكر العربي، ١٩٦٨م القاهرة. وانظر أيضا ص٣٣٤ وما بعدها.

أسلوب القياس المنطقي[١]، ولفظي الجوهر والعرض[٢].

ب) الآثار السلبية:

١- بروز العقيدة الأشعرية.

٢- الشدة في لهجة الخطاب.

١- بروز العقيدة الأشعرية.

حرص الأيوبيون والمماليك على تطهير البيئة المصرية من المذهب الشيعي ومظاهره الذي رعاه العبيديون (الفاطميون) أيام حكمهم[٣]، إلا أنهم في الوقت نفسه عقدوا العزم وشدوا المآزر على تبني مذهب الأشعري في العقيدة، وحملوا في أيام دولتهم كافة الناس على الأخذ به، واستمر الحال على ذلك في عصر سلاطين بني أيوب، ومن ثم مواليهم المماليك، فكان لهذا المذهب الأثر الواضح في الحياة الفكرية والاجتماعية السائدة في مصر حتى ظهر في القرن الثامن الإمام ابن تيمية -رحمه الله- فاعتنى فبالرد على مذهب الأشاعرة، ودعى إلى التمسك بمذهب السلف الصالح فقل شأن المذهب الأشعري نوعا ما[٤].

وقد عاش الإمام القرافي -رحمه الله- في هذه البيئة التي ساد فيها المذهب الأشعري؛ حيث تلقى القرافي هذا المذهب عن مشايخه، واعتنقه في نفسه، وقد صرح بأشعريته قائلا: «قلت: وليس كما قال، لأنا أيها الأشاعرة نجوّز تكليف ما لا

---

(١) انظر: القرافي، أدلة الوحدانية، ص٦٥.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص٦٥، والقرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٦٩.

(٣) انظر: د. سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٥٣-١٥٥.

(٤) انظر: د. عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية، ص٩٤، و٣٣٨-٣٣٩.

يطاق...»[١]، كما يظهر ذلك من خلال تأويلاته لبعض آيات الصفات، سواء في كتبه المبحوثة هنا أو في كتبه الأخرى[٢].

ومما يدل على أن البيئة التي عاش فيها القرافي كانت تأخذ بالمذهب الأشعري، قوله: «بل جمهور المسلمين على أن الله تعالى لم يكلم موسى -عليه السلام- بصوت، بل أسمعه كلامه النفساني القائم بذاته من غير حرف ولا صوت...»[٣].

وهذا المذهب الذي عدّه القرافي مذهب جمهور المسلمين هو في الحقيقة مذهب الأشاعرة الذين كانت لهم الصولة والجولة في ذلك العصر، فهم الذين يؤولون كلام الله بأنه كلام نفساني، قائم بذات الله، بلا حرف وصوت، وهو خلاف مذهب السلف -رحمهم الله-.

وبدا تأثير هذه العقيدة على أسلوب القرافي في دعوة النصارى حيث حاول النصارى ادعاء اتحاد صوت الله تعالى بالشجرة عندما كلم الله موسى -عليه السلام-، فنفى هذا الاتحاد بانيا حجته على أن كلام الله تعالى ليس بحرف وصوت (حتى يتحد بالشجرة،) وأن موسى -عليه السلام- لم يسمع صوتا، قائلا: «وأما على الصحيح وهو أنه -عليه السلام- إنما سمع الكلام النفسي الذي هو صفة ذات الله تعالى القائم به من غير حرف ولا صوت»[٤].

وقد حاول إقناع النصارى بعدم اتحاد الصوت بالشجرة زاعما بأن كلام الله تعالى هو الكلام النفسي واستند إلى القواعد الكلامية التي اعتمدها الأشاعرة في

---

(١) أحمد بن إدريس القرافي، نفائس الأصول في شرح المحصول، تحقيق: د. عياضة بن نامي السلمي، ج١، ص٣٩٢.

(٢) انظر: القرافي، نفائس الأصول، ج١، ص٩٣٣-٩٣٤، وعياضة السلمي، شهاب الدين القرافي حياته وآراؤه الأصولية، ص٢٨-٣٢.

(٣) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص.١٢٠.

(٤) المصدر نفسه، ص١٢١.

صفة كلام الله سبحانه وتعالى واستغرق ذلك حوالي ثلاث صفحات من كتابه الأجوبة الفاخرة[١].

وفي موقف آخر يشبه قول النصارى بقول المسلمين إن وافقوا على أن الكلمة والروح القدس صفتان لله تعالى- أي على تحديد صفات الله بعدد معين-، حيث يقول: «إن قلتم إن الإله واحد، والزائد صفتان، فهو قولنا أن الله تعالى له سبع صفات، وهو إله واحد وصفاته: العلم، والحياة، والإرادة، والكلام، والقدرة، والسمع، والبصر...»[٢].

وهذا أيضا مذهب الأشاعرة وليس مذهب أهل السنة والجماعة، فلا دليل على تقييد صفات الله تعالى باثنين، أو بسبعة، إنما يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، فالمقارنة هنا غير صحيحة، وقد تعطي للنصارى مجالا للأخذ والرد في قولهم بالتثليث، وعدم زيادتهم على ذلك.

٢- الشدة في لهجة الخطاب.

إن العداوة السافرة التي كانت بين الدولة المملوكية التي كانت تمثل المسلمين، وملوك أوروبا الذين كانوا يمثلون النصارى ألقت بظلالها على العلاقات بين المسلمين والنصارى، وأوجدت شعورا قوياً بين المسلمين بأن النصارى لا يألون جهدا في الاعتداء على المسلمين وسفك دماء الأبرياء، وقد وصف القرافي -رحمه الله- النصارى الذين كانوا في عصره بأنهم «أشد الناس قتالا وحرصا على سفك الدماء واتباع الأهواء»[٣].

وقد سبق الإشارة إلى الحملات الصليبية التي كانت تهدف للاستيلاء على مصر، في القرن السابع الهجري، وتصدي المسلمين لهما، وكذلك توتر العلاقات

---

(١) انظر: من ص.١٢٠-١٢٣.

(٢) القرافي الأجوبة الفاخرة، ص١٤٢.

(٣) المصدر نفسه، ص١٦٦.

بأهل الذمة في مصر، مما كان لذلك أثر في أسلوب مخاطبة النصارى ودعوتهم، فقد أخذ الحديث معهم طابع القوة والشدة، بل إلى تشنيع دينهم وتسفيه عقولهم، وسبهم بأقذع السباب، فقد استهل القرافي الباب الأول من كتابه الأجوبة الفاخرة قائلا: «فإن النصارى أمة عمياء وطائفة جهلاء، قد غلب عليهم التقليد»[1] وفي الصفحة التالية وصف أساقفة النصارى بأنهم «أقل من قليل، وأحقر من ذليل، يبيت الواحد من الأساقفة وعذرته على فخذيه طول عمره، يأكل الرشا في الأحكام، ويتغذى بالحرام، وهو في الجهالة أشد من الأنعام، لا يفرق بين كوعه وبوعه، ولا بين هره وبره[2]، ألكن اللسان، أغلف القلب، سيء الطبع، مشكل الرأي، بمعزل عن الاشتغال بالفضائل ناء عن رياضات العلوم»[3].

فقد أطلق القرافي -رحمه الله- العنان للسانه لوسم النصارى -علمائهم وغير علمائهم- بكل سيئة تضع منزلتهم في أسفل سافلين، وما ذاك إلا بسبب العداوة الشديدة التي عمت مشاعر المسلمين تجاه النصارى وكانت تؤججها تلك الحملات الصليبية المسعورة القادمة من أوربا إلى ديار المسلمين في ذلك العصر.

ورأى بعض الباحثين أن هذا التشدد في الخطاب كان السمة البارزة في الحوارات التي تدور بين الطرفين، فقال: «كانت مشاعر التزمت تفرض نفسها على الحوار بين المسلمين واليهود والنصارى، فيأخذ شكل الهجاء والسخرية من معتقدات

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢١.

(٢) «لا يعرف هرا من بر» أي: ما يَهِرّه مما يبرّه، أو القط من الفأر، أو دعاء الغنم من سوقها، أو دعاءها إلى الماء من دعاءها إلى العلف، أو العقوق من اللطف، أو الكراهية من الإكرام، أو الهرهرة من البربرة» والبربرة صوت المعز، وكثرة الكلام، والجلبة. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٤٩٩، مادة (برر). هرّه يهُره: كرهه، والهرهرة: حكاية صوت الهند في الحرب، وصوت الضأن، وزئير الأسد، والضحك بالباطل. انظر: المصدر نفسه، ج١، ص٦٨٧-٦٨٨، مادة (هرر).

(٣) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢٢.

الطرف الآخر، وقد بلغت العلاقة بين المثقفين المسلمين من جهة والمثقفين الذميين من جهة أخرى درجة من التزمت والتأزم في بعض الأحيان»[١].

إذن فشدة الخطاب، وإطلاق العنان للألسن والأقلام لإظهار الطرف الآخر بأسوأ الصور، وأشنع الأشكال كان مما تبناه الطرفان في صراعهما الفكري.

---

(١) د. قاسم عبده، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص٩١.

الفصل الخامس

أسلوب القرافي في دعوة النصارى

المبحث الأول: أسلوب الاستدلال بالمنقول وقيمته في دعوة النصارى.
المبحث الثاني: أسلوب الاستدلال بالمعقول وقيمته في دعوة النصارى.
المبحث الثالث:أسلوب القرافي العاطفي والفني وقيمتهما في دعوة النصارى.

المبحث الأول

أسلوب الاستدلال بالمنقول وقيمته في دعوة النصارى

المطلب الأول

أنواع الاستدلال بالمنقول عند القرافي في دعوة النصارى

سار الإمام القرافي -رحمه الله- في دعوة النصارى على أسلوب الاستدلال بالمنقول من القرآن الكريم والسنة النبوية، ونصوص الكتاب المقدس لدى النصارى، وبعض النقول الأخرى عن علماء مسلمين، وعن ما كتبه رجال دين النصارى في مجال العقيدة والعبادة والأدعية والصلوات، وهذا ما يحاول الباحث تفصيله في الأسطر القادمة:

أولا: الاستدلال بالمنقول من القرآن والسنة:

للقرآن والسنة أهميتهما في إثبات الحق ونفي الباطل؛ وذلك لأنهما وحيان يكملان بعضهما البعض، ويمثلان في حياة الداعية المسلم سلاحا لا يمكن الاستغناء عنه، سواء أراد أن ينفي عن الإسلام الشبهات التي يثيرها الأعداء، أم أراد أن يثبت صحة الإسلام وبطلان العقائد المخالفة للإسلام، ولكن في الوقت نفسه ينبغي مراعاة المواطن المناسبة للاستدلال بهما بحيث يؤتيان ثمارهما المطلوبة.

أ/ الاستدلال بالمنقول من القرآن الكريم:

تتلخص القضايا التي اعتمد فيها القرافي في الاستدلال بالمنقول من القرآن الكريم في دعوته للنصارى والرد عليهم في النقاط التالية:

١- تصحيح فهم النصارى الخاطئ لبعض نصوص القرآن والسنة:

استدل بعض النصارى على صحة دينهم تارة وعلى بطلان الدين الإسلامي تارة أخرى ببعض الآيات القرآنية التي اشتبهت عليهم، وذلك لأنهم لم يفهموها كما ينبغي لها أن تفهم، فكان القرافي -رحمه الله- يبين لهم معنى الآية ومقصدها بإيراد آيات أخرى تعزز المعنى الصحيح، وفي بعض الأحيان كان يكتفي فقط ببيان

المعنى الصحيح للآية دون أن يورد أدلة قرآنية على المعنى المقصود من الآية[١].

فمما اعتمد في بيانه على المنقول من القرآن الكريم تفسيره لقوله تعالى ﴿...إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه...الآية﴾[٢] حيث بنى النصراني على هذه الآية شبهته القائلة بأن القرآن موافق لعقيدة النصارى حيث ذكر بأن عيسى -عليه السلام- روح الله وكلمته. فبيّن القرافي معنى هذه الآية بقوله تعالى: ﴿إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان﴾[٣]، وقوله تعالى ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾[٤].

ذلك أنه لا يلزم من إضافة الروح إليه غير التخصيص الهادف إلى بيان منزلة المخصص، فكما نسب الله سبحانه وتعالى إليه الرسول ﷺ بالعبودية، ونسب بعض عباده إليه مع أن الجن والإنس جميعهم عبيده، كذلك أضاف الروح إليه في حق عيسى -عليه السلام- لبيان منزلة المخصص، وعلو مكانته وزيادة شرفه بما وهبه الله تعالى من مكارم النبوة، والمعجزات الخاصة التي لم تتوفر في غيره من البشر

---

(١) على سبيل المثال: استدل النصارى على صحة الإنجيل والتوراة بقوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب﴾ سورة المائدة٤٨، فقال القرافي: «وأما تصديق القرآن بما بين يديه فمعناه: أن الكتب المنزلة المتقدمة عند نزولها قبل تغييرها وتخبيطها كانت حقا موافقة للقرآن، والقرآن موافق لها، وليس المراد الكتب الموجودة اليوم، فإن لفظ التوراة والإنجيل إنما ينصرف إلى المنزلين» الأجوبة الفاخرة، ص٣٩.

(٢) سورة النساء آية: ١٧١.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٤٢، وأيضا في سورة الإسراء، آية:٦٥.

كولادته من أم دون الأب[١].

وفي موطن آخر ذكر النصراني أن القرآن الكريم أثنى على النصارى بدليل قوله تعالى: ﴿**وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون**﴾[٢] «ولم يقل كونوا له مسلمون»[٣].

فذكر القرافي أن قوله تعالى ﴿**ونحن له مسلمون**﴾ خاص بالمسلمين، وقد أمرهم الله تعالى به، وهو في الوقت نفسه أمر للنصاري بالإسلام، وأيد هذا القول بالأوامر التي جاءت في غير ما آية، داعية النصارى للدخول في الإسلام كقوله تعالى: ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿**قل يا أهل**

---

(١) انظر: القرافي الأجوبة الفاخرة، ص٣٢-٣٣.

وقد فصل ابن القيم -رحمه الله- في هذه المسألة فذكر أن كلمة الروح وردت في القرآن على عدة أوجه، فمنها ما جاء بمعنى الوحي، وبمعنى القوة والثبات والنصرة، وبمعنى جبريل، وورد أنها من أمر الله التي لا يعرف حقيقتها إلا الله، وهي الروح التي سأل عنها اليهود، في قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي﴾.

أما بالنسبة لإضافة الروح إليه سبحانه وتعالى فذكر أن المضاف إلى الله نوعان: أحدهما إضافة صفة إلى الموصوف، كالعلم والقدرة، وغيرها من صفات الله الثابتة، وثانيهما: إضافة أشياء منفصلة عن الله تعالى كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح، وهي من إضافة مخلوق إلى خالقه، مع اقتضائها تخصيصا وتشريفا يتميز به المضاف عن غيره، فتقول: بيت الله، ناقة الله، روح الله...الخ. انظر: ابن قيم الجوزية، الروح، ص١٥٣-١٥٤، ط، دار الرشد، الرياض.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٥٤.

(٣) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٥٢.

(٣) سورة آل عمران، آية ٦٤.

الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق﴾[١]، فالآيات كلها متضافرة في أمر النصارى للدخول في الإسلام، ولا يوجد في القرآن ما يقرهم على ماهم عليه من الضلال كما ادعى النصراني[٢].

واستخدم القرافي هذا الأسلوب أيضا في بيان تهافت المطاعن التي يوجهها النصارى إلى الإسلام اعتمادا على سوء تفسيرهم لبعض الآيات القرآنية، ومن ذلك تصحيح القرافي شبهة النصارى القائلة بأن رسالة محمد ﷺ خاصة بالعرب استنادا إلى قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾[٣] بقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾[٤]، فاندفعت شبهة التخصيص بهذا التصريح المعمم، وكان الأولى أن يطالبوا بتوضيح صدق دعوى الإسلام، لأنهم لا يعتقدون بأصل الرسالة المحمدية لا لقومه ولا لغيرهم[٥]، ولكنهم أثاروا مثل هذه الشبه لمجرد التشويش والطعن في دين الإسلام.

ومثل ذلك أيضا ادعاء النصارى بأن الله أخبر أن محمدا ﷺ شاك في أمره فكيف يمكن اتباعه، بدليل قوله تعالى: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾[٦]، فوضّح القرافي أن هذا لا يدل على الشك بل على التلطف وحسن الإرشاد للمخالف، وهو مثل ما ورد في قوله تعالى: ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم، وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض

---

(١) سورة المائدة، آية: ٧٧.

(٢) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٥٤.

(٣) سورة إبراهيم، آية: ٤.

(٤) سورة سبأ، آية: ٢٨.

(٥) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢٩.

(٦) سورة سبأ، آية: ٢٤.

الذي يعدكم ...﴾[1]، والتلطف في الدعوة إلى الله من منهج القرآن لقوله تعالى: ﴿فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾[2]، وقوله: ﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾[3]، وقوله: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا﴾[4]، فلا دليل للنصارى في الآية، بل أرادوا التحكم في فهمها بلا برهان بين، ولا حجة واضحة[5].

وفي موقف آخر استدل القرافي -رحمه الله- بقوله تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾[6]، ردا على استدلال النصارى بأن المسلمين على ضلال في دينهم بنص الحديث النبوي الذي قاله النبي ﷺ في أثناء مرض موته: «هلموا أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا» فمنعهم عمر -رضي الله عنه- من ذلك، وقال حسبنا كتاب ربنا..»[7].

---

(١) سورة غافر، آية:٢٨.

(٢) سورة طه، آية: ٤٤.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٤) سورة العنكبوت، آية٤٦.

(٥) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٥٧-٥٨.

(٦) سورة المائدة، آية: ٣.

(٧) الحديث ورد في صحيح البخاري، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «لما حُضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ: «هلموا أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول قربوا يكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ومنهم من يقول غير ذلك، فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله ﷺ قوموا »البخاري، كتاب المغازي٦٤، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر٨٣، ج٥، ص١٣٧-١٣٨، ومثله في كتاب المرضى ٧٥، باب قول المريض قوموا عني١٧، ج٧، ص٩، وصرح في كتاب العلم أن القائل حسبكم كتاب الله عمر -رضي الله عنه-، باب كتابة العلم٣٩، ج١، ص٣٧، وغيرها من المواضع.

فما توهمه النصراني بأن المسلمين على ضلال استنادا على هذا الحديث مردود بالآية السابقة التي أثبتت اكتمال الدين، فيتعين أن الكتاب المذكور كان من باب الاحتياطات التي لا يضر الإخلال بها، ولا يكون من عدمه الفساد في أصول الدين ولا في غيرها[١].

٢- إثبات عدم صلب المسيح - عليه السلام-:

أيد القرافي بقوله تعالى: ﴿وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه﴾[٢] الاحتمالات العقلية التي أثبتت عدم التأكد من أن المصلوب هو عيسى -عليه السلام- لأن العدد المباشر للصلب لم يكن يبلغ حد التواتر، والحواريون فروا عنه ولم يشاهدوا العملية بأنفسهم، وإنما هم الأعوان الذين نفذوا الحكم وهم قد يكونون اثنين أو ثلاثة[٣].

٣- إثبات أفضلية أمة محمد ﷺ على سائر الأمم:

حاول مخاطب القرافي النصراني أن يثبت الأفضلية لدين النصرانية على سائر الملل بما فيها اليهودية والإسلام، ولم يذكر دليلا على دعواه سوى أن شريعة موسى -عليه السلام- كانت شريعة عدل، ثم جاءت شريعة الكمال على يد عيسى -عليه السلام- فلم يبق بعد الكمال إلا النقص، فاستدل القرافي على بطلان هذه الدعوى بأدلة عقلية ونقلية، وكان مما استدل به بالمنقول من القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾[٤].

٤- اتفاق القرآن مع بعض نصوص الكتاب المقدس لدى النصارى:

حاول الإمام القرافي -رحمه الله- إقناع النصارى بتعاضد الأدلة من القرآن والكتاب المقدس عندهم في كثير من القضايا التي ضلوا فيها، فنفى بنوة المسيح -عليه السلام- لله بالمعنى الذي ذهب إليه النصارى؛ لأن ما تمسكوا به من ألفاظ

---

(١) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص ١٢٦-١٢٧.

(٢) سورة النساء، آية: ١٥٧-١٥٨.

(٣) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٨٢-٨٤.

(٤) سورة آل عمران، آية ١١٠.

ورد مثله في التوراة والإنجيل والقرآن بما لا يفيد المعنى الذي ذهبوا إليه، ومن ذلك لفظ البنوة والأبوة الذي شاع استخدامه في هذه الكتب، فالتوراة نسبت إلى الله تعالى: «إسرائيل ابني بكري»[1] أي أعز الأولاد بمعنى أعامله أفضل ما أعامل به الخلق، وفي الإنجيل سوّى المسيح -عليه السلام- بينه وبين غيره من الخلق في الأبوة والبنوة لله قائلا: «إني ذاهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم»[2] لأن المراد إحسان الله تعالى لخلقه إحسان الآباء للأبناء، بل أشد، فاشترك مع عيسى -عليه السلام- غيره، ولا خصوصية له، وهو معنى قول اليهود كما جاء في القرآن الكريم: ﴿**نحن أبناء الله وأحباؤه**﴾[3][4].

وفي إثباته النعيم الحسي الذي ينعم به المؤمنون يوم القيامة سلك المسلك نفسه، فأتى بقوله تعالى: ﴿**فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات**﴾[5]، وذكر أن في التوراة ما يوافقها[6].

فإيراد القرافي -رحمه الله- لهذه الآيات لم يكن استدلالا مستقلا بالمنقول من القرآن، بل هو لتأكيد الحقائق التي اتفقت الكتب في ذكرها وتعسف النصارى في التحكم فيها، فأنكروا الحقائق التي أثبتتها كتبهم التي يؤمنون بها بالإضافة إلى تأييد القرآن لها.

ويلاحظ على الإمام القرافي أنه لم يذهب إلى الإكثار من نصوص الآيات القرآنية في الرد على النصارى ودعوتهم إلى الإسلام، وذلك بالرغم من أن النصراني

---

(١) خروج، ٢٢/٤.

(٢) يوحنا، ١٧/٢٠.

(٣) سورة المائدة آية: ١٨.

(٤) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٣٢-١٣٣.

(٥) سورة محمد، آية: ١٥.

(٦) انظر: إشعيا، ١/٥٥. وفي الترجمة الحديثة اختلاف لفظي بسيط.

كان يحاول الاستدلال بكثير من الآيات القرآنية لإثبات معتقداته المتعلقة بعيسى ومريم -عليهما السلام- والإنجيل والتوراة، وبعض العبادات التي يفعلونها، وكان بإمكان القرافي أن يجيب على النصارى من خلال القرآن الكريم بشكل أكثر كثافة وتركيزا، فعندما استدل النصراني على صحة دينهم بأن القرآن مدح الديانة النصرانية بقوله تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من ءامن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾[١] كان بإمكان القرافي بعد أن يبين معنى الآية أن يحشد الآيات المقابلة لهذه الآية التي توضح فساد دينهم بالتحريف ، ومجانبتهم الدين الحق، ولعنهم وطردهم عن رحمة الله، إلا أنه اكتفى لإزالة الشبهة التي تمسك بها الخصم ببيان تفسير الآية، ولم يزد ما نقله من أدلة القرآن على نصين، في مقابل خمسة نصوص قرآنية أوردها النصراني زاعما أنها تؤيد حجته[٢]

ولا أدري ما السبب الذي جعله يقلل من الاستدلال بنصوص القرآن على النصارى، وقد يكون السبب رفضهم القبول بجميع ما في القرآن قائلين: «إذا احتججنا ببعض القرآن لا يلزمنا بقيته»[٣]، ولكن القرافي -رحمه الله- كان قد بين أن هذه الدعوى غير صحيحة، فيلزمهم القبول بجميع ما في القرآن إن استدلوا ببعضه، لذلك كان من الأفضل أن يعطي نصوص القرآن الكريم مجالا أوسع مما أعطاها، والله أعلم.

ب/ الاستدلال بالمنقول من السنة النبوية:

استدل القرافي -رحمه الله- ببعض الأحاديث النبوية في إحقاق الحق الذي يدعو إليه، وإبطال الباطل الذي زعم النصارى أنه حق، ومن القضايا التي اعتمد في

---

(١) سورة البقرة، آية: ٦٢.

(٢) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢٥-٥٤.

(٣) القرافي، المصدر نفسه، ص٦٧.

بيانها على هذا النمط من الاستدلال ما يلي:

١- تصحيح فهم النصارى الخاطئ للقرآن الكريم:

أسند القرافي -رحمه الله- إلى رسول الله ﷺ أن المراد بـ ﴿ذلك الكتاب﴾ هو القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾[1]، حيث زعم النصارى بأن المراد بذلك الإنجيل، فقال القرافي: «وأما قوله ﴿ذلك الكتاب﴾ وأنه المراد به الإنجيل فمن الافتراء العجيب والتخيل الغريب، بل أجمع المسلمون قاطبة على أن المراد به القرآن الكريم ليس إلا، وقد أخبر الناطق بهذا اللفظ وهو رسول الله ﷺ أن المراد هذا الكتاب، كيف يليق أن يحمل على غيره، فإن كل أحد مصدق فيما يدعيه في قول نفسه، إنما ينازع في تفسير قول غيره إن أمكنت منازعته»[2].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢.

(٢) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٣٩.

وقد ذكر المفسرون أن المراد بـ﴿ذلك الكتاب﴾ هذا الكتاب، أي القرآن الكريم، وهو قول ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدي، ومقاتل بن حيان، وزيد بن أسلم، وابن جريج، وأبي عبيدة، وحكى القرطبي، عشرة أقوال في اختلاف الناس في الغائب المشار إليه في الآية، أما إسناد تفسير الآية إلى الرسول ﷺ فقد عدت إلى كتب التفسير بالمأثور وغيرها ولم أجد من صرح برفع هذا القول إلى النبي ﷺ، بل جميع الأقوال موقوفة على الصحابة والتابعين -رضوان الله عليهم-. والقول بأن المراد بالكتاب الإنجيل والتوراة قول مرجوح، قال ابن كثير: «ومن قال الإشارة إلى التوراة والإنجيل فقد أبعد النجعة، وأغرق في النزع وتكلف ما لا علم له به» تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٦٩، وانظر: تفسير ابن مسعود، جمع وتحقيق ودراسة، محمد أحمد عيسوي، ج٢، ص٢٠، ط١، شركة الطباعة العربية، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، الرياض، ومحمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تنوير المقاس من تفسير ابن عباس، ج١، ص٣، ط، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م، القاهرة، ومحمد بن جرير الطبري، =

٢- توضيح السنة بالسنة:

ذكر القرافي -رحمه الله- قول النبي ﷺ «الأئمة من قريش»[1] وقوله للمرأة «ائت أبا بكر»[2] لما وعدها بعدة وسألته ما تفعل إن لم تجده؟، وقوله في حجة الوداع في نهاية خطبته التي خطبها على الحجاج الذين حجوا معه: «ألا قد بلغت ألا قد

= جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج١، ص٢٢٥، تحقيق وتعليق: محمود محمد شاكر، راجعه وخرج أحاديثه، أحمد محمد شاكر، ط، دار المعارف مصر، القرطبي، الجامع، ج١، ص١٥٧-١٥٨، وجلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج١، ص٢٤، ط، محمد أمين دمج، بيروت، والحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، تحقيق، خالد عبد الرحمن العلك، ج١، ص٤٤، ط٢، دار المعرفة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، بيروت، وعبد الرحمن بن علي بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج١، ص٢٣، ط١، المكتب الإسلامي، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م، والشوكاني، فتح القدير، ج١، ص٢٣.

(١) «الأئمة من قريش إذا استرحموا رحموا وإذا عاهدوا وفوا وإذا حكموا عدلوا فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» رواه الإمام أحمد في المسند، ج٣، ص١٢٩، و١٨٣، وج ٤، ص٤٢١. وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال ثقات، بل قال في أحد روايات الحديث أنهم رجال الصحيح خلا رجل واحد، وهو ثقة. انظر: علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج٥، ص١٩٢-١٩٣، ط، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

(٢) الحديث عن جبير بن مطعم عن أبيه قال: «أتت امرأة النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه. قالت: أرأيت إن جئتك ولم أجدك -كأنها تقول الموت-، قال ﷺ إن لم تجديني فأتي أبابكر» البخاري، كتاب فضائل الأصحاب٦٢، باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذا خليلا٥، ج٤، ص١١٩، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة٤٤، باب من فضائل أبي بكر، -رضي الله عنه-١، حديث رقم٢٣٨٦،ج٢، ص١٨٥٦.

بلغت»[١].

وقد استدل بهذه الأحاديث نافيا الشبهة التي أثارها النصارى بأن المسلمين على ضلال استنادا على الحديث الذي يفيد أن الرسول ﷺ لم يكتب لهم الكتاب الذي يمنعهم من الضلال، فبين القرافي -رحمه الله- أن الكتاب الذي لم يكتبه رسول الله ﷺ كان في مسألة الخلافة، واستدل بتلك الأحاديث على أنه -عليه الصلاة والسلام- كان قد حدد من يتولى الخلافة بعده، فحددها في قريش، بل صرح باسم أبي بكر -رضي الله عنه- بأنه سيتحمل أعباء المسلمين بعده، وفي الخطبة التي خطبها في أواخر حياته في حجة الوداع التي ذكر فيها أصول الإسلام أشهد الله أنه قد بلغ ما أرسل به، مما يعني أن الدين قد اكتمل كله، وأن الكتاب الذي همّ بكتابته ﷺ في آخر حياته لا يلزم من عدمه ضلال المسلمين في دينهم[٢].

٣- عموم رسالة النبي ﷺ:

أشار القرافي -رحمه الله- على عموم رسالة النبي ﷺ بالسنة العملية، وإن لم يذكر نصوص الأحاديث، وذلك بعد أن ادعى النصراني أن رسالة محمد ﷺ خاصة بقومه ولم يرسل إلى الناس عامة، فقال القرافي: «لو لم يرسل إليهم -فليت

---

(١) الحديث ورد بألفاظ عدة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ خطب يوم النحر فقال: يا أيها الناس أي يوم هذ قالوا يوم حرام، قال: فأي بلد هذا، قالوا: بلد حرام، قال: فأي شهر هذا، قالوا: شهر حرام، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، فأعادها مراراً ثم رفع رأسه فقال: اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت، قال ابن عباس -رضي الله عنهما- فوالذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته فليبلغ الشاهد الغائب لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» وفي لفظ آخر: «ألا هل بلغت» البخاري، كتاب الحج٢٥، باب الخطبة أيام منى١٣٢، ج١،ص١٩١.

(٢) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٢٦-١٢٧.

شعري- ما كتب إلى قيصر هرقل ملك الروم، وإلى المقوقس أمير القبط[١] يدعوهم إلى الإسلام، ولولا ذلك لم يسلط السيف على النصرانية إلى اليوم ستمائة سنة»[٢].

٤- اتفاق السنة مع بعض نصوص الكتاب المقدس لدى النصارى:

أورد هذا النوع من الاستدلال في بعض المواطن التي استدل بها على إثبات نبوة نبينا بما جاء في كتب القوم، فذكر قول «اليهودي لبعض الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- لقد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراء، فقال أجل لقد نهانا أن يستقبل أحدنا القبلة ببول أو غائط»[٣]، وذلك بعد أن استدل بما جاء في الإنجيل: «إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله إلى كل شيء وهو يعلمكم كل شيء»[٤]، فأثبتت السنة أن الرسول ﷺ علم كل شيء كما أثبت الإنجيل ذلك من قبل، فاتفقت السنة والإنجيل في ذكر هذه الحقيقة المتعلقة بخصائص نبي الإسلام محمد ﷺ.

وفي موطن آخر أورد قوله ﷺ :«أمرت أن أقاتل بغاة الكفر حتى يقولوا لا إله

---

(١) سبق تخريج حديث رسالة النبي ﷺ إلى ملك الروم، في ص٤٤ من الفصل الأول، ورسالة المقوقس من كتب السير.

(٢) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ٥٨-٥٩.

(٣) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢٠٢. والحديث عند مسلم عن سلمان -رضي الله عنه- قال: قيل له: قد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة، قال: فقال: أجل. لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول، أو أن نستنجي باليمين أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو بعظم»، كتاب الطهارة٢، باب الاستطابة١٧، حديث رقم٢٦٢، ج١، ص٢٢٣، .

(٤) يوحنا، ٢٦/١٤. في الترجمة الحديثة المعزي بدلا من الفارقليط، وبعض الاختلافات اللفظية.

إلا الله فإذا قالوها عصموا بذلك دماءهم وأموالهم»[(١)]، وهذا الحديث يؤيد ما جاء في المزامير «ويذل الباغي»[(٢)] في وصف النبي ﷺ ، وقد ادعى النصارى أن المقصود بها المسيح -عليه السلام-، واتفاق السنة وما جاء في هذا المزمور يؤكد بطلان دعوى النصارى[(٣)].

ويلاحظ أن القرافي لم يحاول إيراد الأحاديث التي تثبت نبوة نبينا -عليه الصلاة والسلام- كالأحاديث التي فيها ذكر لعلامات النبوة من المعجزات القولية والفعلية وغيرها من الدلائل. بل ركز على ما جاء في كتب القوم، ولعله رأى أن الأفضل مخاطبتهم بما يعتقدون صحته، ولا فائدة ترجى في إقناعهم بما لا يسلمون به، والله أعلم.

ثانيا: الاستدلال بالمنقول من الكتاب المقدس لدى النصارى:

نقل الإمام القرافي -رحمه الله- مجموعة من النصوص من الكتاب المقدس لدى النصارى، في إثبات ضلال النصارى وبعدهم عن الحق، سواء أكان الخلل في النصوص نفسها من جراء ما أصابها من التحريف والتبديل، أم كان الخلل في عدم التزام النصارى بما جاء في هذه النصوص. وكان القرافي في بعض الأحيان يكتفي بذكر مجمل ما حوى الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) دون

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان٢، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة...١٧، ج١، ص١١، ومسلم، كتاب الإيمان، ١، باب الأمر بقتال الناس٨، حديث رقم٢٠، ٢١، ٢٢، ج١، ص٥٢، قال محقق كتاب أدلة الوحدانية أنه لم يقف على نص «بغاة الكفر» وقد تأكدت بنفسي ولم أعثر على هذا اللفظ، والموجود هو «أمرت أن أقاتل الناس»، حسب اطلاع الباحث على كتب الأحاديث وفهارسها.

(٢) مزامير، ٤/٧٢، وفي الترجمة الحديثة: «ويسحق الظالم».

(٣) انظر: القرافي، أدلة الوحدانية، ص٩٠-٩١.

إسناده إلى سفر ما، أو ذكر النص صراحة[١]، ومن النقاط التي حاول بيانها ما يلي:

١- توحيد الله ونفي ألوهية المسيح -عليه السلام-:

إن الإيمان بألوهية المسيح -عليه السلام- هو الاعتقاد السائد لدى النصارى، واستدل القرافي على بطلان هذه العقيدة من الكتاب الذي يقدسه النصارى، فاستدل بما جاء في العهد القديم قول الله تعالى لبني إسرائيل: «أنا الله ربكم الذي أخرجتكم من أرض مصر من بيت العبودية لا يكون لكم إله غيري»[٢]، فهذا دليل صريح في أن الله واحد لا شريك له ولا ند، وقد ثبت هذا القول في التوراة قبل ميلاد عيسى -عليه السلام-، والنصارى مطالبون به[٣].

واستدل أيضا بما جاء في الإنجيل مما يفيد وحدانية الله تعالى وعبودية المسيح -عليه السلام- لله تعالى، وأنه مبعوث من عند الله ليس إلا، ومن ذلك ما جاء في إنجيل يوحنا أن المسيح رفع بصره إلى السماء وتضرع إلى الله وقال: «إن الحياة الدائمة تجب للناس أن يعلموا أنك أنت الله الواحد الحق وأنك أنت أرسلت يسوع»[٤]، وفي موطن آخر: «إني لم أعمل بمشيئتي بل بمشيئة من أرسلني»[٥]، وفي موطن آخر أيضا قال المسيح -عليه السلام- لسبعين رجلا بعثهم إلى أماكن مختلفة: «...من سمع منكم فقد سمع مني، ومن سمع مني فقد سمع من الذي أرسلني، ومن شتمكم فقد شتمني ومن شتمني فإنما شتم من أرسلني»[٦] فهذه النصوص تدل على التوحيد المحض، وفيها تصريح لا يقبل التأويل بأن عيسى -عليه

---

(١) انظر على سبيل المثال ص١٤٣-١٤٥، من كتاب الأجوبة الفاخرة، فلم يذكر النصوص صراحة، بل اكتفى بالإشارة.

(٢) خروج، ٢/٢٠.

(٣) انظر: القرافي، أدلة الوحدانية: ٥٨.

(٤) يوحنا، ٣/١٧.

(٥) المصدر نفسه، ٣٨/٦.

(٦) لوقا، ١٦/١٠.

السلام- رسول لا رب وهو حجة دامغة على النصارى[1].

ومن الأدلة المنقولة المثبتة لعبودية المسيح -عليه السلام- قوله: «أذهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم»[2]، وأورد كذلك قصة محاولة إبليس فتنة المسيح- عليه السلام- حيث صرح فيها بأنه عبد لله، ويسلك الأدب مع الله في عدم تجربته، ثم كيف يحاول إبليس فتنة المسيح ويدعوه للسجود له وهو خالق كل شيء وإله العالم، فالقصة دليل واضح على عبودية عيسى -عليه السلام-[3]، كما أن المسيح -عليه السلام- في النص السابق لم يفرد نفسه باسم البنوة دون غيره، ولا ادعى الألوهية لنفسه كما ادعاها غيره له، بل أخبر أن الله إلهه وإلههم، وسوّى نفسه بغيره فلم يختصها بالبنوة ولا بالألوهية[4].

٢- تحريف الكتاب المقدس:

استدل القرافي -رحمه الله- على بطلان الديانة النصرانية بما حوى الكتاب المقدس من أباطيل، وتناقضات تدل على أنه مما كتبته أيدي الناس، وليس مما أنزله الله تعالى، فالمسلم وإن كان يؤمن بنزول التوراة والإنجيل من عند الله، إلا أن الموجود في أيدي النصارى بعيد كل البعد عن التوراة والإنجيل المنزلتين، وذلك لدخول يد التحريف عليها، واستدل القرافي على ذلك من واقع الكتاب المقدس المعتمد لدى النصارى، وذكر نصوصا صريحة تؤكد هذا القول، ومن ذلك ما جاء في صدر إنجيل لوقا: «إن أناسا راموا ترتيب الأمور التي نحن عارفون، كما عهد إلينا أولئك الصفوة الذين كانوا خداما للكلمة فرأيت أنا إذ كنت تابعا أن أكتب إليك أيها الأخ العزيز تأويلا تعرف به حقائق الأمر الذي وُعظت به»[5]. «فقد اعترف أنه لم يلق

---

(١) انظر: القرافي، أدلة الوحدانية، ص٥٩، والأجوبة الفاخرة، ص١٣١.

(٢) يوحنا، ٢١/٢٠.

(٣) القصة التي أوردها موجودة في متى، ٤/١-١٦.

(٤) انظر: القرافي، أدلة الوحدانية، ص٦٣، والأجوبة الفاخرة، ص٩٦-٩٧.

(٥) لوقا، ١/١-٤، مع بعض الاختلافات اللفظية في الترجمة الحديثة. والمضمون لا يختلف.

المسيح -عليه السلام- ولا خدمه، وإنما كتابه تأويلات جمعها مما وعظ به خدام الكلمة»[١]، فهذا نص صريح بأن ما كتبه لوقا في إنجيله ليس وحيا منزلا من عند الله على عيسى -عليه السلام- أو على لوقا، أو مما أملاه عيسى عليه، بل هو ألفه تأليفا من القصص والروايات التي سمعها ممن كانوا قبله.

ومن التناقضات الموجودة في الأناجيل الدالة على التحريف استدل القرافي -رحمه الله- بحادثة قصة قيام المسيح -عليه السلام- الموجودة في الأناجيل قائلا: «قال متي: «إن مريم خادمة المسيح -عليه السلام- جاءت لزيارة قبره عشية السبت ومعها امرأة أخرى، وإذا بملك قد نزل من السماء وقال لها: لا تخافا فليس يسوع هنا، قد قام من بين الأموات ثم لقيتا المسيح، وقال: لا بأس عليكما، قولا لإخواني ينطلقون إلى الجليل»[٢].

وقال يوحنا: «جاءت وحدها يوم الأحد بغلس، فرأت الصخرة رُفعت عن القبر فأسرعت إلى شمعون وتلميذ آخر، فأخبرتهما أن المسيح -عليه السلام-- قد أُخذ من المقبرة، ولا أدري أين دفن؟ فخرج شمعون وصاحبه فأبصرا الأكفان موضوعة ناحية من القبر فبينما هي كذلك التفتت فرأت المسيح -عليه السلام- قادما، فلم تعرفه، وحسبته حارس البستان، فكلمها فعرفته، وقال لها إني لم أصعد بعد، اذهبي إلى إخواني فقولي: إني منطلق إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم»[٣]، فأحدهما يقول: إن الملك هو الذي أمّنها، والآخر يقول: هو المسيح -عليه السلام-.

وأحدهما يقول عشية السبت، والآخر يقول يوم الأحد.

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٤٤-٤٥.

(٢) متي، ٢٨/١-١٠. وفي الترجمة الحديثة: «بعد السبت عند فجر أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية، ومريم الأخرى لتنظرا...» ولعل هذا مما تداركه النصارى في التراجم الحديثة، فبقاء كلمة السبت يدل أن النص في عصر القرافي كان كما نقله.

(٣) يوحنا، ٢٠/١-١٨، وفي الترجمة الحديثة النص قريب من المعنى نفسه، ويفيد أن مريم كانت وحدها ولكنه لم يصرح بلفظ «وحدها»

وأحدهما يحكي عن مريم وحدها، والآخر عنها مع غيرها»[١].

فالقرافي يلاحظ ثلاث نقاط تناقضت فيها الروايتان، الأولى: الشخص الذي طمأن مريم من المفاجأة التي فوجئت بها، ألا وهي انكشاف القبر وخلوه من أي جسد فيه، هل كان ذلك الملك الذي نزل من السماء، أم المسيح الذي حسبته مريم صاحب البستان. والثانية: هي في تحديد الوقت الذي ذهبت فيه مريم إلى المقبرة، هل هو مساء السبت، أم فجر يوم الأحد، -وإن كانت الترجمة الحديثة أثبتت فجر الأحد-. والثالثة: أن إحدى الروايتين صرحت بأن مريم كانت معها مريم أخرى ترافقها في زيارة القبر، وكان الحديث من قبل الملك موجها إليهما، لا إلى إحداهما، بينما الرواية الأخرى ذكرت مريم واحدة، وصيغة الخطاب موجه فيها إلى مفرد.

وذكر القرافي التناقض الموجود في نسب عيسى -عليه السلام- قائلا: «قال متي: يوسف خطيب مريم اسم أبيه يعقوب،[٢] وقال لوقا: أقام يسوع ثلاثين سنة يُظن أنه ابن يوسف بن هالي[٣]... فجعل اسم أبيه هالي، والأول جعله يعقوب، وهو تكاذب»[٤].

ومما يدل على التحريف أيضا أن بعض الأناجيل تذكر أمورا لم تذكرها أناجيل أخرى مما يعني أن كتاب الأناجيل تركوا أمورا كثيرة، قد تكون من العقائد، أو الفرائض أو غيرها، وهذا يفتح الباب للقول بأنه إذا ثبت تركهم لبعض القضايا، فإمكان زيادتهم فيها أيضا وارد، فإما أن يكون بعضهم ترك شيئا، أو أن ما ذكره الآخر هو زيادة لا أصل له، واستدل القرافي على هذا بما جاء في الإنجيل أنه لما نزل بيسوع -عليه السلام- الجزع من اليهود «ظهر له ملَك من السماء ليقويه، وكان يصلي متواترا وصار عرقه كعبيط الدم»[٥] وقال القرافي معقبا على هذا النص: «ولم

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٤٨-٤٩. وانظر: أدلة الوحدانية، ص١٠٥-١٠٦.

(٢) متي، ١/١-١٦.

(٣) لوقا، ٣/٢٣.

(٤) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٤٧.

(٥) لوقا، ٢٢/٤٣-٤٤. في الترجمة الحديثة: كقطرات الدم، بدلا من كعبيط الدم.

يذكر ذلك متي ولا مرقس ولا يوحنا، وإذا تركوا ذلك لم يؤمن أن يتركوا ما هو أهم من الفرائض والأحكام، وإن كان الترك صحيحا؛ فتكون الزيادة كذبا في النسخ الأخرى، وهذا هو التحريف والتبديل مع أن نقل لوقا يقتضي رفع المسيح -عليه السلام- إلى السماء؛ لأن الملك لا تغلبه اليهود، وما نزل إلا للعصمة من الأذى والرفع»[(١)].

وقد ذكر القرافي -رحمه الله- نصوصا من التوراة أيضا تدل على تحريفها، ولكن خطابه كان موجها لليهود خاصة في ذلك[(٢)]، فاكتفى الباحث بذكر ما كان موجها صراحة للنصارى، وإن كان أي رد على التوراة اليهودية يشمل النصارى ضمنا.

٣- جواز النسخ في الشرائع:

ادعى اليهود والنصارى على المسلمين أنهم يقولون بالمحال، حيث جوزوا البدء أو الندم على الله تعالى لاعتقادهم أن القرآن الكريم نسخ التوراة والإنجيل[(٣)]، فرد القرافي على هذه الدعوى من واقع كتبهم، وذكر ثمانية أمثلة لورود النسخ فيها، منها قوله: «إن في التوراة ماهو أشد من الندم والبدء ففيها: «مرض ملك اليهود حزقيال، وأوحى الله تعالى إلى أشعيا -عليه السلام- قل لحزقيال يوصي، فإنه يموت من علته هذه، فأخبره فبكى حزقيال وتضرع، فأوحى الله تعالى إلى إشعياء أنه يقوم من علته وينزل إلى الهيكل بعد ثلاثة أيام، وقد زيد في عمره خمس عشرة سنة»[(٤)] ومثله في التوراة كثير»[(٥)].

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٤٦.

(٢) انظر على سبيل المثال: ص١٨٤-١٨٥ من كتاب الأجوبة الفاخرة.

(٣) الفرق بين النسخ والبداء أو البدء، أن النسخ تحويل حكم شرعي إلى حكم آخر لحكمة ما وقد علم الله عزوجل العاقبة في ذلك، وعلم وقت الأمر به أنه سينسخه إلى ذلك الوقت، أما البداء فهو ترك ما عزم عليه. انظر: أبو جعفر النحاس، الناسخ والمنسوخ، ص٦٢، تحقيق: د. محمد عبد السلام محمد، ط١، مكتبة الفلاح، ص٨، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، الكويت.

(٤) إشعياء، ٣٨/١-٥.

(٥) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٩١.

فدعوى اليهود والنصارى معارض بما جاء في كتبهم، بل إن ما ورد في توراتهم أكثر صراحة في النسخ، والله يفعل ما يشاء في ملكه كيف شاء ومتى شاء، ولا حجر عليه في ذلك، وكل ما حكم الله به فإنما هو لحكمة يعلمها هو وإن خفيت على الناس أجمعين.

٤- مخالفتهم لما جاء في كتبهم:

وضع النصارى لأنفسهم عقائد وأحكاما ما أنزل الله بها من سلطان، بل إنهم خالفوا كتابهم الذي يعتقدون أنه وحي من عند الله، ويؤمنون بأنه أساس عقائدهم وشرائعهم، فنقل نصوصا كثيرة من العهد القديم والعهد الجديد تبين تهالك كثير من معتقداتهم وتناقض بنود الأمانة التي وضعوها في مجمع نيقية[١].

فمن المعتقدات الباطلة التي يؤمن بها النصارى عقيدة أن آدم -عليه السلام- لما أكل من الشجرة عاقبه الله هو وذريته بورود جهنم وهذا مخالف لما جاء في التوراة: «لا يعاقب أحد بذنب غيره»[٢].

ولما ذكر أيضا الأحكام والعقوبات التي أحدثوها في قضايا العبث بالصبيان، وزواج القرابات، وإتيان البهائم، ذكر أنهم لا سند لهم في ذلك سوى التحكم، والهوى، وأنهم لن يجدوا دليلا واحدا على نسخ أحكام التوراة في هذه القضايا، بل إن الإنجيل الذي بأيديهم يؤكد على التمسك بالتوراة،[٣] حيث قال المسيح -عليه السلام- «إنما جئت متمما ولم آت لأنقض شريعة من قبلي»[٤].

وفي تركهم بعض الشعائر التي جاءت بها التوراة استدل القرافي بمشروعية الختان في التوراة، وإسقاط النصارى لهذه الشعيرة من شعائر الديانة النصرانية،

---

(١) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٤٥ وما بعدها

(٢) انظر: القرافي، أدلة الوحدانية، ص٦٥. والنص في تثنية، ٢٤/١٦، في الترجمة الحديثة: «لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيئته يقتل».

(٣) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٩١.

(٤) متى، ٥/١٧-١٩.

ونقل نصا من التوراة يؤيد قوله[١] وهو: «إن الله تعالى أمر إبراهيم الخليل بالختان فقال له: هذا عهدي بيني وبينك، وبين نسلك، بعد أن يختن غرلته كل ذكر منكم ومن عبدانكم ليكون عهدي ميسما في أجسادكم عهدا دائما على الأبد، وكل ذكر لا يختن غرلته فلتهلك تلك النفس من سعيها لأنها أبطلت عهدي...»[٢]، فالحاصل أن النصارى لم يتمسكوا بالتوراة كلها، ولا بالإنجيل الذي بين أيديهم مع ما فيه من التحريف، فازدادوا ضلالا على ضلالهم.

٥- نفي صلب المسيح -عليه السلام-:

أثبت الإمام القرافي -رحمه الله- بأدلة منقولة من نصوص الأناجيل أن الصلب لم يقع على المسيح -عليه السلام- بل على غيره، ومن هذه الأدلة ما جاء في إنجيل مرقس: «صعد يسوع إلى جبل الجليل ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا، فبينما هو يصلي إذ تغير مظهر وجهه عما كان عليه، وابيضت ثيابه فصارت تلمع كالبرق، وإذا موسى بن عمران وإيليا قد ظهرا له، وجاءت سحابة فأظلتهم فوقع النوم على الذين معه»[٣]، «فظهور الأنبياء -عليهم السلام- وتظليل السحاب ووقوع النوم على التلاميذ دليل الرفع إلى السماء وعدم الصلب، وإلا فلا معنى لظهور هذه الآيات»[٤].

إلا أن النص في الترجمة الحديثة صرح بعد ذلك أن عيسى -عليه السلام- نزل معهم. واستنباط القرافي يبدوا أنه مبني على هذا الحدث وحده، أي على الحدث الذي ظهرت فيه المعجزات وتغير حال المسيح -عليه السلام-؛ لأن هذا الأمر ما حدث إلا لحكمة ما وأمر ما، ولم تذكر النصوص التي بعد هذا النص دلائل هذا

---

(١) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ١٥٢.

(٢) تكوين، ١٧/٩-١٤.

(٣) مرقس، ٩/٢-٧، وأسنده المؤلف خطأ إلى لوقا، ولا يوجد في الترجمة الحديثة ذكر لوقوع النوم على الذين معه، بل ذكر أنهم كانوا مرتعبين.

(٤) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٨٤.

الحدث سوى سماعهم لصوت من السحابة يقول: «هذا هو ابني الحبيب، له اسمعوا، فنظروا حولهم بغتة ولم يروا أحدا غير يسوع وحده معهم»[1]، ولا يدرى حال النص في النسخ التي اعتمدها القرافي.

واستدل القرافي أيضا على عدم صلب المسيح -عليه السلام- بما جاء في الأناجيل أن «المصلوب استقى اليهود فأعطوه خلا مذاقا بمر فذاقه ولم يسغه، فنادى إلهي إلهي لم خذلتني»[2]، وعلق القرافي على ذلك قائلا: «الأناجيل مصرحة بأنه -عليه السلام- كان يطوى أربعين يوما وليلة ويقول للتلاميذ: أن لي طعاما لستم تعرفونه[3]، ومن يصبر أربعين يوما على الجوع والعطش، كيف يُظهر الحاجة والمذلة والمهانة لأعدائه وأعداء الله بسبب عطش يوم وليلة...؛ فيكون حينئذ المدعي للعطش غيره وهو المطلوب...، وقوله «إلهي إلهي لم خذلتني فتركتني»[4] كلام يقتضي عدم الرضا بالقضاء وعدم التسليم لأمر الله تعالى، وعيسى -عليه السلام- منزه عن ذلك، فيكون المصلوب غيره»[5].

٦- إثبات نبوة محمد ﷺ:

ركز الإمام القرافي -رحمه الله- على إثبات نبوة محمد -عليه أفضل الصلاة والتسليم- بما في كتب القوم من نصوص العهد القديم والعهد الجديد، وأورد في سبيل ذلك نصوصا كثيرة جدا نذكر منها شيئا يسيرا لمعرفة طريقة استدلاله بهذا الأسلوب، ومن ذلك ما جاء في إشعيا: «لترتاح البوادي وقراها ولتصير أرض قيدار مرجا وليُسبح سكان الكهوف، ويهتفون من قلل الجبال بمحامد الرب، ويذيعون

---

(١) مرقس، ٩/٧-٨.

(٢) يوحنا، ١٩/٢٩-٣٠، ومتي، ٢٧/٣٢و٤٦.

(٣) انظر: متي، ٤/٢.

(٤) متي، ٢٧/ ٤٦، ومرقس، ١٥/٣٤، بلا «خذلتني» في الترجمة الحديثة.

(٥) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٨٤-٨٥.

تسابيحه...»[١]، «ولم يظهر دين بالبوادي سوى دين الإسلام، وقيدار اسم ولد إسماعيل جد رسول الله ﷺ فهو تنصيص على أن الحق يكون في غاية البهجة... وهنا تنصيص على صفة أمته»[٢].

واستدل بقول موسى -عليه السلام- لبني إسرائيل: «لا تطيعوا العرافين ولا المنجمين، فسيقيم لكم الرب نبيا من إخوانكم مثلي، فأطيعوا ذلك النبي»[٣] على أن النبي المقصود هو محمد ﷺ لأنه لم يقل من أنفسهم بل من إخوتهم، أي من ولد إسماعيل أخي إسحاق أبي إسرائيل، ولم يخرج نبي من ولد إسماعيل إلا محمد ﷺ وأما عيسى -عليه السلام- فهو عند النصارى رب، وعند اليهود كآحاد الناس[٤]، وإن تعسف النصارى في تأويل النصوص التي فيها بشارة بالنبي الموعود وجعلوها بشارات بالمسيح -عليه السلام- مع أن نصوصا كثيرة ترد مذهبهم هذا، وكذلك ادعاؤهم أن المسيح إله أو ابن إله يرد على دعواهم تلك[٥].

واستدل أيضا بالنص القائل: «أقبل الله من سيناء، وتجلى من ساعير، وظهر من جبال فاران، معه ربوات الأطهار عن يمينه»[٦] على نبوة محمد ﷺ لأن فاران مكة باتفاق أهل الكتاب، فظهوره تعالى منها ظهور الرسالة المحمدية إلى الناس أجمعين، أو إنزاله القرآن على محمد ﷺ بجبال مكة، والتأويل الصحيح للنص أن فيه دليل إثبات التوراة، والإنجيل، والقرآن[٧].

---

(١) إشعيا، ٤٢/ ١٠-١٢، وقد نسبه القرافي إلى مزامير داود، وليس فيه.

(٢) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢٠٨.

(٣) تثنية، ١٨/١٥-١٨.

(٤) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢٠٠.

(٥) انظر: القرافي، أدلة الوحدانية، ص٨٢-٨٣.

(٦) تثنية، ٣٣/٢-٣.

(٧) انظر: القرافي الأجوبة الفاخرة، ص٢٠٢، وأدلة الوحدانية، ص٨٤.

ولم يجد القرافي صعوبة في الاستدلال من العهد الجديد على نبوة محمد ﷺ فقد جاء فيها: «البالقليط لا يجيئكم ما لم أذهب، فإذا جاء وبخ العالم على الخطية، ولا يقول من تلقاء نفسه شيئا، ولكنه مما يسمع به يكلمكم ويسوسكم بالحق ويخبركم بالحوادث والغيوب»[١]، «إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله إلى كل شيء هو يعلمكم كل شيء»[٢]، ومعنى الفارقليط عند النصارى: الحماد، أو الحامد، وجمهورهم يرى أنه المخلّص، ونبينا ﷺ مخلص الناس من الكفر وهو المعلم لكل شيء، وهو الذي أخبر بالغيبيات، فأخبر عن خروج الدجال، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، وجميع الحوادث التي تظهر في آخر الزمان[٣].

ثالثا: الاستدلال بالمنقول من مصادر نصرانية أخرى:

إضافة إلى الكتاب المقدس لدى النصارى فإن القرافي -رحمه الله- جال في المواثيق التي وضعها النصارى وعهودهم التي تعاهدوا عليها، وكتبهم الفقهية، وبعض الأدعية والصلوات التي يرددونها بالليل والنهار مستدلا بها على بطلان الديانة النصرانية بعد أن حرفت، وجاء الدين الذي نسخها دين الإسلام.

والإمام القرافي لم يك في هذه النقول معتنيا بنسبة ما نقله إلى من نقل عنه، فينسب بعض الأحيان القول إلى أحد النصارى، ولا ندري من هو وإن كان القرافي يعرفه، مثل قوله: «ومن تلك الغفلات ما قد حكى المسيحي في تأريخه وغيره.... كما حكاه المسيحي وغيره من المؤرخين»[٤]، فلم يذكر من هذا المسيحي ومن هم غيره من المؤرخين، فالكلام فيه عموم.

---

(١) يوحنا، ١٦/٧-١٥. لا يوجد ذكر للبالقليط أو الفارقليط في الترجمة الحديثة، وبدلا منها توجد كلمة «المعزي» في هذا النص والنص الذي بعده.

(٢) يوحنا، ١٤/٢٦.

(٣) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢٠٢، وأدلة الوحدانية، ص١١٠-١١١.

(٤) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢١-٢٢.

ومن المواثيق التي اعتنى بنقلها القرافي النص الكامل لـ «الأمانة» التي وضعها المؤتمرون في مجمع نيقية، وقد تناولها بالنقد والتحليل وما فيها من تناقضات في ذاتها، ومعارضتها لما جاء في الكتاب المقدس عندهم -العهد القديم والعهد الجديد[1] -، ويبدو أن اعتناءه بها نابع من أنها الأساس الذي أفسد الديانة النصرانية وظهرت فيها بدعة بنوة المسيح -عليه السلام- لله -تعالى- وعقيدة الفداء...الخ، ومن التناقضات التي حوتها هذه الأمانة وذكرها القرافي قوله: «وأما قولكم: بكر الخلائق، فقد أثبتم بهذا اللفظ أن الابن مخلوق، لأن المعقول من قولكم: بكر المخلوقات، وأول المخلوقات مخلوق، ثم نقضتم هذا بقولكم وليس بمصنوع، وهذا تناقض بيّن»[2]، فالنص الأصيل للأمانة يقول: «نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شيء، صانع ما يرى وما لا يرى، وبالرب الواحد يسوع ابن الله الواحد بكر الخلائق كلها الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها وليس بمصنوع، إله حق من إله حق...»[3]، وهكذا يبرز مجموعة كثيرة من التناقضات التي حوتها هذه الوثيقة المسماة بالأمانة.

أما ما نقله من كتبهم الفقهية فأغلبه كان من القسيس (حفص)، فذكر مخالفاتهم لما جاء في التوراة في مسألة القرابين، وجعل الأعياد المعظمة سبعة، وزيادتهم في عدد الأيام المأمور بصيامها عما كان عليه الأنبياء من قبل كما جاء في التوراة، بالإضافة إلى بدعة التصليب وتقديس الدور بالملح[4]، ومما نقله نصا من أقوالهم في بعض ما شرعه الله في الكتاب المقدس تأويلهم للختان، حيث «التزموا فيه على التوراة الباطل والبهتان، فقالوا: المراد بالختان في التوراة نقاوة القلوب وصفاء النية بذهاب غلوفة القلب، لأن اليهود كانت قلوبهم غلفا، فغلوفة القلب هي

---

(١) انظر: الأجوبة الفاخرة، ص١٤٤، وما بعدها، وأدلة الوحدانية، ص٣٧-٣٨ و٩٨ وما بعدها، و١٤٤ وما بعدها.

(٢) القرافي، أدلة الوحدانية، ص٩٩-١٠٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٨.

(٤) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٦٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٥.

المضرة، وأما غلفة اللحم لا مضرة فيها، بل الأحسن ترك الاختتان كما خلقها الله»[١].

فهذه أدلة تحكماتهم الباطلة على ما جاء في كتبهم التي يرونها أنها مقدسة، ويخالفونها صراحة ويؤوّلون ما جاء فيها لهوى في أنفسهم، بل يحسّنون ترك ما شرع الله ويفضلون عليه ما رأت أهواءهم وعقولهم القاصرة حسنا، وهذا دليل واضح على بطلان ما يدينون به، وأن ديدنهم تحريف كلام الله وتبديله والادعاء أنه هو الدين الحق.

أما فيما نقله من الأدعية والصلوات فسار على نقل كثير من الأدعية[٢] وأبان ما فيها من تناقضات عقلية وشرعية، واستخدام أساليب كثيرة في إبراز تداعيات الديانة النصرانية، فقال: «يقرؤون في صلاة الساعة الأولى: المسيح الإله الصالح، الطويل الروح، الكثير الرحمة الداعي الكل إلى الخلاص. فجمعوا فيه بين كونه إلها وبين كونه طويل الروح، وطول الروح: الصبر على المؤلمات، وهو مناف للوصف بالألوهية؛ لأن الآلام والصبر عليها من خواص البشرية، ثم نصوص الإنجيل متضافرة بأنه عبد مربوب»[٣].

وفي موقف آخر يذكر أن ما ذكروه في دعاء ما ينافي ما ورد في دعاء آخر، فمثلا: «يقرؤون في صلاة نصف الليل وهي الثامنة من صلاتهم لا تاسع لها من الرتبات: تبارك الرب إله آبائنا، وفوق المتعالي إلى الدهر، تبارك مجدك القدوس فوق المسيح، وفوق المتعالي إلى الدهر. ويكررون هذه الفوقية في هذه الصلاة دفعات، ونسوا أنهم قرأوا في صلاة النوم: أن المسيح نظيرك في الابتداء وروح القدس مساويك في الكرامة. فإن صدقوا في الأولى كذبوا في الثانية، وإن صدقوا في

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٥٦.

(٢) استغرقت الأدعية التي نقلها القرافي في كتابه الأجوبة الفاخرة، من ص١٦٩ إلى١٧٤.

(٣) المصدر نفسه، ص١٧٠.

الثانية كذبوا في الأولى...»[1].

وأظهر من إيراده لدعائهم في صلاة الساعة السادسة سوء أدبهم مع إلههم بغرابة توسلهم، وقولهم بالقهر والصلب في حق الله، وهو مناقض لما جاء في كتبهم من عزة الله وغلبته للجبابرة ولجميع الخلائق، «إذ يقرؤون في صلاة الساعة السادسة: يا من سمرت يداه على الصليب، وبقي حتى لصق دمه عليه، قد أحببنا الموت لموتك يا الله، نسألك يا الله بالمسامير التي سمرت بها نجنا»[2].

ومن حرص القرافي -رحمه الله- على متابعة نصوص أدعيتهم بدقة أنه يوردها في بعض الأحيان -وإن كانت قليلة جدا- بنص غير عربي فيقول: «أليس يا معشر النصارى تدعون لرب السماء في كتابكم وتقولون: {أيوس أوفاووس أيوس أسكريوس، أيوس أثانا بولس أليسون إيماس}. ومعنى هذا القول: قدوس الله، قدوس حياة، قدوس لم يمت ولا يموت ارحمنا.

فكيف الجمع يا معشر النصارى بين الضدين، يقولون: لم يمت، ولا يموت، وتقولون قتل وصلب وقبره في بيت المقدس»[3].

وهذا النوع من النقل -أي إيراد المنقول بلغة غير عربية- لم يكن كثيرا بل كان محدودا، وقد تكون كلمة في بعض الأحيان، كأن يعيد بعض الكلمات إلى أصلها العبري مثلا للخروج بالمعنى الحقيقي المراد لنصوص الكتاب المقدس[4].

هذه أبرز الأدلة النقلية التي اعتمد عليها القرافي في بيان فساد الديانة النصرانية.

أما ما أورده من المنقول من أقوال علماء المسلمين فلم يكن بارزا بل كان محدودا، ومتسما بالعموم كأن يقول: هذا قول المفسرين، في قضية اقتضاء قوله

---

(١) المصدر السابق، ص١٧٣.

(٢) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٣٧، وانظر أيضا: ص١٧١-١٧٢.

(٣) القرافي، أدلة الوحدانية، ص٨١.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ص٨١-٨٢.

تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾[١] تفضيل المساجد على غيرها، أو قال العلماء كذا وكذا، دون أن يذكر من هم هؤلاء المفسرون، ولا العلماء[٢]، ولذلك لم يضع الباحث هنا لهذا الأسلوب فقرة مستقلة للحديث حول هذا الأسلوب.

---

(١) سورة الحج، أية: ٤٠.

(٢) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٣٨، ٥٣، ١٢٦.

المطلب الثاني

قيمة أسلوب الاستدلال بالمنقول في دعوة النصارى

يحاول الباحث في هذا المطلب أن يتجنب تكرار ما سبق ذكره في المطلب الثاني، من المبحث الأول، من الفصل الثالث الخاص بأسلوب الإمام القرطبي -رحمه الله- وسيحاول قدر الإمكان التركيز على الجوانب التي تخص أساليب الإمام القرافي -رحمه الله- دون القيم العامة التي قد يشترك فيها الطرفان، تجنبا للتكرار الذي قد لا يكون محمودا في هذا المجال.

أولا: قيمة أسلوب الاستدلال بالمنقول من القرآن والسنة في دعوة النصارى:

بالنظر إلى الجوانب التي استدل بها القرافي -رحمه الله- بالمنقول من القرآن الكريم والسنة النبوية يمكن القول أنها تمثلت في توضيح القرآن بالقرآن، وتوضيح القرآن بالسنة، وتوضيح السنة بالسنة، وبيان اتفاق بعض نصوص القرآن والسنة مع بعض نصوص الكتاب المقدس عند النصارى في بعض الحقائق، بالإضافة إلى استدلالات أخرى مستقلة بالكتاب والسنة.

فبالنسبة لتفسير القرآن بالقرآن في الآيات التي حاول النصراني أن يستدل بها على مذهبه الباطل مثل كلمة الروح، وبعض الآيات التي فيها ثناء على أهل الكتاب، بيّن القرافي -رحمه الله- من خلال آيات قرآنية أخرى المقصود من قوله تعالى: ﴿وروح منه﴾[1] في حق عيسى -عليه السلام- ، وبين أن الأسلوب القرآني فيه ألوان من التعبير، وأساليب فنية دعوية تكون ذات دلالة معينة غير ما قد يتبادر إلى ذهن الذين لا يدركون أسرار التعبير القرآني وأصول تفسيره، فالقرآن لا يفسر بالأهواء والأمزجة، ولا بترسبات المعتقدات السابقة التي تكون في ذهن المرء، ولا بالخلفيات الثقافية المحدودة لشخص من الناس أو لجماعة من الجماعات، بل تفسير القرآن الكريم يخضع لضوابط محكمة، وأسس متينة، وقواعد ثابتة تمنع تلاعب

---

(١) سورة النساء، آية: ١٧١.

المتلاعبين ودسائس الحاقدين.

واختيار القرافي لأسلوب تفسير القرآن بالقرآن وتوضيح الآيات القرآنية بآيات قرآنية أخرى سواء أكان في تحديده لمعنى روح منه، أم بيانه ماهية الثناء الذي ورد في القرآن على أهل الكتاب بالآيات الداعية لهم لقبول الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ ودفعه شبهة خصوصية رسالة محمد ﷺ التي بناها النصارى على سوء فهمهم لبعض آيات القرآن بالآيات التي صرحت بعموم رسالة محمد ﷺ ، وتوضيح بعض أحاديث المصطفى ﷺ بما جاء في القرآن الكريم كان اختيارا موفقا، وبخاصة أن الطرف المقابل احتج بالقرآن على صحة مذهبه، فالرد عليه من مصدر دليله نفسه فيه إبطال لرأيه وإفساد لحجته، وليس له مستند عقلي أو شرعي في رفض هذا النوع من الاستدلال؛ لأنه لا يمكنه أن يعزل جزءا من الدليل عن باقي أجزائه، والقرآن كله جزء واحد جاء من مصدر واحد، فكله يكمل بعضه بعضا، وبتر أجزاء منه وفصلها عن أجزاء أخرى مرتبطة بها ارتباطا وثيقا لتأييد موقف ما لهو أمر يرفضه العقل السليم، والمنطق السديد.

ومن سوء المنهج الفكري والاستدلالي للنصراني الذي كان يخاطب القرافي -رحمه الله- أنه استدل بالقرآن على ما ظنه حقاً، ورفض القبول بالقرآن إذا ما كان الدليل عليه وليس له، بانيا منهجه هذا على سوء قياسه وركاكة نظره، فقال: «إذا احتججنا ببعض القرآن لا يلزمنا بقيته؛ لأنه كمكتوب أخرجه صاحب الدين بمائة دينار وفيه مكتوب أنه قد وفا، فإن ذلك لا ينفع المديون»[(١)].

فرد عليه القرافي -رحمه الله- بأن هذا التمثيل غير مستقيم؛ لأن الكتاب إذا كان فيه بينة على القبض والوفاء فإنه ينفع المديون، دون كونه فيه القبض فقط، و«صحة القرآن هي المعجزة الدالة على عصمة الرسول -عليه السلام- والمعصوم كلامه كله حق وصدق، فهو كالمكتوب الذي فيه البينة على القبض والوفا، فيحتج

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٦٧.

بجميع ما فيه»[١].

فالقرآن بحد ذاته أحد المعجزات، -بل أعظمها على الإطلاق- الدالة على نبوة محمد ﷺ ، فهو من دلائل النبوة الشاهدة على عصمة النبي ﷺ ، وكل ما في القرآن حق، صدر من إله حق، وبُلغ إلى الخلق برسول حق، فلا حجة لمن يقبل ببعضه ويبني عليه جداله إن ظن أن الدليل له، ثم يرفض أن يقبل به إن كان الدليل عليه؛ لذلك اتجه القرافي في بعض المواقف إلى الاستدلال بالمنقول من القرآن الكريم ليستدل به في مواقف لم تكن تصحيحا للفهم الخاطئ لبعض آيات القرآن الذي بدا على مخاطب القرافي النصراني، بل كأدلة مستقلة، حيث استدل على أفضيلة أمة محمد ﷺ على سائر الأمم بنص من القرآن الكريم.

وفي تفسيره للقرآن الكريم بالسنة النبوية، وتوضيح السنة بالسنة، سلك القرافي -رحمه الله- مسلكا صحيحا؛ موافقا للشرع والعقل لـ «أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة، فإنه قد عرف تفسيره، وما أريد بذلك من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم»[٢].

وقد بين القرافي صحة هذا المسلك عقلا بقوله: « فإن كل أحد مصدق فيما يدعيه في قول نفسه، إنما ينازع في تفسير قول غيره إن أمكنت منازعته»[٣].

إلا أن الحديث الذي يراد الاستدلال به على تفسير آية ما أو توضيح حديث آخر فإنه لا بد أن يكون مما صح رفعه إلى النبي ﷺ ؛ لأنه متى ما ظهر ضعفه أو عدم رفعه أصلا إلى النبي ﷺ فإنه يفقد قيمته الإقناعية، ولذلك ما استدل به القرافي في تفسير قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب﴾[٤] لا يحقق قيمة إقناعية معتبرة؛

---

(١) المصدر السابق، ص٦٧.

(٢) ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، ج١٣، ص٢٧.

(٣) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٣٩.

(٤) سورة البقرة، آية٢.

لأنه لم يوضح من روى هذا القول عن النبي ﷺ، حتى يعلم مدى صحته؛ مما يعني أن قوله لم يصل إلى درجة الإقناع المطلوبة، وبخاصة أن كتب التفاسير التي اطلع عليها الباحث لم تنسب تفسير هذه الآية إلى النبي ﷺ بل نسبته إلى الصحابة والتابعين -رضي الله عنهم-، والأخذ بأقوال الصحابة في تفسير القرآن منهج سديد، ولا غبار عليه «فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم...»[1].

واستنادا إلى أن الرسول ﷺ بيّن لأصحابه معاني القرآن كما بيّن لهم ألفاظه بدليل قوله تعالى: ﴿لتبين للناس ما نزِّل إليهم﴾[2]، يمكن أن يحمل تفسير الصحابة لآيات القرآن الكريم على أنه مما علمهم النبي ﷺ لأن المتفق عليه بين الصحابة والتابعين أن لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه ولا ذوقه ولا معقوله ولا قياسه ولا وجده[3]، أو أن يقول في القرآن بلا علم.

إلا أن الذي يقف موقف المحاور والمجادل الساعي إلى إقناع الطرف المقابل عليه أن يعتني بصحة الأدلة المنقولة التي يستدل بها سندا ومتنا، حتى لا تكون أدلته عرضة للنقد والرفض.

وفي استدلالات القرافي -رحمه الله- بالآيات والأحاديث التي جاءت متفقة مع بعض النصوص التي وردت في العهد القديم والجديد مما يؤيد الحق الذي يدعو إليه الإسلام، فإن ذلك أسلوب قويم في دعوة النصارى، فإن النصارى لا شك أنهم يعتقدون صحة ما يحوي كتابهم، ولفت انتباههم إلى ما وافق ذلك من القرآن والسنة يدعوهم إلى التفكير جديا إلى معرفة هذه الجوانب، والحقائق التي اتفقت عليها هذه الكتب، وعندما تكون هذه الأمور من الدلائل التي تبشر بنبوة محمد ﷺ من ذكر

---

(١) ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، ج١٣، ص٣٦٤-٣٦٥.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) انظر: ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، ج١٣، ص٢٨و٣٣١.

لعلاماته وصفاته وصفات قومه تكون قيمة هذا الأسلوب في إقناع المدعو قيمة حسنة تعين الداعية على اختصار مسافة الإقناع بينه وبين المدعو.

وقد يتساءل البعض عن مدى مشروعية هذا الأسلوب في الدعوة، لأنه قد يفهم منه تصحيح لكتب أهل الكتاب التي شهد القرآن بتحريفها وزيفها، والأمر ليس كذلك فبعد أن ذكر الإمام ابن تيمية -رحمه الله- قوله ﷺ «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»[(١)] قسم الأحاديث الإسرائيلية إلى ثلاثة أقسام:

«أحدها: ما علمنا صحته مما بين أيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم»[(٢)].

إذن فإن الذي يأتي موافقا للقرآن الكريم، ولصحيح السنة فلا ريب أنه صحيح مما لم تنله أيدي التحريف وبقي محفوظا ليشهد على ضلالهم، وسوء اعتقادهم، وهو مما يعين دعاة الإسلام في دعوة النصارى إلى الإسلام، وبيان الحق لهم.

ثانيا: قيمة الاستدلال بالمنقول من الكتاب المقدس لدى النصارى:

تمثلت استدلالات القرافي -رحمه الله- بالمنقول من الكتاب المقدس لدى النصارى في إثبات وحدانية الله سبحانه وتعالى، ونفي ألوهية المسيح -عليه السلام-، وإثبات تحريف الكتاب المقدس الذي بين يدي النصارى، وذلك بما حوى من إشارات أو تصريحات بأنه كتابات اجتهد في جمعها وكتابتها بعض الناس ممن عاصروا المسيح -عليه السلام- أو لم يعاصروه كما جاء عن لوقا في أول إنجيله، أو

---

(١) البخاري، كتاب الأنبياء ٦٠، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٥٠، ج٤، ص١٤٥.

(٢) ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، ج١٣، ص٣٦٦.

بما تمتلئ به نصوص هذا الكتاب من التناقضات التي لا حصر لها.

كما أثبت القرافي مبدأ النسخ في الشرائع، ومخالفة النصارى لنصوص كتابهم، ونفى صلوبية المسيح -عليه السلام- وأثبت صحة نبوة نبينا محمد ﷺ من واقع النصوص المقدسة عند النصارى، وهذه قضايا أساس ضل فيها النصارى، وهدم هذه المعتقدات من واقع مصادر العقيدة النصرانية لا يدع مجالا للنقاش، وإن كان النصارى يفسرون بعض النصوص وفق تحكماتهم وأهوائهم، فهم مثلا يحملون النصوص التوراتية المبشرة بخروج نبي في آخر الزمان بأنها خاصة بالمسيح -عليه السلام- وفي الوقت نفسه يقولون إن المسيح -عليه السلام- إله وابن إله، فأنى لهم الجمع بين النبوة والألوهية.

واستخدام القرافي -رحمه الله- للمنقول من هذه الكتب دليلا على صحة مذهبه، وتأييد حججه كان من باب الإلزام، لا من باب التسليم بصحة كل ما جاء فيها، وقد صرح بذلك قائلا: «فإن قالوا: كيف تتمسكون بهذه الكتب وهي غير صحيحة عندكم؟ قلنا: نبوة نبينا -عليه السلام- ثابتة بالمعجزات، غنية عن هذه الكتب، وإنما نذكر ما فيها من الدلالة على نبوته -عليه السلام- إلزاما لأهل الكتاب الذين يعتقدون صحتها، هي مثل جميع كتبهم في الصحة، فإن كان يحسن الاستدلال بها تم مقصودنا، وإن كانت لا يحسن بها الاستدلال بطل جميع ما بيد أهل الكتاب؛ لأن جميعه مثلها، وكيف يسع أهل الكتاب أن يعتقدوا صحة هذه الكتب؟ ولا يقبلوا ما فيها من الدلالة على محمد -عليه السلام- الواصلة حد القطع من كثرتها»[١].

وعلى العموم فإن لهذا الأسلوب قيمته في الدعوة وبخاصة إذا كانت النصوص المنقولة واضحة الدلالة لا تحتمل اللبس، أو لا تحتمل تفسيرات متعددة، وأن تكون النصوص المنقولة من نسخ معتمدة لدى النصارى المراد إقناعهم، ولعل بعض النصوص التي نقلها القرافي وبنى عليها بعض الأدلة كما سبق الحديث في المطلب

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢٢١-٢٢٢.

السابق غير موجودة أو مختلفة عن الترجمة الحديثة التي بين أيدي النصارى اليوم، ولكن لا يمكن الحكم على الأدلة التي نقلها القرافي من واقع النسخ الحديثة، لأنه لا يدرى حال النسخ التي اعتمد عليها القرافي -رحمه الله- في نقله، ويبدو أنه كان قد اطلع على أكثر من نسخة؛ وذلك أنه أورد نصا واحدا في مكانين مختلفين باختلاف لفظي بين النصين،[1] مما يعني احتمال رفض بعض النصارى بعض النسخ وقبولهم ببعضها، ومتى كانت الأدلة منقولة من النسخ المقبولة عند الخصم فإن قيمتها الإقناعية تكون أكثر، ونتائجها الدعوية أثمر.

ثالثا: قيمة الاستدلال بالمنقول من مصادر نصرانية أخرى:

المصادر الأخرى غير الكتاب المقدس التي نقل منها القرافي -رحمه الله- ليستدل بها على فساد الديانة النصرانية كانت العهود والمواثيق، وكتبهم الفقهية التي ضمنوها بعض الأحكام الفقهية، بالإضافة إلى الأدعية والصلوات التي يترنمون بها في دورهم وكنائسهم، وركز القرافي فيها على إبراز التناقضات التي حوتها هذه المصادر، سواء أكان النص متناقضا في ذاته كما هو حاصل في نص الأمانة، أم كانت التناقضات فيما بين المذكورة والكتاب المقدس، ومخالفتها لحقائق العقل والشرع.

وما جاء في هذه المصادر يعد مكملا للموجود في الكتاب المقدس، والمتصور أن تكون منضبطة بما جاء في كتابهم المقدس، لأنها ليست وحيا كالكتاب المقدس، ولا تستقل عنه بأي حال من الأحوال، ولكن الذي وجده القرافي -رحمه الله- أن بينها وبين الكتاب المقدس بونا شاسعا، وتناقضا واضحا، مما يعني أن التحريف لم

---

(١) انظر: ص ٢٠١ من كتاب الأجوبة الفاخرة، وص٨٣ من كتاب أدلة الوحدانية. فقد أورد في أدلة بشارة العهد القديم بالنبي ﷺ في الكتاب الأول: «أقبل الله من سيناء وتجلى من ساعير، وظهر من جبال فاران، معه ربوات الأطهار عن يمينه» وفي الكتاب الثاني: «جاء الله من سيناء وأشرق من ساعير، وأشرق من جبال فاران» تثنية، ٣٣/١-٢.

يكن فقط في أصل الكتاب المقدس، بل كان أيضا في ابتداع عبادات وشعائر مخالفة لما جاء فيه، وهذا يؤكد بطلان العقيدة النصرانية المبنية على أصول وفروع محرفة لا تلتزم بالحق، بل بالتحكمات والأهواء الخاصة برجال الدين والسياسة.

ومن الأمور التي تعطي هذا النوع من المنقول قيمة إقناعية أكبر أن القرافي -رحمه الله- حرص على نقل دليله في أحد صلوات النصارى بلغة غير عربية، -ولعلها اللغة اليونانية القديمة-، وذلك مما يوثق النص أكثر، ويدعم استدلال القرافي، ويجعل قيمته الإقناعية مرتفعة، فالنص المنقول بأصله أوثق من نص مترجم إلى لغة أخرى، لاحتمال مجانبة الدقة في الترجمة، واختلاف كل لغة عن لغة أخرى في أساليب التعبير التي قد لا تفهم بعض العبارات فيها بفهم واحد وإن كانت الترجمة اللفظية صحيحة.

وعلى كل فإن هذه النصوص لها قيمتها الإقناعية لأولئك الذين يؤمنون بها، لأن اختلاف مذاهب النصارى في الأمور الفقهية أمر مؤكد، وبخاصة إذا علم أنهم في أصول العقائد مختلفون، وأما من كان ينتمي إلى طائفة نصرانية لا تأخذ بهذه النصوص فإن الاحتجاج عليهم بها لن تكون ذات قيمة دعوية. إلا أنه يبدو أن القرافي ناقش صاحبه من الواقع الذي كان يعاصره، ومن المصادر التي كانت متوفرة بأيدي النصارى في زمانه فتكون بذلك قيمتها الدعوية في ذلك العصر وفي تلك البيئة متحققة كما ينبغي، والله أعلم.

المبحث الثاني

أسلوب الاستدلال بالمعقول وقيمته في دعوة النصارى

المطلب الأول

أنواع الاستدلال بالمعقول عند القرافي في دعوة النصارى

سار الإمام القرافي -رحمه الله- في دعوة النصارى على أسلوب الاستدلال بالمعقول، وكان أبرز ما استعمله من أنواع الأدلة العقلية ما يلي:

أ/ القياس (قياس الشمول):[١]

اتخذ القرافي هذا النوع من الأدلة العقلية في رده على رفض النصراني القبول بما جاء في القرآن كله، واكتفائه بالأخذ ببعض ما فيه مما يحسب أنه يؤيد مذهبه، فقال القرافي نافيا هذا التفكير ومؤكدا حديثه بالقياس المنطقي: «أنه إذا اعتُرِف بأن القرآن ورد بما يعتقد أنه حق فهذا دليل على أن القرآن الكريم حق، فإن الباطل لا يؤكد الحق، بل المؤكد للحق حق جزما، فيكون القرآن الكريم حقا قطعا»[٢].

ولو أريد وضع هذا القياس في صورة سهلة الفهم، فإنه يتكون من مقدمتين ونتيجة، فالمقدمة الأولى هي: القرآن الكريم مؤكد للحق، والمقدمة الثانية: المؤكد للحق حق، والنتيجة: القرآن الكريم حق.

وبذلك يكون القرافي قد أبطل دعوى النصراني وأكد أن القرآن حق بهذا القياس المنطقي، فلا حجة للنصراني للتمسك بالاعتراف ببعض الحقائق التي جاء بها القرآن، ورفض الباقي، وإنكار نبوة محمد ﷺ.

ب/ التمثيل (قياس التمثيل):

انطلق بعض النصارى في رفضهم نبوة محمد ﷺ من قوله تعالى: ﴿وما

---

(١) سبق التعريف بهذا المصطلح وبغيره في المبحث الثاني من الفصل الثالث، وسأكتفي بتعريف المصطلحات التي لم يتم تعريفها هناك، ولن أكرر ما سبق تعريفه من أنواع الأدلة العقلية.

(٢) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٣١.

أرسلنا من رسول إلا بلسانه قومه﴾[1]، فرأوا أنه لا يلزم من كان على غير لسان العربية أن يتبع محمداً ﷺ، فبين القرافي تهالك هذا المذهب بأن قاس أمر القرآن بأمر التوراة والإنجيل، ليبين أن قولهم هذا يناقض ما هم عليه، فقال: «أن التوراة والإنجيل نزلت باللسان العبراني، والإنجيل بالرومي، فلو صح ما قاله لكان النصارى كلهم مخطئين في اتباع أحكام الإنجيل، فإن جميع فرقهم لا يعلمون هذا اللسان إلا كما يعلم الرومي اللسان العربي بطريقة التعلم، وأن يكون القبط كلهم والحبشة مخطئين في اتباعهم التوراة والإنجيل، لأن الفريقين غير عبرانيين أو روميين»[2].

وفي موقف آخر قاس معجزات عيسى -عليه السلام- بالمعجزات التي ظهرت على أيدي أنبياء آخرين، وخاصة معجزة إحياء الموتى، وذلك لأن النصارى زعموا أن الإحياء والإماتة من خصوصيات الإله، ولا تصدر إلا عن إله، والمسيح -عليه السلام- أحيا الموتى، إذن فهو إله، فبيّن القرافي: أن هذه من المعجزات التي يجريها الله على يدي عبد من عبيده، وأن الإنجيل شهد بأن الحواريين كانوا يفعلون ذلك، بل نص الإنجيل على أن كل من استقام على شريعة عيسى -عليه السلام- يفعل كفعله، وأن داود -عليه السلام- أحيا ميتا بعد مائتي سنة، وأن إلياس أحيا ابن الأرملة، وأن إليسع أحيا ابن الإسرائيلية، وأن حزقيال أحيا بشرا كثيرا[3]، فإن كان هذا يدل على الربوبية والإلهية فإن الحواريين والأنبياء -عليهم السلام- المذكورين هنا وغيرهم ممن أحيا الأموات آلهة يستوون مع المسيح -عليه السلام- في الألوهية، وجميع ما ينسب إليه، ولما لم يقل بذلك أحد، دل على بطلان ما اعتمدوا

---

(١) سورة إبراهيم، الآية:٤.

(٢) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢٨.

(٣) انظر: متي، ٨/١٠، ولوقا ٩/١٠، وسفر الملوك الأول، ٨/١٧، والملوك الثاني، ٣٢/٤، وحزقيال، ١/٢٧، ففيها ما ذكره القرافي من قضايا إحياء الموتى على يدي غير عيسى -عليه السلام-.

عليه في ألوهية عيسى -عليه السلام-[١].

ج/ قياس الأولى:

بيّن القرافي -رحمه الله- أن حجة النصارى في ادعاء بنوة المسيح -عليه السلام- لله تعالى حجة داحضة؛ لأنهم بنوا اعتقادهم على دليل غير مستقيم، وأن هناك دليلا يعارضه وهو أولى منه، فقال: «ومن العجب أنهم يحتجون على ضلالهم بأن الذي ألجأهم إلى أنه ابن الله -تعالى الله عما يقولون- كونه خلق من غير أب من البشر، فيتعين أن يكون أبوه هو الله تعالى وآدم أولى منه بذلك لكونه خلق من غير أب، ولم يباشر الأرحام ولا سقم الأطفال ولا تطور في أطوار البشر...الخ»[٢]، فآدم -عليه السلام- مثل عيسى في اختلاف خلقه عن جميع البشر، وعدم وجود الأب لكليهما، ولكن آدم -عليه السلام- مميزاته أكثر، فهو مخلوق من غير أب ولا أم، ولم يمر بمرحلة العلقة، والمضغة...الخ حتى الولادة، مما يجعله أكثر أهلية من عيسى -عليه السلام- في الحصول على البنوة إن كانت هذه كافية في رفع درجة الإنسان إلى مرتبة الألوهية، ولم يقل بذلك أحد، فبطل الادعاء لبطلان الدليل.

وفي تعظيم النصارى للصليب الذي هو أحد شعائرهم يبيّن فساد مذهبهم بطريق قياس الأولى، ذلك أنهم يعظمون الصليب لأن الرب عندهم صعد منه إلى السماء، وبما أن الثابت عندهم صعوده بعد ثلاثة أيام من القبر فالقبر أولى بالتعظيم بناء على دليلهم، وإذا كانت الأمور تسير وفق هذا الباب فإن الحمير أولى بالتعظيم، والتصميخ بالعبير[٣] من الصليب والقبور؛ لأن عيسى -عليه السلام ركبها في حال تعظيمه، بينما كان في الصليب في حال إهانته، كما أن الصليب جماد والحمار

---

(١) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٩٥.والقرافي، أدلة الوحدانية، ص١٠٢.

(٢) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٢٣.

(٣) ذكر القرافي أنه جاء في الإنجيل: «إن المسيح ركب الحمار عند دخوله المدينة وبين يديه الصبيان ينادون مبارك الآتي باسم الرب» انظر: متيَ، ٢١/٧-١٠.

حيوان فهو أفضل[١]، فالعقل يقول إن الأولى أن يعظم ما كان موضعا لتعظيم المعَظم، لا المواضع التي كانت موطنا للإهانة والضرب والتعذيب، إن صح اتخاذ هذا النهج أصلا.

د/ إظهار تناقض الخصم:

كانت التناقضات التي سجلها القرافي -رحمه الله- على النصارى وأظهرها للعيان ذات جوانب متعددة، فمرة يظهر التناقض الموجود في نصوص الإنجيل، فذكر خمسة عشر تناقضا بين الأناجيل المنتشرة في أيدي النصارى في زمانه، وذلك لبيان استحالة كونها خالصة من عند الله، بل وقع عليها التبديل والتحريف من قبل أناس لم يحسنوا التحريف ويتقنوه[٢].

ومرة أخرى يظهر التناقض الموجود في نصوص الأمانة التي وضعوها في نيقية، حيث وحدوا الله بالخلق والملك في بدايتها ولم يلبثوا أن جعلوا معه خالقا آخر، حيث قالوا: «نؤمن بالله الواحد الآب ضابط الكل ومالك كل شيء وصانع ما يُرى وما لا يُرى، وبالرب الواحد يسوع ابن الله الواحد، بكر الخلائق كلها والذي وُلد من أبيه قبل العوالم كلها وليس بمصنوع، إله حق من إله حق من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم، خلق كل شيء...»[٣]، فقال القرافي -رحمه الله- «فكيف يتصور عاقل أن الأب خالق كل شيء وابنه أيضا خالق كل شيء، فإن صح أن الآب خالق كل شيء فأي شيء بقي للابن، وإن كان الابن خالق كل شيء فما بقي للآب، وإن الله واحد فلأي شيء صرحوا بخالقين، غاية في التناقض والفساد في هذه الأمانة»[٤]، فـ(كل شيء) لفظ عام يستغرق جميع الأشياء، دون أن يكون هناك شيء متبقى،

---

(١) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٦٣.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص٤٥-٥١.

(٣) المصدر نفسه، ص١٤٤.

(٤) المصدر نفسه، ص١٤٥.

والواحد لا يتعدد، فكيف يقال أن الأب منفرد بالألوهية، والابن كذلك منفرد بالألوهية.

وقد صرح القرافي أن مذهب النصارى كله متناقض لفظا ومعنى، ولا يقوم لحظة أمام الدليل والبرهان فقال: «واعلموا -رحمكم الله- أن مذهب النصارى متناقض لفظا ومعنى، أما التناقض من حيث اللفظ فإنهم أطلقوا لفظ الجوهر ولفظ الأقانيم، ولفظ الأب والابن، وهي ألفاظ موهمة في موضعها تشبيها، ثم زعموا أن الجوهر ثلاث أقانيم، ثم زعموا أن الثلاثة واحد، فآخر الكلام يرفع أوله، وأوله يرفع آخره.

وأما التناقض من حيث المعنى فالواحد لا يكون ثلاثة، والثلاثة لا يكون واحدا وإلا فترتفع الوحدة ويرتفع العدد»[١].

إذن فالتناقضات التي أبرزها القرافي في الديانة النصرانية تمثلت في التناقض في ما بين نصوص الأناجيل نفسها، أو فيما بين النصوص والواقع الملموس[٢]، أو فيما بين نصوص الإنجيل ونصوص الأمانة التي وضعوها في نيقية، أو فيما بين الأدعية التي يرددونها في صلواتهم، أو فيما بين الأدعية وما جاءت به نصوص الأناجيل[٣]، بالإضافة إلى مناقضة أسس عقيدتهم العقل السليم، كقولهم بالتثليث، وادعائهم أن عيسى -عليه السلام- صعد إلى السماء وجلس على يمين أبيه، مع قولهم أنه من جوهر الأب، وهذا أمر متناقض؛ «لأن الشيء الواحد والجوهر الواحد

---

(١) القرافي، أدلة الوحدانية، ص٩٧.

(٢) مثال على تناقض الإنجيل مع الواقع أن القرافي قال: «قال متي: «قال يسوع حقا أقول لكم إن قوما من القيام ههنا لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيا في ملكوته» ومات القيام ومن بعدهم، فدل على أن هذا الكلام كذب وافتراء (متي١٦/٢٧-٢٨) وهو يخرم الثقة بجميع ما يقولون» الأجوبة الفاخرة، ص٥٠.

(٣) ذكر الباحث في المبحث السابق في أسلوب القرافي في الاستدلال النقلي التناقضات الموجودة بين نصوص الأناجيل والمواثيق والصلوات ...الخ فيكتفى بذلك توخيا للاختصار.

لا يوصف بأنه جالس عن يمين نفسه، وإنما يتحقق هذا الوصف في شيئين وجوهرين؛ لأن اليمين إنما هي من النسب الإضافية التي لا تتحقق إلا بين شيئين»[(١)] ، فقولهم على يمين الله يعني أن شخص المسيح -عليه السلام- غير شخص الله سبحانه وتعالى، بحيث يكون على جانب اليمين من الله تعالى.

هـ/ إبراز قولهم بالمحال العقلي:

تتعارض أقوال النصارى وعقائدهم مع أبسط القواعد العقلية، منها المحال العقلي، فهم يرون أن معنى كون عيسى -عليه السلام- كلمة الله وروح منه، أن صفة من صفات الله حلت في ناسوت عيسى -عليه السلام-، فبيّن القرافي أن هذا غير ممكن عقلا، فقال: «وكيف يمكن في العقل أن تفارق الصفة الموصوف، بل لو قيل لأحدنا إن علمك أو حياتك انتقلت لزيد لأنكر ذلك كل عاقل، بل الذي يمكن أن يوجد في الغير مثل تلك الصفة، وأما أنها هي في نفسها تتحرك من محل إلى محل فمحال؛ لأن الحركات من صفات الأجسام، والصفة ليست جسما، فإن كانت النصارى تعتقد أن الصفات أجسام والأجسام صفات، وأن أحكام المختلفات وإن تباينت شيء واحد سقطت مكالمتهم»[(٢)].

وفي موقف آخر يرد على دعوى النصارى بأن النطق الذي هو صفة قائمة بذات الله تعالى أرسله الله -أي أرسل نطقه- من غير مفارقة، بقوله: إن هذا غلط «فإن إرسال الشيء اتصاله بغيره المباين له، وهو غير معقول في كل صفة من الصفات (النطق وغيره)، فيستحيل إرسال الألوان والطعوم والروائح والعلوم والظنون إلا مع انتقال محالها، أما بمفردها فمحال ببديهة العقل، ومن شك في ذلك فليس بعاقل ، ومحل هذا النطق يستحيل عليه الحركة والاتصال والانفصال، فإنه ليس بجسم باتفاق الفريقين»[(٣)].

---

(١) القرافي، أدلة الوحدانية، ص٦٨.

(٢) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٣٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٦٢.

فصفات الله تعالى لم تنتقل منه لتستقر في مخلوق آخر أيا كان هذا المخلوق، بل إنه ليس لمخلوق من المخلوقات أيا كان صفة تماثل صفة الله تعالى، وتشابهه، فالمذهب الذي اختاره النصارى غير معقول عقلا وشرعا.

و/ الاستقراء:

استقرأ القرافي -رحمه الله- نصوص الكتاب المقدس -العهد القديم والعهد الجديد- وكانت نتيجة استقرائه هذا الخروج بنتيجة مفادها أن الله سبحانه وتعالى واحد لا شريك له، وذلك لأن الكتاب المقدس عندهم يحتوي على مجموعة من النصوص غير القليلة التي فيها دلالات واضحة وصريحة بوحدانية الله سبحانه وتعالى[١]، كما استقرأ نصوص الأناجيل، فوجد فيها أغلاطا تمثلت في الاختلافات الكثيرة بين نصوصها بل وتناقضها في كثير من القضايا، واستنبط من ذلك أن ما في الأناجيل ليس وحيا ربانيا، بل هو أراء أناس وأقوال كتبت بروايات غير ثابتة[٢].

ففي قضية الصلب مثلا استقرأ النصوص الإنجيلية الواردة في شأن الصلب في كل من إنجيل متي، ومرقس، ولوقا، ويوحنا، فاستنبط منها أربعة احتمالات تنفي وقوع الصلب على عيسى -عليه السلام- وتؤكد أن القول بالصلب مبني على شكوك وظنون واهية، وكانت الاحتمالات التي توصل إليها على وجه الاختصار:

١- احتمال أن يكون يهوذا قد كذب على الجنود في إشارته للمسيح -عليه السلام- لأن نصوص الأناجيل شهدت للاثني عشر حواريا بالسعادة، ويهوذا منهم.

٢- احتمال أن يكون المسيح -عليه السلام- ذهب مع الجماعة الذين أُطلقوا، وأن أحد أتباع المسيح -عليه السلام- تقمص شخصيته ليفديه بروحه.

٣- احتمال أن يكون الجنود قد أطلقوه مقابل رشوة كما فعلوا مع غيره، وإذا جاز أن يأخذ أحد أصحابه الرشوة على تسليمه، فلا يستبعد أن يأخذ

---

(١) انظر: القرافي، أدلة الوحدانية، ص٥٨-٦٣.

(٢) انظر: القرافي، المصدر نفسه، ص١٠٣-١٠٧، والأجوبة الفاخرة، ص٤٥-٥١.

أعداءه الرشوة على إطلاقه.

٤- احتمال أن يكون الله قد صور لهم شيطانا أو غيره بصورته وصلبوه، ورفع المسيح -عليه السلام-؛ لأنه لما سألوه هل هو المسيح سكت.[١]

ز/ الاستدلال بالتواتر:

يؤكد القرافي بطلان الديانة النصرانية لافتقادها السند المتواتر في نقل كتبها وأحكامها وغير ذلك من عقائدها ومبادئها، ولما ذكر خبرا إعجازيا عن المسيح -عليه السلام- أورده يوحنا وحده ولم تذكره الأناجيل الأخرى، قال: «فكيف ينقل دين عن شخص واحد وهو يوحنا وشرط ثبوت أصل الأديان التواتر»[٢].

ح/ المعارضة:

عارض الإمام القرافي -رحمه الله- النصارى بأن استدل بطريقة استدلالهم نفسها، حيث إنهم حاولوا الاستدلال بالقرآن على صحة دينهم، فسار القرافي على الاستدلال على صحة دين الإسلام بما جاء في كتبهم، فعقد بابا خاصا بهذا الشأن، وقال: «باب فيما يدل من كتب القوم على صحة ديننا ونبوة نبينا ﷺ وأنهم بمخالفته كافرون، وبمعاندته من الله تعالى مبعدون، معارضة لاستدلالهم بكتابنا على صحة دينهم، بعد بطلان توهمهم صحة ما اعتمدوا عليه»[٣].

وعارض القرافي النصارى بمائة سؤال رأى أنه يعز على النصارى أن يجيبوا عليها، حيث عقد الباب الرابع كله في معارضة أسئلتهم بمائة سؤال يتعذر على اليهود والنصارى الجواب عنها وهي ليست أسئلة بمعنى الاستفهام بل هي حجج

---

(١) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٨٨-٨٩. والنصوص التي استقرأها كانت متى٢٦/١٦، ومرقس١٤/٥٠-٥٢، ولوقا٢٢/٦-٧، ويوحنا١٨/٤-٨.

(٢) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٤٦.

(٣) المصدر نفسه، ص١٩٩.

نقلية وعقلية تبين فساد ما عليه النصارى[1] وسماها أسئلة من باب اصطلاح أهل المنطق والجدل في فن المناظرة حيث أطلقوا على أحد الخصمين سائلا وعلى الآخر معللا، فإنه إذا «كان الموضوع (تصديق) -أي قضية منطقية سواء أكانت مصرَّحا بها أم مفهومة من ضمن الكلام-؛ فالمعترِض عليه يسمى (سائلا)، وصاحب التصديق ومقدّمه يسمى (معلِّلا)»[2].

ط/ إبراز التحكم والتشهي:

أبرز القرافي -رحمه الله- تحكمات النصارى في مجال عقائد الدين النصراني، وشعائره، وعباداته، وأنهم كانوا يرضخون لأهوائهم في أثناء وضعها، ولا يعيرون أي اهتمام للنصوص التي يعدونها مقدسة.

ففي مجال العقيدة قال القرافي بعد أن أورد نص الأمانة: «وهذه هي الأمانة التي أجمع عليها اليوم جميع فرق النصارى الروم واليعاقبة والنسطورية[3]، واتفقوا على أنه لا يتم عيد ولا قربان إلا بها، مع أنها لا أصل لها في شرع الإنجيل لا من قول المسيح -عليه السلام- ولا من قول تلاميذه، بل هي آراء قوم مغفلين، وتلفيقات جماعة مشكلين...»[4].

وفي شعائر الدين النصراني وعباداته ذكر تحكماتهم في الاتجاه نحو المشرق دون غيره، والاعتراف بالذنب أمام رجل الدين لقبول التوبة، وفي أنواع قرابينهم، والزيادة على عدد أيام صيامهم، وأعيادهم، وعدم الزواج للراهب والراهبة، وأكلهم لحم الخنزير، فتركوا ما في التوراة بمجرد الوهم والهوى والتحكم في شرع الله[5]،

---

(١) المصدر السابق، ص١٣١ وما بعدها.

(٢) عبد الرحمن الميداني، ضوابط المعرفة، ص٣٧٤.

(٣) سبق التعريف بفرق النصارى في الفصل الأول المبحث الثاني.

(٤) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٤٤.

(٥) انظر: المصدر نفسه، ص١٥٨-١٦٤، و١٩١-١٩٥.

وقال القرافي متعجبا من تحكماتهم: «ومن اطلع على كتب فقههم رأى فيها غرائب من التحكمات وعجائب الموضوعات»[١].

وكان تحكم النصارى في دينهم إما بتأويل أحكام التوراة بغية الانسلاخ عن الالتزام ببعض العبادات كتأويلهم الختان بطهارة القلوب ونقاوتها وصفاء النية، أو لمقارفة بعض المحرمات كتأويلهم تحريم لحم الخنزير بالزنا والكفر، وتأويلهم تحريم أكل الدم بأن لا يقتل أحد بريئا ...الخ[٢]، أو تكون تحكماتهم بابتداع أحكام ما أنزل الله بها من سلطان كزيادة عدد الأيام التي يجب صيامها.

وقد أبان القرافي أن التحكم في شرع الله صار قاعدة ثابتة عندهم ودينا يدينون به، فهو جزء أساس في الديانة النصرانية، حيث قال القرافي بعد أن ذكر ما أحدثوه في الحكم بمبارزة المدعي المدعى عليه في قضية جريمة القتل حتى يتبين المذنب: «ثم إن هذه الأحكام لا يجدونها في الإنجيل ولا في التوراة بل هم على قاعدتهم في اختراع دينهم برأيهم»[٣]، وقال في موقف آخر: «فليت شعري أين التوراة من هاتين الفئتين ، لقد تفرقت بهم السبل أيدي سبأ والتزموا اتباع الهوى دينا ومذهبا»[٤].

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى هذا المذهب عند النصارى بقوله تعالى: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله...**﴾[٥]، وما كان اتخاذهم أربابا من

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٩١.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١٥٦، ١٨٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٢.

(٤) المصدر نفسه، ص١٦١.

(٥) سورة التوبة، آية ٣١.

دون الله إلا بطاعتهم إياهم فيما يحرمونه ويحللونه للنصارى[١] من عند أنفسهم وأهوائهم فيأخذون به وإن خالف ما شرع الله في كتبه التي يعتقدون أنها منزلة، التوراة والإنجيل.

ي/ السبر والتقسيم:

استخدم الإمام القرافي -رحمه الله- طريق السبر والتقسيم في إقناع النصارى ببطلان مذهبهم، وإن كان السبر والتقسيم أحد أنواع الاستدلال العقلي، فإن التقسيمات قد تحوي أدلة عقلية ونقلية، كما فعل القرافي، ففي دعوى النصارى في تجسد الكلمة، قام بحصر منطقي لأوصاف الموضوع المناقش، فقال: «وقولكم تجسدت في جوفها -أي الكلمة- فنقول لكم تجسدت لساعتها، أو تجسدت لتوليد يوم بعد يوم، وساعة بعد ساعة، فأيهما قلتم بطلت حجتكم.

فإن قلتم لساعتها فهو خلاف الناسوت، فإن الإنسان التام ليس له ذلك، ولا يتصور في العادة استواء الجنين في بطن أمه لساعته، فما كان إنسانا تاما، بل كان مخالفا للإنسان، لأن الإنسان الذي يقع عليه هذا الاسم ينمو أو يزيد كل شهر من التسعة أشهر، وإن قلتم لا بل زاد ونما شيئا بعد شيء فليس بإله تام إذ من المحال أن يجوز على الإله النمو والزيادة»[٢].

فالقرافي في رده هذا قسم القضية إلى قسمين:

١- أن تكون الكلمة قد تجسدت في ساعتها.

---

(١) روى الترمذي عن عدي بن حاتم -رضي الله عنه- قال: قال أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾، قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدوهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذ حرموا عليهم شيئا حرموه» قال أبو عيسى حديث غريب، سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن٤٨، باب١٠، حديث رقم :٣٠٩٤، ج٨، ص٢٤٨، وانظر: ابن كثير، ج٢، ص٥٤٤-٥٤٥، والشوكاني، فتح القدير، ٣٥٣.

(٢) القرافي أدلة الوحدانية، ص٦٦.

٢- أن تكون الكلمة تعرضت في تجسدها للنمو الزيادة.

والأمران مستحيلان غير متصورين، إذ الإنسان التام لا بد له من أن يمر بمراحل نمو تصل به إلى أن يصل إلى إنسان سويّ، والمسيح -عليه السلام- إنسان باتفاق الجميع، والذي يستوي في ساعته ليس بإنسان تام، بل هو شيء مختلف.

وإن قالوا بالقول الثاني فيكونون قد نفوا الألوهية عن المسيح -عليه السلام- إذ من المحال أن يطرأ الزيادة والنمو في ذات الله سبحانه وتعالى، وبذلك تبطل دعوى تجسد الكلمة في جوف أم المسيح -عليه السلام- ولا حجة معتبرة للنصارى في ذلك.

وفي اعتراضه على وصف النصارى المسيح بقولهم (إله تام من إله تام) قال القرافي: «وقولكم إله تام من إله تام لا يستقيم؛ لأنكم لا يخلوا قولكم من أمرين، إما أن تقولوا بحلول الإلهية فيه بعد ثلاثين سنة، وإما أن تقولوا خرج من بطن أمه إلها تاما.

فإن قلتم إنما حلت الإلهية فيه بعد ثلاثين سنة فما خرج من بطن أمه إله تام ولا هو إله تام.

وإن قلتم خرج من بطن أمه إله تام فقد كذبتم إنجيل يوحنا إذ قال في إنجيله: «أنه لما حضرت مريم وابنها يسوع في العشرين في كنا الجليل قالت له مريم: يا بني قد فرغ الخمر، فقال لها يسوع: وما لي ولك يا امرأة ما دنا بعد وقتي أن أعمل معجزة»[١] فهذا دليل على أنه ما كان تاما ولا كان إلها، لأن المعجزة إنما تكون للنبي والإله يفعلها على يده على وفق قوله تصديقا له، ويستحيل أن يحد الإله بوقت.

فقول يسوع ما دنا بعد وقتي دليل على أنه بشر وليس بإله»[٢].

---

(١) يوحنا، ٢/١-٥، وفي الترجمة الحديثة أن يسوع رغم قوله «لم تأت ساعتي» إلا أن النص في نهاية المطاف يذكر أنه حول ماء إلى خمر!! ولم تذكر أنه كان ابن عشرين.

(٢) القرافي، أدلة الوحدانية، ص٦٦-٦٧.

ففي هذه القضية الأمر محصور بين أن يقول النصارى أن المسيح -عليه السلام- حلت فيه الإلهية بعد أن بلغ عمره ثلاثين عاما، أي بعد أن نزل عليه الروح القدس وعند بدء دعوته بين الناس[1]، وبذلك لا يمكن أن يكون إلها، فالألوهية ليست شيئا طارئا، إنما الإله من يكون إلها في الأزل والأبد بلا حدود.

أو أن يقولوا أنه كان إلها منذ خرج من بطن أمه، وهذا الاعتقاد يكذبه نص الإنجيل الذي يصرح بأن وقت عيسى -عليه السلام- في عمل المعجزات لم يحن بعد، مما يؤكد أنه كان نبيا، إذ النبي هو الذي يجري الله على يديه المعجزات تأييدا للدعوة التي يدعو الناس إليها، بينما الإله لا ينتظر زمانا معينا حتى يتمكن من فعل أي شيء يريده في ملكه. وبذلك تبطل دعوى النصارى في وصف عيسى -عليه السلام- بالألوهية التامة.

ومن السبر والتقسيم أيضا ما ذكره في نفي ألوهية المسيح -عليه السلام- بقوله: «نقول للنصارى: آدم وإبراهيم وإسماعيل وموسى -عليهم السلام- وأممهم كانوا يعرفون المسيح -عليه السلام- ويعتقدون أنه خالقهم ومدبرهم أم لا؟ فإن قالوا لا. كفروا بهؤلاء الأنبياء -عليهم السلام- لنسبتهم فيها إلى الجهل بخالقهم، وإن قالوا: نعم. كذبتهم الكتب جميعا، إذ ليس فيها حرف يدل على أن أحدا من هؤلاء كان يعتقد أن المسيح -عليه السلام- إله»[2].

فالشيء الثابت عند النصارى أن هؤلاء الأنبياء ومن اتبعهم كانوا أنبياء حق، فإن ادعى النصارى أن هؤلاء الأنبياء ما كانوا يعتقدون ألوهية المسيح -عليه السلام- أدى قولهم هذا إلى أن يكفر النصارى بهؤلاء الأنبياء، لأنهم نسبوا إليهم الجهل بإلههم، أو أن الأنبياء كانوا كفارا لعدم إيمانهم بالإله الحق، وهذا ما لم يقل به أحد من النصارى، أو أن يدعي النصارى أن هؤلاء الأنبياء كانوا يعتقدون ألوهية

---

(١) جاء في إنجيل لوقا، ٣/٢٢-٢٣ «ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة...ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة...»

(٢) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٣٧.

المسيح -عليه السلام- وهذا ما لم يجدوا له دليلا واحدا من كتبهم التي بين أيديهم، حيث لم تذكر ذلك إطلاقا، فلم يبق سوى أن يقولوا إنه رسول ونبي كريم، مثل هؤلاء الرسل والأنبياء الذين كانوا يعبدون الله الواحد الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وهو الحق.

ك/ المقارنة والمقابلة:

أبرز الإمام القرافي -رحمه الله- التناقض الموجود بين نصوص الأناجيل نفسها، وبين المصادر النصرانية الأخرى، وكان وصوله إلى هذا التناقض عبر المقارنة بين هذه النصوص[1]، فلا داعي إذن لتكرار هذا الجانب من المقارنات، ويمكن ذكر الجوانب الأخرى من المقارنات التي أجراها القرافي في سعيه إلى إقناع النصارى بفساد عقيدتهم، وصلاح العقيدة الإسلامية، ومن ذلك مقارنته بين عقيدة الإسلام النقية والمعقولة، وعقيدة النصارى المتهالكة في قضية الربوبية، فبعد أن ذكر اعتقاد النصارى الربوبية في عيسى -عليه السلام- الذي ولد من رحم امرأة، ومر بمراحل النشأة التي يمر بها كل إنسان بما فيها من صفات آدمية ناقصة بعيدة عن صفات الخالق الكاملة، وتعرضه للذل والهوان في نهاية المطاف على أيدي أعدائه اليهود قال القرافي: «وأين هذا من قول المسلمين الذين يجلّون الله عن الاتصاف بصفات الأجسام[2]، ويحيلون عن جنابه الكريم أن تناله الآفات والآلام، بعث عيسى نبيا مكرما، ورفعه إليه ممجدا معظما لم يهنه بأيدي الأعداء، ولا سلط عليه أسباب البلاء»[3].

فإن العقول السليمة تمج تلك العقيدة التي تنزل قدر خالقها إلى هذا الدرك، وتستخف بتلك الأديان التي ابتدعت هذه الصورة القبيحة لله تعالى، فعيسى -عليه السلام- وإن كان نبيا رسولا واصطفاه الله من خيار خلقه، إلا أن مرتبته لا تزيد قيد أنملة على كونه بشرا مخلوقا مهما بلغ من الكرامة والعظمة، بل إن النصارى

---

(١) على سبيل المثال، انظر: القرافي، أدلة الوحدانية، ص١٠٢-١٠٤، والأجوبة الفاخرة، ص٤٥-٥١،

(٢) لفظ الجسم من الألفاظ المحدثة فإن أريد منه نفي الصفات الثابتة فلا يُسلم به.

(٣) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٣٥.

زادو الطين بلة بزعمهم أن عيسى -عليه السلام- تعرض لأنواع من النكال والذل مما يزيده نقصا على نقصه، فكيف ينظر العاقل إلى هذه العقيدة السخيفة، وعقيدة الإسلام الصافية التي أعطت لله الواحد الأحد حقه، ولعيسى -عليه السلام- حقه من الإكرام والإجلال، لا ريب أن الإسلام هو الحق، وما دونه هو الباطل.

وقارن القرافي بين شريعة الإسلام والشرائع الأخرى لما زعم النصراني أن الفضل والكمال ظهرت في شريعة المسيح -عليه السلام- فأورد القرافي حوالي عشرة نقاط تميزت فيها شريعة الإسلام عن غيرها من الشرائع، من ناحية استمرار معجزة الإسلام القرآن الكريم إلى قيام الساعة، وبعث النبي ﷺ إلى جميع الثقلين، وأن هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، وعبادتها على طريقة عبادة الملائكة بالصفوف، وأمرت بتطهير الظاهر والباطن، والتوجه في صلاتها إلى أفضل الجهات، وأول بيت وضع للناس، وجاء الإسلام وسطا في تشريعه الزواج من أربع نسوة، وأذن بالصلاة في كل موضع ليكثر أماكنها، وأحلت لهذه الأمة الغنائم صونا للمال، وصار نداؤها للصلاة بالذكر والثناء على الله لا بدق الأبواق والنواقيس، وهذا ما لم يتوفر في الشرائع الأخرى، مما يجعل الإسلام أفضل الأديان وأكملها[١]، فإذا كان الفضل والكمال فلا يكون إلا لشريعة الإسلام، فما حباها الله تعالى من خصائص ومميزات لم تنله الشرائع الأخرى التي سبقتها في الزمن، وذلك فضل من الله تعالى لحكمة هو أعلم بها.

وقارن بين نقل القرآن ونقل الإنجيل وضبطه، فذكر أن النصارى لا يفرقون فيما نقلوه عن المسيح -عليه السلام- بين ما كان منزلا من عند الله وما كان مما قاله المسيح -عليه السلام- بمقتضى الطباع البشرية، وما تكلم به من نصائح وإرشادات، بينما المسلمون يفرقون بين القرآن الكريم الذي نقل متواترا يقطع بصحته، وبين الأحاديث، وبين ما قاله ﷺ وفعله بمقتضى البشرية،[٢] فالنصارى لا

---

(١) انظر: القرافي الأجوبة الفاخرة، ص٧٢-٧٦.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص٥٢.

يستطيعون أن يرووا إنجيلهم واحد عن واحد إلى عيسى -عليه السلام- «وأقل الكتب عند المسلمين من الأحاديث وغيرها يروونها عن قائلها، فتأمل الفرق بين الاثنين، والبون بين الدينين، هؤلاء المسلمون ضبطوا كل شيء، والنصارى أهملوا كل شيء، ومع ذلك يعتقدون أنهم على شيء!!»[١]. فلا سند موثوق، ولا متن مقبول، بل لا يزيد ما يقدسون من نصوص إلا أن يكون مجرد حكايات حكاها بعضهم، وأثبتوها في كتبهم.

وقارن القرافي أيضا بين مذاهب النصارى اليعقوبية، والملكانية، والنسطورية وكيف أن كلا منها يفسد المذهب الآخر وينقضه من أساسه،[٢] وهي دلالة واضحة على تحكم النصارى في دينهم وعدم اتباعهم لشرع ربهم، وإلا فكيف يختلفون في أساسات دينهم العقدية.

وأيضا قارن القرافي بين ما جاء في الإنجيل: «من لطمك خدك الأيمن فحول له الآخر»[٣] و «أحبوا مبغضيكم وصلوا على لاعنيكم»[٤] وبين الذي عليه النصارى من حبهم للقتال وسفك الدماء[٥]، وربما يقصد القرافي أنهم يقاتلون باسم النصرانية، وباسم الصليب، كما كان الحال في عصره عصر الحروب الصليبية، وإلا فلو كان القتال بعيدا عن الأهداف الدينية، كأن يكون لطمع دنيوي مثلا، فإنه قد يرد عليه بأن هذا من المعاصي التي يرتكبونها، فلا يكون له حجة حينئذ، لأن النصارى لم يقولوا بأنهم لا يرتكبون الآثام والأخطاء.

---

(١) المصدر السابق، ص٦٨.

(٢) انظر: أدلة الوحدانية، ص٩٥-٩٧.

(٣) متى، ٥/٣٩.

(٤) متى، ٥/٤٤.

(٥) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٦٦.

ل/ التحدي:

تحدى الإمام القرافي -رحمه الله- بين حين وآخر النصارى إظهارا لعدم قدرتهم على إثبات ما يثبتون، ونفي ما ينفون من الدعاوى، ففي تحكمهم في تشريع السجود للتصاوير، ووضعها في كنائسهم تحداهم بقوله: «وليس في كتبهم حرف من شرع التصوير ولا من السجود للتصاوير، بل مملوء بالتوحيد والتمجيد وكفر من يفعل مثل هذا، فهم كفرة فجرة»[1] فهو يتحداهم أن يجدوا دليلا واحدا من كتبهم تشرع لهم أمر السجود للتصاوير، ويبدو أنه يتكلم من موقف العالم المطلع بما تحوي كتبهم؛ لأنه يتحداهم أن يجدوا حرفا واحدا يؤيدهم، بل الأمر عكس ذلك، إذ فيها نهي عن فعل ذلك، وتكفير من يرتكب مثل هذه الشركيات.

وتحداهم في موقف آخر أن يجدوا في الأناجيل ما يدل بالتفصيل على أن ما فيها من الأقوال مما نزل من عند الله تعالى على المسيح -عليه السلام-، أو مما اقتضاه رأي المسيح -عليه السلام-، فإن هذا التفصيل لم يتعرض له إنجيل من الأناجيل التي بأيدي النصارى، لذلك تحداهم القرافي بقوله: «وهلموا إلى أناجيلكم تحكم بيننا وبينكم إن كنتم صادقين»[2].

م/ التلازم والإلزام:

جميع أنواع الأدلة يمكن أن ترجع إلى هذا النوع من الأساليب العقلية، لأن كل دليل صحيح مستلزم للمدلول، «فيلزم من تحقق الملزوم الذي هو الدليل، تحقق اللازم الذي هو المطلوب، المدلول عليه، ويلزم من انتفاء اللازم الذي هو المدلول عليه انتفاء الملزوم الذي هو الدليل»[3].

فالقرافي -رحمه الله- يلزم النصارى بنتائج أدلته العقلية التي يثبتها من خلال القياس والتمثيل، وإبراز المحال من قولهم، والتناقض، والسبر والتقسيم....الخ، أو

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٦٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١٢٨.

(٣) ابن تيمية، الرد على المنطقيين، ص٢٩٤.

يلزمهم بلوازم مذهبهم وأقوالهم، فمن الأمور التي ألزمهم بها بالسبر والتقسيم مثلا قوله: «قالوا: المسيح -عليه السلام- مات ثم عاش، فنقول لهم: من أحياه؟ فإن قالوا: بنفسه، قلنا: وهو حي أم ميت؟ فإن قالوا: وهو حي، لزم تحصيل الحاصل، وإن قالوا: وهو ميت لزمهم المحال؛ لأن الخالق للحياة لا يمكن أن يكون ميتا، بل أقل أحواله أن يكون عالما بمن يحييه؛ وقيام العلم بغير الحي محال، وإن قالوا: أحياه غيره وهو الذي أماته لزمهم أن يكون المسيح -عليه السلام- عبدا مربوبا، وهو المطلوب»[1].

فهنا ألزمهم بالنتائج العقلية التي توصل إليها من خلال السبر والتقسيم، وبيّن لهم ما يلزمهم بكل قسم من أقسام الدليل.

ومن إلزامه للنصارى بلازم مذهبهم أنه ألزمهم بأن يقولوا: أن عيسى -عليه السلام- أعق مولود لوالدته في هذه الدنيا، -وهو براء من كل ذلك- ذلك أنهم قالوا بأنه لم يتكلم في الصبا، وترك والدته عرضة للتهم، وظل ثلاثين سنة دون أن يبرئها مع أنه كان قادرا على تبرئتها، ومنع الخائضين في ذلك، كما أنه ألزمها بالصلاة ومشاق التكاليف، وقضى عليها بالموت وسلط على جسدها الفساد، كل ذلك لازم من مذهبهم في تأليه عيسى -عليه السلام- وعدم تقديمه أي شيء يحمي أمه مما تعرضت له من التهم، وجعلها تعيش عيشة امرأة عادية في الدنيا[2]، فما برّ بها أبدا.

وكما أثبت ما يلزم من أدلته بالإيجاب، أثبت ما يلزم من الأدلة بالسلب أيضا، فقال: «النصارى إنما دلها -بزعمها- على أن عيسى -عليه السلام- ابن الله تعالى إحياؤه للموتى، والعقل جازم بأنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول، فلا يلزم من عدم علمهم بأن زيدا أو عمراً يحيي الموتى أن لا يكون ابن الله -تعالى- لجواز أن يكون كذلك ولم يظهر الدليل الدال عليه، فليجوزوا في كل أحد أن يكون ابن الله

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ١٤٠.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١٦٧.

تعالى عن قولهم علوا كبيرا»[١].

أي إنه لا يلزم من كون النصارى لم يعلموا بدليل يدل على أن فلانا من الناس أحيا ميتا، أن يكون هذا الفلان قد أحيا فعلا ميتا ما، فالاحتمال وارد في أن أي إنسان يمكن أن يحيي الموتى وإن لم يعلم ذلك، فيلزم على هذا أنه يحتمل أن يكون جميع الناس أبناء الله لأنه يحتمل أن يكونوا أحيوا الموتى ولكن النصارى لم يعلموا ذلك.

ن/ الاستدلال بما يسلمون به:

إن الاستدلال بالأدلة المنقولة من الكتاب المقدس عند النصارى -العهد القديم والعهد الجديد- والاستدلال بالمواثيق التي وضعوها، وبالكتب الأخرى التي يعترفون بها كمصدر من مصادر ديانتهم، والأدعية والصلوات التي يكررونها يعد استدلالا بمسلمات الخصم، وبالإضافة إلى هذا هناك بعض القضايا أثارها النصارى في أثناء بثهم الشبهات حول الإسلام، وكان بعضها مما بنوا عليه دليلهم، أي بمثابة مقدمات يسلمون بها، ومن هذا المنطلق ألزمهم القرافي بهذا الذي سلموا به وبنوا عليه دليلهم، ومن ذلك أن النصارى استدلوا على رفضهم قبول رسالة النبي ﷺ بقوله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسول إلى بلسان قومه...﴾[٢] على أنه رسول خاص بقومه، فكأنهم سلموا بأن محمدا ﷺ رسول إلى قومه خاصة، فاستدل القرافي بمسلمهم هذا على وجوب إيمانهم بعموم الرسالة فقال: «أنه إذا سُلم أن النبي ﷺ رسول لقومه، ورسل الله تعالى خاصة خلقه وخيرة عباده معصومون من الزلل مبرؤون من الخطل، وهو -عليه السلام- قد قاتل اليهود وبعث إلى الروم ينذرهم، وكتابه -عليه السلام- محفوظ عندهم إلى اليوم في بلاد الروم عند ملكهم يفتخرون به، وكتب إلى المقوقس بمصر لإنذار القبط، ولكسرى فارس وهو الصادق البر، كما

---

(١) المصدر السابق، ص١٥١.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٤.

سلِّم أنه رسول لقومه فيكون رسولاً للجميع»[١].

وفي رده على اليهود والنصارى جميعا في نفيهم نسخ ديانتهم بالإسلام؛ لأن ذلك يقتضي البداءة والندم على الله، وهو محال في حقه، قال القرافي: «اتفاق اليهود والنصارى على أن آدم - عليه السلام- شرع الله له تزويج الأخ من أخته التي ليست توأمته، مع اتفاقنا على تحريم ذلك بعد آدم -عليه السلام- وهذا هو حقيقة النسخ، فقد اعترفوا به فلا يكون محالا على الله»[٢].

فتسليم النصارى بهذا التشريع الذي نسخ في الشرائع الأخرى دليل على أن أمر النسخ في الشرائع ليس من المحالات الشرعية أو العقلية في حق الله تعالى، فتسليمهم بذلك دليل عليهم.

س/ التسليم الجدلي:

قال النصراني: «إن القرآن ورد بتعظيم عيسى وبتعظيم أمه مريم -عليهما السلام-، وهذا هو رأينا واعتقادنا فيهما فالدينان واحد فلا ينكر المسلمون علينا»[٣] فأجابه القرافي بأكثر من وجه على هذا التفسير الغريب لما جاء في القرآن في شأن عيسى -عليه السلام- وأمه، ومن ذلك تسليمه بمقالة النصراني لإظهار ضلاله وكفره، فقال القرافي: «ولو سلمنا تجويز صحة ما يقوله النصراني من البنوة وغيرها، يكون المسلم قد اعترف لعيسى -عليه السلام- وأمه -رضي الله عنها- بالفضل العظيم، والشرف المنيف، وجهل بعض أحوالهما، -على تقدير تسليم صحة ما ادعاه النصارى- والجهل ببعض فضائل من وجب تعظيمه لا يوجب خطرا، أما النصراني فإنه منكر لأصل تعظيم النبي محمد صلى الله عليه وسلم بل ينسبه للكذب والرذائل والجراءة على سفك الدماء بغير إذن من الله تعالى ولا خفاء في أن هذا خطر عظيم، وكفر مبين، فيظهر من هذا القطع بنجاة المسلم قطعا، وبتعين غيره

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢٨-٢٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٠.

للضرر والخطر»[١].

إذن فإن اعتراف النصراني بأن القرآن الكريم اشتمل على ما يعظم عيسى -عليه السلام- ومريم -رضي الله عنها- والتسليم جدلا بأن ما ورد في تعظيمهما مطابق لمفهومه، فإن ذلك يجعل دين المسلمين حقا يجب اتباعه؛ لأنه أقر تعظيم عيسى -عليه السلام- وأمه -رضي الله عنها-، وأن عدم معرفة المسلمين ببعض خصائص عيسى -عليه السلام- ليس كالافتراء على الرسل وتكذيبهم كما تفعل النصارى بحق محمد ﷺ الذي جاء بقرآن يعظم المسيح -عليه السلام-، وهذا يجعل المسلمين في منجاة من الكفر بينما يواجه النصارى خطر الكفر وتوابعه من العقاب الشديد والعذاب الأليم؛ لأنهم أنكروا رسالة من جاء بتعظيم عيسى -عليه السلام- بل ووصفوه بأسوأ الصفات.

ولما قال النصراني: «الله تعالى جواد فجاد بأعظم الموجودات وهي كلمته، فجعله متحدا بأفضل المحسوسات وهو الإنسان»[٢]، أبطل القرافي هذه المقولة بعدة وجوه، ومن ذلك استخدامه لطريق التسليم الجدلي، فبعد أن طالب الخصم بإقامة دليل على إمكان انتقال كلمة الله من ذاته تعالى إلى مريم -رضي الله عنها، وإثبات هذا الممكن بالدليل، سلّم جدلا أن هذا الأمر ممكن، فقال: «سلمنا أنه ممكن، ولكن لمَ قلتم إن الكلام أفضل الموجودات؟ ولم لا يكون العلم أفضل الموجودات؟ ولم لا يكون العلم أفضل منه، لأن الكلام تابع للعلم؟»[٣].

فالقرافي يتجاوز عن مطالبته بتصوير ما ادعوه، وإثبات إمكانه بالدليل، ليأتي على مأخذ آخر يظهر للعيان من قولهم ذلك، فإذا سلّم لهم جدلا بالمقدمة التي وضعوها، فإنه ليس لهم دليل على ادعائهم بأن الكلام أفضل من غيره من صفات الله تعالى، إنما زعموا هذه الأفضلية من عند أنفسهم، وهي وليدة تحكماتهم الكثيرة

---

(١) المصدر السابق، ص٣١.

(٢) المصدر السابق، ص٧١.

(٣) المصدر السابق، ص٧١.

في أصول دينهم وفروعه.

ع/ القلب:

حرص القرافي -رحمه الله- على إفراغ الخصم من أي دليل معتبر يؤيد مذهبه، وحتى الأدلة التي كان يعدها الخصم مؤيدة لمقولته، قلبها القرافي عليه فجعلها أدلة على الخصم لا له، فلما استدل النصراني بقوله تعالى: ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز**﴾[(١)] على تقديم بيع النصارى وكنائسهم وأفضليتها على مساجد المسلمين، قلب القرافي هذا الدليل على النصراني، وذكر بعد أن بيّن المراد من الآية أنها دليل عليهم لا لهم، لأن «هذه الآية تقتضي أن المساجد أفضل بيت عند الله تعالى، على عكس ما قالها هذا الجاهل بلغة العرب، وتقريره: أن الصنف القليل المنزلة عند الله تعالى أقرب إلى الهلاك من العظيم المنزلة، والقاعدة العربية أن الترقي في الخطاب إلى الأعلى فالأعلى أبدا، في المدح والذم والتفخيم والامتنان، فيقال في المدح الشجاع البطل، ولا يقال البطل الشجاع، لأنك تعد راجعا عن الأول، وفي الذم العاصي الفاسق...، وفي التفخيم يغلب المائة والألف، ... وفي الامتنان لا أبخل عليك بالدرهم ولا بالدينار... والقاعدة العربية أن الضمير إنما يحكم بعودها على أقرب مذكور... فقوله تعالى ﴿**يذكر فيها اسم الله كثيرا**﴾ يختص بالأخير الذي هو المساجد، فتكون المساجد قد اختصت بكثرة ذكر الله تعالى و هو يقتضي أن غيرها لم يساوها في كثرة الذكر فتكون أفضل وهو المطلوب»[(٢)].

فالآية التي ظنها النصراني دليلا مؤيدا لدعواه أصبحت بحسن إدراك القرافي -رحمه الله- لمعنى الآية، وعلمه بقواعد اللغة العربية وأساليبها دليلا على الخصم، ولا ريب أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، ولا يفهم مقاصده، ولا يدرك

---

(١) سورة الحج آية: ٤٠.

(٢) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٣٧-٣٨.

مراميه بمعزل عن أساسات اللغة التي نزل بها وقواعدها.

ولما أورد القرافي معارضة اليهود والنصارى للإسلام بأنه ضعيف لا يستطيع إقناع الناس بالحسنى، وإنما انتشر بالقوة، ذكر أن سؤالهم هذا ينعكس عليهم؛ لأنهم أشد الناس تكالباً وحرصاً على القتل والقتال، وبسط الأيدي بالأذى في أقطار الأرض مع تحريم إنجيلهم عليهم ذلك، ودعوتهم إلى تحويل خدهم الآخر إذا ضربوا على أحد جوانب وجوههم...الخ، بينما القتال والجهاد مشروع في الدين الإسلامي، ومؤرخوهم ذكروا أن ابتداء دينهم إنما كان بسبب القتال مع اليهود، فهم الذين خالفوا كتبهم وأحلوا ما حرم عليهم[1].

فالنصارى آخر من يتكلم في القتال، لأنهم أشد الناس حرصا على سفك الدماء، وقد زعموا في تواريخهم انتصارات نالوها بسبب حملهم الصليب، وقدسيّة حروبهم التي كانت من أجل المسيح، وقد جردوا حملات صليبية عدة على المسلمين، وما زالوا حريصين على تقتيل المسلمين وتشريدهم حتى يومنا هذا.

فإذا كان قتال أهل الأديان لمخالفيهم دليلا على ضعف دينهم أو بطلانه، فإن أولى الناس بانطباق هذا الدليل عليهم هم النصارى، وبخاصة أن قتالهم يخالف ما جاء في كتابهم الذي يقدسونه، وإن المسلمين وإن قاتلوا لم يقولوا أنه لم يشرع في دينهم القتال، بل يؤمنون بمشروعيته، ويعلمون أنه لم يشرع لمجرد التقتيل والإرهاب، بل شرع لأسباب معقولة ومشروعة، منها حماية الدين من أعدائه المتربصين، وإحقاق الحق وإبطال الباطل، ودفع المعتدين، والصادين عن سبيل الله، والمانعين عن وصول الحق إلى الناس.

ف/ الاسترداد التاريخي:

استرد الإمام القرافي -رحمه الله- أحداثا تأريخية تبين بطلان دعاوى النصارى في قضايا متعددة، ومن أبرز القضايا التي حاول التأكيد عليها قضية المجامع النصرانية التي كانت تعقد بين حين وآخر وما أصدرته من مواثيق متحكم

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص١١٨-١١٩.

فيها، وما خرجت به من قرارات تهدم ما تم بناؤه في مجامع سابقة، وتكفير مخالفيها[١]، كما ركز على قصة بولس وأصله اليهودي ثم دخوله الديانة النصرانية، وإقدامه على إدخال أمور كثيرة في صلب العقيدة النصرانية، منها التثليث، وبنوة المسيح -عليه السلام- لله تعالى، فأفسد عليهم عقيدتهم وشعائرهم، وذكر في قصة بولس هذا روايتين[٢]، وذكر قصة قسطنطين وما أحدثه في النصرانية بناء على منامات قال إنه رآها في نومه فاستحسنها النصارى وأخذوا بها[٣]، ويؤكد هذه الأحداث التاريخية قائلا: «وهذه التواريخ لا ينكرها النصارى من حيث الجملة، وإن أنكروا بعض تفاصيلها، ولا يقدروا أن ينكروا محاربة بولس اليهودي ولا إجلائهم من الشام، وكذلك قسطنطين»[٤].

فالقرافي من خلال هذه التواريخ يريد أن يصل إلى منشأ أغلب عقائدهم الفاسدة وأصولها، وكيف تطورت في مراحل تاريخية معينة، بينما يحاول النصارى أن يجدوا لضلالاتهم مستندا شرعيا من كتبهم المقدسة كما احتجوا على ضرب الناقوس بقصة نوح -عليه السلام- حيث زعموا أن التوراة ذكرت ذلك، ففند القرافي هذا الزعم بإعادتهم إلى تاريخ الديانة النصرانية ومتى كان ابتداء ضرب الناقوس فيها، فذكر أن ابتداء ضرب الناقوس حسب تواريخهم كان بعد اجتماع المجمع الثاني في الإسكندرية بعد صلب المسيح -حسب زعمهم- بأربعمائة عام، مما يعني أن لا صلة بين ما جاء في التوراة وما يفعله النصارى من ضرب النواقيس، فهو شيء مستحدث لم يكن يفعله المسيح -عليه السلام- ولا الذين اتبعوه

---

(١) القرافي، أدلة الوحدانية، ص٣٧-٥٥.

(٢) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٥٢-١٥٤.

(٣) المصدر نفسه، ص١٥٦.

(٤) المصدر نفسه، ص١٥٦.

حتى مضى على فراقهم إياه أربعمائة سنة[١].

كما ذكر في موطن آخر قصة تعظيم الصليب، وكيف ظهرت هذه البدعة في الديانة النصرانية ودعوى اكتشاف الصليب الأصيل الذي صلب عليه المسيح -عليه السلام- والخدع التي واكبت هذا الاكتشاف وما أسهمه اليهود في تضليل الملكة هيلانة والدة الملك قسطنطين التي جاءت إلى القدس تبحث عن هذا الصليب، وخداعهم إياها في هذا الشأن[٢].

ص/ مطالبة الخصم بالدليل:

من المفترض في المجادلات والمناظرات أن يدعي المدعي ما يشاء مما له علاقة بموضوع الجدال، إلا أنه في الوقت نفسه عليه أن يأتي بدليل على دعواه، ويدعم كل خطوة يخطوها بمستند عقلي أو شرعي حتى يجد ما يدعيه قبولا من الطرف الآخر، وإذا ما فشل في الاستدلال بدليل معتبر على مقالته فقد انقطع عن المناظرة، ولزمه قبول دعوى خصمه الذي دعم دعواه بدليل معتبر.

ولذلك اتجه القرافي -رحمه الله- إلى مطالبة النصارى بإيراد الأدلة على ما يعتقدون، وما يدعون من دعاوى، وما يأتون من أمور دينهم ويذرون، ففي ادعاء النصارى بأن التعميد عام لأن يحيى والحواريين قد عمّدوا قال: «فما الدليل على أن ما فعلوه كان شرعا عاما؟»[٣].

وفي قضية توقيت إفطارهم في يوم صومهم بوقت العصر قال: «ثم إنكم تفطرون من العصر، ومن أين لكم أن الصوم لهذا الوقت؟»[٤]، فالقرافي يطالب النصارى أن يأتوا بأدلة من كتبهم على أن فعل يحيى والحواريين في تعميد الناس

---

(١) القرافي، أدلة الوحدانية، ص٧٨.

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص٧٦-٧٧.

(٣) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٨٩.

(٤) المصدر نفسه، ص١٦١.

بالماء -إن ثبت ذلك- أن فعلهم كان أمرا مشروعا على النصارى جميعا، فيعمدوا كما عمّد هؤلاء، ويطالبهم كذلك بأدلة ثابتة تبين الحدود الزمنية للصوم، وبخاصة وقت الإفطار بعد يوم من الصوم، فهل هناك دليل يحدد أن الإفطار في وقت العصر يكفي لإجزاء الصائم عن صومه، وتبرؤ به ذمته من أداء شعيرة الصيام.

وقد يقرن المطالبة بالدليل بالتحدي، فيطالبهم بالدليل ويؤكد على أنهم لن يجدوا دليلا على دعواهم زيادة في بيان مجانبتهم للصواب، فيقول مثلا في استحلالهم بعض الأطعمة والذبائح التي جاء تحريمها في التوراة: «فإن ادعو نسخها طالبناهم بالدليل الناسخ، ولن يجدوه أبداً»[1].

فالنصارى مخاطبون بما جاء في التوراة، وهم معترفون أن عيسى -عليه السلام- جاء مؤكدا لما في التوراة، فهم مطالبون بحدوده، وحلاله وحرامه، وليس بين أيديهم دليل معتبر ينسخ الأطعمة المحرمة في التوراة، وغاية ما عندهم تأويلات رجالات دينهم لهذه المحرمات، وإفراغها من محتواها بلا مستند شرعي، بل بمجرد التحكم والهوى.

ق/ الاستدلال بالتعريف:

عرّف الإمام القرافي -رحمه الله- بعض الألفاظ والمصطلحات في أثناء رده على النصارى، ودعوتهم إلى الحق، وكان تعريفه لبعض الألفاظ زيادة في الإيضاح وإفادة للقارئ، ولم يكن فيها نزاع بينه وبين معارضه النصراني، وذلك كتعريفه بالصومعة والصلاة، والبيَع، والمساجد[2] التي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾[3].

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٨٧.

(٢) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٣٨.

(٣) سورة الحج آية: ٤٠.

إلا أن الأهم في هذا الشأن كانت التعريفات التي أوردها نقضا لدعاوى خصمه، واستدلالا بها على صحة مذهبه، وبطلان مذهب النصارى، ومن ذلك أن النصارى ينكرون نسخ الشرائع بعضها ببعض وبخاصة نسخ شريعة الإسلام لدين النصرانية، لأن في رأيهم أنه يستلزم البداء والندم في حق الله سبحانه وتعالى، فبيّن القرافي خطأ هذه الدعوى بإيراده تعريفا لكلمة البداءة، ومعنى النسخ، فقال: «البداء والندم أن يظهر ما لم يكن ظاهرا قبل ذلك... لكن معنى النسخ أنه سبحانه وتعالى علم في الأزل أن تحريم الشحوم مثلا مصلحة للمكلفين في الزمن الفلاني ومفسدة للمكلفين في الزمن الفلاني، ويعلم في الأزل أنه تعالى يشرعه في وقت المصلحة وينسخه وقت المفسدة، فالحكم الناسخ والمنسوخ كلاهما معلوم لله تعالى أزلا وأبدا، ولم يتجدد في العلم ما لم يكن معلوما، حتى يلزم البداء.»[1]، وبذلك نفى القرافي أن يستلزم النسخ البداء والندم، لأن مصطلح النسخ في حق الله تعالى لا يعني أن الله تعالى بدّل حكما من الأحكام لأمر كان خافيا عليه، ولم يظهر له إلا في وقت متأخر فاستحسن هذا الأمر الطارئ الذي لم يكن يعلمه من قبل، فهذا لم يقل به أحد.

ومما كان له مفهوم مختلف بين القرافي ومخاطبه النصراني مفهوم الجوهر والعرض، فالنصراني يستدل على صحة إطلاقه لفظ الجوهر في حق الله تعالى بإيراد مفهوم الجوهر والعرض، إذ يرى أن الجوهر: هو ما كان غير مفتقر في الوجود إلى غيره، والعرض: هو ما كان مفتقرا في وجوده إلى غيره، وانتقد التعريف الذي نسبه إلى المسلمين للجوهر: بأنه الذي يقبل العرض فيشغل الحيز فيستحيل إطلاقه على الله.

فصحح القرافي هذه التعريفات مبينا أن ما ذكره النصراني تعريف للممكن والواجب، إذ الممكن هو: ما يفتقر في وجوده لغيره، والواجب: ما لا يفتقر لغيره بوجه من الوجوه، ثم قال: «بل الجوهر والعرض كلاهما من أقسام ما يفتقر في وجوده إلى غيره، فنتبرع للنصارى الآن بتفسير هذه الحقائق:

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٩٠.

الجوهر هو: المتحيز لذاته الذي لا يقبل القسمة، فقولنا لذاته احتراز من العَرض؛ فإنه متحيز لأجل قيامه بالجوهر.

والعَرض: هو المعنى المفتقر إلى متحيز يقوم به، لا أنه يفتقر إليه في وجوده، بل وجود العرض وغيره من الله تعالى.

إذا تقرر هذا ظهر خطؤهم في إطلاق لفظ الجوهر على الله تعالى، فظهر بطلان تفسيرهم للجوهر والعرض»[١].

وأيضا عرف لفظ الروح ليبيّن أن معنى الروح الذي جاء في القرآن في حق عيسى -عليه السلام- ليس المراد منه ما يعتقده النصارى،[٢] وغيرها من التعريفات التي تعيد النقاش إلى مجراه الصحيح.

فالقرافي ببيانه للخلط الذي وقع فيه النصراني، في لفظي الجوهر والعرض، وتعريفهما بتعريف الواجب والممكن وضع يده على اللبس الذي وقع فيه النصراني، فظهر أن النصراني قد وقع في الخطأ لفظا ومعنى حيث أطلق لفظ الجوهر على الله تعالى، وهو لا يعرف معنى الجوهر، ومن المعلوم أن هذا اللفظ لم يرد أصلا في الكتب المقدسة عند النصارى أو في القرآن الكريم اسما لله تعالى، وهو من الألفاظ المستحدثة التي يستخدمها أهل فن معلوم، وهم المناطقة، فاستخدامه لهذا اللفظ يفترض أن يكون وفق ما تعارف عليه أهل ذلك الفن.

ولو أن النصراني قال أن مفهومه للجوهر والعَرض هو ما ذكره دون أن يخطِّئ الآخرين في تعريفاتهم لهان الأمر، ولاعتبر مصطلح خاص به، وضعه لنفسه، حتى يخاطب وفق مصطلحه. أما أن يخلط مفاهيم الألفاظ، وينقد مفاهيم الآخرين لهذه الألفاظ فالأمر يكون بذلك قد تعدى من مفهوم خاص إلى مفهوم عام يعني جميع الأطراف، وحينئذ لا بد من ضبط هذه الألفاظ بضوابط ثابتة متفق عليها، حتى يمكن الوصول إلى نتيجة صحيحة.

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٦٩، وانظر أيضا ما قبلها.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٢.

ر/ مجاراة الخصم:

المقصود بمجاراة الخصم: التسليم للخصم ببعض مقدماته بهدف تبكيته وإثبات أن هذه المقدمات ليس بالضرورة أن تنتج ما يريده الخصم[١].

ومن سلوك القرافي هذا الطريق أن النصراني احتج على القرافي بأن القرآن الكريم دل على تعظيم الحواريين، ومدح النصارى في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين**﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون**﴾[٣]، وهذا المدح والتعظيم دليل على صحة مذهب النصارى، فقال القرافي مجاريا لهم في مقدمتهم ومفندا أن هذه المقدمة لا تنتج بالضرورة ما ذهبوا إليه: «إن تعظيم الحواريين لا نزاع فيه، وأنهم خواص عباد الله الذين اتبعوا عيسى -عليه السلام- ولم يبدلوا ، وكانوا معتقدين بظهور محمد ﷺ في آخر الزمان على ما دلت عليه كتبهم... وإنما كفر وخالف الحادثون بعدهم»[٤].

فالقرافي وافق النصارى بأن الله ذكر الحواريين بالفضل، لأنهم اتبعوا المسيح -عليه السلام- ولكن هذا لا يعني أن النصارى على الحق، لأن الحواريين آمنوا بالله الواحد، ولم يبدلوا ويحرفوا ما جاء به المسيح -عليه السلام- وهم مؤمنون ببشرى

---

(١) انظر: السيوطي، الإتقان، ج٢، ص٣٨٢. الألمعي، مناهج الجدل، ص٨٣.

(٢) سورة الصف، آية:١٤.

(٣) سورة المائدة، آية:٨٢.

(٤) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٣٨-٣٩.

ظهور محمد ﷺ التي بشرهم بها عيسى -عليه السلام- فالحكم ببطلان النصرانية لا يسري عليهم بل يسري على النصرانية المحرفة التي قالت بالتثليث والحلول والاتحاد وغير ذلك من المسائل العقدية والشعائر التعبدية التي ما أنزل الله بها من سلطان.

«وأما مدح النصارى بأنهم أقرب مودة وأنهم متواضعون فمُسلَّم، لكن هذا لا يمنع أن يكونوا كفرة مخلدين في النار، وغضب الجبار، لأن السجايا الجليلة، والآداب الكسبية تجتمع مع الكفر والإيمان: كالشجاعة، والظرف، واللطف، وجودة العقل، فليس فيه دليل على صحة دينهم»[(١)].

فالقرافي يقبل بالمقدمة التي يتمسك بها النصارى في سبيل تصحيح دينهم، ولكنه في الوقت ذاته ينفي أن تكون هذه المقدمة كافية للنتيجة التي توصلوا إليها، ألا وهي صحة معتقدهم، وذلك أن ما جاء في الآية هو مدح للخُلق الذي تميز به رجال الدين النصراني، من البُعد عن التكبر، وكونهم أقرب مودة للمسلمين من المشركين واليهود، وهذه الميزة لا تجعل دينهم الذي حرفوه حقا يجب اتباعه، لأن من الناس من تجد فيه بعض الخصال الحميدة وهو كافر لا يؤمن بالله، ولا يدين بدين أصلا.

هذه كانت أبرز أنواع الاستدلال بالأسلوب العقلي في دعوة النصارى عند القرافي، بالإضافة إلى إبرازه لمحاسن التشريع الإسلامي وحكمته، و إبراز اعتمادهم على الخرافات بعض الأحيان بشكل محدود[(٢)].

---

(١) المصدر السابق، ص٥٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣-٢٥ , ٢٧، ١٥٧، ١٦٧.

المطلب الثاني

قيمة الاستدلال بالمعقول عند القرافي في دعوة النصارى

للاستدلال العقلي أهميته في إقناع المدعو النصراني وغيره بالإسلام، وبالنظر إلى أنواع الأساليب العقلية المتعددة والمتنوعة التي سلكها القرافي -رحمه الله- يمكن القول بأنها كانت ذات قيمة دعوية معتبرة.

والإمام القرافي وإن كان يصف النصارى بأنهم ليسوا أهلا لإدراك الطرق العقلية وأساليب الإقناع المعتمدة على النظر والاستدلال بقوله: «وأما سلوك طريق الأنظار العقلية، وبيان المدارك القطعية فليس القوم أهلا لذلك...»(١) [وذكر مثالا لذلك عجزهم في تصوير دينهم] إلا أنه في الوقت نفسه سلك في خطابهم الطرق العقلية إبلاغا لدعوة الإسلام بكل الطرق الممكنة، وإعذارا أمام الله، فلا يكون للنصارى حجة على المسلمين، و«لعل الله يجعل ذلك تنبيها لبعض الغافلين»(٢)؛ فيهدي بهذه المحاولات بعض من أراد لهم الخير، ممن يحرصون على قبول الحق، ويطلقون الحرية لعقولهم أن تتفكر، ولا يلزمونها بدين آبائهم لمجرد العصبية والهوى.

وقد استخدم القرافي قياس الشمول وأورد هذا النوع من الاستدلال بناء على استدلال النصارى ببعض الحقائق التي جاء بها القرآن الكريم وقبولهم بها، مع رفضهم الحقائق الأخرى التي جاءت فيه مما لا يوافق مذهبهم، فبيّن لهم بواسطة القياس بطلان دعواهم، ولا يمكن لمعترض أن يقول: إن هذا القياس يمكن أن يقلب على المسلمين بسبب استدلالهم ببعض الحقائق التي جاءت في التوراة والإنجيل مع رفضهم بعضها الآخر مما لا يوافق مذهبهم؛ وذلك لأن الفرق واضح والبون شاسع، فالمسلمون يؤمنون بأصل التوراة والإنجيل، وبرسالة موسى وعيسى -عليهما السلام- ويقولون بتحريف هذه الكتب، ويرون أن ما وافق منها لما جاء في القرآن والسنة فهو حق، بينما النصارى ينكرون أصل رسالة محمد ﷺ، فأنّى لهم أن

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٦.

يستدلوا بما ليس له عندهم أصل من الوحي والرسالة، فالحجة هنا ملزمة للنصارى.

وتمثيل القرافي أمر نزول القرآن بلغة العرب على نزول التوراة والإنجيل بلغتين خاصتين بأقوام محددين، مع عدم إنكار النصارى لمن آمن بهما من غير أهل لغتهما، داعيا لأن لا يُنكر أيضا أن نزول القرآن بلسان عربي ويكون المطالبين به جميع البشر، فمثّل القرافي القضية للنصارى بأمر معلوم عندهم ومسلّم به لديهم. وقد فعل الشيء نفسه أيضا في معجزات إحياء الموتى التي ثبتت لديهم لغير المسيح -عليه السلام- ولم يقل أحد بألوهية هؤلاء أو بنوتهم لله سبحانه وتعالى، فالتمثيل هنا واضح، ولا يمكن للنصارى أن يجيبوا على ذلك إلا أن ينتقلوا إلى أدلة أخرى يجادلون بها ليطيلوا عمر الباطل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

وأفاد القرافي في استخدامه لقياس الأولى من قوله تعالى: ﴿**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**﴾[1]، فإذا كانت علة بنوة المسيح -عليه السلام- وعبوديتهم له ولادته من غير أب، فالعلة متحققة في غير المسيح -عليه السلام- وهو أبو الأنبياء آدم -عليهم السلام- بل زاد على المسيح -عليه السلام- بكونه خُلق من غير أم أيضا، فهذه العلة غير كافية لما ذهب إليه النصارى، وإلا قالوا في آدم -عليه السلام- بأكثر مما قالوه في عيسى -عليه السلام- ، وما داموا لم يقولوا ذلك، فالعقل يقول بتهافت عقيدتهم وآرائهم.

ومثل ذلك في تعظيمهم الصليب الذي قالوا إن سبب تعظيمهم له صعود المسيح منه إلى السماء، فإن الأولى أن يعظم القبر الذي تدل نصوص كتبهم بأن المسيح -عليه السلام- صعد منه إلى السماء -حسب زعمهم-، فالقواعد العقلية تقول: إن العلل التي بنوا عليها مذاهبهم تجعل خلاف ما يعتقدون أولى بالاعتقاد مما يعتقدون.

وركز القرافي -رحمه الله- على التناقض الذي يعم الديانة النصرانية في جوانب متعددة، وبخاصة تناقض نصوص كتابهم المقدس، والنصوص الأخرى التي

---

(١) سورة آل عمران آية: ٥٩.

تواطؤوا على وضعها، وهذا التناقض يثبت للمدعو أن الديانة النصرانية فيها خلل واضح في مصادرها؛ مما يتطلب من أهل هذه الملة التفكير بجدية لمعرفة أسباب هذا الخلل الذي لا بد وأن يكون عائدا إلى التحريفات والتبديلات التي طالت كتبهم، ويصدُق قول المسلمين في ذلك، فلو كان من عند الله لما وُجد فيه هذا الاختلاف، ولكنه لما لم يكن من عند الله ظهرت هذه الخروقات، فقد قال تعالى في حق القرآن: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾[1]، فيظهر بذلك صحة دعوة الإسلام، وفساد النصرانية، وما على المدعو إلا اتباع الحق، وبخاصة أن التناقض لم يقف عند نصوص مصادر الديانة النصرانية فيما بينها، بل إن معتقدات الديانة النصرانية تناقض بداهة العقول كالقول أن الثلاثة تساوي واحدا، وتجعل كلا من الوالد والمولود خالق كل شيء، فكيف يتصور أن يخلق كل واحد منهما ما خلق الآخر ذاته، دون أن يتعدد المخلوق أو يتغير، ودون أن يشتركا في خلقه، وكيف يتصور أن تنتقل صفة من صفات الله تعالى إلى خلق من مخلوقاته دون أن تفارقه، وغير ذلك من المحالات العقلية التي تناقض أبسط القواعد العقلية.

واستقراء نصوص العهد القديم والجديد كفيل بإعطاء صورة متكاملة للتباين والتنافر الواضح بين هذه النصوص، فمنها ما يدعو إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، ومنها ما يدعو إلى تأليه المسيح -عليه السلام-، كما أن عقيدة صلب المسيح -عليه السلام- حسب زعمهم- غير واضحة في النصوص التي تذكر الحادثة، فهي تحتمل احتمالات كثيرة تُرجح عدم صلب المسيح -عليه السلام-، بالإضافة إلى كون هذه النصوص تفقد سندا متواترا، مما يجعلها تنزل عن مرتبة اليقين إلى مرتبة الشك، ولا تبنى الأديان والمعتقدات بمجرد الوهم والتخمين.

ولا تصمد معتقدات النصارى أمام المعارضات التي توجه إليها، ولا يمكنهم الإجابة عن هذه المعارضات بما يوافق ثوابت مذهبهم، فهم مثلا: لا يجدون إجابة

---

(١) سورة النساء، آية ٨٢.

على نصوص كتبهم الداعية إلى الإيمان بوحدانية الله، وعبودية المسيح -عليه السلام- لله، وبشريته إلا أن يتحكموا، ويؤولوا بما يخالف العقل والمنطق، -وهذا دينهم- وعجزهم عن الإجابة هو المطلوب الدال على فساد مذهبهم.

وقد أبرز القرافي -رحمه الله- تحكمات رجال الدين النصارى التي أصبحت قاعدة ثابتة ودينا يدان به في النصرانية، ولا ريب أن الدين الذي تسيطر عليه تحكمات البشر وأهواؤهم لا يستطيع أن يصمد أمام الحجج العقلية، فإن الإنسان مهما بلغ من العلم والمعرفة، فإنه لا محالة ناقص، فإن لم يظهر هذا النقص للبعض فإنه لن يخفى عن الجميع، فالفرق ظاهر بين تشريعات البشر الناقصة، وتشريعات رب البشر الكاملة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وما مصيبة التوراة والإنجيل إلا من التحريفات التي طالتها، وتحكمت في نصوصها، وشروحها وتفسيراتها.

وجعل القرافي من السبر والتقسيم مصيدة محبوكة الخيوط لا يمكن للنصارى أن يفلتوا منها إلا أن يسلموا بالوجه الصحيح للقضية، ويرفضوا ما دونها، فيقولوا بوحدانية الله تعالى، وببشرية المسيح -عليه السلام- وينفوا ألوهيته وبنوته لله تعالى، فإذا فعلوا ذلك لم يجدوا بدا من التسليم ببطلان مذهبهم وصحة عقيدة الإسلام، فيتبعوا الحق، وينبذوا الباطل.

وبالمقارنة بين قول المسلمين في وصف الله تعالى بصفات الكمال اللائقة به، وتعظيم المسيح -عليه السلام- واحترامه وإعطائه حق النبوة والرسالة، والإيمان بما أوتي من معجزات باهرة أيدت رسالته، وبين تأليه النصارى عيسى -عليه السلام- والقول بصلبه وإهانته ودفنه وموته...الخ مع كونه إله العالمين أوضح القرافي نقاء العقيدة الإسلامية وصفاءها، وسخافة العقيدة النصرانية وضلالها.

وبمقارنته بين محاسن التشريع الإسلامي وما تميز به من فضائل وكمال وبين الشرائع التي سبقته، ومقارنته بين طريقة نقل كتاب النصارى المقدس وضبطه وبين نقل المسلمين لمصادر دينهم واهتمامهم بصحة النقل في أبسط كتب الحديث،

ومقارنته بين عقائد المذاهب النصرانية فيما بينها، وكذلك مقارنته بين ما عليه النصارى من واقع الحروب الدينية التي يديرونها، وبين ما يأمرهم به دينهم من نبذ القتال أظهر القرافي فضل الإسلام على غيره، وصحة القرآن والسنة، واضطراب الديانة النصرانية في مصادرها وعقائدها وتشتتها، وبلوغ التحريف القولي والعملي منها مبلغه، وهذه النتائج كفيلة بإظهار فساد الديانة النصرانية وصلاح العقيدة الإسلامية، ومن ثم إقناع المدعو النصراني بذلك.

ويعد التحدي الذي قام به القرافي في بعض المواقف سلاحا خطيرا قد يرتد على صاحبه إن لم يكن واثقا من إمكاناته، ومدركا لحقيقة المعلومات التي يمتكلها. فأن تطالب خصمك بأن يجد دليلا واحدا يؤيد مذهبه في قضية من القضايا من مصادره التي بين يديه؛ فإن ذلك يعني أنك لا بد وأن تكون قد اطلعت على مصادره المعتمدة، ودققت النظر فيها، فالأمر لا يحتمل غير احتمالين، إما أن يخرق المتحدَى التحدّي، أم لا، فإن فعل فقد وقعت الحجة على المتحدّي، وخسر الجولة، أما إن أخفق المتحدَّى في خرق التحدي فقد ألزم بنقض مذهبه، إذ لا دعوى مقبولة بغير دليل.

وألزم القرافي -رحمه الله- النصارى بقواعد عقلية خالفوا فيها الرأي السديد، ومن ذلك أنه بيّن لهم أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول، وصريح العقل حجة على العقلاء.

ويفترض أن تكون مسلمات الخصم ثوابت لا ينفصل عنها وإن كانت دليلا عليه، والاحتجاج على الخصم من مسلماته طريق قويم مفحم للخصوم، فإنه إن تنصل من مسلماته هدم دعواه تلقائيا، وإن ثبت عليها فعليه القبول بنتائجها وإن كانت خلاف مذهبه، فإذا أنكر النصارى أن يتبع كل من لم تكن لغته اللغة التي جاء بها الإنجيل، لم يجدوا أحدا مطالبا بالإيمان بالديانة النصرانية بعد اندثار لغة الإنجيل الأصيلة، وإن لم ينكروا ذلك صار إنكارهم مخاطبة رسالة محمد ﷺ غير العرب باطلا لا يقوى على الدليل. وكذلك إذا أنكر النصارى نسخ تزويج آدم أبناءه

بعضهم ببعض فقد أبطلوا ما جاء في كتبهم المقدسة، وإن لم ينكروا ذلك لزمهم الإيمان بمبدأ النسخ في الشرائع، وقبول الإسلام ناسخا للشرائع التي سبقته.

وبالتسليم الجدلي يتبين تهالك رأي الخصم من مبدئه إلى منتهاه، فإن سلّم بأن أوله حق -وإن لم يكن كذلك- فظهور الباطل في آخره دليل على أن هذا الطريق من الأساليب العقلية يؤكد أن الرأي الباطل لا يفارقه البطلان وإن تم التجاوز عن بعض مقدماته الباطلة، ولذلك تمكن القرافي من إبطال تأييد القرآن للدين النصراني، واتحاد كلمة الله بعيسى -عليه السلام-.

وعندما يُقلب الدليل على الخصم يصبح الخصم فارغا من أي دليل يؤيد مذهبه، بل يجعله كالمحتج على نفسه بدلا من الاحتجاج لها، وهذا يدل على ضعف الأدلة التي يعتمد عليها الذي يُقلب الدليل عليه، لأن إمكان قلب الدليل على المستدل يدل على غفلته من إدراك حقائق مذهبه، ولوازم أوجه الدليل الذي ساقه. وقد كان استدلال النصراني بآية من القرآن الكريم على تفضيل الكنائس النصرانية على غيرها من دور العبادة مع أن من أوجه دلالات الآية تقديم المساجد التي يذكر الله تعالى فيها كثيرا على غيرها من أماكن العبادة دليلا واضحا على قصر فهم النصراني بمراد الآية وأوجه دلالاتها وفقا لقواعد اللغة العربية وأساليبها، وأقوال المفسرين، وكذلك حين بث النصراني شبهات حول القتال والجهاد في الإسلام وغفل عن تلبس النصارى بالحروب الدينية مع عدم مشروعيتها في دينهم، بل نهيهم عنها، دل على الغفلة عن لازم الدليل الذي ساقه، والجهل بما يحوي مصدر ديانته وواقع حال أبناء ملته.

والديانة النصرانية مليئة بالأحداث التاريخية التي تشهد على ما اعتراها من تحريفات وتبديلات وتحكمات ليس لها مثيل، فبدءا من إفساد بولس لعقيدة النصارى بالتثليث وادعاء بنوة المسيح -عليه السلام- لله تعالى، ومرورا بالمجامع المتعددة التي كانت تعقد بين حين وآخر لتخرج بعقائد جديدة نابعة من تحكمات رجال الدين النصراني وملوكه، يتبيّن للعاقل أن النصرانية لم تثبت على الأسس التي تركها

المسيح -عليه السلام-، والتاريخ يشهد أن نقل الإنجيل لم يتم بطريقة دقيقة ومضبوطة، وليس له سند معتبر، وجُل مبادئهم وعقائدهم مبنية على منامات زعم بولس وقسطنطين وغيرهما من رجال الدين أنهم رأوها، فاستحسنوا الأخذ بها، لذلك فإنه لا يُعقل أن ينسب الدين النصراني بكل ما يحمله من تناقضات وخرافات إلى وحي الله سبحانه وتعالى، مع ما أثبتته الوثائق التاريخية من أحداث تؤكد وقوع التحريف والتبديل في شريعة الديانة النصرانية.

ويطالب القرافي -رحمه الله- المدعو بأن يأتي بأدلة مقبولة على الدعاوى والمعتقدات والشعائر التي يتمسك بها، فإن الدعوى التي لا يصاحبها دليل يثبتها سواء أمن العقل أم النقل فإنها قول من الأقوال لا يلزم الأخذ بها، ولا يجوز الاعتقاد بصحتها والعمل بمقتضاها واتخاذها دينا يدان به، فشعيرة التعميد، وتحديد وقت الصيام، وتحليل بعض الأطعمة التي جاء تحريمها في التوراة وأحلها النصارى مثلا ليس لها دليل ثابت من الأناجيل المعتبرة عندهم، وما دام الأمر كذلك فالحكم بالبطلان على كل ما لم يثبتوه بالدليل أمر محتوم، وما أكثر مثل هذا في هذه الديانة؟ فهذا الطريق إذن مفيد في إثبات البدع التي أدخلوها في الديانة النصرانية، وإظهار مدى انضباط هذه الديانة بالبراهين والحجج الثابتة.

وتظهر قيمة الاستدلال بالتعريف في إيضاح المراد من الألفاظ المتداولة وتوحيدها بين الداعية والمدعو، فتبيين المراد من معنى النسخ والبداء مثلا أوضح الفرق بين هذين اللفظين، وأن النسخ غير مطابق لمعنى البداء والندم، ولا يستلزمه في حق الله تعالى، ولو افترض أن يستمر النقاش دون أن يكون هذا المعنى واضح الصورة في ذهن كلا الطرفين فإن النقاش لا بد وأن يكون عقيما؛ لأن كلا من الطرفين سيكون تصوره للقضية المطروحة غير تصور الآخر، فلا يصلان إلى نتيجة موحدة، ويظلان يراوحان في مكانيهما دون تقدم يذكر، وكذلك الأمر نفسه في تعريف القرافي للجوهر، والعرض، والممكن والواجب.

«وفي مجاراة الخصم اجتذاب له، وإذا سلمت بعض مقدماته فعليه أن يُسلِّم

بالنتائج الصحيحة وإلا وقع في الإلزام»[1]، وقد أظهر القرافي فشل مقدمات النصراني في إثبات عقيدته وتصحيح دينه، ذلك أن الآيات القرآنية التي جعلها النصراني مقدمة لصحة دينه لا تسلتزم ذلك، بل تستلزم صحة الإسلام، فعلى المدعو إذن التسليم بالنتيجة الصحيحة التي ظهرت من المقدمة التي بنى عليها النتيجة الخاطئة، وإن رفض فقد اتبع الهوى وجانب المعقول.

---

(١) د. زاهر الألمعي، مناهج الجدل، ص٨٤.

المبحث الثالث

أسلوب القرافي العاطفي والفني وقيمتهما في دعوة النصارى

المطلب الأول

الأساليب العاطفية

(١) أنواع الأساليب العاطفية عند القرافي في دعوة النصارى:

تمثلت الأساليب العاطفية التي سلكها القرافي في دعوة النصارى في النقاط الآتية:

أ/ الترغيب والترهيب:

استخدم القرافي -رحمه الله- الترغيب والترهيب في دعوة النصارى في بعض المواقف، وقد كان الترغيب والترهيب منصبا بحظوظ الآخرة، من السعادة الدائمة في الجنة لمن اتبع الحق، والوقوع في عذاب النار لمن أبى وعاند، فقال مخاطبا النصارى: «فمن أراد الهدى فطريقه واضحة، فليأخذ سبب النجاة قبل الموت، ويستدرك للسعادة قبل الفوت، فما بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار، وليس عند العاقل أهم من سعادة نفسه، فليحصلها قبل حلول رمسه، والله تعالى المعين على الخير كله»[1]، ويقول بعد ذلك بقليل: «فيظهر من هذا القطع بنجاة المسلم قطعا، ويتعين غيره للضرر والخطر قطعا، فليبادر كل عاقل حينئذ للإسلام فيدخل الجنة بسلام»[2].

ويفيد القرافي من نصوص الإنجيل في تخويف النصارى من جريمة التلاعب بكتاب الله سبحانه وتعالى والتحكم فيه بالتحريف والتبديل، باعتبار أن تخويفهم بما يعتقدون صحته أكثر تأثيرا من تخويفهم بكلام من خارج الكتاب الذي يؤمنون به ويسلمون على أنه حق، فقال: «ومتّي يشهد عليكم وإنجيله يسير باللعنة إليكم، فإنكم تقرّون فيه أن كل من حل في التوراة حرفا واحدا أو نقطة واحدة ملعونا يكون في السماء والأرض، وأهون عند الله نقض السموات والأرض، من نقض حرف واحد

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٣١.

من التوراة[١]، فكم نقضتم أنتم من كلمة، وكم تركتم من الأوامر المحكمة واتبعتم آراء السفهاء الظلمة»[٢].

فالقرافي يركز على الجانب الأخروي في حصول الخير لمن اتبع الهدى، ووقوع الشر على من أعرض عن الحق، وهذا هو الأصل بطبيعة الحال، والنص الذي نقله من الإنجيل فيه إشارة أيضا إلى العقاب الدنيوي؛ لأن فيه تصريحا بوقوع اللعنة في الأرض، أي والإنسان في الحياة الدنيا، وماذا عسى أن يكون حال الذي تقع عليه لعنة الله في الدنيا؟ فإنها أسوأ حال وأرذلها نسأل الله السلامة من ذلك.

ب/ السخرية والتهكم:

سخر القرافي -رحمه الله- من عجائب عقائد النصارى وأقوالهم وأفعالهم التي يأتونها في مواقف كثيرة، وبلغ به الحال في بعض الأحيان أن ساواهم بالبهائم والأنعام[٣]، ولما رأى سوء أدبهم مع إلههم وهم يدعونه ويسألونه النجاة في صلاة الساعة السادسة قائلين: «يا من سمرت يداه على الصليب من أجل الخطيئة... يا من سمر على الصليب وبقي حتى لصق على الخشبة بدمه...أسألك بالمسامير التي سمرت بها»[٤] سخر منهم بقوله: «فليت شعري من علمهم الأدب مع إلههم حتى يثنون عليه بصفات الكمال ونعوت الجلال، ويتقربون إليه بذكر أفضل الأحوال»[٥] فهذه -طبعا- ليست أفضل الأحوال ولا صفات الجلال والكمال، ولكن القرافي أراد

---

(١) النص في الترجمة الحديثة: «فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكُل، فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلّم الناس هكذا يدعى أصغَر في ملكوت السموات» متى٥/١٨-٢٠.

(٢) القرافي، أدلة الوحدانية، ص٥٨.

(٣) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٦٤و١٥٨.

(٤) المصدر نفسه، ص١٧١.

(٥) المصدر نفسه، ص١٧١.

من هذا القلب السخرية والاستهزاء؛ ليبين أن القوم لا يحسنون التأدب مع من يعبدونه، ولا يعطونه حقه من الإجلال والإكرام، ولا يفرقون بين صفات الكمال التي ينبغي أن يوصف بها خالق كل شيء، وصفات المخلوقين الناقصة في جميع الأحوال.

ولما رأى إصرار النصارى على أن القول بالتثليث لا يعني القول بثلاثة آلهة قال ساخرا من هذا الرأي: «ولا شك أن النصارى لغلبة الجهل عليهم لا يفهمون معنى الإله، ولا أي شيء هو الموجب لاستحقاق العبودية، فلذلك عبدوا ثلاثة آلهة وهم لا يشعرون!! فهم كمن لا يفهم حقيقة القتل، ثم يقتل، ثم ينكر على من ينسب له العمل ويتعجب منه ويغلطه!! فينبغي لهذه الطائفة النصرانية أن تبكي وتنوح على فقد العقل قبل فقد الدين، فإذا وهبها الله عقلا سألت عن حقيقة الألوهية حتى تعلمها بحدودها وشروطها وخصوص ماهيتها....»[(١)].

وفي أثناء مقابلته الإسلام بغيره من الأديان في نظافة الظاهر والباطن صور القرافي النصارى وبخاصة رجال الدين منهم بصورة ساخرة تدعو إلى الاستخفاف، والنفور عنهم، فقال: «بينما يقف الراهب يناجي ربه ويمتثل بين يديه لخطابه والعذرة قد تحجرت على سوأته، والقاذورات قد غلبت على أطرافه وسحنته، حتى لو وقف ذلك الراهب قدام شيخ الضيعة لمقته وقبّح حالته فكيف بملك الملوك ورب الأرباب؟...

فإن كان النصراني لا يدرك الفرق بين هاتين الشريعتين ولا بين الهيئتين فهو معذور؛ لأنه فسد مزاج دماغه بروائح العذرات، وعمي قلبه بملابسة القاذورات في المطعومات والمشروبات حتى إنهم يقولون ليس ثمة نجاسة ألبتة؛ وبمثل هذا وأقل منه تعذر الناس في فساد عقولهم»[(٢)].

فقد صور القرافي هنا رجل الدين النصراني بصورة ساخرة مضحكة تدعو إلى الاشمئزاز، وجعل سبب تفضيلهم الباطل على الحق سوء فهمهم وضعف عقولهم

---

(١) المصدر السابق، ص٦١.

(٢) المصدر السابق، ص٧٤.

التي أثر عليها تلوث البيئة التي من حولهما لقلة نظافتهم، وهذا ليس من باب الحقيقة، إذ لم يكن سوء نظافتهم السبب في ضلالهم إلا أن القرافي أراد أن يسخر منهم ومن ترهاتهم العجيبة.

ج/ القسم:

أقسم القرافي -رحمه الله- في مواقف محدودة في أثناء توجيه خطابه إلى المدعويين من النصارى، وذلك لتوكيد كلامه وتثبيته في ذهن المتلقي، ومن ذلك أنه أقسم بالله على ضعف نقل الإنجيل عن مصدره الأصيل، قائلا: «حتى أني أحلف بالله الذي لا إله إلا هو أن تاريخ الطبري[*] عند المسلمين أصح نقلا من الإنجيل! ويعتمد العاقل عليه أكثر، مع أن التاريخ لا يجوز عند المسلمين أن يبنى عليه شيء من أمر الدين، وإنما هو حكايات المجالس»[1].

وفي موقف آخر يقول: «ولعمري إن هذا لا يرضاه واحد من العوام...»[2]، أي ما نسبوه إلى الله من اتخاذ الابن، وتعرضه للذل والهوان وأنوا ع النكال والسباب.

د/ الأشعار والأمثال السائرة:

زين الإمام القرافي -رحمه الله- حديثه مع النصارى بزينات من الأبيات الشعرية والأمثال العربية السائرة، -وإن كانت غير كثيرة- وقد كان بعضها بيانا لحيرته من أقوال النصارى الغريبة، أو تصويرا لحال النصراني الذي خاطبه، أو من باب التهكم والاستهزاء، أو غير ذلك من أنوا ع الاستئناس، والاستشهاد.

ومن الأبيات الشعرية التي ذكرها في أثناء رده على رفضهم اتبا ع محمد ﷺ زعما منهم أنه لم يرسل إليهم ولم يقفوا على كتابه بلسانهم، قوله:

(*) يقصد بذلك كتاب: تاريخ الأمم والملوك، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، المتوفى سنة ٣١٠هـ -رحمه الله-.

(١) المصدر السابق، ص٥١.

(٢) القرافي، أدلة الوحدانية، ص٦٩.

وليس يقر في الأذهان شيء   إذا احتاج النهار إلى دليل[(١)]

فهنا يتعجب القرافي من عناد النصارى، واستمرارهم في إنكار دعوة الإسلام مع بلوغ الأدلة وضوحا لا ينكره إلا من ينكر وجود الشمس في وضح النهار، فماذا عسى أن يثبت في أذهان الذين ينكرون البدهيات العقلية والبراهين الساطعة.

ويقول مصورا ظنون النصارى الخاطئة وشبههم الداحضة، المعتمدة على أوهام ظنوها حقا، ومن ذلك قياسهم اختلافات أناجيلهم باختلاف القراءات السبعة للقرآن الكريم بل العشر[(٢)]، فقال مبينا سوء فهمهم:

«أكل امرئ تحسبين امرءا   ونارا توقّد بالليل نارا»[(٣)]

وذكر الأبيات التي ذكرها القرطبي أيضا والتي مطلعها:

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٥٩. والبيت لأبي الطيب المتنبي، وجاء بلفظ وليس يصح في الأفهام شيء...الخ، وكذلك، وليس يصح في الأذهان شيء...الخ، انظر: ديوان المتنبي، ص٣٤٢،ط، دار الجيل، بيروت. وعبد الله بن خميس، الشوارد، ج٢، ص٤١٤.

(٢) قيل أن القراءات هي لغات العرب، واختلف في تعيينها، وقيل غير ذلك، وذهب القرافي إلى هذا القول، وقال إنه لما كانت العرب مختلفة اللغات في الإمالة والتفخيم، والمد والقصر، والجهر والإخفاء، وإعمال العوامل، فخفف الله عنهم بإنزال القرآن على سبع لغات. انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٢٧-١٢٨. وللاستزادة انظر: محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج١، ص٢٤-٢٦، ط١، دار الباز، مكة المكرمة.

(٣) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٢٧. والبيت لعدي بن زيد العبادي، انظر: ديوان عدي بن زيد العبادي، ص١٩٩، جمع وتحقيق: محمد جبار المعيبد، ط، دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، ١٩٦٥م، وقال المحقق أن هذا البيت ينسب أيضا لأبي دؤاد الإيادي، وبه قال حسن الكرمي، في كتابه قول على قول، ج٣، ص٧١، ورواه بلفظ تُحرّق بدلا من توقّد،

«عجبي للمسيح بين النصارى وإلى أي والد نسبوه؟»[(١)].

وقال: «وهذه الأبيات برهان قاطع على النصارى لا يحتاج معها إلى شيء آخر، فلقد أصبحوا هزءة للناظر، ومصنعة للمُناظر...»[(٢)]، فقد عدَّ القرافي هذه الأبيات من باب الاستهزاء والسخرية بهم، بعد أن رفضوا البراهين القاطعة، وتمسكوا بالأوهام، والشبه الواهية.

أما من الأمثال السائرة التي ذكرها القرافي بين حين وآخر، ما تمثله بالقول السائر: لا يعرف هرا من بر[(٣)] ساخرا من عقول الأساقفة الذين يريدون أن يتصرفوا تصرف رب الأرباب بالعباد، رغم إطباق الجهل على عقولهم، وضحالة أفهامهم. وتمثَّل بالقول السائر: تفرقوا أيدي سبأ أو أيادي سبأ[(٤)] لإبراز التفرق الشديد الذي يطالعه المرء في أناجيلهم وشرائعهم وأحكامهم ومذاهبهم[(٥)].

---

(١) سبق ذكر الأبيات كلها، وتم الحديث عنها في ص٢٦٩-٢٧٠، من هذا البحث.

(٢) القرافي الأجوبة الفاخرة، ص٨٩، وقال في ص.١٥ «ومضغة للمناظر» بدلا من «ومصنعة»، ولا أدري بالضبط هل يريد أنهم أصبحوا في سهولة تناولهم كالمضغة التي يلوكها المرء، أم المقصود المَصْنَعة التي هي «الدعوة يدعى إليها الإخوان» أي أن مناظرتهم وليمة يدعى إليها الإخوان للنظر في تهافت النصرانية، أم يريد المعنيين.

انظر في معنى «مصنعة»: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٢، ص٩٩١، مادة (صنع).

(٣) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢٢. ومعنى المثل أنه لا يعرف «ما يهره مما يبره، أو القط من الفأر، أو دعاء الغنم من سوقها، أو دعائها إلى الماء من دعاءها إلى العلف، أو العقوق من اللطف، أو الكراهية من الإكرام، أو الهرهرة من البربرة.» الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٤٤٩، مادة (برر).

(٤) أي تبددوا، وضرب المثل بهم لأنه لما غرق مكانهم وذهبت جناتهم، تبددوا في البلاد، الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج١، ص١٠٧، مادة (سبأ).

(٥) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٥١.

ولما رأى القرافي ضعف الشبهات التي أثارها النصراني الذي حسبها قوية مع أنها ليست كذلك، ومنها تشبيهه اختلافات الإنجيل باختلاف القراءات العشر عند المسلمين، تمثّل بالمثال القائل: «ما كل سواد فحمة، ولا كل بيضاء شحمة»[1].

وبهذه الأمثال يصور القرافي تشبث النصارى بعقيدتهم الفاسدة اعتمادا على الشبهات الضعيفة والأوهام الهزيلة، فهم لم يتحققوا من حقيقة الشبهات التي بين أيديهم، كالناظر الذي ينظر إلى الشيء عن بعد ولا يفرق بين الفحم وغيره من المواد السوداء، ولا بين الشحم وغيره من المواد البيضاء، فهو غير متيقن مما ينظر إليه، فأنى له أن يدين به.

هـ/ التلطف في الخطاب:

لم يكن خطاب الإمام القرافي -رحمه الله- الموجه إلى النصارى يغلب عليه سمة اللطف، بل أغلبه كان شديد اللهجة مليئا بالسخرية والاستهزاء، والتجهيل والسب في بعض الأحيان، وأهدأ خطاب وجهه إلى النصارى كان في رده على اعتقادهم الممازجة بين القديم والمحدث حيث قال: «فيا معشر النصارى لو أنكم أمعنتم النظر في قول سليمان بن داود -عليهما السلام- في الجامع الذي عندكم وعند اليهود لاستحييتم في قولكم هذا من الخلق، وأذعنتم من التسليم إلى الحق، فإنه يقول فيه: «ما كان من أول العالم هو إلى يومنا هذا وليس جديد تحت

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٢٧. والمثل جاء بلفظ: «تمرة» بدلا من «فحمة»، ويضرب في موضع التهمة وعدم اليقين، وفي اختلاف الناس وطباعهم، انظر: أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، مجمع الأمثال، ج٢، ص٣٠٧، ط، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٢م، بيروت. ود. عفيف عبد الرحمن، معجم الأمثال العربية القديمة، ج٢، ص٨٦٧، ط١، دار العلوم، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

السماء»[١]»[٢].

فهو يحضهم ويدعوهم إلى النظر في كتابهم المقدس، الذي فيه نفي لإله جديد محدَث دون تعنيف أو تشديد.

و/ الإنكار:

شنّع الإمام القرافي -رحمه الله- على النصارى عقائدهم وأنكر عليهم أقوالهم، بطريق الاستفهام الاستنكاري، فيقول لهم: «فيا معشر النصارى، كيف جعلتم المسيح ابن الله تعالى والله أبا؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولوا إلا كذبا، فجميع الأنبياء مجمعون على رب واحد»[٣].

وفي عدم إيمانهم بمحمد ﷺ بالرغم من النبوءات المبشرة الموجودة في كتبهم، ومنها نبوءة أشعيا قال القرافي: «فما يسع أهل الكتاب إلا الإيمان بذلك، وكيف يؤمنون بأشعيا -عليه السلام- ويكذبون أخباره ويردون أقواله»[٤].

فهو ينكر عليهم اعتقادهم اتخاذ الله سبحانه وتعالى الولد بالرغم من أن جميع الأنبياء الذين ذكروا في كتابهم المقدس يؤمنون بإله واحد الذي لم يلد ولم يولد، كما نفى أن يجتمع الإيمان بنبي ما مع التكذيب للأخبار التي جاء بها، لذلك أنكر على النصارى كفرهم برسالة النبي محمد ﷺ بالرغم من البشارات التي جاءت على لسان الأنبياء الذين يؤمنون بهم، ويعتقدون بتلقيهم الوحي من عند الله تعالى، وقد جاءت هذه البشارات في التوراة المعتمدة لديهم.

---

(١) سفر الجامعة، ٩/١. والنص في الترجمة الحديثة: «ما كان فهو ما يكون والذي صُنع فهو الذي يُصنع، فليس تحت الشمس جديد» والكلام للجامعة بن داود وليس لسليمان بن داود، فقد جاء في الفقرة الأولى من الإصحاح الأول: «كلام الجامعة ابن داود الملك...»

(٢) القرافي، أدلة الوحدانية، ص٧٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٦٣.

(٤) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢١٤.

(٢) قيمة الأسلوب العاطفي عند القرافي في دعوة النصارى:

يرى الإمام القرافي -رحمه الله- أن قيمة الترغيب والترهيب لها علاقة بصنف المدعو، فما كل المدعوين يصلح معهم هذا الطريق؛ ولذلك يعلل كثرة ذكر أحوال الآخرة في القرآن الكريم دون التوراة بقوله: «إن بني إسرائيل كثيفوا الطباع، والتخويف بالمؤلمات المستقبلات، والترغيب بالمثوبات المستقبلات إنما يؤثر في وافر العقل كثير الحزم، متوفر اليقظة، وأما الكثيف الطبع فكالبُهم لا يؤثر في زجرها إلا المنخاس المباشر لجلدها، وأما ما يأتي في غد فلا يؤثر في استصلاحها»[1].

وقد جاءت آيات في القرآن الكريم تؤكد هذا المعنى بخصوص بني إسرائيل كالآيات الدالة على قسوة قلوب بني إسرائيل، بينما آيات أخرى جاءت مبينة أن من النصارى من تذرف عيونهم بالدموع عندما يسمعون الحق مما يدل على تقدمهم على بني إسرائيل في رقة القلوب، قال تعالى في شأن بني إسرائيل: ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكّروا به، ولا تزال تطّلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم، فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين**﴾[2] ، وقال تعالى: ﴿**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة...الآية**﴾[3] ، وقال تعالى في شأن النصارى: ﴿**وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا ءامنا فاكتبنا مع الشاهدين**﴾[4]، وقال تعالى: ﴿**ثم قفينا على ءاثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وءاتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة**

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٠٦.

(٢) سورة المائدة، آية١٣.

(٣) سورة البقرة، آية٧٤.

(٤) سورة المائدة، آية:٨٣.

ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين ءامنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾[1].

فرسالة عيسى -عليه السلام- ركزت على تطهير روح بني إسرائيل وترقيق قلوبهم القاسية وتليينها، فامتاز الذين اتبعوا ما جاء به المسيح -عليه السلام- من الحواريين وغيرهم بالرقة والرأفة والرحمة والشفافية، وكان من النصارى القُسس والرهبان الذين يتواضعون للحق، وقد كانت لبعضهم مواقف إيجابية في عهد الرسول ﷺ فتفاعلوا مع ما أنزل الله من الحق ورقت قلوبهم لها، فتأثروا بها، واتبعوها، ولعل القرافي يطمع في أن يكون في مخاطبيه من يحمل قلبا رقيقا يستجيب للخطاب العاطفي.

إذن فهذه الرقة في القلب تجعل من الحكمة إعطاء مساحة مناسبة للترغيب والترهيب في مخاطبة النصارى، والقرافي -رحمه الله- اختار تخويفهم بعذاب الآخرة وشقائها، وترغيبهم بالسعادة الأبدية فيها، لكي يبادروا إلى ما ينجيهم من العذاب ويدخلهم دار النعيم، والنصارى وإن كانوا ينكرون النعيم الحسي يوم القيامة إلا أن أصل الإيمان بالقيامة وعذابها ونعيمها ثابت عندهم، ومن أصول ديانتهم، فخطابهم بهذا الطريق يمكن أن يأتي بثمار دعوية حسنة.

كما أن اختيار القرافي تخويف النصارى بالنصوص الإنجيلية التي تخوف من التعدي على كتاب الله بالتحريف اللفظي والعملي يمكن أن يجد وقعا مناسبا في قلوب النصارى؛ لأنهم يسلّمون بهذه النصوص، فتذكيرهم بها لا بد وأن يؤثر عليهم.

ويسخر القرافي أيضا من سوء أدب النصارى مع إلههم في أدعيتهم وأذكارهم، وتقربهم إلى الله بهيئات مستنكرة مستقبحة، كما يستهزئ من عقولهم العجيبة التي خالفت أبسط مبادئ المعقولات؛ وذلك من أجل التأثير على عواطفهم ومشاعرهم.

---

(١) سورة الحديد، آية٢٧.

كما أكد خطابه الموجه إليهم بالحلف بالله ليبين بذلك على خطورة موقفهم، وشدة إيمانه بالحقيقة التي تنتظرهم إن أصروا على الكفر، واستمروا في غيهم وعنادهم.

ولما كان الشعر والمثل السائر يتميز باستفاضته في الناس وبُعد سيره في الآفاق، وبقائه على مدى الليالي والأيام وتأثيره في المدح والذم[١] حاول جذب انتباه المستمع بالقول الموزون المقفى من الشعر مصورا به حاله وحال النصارى وحال أقوالهم وشبهاتهم، كما صورها أيضا بالأمثلة السائرة ذات الألفاظ القليلة والمعاني الكبيرة الواسعة التي قد تحمل السخرية والاستهزاء ضمنا.

ولعل القرافي اقتصد في التلطف مع المخاطب -مع أنه هو الأصل- بناء على أن الكلام كان موجها في الأساس على قوم أرادوا تشويه العقيدة الإسلامية فبادروا بالهجوم على الإسلام بإثارة الشبهات ووسمه بالفساد والبطلان، انطلاقا من مجرد الهوى والشهوات، فاشتد غضب القرافي عليهم، وأمطرهم بوابل من الألفاظ القوية المليئة بالسخرية والاستهجان، والتجهيل والإنكار، علّهم يستفيقون من غيهم، وقد ظلموا أنفسهم أولا، وظلموا المسلمين ثانيا بالدعاوى الباطلة، وإصدار الأحكام المتعسفة، فاستحقوا إغلاظ القول، قال تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾[٢]، فقد ذهب أكثر المفسرين في تفسير هذه الآية إلى أن المقصود أن تكون دعوة اليهود والنصارى إلى الله بالخصلة التي هي أحسن، وتنبيههم على براهين الإسلام وحججه الدامغة ، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة، إلا الذين أفرطوا في المجادلة ولم يتأدبوا مع المسلمين، فإن الإغلاظ عليهم ومخاشنتهم في المجادلة لا بأس به[٣].

---

(١) انظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص١٤٣.

(٢) سورة العنكبوت، آية:٤٦.

(٣) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ج٤، ص٢٠٥.

المطلب الثاني

الأساليب الفنية

(١) أنواع الأساليب الفنية عند القرافي في دعوة النصارى:

أ/ تعديد طرق الاستدلال:

يحاول القرافي -رحمه الله- بيان الحق بأكثر من طريق، فهو إن وجد أن قضية ما يمكن بيانها أو الرد على شبهة ما بطريق النقل والعقل، لم يكتف بأحد الطريقين، بل يجمع بين النقلي والعقلي، وقد يجمع أكثر من نوع من أنواع الأدلة العقلية، والنقلية، في قضية واحدة، ففي قضية النسخ مثلا أثبت جواز وقوعها بالأدلة التالية:

* بتعريفه كلمة البداء وتحديده معنى النسخ ومفهومه.
* بالمسلمات التي لدى النصارى واليهود بأن آدم كان يزوج أولاده بعضهم ببعض، أي يزوج الأخ بأخته التي ليست توأمته، وهو محرم اليوم عندهم.
* بالمنقول من نصوص التوراة نفسها، حيث ثبت فيها وقوع النسخ لبعض الشرائع السابقة.
* بإبراز الحكمة من النسخ، وما يحمله من رعاية مصالح الخلق والرحمة بهم، حسب اختلاف أزمنتهم وقوتهم وبيئاتهم، أو لابتلائهم بأمر ما[(١)].

ففي هذه القضية لم يكتف بالأدلة النقلية من نصوص التوراة، بل سعى إلى إبراز خطأ النصارى بأكثر من وجه، فحاجهم بالمعقول من معنى النسخ والبداء، حيث لا يلزم من النسخ البداء في حق الله، وحاجهم بالمسلمات التي يؤمنون بها، ويعتقدونها، وأظهر لهم الحكمة من وقوع النسخ في الشرائع مما لا يتعارض مع العقل السليم، بل يتمشى معه.

وقد فعل الشيء نفسه أيضا في قضية الختان حيث أثبت مشروعيتها بالمعقول

---

(١) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٩٠-٩٢.

* *التعريف:*

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يوفكون**﴾[1] يبين الله تعالى حقيقة عيسى وأمه -عليهما السلام- وماهيتهما، فيبين بشريتهما باحتياجهما الطعام، ويبين مقامهما من بين الخلائق، فعيسى رسول من رسل الله -عليهم أفضل الصلاة والتسليم- وأمه صديقة من الصديقين، ولا يعدوان ذلك.

* *دعوة الخصم بمسلماته:*

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين ءامنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون**﴾[2].

فالله سبحانه وتعالى يدعوهم بما بين أيديهم من الكتاب للإيمان بنبوة محمد ﷺ والأخذ برسالته، وهم يعرفونه حق المعرفة بما يجدونه في كتبهم من اسمه وعلاماته، فيحتج عليهم سبحانه وتعالى بما يسلمون به من الحقائق ويعتقدون صحته؛ ليلزمهم بذلك للإيمان بدعوة الإسلام.

* *المطالبة بالدليل والبرهان:*

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾[3]، فادعاؤكم أيها النصارى بأنكم أهل الجنة دعوى تحتاج إلى دليل يؤيدها و«لا نسلم صحة ما

(١) سورة المائدة، آية: ٧٥.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٣) سورة البقرة، آية١١١.

زعمتوه، إنما هي دعوى مجردة فأين برهانها»[1].

* *إثبات تناقضهم:*

وذلك في قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾[2]، كيف للنصارى أن يدّعوا بأن إبراهيم -عليه السلام- منهم، وهم في الوقت نفسه يعتقدون أن الإنجيل متأخر عن عصره، بل نزل في عهد المسيح -عليه السلام-، فالقضيتان متناقضتان لا يجتمعان أبدا.

* *إبراز تحكمهم وتحريفهم:*

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾[3]، وقوله ﴿وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾[4]، فالله سبحانه وتعالى يبرز مدى تحكم أهل الكتاب بالدليل فيخفون من الأدلة ما لا يوافق أهواءهم وإن كان حقا، ويحرفون الحق ليكون مسايرا لشهواتهم ورغباتهم؛ فيفترون على الله الكذب.

* *إبراز قولهم بالمحال:*

سبقت الإشارة إلى أن عقائد النصارى تستلزم المحال العقلي[5]، وهي كذلك تستلزم المحال الشرعي وقد أبرزه الله تعالى في قوله: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه

---

(١) الطوفي، علم الجذل، ص١٠١.

(٢) سورة آل عمران آية ٦٥.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٧١

(٤) سورة آل عمران، آية: ٧٨.

(٥) انظر: ص٤٦٧ من هذا البحث.

والمنقول من كتب القوم، وأبان الحكمة من مشروعيتها[١].

ب/ التقديم والتأخير:

من الخطوات الفنية التي ظهرت في أسلوب الإمام القرافي -رحمه الله- تقديم العرض على النقض، وتقديم التخلية على التحلية، ففي كتابه أدلة الوحدانية بدأ حديثه بعرض مذهب النصارى في الحلول والاتحاد، والصلب والتثليث، واتخاذ الناقوس، وغيرها، وما يعتمدون عليه من الحجج العقلية والنقلية في مذهبهم، وذكر المجامع التي عقدوها من المجمع الأول إلى المجمع العاشر، وما ارتكبوا فيها من المنكرات واللعن والطرد والتكفير لمخالفيهم، ثم اتجه إلى نقض النصرانية بكل أجزائها، وبيان أدلة المسلمين العقلية والنقلية المبطلة لعقيدة النصارى[٢]، وعرض الأناجيل الأربعة التي يعرفها النصارى كلهم، والخامس الذي لا يعرفه إلا القليل منهم عرضا مختصرا، ثم ذهب في مناقشتها ونقضها نقضا مفصلا ببيان تناقضها والخلل الواقع فيها[٣].

ومن تقديم التخلية على التحلية أنه في نهاية رده على رسالة النصراني ختمها بمقارنة بين شريعة الإسلام بالشرائع الأخرى المتقدمة، وما تميز به الإسلام من محاسن، وختمها بقوله: «ولنقتصر على هذه النبذة في هذا المختصر اللطيف وإلا فمحاسن الشريعة لا يحصى عددها، ولا يخبو زندها، وهذا هو آخر الرسالة والجواب عنها»[٤].

ويعد الباب الرابع في كتاب الأجوبة الفاخرة وهو الأخير، تحلية بعد تخلية، فقد

---

(١) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٥٦-١٥٧.

(٢) انظر: القرافي، أدلة الوحدانية، فقد كان من ص٢٥ إلى ٥٥، بمثابة عرض، وبعد ذلك جاء النقض.

(٣) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٤١.

(٤) المصدر نفسه، ص٧٧.

تحدث فيه عن صحة نبوة محمد ﷺ ودين الإسلام وأثبت ذلك من خلال كتب القوم، وما حملته من بشارات بالنبي ﷺ، فهو بمثابة بناء لعقيدة جديدة بعد أن تم هدم المعتقد القديم في الأبواب السابقة التي تضمنت تفنيد الشبهات التي أثارها النصراني، وأضاف القرافي إليها شبهات أخرى من عادتهم إثارتها، وعارض بالنقل والعقل عقائدهم وعباداتهم وشعائرهم مظهرا عجزهم عن إثبات صحة مذهبهم والإجابة على المعارضات التي توجه إليهم[١]، وقد كان آخر ما عقده في كتابه أدلة الوحدانية أيضا جزءاً خاصا عن البشارة بالنبي ﷺ، فكان تحلية بعد تخلية[٢].

ومن التقديم والتأخير، تقديم الأهم على غيره، كتقديمه في الأسئلة المعارضة التي وجهها إلى النصارى الجانب العقدي المتعلق بادعاء بنوة المسيح –عليه السلام– لله سبحانه وتعالى، ثم اتجه إلى جانب الشعائر التعبدية، والأدعية والصلوات والتصليب وغير ذلك[٣].

ج/ التكرار:

من القضايا التي كررها القرافي –رحمه الله– قضية التحريف والتبديل التي طالت الديانة النصرانية، فذكرها بأوجه عدة وكأنه يريد أن يركز عليها، فوَسَم الكتاب المقدس عند النصارى بأنه مجرد أخبار وتواريخ بعيدة الزمان، وقدّم عليها كتب التاريخ الإسلامي من ناحية إحكام نقلها[٤]، وذكر قصة بولس وما أفسده في الديانة النصرانية مرة مفصلة وأخرى مختصرة[٥].

وقد كرر تناقض قولهم بجلوس الابن على يمين أبيه مع قولهم أن الابن من

---

(١) انظر: المصدر السابق، الباب الرابع الذي يبدأ من ص١٩٧.

(٢) انظر: القرافي، أدلة الوحدانية، ص١٠٩.

(٣) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٣١–١٧٨.

(٤) انظر: المصدر السابق، ص٥١، ٨٤.

(٥) المصدر السابق، ص١٥٢–١٥٤، ١٦٠.

جوهر أبيه، فكان حديثه في المرة الأولى في نقض المقالة الأولى، وفي المرة الثانية في نقض المقالة الثانية[١]، وقد يكرر بعض نصوص الكتاب المقدس عندهم أو غيرها مما يعترفون به من كتبهم، فقد كرر مثلا قول المسيح -عليه السلام-: «أكمد البارقليط يعلمكم كل شيء»[٢] فكانت المرة الأولى في أثناء بيانه خطأ النصارى في تفسير البشائر التي جاءت في التوراة بقدوم النبي المنتظر على أنها تشير إلى المسيح -عليه السلام-، وكانت الثانية في أثناء حديثه عن البشائر التي بشرت بنبوة محمد ﷺ من خلال نصوص الإنجيل[٣].

وذكر أفعال النصارى في «كرسي مملكتهم بعكا بالشام إذا ادعى أحد على أحد قتْل قريبه دفعوا لكل واحد باسليقا من السلاح ويحلقون رأسي الاثنين ويعطونهما قرنين محددين، ثم يخرجون عند باب المدينة، فمن صرع صاحبه بذلك الحديد جلس على صدره وخسف عينيه بالقرن»[٤]، فقد ذكر هذه الحكاية في بداية حديثه عن النصرانية وغلبة التقليد فيهم لما يلقي عليهم رجال دينهم، وذكرها مرة أخرى عندما وجه إليهم أسئلة معارضة لأسئلتهم فبيّن من خلال هذه القصة حكمهم بغير ما أنزل الله واتباعهم الهوى في الحكم بين الناس.

وقد يكرر بعض الأمثال أكثر من مرة إذا وجد الحال مناسبا كتكراره للمثل القائل، تفرقوا أيدي سبأ بأكثر من صيغة[٥].

---

(١) انظر: القرافي، أدلة الوحدانية، ص٦٨، ١٠٢.

(٢) يوحنا، ١٤/٢٦. ولا توجد كملة أكمد والبالقليط في الترجمة الحديثة، وبدلا منها توجد كملة: المعزي.

(٣) انظر: القرافي، أدلة الوحدانية، ص٨٧، و١٠٩.

(٤) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص ٢٢، ١٦٦.

(٥) المصدر نفسه، ص٥١، و١٦١.

د/ الحوار والمناظرة:

كان الإمام القرافي -رحمه الله- ذا باع طويل في المناظرة، وقد ناظر النصارى وغيرهم من أهل البدع والأهواء، مثل المرجئة[1]، ويذكر القرافي وقوع المحاورة بينه وبين النصارى في أكثر من موقف، ومع كثير منهم، فما كان يزيد على مطالبته إياهم بتصوير مذهبهم تصويرا يقبله العقل، فيعجزون عن ذلك ويقولون: إنهم ما كلِّفوا بتصوير دينهم بل بالاعتقاد[2].

وفي كتابه الأجوبة الفاخرة لم يكتف بالرد على الأسئلة التي وجهت إليه بل توسع في ذلك فجعله كأنه مناظرة بينه وبين النصارى. فإنه لما رد على جميع الشبهات والأسئلة التي وجهوها في الباب الأول، جعل الباب الثاني أيضا مكملاً للباب الأول، فأثار أسئلة بنفسه من عادة النصارى أن يوجهوها دائما على المسلمين، ورد عليها بأدلة عقلية ونقلية، ثم أخذ في الباب الرابع موقع السائل بعد أن كان معلِّلا قبل ذلك، فبدأ بتوجيه الأسئلة إلى الطرف الآخر معارضة لأسئلتهم

---

(١) انظر: القرافي، نفائس الأصول، ج١، ص١١٥٦.

والمرجئة: هي «إحدى الفرق الكلامية التي تنتسب إلى الإسلام، ذات المفاهيم والآراء العقدية الخاطئة في مفهوم الإيمان التي لم يعد لها كيان واحد، حيث انتشرت مقالتهم في كثير من الفرق، فمنهم من يقول إن الإيمان قول باللسان وتصديق بالقلب فقط، وبعضهم يقصره على قول اللسان، والبعض الآخر يكتفي في تعريفه بأنه التصديق، وغالى آخرون منهم فقالوا إنه المعرفة» الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة، ج٢، ص١١٥٣، ط٢، دار الندوة العالمية، ١٤١٨هـ.

وذكر الإمام الأشعري أن المرجئة اثنتا عشرة فرقة، وقد فصل القول فيهم، فمن أراد الاستزادة فعليه بكتاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ج١، ص٢١٣، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

(٢) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢٦، و١٤٣.

ومدافعة لكلمتهم، وكأنه يطلب منهم أن يأخذوا بدورهم موقع المعلل، وإبطال الحجج التي أوردها،- وإن كان يرى أنهم لا يمكنهم الرد عليها لقوة أدلتها وتماسكها-.

وقد يجعل حديثه في بعض القضايا التفصيلية أيضا يأخذ شكل الأخذ والرد، ففي قضية المعمودية يقول: «ثم نقول: ماء معموديتكم مقدس أم لا؟ فإن قلتم: مقدس، فمن قدسه؟ فإن قلتم: الله قدسه، فما الدليل عليه؟ فلعله نجسه، فإن قلتم: قدسناه، قلنا: من أنتم حتى تقدسوا المياه...»[1].

ففي هذا النص يبدو الحديث وكأنه نقاش بين طرفين، أحدهما يستفسر والآخر يجيب، والحقيقة أن الكلام كله صادر عن القرافي، وليس هناك شخص آخر يحاوره، إلا أنه اختار أن يسير الكلام بهذا الأسلوب ليبدو حوارا شائقا بين أكثر من طرف، بدلا من أن يسير على وتيرة الحديث المباشر.

هـ/ القصة:

يمكن عدّ الأخبار التي ذكرها في أثناء بيانه تلاعب رجال الدين النصراني بعقول عامة النصارى، وخداعهم، والتلبيس عليهم أمور دينهم، والتحايل عليهم من أجل أن يستمروا في اعتناق النصرانية وطاعة رجال الدين القائمين على أمور الكنيسة من الأساليب التي أخذت شكل القصص، فقد ذكر من ذلك قصة اليد التي زعموا أنها يد الله تعالى تخرج في أحد كنائسهم في يوم معلوم من السنة وتظهر من أحد هياكلهم، فيسلّموا عليها ويصافحها عامة الناس، حتى أصر في يوم من الأيام أحد ملوكهم بأن يرى وجه صاحبها، فتبيّن بعد فترة من الخداع والتضليل أنها يد أحد الرهبان[2].

و/ ذكر النتيجة:

ذكر القرافي -رحمه الله- في بعض الأحيان النتيجة التي توصل إليها من خلال الأدلة النقلية والمناقشات العقلية المدعومة بالبراهين والحجج، ومن ذلك أنه بعد

---

(١) المصدر السابق، ص١٩٠.

(٢) المصدر السابق، ص٢٥، وقد ذكر في الصفحات التي قبلها قصص خرافات مشابهة.

أن ناقش الشبهة التي ذهب فيها النصراني إلى تفضيل الكنائس على المساجد استنادا إلى قوله تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا...الآية﴾[1]، قال: «إذا تقرر ذلك ظهرت أفضلية المساجد وشرفها على غيرها ، وإن هدمها أعظم من هدم غيرها، لا يوصل إليه إلا بعد تجاوز ما يقتضي هدم غيرها...»[2].

وفي موقف آخر قال بعد أن عرّف كلاً من لفظي الجوهر والعرض، وبيّن معناهما: «إذا تقرر هذا ظهر خطؤهم في إطلاق لفظ الجوهر على الله تعالى، فظهر بطلان تفسيرهم للجوهر والعرض»[3].

ز/ الفصاحة والبلاغة:

من الأساليب البلاغية التي حلى بها القرافي -رحمه الله- أسلوبه في دعوة النصارى الاقتباس، وبخاصة الاقتباس من القرآن الكريم، فيصف النصارى قائلاً: «فسبحان من جعل الجهل شعارهم والضلال دثارهم، ليقضي الله أمرا كان مفعولا»[4].

فقد اقتبس الجملة الأخيرة من قوله تعالى: ﴿ليقضي الله أمرا كان مفعولا﴾[5] للدلالة على أنه من حكمة الله سبحانه وتعالى أن يجعل أمة من الناس بهذه العقول التي تجانب الحق، وترضى بالضلال، فقد قال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا﴾[6].

---

(١) سورة الحج، آية: ٤٠.

(٢) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٣٨.

(٣) المصدر نفسه،، ص٦٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٩٦.

(٥) سورة الأنفال، آية: ٤٢، و٤٤.

(٦) سورة يونس، آية: ٩٩.

ويمضي القرافي ساخرا من سوء إدراك النصارى لكتبهم واعوجاج أفهامهم قائلا: «فلِمَ لم يقتد النصارى بالمسيح -عليه السلام- وبالتلاميذ وبالتوراة باستعمال المجاز في هذه الألفاظ؟ بل هم في الجهالة والضلالة وقلة العقل، بل عدمه كالفأر الأعور يرى الخبز ولا يرى القط!! إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا»[١]،

ويقصد القرافي أنهم لم يفهموا ألفاظ الأب والابن التي وردت في كتبهم، وحملوها على الأبوة الحقيقية، مع أن دلالات الكلام في التوراة مثلا لا تعني ما ذهبوا إليه، وهذا يدل على سوء فهمهم، ودنو عقولهم من البهائم التي ترعى، بل هي أدنى من ذلك، واقتبس قوله تعالى: ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾[٢] الذي ورد في وصف المشركين الذين يتخذون أهواءهم آلهة يعبدونها، ولا يتبعون ما أنزل من عند الله سبحانه وتعالى، في إثبات مشاركة النصارى المشركين في هذه الصفة، وأنها تنطبق عليهم أيضا لا على المشركين فحسب.

ولما ذكر نص الأمانة التي اتفق عليها النصارى في مجمع نيقية وسماجة معانيها، وقبح عباراتها قال: «ومع ذلك فهم عليها عاكفون ولها معظمون، لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون»[٣]، فاقتبس قول الله تعالى: ﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون﴾[٤]، لتأكيد ما ينتظرهم من الخسران والعذاب الأليم يوم القيامة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وأنهم لا محالة من أهل النار إن هم ماتوا على عقيدتهم هذه.

وهكذا يسير القرافي في اقتباساته، وتكاد تكون اقتباساته كلها من الآيات الدالة على التهديد والزجر، والترهيب، أو السخرية والتهكم.

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة ص١٣٣.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٤٤.

(٣) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٤٤.

(٤) سورة هود، آية: ٢٢.

ومن الأساليب البلاغية أيضا السجع الذي لم يكن كثيرا، فمثلا يصف حال المسلمين والنصارى في الأخذ بالحق، مقارنا بينهما بقوله: «وأما نحن فممتثلون لأمر الله تعالى، ناصرون لدينه، قائمون بحقه في أرضه على خلقه، سعداء شهداء، أولياء أعزاء، نناظر بالمعجزات الباهرة، والبراهين القاطعة...-إلى أن قال- ولا ندعو إلى عبادة ربات الحجال، ولا نعبد من أوردته اليهود بأنواع النكال، فأين السماء من الأهد، وأين الدخان من العسجد...»[1].

ويقول في موقف آخر عندما ذكر تحريفهم لكتابهم: «فكم نقضتم أنتم من كلمة، وكم تركتم من الأوامر المحكمة، واتبعتم آراء السفهاء المظلمة»[2].

ح/ الاختصار:

يؤكد علماء البيان أن الإيجاز والإطناب يستعملان بحسب الحاجة، والمطلوب هو القصد في البيان، بحيث لا يتجاوز المقدار الذي يفي بالغرض ولا يقصر عن أداء المعنى المطلوب[3]، وقد اختار الإمام القرافي -رحمه الله- في خطاب النصارى أسلوب الاختصار وعدم الإسهاب والإطالة معهم، وقد علل ذلك باعوجاج عقول القوم، وعدم أخذهم بالحجج العقلية، وأن الحديث معهم مهما طال فلن يفيد، ولذلك

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١١٩.

والوهد والوهدة: المطمئن من الأرض، والأرض المنخفضة، وجمعها: أوْهد، ووهدٌ، ووهاد، ووُهدان، الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٤٧١، مادة (وهد). وابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٤٧٠-٤٧١، مادة (وهد)، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٦، ص١٤٧، مادة (وهد).

فالمعاجم التي رجعت إليها لم تذكر جمعا بصيغة (أُهد)، ولعل الواو سقطت من النساخ أو الطباعة، أو لها استعمال بلفظ (أُهد) والله أعلم. والعسجد: الذهب، والجوهر كله، كالدر والياقوت. انظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٤٢٥، مادة، (عسجد)

(٢) القرافي، أدلة الوحدانية، ص٥٨.

(٣) انظر: أبوهلال العسكري، الصناعتين، ١٧٩ وما بعدها، و١٩٦ وما بعدها.

توخى ذكر ما لا بد منه بقدر الحاجة. ففي بداية كتابه قال: «وأنا أنبهك إلى أن القوم ليس لهم حظ من النظر القويم، ولا من العقل المستقيم، بل وجدوا آباءهم على الضلال فهم على آثارهم يهرعون، قد غمرهم الجهل وعمهم العمى، فلذلك لم تنهض العزيمة إلى بسط القول في الحديث معهم، فإن مخاطبة البهائم من السفه، بل اقتصرت على بيان غلط القائل بهذه الرسالة ومعارضتها بالأسئلة والنصوص من كتبهم لعل الله تعالى يجعل ذلك تنبيها لبعض الغافلين فيستيقظ لرؤية هذه المساوئ القبيحة... فانظر إلى قوم عاجزين عن تصوير دينهم فضلا عن إقامة الدليل عليه، فكيف يليق بالعاقل أن يؤهلهم للحديث معهم؟ فلذلك سلكت مسلك الاقتصاد في بيان هذه الكلمات»[1].

وفي أثناء حديثه كان يشير إلى تركه كثيرا من الأمور خشية الإطالة، كاكتفائه ببعض النصوص من الإنجيل الدالة على وحدانية الله تعالى، وإطلاق لفظ الرب، على غير المسيح -عليه السلام- في كتبهم، واقتصاره على إيراد خمسين بشارة فقط من كتبهم تبشر بنبوة نبينا محمد ﷺ، وغيرها من المواضع[2].

(٢) قيمة الأسلوب الفني عند القرافي في دعوة النصارى:

تظهر في الطرق الفنية التي سار عليها القرافي -رحمه الله- قيم دعوية مهمة، فتعديد القرافي لأساليبه في بيان قضية واحدة بالمنقول، والمعقول يساعد على قوة الإقناع، كما فعل ذلك في قضية النسخ والبداء، حيث اختصر مسافة إقناع المدعو بوضعه لأكثر من أسلوب استدلالي في قضية واحدة، فإن المدعو إن لم يصل بالأدلة النقلية إلى مبتغاه إما لسوء فهمه أو لظنه أنها غير كافية للاقتناع بها، فالأدلة العقلية يمكنها أن تغطي جوانب القصور التي وجدها في الأدلة النقلية، ومن المدعويين من تستهويه الأدلة العقلية دون النقلية، أو بالعكس، أو كلاهما، فالكل يجد مبتغاه وما

---

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢٥-٢٦.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١٣٦، ١٣٤، ٢٢١.

يرده إلى الحق.

وفي التقديم والتأخير قدم القرافي العرض على النقض، وهو أسلوب أمثل، فلا يمكن الوصول إلى نتيجة ما إذا كانت القضايا غير واضحة، وعرض القضية قبل نقضها يسهم في معرفة ماهية المنقوض، فلعل الداعي ينقض قضايا وفق تصور معين، بينما لا تكون هذه القضايا معلومة لدى المدعو بالتصورات التي لدى الداعية، فلا تكون هناك دائرة واضحة، أو نقطة جامعة يلتقي فيها الداعي والمدعو، فيفهم أحدهما ما لم يصل إلى فهم الآخر؛ فتكون النتيجة الخروج بأفكار متنافرة.

وأعطى القرافي الأهم ما يستحقه من الأهمية في تقديمه على غيره مما لا يصل إلى أهميته، فقدم في النقد الجوانب العقدية للديانة النصرانية، وأخر الجوانب الأخرى من العبادات والشعائر والأدعية والصلوات. ولما كان الفرع مبني على الأصل، فإن محاولات القرافي في هدم الأصول أولا ثم الاتجاه إلى الفروع التابعة للأصول يعد عملا موفقا، فإنه إذا تحقق إقناع المدعو أو تشكيكه في أصول العقائد التي يعتمد عليها ويبني عليها دينه؛ فإنه من السهل أن يتم هدم الأمور الفرعية، وإقناع الخصم بفسادها.

كما جاء تقديم الهدم على البناء، أو التخلية على التحلية ليعطي قيمة دعوية مهمة تتمثل في سد الفراغ الذي حدث من عملية الهدم، فالداعية لا يهدف إلى إخواء المدعو من جميع العقائد الفاسدة فحسب، بل له هدف آخر ألا وهو بناء العقيدة الصحيحة في مكان العقيدة الفاسدة.

أما في جانب التكرار فقد كان القرافي يكرر بعض القضايا التي لها أهمية خاصة، كقضية التحريف والتبديل، وما أدخله بولس على النصرانية من معتقدات فاسدة، وهي قضايا تستحق التركيز، فإن أصل الإشكال، والسبب الرئيس في فساد الديانة النصرانية هو دخول يد التحريف والتبديل عليها، وإثبات هذه القضية وإقناع النصارى بوقوعها كفيل بإفقادهم الثقة في كتبهم المقدسة التي يرون أنها وحي من عند الله، وكان تكرار القرافي لبعض القضايا الأخرى لحاجة البيان إلى ذلك، فقد

يذكر قضية ما قال بها النصارى وبما يناقضها، فيأتي بالمتناقضين ويبين وجه التناقض بينهما، في محل بيان إحدى القضيتين، ويكرر الأمر ذاته مرة أخرى في ذكر القضية الأخرى في موطن آخر، وقد يكرر لمناسبة الكلام وتشابهه، كما كرر بعض الأمثال السائرة التي جاء ذكرها مناسبا في أكثر من موطن.

فالتكرار عند القرافي -رحمه الله- لم يكن مجردا عن الفائدة، بل كان سياق الحديث يستدعيه، وأهمية القضايا المكررة تجعل التركيز عليها أمرا لا بد منه، فقد يكون الإلحاح والضغط على قضية ما يزيد من عناية المستمع بها، ومتابعتها، والاندفاع للاقتناع بها.

وقد أخرج القرافي حديثه عن الرتابة، والجمود، والسير على نمط واحد في الرد، ونقله من مجرد رد على مجموعة من الشبهات والأسئلة التي بعث بها النصارى إلى حوار ومناظرة موسعة بإثارته لأسئلة لم تبعث إليه أصلا، وبعدم اكتفائه بأخذ موقع المعلل، بل أخذ موقع السائل المهاجم الذي لا يكتفي بالدفاع عن دينه، بل يبرز فساد معتقدات الطرف المقابل، فيصبح موقع الطرفين متوازنا بحيث لا يكون البروز فيه طاغيا لأحد الطرفين دون الآخر، وتكون الحجج والأدلة والبراهين هي المرجع الحقيقي للدعوى التي يدعيها الطرفان.

أما القصص التي رواها القرافي -رحمه الله- فكانت عبارة عن الحيل التي يعتمد عليها رجال الدين النصارى في جذب العامة إلى الديانة النصرانية، وكيف أنه تم اكتشافها وإبطالها، والعبرة الدعوية التي قصدها القرافي من هذه القصص -والله أعلم- أن يبين للمدعو أن أصول الديانة النصرانية مبني على مثل هذه الخرافات والترهات، والتحكمات الباردة، والأحلام الغريبة التي ليس لها أساس من النقل الصحيح، والعقل السديد، والمنطق السليم، وما دام الأمر كذلك فإن المدعو العاقل لا بد له أن ينبذ مثل هذه الديانة، ويتبع ديانة غيرها تعطي عناية كافية لمنقولاتها العقدية، ولا يعارض دينها المعقول الصريح.

ولا يريد القرافي أن يبقى المدعو مشتت الذهن يضيع في خضم الحجج

العقلية، والتقسيمات المتشعبة للقضايا المراد بيانها، فيذكر له النتيجة التي توصل إليها من خلال ما أورده من أدلة وبراهين، فيربط المدعو بالنتيجة المطلوبة، ويؤكدها له، حتى لا يكون قد فهم شيئا آخر، أو نسي النتيجة التي يريدها الداعية.

وزاد القرافي على جمال المعنى جمال المبنى، فألبس تعابيره بهاء، وأكسبها رونقا، وكساها حلة جميلة بالأساليب البلاغية البديعة كالاقتباس، والسجع البعيد عن التكلف، وعن الكثير الممل، مما يجذب السامع على الإنصات وحسن الاستماع لهذا الحديث الجميل.

وجعل حديثه مختصرا بعيدا عن الاستطراد والتطويل، ولم يسهب في الاستدلال بجميع الأدلة التي يمكن الاستدلال بها، حيث أعاد توخيه الاختصار لعدم فائدة التطويل مع النصارى الذين عهدهم، وهذا السبب الذي أبداه مقنع إلى حد بعيد، فإذا لم ير الداعية من خلال تجاربه مع المدعوين ومعرفته بهم، وبعقليتهم جدوى من الإسهاب والتطويل، فإن الاكتفاء بالقليل الذي يكفي لإبراز الحق، وإقامة الحجة عليهم من الحكمة التي قد لا يوفق إليها إلا من وفقه الله تعالى من العلماء والدعاة.

الفصل السادس
المقارنة بين أسلوبي القرطبي والقرافي في دعوة النصارى

المبحث الأول: سمات أسلوب القرطبي في دعوة النصارى
المبحث الثاني: سمات أسلوب القرافي في دعوة النصارى
المبحث الثالث: أبرز وجوه الاتفاق والاختلاف بين أسلوبي الإمامين

المبحث الأول

سمات أسلوب القرطبي

اتسم أسلوب الإمام القرطبي -رحمه الله- بعدد من السمات التي يمكن حصرها في النقاط التالية:-

أ) الحكمة:

جاء في معنى الحِكمة أنها: العدل، والعلم، والحلم، والنبوة، والقرآن، والإنجيل، وطاعة الله، والفقه في الدين، والعمل به، أو الخشية، أو الفهم، أو الورع، أو العقل، أو الإصابة في القول والفعل، والتفكير في أمر الله واتباعه.

وأحكمه أتقنه فاستحكم، ومنعه عن الفساد، كحَكَمه حكْماً، وعن الأمر: رجعه فحكَم، ومنعه مما يريد، كَحَكمه وحكَّمه، والفرس: جعل للجامه حَكَمَة، ووردت في القرآن الكريم بمعان عدة[1].

وجاءت الحكمة بمعنى: «وضع الأشياء في مواضعها»[2]، وهذا التعريف لا يختلف عن معنى الإصابة في القول والفعل، فإذا وضعت الشيء في موضعه فقد أصبت في ذلك، ولا يمكن أن تصيب في الأمر إن لم تضعه في موضعه.

وفيما يخص فن الدعوة فإن بعض الباحثين اختار معنى وضع الشيء في

---

(١) انظر: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ج٢ص٤٨٧، و٤٩٠-٤٩١، تحقيق: محمد علي النجار، ط/ لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٣٨٥هـ والقاموس المحيط، للمؤلف نفسه، ج٢، ص١٤٤٤.

(٢) محمد بن يوسف بن علي الأندلسي الشهير بأبي حيان، البحر المحيط، ج١، ص٣٩٣، ط، مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض. وانظر: الحسن بن محمد بن الحسين النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، ج١، ص٤٥٧، ط١، مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨١هـ١٩٦٢م، مصر.

موضعه ليكون أساسا في مفهوم الحكمة في مجال الدعوة إلى الله[١]، وهو قريب من مذهب من عرف الحكمة في الدعوة بأنها: «حاسة الصواب الكامنة في كيان الداعية.. محددة له في واقع الدعوة.. سبيل الوصول إلى الغاية»[٢].

بينما توسع آخرون في مفهوم الحكمة في الدعوة فجعل مفهومها يتسع لمعانيها اللغوية والشرعية ما عدا ما كان خاصا منها بالنبوة، فتشمل بذلك العلم والحلم، والإتقان، والإصابة في القول والعمل ووضع الأشياء في موضعها[٣].

وأغلب الدراسات الدعوية تجعل الحكمة أسلوبا من أساليب الدعوة إلى الله فتحصرها في هذا الحيز[٤]، وقد ترتفع منزلة هذا الأسلوب -أسلوب الحكمة- «فيكون شاملا لجميع الأساليب الدعوية»[٥]، وتكون له الهيمنة على غيره من الأساليب، بحيث يقدَّم على غيره، وينبغي استصحابه في جميع أحوال الداعية[٦]، بل

---

(١) انظر: د. زيد بن عبد الكريم الزيد، الحكمة في الدعوة إلى الله، تعريف وتطبيق، ص٣١، ط١، دار العاصمة، ١٤١٢هـ، الرياض.

(٢) رفاعي سرور، حكمة الدعوة، ص٨، ط١، مكتبة وهبة، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، القاهرة.

(٣) انظر: د. علي جريشة، مناهج الدعوة وأساليبها، ص٨٨، ط١، دار الوفاء، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م، المنصورة.

(٤) انظر: د. رؤوف شلبي، الدعوة الإسلامية في عهدها المكي، مناهجها وغاياتها، ص٣٤٤-٣٤٥، ط٣، دار القلم، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م، الكويت. وعلي بن صالح المرشد، مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، ص١٤٨-١٤٩، ط١، مكتبة لينة، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م، دمنهور. د. عبد النعيم محمد حسنين، الدعوة إلى الله على بصيرة، ص١٠٦، ط١، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب الإسلامي، ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م، القاهرة.

(٥) محمد البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، ص٢٤٥، وانظر: د. صالح بن عبد الله بن حميد، مفهوم الحكمة في الدعوة، ص١٠، ط، وزارة الشؤون الإسلامية، ١٤١٧هـ، الرياض.

(٦) انظر: إبراهيم صالح الحميدان، أسلوب المناظرة في دعوة النصارى إلى الإسلام، ج١، ص٥١، رسالة دكتوراه غير منشورة، ود. أحمد المورعي، الحكمة والموعظة الحسنة، ص٩٥-٩٦.

إن الحكمة تحتل أعلى المراتب من بين الأساليب، فتشمل إذا أفردت بالذكر الموعظة، والمجادلة بالحسنى وبغير الحسنى للمستحق، فهي كافية عن كل ذلك ومؤدية الغرض منها، وأكثر من ذلك فإن الحكمة تظهر في المناهج والأساليب، وتتفاعل مع ثلاثة أركان من أركان العملية الدعوية -المدعو، والرسالة، والوسيلة-، تفاعلا قويا تتأثر به وتؤثر فيه(١)، وللركن الرابع الذي هو الداعي أيضا وجه في تأثره بالحكمة؛ وذلك في حالة اختياره لشغل هذا المكان من جهة ما، فإن من الحكمة في اصطفائه أن تراعى إمكاناته العلمية والفنية، ومناسبته للمدعوين، وغير ذلك من الأمور.

فإذا كانت الحكمة تظهر في اتباع التدرج في المراحل الدعوية المختلفة -مرحلة التبليغ، والتكوين، والتمكين-(٢)، وفي النظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يلقى إليهم من الرسالة، والطريقة التي يخاطب بها، والتنويع فيها حسب الأحوال والمقتضيات،(٣) والوسيلة التي يمكنها أن تحمل الرسالة إلى المدعو، فإن حصر الحكمة في عنصر واحد من العناصر التي تحتويها العملية الدعوية لا يعطيها حقها من مفهومها النظري وتأثيرها العملي؛ لذلك يمكن القول بأن من الأفضل أن تعد الحكمة سمة من سمات أساليب الدعوة إلى الله، أو سمة من سمات المناهج الدعوية، لا أسلوبا من الأساليب الدعوية.

وتظهر الحكمة في أساليب القرطبي في دعوة النصارى من اتباعه لأساليب متنوعة متعددة، إذ الحكمة تقتضي أن لا يقف الداعية في إقناع المدعو على أسلوب واحد لا يتجاوزه إلى غيره، فقد كان القرطبي -رحمه الله- حكيما في بيان الحقائق لخصمه بالمنقول من القرآن الكريم والسنة النبوية، والمنقول من مصادر النصرانية المعتبرة، والحكمة تقتضي كذلك أن يكون للأدلة العقلية إسهام مباشر في دحض

---

(١) انظر: زيد الزيد، الحكمة في الدعوة إلى الله، ص٣٩، ٤٦-٤٦. ومحمد البيانوني، المدخل في علم الدعوة، ص٢٤٧-٢٥١.

(٢) انظر: د. علي جريشة، مناهج الدعوة وأساليبها، ص١٧٧،

(٣) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٢٠٢.

المفتريات النصرانية، إذ النصارى خالفوا العقل والنقل في عقائدهم وشرائعهم وطقوسهم، وأقوالهم، فالرد عليهم بالأسلوب العقلي بأنواع القياس وغيرها من الحكمة البالغة، وكذلك من الحكمة استعمال الأساليب العاطفية والفنية التي بها تستكمل حلقة الأساليب، وبها يخاطب وجدان المدعو وقلبه، لتتأثر تصرفاته، فمن الحكمة عدم إغفال استثارة هذا الجانب الفطري في المدعو وإن كان نصرانيا، يجادل بغير علم، كما أن الحكمة تقتضي في الجوانب الفنية أن يقدم ماحقه التقديم ويؤخر ما حقه التأخير، فيقدم الأهم فالمهم[١]، وأن تكرر بعض القضايا التي يستدعي الأمر تكرارها زيادة في التأكيد عليها وتثبيتها في عقل المخاطب، وتناقش بعض القضايا بطريق الحوار والمناظرة، وبأسلوب القصة، والتأكيد على النتائج بذكرها بصفة مستمرة.

فهذا التنويع الذي سلكه القرطبي -رحمه الله- فيه حكمة مراعاة حال المخاطب الذي سلك في بث شبهاته وشهواته على بعض الأدلة المنقولة من القرآن الكريم ونصوص الكتاب المقدس عند النصارى وعلى بعض الحجج العقلية.

وعلى فرض الإفادة من كتاب القرطبي جهات أخرى غير الجهات التي وجه إليها الخطاب أصلا، ممن قد يتأثرون بنوع ما من الأساليب دون الأنواع الأخرى كان من حكمة القرطبي أن يهتم بهذا التنويع في الأساليب التي طرقها، فمن الناس من تجد العاطفة طريقها إلى قلوبهم بيسر وسهولة، ومنهم من لا يستجيب إلا لقوارع الأدلة العقلية الدامغة، ومنهم من يستسلم للمنقول من الكتب المنزلة، ومنهم من يحتاج إلى أن تتعاضد وتتآلف هذه الأدلة عليه حتى يصل إلى مرحلة الاقتناع.

«ومن الحكمة في أسلوب التبليغ التناسب الدقيق بين صيغة التبليغ وموضوعه، فإذا كان الموضوع موضوعا غيبيا مثلا فإنه يلزم في أسلوب الحديث عنصر التشبيه والمقارنة بين الغيب والشهادة»[٢]، كقوله ﷺ في وصف رؤية الله سبحانه وتعالى يوم

---

(١) انظر: د. علي جريشة، مناهج الدعوة وأساليبها، ص١٧٩.

(٢) رفاعي سرور، حكمة الدعوة، ص٧٠.

القيامة، «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»[1] فقد شبه الرسول ﷺ الرؤية وليس الله برؤية القمر ليلة البدر.

والإمام القرطبي تناول قضايا كثيرة من قضايا النصارى فكان من هذه الموضوعات ما يحتاج إلى المنقول من الكتاب المقدس عند النصارى لإثبات تحريفها وتناقضها، وإقناع النصارى بعدم صحة ما عندهم وانقطاع سنده؛ فأثبت ذلك من هذا الطريق، وكانت هناك قضايا تحتاج إلى القياس والتمثيل، كقياس خلق عيسى -عليه السلام- ومعجزاته بخلق آدم -عليه السلام- ومعجزات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ومقارنة حفظ القرآن وتواتره بوضع كتاب النصارى المقدس الذي لم يتكفل الله تعالى بحفظه، ولم ينقل متواترا عن الأنبياء الذين أرسلوا به.

كما يمكن لمح الحكمة في أسلوب القرطبي أنه حرص على عدم إعانة اليهود على الإصرار والعناد بتنبيههم على أمور يستدلون بها على النصارى فتكون بذلك معينة لهم على إنكار نبوة المسيح -عليه السلام- ورسالته، فلما ذكر النصراني الأدلة التي رأى أنها تؤيد صحة الدين النصراني وبطلان الدين اليهودي مما لا يمكن لليهود أن ينكروه، قال القرطبي -رحمه الله- «أنه لولا أننا نخاف أن نساعد اليهود على كفرهم وأن يحملهم ذلك على دوام الإصرار، وزيادة العناد لنبهناهم على مواضع هذه الأدلة التي ذكرتَ يفسد عليك لأجل ذلك أكثرها، ويبطل عليكم الاحتجاج بها... ولكن حاشا لله أن أعين اليهود أولي اللعنة والعداوة والبغضاء»[2].

ب) الشمول:

شمل أسلوب القرطبي -رحمه الله- مجمل الأساليب التي يمكن دعوة النصارى من خلالها، من أسلوب الاستدلال بالمنقول إلى أسلوب الاستدلال بالمعقول، والأسلوب العاطفي والفني، وتكاد تنحصر أمهات الأساليب في هذه الجوانب.

---

(١) سبق تخريجه، في ص١٥٧.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص١٧٨.

وشمل في رده مجمل العقائد النصرانية أو القضايا الأساس في الديانة النصرانية التي هي أساس الضلال عندهم، كقضية التثليث، واتحاد الروح بالجسد، وبنوة المسيح -عليه السلام- لله -تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا-، وقضية الصلب، وعقيدة الفداء، بالإضافة إلى شموله للجوانب التعبدية، والتشريعية، والشعائر والطقوس في الديانة النصرانية.

ويظهر الشمول في الاستدلال بالمنقول من الكتاب المقدس عند النصارى بعهديه القديم والجديد، وأقوال رجال دينهم وكتب فقههم، فلم يقتصر على النقل من إنجيل واحد أو عهد واحد، مما جعل خطابه شاملا لجميع النصارى على اختلاف فرقهم؛ لأنهم يأخذون بهذا الكتاب المسمى بالكتاب المقدس بصفة عامة، وهو قد شمل كذلك المذاهب النصرانية حين تعرض لآرائها في بعض العقائد كعقيدة اتحاد الكلمة بالناسوت مثلا[١].

ج) التنوع:

ويعنى به «تعدد أشكال الأساليب الدعوية وتنوعها تنوعا يغطي حاجات الدعوة، ويلبي متطلبات الفطرة»[٢]، وبصفة عامة فالقائم بالدعوة لا يجمد في أسلوب عرضه لدعوته على نمط واحد بل يعدد وينتقل من أسلوب إلى أسلوب آخر بحيث يخدم الهدف الذي يريد أن يصل إليه، «فمن موعظة حسنة إلى جدل بالتي هي أحسن، إلى منع الجدل، وتقديم القدوة العملية التي قد تكون أبلغ من الحديث وهكذا»[٣].

والقرطبي -رحمه الله- لم يكتف بأسلوب معين للرد على النصارى، بل نوّع في أساليب الاستدلال بالمنقول، وانتقل منها إلى أساليب الاستدلال بالمعقول بأنواعه المتعددة، وأعطى أساليب الخطاب العاطفي بأنواعها حيزا مناسبا، كما لم ينس سلوك الطرق الفنية بأشكالها المتعددة، بغية الوصول إلى نتيجة دعوية إيجابية، فلم

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص١٢٨.

(٢) محمد البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، ٢٧٧.

(٣) د. علي جرشة، مناهج الدعوة وأساليبها، ص١٧٦.

يُغفل الاستدلال بالقرآن الكريم والسنة النبوية ويكتف بالمنقول من كتبهم بحجة أنهم لا يؤمنون أصلا بنزول القرآن من عند الله، ولا بنبوة محمد ﷺ ، ويعترفون فقط بكتابهم المقدس، بل تعامل مع جميع هذه الأدلة المنقولة وأوردها حيث رأى أنها مناسبة للاستدلال بها. ولم يستغن كذلك بالأدلة المعقولة عن الأدلة الأخرى، بل كان التنويع في الأساليب من أبرز السمات التي ظهرت في أسلوب دعوته للنصارى، فوُفق في ذلك بإذن الله.

وقد وصف الإمام ابن تيمية -رحمه الله- الذين يكتفون في دعوة النصارى بالأدلة العقلية ولا يقرنونها بالأدلة النقلية بالتقصير ومخالفة طريقة القرآن، قائلا: «وكثير من المصنفين لا يردون على أهل الكتاب إلا ما يقولون أنه يعلم بالعقل، مثل تثليث النصارى، ومثل تكذيب محمد ﷺ، ولا يناظرونهم في غير هذا من أصول الدين، وهذا تقصير منهم ومخالفة لطريقة القرآن»[(١)]؛ لذلك حرص ابن تيمية أن يطبق الطريقة الصحيحة في مجادلته لأهل الكتاب فجمع الحجج العقلية القرآنية، والنقلية الشرعية لإثبات انحراف أهل الكتاب ومخالفتهم جميع الأنبياء[(٢)].

د) وضوح الهدف:

من خصائص الدعوة إلى الله تعالى الوضوح، أي أن المناهج والأساليب موضوعة لتحقيق أهداف محددة[(٣)]، وكان الإمام القرطبي -رحمه الله- يضع نصب عينيه بالإضافة إلى الهدف الأساس -وهو بيان القول الحق في الديانة النصرانية، وفسادها-، الأهداف التفصيلية للفصول التي عقدها في كتابه، فكثيرا ما كان يبدأ فصوله بذكر الهدف من عقدها، فيقول مثلا في أحد الفصول: «أريد أن أبين في هذا الفصل أنهم يخالفون كتبهم ولا يعملون بمقتضاها، بل يتركون العمل بها ابتداء،

(١) ابن تيمية، الفتاوى، ج١٩، ص١٨٨.

(٢) عبد الله بن رشيد الحوشاني، منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الدعوة إلى الله تعالى ج٢، ص٦٧٩، رسالة دكتوراه، كلية الدعوة والإعلام، جامعة الإمام محمد، ط.، غير منشورة.

(٣) انظر: د. علي جريشة، مناهج الدعوة وأساليبها، ص١٧٨.

ويقولون تأولناها»[١]، ويقول في موقف آخر: «غرضنا من هذا الفن أن نجمع مسائل من قواعد أديانهم، ونبيّن فسادها وأنهم ليسوا على شيء فيها، بل تركوا فيها نصوص التوراة...الخ»[٢]، وقال في مكان آخر: «الغرض من هذا الفن أن نبين فيه عقيدة الإسلام وجملا من أصول أحكامه..»[٣].

إذن فالهدف عند القرطبي -رحمه الله- كان واضحا ومحددا، وكان هذا سمة مشاهدة من سمات أسلوبه في مخاطبة النصارى.

هـ) الإكثار من المنقول من القرآن الكريم والسنة النبوية والكتاب المقدس عند النصارى:

من السمات البارزة في أسلوب القرطبي -رحمه الله- الإكثار من أسلوب الاستدلال بالقرآن والسنة وبالمنقول من نصوص الكتاب المقدس لدى النصارى، العهد القديم والعهد الجديد، فعلى سبيل المثال جعل القرآن الكريم وما حواه من معجزات أحد الأدلة المثبتة لنبوة محمد ﷺ فأورد آيات كثيرة تبين هذه القضية،[٤] واستدل بالأحاديث التي جاءت فيها الآيات الخارقة للعادة مما أجراها الله تعالى على يدي النبي ﷺ كتكثير الطعام، وكلام الجمادات...الخ، مثبتا بذلك صدق نبوة محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم[٥]، ومن ثم صحة الدين الإسلامي، وفي غيرها من المسائل التي سبق الحديث عنها في الفصل الثالث من هذا البحث.

وأورد أيضا نصوصا كثيرة من كتاب النصارى المقدس بشكل مكثف في مواقع متعددة، منها على سبيل المثال في إثباته وقوع التحريف والغلط في كتاب

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٣٩٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٠٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٣٨.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ص٣٢٩ وما بعده.

(٥) انظر: المصدر نفسه، ص٣٤٨ وما بعدها.

النصارى، وعدم تواتره، فأورد فقرات كثيرة من العهد القديم والعهد الجديد يظهر منها التناقض بين النصوص، سواء أفي الأقوال المنسوبة إلى الله تعالى، أم المنسوبة إلى المسيح -عليه السلام- أم إلى الحواريين،[(١)]، وكذلك في الاستدلال على نبوة محمد ﷺ من أخبار الأنبياء من قبله، وقد أعطى القرطبي هذا النوع من الاستدلال عناية خاصة؛ لأن مخاطبه النصراني طلب الاستدلال بذلك، فلبى طلبه وحشد له النصوص من أقوال الأنبياء التي جاء ذكرها في التوراة وكتب الأنبياء، واستغرقت ما يقارب العشرين صحيفة[(٢)].

و) البصيرة:

البصيرة هي عقيدة القلب، والفطنة، والحُجّة[(٣)]، الواضحة والمعرفة التي تميز الحق من الباطل[(٤)].

وقد أمر الله رسوله الكريم ﷺ أن يعلنها صريحة بأن دعوته التي يدعو إليها تتميز بالبصيرة، قال تعالى: ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله وما أنا من المشركين**﴾[(٥)]، وهذه البصيرة التي حددها القرآن ورسم معالمها هي العلم اليقيني والمعرفة القاطعة، فالظن لا يغني عن الحق شيئا، فالواجب على الداعية الذي يعرض بضاعته إلى الناس عامة أن يكون عالما بتفاصيل ما يدعو إليه، واقفا على دقيقه وجليله، مجتهدا في جمع الأدلة والبراهين التي يقطع بها جدل المجادلين وريب المتشككين؛ ليصل إلى إقناع الباحثين عن الحق، وهداية الضالين، فإذا ما التزم الداعية البصيرة التي جاءت في هذه الآية

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص١٨٨.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص٢٦٣ وما بعدها.

(٣) انظر: الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٥٠٢.

(٤) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ج٣، ص٥٩.

(٥) سورة يوسف، آية: ١٠٨.

عصم نفسه عن الوقوع في الزلات، وعن القول بدون علم ولا تحديد لأهداف دعوته[١]

وتبدو البصيرة في أسلوب القرطبي -رحمه الله- من معرفته بمواطن الاستدلال، وقدرته على الإتيان بها في مواقعها، فإذا كان من الطبعي أن يكون لدى الداعية علم بالكتاب والسنة وعلوم الشرع الإسلامي، فإن القرطبي لم يكتف بذلك، ولم يجعل أسلوبه محدودا على الاستدلال بهذا الصنف من الأدلة فقط، بل تجاوز ذلك إلى الاستدلال بمصادر الديانة النصرانية بدءاً بكتابهم المقدس بعهديه، ومرورا بكتب فقههم وعقائدهم التي ألفها كبار أقستهم، وانتهاء بالخرافات والأباطيل والخدع التي يضلل بها رجال الدين النصراني عامة النصارى لتثبيتهم على دينهم، فالقرطبي إذن عالم بالقوم وأساليب مكرهم، وشبهاتهم، ودقائق ديانتهم، بل إنه يعرف الأصول التي يعتمدون عليها ويأخذون من منابعها، بل بلغ به الأمر أن صحح مجادله المنتسب إلى النصرانية وأبان سوء فهمه لبعض آراء أقسته[٢]، مما يؤكد على بصيرة القرطبي الحادة ومعرفته الدقيقة لأحوال النصارى.

ثم إنه لم يحصر نفسه في ذلك، بل اتجه إلى أسلوب العقل، فاستخدمه استخدام الخبير المتقن، فتفنن به في هدم محالات النصارى ونقضها حجرا حجرا، ولم يُبقِ لهم شيئا يستندون عليه.

ومن بصيرته أيضا إدراكه أن النفس البشرية لا تتكون من العقل فقط ولا تتأثر به وحده، بل إن العاطفة لها إسهام في تغيير قناعات الناس، كما للعقل، فما كان من القرطبي إلا وأن عرج على جانب الترغيب والترهيب، والإنكار والتأنيب...الخ، وعرض دعوته في ثوب زاه قشيب يغري كل من كان له قلب أو ألقى السمع إلى اتباعه والاقتناع به.

---

(١) انظر: محمد السيد الوكيل، أسس الدعوة وآدابها، ص٦٣-٦٤، ط.٢، دار الوفاء، ١٤١٢هـ ١٩٩١م، مصر، ودار المجتمع، الخبر.

(٢) انظر: القرطبي، الإعلام، ص١٢٦.

ز) الحرص على هداية المدعو:

من السمات التي ظهرت على أسلوب القرطبي -رحمه الله- حرصه على هداية المدعو، فبالإضافة إلى التنويع في الأساليب وطرق المدعو بأكثر من حجة وإشباعه بأكثر من دليل، والذي يعد من الدلالات على حرص القرطبي على أن يصل إلى عقل المدعو وقلبه؛ ليرى سبيل الرشاد ويهتدي إلى الحق، كذلك يُرى القرطبي في أكثر من فرصة يتأسف لضلال الضالين ويدعو الله أن يهديهم وينير لهم الطريق، حيث يقول موجها حديثه لمخاطبه النصراني: «فالله يعلم أني أنظر إليك وإلى كافة خلق الله بعين الرحمة، وأسأله هداية من ضل من هذه الأمة، وأتأسف على الأباطيل التي ينتحلون، فإنا لله وإنا إليه راجعون»[1]، ويدعو مرة أخرى له ولغيره بالتوفيق والسداد، والهداية قائلا: «فنسأل الله تعالى أن ينور بصائرنا، ويسدد أحوالنا وأمورنا...»[2]، وهذه دلائل أخرى تثبت حرص القرطبي على هداية المدعو، وأن حديثه في الرد على النصارى لم يكن جدلا عقيما أو مراءا باطلا، أريد به مجرد الإفحام والانتصار على المجادل.

ح) الشدة والغلظة:

هذه السمة وإن كانت قد تحسب على الإمام القرطبي -رحمه الله- إلا أنها كانت سمة بادية في أسلوبه، والحق يجب أن يقال، وقد سبق الحديث في الفصل الثاني، المبحث الثالث، من هذا البحث في هذه المسألة، حيث أثرت البيئة السائدة في عصره للاتجاه نحو هذا الأسلوب الذي شاع في كتابات الردود، وفي الفصل القادم الخاص بالتقويم سيتم تناول هذه القضية إن شاء الله، وبحثها من ناحية مواضع استخدامها ومتى يجوز استعمالها ومتى لا يجوز؟ والقدر المسموح به في ذلك.

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص١٠١.

(٢) المصدر نفسه، ص١٠٣.

المبحث الثاني

سمات أسلوب القرافي في دعوة النصارى

يمكن حصر السمات البارزة في أسلوب القرافي -رحمه الله- في النقاط التالية:

أ) الحكمة:

إن من حكمة القرافي -رحمه الله- اختياره الديانة النصرانية للرد عليها؛ لأن البيئة التي كان يعيش فيها كانت مختلطة بين المسلمين والنصارى، وكانت الهجمات الصليبية العسكرية في عصره على أشدها، فاختار تثبيت المسلمين على دينهم ببيان ما أنعم الله عليهم من الدين القويم وإبراز سخافة الديانة النصرانية المحرفة، وتهافت شبهات أدعيائها[1]، وأن يحمي حوزة الإسلام ويدافع عنه بالفكر والقلم، أمام النصارى الذين طبقوا الأرض بطولها وعرضها رغم قلة علمهم وعدم فهمهم[2]، وتظهر الحكمة -أيضا- في أسلوب القرافي في دعوة النصارى في تنويع أساليب استدلالاته بين النقل والعقل والعاطفة والتنسيق الفني، فالجمود ليس من طبيعة الإسلام بصفة عامة، ولا من سمات أساليب الدعوة إلى الله بصفة خاصة.

ومن حكمة القرافي أيضا الاستدلال على النصارى بما يسلمون به عقلا أو شرعا، بحيث لا يمكنهم الانفصال عنه، إلى غير ذلك من أنواع الأساليب الشبيهة بأسلوب القرطبي والتي كانت ذات قيمة دعوية في دعوة النصارى إلى الإسلام.

ب) الشمول:

شمل أسلوب القرافي -رحمه الله- الأساليب الرئيسة للدعوة إلى الله، وهي أساليب الاستدلال بالنقل التي شملت بدورها النقل من القرآن، والسنة النبوية، والنقل من مصادر النصرانية المعتبرة، كالتوراة والأناجيل المعروفة وغير المعروفة، والأدعية

---

(١) انظر: الأجوبة الفاخرة، ص١٩٦.

(٢) انظر: القرافي، أدلة الوحدانية، ص٢٠.

والشعائر، وأقوال علمائهم، ونصوص عهودهم[1]...الخ، والاستدلال بالعقل الذي شمل بدوره القياس والتمثيل، والسبر والتقسيم، والمقارنة والتحدي، والاستقراء، والتلازم،..الخ، والأسلوب العاطفي، والفني الذي شمل الترغيب والترهيب، وتقديم التخلية على التحلية، والأهم على المهم، ومراعاة الفصاحة والبلاغة في التعبير،...الخ.

وشمل القرافي في دعوته المذاهب النصرانية التي كانت في عهده، كاليعقوبية، والنسطورية، والملكية، والآريوسية[2]، كما شمل في ردوده جانب العقائد، والعبادات، والتشريع، والشعائر في الديانة النصرانية، وإن ركز على القضايا الأساس التي ضل فيها النصارى كقضية التثليث، والبنوة، وصلب المسيح -عليه السلام- وتحريف كتابهم، ونبوة محمد ﷺ، ومن ثم صحة الإسلام.

ج) التنوع:

لم يعتمد القرافي -رحمه الله- في أسلوب خطابه للنصارى على أسلوب واحد أو أسلوبين، بل نوّع أساليبه، فلم يكتف بالاستدلال بالمنقول من مصادر النصارى وإن أعطاه أهمية أكبر، وركز عليه، بل أضاف إليه الاستدلال بالمنقول من مصادر إسلامية، والمعقول الذي يتفق عليه العقلاء، ويوافق أساسات التفكير العقلي، وخاطبهم أيضا بأساليب عاطفية تحرك فيهم الوجدان وتستجيشها، بالإضافة للأساليب الفنية التي تكمل حلقة الأساليب الدعوية، وتجذب المدعو إلى متابعة الإنصات ومواصلة التلقي لما يلقى إليه من معلومات.

د) قلة المنقول من القرآن، والسنة، وكثرة المنقول من الكتاب المقدس:

استم أسلوب القرافي في دعوة النصارى بقلة الاستدلال بالقرآن الكريم والسنة النبوية، وإكثاره من الاستدلال بما جاء في الكتاب المقدس عند النصارى، بالإضافة إلى الاستدلال بمصادرهم الأخرى، وكتابه (أدلة الوحدانية) ليس فيه آية واحدة من

---

(١) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٤٣، و١٤٤، وغيرها من الصفحات.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١٤١، وأدلة الوحدانية، ص٣٢.

القرآن الكريم، وفيه حديث واحد عن النبي ﷺ،[1] وهذا منهج وضعه لنفسه، فقد ذكر في مقدمة كتابه بأنه سيخاطب النصارى بفصوص نصوصهم، ويجمع مذاهبهم على جليّتها[2]، لذلك جاء هذا الكتاب ذاكراً مراحل انحراف عقيدة النصارى التي كانت تتأثر بالمجامع التي كانوا يعقدونها بين حين وآخر، ومبينا ضلالهم بأدلة من نصوص الكتاب المقدس عندهم، ونص الأمانة، بالإضافة إلى الحجج العقلية.

بينما أعطى للاستدلال بالقرآن والسنة في كتابه (الأجوبة الفاخرة) حضورا أوسع، وذلك لأن ظروف كتابة الكتابين مختلفة، فقد كتب الأخير في الأساس ردا على شبهات بعث بها أحد النصارى، وكان هذا النصراني يحاول الاستدلال على صحة دينه بآيات من القرآن الكريم، فكان لا بد من تصحيح مفترياته وسوء فهمه للقرآن بما جاء في القرآن والسنة، بينما أنشأ القرافي كتابه الأول بمبادرة من عنده بغية «الذب عن حوزة الدين، وحراسة بيضة المسلمين بالبحث في الملل والأديان وإقامة الدليل على وحدانية الملك الديان، بالنظر السليم والفكر القويم المفضي إلى المعارف المنجي من المتالف»[3]، فما وجد غير دين النصارى الضالين عن التوحيد، والقائلين بحلول اللاهوت والناسوت، فاختار في كتابه هذا أسلوبا معينا لدعوة النصارى إلى الإسلام، غير الأسلوب الذي سار عليه في كتابه (الأجوبة الفاخرة) الذي كان أوسع وأشمل من ذلك.

هـ) البصيرة:

تعامل الإمام القرافي -رحمه الله- مع الديانة النصرانية ودعوة أهلها ببصيرة نافذة، وذلك أنه لم يتعسف برمي هذه الديانة وأهلها بما ليس فيها، بل أخذ على نفسه أن يأتي بما يقولون بأنفسهم في كتبهم المقدسة ومصادرهم الأخرى، ثم

---

(١) انظر: القرافي، أدلة الوحدانية، ص٩١.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٠.

ينقدها نقدا علميا، معتمدا على النقل والعقل، فهو يتعامل ببصيرة مع ما ينقله من مصادر النصارى، وما يورده من أدلة عقلية تفند ما ذهب إليه النصارى من مذاهب ضالة، بل هو بصير -أيضا- بتاريخ العقيدة النصرانية وجذور انحرافها؛ لذلك استعرض المجامع العشر التي عقدها النصارى بدءاً من مجمع نيقية، وانتهاء بالمجمع العاشر، وذكر أبرز القرارات التي صدرت عن هذه المجامع التي كان لها دور في تثبيت المعتقدات الخاطئة وإبطال المعتقدات الصحيحة[1]، فحديثه عن النصرانية لم يكن من فراغ بل كان منطلقا من أدلة ثابتة، وتحليلات دقيقة مبنية على أسس علمية، وهذا ما يدعو إلى القول بتميز أسلوبه بالبصيرة.

و) الشدة والغلظة:

وتتمثل هذه السمة في عبارات السب والشتم، والاستهزاء والسخرية الذي حفل به أسلوب القرافي في دعوة النصارى، وهو في الحقيقة لا يترك فرصة سانحة تفوته في أثناء عرض أقوالهم إلا واقتنصها لتعنيفهم بعبارات قاسية، ووسمهم بالجهل وقلة العقل، وسقامة التفكير، وسوء الفهم، إلى غير ذلك من الألفاظ الدالة على عدم التعامل معهم بالرفق واللين، وحسن العبارة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وقد مضى القول في هذا الشأن بنوع من التفصيل في مبحث أثر البيئة على أسلوب القرافي، في الفصل الرابع، وسوف تستكمل جوانبه الأخرى في الفصل الخاص بالتقويم إن شاء الله تعالى.

---

(١) انظر: القرافي، أدلة الوحدانية، ص ٣٩-٥٥.

المبحث الثالث

أبرز وجوه الاختلاف والاتفاق بين أسلوبي الإمامين

اتفق الإمامان القرطبي والقرافي -رحمهما الله- في بعض الأساليب واختلفا في بعضها الآخر، ويلاحظ أن أوجه الاتفاق بينهما أكثر من أوجه الاختلاف، بل إنهما قد يتفقان لفظا ومعنى في مواقف كثيرة سيأتي ذكرها بعد قليل إن شاء الله.

فالإمامان اتفقا قبل كل شيء في استخدام الأساليب العامة في الاستدلال على النصارى التي تمثلت في أساليب الاستدلال بالمنقول بأنواعه، والمعقول بأنواعه، واستخدام الأساليب العاطفية، والفنية، بأنواعها الكثيرة، ويمكن إيراد بعض النماذج الأكثر اتفاقا بين أسلوبي الإمامين في النقاط التالية:

أ/ اتفاقهما في المنقول عن مصادر النصارى:

لم يكن اتفاقهما محدودا فقط في النقل من الكتاب المقدس لدى النصارى وإن اختلفت الألفاظ نظرا لاختلاف تراجم الكتاب المقدس، إلا أنهما أيضا اتفقا في النقل عن أقسة النصارى المعتمدين ونقد مقالاتهم، فنقلا عن أغشتين، ما قاله في (مصحف العالم الكائن)[١]، وكذلك اتفقا في النقل عن كتب النصارى الفقهية، وبالذات ما كتبه القسيس حفص بن البر[٢].

واستخدم الإمامان هذه النصوص المنقولة في إبراز تحكم النصارى في نصوص كتبهم، وعدم تطبيقهم لكل ما جاء فيها، وتناقض الكتاب المقدس عند النصارى؛ مما يعني تحريفه، وإثباتِ عقائد تخالف ما يعتقدون من ألوهية عيسى -عليه السلام- وبنوته، وصحة نبوة محمد ﷺ ...الخ.

ب/ اتفاقهما في الاستنباط:

ومن ذلك أن الإمامين -رحمهما الله- ذهبا إلى نفي وقوع الصلب على عيسى

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٥٠١،وما بعدها، وص١٤٢ وما بعدها. وانظر القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٢٠.

(٢) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٤٢٢، والقرافي، الأجوبة، ص١٦٠.

-عليه السلام- من خلال استقراء نصوص الأناجيل التي جاء فيها ذكر حادثة الصلب، واستنبطا من مجمل النصوص أربعة احتمالات تكاد تكون موحدة، وكأن الطرفين نقلا من مصدر واحد، أو اطلع أحدهما على كتاب الآخر، وتتلخص هذه الاحتمالات في:-

١- احتمال كذب يهوذا في الإشارة إلى المسيح -عليه السلام-.

٢- احتمال أن يكون المسيح -عليه السلام- مع الجماعة التي قيل إن الأعوان قد أطلقوهم.

٣- احتمال أخذ الأعوان الرشوة لإطلاق سراح المسيح -عليه السلام- كما أخذوا عن غيره.

٤- احتمال تصوير الله لهم شبيها بعيسى -عليه السلام- ورفع الله له[1].

ج/ اتفاقهما في الحجج العقلية:

في نفيهما لقضية اتحاد روح الله تعالى بجسد عيسى -عليه السلام- اعتمد القرطبي والقرافي -رحمهما الله- على استحالة مفارقة الصفة الموصوف، وأن الممكن هو وجود مثل تلك الصفة في الغير، لا أنها نفسها تتحرك من محل إلى محل؛ لأن الحركات من صفات الأجسام، والصفة ليست جسما[2].

وعارض الإمامان أن يكون إحياء عيسى -عليه السلام- الأموات دليلا على ألوهيته بتمثيل هذا الإعجاز بإحياء الأنبياء قبله والحواريين من بعده الأموات في مواقف كثيرة، كما ذكرت التوراة والإنجيل التي يعتقد النصارى صحتها[3].

واتفقا كذلك في استخدام أسلوب التسليم الجدلي، لبعض القضايا، ومنها قضية المعمودية، فيقول القرطبي مثلا: «سلمنا جدلا ما ذكرتم من إسناد المعمودية إلى ما ذكرتم، لكن لم قلتم كما فعلها يحيى والحواريون نفعلها؟ ولعل الله خص

---

(١) انظر القرطبي، الإعلام، ص٤١٤-٤١٦، والقرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٨٨-٨٩

(٢) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٨٥، والقرافي، الأجوبة الفاخرة ص٣٤.

(٣) انظر: القرطبي، الإعلام، ص١٣٦، والقرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٩٥.

يحيى والحواريين بعمل المعمودية...الخ»[١].

وقال القرافي: «سلمنا جدلا صحة ما ذكرتموه في النقل، فلم قلتم أنه إذا عمد يحيى -عليه السلام- والحواريون نعمد نحن؟ فلعله مخصوص بهم؟ فما الدليل على أن ما فعلوه كان شرعا عاما...»[٢].

د/ اتفاقهما في إيراد الحجج الشعرية والأمثال السائرة:

مثلت الأبيات الشعرية والأمثال السائرة عند القرطبي والقرافي -رحمهما الله- أحد الأساليب العاطفية، ومن المواقف التي اتفق فيها الإمامان في استخدام هذين الأسلوبين لفظا ومعنى ومحلا سخريتهما من عقيدة النصارى بالأبيات الشعرية التي مطلعها:

«عجبي للمسيح بين النصارى وإلى أي والد نسبوه؟

أسلموه إلى اليهود وقالوا إنهم بعد قتله صلبوه»

إلى آخر الأبيات[٣].

ومن الأمثال السائرة التي أوردها الطرفان «ليت الفُجلَ يهضم نفسه»[٤] و «هل يصلح العطار ما أفسده الدهر»[٥] وقد استعملاهما في موطن ذي غرض واحد، معرضين بذلك على عدم أهلية النصارى، وعلى محاولات بعض قسسهم اليائسة في

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٤٠٤.

(٢) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٨٩.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٤١٩، والقرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٨٩.

(٤) القرطبي، الإعلام، ص٤٠٤، القرافي الأجوبة الفاخرة، ص١٩٠. عد الميداني هذا المثل من المولّد، انظر: الميداني، مجمع الأمثال، ج٢، ص٢٥٧، وهذا المثل يُضرب لمن يُقبل على مساعدة الناس وهو أحق منهم بالمساعدة، انظر: إميل بديع يعقوب، موسوعة أمثال العرب، ج٥، ص٢٢٣، ط١، دار الجيل، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، بيروت.

(٥) القرطبي، الإعلام، ص٤٢٣، والقرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٦٠. وسبق شرح المثل، في ص٢٧٢.

إصلاح ما لا يمكن إصلاحه من ديانة النصارى المحرفة.

هـ/ اتفاقها في ذكر الخرافات التي يروجها النصارى:

اتفق الإمام القرطبي، والإمام القرافي -رحمهما الله- في حكاية الخرافات التي يروجها رجال الدين النصارى ويعتمدون عليها في تضليل عامتهم وتثبيتهم على الدين النصراني، ومن ذلك حكاية قصة الصلبان المعلقة في الهواء دون أن يمسكها شيء، وحكاية القنديل الذي يشتعل بلا نار، وحكاية مصافحة يد الله للخلق في يوم معلوم من السنة، بالإضافة إلى قصة نزول مريم بطليطلة لكسوة المطران[١]، فاتخذ الإمامان من هذه الحكايات التي ثبت بطلانها دليلا واضحا على بطلان الديانة النصرانية؛ حيث تفتقد هذه الديانة الأدلة المقنعة سواء أكانت نقلية أم عقلية، وهو ما حدا برجال الدين النصراني إلى الاتجاه إلى هذا الأسلوب السخيف للمحافظة على أهل دينهم، ومنعهم من البحث عن الأديان المقنعة، والدخول فيها.

وبالنظر إلى جانب الاتفاق بين العالمين يكاد المرء يجزم بأنهما نقلا من مصادر واحدة، أو أن أحدهما ناقل عن الآخر، فإذا قيل بنقل أحدهما عن الآخر؛ فالراجح أن يكون الناقل الإمام القرافي -رحمه الله-[٢]؛ لأنه متأخر عن القرطبي بعض الشيء، والقرطبي -رحمه الله- ألف كتابه وهو في الأندلس أي في فترة متقدمة، والقول بنقل الطرفين عن مصادر أخرى أيضا له وجه قوي وإن لم ينص الطرفان على ذلك، فمن النتائج التي توصلت إليها الدراسات السابقة بعد مقارنة كتب الرد على النصارى أن الجدل الإسلامي النصراني «قد اكتملت معالمه في نهاية القرن الرابع الهجري، وأن الردود المؤلفة في القرون الموالية إنما كانت تردد ما كتب في القرون الأربعة الأولى وخاصة في القرنين الثالث والرابع، ولم تزد في الغالب على

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٣٨٤-٣٨٦، والقرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢٣-٢٥، و١٥٨.

(٢) جزم الباحث عبد الراضي بن محمد عبد المحسن في كتابه منهج أهل السنة والجماعة في الرد على النصارى، ص٤٢٠ بنقل القرافي عن القرطبي نقلا حرفيا.

التحليل ودعم الاستشهاد بالنصوص أو التعمق في اتجاهات سلكها الأقدمون»[١]، وعلى سبيل المثال فإن القرطبي -رحمه الله- في أثناء دفعه الشبهات التي يثيرها النصارى بشأن معجزة انشقاق القمر على عهد رسول الله ﷺ جاء بكلام قريب من كلام الباقلاني[٢] -رحمه الله- في مناظرته مع ملك الروم، وذلك فيما يخص بأدلة الجمع بين إمكان وقوع هذه الآية مع عدم رؤيتها من قبل أناس آخرين في أقطار المعمورة...الخ[٣]، والباقلاني متقدم على القرطبي -رحمهما الله- بقرنين من الزمان، مما يثبت إفادة العلماء المتأخرين ممن سبقهم في أساليب مخاطبة النصارى والرد عليهم.

وأشار محقق كتاب (مقامع الصلبان) للخزرجي -رحمه الله- إلى احتمال إفادة القرطبي -رحمه الله- من هذا الكتاب واستغلاله له دون أن يدل عليه، استنادا إلى ما وجده من تشابه في حجج العالمين[٤].

والإمام القرطبي -رحمه الله- لم ينف استفادته من كتب من سبقه من علماء المسلمين، بل هناك من كلامه ما يثبت ذلك حيث يقول: «ونحكي مذاهبهم بألفاظهم كما وجدتها في كتبهم ، ولم أعوّل في ذلك على نقل علمائنا فقط، بل تتبعت ما أمكنني من كتبهم»[٥].

---

(١) عبد المجيد الشرفي، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، ص٦.

(٢) هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد القاضي المعروف بابن الباقلاني، اشتهر بالجدل والمناظرات، وله عدة مولفات، توفي في سنة ٤١٣هـ.

انظر: عياض بن موسى اليحصبي السبتي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: د. أحمد بكير محمود، ج٤، ص٥٨٨، ط، دار مكتبة الحياة، بيروت.

(٣) انظر المصدر نفسه، ج٤، ص٥٩٧-٥٩٨، والقرطبي، الإعلام، ص٣٤٩.

(٤) انظر: الخزرجي، مقامع الصلبان، ص١٧، مقدمة المحقق.

(٥) القرطبي، الإعلام، ص٧٩.

والذي يدعو المرء إلى التشدد في القول بوجود هذه العلاقة القوية بين أسلوب القرطبي والقرافي اتحاد ألفاظهما في مواطن من كتبهما، فعلى سبيل المثال يقول القرطبي -رحمه الله- في مسألة المعمودية: «أطبقت النصارى على اختلاف فرقهم على القول بالمعمودية، وصفتها عندهم: أن الذي يريد أن يدخل في دينهم، أو التائب منهم تتقدم الأقسة منه، فيمنعونه من اللحم والخمر أياما ثم يعلمونه اعتقادهم وإيمانهم، فإذا تعلم ذلك اجتمع له القسيسون فتكلم بعقيدة إيمانهم أمامهم، ثم يغطسونه في ماء يغمره، وقد اختلفوا...»[1]، ويقول القرافي -رحمه الله- في المسألة نفسها: «أطبقت النصارى على اختلاف فرقهم على القول بماء المعمودية، وصفته أن الذي يريد أن يدخل في دينهم أو يتوب منهم تمنعه الأقسة من اللحم والخمر أياما، ثم يعلمونه اعتقادهم، ثم يجتمع القسيسون فيكلمونه بعقيدة إيمانهم ثم يغطسونه في ماء يغمره...الخ»[2]، فلا ريب أن الناظر إلى هذين النصين لن يشك في وحدتها، فهما متفقان تقريبا لفظا ومعنى، والاختلاف الذي فيهما لا يتعدى أن يكون عبارة عن أحرف، أو زيادة كلمة أو نقصانها، مما لا يغير من المعنى شيئا.

ونظرا لهذا الاتفاق الشديد بينهما في الألفاظ والمعاني جاءت أيضا أغلب السمات في أسلوبيهما متفقة، بل إن الإمامين يتفقان أيضا في رؤيتهما لقيمة الرد على النصارى، حيث يذهبان إلى قلة الجدوى من الرد على النصارى، وذلك لقلة عقول القوم[3].

أما أوجه الاختلاف فتمثلت في:-

أ/ المنقول من القرآن والسنة:

أكثر الإمام القرطبي -رحمه الله- من أسلوب الاستدلال بالمنقول من القرآن الكريم، والسنة النبوية، بينما لوحظ على القرافي -رحمه الله- التقليل من ذلك، ولعل

(١) القرطبي، الإعلام، ص٤٠٣.

(٢) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٨٩.

(٣) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٤٤-٤٥، وأيضا ص٤١٩، والقرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٢٥-٢٦.

السبب يعود إلى أن القرطبي يعد من علماء التفسير والحديث، بينما القرافي يعد أصوليا فقيها، أو قد يكون الأمر عائدا إلى تقدير كل واحد منهما لقيمة هذه الأدلة في إقناع النصارى، فأكثر القرافي من الاستدلال بالمنقول من الكتاب المقدس لدى النصارى وغيره من المصادر المعتبرة عندهم، لتكون الحجة عليهم من مسلماتهم، بينما قلل من الاستدلال بالقرآن والسنة اللذين لا يعترف النصارى بهما.

والصحيح أن القرآن والسنة حجة على النصارى، «فإن الله يبين في القرآن ما خالفوا به الأنبياء ويذمهم على ذلك»[١]، والسنة مكملة ومبينة لما في القرآن، وفي الاثنين حقائق تأريخية، وحجج عقلية تدفع شبهات النصارى وتبطلها، وقد دعا الرسول ﷺ بما جاءه من وحي القرآن والسنة النصارى إلى الإسلام، وحاجهم به.

ب/ التوثيق:

كان الإمام القرطبي أكثر دقة من الإمام القرافي -رحمهما الله- في توثيق النصوص المنقولة عن المصادر النصرانية، فكثيرا ما يذكر الكتاب الذي نقل عنه، ويصرح بالكاتب الذي ينقل عنه، ففي تأويل المعمودية عند النصارى مثلا: ذكر القرطبي الموطن الذي أخذ عنه هذه المعلومة فقال: «وقد كتب الأسقف ليون إلى أساقفة صقلية رسالة ذكر لهم فيها أمر المعمودية وفضيلتها فقال: هي إماتة الذنوب، وتأويل الغطسات الثلاث: مكث المسيح في قبره ثلاثة أيام»[٢]، بينما ذكر القرافي هذا التأويل دون أن يسنده إلى أحد[٣]، مما يجعل قيمة أسلوب القرطبي أعلى من قيمة أسلوب القرافي في دعوة النصارى، وتأثيره أبلغ وأقوى؛ لأنه أورد التأويل موثقا عن مصدر نصراني معتبر.

---

(١) ابن تيمية، الفتاوى، ج١٩، ص١٨٨.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٤٠٣.

(٣) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٨٩.

الفصل السابع

تقويم أسلوب الإمامين والدروس الدعوية المستخلصة من ذلك

تمهيد: ضوابط التقويم

المبحث الأول: نتائج التقويم

المبحث الثاني: الدروس الدعوية المستخلصة من أسلوب الإمامين في دعوة النصارى

تمهيد

ضوابط التقويم

إن أي جهد بشري يعتريه الخطأ والصواب إلا من عصمه الله من الأنبياء والرسل، وعند تعرض الباحث لأسلوب الإمامين القرطبي والقرافي -رحمهما الله- بالتقويم لا يعني ذلك أن الباحث يحاول الطعن في علم الإمامين، أو يضع نفسه قاضيا يصدر الأحكام على الإمامين الجليلين، فهو أقل من أن ينصب نفسه في هذا الموضع أمام هذين العالمين الجليلين، ولكن لما كان البحث العلمي يتطلب أن يكون للباحث آراؤه النابعة من تحليلاته ومعايشته لبحثه كان لا بد وأن يعرِض الباحث أسلوب الإمامين على أساليب الكتاب والسنة في دعوة النصارى، وعلى القواعد العلمية للحوار والمجادلة مع النصارى، وأصول الرد على المخالف، وآداب البحث والمناظرة، دون الالتزام بالقواعد والقوانين التي تعارف عليها أهل المنطق، بل يؤخذ منها ما وافق الشرع والعقل، وكانت له قيمة في مخاطبة العقل وفي الإقناع، فالعلوم العقلية «لا تقف على ميزان وضعي لشخص معيّن، ولا يقلد في العقليات أحد»[١].

وتنحصر المصادر التي تستقى منها أساليب الدعوة الناجحة في خمسة مصادر:-

١/ القرآن الكريم.

٢/ السنة النبوية.

٣/ سيرة السلف الصالح.

٤/ استنباطات الفقهاء.

٥/ التجارب السابقة[٢].

وقد خاطب القرآن الكريم النصارى بأساليب أسمى من المنطق، وأسمى من الخطابة، فترى فيه من الاستدلال بالأدلة المحسوسة الملموسة التي لا يماري فيها

---

(١) ابن تيمية، الرد على المنطقيين، ص٢٦-٢٧.

(٢) انظر: د. عبد المنعم محمد حسنين، الدعوة إلى الله على بصيرة، ص٢٠٢-٢٠٧.

إلا مكابر، ومن الأدلة العقلية البدهية ما يقتنع به البشر عامة على تفاوت أصنافهم وتعدد مشاربهم وتباين مداركهم وأفهامهم، فهو المثل الكامل الذي لا يدانيه بيان متكلم، ولا يسمو إلى أساليبه وطرق استدلالاته حجج مستدل أو مجادل[(١)].

«فطريق القرآن الكريم في الاستدلال وتوجيه العقول والمشاعر لإدراك أعمق الحقائق أيسر وأشمل وأقوم... وأسلوبه يعتمد على تلوين الخطاب وتلوين الأحداث وتلوين الأخبار، وتلوين الشخوص والمعالم لتتلقاه العقول السليمة يقظة متدبرة...»[(٢)]

والسنة النبوية كما أنها مبينة ومنشأة للأحكام فهي كذلك مبينة ومفصلة لأساليب القرآن الكريم في الدعوة، ومنشأة لأساليب دعوية أخرى ينبغي أن تكون زادا للداعية في مسيرته الدعوية يقتبس من نور هذين المصدرين في الوصول إلى قلوب المدعويين.

وسيرة السلف واستنباطات الفقهاء إنما هي امتداد للقرآن والسنة، فالسلف الصالح هم أقرب الناس لفهم نصوص هذين المصدرين وأحرص الناس على الأخذ بهما والعمل بمقتضاهما، وفقهاء الشريعة الإسلامية إنما يستنبطون استنباطاتهم من هذين المصدرين اللذين لا ينضبان.

وتأتي تجارب العقلاء لتعطي الدعاة مجالا أوسع، ومساحة أرحب في اختيار الأساليب الدعوية المناسبة للمدعو، وهذه التجارب إنما هي مبنية على ما وهب الله الخلق من موازين العقل والفهم في استخلاص بعض القواعد من خلال ما اكتسبوه من معارف وتجارب في التعامل مع الناس على اختلاف أصنافهم وأمزجتهم، وبما أن التجارب مسائل عقلية اجتهادية؛ فهي لا بد أن تسير في إطار المنهج العام لأساليب القرآن الكريم والسنة النبوية، وسيرة السلف الصالح، ولا تناقضها أو تعارضها.

---

(١) انظر: محمد أبو زهرة، تاريخ الجدل، ص٥٩-٦٤

(٢) محمد الصادق عرجون، القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، ص٢٨٣، ٢٨٩، ط/ مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٦هـ، ١٩٦٦م، القاهرة.

ولذلك فإن ضوابط التقويم لا بد لها أن تكون نابعة من هذه المصادر، ومتمشية معها حسب أهميتها، وسواء عُدّ الجهد الدعوي الذي قام به كل من الإمام القرطبي والقرافي -رحمهما الله- من باب مجادلة النصارى، أو من باب دعوة النصارى بصفة عامة إلى الإسلام فإنه يمكن تلخيص الأسس والقواعد والضوابط التي تضبط الحكم على أسلوب الإمامين في النقاط التالية:[١]

١/ أن تكون دعوتهم بالحسنى، وهي رأس القواعد، ويمكن أن تندرج تحتها بقية القواعد، وقد أمر الله تعالى نبيه الكريم أن يدعو الناس عامة بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[٢] وخص أهل الكتاب بالذكر حاصراً أن تكون مجادلتهم بالحسنى، وذلك زيادة في التنبيه بشأنهم، فقال تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾[٣]، وكل ما جاء في الكتاب والسنة من خطاب يدعو النصارى إلى الإسلام كان بأسلوب فيه الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

٢/ اتباع الطرق السليمة في إقناع المدعو، فلا بد أن تستند الدعوى إلى دليل

---

(١) الكتابات حول هذا الموضوع كثيرة ومتشابهة، فقد كتب الشيخ/ عبد الرحمن الميداني في كتابه ضوابط المعرفة حول هذا الموضوع وكرره في كتابه فقه الدعوة إلى الله، وهناك رسائل جامعية، مثل كتاب: الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، رسالة ماجستير المقدمة من يحيى بن محمد زمزمي، إلى كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، عام١٤١٣هـ، وهي لا تختلف عن غيرها فيما جاء فيها من الضوابط والآداب، لذلك فإن الباحث سيحاول الإفادة من هذه المراجع ومن غيرها للخروج بالضوابط التي تعين في تقويم أسلوب الإمامين.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

عقلي أو نقلي، ولا بد أن يتأكد الداعية من صحة ما ينقله عن غيره، ولا يسرد الدعاوى بلا دليل، وكما يقال: «إن كنت ناقلا فالصحة أو مدعيا فالدليل»[1]، ولا ينقض بعض كلامه البعض الآخر، ولا يخالف ما يؤمن به أصلا، ويحرص على أن لا يكون دليل الدعوى تكرارا للدعوى التي يدعيها، ويحاول مخاطبة العقل والوجدان معا، ويبتعد عن التشهي والتحكم بالدليل، ويقبل الحق الذي ثبت بالأدلة القاطعة أو المرجحة مهما كان مصدره، فالحكمة ضالة المؤمن، وهو أحق بها حيث وجدها.

٣/ إحكام النقض في أثناء الطعن في دعاوى الخصم، بالالتزام بالطرق الإقناعية الصحيحة العقلية منها والنقلية من المطالبة بتصحيح الدعوى وإقامة الأدلة عليها، والابتعاد عن السباب والاستهزاء والسخرية والازدراء بالخصم.

٤/ الاهتمام بالجانب الفني والشكلي من حسن الصياغة، واختيار الألفاظ الجزلة، وانتقاء أطايب الكلام وتحلية الحديث بالأساليب البلاغية الجميلة، وتزيينه بالحِكم والأمثال والأشعار، والبعد عن العبارات الركيكة الساقطة[2].

---

(١) هذه مقولة يوردها أغلب الذين كتبوا في آداب البحث والمناظرة، ولم أجد من ينسبها منهم إلى أحد بعينه.

(٢) انظر: د. بكر بن عبد الله أبو زيد، الرد على المخالف من أصول الإسلام، ص٦٢-٦٨، ط، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الدمام، عبد الرحمن الميداني، ضوابط المعرفة، ص٣٦٢-٣٦٩، وفقه الدعوة إلى الله، ج١، ص٦٣٩-٦٤٨، د. توفيق الواعي، الدعوة إلى الله، ص٣٠٥، محمد المظفر، المنطق، ص٣٨٠، د. زاهر الألمعي، مناهج الجدل، ص٤٤٥-٤٥٣. د. أحمد نافع سليمان المورعي، الحكمة والموعظة الحسنة، ص٣٩٣-٤٠٧. عثمان علي حسن، منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، ج٢، ص٦٩١-٧١٥، ط/١، مكتبة الرشد، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م، الرياض.

المبحث الأول
نتائج التقويم

المطلب الأول
المحاسن

يبدو واضحا أن الإمامين -رحمهما الله- حاولا الاستفادة من أساليب القرآن الكريم والسنة النبوية في الدعوة عموما، وفي دعوة النصارى خصوصا، ويظهر ذلك جليا في نقولاتهما من القرآن الكريم والسنة النبوية سواء التي تحمل في ذاتها ردا على الشبهات التي يثيرها النصارى ضد الإسلام، أو كانت تحتوي على براهين عقلية تدل على بطلان عقائد النصارى المنحرفة، «وإن المنتفعين بأساليب الحوار والجدل القرآنية هم أكثر أهل الحوار والجدال أدبا رفيعا وحسا مرهفا في تصيد أساليب الإقناع وطرائق إقامة الحجج الدامغة، ومعرفة أحكم الكلام وأقرب السبل للوصول إلى محاصرة الفكر والنفس وأعمق المشاعر لدى من يوجه لهم الخطاب بحسب أحوالهم»[١].

وإجمالا فإن القرآن الكريم والسنة النبوية قد سلكا أساليب الاستدلال العقلي، والإقناع العاطفي، وصاغاها بطرق فنية مؤثرة، وهو ما حذا الإمامان حذوه بصفة عامة.

ومن أجل تأكيد ذلك فإن الباحث هنا سيكتفي بإيراد نماذج تبين بعض أساليب القرآن والسنة في الدعوة، وطرق رديهما على النصارى المنحرفين؛ وذلك لأن المقام لا يتسع للحديث عن هذه الأساليب بالتفصيل[٢].

فبالنسبة للأساليب العقلية في الاستدلال، أولَى القرآن الكريم الجوانب العقلية

---

(١) عبد الرحمن الميداني، مبادئ في الأدب والدعوة، ص١٤.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: السيوطي، الإتقان، ج٢، ص٣٧٩ وما بعدها، وأبو زهرة، تاريخ الجدل، ص٦٤ وما بعدها وغيرها من الصفحات، والألمعي، مناهج الجدل، ص٧٤-٩١.

في الاستدلال عناية كبيرة لتأسيس الإيمان وترسيخه في قلوب البشر، وعامل المنحرفين عن الحق في ردهم إلى الحق بما يتناسب مع أحوالهم الاعتقادية، ولذلك جاء جدل القرآن مع أهل الكتاب جدل تخطئة وإلزام لما يعرفون من العلم، بينما كان جدله مع المشركين جدل هداية ودلالة[١]، فمن أساليبه العقلية:

* *القياس:*

من مناحي القرآن في الاستدلال العقلي القياس، سواء أكان قياس الشمول أم قياس التمثيل، ففي قوله تعالى: ﴿**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**﴾[٢]، قياس من نوع الأقيسة الإضمارية – وهي كثيرة الورود في القرآن– التي تحذف فيها إحدى المقدمات، فقد أبانت الآية مماثلة عيسى لآدم –عليهما السلام– في الخلق، فإن خلق آدم كخلق كعيسى من غير أب، فلو كان هذا سبب بنوة عيسى لله –حسب زعم النصارى– فإن آدم مثل عيسى في ذلك، بل أحق وأولى منه، ولم يقل أحد من النصارى ببنوة آدم، فبطل بذلك ادعاء بنوة عيسى –عليه السلام–[٣].

وفي الوقت نفسه يمكن أن يقال إن في الآية قياس الأولى، لأن العلة في آدم –عليه السلام– أقوى، لعدم وجود الأب والأم، فكان الأولى أن يكون هو الابن بناء على تصور النصارى، كذلك يمكن أن يعد من باب قياس التمثيل لأن الله سبحانه وتعالى مثل حالة عيسى بحالة آدم –عليهما السلام– في عدم تولدهما بالطريقة الطبيعية التي سنها الله –سبحانه وتعالى– في بقية خلقه.

ومن أنواع القياس التي وردت في القرآن أيضا قياس الخلف، وذلك في قوله تعالى: ﴿**ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما**

---

(١) انظر: الألمعي، مناهج الجدل، ص٨.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٥٩.

(٣) انظر: محمد أبو زهرة، تاريخ الجدل، ص٦٤–٦٦. ود. الألمعي، مناهج الجدل، ص٧٦–٧٧.

خلق، ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾[1]، فقد أثبت الله سبحانه وتعالى فيها المطلوب الذي هو وحدانية الله بإبطال نقيضه الذي هو تعدد الآلهة.[2]

وفي الآية أيضا **تسليم جدلي، وإبراز قول النصارى بالمحال العقلي**، تقديره: «أنه لو سلم أن معه سبحانه وتعالى إلها لزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق،... فلا يتم في العالم أمر ولا ينفذ حكم،... والواقع خلاف ذلك، ففرض إلهين فصاعدا محال لما يلزم منه المحال»[3].

* *الاسترداد التاريخي*:

مما جاء في القرآن أيضا أسلوب الاسترداد التاريخي وذلك في قوله تعالى: **﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾**[4]، وتمضي الآيات تبين حقائق أخرى تمثلت في إيمان الحواريين برسالة عيسى -عليه السلام- وطلبهم مائدة من السماء لتطمئن قلوبهم، وهذه حقائق تاريخية تثبت مكانة عيسى -عليه السلام- عند الله وحقيقته، وتنفي عنه غلو النصارى المتمثل في زعم البنوة والألوهية في حقه.

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٩١.

(٢) انظر: أبو زهرة، تاريخ الجدل، ص٦٦.

(٣) السيوطي، الإتقان، ج٢، ص٣٨٠-٣٨١.

(٤) سورة المائدة: آية ١١٠.

* *التلازم* :

ومن أسلوب الاستدلال بالتلازم قوله تعالى: ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا، ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير**﴾[1]، «وتقريره: لو كان المسيح هو الله لما قدر الله على إهلاكه وإهلاك غيره من الموجودات، فلا يكون المسيح هو الله، بيان الملازمة أن الله عز وجل لا يهلك نفسه وليس ذلك من الممكن حتى يؤثر القدرة فيه...»[2].

* *التحدي*:

من أسلوب التحدي قوله تعالى: ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين**﴾.[3]

ومنه كذلك آية المباهلة، التي وردت في شأن وفد نصارى نجران، قال تعالى: ﴿**فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين**﴾،[4] وقد بينت السنة أن الرسول ﷺ أراد أن يلاعنهم واستعد لذلك إلا أن زعيما الوفد فضلا الاستقالة عن الملاعنة، فقد جاء في صحيح البخاري أنه: «جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه،

---

(١) سورة المائدة، آية: ١٧.

(٢) نجم الدين الطوفي، علم الجذل في علم الجدل، ص١١١.

(٣) سورة البقرة، آية:٢٣-٢٤.

(٤) سورة آل عمران، آية: ٦١.

فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلا أمينا حق أمين، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: قم يا أبا عبيدة ابن الجراح[1]، فلما قام قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة»[2].

* *المعارضة:*

وذلك في قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناؤ الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾[3]، فقد عارض الله سبحانه وتعالى دعوى اليهود والنصارى اختصاصهم بمحبة الله، بأن بيّن أن الله يفعل ما يشاء ويعاملهم كبقية الخلق يعذب منهم من يشاء، ويتجاوز عن من يشاء؛ فدعوى المحبة منفية لوقوع العذاب عليهم من عند الله.

* *المقارنة والمقابلة:*

ومن أسلوب المقابلة قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قوله بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾[4]، فالله سبحانه يقارن عقيدة اليهود والنصارى بعقائد من سبقهم، ويبين أن عقيدة ادعاء نسبة الولد لله تعالى ليست جديدة، ولا مختصة بالنصارى واليهود وحدهم، إنما هي من ضلالات أمم سبقت أهل هاتين الديانتين.

---

(١) أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الفهري، مشهور بكنيته، من السابقين في الإسلام، أحد العشرة المبشرين، هاجر الهجرتين، شهد بدرا وما بعدها، توفي في طاعون عمواس بالشام عام ١٨هـ. انظر: ابن حجر، الإصابة، ج٢، ص٢٥٢

(٢) البخاري، كتاب المغازي٦٤، باب قصة أهل نجران٧٢، ج٥، ص١٢٠.

(٣) سورة المائدة، آية:١٨.

(٤) سورة التوبة، آية: ٣٠.

* *التعريف:*

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يوفكون﴾[١] يبين الله تعالى حقيقة عيسى وأمه -عليهما السلام- وماهيتهما، فيبين بشريتهما باحتياجهما الطعام، ويبين مقامهما من بين الخلائق، فعيسى رسول من رسل الله -عليهم أفضل الصلاة والتسليم- وأمه صديقة من الصديقين، ولا يعدوان ذلك.

* *دعوة الخصم بمسلماته:*

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين ءامنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾[٢].

فالله سبحانه وتعالى يدعوهم بما بين أيديهم من الكتاب للإيمان بنبوة محمد ﷺ والأخذ برسالته، وهم يعرفونه حق المعرفة بما يجدونه في كتبهم من اسمه وعلاماته، فيحتج عليهم سبحانه وتعالى بما يسلمون به من الحقائق ويعتقدون صحته؛ ليلزمهم بذلك للإيمان بدعوة الإسلام.

* *المطالبة بالدليل والبرهان:*

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[٣]، فادعاؤكم أيها النصارى بأنكم أهل الجنة دعوى تحتاج إلى دليل يؤيدها و«لا نسلم صحة ما

---

(١) سورة المائدة، آية: ٧٥.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٣) سورة البقرة، آية١١١.

زعمتوه، إنما هي دعوى مجردة فأين برهانها»[١].

* *إثبات تناقضهم:*

وذلك في قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾[٢]، كيف للنصارى أن يدّعوا بأن إبراهيم -عليه السلام- منهم، وهم في الوقت نفسه يعتقدون أن الإنجيل متأخر عن عصره، بل نزل في عهد المسيح -عليه السلام-، فالقضيتان متناقضتان لا يجتمعان أبدا.

* *إبراز تحكمهم وتحريفهم:*

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾[٣]، وقوله ﴿وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾[٤]، فالله سبحانه وتعالى يبرز مدى تحكم أهل الكتاب بالدليل فيخفون من الأدلة ما لا يوافق أهواءهم وإن كان حقا، ويحرفون الحق ليكون مسايرا لشهواتهم ورغباتهم؛ فيفترون على الله الكذب.

* *إبراز قولهم بالمحال:*

سبقت الإشارة إلى أن عقائد النصارى تستلزم المحال العقلي[٥]، وهي كذلك تستلزم المحال الشرعي وقد أبرزه الله تعالى في قوله: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه

---

(١) الطوفي، علم الجذل، ص١٠١.

(٢) سورة آل عمران آية ٦٥.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٧١

(٤) سورة آل عمران، آية: ٧٨.

(٥) انظر: ص٤٦٧ من هذا البحث.

الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾[١]، فمن المحال الشرعي أن يبعث الله نبيا إلى عباده بعد أن علّمه علم اليقين، وهداه إلى الحق والصراط المستقيم، فيدعو الناس إلى عبادته من دون الله؛ وذلك لأن الأنبياء -عليهم السلام- عصمهم الله من الوقوع في مثل هذه المزالق.

والسنة النبوية مليئة بالأساليب العقلية في الدعوة، ففيها أنواع القياس، والسبر والتقسيم وإبطال الدور والتسلسل...الخ[٢]، ولكن أحسب أن نصوص الآيات الآنفة الذكر كافية، فإن الكثير منها يبدأ بقوله تعالى (قل يا أهل الكتاب...)، والرسول ﷺ أول المنقادين لأوامر الله سبحانه وتعالى، وقد أثبتت السنة تفصيلات ما جرى بينه وبين وفد نصارى نجران من الحوار والمجادلة[٣].

والأسلوب النقلي عن مصادر النصارى الذي اتبعه الإمامان فيه رابطة وثيقة بالاستدلال العقلي من حيث إبراز التناقض الموجود في مصادرهم، وإظهار تحكماتهم في نصوصهم، ودحض دعاواهم بمسلماتهم، وهو منهج قويم ثبت في أسلوب القرآن الكريم من خلال قوله تعالى: **﴿...قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾**[٤]، وفي السنة أن رسول الله ﷺ احتج على اليهود بكتابهم

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٨٩.

(٢) للاستزادة انظر: محمد بن عبد الله العثمان، تطبيقات الرسول ﷺ للمنهج العقلي في الدعوة، استنتاج لأساليب المنهج العقلي من خلال الأحاديث النبوية، ص٢٨-١٧١، بحث مكمل لدرجة الماجستير، المعهد العالي للدعوة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٠٩هـ، ط/ غير منشورة.

(٣) ذكر ابن القيم في زاد المعاد تفصيلات ما جرى بين الرسول ﷺ وبين وفد نصارى نجران، في ج٣، ص٦٢٩ وما بعدها، فمن أراد الاستزادة فعليه بالزاد.

(٤) سورة آل عمران آية: ٩٣.

فرجم زانيين منهم، فقد «مُر على النبي ﷺ بيهودي محمما مجلوداً فدعاهم ﷺ فقال هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم، قالوا: نعم، فدعا رجلا من علمائهم فقال: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم، قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الرجل الشريف تركناه وإذا أخذنا الرجل الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه فأمر به فرجم»[(١)].

وقد علل القرطبي -رحمه الله- حرصه على نقل ألفاظهم من كتبهم حتى لا يتقول عليه متقول بالباطل، أو يتهمه بجهل المذهب، أو ينسبوه إلى الكذب عليهم، لذلك حاول أن يتتبع ما أمكنه تتبعه من كتبهم، على ما ترجمها مترجموهم الموثوقون عندهم، ولم يعوّل على النقل من علماء المسلمين[(٢)].

وهذا تعليل صحيح فإن الخصم يمكن أن يعترض على أي ترجمة لنصوص الإنجيل قام به غير أهل دينه، ويتهمهم بالتشويه والتحريف، وتجنبا لهذا الاعتراض فإن من الأفضل الاعتماد في مثل ذلك على التراجم التي يثقون بها حتى لا يبقى لهم حجة يتعلقون بها، ولكن ابن تيمية -رحمه الله- لا يرى بأسا في الانتفاع مما ترجمه لنا مسلمة أهل الكتاب في مناظرتهم ومخاطبتهم، أو من نسخ ترجمها الثقات منهم[(٣)]، وقد اعتمد القرطبي في بعض التراجم على ترجمة وهب بن منبه.

أما الأساليب العاطفية والفنية في دعوة النصارى والتي وردت في الكتاب

---

(١) مسلم، كتاب الحدود٢٩، باب رجم اليهود٦، رقم الحدث١٧٠٠، ج٢، ص١٣٢٧،

(٢) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٧٩، ٢٦٣، ٤٠٥، وقد ذكر في ص٢٢٠، رجلين من المترجمين الموثوق بهم عند النصارى، وهما: يرونم، وحفص بن البر، وقد نقل عنهما.

(٣) انظر: ابن تيمية، نقض المنطق، ص٩٢-٩٣.

والسنة[1] فهي كثيرة، ومنها:

* *الترغيب والترهيب:*

وذلك في قوله تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم، أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم﴾[2]، فالله سبحانه وتعالى يخوفهم بعذاب النار يوم القيامة إن استمروا على كفرهم، ويرغبهم بالتوبة والاستغفار، لأن الله سبحانه غافر الذنب وقابل التوب، وهذا أحد وجوه الترغيب والترهيب بالآجل في القرآن الكريم، وإلا فالقرآن مليء بصور عدة من الترغيب بأن يعد الناس بالخير العاجل من إنزال المطر ووفرة الرزق والاستخلاف في الأرض...الخ، والترهيب بالوعيد بالحرمان من الخير العاجل[3].

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده

---

(١) هناك بحث علمي تناول أساليب المنهج العاطفي في السنة النبوية، ولكن لم أجد فيه ما يخص النصارى، وقد أورد فيه الباحث أنواعا كثيرة من الأساليب العاطفية في السنة بصفة عامة، فمن أراد الاستزادة فليرجع إليه، وهو للباحث: فهد بن عوض المغذوي، المنهج العاطفي في الدعوة، استنباط لأساليبه ومجالاته من خلال السنة النبوية، ص٧١-١٦٨، بحث مكمل لدرجة الماجستير، المعهد العالي للدعوة الإسلامية، عام ١٤١٠هـ، المدينة المنورة، ط/ غير منشور.

(٢) سورة المائدة، آية: ٧٣-٧٤.

(٣) لمزيد من الاطلاع على صور الترغيب والترهيب في القرآن الكريم انظر: عبد الوهاب بن لطف الديلمي، معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، رسالة دكتورا، ج١، ص٤٩٥-٥٤٢، ط١/ دار المجتمع، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، جدة.

أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران»[١]، فالحديث يخص أهل الكتاب ومنهم النصارى بمضاعفة الأجر عما سواهم من أهل الملل والأديان الباطلة في حال إسلامهم وإيمانهم بمحمد ﷺ، وذلك من باب الترغيب، وكذلك في الرسائل التي كان يرسلها رسول الله ﷺ إلى ملوك النصارى كان يجمع فيها بين الترغيب والترهيب.

* *الإنكار:*

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾[٢]، فالله سبحانه ينكر عليهم كفرهم بالإسلام وهم يعلمون حقيقة الرسول ﷺ وما جاء به من الرسالة لما يجدونه في التوراة والإنجيل من الدلائل والعلامات، وقد جاء الإنكار هنا بصيغة الاستفهام ليكون أبلغ.

* *اللين والتلطف في الخطاب:*

وهو جزء من مخاطبة النصارى بالحسنى، والله سبحانه أمر المسلمين أن يجادلوا أهل الكتاب بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾[٣].

وفي موافقة الرسول ﷺ لأهل نجران بعدم المباهلة تغليب لأسلوب اللين والصفح والرحمة والتلطف، وإلا فإن الرسول ﷺ لأصر على المباهلة[٤]، ولكنه أحب

---

(١) البخاري، كتاب العلم٣، باب تعليم الرجل أمته٣١، ج١، ص٣٢، ومسلم، كتاب الإيمان١، باب وجوب الإيمان برسالة النبي ﷺ، حديث رقم:١٥٤، ج١، ص١٣٤.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٧٠.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

(٤) انظر: د. محمد سيد الحبيب الشنقيطي، منهج الرسول ﷺ في دعو أهل الكتاب، ج٢، ص٢٨٢، ط١، مكتبة أمين محمد أحمد سالم، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، المدينة المنورة.

أن يتلطف بهم ولا يشدد عليهم، علهم يسلمون عما قريب، أو يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئا.

* *القصص:*

القصص «من الأساليب التي اتخذها القرآن الكريم طريقا للإقناع والتأثير، وتضمين القصة الأدلة على بطلان ما يعتقده المشركون وغيرهم»[1]، والقصص التي جاءت في القرآن كثيرة، وما يعني منها النصارى ليست قصص عيسى -عليه السلام-، ووالدته فحسب، بل قصص الأنبياء الآخرين الذين سبقوا عيسى -عليهم السلام- تعنيهم أيضا؛ لأنهم يدّعون الإيمان برسالاتهم، إلا أن أهم القصص التي تعنيهم وتخالف عقيدتهم ما قصه الله علينا من حياة المسيح -عليه السلام- ودعوته منذ ولادته حتى رفعه، كما في سورة مريم وغيرها من السور.

* تقديم *الأهم فالمهم:*

بعث الرسول ﷺ رسوله إلى اليمن التي كان يقطنها بعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فأرشده إلى الأسلوب الأمثل للتعامل معهم في أثناء دعوتهم إلى الإسلام، فقال له: «إنك تأتي قوما أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم، وترد إلى فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب»[2].

فقد رتب الرسول ﷺ الأمور التي يدعون إليها حسب أهميتها، فقدم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإذا شهدوا بذلك وآمنوا، توجهت عليهم بعد

---

(١) أبو زهرة، تاريخ الجدل، ص٦٥.

(٢) البخاري، كتاب الزكاة٢٤، باب وجوب الزكاة١، ج٢، ص١٠٨.

ذلك أمور العبادات والشرائع من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة[١].

وغير ذلك من الأساليب الفنية التي جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية المتمثلة في التنويع في طرق الاستدلال، والتكرار، والإجمال والتفصيل، كتكرار قصة عيسى -عليه السلام- في غير ما آية، وإجمالها في مواضع وتفصيلها في مواضع أخرى في ثوب من البيان المعجز، والبلاغة البديعة، والصياغة الفريدة للخطاب مما لا يمكن أن يتأتى مثله لأي مخلوق مهما كان.

وهكذا فإن مبدأ الاستدلال بالأسلوب العقلي ومخاطبة النصارى بالأسلوب العاطفي والفني ثابت في الكتاب والسنة حكما وتطبيقا، وأن الإمامين القرطبي والقرافي -رحمهما الله- سارا على نهج الكتاب والسنة في ذلك، وهذا مما يحسب لهما ويرفع من قيمة أسلوبهما في دعوة النصارى.

أضف إلى ذلك التزامهما بآداب الحوار والمجادلة مع النصارى، وحرصهما على الانضباط بالضوابط الشرعية، في هذا الصدد، ومن ذلك:

أ/ تقديم الشرع على العقل:

من منهج أهل السنة والجماعة تقديم الشرع على العقل، وأن العقل الصحيح لا يخالف النص الصريح، والداعية المسلم يراعي في حواراته ومناقشاته لأهل الأديان والملل الالتزام بحدود العقل، وفي الوقت ذاته لا يطلق العنان لعقله بحيث يستغني به عن نصوص الشرع، ولذلك أنكر القرطبي -رحمه الله- على مخاطبه النصراني عندما عوّل على دلالة العقل في العبادات، فقال: «فنقول: قولك: (العقل دل عليه) باطل، فإن العقل لا يدل على التزام العبادات، فإن معنى العبادات التي تفعل بحكم اللزوم أنها تفعل، وإلا فيعاقب الله التارك وذلك لا يتوصل العقل إليه، إذ العبادات لا تتعين عنده إلا بتعيين معين الذي هو الشارع الذي ينص على ما يرضيه من

---

(١) انظر: أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي، معالم السنن شرح سنن أبي داود، ج٢، ص٣٢، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ-١٩٩١م، بيروت.

العبادات وعلى ما لا يرضيه، وأما العقل فلا يستقل بشيء من ذلك..»[١].

ويقول في موطن آخر: «لا ينبغي أن ننبذ الشرائع أو نجحدها بما تجوزه العقول، بل يتلقى ذلك المجوز عقلا الذي جاءت به الشرائع بالقبول إذا عُلم صدق ذلك الشرع، بل ينبغي للعاقل أن ينظر في دليل صدق ذلك الشرع، فإن وجده دليلا صحيحا قبل منه كل ما يقول، فإنه صادق، والصادق لا يقول ما تكذبه العقول، نعم قد يقول ما يقصر العقل عن إدراكه، وليس ذلك طعنا على قول الصادق، وإنما العجز في حق العقل...»[٢].

إذاً لا يعارض الشرع بالعقل، ولا يستقل بتحسين العبادات وتقبيحها، وكل ما دل عليه النص الصريح الصحيح لا يرد بمجرد قياس عقلي أو دليل منطقي، فإن إدراك العقل لا يرقى إلى الوحي الرباني مهما بلغ من الفطنة والذكاء، وما يُظن في ذلك من تعارض إنما هو عائد لقصور العقل عن إدراك جميع الحقائق، ولذلك قرر القرطبي في أثناء رده على مذهب النصارى في الأقانيم: أن الاعتماد على طريق الاستقراء والتمثيل فيما يتعلق بذات الله وصفاته خطأ وضلال[٣].

ب/ الانضباط الشرعي:

ويتجلى ذلك في مواقف عدة، من ذلك تقيّد القرطبي -رحمه الله- بسنة النبي ﷺ في عدم تصديق النصارى أو تكذيبهم فيما ينقلون من أخبار، فيقول: «ونحن يجب علينا أن نتوقف في أخباركم ولا نقطع بتصديقكم، ولا بإكذابكم، بل نقول ما أمرنا به الرسول وبلغنا عن ألسنة النقلة العدول (آمنا بالله ورسله) فإن صدقتم لم نكذبكم وإن كذبتم لم نصدقكم، ومع تسليم ذاك جدلا فلا بد أن نباحثكم فيما نقلتم

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص١٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٤٧.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص٨٦.

ونتفقه فيما حكيتم»[١].

فهنا يلتزم القرطبي -رحمه الله- بالحدود التي وضعها الإسلام في مخاطبة النصارى وفي الموقف مما يخبرون به من كتبهم، وذلك امتثالا لحديث: «كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ : «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون»[٢].

وهذا لا يمنع من مناقشة النصارى في نصوص كتبهم بغرض دعوتهم إلى الإسلام، وأن ما ثبت بطلانه بالكتاب والسنة، يقطع ببطلانه، ولا يوافقون على ذلك، بل يكذَّبون، وفي مباحثتهم فيما ينقلون من نصوص كتبهم من خلال الاستقراء والمتابعة يمكن التوصل إلى الحكم ببطلانها؛ بسبب احتوائها على المحالات الشرعية والعقلية.

ج/ إحكام النقض ، وقوة الحجة:

إن من شروط الرد على المخالف إحكام النقض لشبهه، بحيث لا يبقى له ولغيره متعلق لتلبيس الحق بالباطل[٣]، و«كل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين»[٤]، ولذلك قد يُنهى عن المجادلة والمناظرة من كان ضعيف العلم بالحجة والجواب، خشية أن يُفتن في دينه كما ينهى عن المقاتلة من لا يقوى على القتال ويحسنها لما فيه من مضرة

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٦٤.

(٢) البخاري، كتاب الاعتصام بالسنة٩٦، باب لا تسألوا أهل الكتاب ...٢٥، ج٨، ص١٦٠.

(٣) انظر: بكر أبو زيد، الرد على المخالف، ص٦٢-٦٣.

(٤) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٢٠، ص١٦٤.

خاصة وعامة[1]، ولذلك حرص الإمامان -رحمهما الله- على أن تكون حججهما قوية، وردودهما محكمة، حيث سلكا في أساليب استدلالهما ما ينقطع به الخصم، ومن ذلك أن القرافي بيّن عجز النصارى عن بيان عقيدتهم وتصويرها حين طلب منهم ذلك في بعض مناظراته، وقد أثبت الإمامان أيضا عجز النصارى عن الإتيان بأدلة تثبت دعواهم، كما عجزوا عن الانفصال عما عورضت به أدلتهم، وظهر من التناقض الذي كشفه الإمامان في كتب النصارى وأقوال رجال دينهم أنهم يجحدون مذهبهم الذي يلزمهم الحجة به.

وقد قرر العلماء أن من دلائل الانقطاع في أثناء المجادلة ما يلي: الأول: «العجز عن بيان مذهبه إذا سأله عنه سائل، الثاني: العجز عن بيان الدليل، الثالث: العجز عن الانفصال عما عورض به دليله، الرابع: جحد مذهبه الذي يلزمه الحجة به...»[2].

وقد كان القرطبي -رحمه الله- أكثر حرصا على إبراز مخالفة الخصم لأسس الاستدلال العقلي، وقواعد الاحتجاج، فكان يرد أقوالهم لفساد القياس عندهم، وذلك كأن يكون قياس الغائب على الشاهد وخلوه عن الجامع، أو قياس جزئي على جزئي[3]، أو لكون دليلهم ترديدا لأصل دعواهم،[4] ومن ذلك قوله في دفع حجة النصارى على مجيء المسيح المنتظر الذي هو عيسى -عليه السلام- في نظرهم: «قلتَ يا هذا: (والدليل على أنه هو: أن اليهود اختلفت من سببه، فصارت فرقتين، على الكفر

---

(١) انظر: ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، ج٧، ص١٧٣.

(٢) أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد الحنبلي، كتاب الجدل على طريقة الفقهاء، ص٧١، ط/ مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد.

(٣) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٧٦، ١٥٣.

(٤) من قواعد المجادلة والمناظرة: «أن لا يكون الدليل الذي يقدمه المناظر ترديدا لأصل الدعوى»، عبد الرحمن الميداني، ضوابط المعرفة، ص٣٦٨.

والإيمان به، فالفرقة الكافرة هم اليهود، والفرقة المؤمنة هم النصارى، فآمنت طائفة وكفرت طائفة) هذا دليل ليس له للدلالة على مجيء المسيح من سبيل، بل هو عين المذهب الذي تدّعون، ويبقى عليك الاستدلال عليه...»[١].

وهكذا أحكم الإمامان الحجة والنقض، فاستدلا على دعواهما بأدلة صحيحة متينة، وأظهرا هشاشة شبهات الخصم، وضعف أدلتهم؛ وهذا مما يؤكد بطلان الديانة النصرانية.

د/ الإنصاف والعدل:

من المبادئ الإسلامية العامة العدل والإنصاف، مع من أحببت أو أبغضت، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين ءامنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾[٢]، وفي هذا «تنبيه عظيم على وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله»[٣]، وفيما يتعلق بأهل الكتاب فإن الله تعالى ذكر ما فيهم من الخير والشر، بالرغم من موقفهم العام الرافض لدعوة الإسلام، فقال تعالى: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون ءايات الله أناء الليل وهم يسجدون﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[٥].

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص١٧٨-١٧٩.

(٢) سورة المائدة، آية: ٨.

(٣) محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٦١٣، ط/ دار الكتاب العربي، بيروت.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١١٣.

(٥) سورة آل عمران، آية: ٦٤.

إنه منتهى العدل والإنصاف وعدم البخس والغبن في أن يصف القرآن الكريم أهل الكتاب بهذه الأوصاف، وهو في معرض المواجهة والجدال، وما أجمل أن ندعو الناس إلى شيء ندعو أنفسنا إليه، فهي دعوة للحق ندعو أن نلتزم بها نحن كما يلتزم بها غيرنا، فلا استئثار بميزة ولا اختصاص بأمر يخالف ما ندعو إليه[١].

ولذلك «فإن المناظرة والمحاجة لا تنفع إلا مع العدل والإنصاف»[٢]، والمتعصب بغير حق يظلم نفسه قبل أن يظلم غريمه، «ومن هداه الله إلى الأخذ بالحق حيث كان ومع من كان ولو كان مع من يبغضه ويعاديه، ورد الباطل مع من كان ولو كان مع من يحبه ويواليه فهو ممن هدى الله لما اختلف فيه من الحق»[٣] ولذلك ثبت عنه ﷺ قوله في دعائه في صلاة الليل قوله: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوت والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[٤].

والداعية إذا ما تجرد عن العدل والإنصاف، وذهب إلى غمط المدعويين حقهم فإنما يجعل الحوار والنقاش يستحيل إلى مجرد جدال عقيم وإلى تعصب ومكابرة بغيضة لا تلتزم الحق، فلا يمكن التوصل بعد ذلك إلى نتيجة تذكر.

والعدل والإنصاف مشاهد في أسلوب الإمام القرطبي والقرافي -رحمهما

---

(١) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج١، ص٤١٧، ود. محمد السيد الوكيل، أسس الدعوة وآداب الدعاة، ص٤٩.

(٢) أحمد بن تيمية، نقض المنطق، ص٩١، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة، وسليمان عبد الله الصنيع، تصحيح محمد حامد الفقي، ط/١، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٠هـ، ١٩٥١م.

(٣) ابن القيم، الصواعق المرسلة، ج٢، ص٥١٦.

(٤) مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين٦، باب الدعاء في صلاة الليل٢٦، حديث رقم: ٧٧٠، ج١، ص٥٣٤.

الله-، فمن ذلك حرصهما على عدم التقول على النصارى ورميهم بما لم يقولوا، ولذلك أكثرا من الاستدلال بنصوص كتب النصارى، وقد نص القرطبي على أن يسلك في حديثه معهم مسلك الإنصاف ويترك طريق التعصب والاعتساف[١]، وما وجده يوافق الحق من أقوالهم أقرهم عليه، وصرح أنهم أصابوا في ذاك الموضع[٢].

وهذا الأسلوب يجعل المدعو ينظر إلى الداعية بكل تقدير واحترام، ويعلم أن هدفه ليس المماراة والغلبة، بل البحث عن الحق أنى كان، فترتفع نسبة نجاح الداعية في إقناع المدعو بإذن الله تعالى.

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٤٥.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١٠٢، ١٢٨.

المطلب الثاني

المآخذ

لست في حاجة إلى التأكيد على أن هذا المطلب لا يهدف إلى تجريح العالمين -رحمهما الله- أو الغض من شأنيهما، أو الطعن في علميهما، إنما هي وجهة نظر تحتمل الخطأ والصواب، ويمكن حصر المآخذ في النقاط التالية:

* السب والاستهزاء:

الأصل في دعوة الناس إلى الإسلام وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر أن يكون باللين والرفق، وتكون مجادلتهم بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[1] وقال تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾[2] وقال تعالى: ﴿ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم...الآية﴾،[3] وخص الله تعالى أهل الكتاب بالذكر في قوله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾[4].

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[5].

فالآيات والأحاديث دالة على أهمية اللين والرفق وأنها سبب الهداية، وأن الغلظة

---

(١) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٣) سورة الأنعام، آية:١٠٨.

(٤) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

(٥) مسلم، كتاب البر والصلة٤٥، باب فضل الرفق٢٣، حديث رقم٢٥٩٤، ج٣، ص٢٠٠٤.

والشدة تتسبب في نفور المدعويين عن الداعي، بل قد يواجهونه بالغلظة والشدة نفسها، فتنقطع الصلة بين الداعي والمدعو فلا يتحقق الهدف الأساس ألا وهو هداية الناس إلى الإسلام.

وانطلاقا من الأدلة السابقة يؤكد الذين كتبوا في علم الدعوة والاحتساب، وعلم المنطق وآداب الحوار والمجادلة على اتباع الرفق والإحسان، والبعد عن الاستهزاء والسباب في أثناء بيان الحق، ويثتثنون من ذلك بعض المواقف التي تقتضي الخروج عن هذا الأصل واتباع أسلوب الغلظة والشدة، بناء على استثناء الله سبحانه وتعالى الذين ظلموا من المجادلة بالحسنى، واستنادا على ما جاء في السنة النبوية، من امتناع الرسول ﷺ من مقابلة وفد نصارى نجران وإحجامه عن خطابهم لما نزعوا ملابس السفر ولبسوا حللا محبرة وخواتم من ذهب إعجابا بذلك، حيث كان فعل الرسول ﷺ ضربا من الإهانة والإذلال لا قتضاء الموقف هذه المعاملة[١].

ويذكر الإمام الجويني[٢] -رحمه الله- بعد إيراده بعض الأمثال التي قد تحتوى على غليظ القول المواطن التي يحسن أن تستخدم فيها قائلا: «فهذه ضروب من الأمثال تستعين بها على دفع الخصم فيما يتعذر فيه رسم النظر، أو لا يقصد بالمناظرة طلب الحق، وابتغاء الرشد، أو يقصد التلهي والمباهاة، فإذا أوردتها أبرقته حرا لخجله، فيتجنب المقاصد الذميمة إن شاء الله تعالى»[٣].

والإمام ابن تيمية -رحمه الله- يرى: أن كل شيء في موضعه حسن، وليس علينا مجادلة الظالم بالتي هي أحسن، فحيث أمر الله ورسوله ﷺ بالإغلاظ والشدة

---

(١) انظر: ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج٣، ص٦٤٢. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، ط١/، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، بيروت.

(٢) هو عبد الملك بن عبد الله الجويني، الملقب بإمام الحرمين، من أعلام علماء الشافعية المتأخرين، ولد في جوين نواحي نيسابور سنة ٤١٩هـ، وتوفي فيها عام ٤٧٨هـ. انظر: الزركلي، الأعلام، ج، ص١٦٠.

(٣) الجويني، الكافية في الجدل، ص٥٦٥.

على المتكلم لبغيه وعدوانه على الكتاب والسنة فنحن مأمورون بمقابلته[١]؛ فاللجوء إلى أساليب التأنيب والقسوة ضرورة تقدر بقدرها، لأن منشأها هو الخصم ذاته بما يسلكه من أساليب الإرجاف والتهويل والسباب، وتوزيع الألقاب الشنيعة والشتائم بغير حق شرعي، وهو من شيمة أهل الأهواء، ولا يعجز عنه أحد، إلا أنه في الوقت نفسه لا يغير من القول المردود عليه شيئاً[٢].

وخلاصة القول أن الأفضل دفع السيئة بالحسنة، وعدم مجاراة الخصم في لغو القول وفحش الكلام، لقوله تعالى: ﴿**ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**﴾[٣]، ويجوز استعمال الشدة والغلظة، أو الاستهزاء والسخرية في الحالات التالية:

١- إذا أظهر الخصم استهزاء بالدعوة أو الداعية، فيكون من باب دفع الصائل بالمثل.

٢- إذا كان الخصم من طالبي الرياء والسمعة والعناد والمكابرة، فيسلك هذا المسلك من أجل إسكاته.

٣- أن لا يجد طريقة تمنع خصمه من التمادي في الباطل غير أسلوب الشدة، فيسلكه بقدر الحاجة دون أن يسترسل فيه[٤].

وبالعودة إلى أسلوب الإمامين القرطبي والقرافي -رحمهما الله- فإنه -كما سبق ذكره في المبحث الثالث من الفصل الثاني والفصل الرابع-، قد غلب عليه

---

(١) انظر: ابن تيمية، نقض المنطق، ص٩٢، ومجموع الفتاوى، ج٣، ص٢٣٢.

(٢) انظر: بكر أبو زيد، الرد على المخالف، ص٦٦-٦٧.

(٣) سورة فصلت، آية: ٣٤.

(٤) انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٢، ص٥١٥، والجويني، الكافية في الجدل، ص٥٦٠، محمد المظفر، المنطق، ص٣٨١، ود. فضل إلهي، من صفات الداعية اللين والرفق، ص٣٩-٥٨، ط١، إدارة ترجمان الإسلام، ١٤١١هـ ١٩٩١م، باكستان

جانب التشديد والقسوة في العبارة، وذلك بالرغم من أن القرطبي -رحمه الله- أخذ على نفسه أن لا يتعرض عليهم بقزع السباب وأن يسلك مسلك الإنصاف ويترك طريق التعصب والاعتساف، وأكد على أن السب منهي عنه على الإطلاق، وأنه ليس من مكارم الأخلاق[١]، وفي الوقت نفسه ذكر أنه لم يفعل أكثر من تبيين جهلهم، وأن إطلاق اللعنة عليهم كان حسب ما تقتضيه البغضاء والإحنة، أو ربما كان ذلك لإغاظتهم إياه في بعض الأقوال[٢]، ولكنه لم يكتف ببيان جهلهم بل استرسل في السخرية من عقولهم ومن أقستهم، في مواضع ليست بالقليلة[٣]، وكذلك القرافي -رحمه الله- فعل مثل ذلك، حتى في كتابه أدلة الوحدانية الذي لم يكتب ردا على كتاب ما بعثه النصارى سخر منهم فيه بقوله إن النصارى يقلدون الحمار والجمال بسدهم على أنفسهم باب الاستدلال[٤]، وهذا الأسلوب وإن كان شائعا في الفترة التي عاش فيها العالمان إلا أنه كان بالإمكان الاستغناء عنه، والاكتفاء بالقول الحسن، من أجل الوصول إلى الهدف الدعوي، وبخاصة أن القارئ لا يجد فيما نقله العالمان من أقوال الخصوم ما يوازي ذلك من السباب والسخرية، كما أن ما كتبه العالمان لم يكن خطابا خاصا بعث به إلى معين يراد الرد عليه بطريقته نفسها بحيث لا يتجاوز الخطاب غير الجهة المرادة، بل كان كتابا أريد منه أن يقرأه النصراني والمسلم على حد سواء حتى يرى الحق فيتبعه، وقد يظن بعض القراء أن الإمامين يتحاملان بغير وجه حق على النصارى فيتعاطفون معهم ويظنون أنهم قد ظُلموا، وبخاصة أن القرافي -رحمه الله- بدأ الباب الأول من كتاب الأجوبة الفاخرة بقوله:

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٤٥، ٤٦، ٢٢٧.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص٤٣٨.

(٣) انظر على سبيل المثال: ص ٥٩، ٨٨، ١٣٢، ٢١٦، ٢١٨، ٢٢٢، ٢٢٦، ٤١٨، ٤١٩، من كتاب الإعلام.

(٤) انظر: القرافي، أدلة الوحدانية، ص٨٩.

«فإن النصارى أمة عمياء وطائفة جهلاء...الخ»[١]، فهل سينشرح صدر أي نصراني لمواصلة القراءة بعد هذا الكلام الشديد اللهجة؟ لا أظن ذلك، وسيجعلها حجة لإلقاء الكتاب جانبا، واتهام القرافي بمجانبة الموضوعية والاستدلال العقلي في مناقشة الملة النصرانية، فينقطع عنصر الاتصال بين الداعي والمدعو، ولا يتحقق الهدف المراد الذي هو إقناع النصارى بفساد دينهم وصلاح دين الإسلام.

* التأثر بأساليب المتكلمين:

ليس المقصد هنا بيان عقيدة القرطبي والقرافي -رحمهما الله- أو تتبع الأخطاء العقدية التي وقعا فيها، إنما المقصد بيان طريقة الإقناع التي سارا عليها، والأسلوب الكلامي الذي سلكاه في تصحيح الانحراف العقدي لدى النصارى، والذي أدى - أي هذا الأسلوب- بدوره للوصول إلى نتائج عقدية غير صحيحة، وهذا بطبيعة الحال يؤثر على المدعو النصراني، سواء في تبني عقائد غير سليمة في حالة إسلامه، أم في البقاء على عقيدته المنحرفة.

وليست المآخذ على مجرد استخدام الإمامين بعض مصطلحات المتكلمين كلفظ: واجب الوجود، والجوهر ، والجسم[٢] في حق الله سبحانه وتعالى، فإن استخدامها قد يفيد في إفهام الخصوم الحجة، وكون الرد عليهم أبلغ، وإظهار تمكن أهل الحق من معاني مسائلهم[٣]، كما أن السلف والأئمة لا يذمون مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم، إذا احتيج إلى ذلك وكانت المعاني المقصودة صحيحة، بل ينهون عنها لاشتمالها على معاني صحيحة وأخرى فاسدة، ولذلك يرون الاستفصال في حالة ورود مثل هذه الألفاظ المجملة، فإن أريد بالجسم مثلا نفي قيام الله تعالى بنفسه وقيام الصفات به، فإن الله تعالى قائم بنفسه، وله صفات قائمة

---

(١) ص٢١.

(٢) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٧٣، ٧٧، والقرافي، الأجوبة الفاخرة، ص، ٣٥، ٦٣.

(٣) انظر: عثمان علي حسن، منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد، ج٢، ص٧٠٩.

به، ولم يجز ترك الإيمان بذلك لمجرد إطلاق الجسم عليه[١]، إلا أن هذه الألفاظ لم ترد في الكتاب والسنة، وكثيرا ما يستخدمها المبطلون من أهل الكلام، ويتوصلون بها إلى نتائج غير صحيحة، فيقعون في المحذور، وهذا ما تم ملاحظته عند الإمام القرطبي والقرافي رحمهما الله.

ومن ذلك أن القرطبي نفى أن يكون الله سبحانه وتعالى جسما، وانطلاقا من ذلك أوّل مجيء الله سبحانه وتعالى الثابت بقوله تعالى: ﴿**هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة**﴾[٢] إلى مجيء أمره، بحجة أن الانتقال والحركة من لوازم الأجسام[٣].

وفي معرض رده على ادعاء النصراني أن المسلمين وقعوا في ما أنكروه من الجسم لإثباتهم أن الله سبحانه وتعالى كلم موسى –عليه السلام– تكليما قال القرطبي –رحمه الله– في صفة كلام الله سبحانه وتعالى «إن الله متكلم بكلام هو وصف قائم بذات الله ليس بحرف ولا صوت... والكلام الذي سمعه موسى –عليه السلام– هو كلام الله القديم القائم بذات الله الذي ليس بحرف ولا صوت»[٤].

وأنكر أن يكون الله سبحانه وتعالى في السماء في رده على ما يقوله النصارى في صلاتهم: «أبانا الذي في السماء»[٥]، فقال: «فإن ظاهر قولكم (في السماء) يفهم منه أن السماء محيط به، وإن جاز ذلك جاز أن يكون جسما، وأنتم تأبون ذلك، وهو

---

(١) انظر: ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، ج١، ص٤٣-٤٤، ٢٣٨-٢٣٩.

(٢) سورة البقرة، آية، ٢١٠.

(٣) انظر: القرطبي، الإعلام، ص١٢٥، ٤٤٠.

(٤) المصدر نفسه، ص١٠٨، ١٠٩.

(٥) متي، ٦/ ٩، ولوقا، ١١/ ٢، في الترجمة الحديثة: السماوات، بدلا من السماء.

محال في حقه تبارك وتعالى»[1]، وأوّل استواء الله تعالى على العرش بالاستيلاء[2].

والحق أن الله سبحانه وتعالى «لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء، وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يُسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديما، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة»[3]، فلا خلاف بين علماء السلف في أن الله سبحانه وتعالى كلم موسى -عليه السلام- بصوت مسموع بالآذان، حتى إن بعض أهل الحديث وجمهور أهل السنة لما رأوا ما في القول: أن الله تكلم بغير صوت ولا حرف من البدعة أظهروا خلاف ذلك، وأطلق من أطلق منهم أن كلام الله حرف وصوت[4]. ومعنى الاستواء عند أهل السنة والجماعة هو العلو[5]، لا الاستيلاء، والله سبحانه وتعالى مستوى فوق عرشه على ما يليق بجلاله وعظمته.

أما الإمام القرافي -رحمه الله- فقد ناقش زعم النصارى بأن النطق صار جسدا -أي صار المسيح- ورد على دعواهم هذه بقوله: «والأصوات من خواص الإنسان، وقصبة الرئة لا تكون إلا في الأجسام، لذلك أحلناها على الله تعالى، لأنه ليس بجسم، بل الثابت لله تعالى إنما هو الكلام النفسي الذي ليس بأصوات،

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٤٤٣.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١٣٢.

(٣) علي بن أبي العز الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، ص١٧٤.

(٤) انظر: ابن تيمية، الفتاوى، ج٦، ص، ٥١٣، ٥٢٣، ٥٣٢، وج١٢، ص٥٨١.

(٥) انظر: إسماعيل بن محمد الأصبهاني، الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، ج٢، ص٢٥٧، ٢٥٨، تحقيق: محمد محمود أبو رحيم، ط/١، دار الراية للنشر والتوزيع، ١٤١١هـ. ١٩٩٠م، الرياض.

والأصوات دالة عليه»[١]، فنفى أن يكون الله سبحانه وتعالى متكلم حقيقة، أو أن يكون كلامه بصوت، وأوّل ذلك بالكلام النفسي، وهو خلاف الحق.

* الاستدلال ببعض الأدلة الضعيفة:

وذلك كاستدلال القرطبي -رحمه الله- بحديث: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[٢] في معرض حديثه عن قضية الطلاق في الإسلام، وكراهيتها، وكذلك نسبته إلى النبي ﷺ أيضا مقالة : «المعدة بيت الداء والحمية أصل الدواء وأصل كل داء البرد»[٣] واستدلاله بها على العلوم التي أعطيها النبي ﷺ من لدن الباري

(١) القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص٦٣. وانظر أيضا ص٦١، ٦٥، ١٢٠. وقد أثبت من الصفات القائمة بذاته تعالى سبع صفات فقط، وهي: العلم، والحياة، والإرادة، والكلام، والقدرة، والسمع، والبصر، وهو مذهب الأشاعرة، انظر: ص٦٠-٦١، ١٤٢ من المصدر نفسه. ومذهب أهل السنة والجماعة أن ما جاء من صفات الله تعالى في كتابه الكريم، أو روي في السنة الصحيحة إثباتها وإجراؤها على ظاهرها ونفي الكيفية عنها. انظر: الأصبهاني، الحجة في بيان المحجة، ج١، ص١٧٤، تحقيق: محمد ربيع هادي المدخلي.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٢٢٤. والحديث عند أبي داود ج٢، ص٤٣٢، وغيره، وفيه إرسال من طريق، وضعف من طريق آخر، فهو ضعيف من الجهتين، وقد ضعفه السخاوي، والألباني، انظر: محمد بن عبد الرحمن السخاوي، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، ص١٢، حديث رقم: ١٠. وناصر الدين الألباني، ضعيف الجامع الصغير، وزيادته (الفتح الكبير)، ج١، ص٦٦، حديث رقم:٤٤، ط٢/ المكتب الإسلامي، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، بيروت.

(٣) القرطبي، الإعلام، ص٢٩٨. وقال السخاوي: « لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب، أو غيره » المقاصد الحسنة، ص٣٨٩، رقم: ١٠٣٥. وانظر كذلك: علي بن محمد المشهور بالملا علي القاري، الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، تحقيق: محمد الصباغ، ص٣٢٠، حديث رقم٤٤٢، ط/ دار الأمانة، ١٣٩١هـ ١٩٧١م.

سبحانه وتعالى الدالة على نبوته عليه أفضل الصلاة والسلام، بل إنه -رحمه الله- ذكر في معرض استدلاله على نبوة محمد ﷺ ما حدث لصحابته الكرام وللتابعين من الكرامات الخارقة للعادات إجمالا، وهذا لا بأس به لو اكتفى بهذا الإجمال وإن كان غير كاف لإقناع المدعو، إلا أنه فصّل في كرامة من الكرامات فجانب الصواب، حيث قال: «وقد دوّن من هذا كثير، يقضى منه العجب في كتب كرامات الأولياء، ولو لم يكن من هذا إلا قبر (معروف الكرخي)[1] الكائن ببغداد، لكان فيه كفاية، وأعظم آية، وذلك أن قبره يستشفى به، ويدعى الله عنده، فيشفى المريض وتقضى الحاجة، حتى أن أهل بغداد يقولون: قبر معروف الكرخي ترياق مجرب»[2]، فالاستشفاء بالقبور غير مشروع في الإسلام، وإن كان المدعو هو الله سبحانه وتعالى، ولم يثبت هذا الفعل عن رسول الله ﷺ ولا عن سلف الأمة، بل إن مثل هذه الأشياء توصل إلى الشرك وعبادة القبور، وحكايات الكرامات تحتاج إلى التثبت قبل كل شيء، وفي الوقت نفسه لها ضوابط وأحكام، وما أورده القرطبي -رحمه الله- لم يثبته لا بدليل نقلي أو عقلي، وبالتالي فإنه كما رد الحكايات البواطل التي يحكيها النصارى، فإنه سيعارض بما عارض به حكاياتهم.

والداعية الحق لا يستدل إلا بالحق، ويتجنب الاستدلال بالأباطيل والموضوعات، إذ الحق لا ينصر إلا بالحق، فلا يستدل بدليل باطل في ذاته ليؤيد به الحق الذي يدعو إليه، وإن قبل المدعو ذلك الدليل[3]، فإنه قد يكتشف ولو بعد حين بطلان الدليل فينقلب على عقبيه، وليس هدف الداعية في حواراته ومناقشاته ومجادلاته للخصوم

---

(١) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي البغدادي، أحد الأعلام الزهاد والمتصوفين، كان الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- في جملة من يختلف إليه، توفي -رحمه الله- ببغداد سنة ٢٠٠هـ، وقد عده ابن تيمية -رحمه الله- من الصوفية المتبعين للكتاب والسنة.انظر: الزركلي، الأعلام، ج٧، ص٢٦٩، وابن تيمية، الرد على المنطقيين، ص٤٨٨.

(٢) القرطبي، الإعلام، ص٣٨٤.

(٣) انظر: عبد الرحمن الميداني، فقه الدعوة، ج١، ص٣٠٢.

مجرد الإفحام الوقتي، بل الهدف نقل المدعو من الباطل إلى الحق أبدا.

* عدم دقة بعض النقول والمعلومات:

نقل الإمامان نصوصا كثيرة من مصادر متفرقة، وصرح القرطبي بتتبع ما أمكنه من كتب النصارى[1]، وهذا يحسب لهما لا عليهما، ولكن المأخذ يقتصر على أن بعض هذه النصوص لم تنسب إلى مصادرها بشكل دقيق، فقد كانا يذكران في بعض الأحيان اسم السفر أو الإنجيل الذي نقلا عنه النص، ورقم الإصحاح، وفي بعض الأحيان يكتفيان بقولهما جاء في الإنجيل أو في التوراة أو قال المسيح دون ذكر اسم الإنجيل أو السفر، ودون ذكر الإصحاح، وهذا يجعل من الصعب الاستيثاق من صحة النص المنقول، كما أن بعض النصوص تكون متشابهة فلا يدرى هل هي تكرار للنص أم هي اختلاف في الترجمة فقط، فقد نقل القرطبي -رحمه الله- مثلا في معرض استدلاله على نبوة محمد ﷺ بما جاء في سفر أشعيا فذكر النص القائل: «عبدي الذي سرت به نفسي أنزل عليه وحيى»، وفي موطن آخر أورد نصا يقول: «هذا غلامي المصطفى وحبيبي الذي ارتضت نفسي» في معرض استدلاله على انتفاء الألوهية عن عيسى، -عليه السلام-[2] فهل هذا مجرد اختلاف في الترجمة أم أن النصين مختلفان؟ لا يوجد ما يدل على أحد الأمرين.

ولعله يعتذر لهما بأن أسلوب الكتابة الشائع في ذلك العصر كان كذلك، كما أن النصارى الذين بعثوا بكتابهم إلى المسلمين لم يلتزموا برد نصوص التوراة والإنجيل إلى مصدرها بشكل دقيق، إلا أن هذا لا يقلل من أهمية نسبة النقولات إلى مصادرها، وما لها من قيمة في إقناع المدعو في حالة توثيقها.

---

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٧٩.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص٥٠-٥١، ٢٧٣-٢٧٤، وقد عزا محقق الكتاب النصين إلى سفر حبقوق ١/٤٢ وما بعدها، فعدهما نصا واحدا.

ومن الواضح أن الإمامين لم يعتمدا على نسخة واحدة من الكتاب المقدس لدى النصارى في النقل، بل كان نقلهما عن أكثر من ترجمة واحدة، فقد أورد القرطبي ما جاء في متي١٦/٢٣ بلفظين مختلفين هما: «اذهب يا شيطان، ولا تعارض فإنك جاهل بكوني»، و«تأخر يا شيطان، فإنك جاهل بمرضاة الرب»[١]، وهذا ما يؤكد الحاجة إلى ذكر المصدر بدقة حتى يتم التعرف على النص لإبراز التحريف الذي يقع في أثناء الترجمة من نقص بعض المعلومات، أو تبديلها، أو غير ذلك من البراهين المفيدة في نقض الديانة النصرانية.

وقد سبقني بعض الباحثين في تسجيل بعض المآخذ على القرطبي والقرافي -رحمهما الله- فذكر محقق كتاب مقامع الصلبان أن القرطبي كان يعرف هذا الكتاب (مقامع الصلبان) واستغله دون أن يدل عليه[٢]، أي أنه افتقد الأمانة العلمية.

وبالرغم من وجود التشابه في بعض الحجج وأساليب الاستدلال بين العالمين فإن الاحتمال بالاستفادة موجود، ولكن القطع بأن القرطبي أخذ عن الخزرجي -رحمهما الله- يحتاج إلى دليل؛ لأن هناك احتمالاً بأن يكون الاثنان قد استفادا من مصدر ثالث آخر، أو قد تكون هذه الأساليب متداولة وشائعة بين علماء الأندلس المسلمين فلا يكون القرطبي نقل عن الخزرجي، أو أنه لم يرى حاجة لإسناد الأقوال إلى أصحابها وهو في معرض الرد على النصارى، فيصعب اتهام القرطبي بعدم الأمانة العلمية، وإن كان من الأفضل والأحسن نسبة الأقوال إلى أهلها دائما.

وما قيل هنا أيضا يقال فيما وجد من التشابه بين القرطبي والباقلاني[٣]، أو بين القرطبي والجويني -رحمهم الله- فقد أورد القرطبي في بيان دلالة المعجزة على صدق المدعي مثالا أورده الجويني في كتابه العقيدة النظامية، فقال: «أن الله تعالى

(١) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٢٠٥، ٢١٠. وانظر: القرافي، أدلة الوحدانية، ص٨٣، و٢٠١، فقد ذكر في الصفحتين ما جاء في سفر التثنية، ٢٧/١-٢، بلفظين مختلفين.

(٢) انظر: أبو عبيدة الخزرجي، مقامع الصلبان، ص١٧، مقدمة المحقق.

(٣) انظر: ص ٤٥٧ من هذا البحث حيث سبق بيان وجه التشابه.

قصد بذلك المعجز تصديق المدعي، وتتبين هذا بمثال: وذلك أنه لو فرضنا ملكا عظيما اجتمع له أهل مملكته في مجلسه وأهل المملكة مصغون لما يأمرهم به ذلك الملك، فقام رجل من بين يديه، وقال: إني رسول هذا الملك إليكم، وقد أمرني أن أبلغكم أمره ونهيه، وأنا صادق في قولي هذا، ثم يقول: يا أيها الملك إن كنت صادقا فيما أقوله عنك فخالف عادتك وقم عن سريرك قياما تخالف به المعتاد من فعلك، فإذا فعل الملك ذلك عند تحدي المدعي، فإن أهل المجلس يضطرون إلى العلم بأن الملك قصد بذلك الفعل تصديقه، ولا يعتريهم في ذلك ريب»[١].

أما بالنسبة للقرافي -رحمه الله- فقد أُخذ عليه عدم دقة مصادره ومعلوماته التاريخية[٢]، مثل قصة بولس، وكذلك ذكر أن مجمع نيقية عُقد بعد رفع المسيح -عليه السلام- بمائتين وثلاثة وثلاثين عاما، بينما الصحيح الذي يذكره المؤرخون أنه كان في سنة ٣٢٥م[٣].

والقرافي -رحمه الله- لم يورد الروايات التاريخية بصيغة الجزم، وذكر أن ما ذكره لا ينكره النصارى من حيث الجملة دون التفاصيل، وقد قال في بداية إيراده للرواية التاريخية: «قالت فرقة من المؤرخين عندنا وعندهم...»[٤]، فهو لم يحدد الفرق التي قالت بذلك، وكان من الأفضل أن يكون دقيقا عمن ينقل، وبخاصة أقوال مؤرخي النصارى؛ لأنه هنا في معرض الاستدلال بالأحداث التأريخية على تعرض

---

(١) القرطبي، الإعلام، ص٢٤٠، وانظر: عبد الملك بن عبد الله الجويني، العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، ص٦٨، ط١/ مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٨هـ،١٩٧٨م.

(٢) انظر: عبد الراضي محمد عبد المحسن، منهج أهل السنة والجماعة في الرد على النصارى،ص٤٢٢-٤٢٣.

(٣) انظر: القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص١٥٢-١٥٥-١٥٧.

(٤) المصدر نفسه، ص١٥٣.

الديانة النصرانية للتحريف والانحراف، والذي أدى بها في نهاية المطاف إلى البطلان، فإذا لم يُبين مصادر هذه الرويات التاريخية فإن النصارى لن يقبلوا ما فيها من المعلومات التي تنافي مذهبهم، والروايات التاريخية المشكوك في صحتها لا تملك ذلك الأثر في الإقناع.

المبحث الثاني

الدروس الدعوية المستخلصة من أسلوب الإمامين في دعوة النصارى

يستخلص من أسلوب الإمامين القرطبي والقرافي -رحمهما الله- في دعوة النصارى عدد من الدروس الدعوية منها:

أ/ أهمية دعوة النصارى بالحوار والمجادلة:

إن القرآن الكريم والسنة النبوية هما الأصلان اللذان أثبتا أهمية حوار النصارى وجدالهم بالتي هي أحسن، فقد قال الله تعالى: ﴿**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن**﴾،[1] ووردت آيات كثيرة ترد على افتراءات النصارى وشبهاتهم، وعقائدهم الباطلة، والرسول ﷺ ناظر وفد نصارى نجران ورد على شبهاتهم فدل ذلك على «وجوبه إذا ظهرت مصلحة من إسلام من يرجى إسلامه منهم وإقامة الحجة عليهم، ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة»[2].

والرد على الطاعنين على كتاب الله ورسوله ودينه ومجاهدتهم بالحجة والبيان وظيفة من وظائف رسل الله الكرام، وحق من حقوق العباد على الله سبحانه وتعالى، وقد كان السلف يردون على المخالفين ويناظرونهم سواء أكانوا نصارى أم غيرهم[3].

وعناية العلماء سلفا وخلفا، بمحاورة النصارى ومجادلتهم بالتي هي أحسن نظريا وعمليا ليزيد من أهمية هذا الطريق في دعوة النصارى إلى الإسلام، ولم يكتف علماؤنا في ذلك بالجانب الشفهي، بل اتجهوا إلى التحرير والكتابة؛ لأن الجدل

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

(٢) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، ص٦٤٩.

(٣) انظر: ابن القيم، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ص٢٦، تحقيق: رضوان جامع رضوان، ط/ مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة، وابن القيم، زاد المعاد، ج٣، ص٦٣٩-٦٤٢، وبكر أبو زيد، الرد على المخالف، ص٢٥.

لا يختص «بالمشافهة، بل يتعدى بها إلى التحرير والمكاتبة»[١]، وقد بدأ الرد على شبهات النصارى ومفترياتهم في كتابات خاصة في القرن الثاني الهجري، وأول كتابان وصلا إلينا هما: كتاب الدين والدولة في إثبات نبوة محمد ﷺ، لعلي ابن ربن الطبري[٢]، وكتاب للجاحظ[٣] بعنوان: المختار في الرد على النصارى[٤].

وقد حرص الإمام القرطبي والقرافي -رحمهما الله- في الرد على النصارى لإيمانهما بأن أوْلى ما تصرف إليه الهمم الذب عن حوزة الدين بالبحث في الملل وإقامة الدليل على وحدانية الملك الديان[٥]، و«أن النكاية في العدو بالبرهان واللسان أوقع من نكاية السيف والسنان»[٦]؛ وذلك «لبطلان حجتهم وتهاوي دعوتهم أمام حجة

---

(١) محمد المظفر، المنطق، ص٣٥٣.

(٢) هو أبو الحسن علي بن سهل المعروف بابن ربن الطبري، ولد بطبرستان في أواخر خلافة أبي جعفر المنصور على الأرجح، وكان نصرانيا، ثم أسلم على يد المتوكل ، من مؤلفاته كتاب تحفة الملوك، توفي سنة ٢٤٧، وقيل ٢٦٠هـ. انظر: ابن النديم محمد بن إسحاق الوراق، كتاب الفهرست، تحقيق: رضا تجدد، الفن الثالث، من المقالة السابعة، ص٣٥٤، وظهير الدين البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق: محمد كرد علي، ص٢٢-٢٣، ط/ مطبعة الترقي، ١٣٦٥هـ ١٩٤٦م، دمشق.

(٣) أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني، المشهور بالجاحظ، ولد عام ١٦٣هـ بالبصرة، أديب معتزلي، له مؤلفات عدة، منها: كتاب الحيوان، توفي سنة ٢٥٥هـ. انظر: أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج١٢، ص٢١٢ وما بعدها، ط/ دار الكتاب العربي، بيروت.

(٤) انظر: عبد الله بن عبد العزيز الشعيبي، الجدل بين المسلمين والنصارى في العصر الحديث، ص١٢٣-١٢٤، رسالة دكتوراه، ط/ غير منشورة.

(٥) القرافي، أدلة الوحدانية، ص٢٠.

(٦) القرطبي، الإعلام، ص٤٦.

الإسلام، وبيانه، ورسالته وقرآنه»[١].

ب/ أهمية الاستدلال بالقرآن والسنة:

إن القرآن الكريم والسنة النبوية هما سلاح الداعية اللذان لا يمكنه الاستغناء عنهما، فلهما يدعو، وبهما يستدل، ومنهما يقتبس مناهجه وأساليبه الدعوية، وقد أعطى الإمام القرطبي -رحمه الله- للاستدلال بالمنقول من الكتاب والسنة مساحة أوسع مما أعطاها القرافي -رحمه الله- ، وبخاصة في الرد على الشبهات التي بثها النصارى مستدلين بالقرآن حول عدم صحة الإسلام، وصحة نبوة نبينا محمد ﷺ، فأثبت لهم بنصوص الكتاب والسنة بطلان شبهاتهم تلك، وأثبت لهم نبوة نبينا محمد ﷺ بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية من حقائق وبراهين دامغة، بالإضافة إلى استعانته بالأدلة العقلية التي وردت فيها، وألقمت النصارى الحجر.

فالرد على النصارى من خلال القرآن والسنة يكون لرد شبهاتهم الباطلة عن الإسلام، وللاستدلال بها على وحدانية الله سبحانه وتعالى ونبوة محمد وعيسى -عليهما الصلاة والسلام - بما تحويه من براهين عقلية وحسية.

ج/ العناية بأساليب الكتاب والسنة:

تمثل أساليب القرآن الكريم والسنة النبوية في دعوة النصارى أساس الأساليب التي سار عليها الإمامان في دعوتهم للنصارى، وبيان الحق لهم، والرد على شبهاتهم، وبالجملة فإن الحجج العقلية والخطاب العاطفي، والصور الفنية التي سلكها الإمامان منبعها الكتاب والسنة، ولذلك فإن على الداعية الذي يريد أن يقنع النصارى بفساد دينهم، وصلاح الإسلام أن يركز على أساليب الإقناع التي جاءت في القرآن الكريم، والسنة النبوية، وبخاصة أن نقاط الخلاف وموضوعات الجدال بين الإسلام والنصرانية ما زالت ثابتة حتى يومنا هذا، كقضية التثليث، وتأليه المسيح -عليه السلام- وبنوته، وادعاء صلبه، وتحريف الإنجيل، وإنكار نبوة محمد ﷺ ..الخ.

---

(١) د. توفيق الواعي، الدعوة إلى الله، ص٢٩٧.

د/ الاقتصاد في الرد على المعاندين:

إن الداعية يسعى دائما إلى تحقيق الهداية للبشر جميعا، وحواراته ومجادلاته لا تهدف إلى مجرد تبادل الحجج والأدلة، وإبراز التفوق على الخصم في فن الاستدلال والإقناع، بل تسعى إلى قطف الثمار، والدخول في قلوب العباد، والتأثير فيها حتى ينقاد صاحبها إلى الحق، وإذا ما شعر الداعية وتبين له أن خصمه في الحوار لا ينقاد إلى الدليل، ويصر على المراوغة والمناكفة؛ فإنه لا ينبغي له أن يستمر في الحوار، وقد امتدح الله سبحانه وتعالى الذين رفضوا مجاوبة المشركين ومجاراتهم في الشتم والسخرية في قوله تعالى: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾[1].

فمن الحكمة في الدعوة صرف الجهود الدعوية في المواضع التي تكون ذات جدوى، لا في التي دلت التجارب المكرورات على انعدام القابلية فيها، كما أن الشبهات التي تستحق الرد غالبا ما تكون ذات تأثير مهم في أمر من أمور الدعوة، وأن بعض الشبهات قد لا تحتاج إلا إلى الإهمال[2]، وقد كان الإمام القرطبي -رحمه الله- يرى أن عدم الرد على ما يثيره النصارى من باب الإعراض عن الجاهلين الذي هو شرعة رب العالمين، إلا أنه وجد نفسه مضطرا لمنازلتهم عندما ظنوا أن سكوت المسلمين عائد إلى ضعف حجتهم وبطلان دينهم، فآثر الرد عليهم حتى لا يفتن بذلك المفتون[3].

هـ/الحذر في أثناء التعامل مع الكتاب المقدس:

إن النصوص التي نقلها الإمامان عن الكتاب المقدس لدى النصارى في

---

(١) سورة القصص، آية: ٥٥.

(٢) انظر: عبد الرحمن الميداني، فقه الدعوة إلى الله، ج١، ص٣٢٨-٣٣٠، ود. توفيق الواعي، الدعوة إلى الله، ص١٨٩-١٩١.

(٣) انظر: القرطبي، الإعلام، ص٥، ١٣٢.

معرض استدلالهما بها على بطلان الديانة النصرانية قد لا تكون موجودة بالصيغة نفسها في التراجم الحديثة للكتاب المقدس، أو غير موجودة أصلا[١]؛ لأن الترجمات والنسخ المتداولة في ذلك العصر تختلف عن المتداولة في عصرنا الحاضر، وقد اعترف بعض القسيسين في محفل المناظرة بأن الكتاب المقدس عندهم يفتقد السند، وأن نسخه الأساس متعددة اللغات (العبرانية واليونانية، واللاتينية)، وبينها اختلاف كثير، وأنهم يقبلون بعضها ويرفضون البعض الآخر، واعترف مفسرو الأناجيل بكثير من الأخطاء التي ارتكبت في أثناء الترجمة[٢].

وفي مؤتمر كلورادو الذي عقده المنصرون عام ١٩٧٨م، أظهرت الدراسات التي قدمت فيه بشأن الترجمات الخاصة بالكتاب المقدس إلى اللغات الإسلامية وعلى رأسها اللغة العربية اعتراف المنصرين بالصعوبات الكثيرة التي تواجه هذه المسألة، وحاولوا أن يضعوا أسسا عامة لعملية ترجمة كتابهم إلى لغات العالم الإسلامي مع اعترافهم بأن أي ترجمة جديدة هي مثار للنقد من قبل المسلمين وربما من قبل بعض النصارى أيضا،[٣] ذلك أن كل ترجمة جديدة تخرج غالبا ما تختلف عن سابقتها، وقد تتعارض في بعض النصوص، وهذا يدل على تحريفهم المستمر لكتابهم وتلاعبهم بآيات الله وأحكامه.

والداعية الذي يريد أن يفيد من الإمامين القرطبي والقرافي -رحمهما الله- يمكنه أن يفيد من أسلوبهما دون الالتزام بالنصوص الإنجيلية والتوراتية التي

---

(١) انظر: القرافي، أدلة الوحدانية، ص٥٨، ٥٩، ٦٢، ففيها نصوص غير موجودة في التراجم الحديثة.

(٢) انظر: رحمة الله الهندي، إظهار الحق، ج١، ص١١١و ١٦٧، وج٢، ص٢٥٨-٢٥٩، ٤٢٩ وما بعدها.

(٣) التنصير، خطة لغزو العالم الإسلامي، ص٥١٠-٥٢٩، الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التبشيري الذي عقد في مدينة جلين آيري، بولاية كلورادو في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٥م، ونشرته دار Marc.

استدلا بها اعتمادا على النسخ المتداولة في عصرهما، والتراجم التي رأيا وثوق النصارى بها، ويصعب على الداعية اليوم أن يتأكد من أن اختلاف النصوص الموجود بين كتب الرد ونصوص الكتاب المقدس عند النصارى في التراجم الحديثة مرده إلى تحريفات متعمدة من قبل النصارى، أو أنها من الأخطاء التي وقع فيها نساخ الكتب المقدسة، أو نساخ كتب الإمامين، أو غير ذلك من الأسباب.

وعليه ينبغي على الداعية في عصرنا الحاضر إذا كان في معرض الحوار مع النصارى ومناقشتهم بفصوص نصوصهم أن يخاطبهم بالنسخ المعتمدة عندهم، والتراجم التي يرونها معتبرة، حتى لا يجدوا لهم منفذا لرد أدلته والنتائج التي توصل إليها.

و/ أهمية الاستدلال بمصادر الخصم والتمكن منها:

أكثر الإمامان في النقل عن كتب النصارى سواء أكان عن الكتاب المقدس عندهم، أم كتب فقههم، وأقوال أقستهم، وهذا يؤكد على أهمية أسلوب إثبات بطلان دين النصارى من واقع نصوص مصادرهم، وأنه من الطرق الناجعة في دعوتهم، كما يؤكد على أهمية تمكن الداعية الذي يناقش النصارى من مصادرهم عند إرادة محاجتهم وإبراز الفساد الموجود في مذهبهم، فإن التمكن من تلك المصادر يسهل معرفة المواطن التي عبثت بها يد التحريف، وإبراز التناقض الموجود فيها سواء أبين النصوص نفسها أم بين النصوص وأقوالهم ومعتقداتهم المعمول بها في شرعتهم.

ز/ أهمية تنويع الأساليب في دعوة النصارى:

سلك الإمامان في دعوة النصارى أساليب متعددة في إقناعهم بفساد دينهم وبطلانه، وإظهار حسن الإسلام وصلاحه، وهذا يؤكد على أن الداعية لا ينبغي له أن يكتفي بأسلوب معين، بل يعدد في أساليبه وينوعها قدر المستطاع وحسب الحاجة، علّ المدعو يقتنع ببعضها إن لم تقنعه كلها، وهذا من الحكمة في الدعوة التي أمر الله سبحانه وتعالى بها.

ح/ أهمية الاستدلال بالمعقول:

إن النصارى يعتقدون عدم صحة القرآن الكريم، وينكرون أن يكون وحياً من عند الله، أو قد يزعمون أنه دين للعرب وحدهم، ويعتقد المسلمون في الوقت نفسه أن الكتاب الموجود بين يدي النصارى اليوم لا يمثل ما أنزله الله من التوراة والإنجيل، بل يؤمنون بتحريفه وتبديله، وهذا مما يجعل الطرفين لا يقبلان أن يستدل مستدل عليهما بالكتاب الذي لا يؤمنان بإتيانه من عند الله سبحانه وتعالى، وإذا كان الأمر كذلك فإن الأرضية المشتركة التي يلتقي فيها الطرفان ويقبلان الاستدلال بها هي الأدلة العقلية، وفي ذلك يقول الطوفي[1]: «واعلم أن كل متناظرين لا تثبت دعوى أحدهما إلا بمقدمات مشتركة بينهما يتفقون عليها تكون بينهما كالحكم، فلمن وافقت تلك المقدمات تثبت دعواه.

وإذا عرفت هذا فنحن ليس بيننا وبين النصارى واليهود مقدمات مشتركة إلا في العقليات وما تركب منها، ومن غيرها؛ لأن كل واحد من أهل الكتاب والمسلمين يقدح في كتاب الآخر؛ فلا تقوم الحجة عليه به»[2]، وهذا ليس على إطلاقه.

ولذلك نجد الإمامين -رحمهما الله- قد ركزا بشكل كبير على جانب الاستدلال بالمعقول، حتى إن كثيرا من المنقولات عن مصادر النصارى كانت لإبراز مصادمتها البدهيات العقلية كتناقض النصوص مثلا... وإذا كان الأمر كذلك فإن على الداعية أن يعتني بهذا الجانب من أساليب الاستدلال حق الاعتناء، ويدرك أهميته في عملية إقناع النصارى باتباع الحق ونبذ الباطل. والله أعلم.

---

(١) هو أبو الربيع سليمان بن عبد القوي الطوفي الصرصري، ولد في طوف بالعراق سنة ٦٥٧هـ، عالم من فقهاء الحنابلة، وله عدد من التصانيف، توفي في الخليل بفلسطين، سنة ٧١٦هـ. انظر: الزركلي، الأعلام، ج٣، ص١٢٧-١٢٨.

(٢) نجم الدين البغدادي الطوفي، الانتصارات الإسلامية في علم مقارنة الأديان ص٣٤٢، تحقيق: أحمد حجازي السقا، وأصل عنوان الكتاب: الانتصارات الإسلامية في كشف الشبه النصرانية.

الخاتمة

بعث الله سبحانه وتعالى الأنبياء هداة يعلّمون الناس أمور دينهم ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ويبلغون رسالات الله، وقد اتفقت رسالات الأنبياء على دعوة الناس إلى إخلاص العبودية لله تعالى ونبذ الشرك والشركاء، قال تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت...الآية**﴾[١]. ومن حكمة الله سبحانه أن جعل لكل نبي من الأنبياء شرعة ومنهاجا خاصا تتفق وحاجات البشر وتراعي مصالحهم في تلك الأزمنة، وما من نبي من الأنبياء إلا وصدّق نبوة من قبله وبشر بمن بعده ومهّد له، حتى جاءت رسالة محمد ﷺ مكملة ومتممة للرسالات السابقة، فكانت خاتمة الرسالات المصدقة لجميع الديانات السماوية التي سبقتها والمهيمنة عليها، قال تعالى: ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا...الآية**﴾[٢]، فصار القرآن «شاهدا بصحة الكتب المنزلة ومقررا لما فيها مما لم ينسخ وناسخا لما خالفه منها، ورقيبا عليها وحافظا لما فيها من أصول الشرائع، وغالبا لها لكونه المرجع في المحكم منها والمنسوخ»[٣]، وأصبح الإسلام الدين الوحيد الذي لا يقبل الله دينا سواه، قال تعالى: ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين...**﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام...**﴾[٥]، وقال رسول الله ﷺ: «والذي

---

(١) سورة النحل، آية:٣٦.

(٢) سورة المائدة، آية٤٨.

(٣) الشوكاني، فتح القدير، ج٢، ص٤٨.

(٤) سورة آل عمران، آية:٨٥.

(٥) سورة آل عمران، آية:١٩.

نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[١].

ولذلك دعا عليه أفضل الصلاة والتسليم أهل الأرض قاطبة إلى الإسلام، وسار على نهجه ورثته العلماء في إبلاغ دين الحق وإيصاله إلى الخلق عامة، وإلى النصارى خاصة، وبذلوا في ذلك الغالي والنفيس، وكان من بين هؤلاء العلماء الإمامان الجليلان الفاضلان القرطبي، والقرافي، -رحمهما الله وأسأله تعالى أن يجزيهما خير ما جازى به العلماء العاملين- حيث بذلا جهدا محمودا في دعوة النصارى وبيان الحق لهم، والرد على شبهاتهم وكبح شهواتهم، عبر كتبهما (الإعلام، والأجوبة الفاخرة، وأدلة الوحدانية).

ولئن كتب كل من الإمامين كتاباتهما في بيئتين مختلفتين -القرطبي في قرطبة بالأندلس، والقرافي في مصر- فإن البيئتين اللتين عاشا فيها متشابهة في جوانب متعددة، حيث كان يعيش النصارى في هذين الموطنين، وكان الصراع الدعوي بين المسلمين والنصارى قائما على أشده، فقد كانت الهجمات الصليبية من أوروبا قد بدأت تتقدم يوما بعد يوم في الأندلس وتستولي على الممالك الإسلامية شيئا فشيئا، والهجمات الصليبية على السواحل المصرية تشهد تطورا خطيرا.

ولقد أثرت البيئة التي عاش فيها الإمامان على أساليب الإقناع التي اتبعاها في دعوة النصارى إلى الإسلام، كما أثر عليهما التقدم العلمي الذي شهدته كل من القاهرة وقرطبة، وأنواع العلوم التي شاعت والمذاهب التي كانت سائدة في عصرهما، بالإضافة إلى تأثير حالة الحرب والعداء الشديد الذي كان يميز العلاقات بين المسلمين والنصارى.

وقد سلك الإمامان في استدلالهما على بطلان الديانة النصرانية وضلال النصارى وصحة دين الإسلام، أسلوب الاستدلال بالمنقول من الكتاب والسنة، والمنقول من كتب النصارى المقدسة عندهم، وأقوال علمائهم وأحبارهم، وأقوال علماء

---

(١) سبق تخريجه في ص٤١.

المسلمين والحكماء، وغيرهم من الخصوم الذين شهدوا للإسلام.

وسلكا أيضا طريق الحجج العقلية، واستدلا بالقياس بأنواعه، والاستقراء، والتواتر، والمعارضة، والسبر والتقسيم، والمقارنة، والتحدي، وإظهار التناقض في أقوال الخصم وعقيدته، وإبراز قوله بالمحال العقلي...الخ.

وسلكا كذلك الأساليب العاطفية والفنية في الإقناع، فخاطبا عاطفة المدعو ومشاعره من خلال أسلوب الترغيب والترهيب، والتهكم والاستهزاء، والقَسم، والتلطف في الخطاب، والإنكار، وإيراد الشواهد الشعرية والأمثال السائرة.

وأجادا فن الخطاب والإقناع بتعديد الأساليب التي سلكاها، وتقديم ما حقه التقديم وتأخير ما حقه التأخير، وكذا الإجمال والتفصيل، والإطناب والاختصار، وتكرار بعض الموضوعات، وجعل الحديث في بعض الأحيان يسير على شكل الحوار والمناقشة، أو القصص، وذلك في ثوب من الفصاحة والبلاغة...الخ.

ولئن كان الإمامان استدلا بأساليب نقلية وعقلية وعاطفية وفنية، واتفقا في إيراد بعض الحجج اتفاقا حرفيا، واتسم أسلوبهما بالحكمة والبصيرة، والشمول، والتنوع، والشدة أحيانا، فإنهما لم يكونا متشابهين تماما في كل شيء، بل هناك أوجه للاختلاف كما أن هناك أوجها للاتفاق، وقد تميز كل منهما بمميزات خاصة تميزه عن الآخر.

وعلى العموم فإن الإمامين استفادا من أساليب الكتاب والسنة في الرد على النصارى وبيان الحق لهم ودعوتهم إلى دين الإسلام، وحاولا جاهدين أن يصلا بالنصارى إلى بر الأمان.

والحق أن أساليب الإمامين في دعوة النصارى مليئة بالدروس والعبر التي يمكن أن يفيد منها الدعاة ويطبقوها في دعوة النصارى، ومن شابههم من أهل الديانات الأخرى.

ولما كان الجهد البشري لا يسلم من النقص والمآخذ، فإنهما قد جانبا الحق في قليل من القضايا، وهي لا تغض من شأنهما ولا تجرح في الجهد الذي بذلاه، فمن

ذا الذي لا يخطئ ولا يعاب عليه شيء إلا من عصمه الله سبحانه وتعالى من الأنبياء والرسل الكرام، فأسأل الله أن يعفو عن الجميع الزلات والخطايا.

• نتائج البحث:

من النتائج التي كشفها هذا البحث:

١- أن الرد على أهل الباطل، وبيان الحق لهم يُعد من أبرز جبهات الدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيل الله.

٢- حرص علماء المسلمين واهتمامهم بدعوة أهل الملل وبخاصة النصارى إلى الإسلام، حيث أفردوهم بكتابات خاصة وردود مستقلة.

٣- أن أساليب دعوة النصارى إلى الإسلام تختلف عن أساليب دعوة غيرهم من أهل الديانات الأخرى؛ وذلك لأنهم أهل عقيدة ذات خصائص معينة تستند إلى كتب خاصة يدّعون أنها من عند الله، ولهم شبهات خاصة أيضا تحول دون إيمانهم بدعوة خاتم الأنبياء والرسل ﷺ.

٤- أن الإمام القرطبي والقرافي -رحمهما الله- تأثرا بالبيئة التي عاشا فيها في أسلوب دعوتهما للنصارى.

٥- تعدد أساليب دعوة النصارى إلى الإسلام، وعدم محدوديته في أساليب معينة.

٦- أهمية اطلاع الداعي على مصادر المدعوين وضرورة معرفة عقائدهم وشعائرهم بشكل يستطيع معه الداعية إبراز ما فيه من الضلال بأسلوب علمي حكيم، وأدلة معتبرة، وهذا مما تميز به أسلوب القرطبي والقرافي، رحمهما الله.

٧- شدة التشابه بين أسلوب الإمامين في دعوة النصارى إلى الإسلام.

٨- تأثر العالمين بأساليب الكتاب والسنة، وبمن سبقهما من علماء المسلمين.

٩- التزام العالمين بأصول الاستدلال، وآداب البحث والمناظرة بصفة عامة.

١٠- اختلاف التراجم الحديثة عن التراجم القديمة للكتاب المقدس لدى النصارى، مما يعني استمرار التحريف في هذا الكتاب، ومن ثم وجوب العناية بهذه الاختلافات في أثناء مناقشة النصارى ودعوتهم إلى الإسلام.

- التوصيات والمقترحات:

أما التوصيات والمقترحات فتتلخص فيما يلي:

- ضرورة العناية بموضوعات الرد التي كتبها علماء الإسلام، سواء أكان الرد على النصارى أم على غيرهم من أهل الملل الأخرى، وإخراجه إلى النور، ودراسته دراسة دعوية بحيث يفيد منه الدعاة في مواجهة الملل الباطلة والأفكار المنحرفة.
- على الدعاة إلى الله الاهتمام بدعوة النصارى إلى الإسلام بالحجة والبيان، وبخاصة في هذا العصر الذي عُطلت فيه فريضة الجهاد، واشرأبت فيه أعناق المنصرين لصد المسلمين عن الحق، وفتنهم في دينهم.
- لا بد من الإفادة من وسائل الاتصال المعاصرة في الوصول إلى النصارى في عقر دارهم، سواء أكانت هذه الوسائل من وسائل الإعلام التقليدية أم الحديثة التي أصبحت تتخطى المسافات الطويلة بالصوت والصورة، مثل القنوات الفضائية، والإنترنت، مع ضرورة سلوك أساليب تتناسب وهذه الوسائل.

ويمكن القول هنا: إن الله سبحانه وتعالى قد حفظ القرآن وجعله معجزا على مر الأيام والعصور، ولم تزد العلوم والمعارف التي يكتشفها البشر هذا القرآن إلا رسوخا وثباتا، ورغم هذا الكم الهائل من الحقائق العلمية التي توصّلت إليها البشرية بعد نزول القرآن الكريم، إلا أنه -حتى هذا اليوم- لم تأت حقيقة علمية واحدة تناقض ما جاء في القرآن الكريم من الحقائق، بل وقف كثير من علماء الغرب مبهورين أمام الحقائق التي أثبتها القرآن قبل أكثر من أربعة عشر قرنا، ولم يصل إليها الإنسان إلا في وقت قريب؛ لذلك فإن المعجزات العلمية التي حواها القرآن

الكريم تعد من أهم الطرق التي ينبغي أن يستعين بها الداعية في الدعوة إلى الله، وبخاصة دعوة النصارى الذين طغت الجوانب المادية في حياتهم وحازوا على قصب السبق في العلوم الطبيعية والتقنية في هذا العصر.

والله أعلم،،،

الفهارس

فهرس الآيات

سورة النساء

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الصفحة

فهرس الأعلام

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

فهرس المصادر والمراجع

• أولا:

١- القرآن الكريم.

• ثانيا: الكتب:

٢ - الاتصال بالجماهير والدعاية الدولية، أحمد بدر، ط١، دار القلم، ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م، الكويت.

٣ - الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن السيوطي/جلال الدين/، قدم وعلق عليه: محمد شريف سكر، وراجعه: مصطفى القصاص، ط١، دار المعارف،الرياض، ودار إحياء العلوم، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، بيروت.

٤ - الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: سالم بن محمد القرني، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين بالرياض، ط، غير منشورة.

٥ - الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: مجدي محمد الشهاوي، ط، مكتبة القران، القاهرة. وهي المعتمدة في هنا.

٦ - الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، أحمد بن إدريس القرافي، تقديم وتحقيق، وتعليق، بكر زكي عوض، ط٢، مكتبة وهبة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، القاهرة.

٧ - الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان البستي، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بلبان الفارسي، تحقيق:شعيب الأرنؤوط، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، بيروت.

٨ - الإحكام في تميز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، ط، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م، حلب.

٩ - أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق:

عبدالرحمن دمشقية، ط١، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

١٠- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي الشوكاني، ط١، مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م، القاهرة.

١١- أساسيات البحث العلمي، بين النظرية والتطبيق، حنان عيسى سلطان، غانم العبيدي، ط، دار العلوم، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م، الرياض.

١٢- أساسيات البحث العلمي في التربية والعلوم الإنسانية، عناصره ومناهجه، د. أحمد سليمان عواد، ود. فتحي حسن ملكاوي، ط١، مكتبة المنار، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م، الزرقاء، الأردن.

١٣- الاستدلال الصوري، عزمي إسلام، ط/ المطبعة العصرية، الكويت.

١٤- الاستفتاء في أحكام الاستثناء، أحمد بن إدريس القرفي، تحقيق: طه محسن، ط، مطبعة الإرشاد، ١٤٠٢هـ ١٩٩٢م، بغداد.

١٥- الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد الناصري تحقيق: جعفر الناصري، محمد الناصري، ط، دار الكتاب العربي، ١٩٥٤م، الدارالبيضاء.

١٦- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، محمد محمد أبو شهبة، ط٤، مكتبة السنة المحمدية، ١٤٠٨هـ، القاهرة.

١٧- أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني، محمد رشيد رضا، ط، المطبوعات العربية.

١٨- الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، علي بن محمد /الملا علي القاري/، تحقيق: محمد الصباغ، ط/ دار الأمانة، ١٣٩١هـ، ١٩٧١م.

١٩- أسس الدعوة وآدابها، محمد السيد الوكيل، ط٢، دار الوفاء، ١٤١٢هـ ١٩٩١م، مصر، ودار المجتمع، الخبر.

٢٠- أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، سليمان الخطيب، ط١، الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٦هـ.

٢١- الإسلام دعوة عالمية، عباس محمود العقاد، ط، المكتبة العصرية، بيروت.

٢٢- الإسلام والإنسان، إبراهيم عوضين، الكتاب السابع والعشرون، ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م.

٢٣- الإسلام وثقافة الإنسان، سميح عاطف الزين، ط٨، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

٢٤- أسلوب الترغيب في دعوة النبي ﷺ، مقوماته-مجالاته-آثاره، سليمان بن عبد العزيز الدويش، رسالة ماجستير، كلية الدعوة بالرياض، ط، غير منشورة.

٢٥- أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم، زيد بن عمر عبد الله، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية أصول الدين، جامعة الإمام، عام١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، ط، غير منشورة.

٢٦- الأسلوب دراسة لغوية بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، أحمد الشايب، ط٧، مكتبة النهضة المصرية، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٦م، مصر.

٢٧- أسلوب السخرية في القران الكريم، عبد الحليم حفني، ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨م.

٢٨- أسلوب المناظرة في دعوة النصارى إلى الإسلام، إبراهيم بن صالح الحميدان، رسالة دكتوراه، كلية الدعوة والإعلام، جامعة الإمام، ط، غير منشورة.

٢٩- الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن حجر العسقلان، ط١، مطبعة السعادة، ١٣٢٨هـ.

٣٠- أصول البحث العلمي ومناهجه، أحمد بدر، ط٤، وكالة المطبوعات، الكويت.

٣١- أصول الحوار، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وحدة الدراسات والبحوث، ط٢، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.

٣٢- أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، ط٣/ دار عمر بن الخطاب، ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م، الإسكندرية.

٣٣- الأصول الفنية للأدب، عبد الحميد حسن، ط/ مكتبة الأنجلو المصرية.

٣٤- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، ط/ الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية، بالرياض.

٣٥- أضواء على المسيحية دراسات في أصول المسيحية، متولي يوسف شلبي، ط، الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع.

٣٦- إظهار الحق، رحمة الله بن خليل الله الهندي، ط، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

٣٧- الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام وإثبات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: أحمد حجازي السقا، ط، دار التراث العربي،

٣٨- الأعلام، قاموس وتراجم، خير الدين الزركلي، ط٤، دار العلم للملايين، ١٩٧٩م، بيروت.

٣٩- إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر الدمشقي/ابن القيم/، راجعه وقدم له وعلق عليه، طه عبد الرؤوف سعد، ط، دار الجيل، ١٩٧٣م، بيروت.

٤٠- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، محمد بن راغب الطباخ الحلبي، صححه وعلق عليه: محمد كمال، ط٢، دار القلم العربي، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، حلب.

٤١- الإمام شهاب الدين القرافي وأثره في الفقه الإسلامي، عبد الله إبراهيم صلاح، ط١، مركز دراسات العالم الإسلامي، ١٩٩١م، مالطا.

٤٢- الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، مشهور حسن محمود سلمان، ط١، دار القلم، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، الكويت.

٤٣- الأمثال القرانية، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، ط١، دار القلم، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، دمشق بيروت.

٤٤- الأمثال من الكتاب والسنة، محمد بن علي الحكيم الترمذي، تحقيق: علي محمدالبجاوي، ط، دارالتراث، القاهرة.

٤٥- الأمنية في إدراك النية، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: مجموعة من العلماء، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م، بيروت.

٤٦- الانتصارات الإسلامية في علم مقارنة الأديان، نجم الدين البغدادي الطوفي، تحقيق: أحمد حجازي السقا.

٤٧- إنجيل لوقا، ط ١٩٨٣م المصورة عن ط ١٨٨٣م، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

٤٨- الأندلس الذاهبة، ضيا باشا، ترجمة: عبد الرحمن أرشيدات ط١، وزارة الثقافة، ١٩٨٩م، الأردن.

٤٩- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، إسماعيل البغدادي، ط، ١٩٥٤م ١٣٤٦هـ.

٥٠- البحر المحيط، محمد بن يوسف الأندلسي /أبي حيان/، ط، مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض.

٥١- بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر الدمشقي/ابن القيم/ ط، دار الكتاب العربي، بيروت.

٥٢- البداية والنهاية، إسماعيل بن كثير الدمشقي/ابن كثير/، تحقيق: أحمد عبد الوهاب فتيح، ط١، دار الحديث، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، القاهرة.

٥٣- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، ط.، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٣٨٥هـ.

٥٤- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبد الرحمن السيوطي/جلال الدين/، ط١، مطبعة السعادة، ١٣٢٦هـ، القاهرة.

٥٥- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني، محمد تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، ط١/ دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م، بيروت.

٥٦- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد الزبيدي، ط، دار صادر، ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م، بيروت.

٥٧- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، حسن إبراهيم حسن، ط١٣، دار الجيل، ١٤١١هـ ١٩٩١م، بيروت.

٥٨- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، محمد بن أحمد الذهبي، مخطوط، صورة ميكروفيلم، رقم ٨١٩/ف، المكتبة المركزية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

٥٩- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، يوسف أشباخ، ترجمة: محمد عبد الله عنان، ط٢، مؤسسة الخانجي، ١٣٧٧هـ ١٩٥٨م، القاهرة.

٦٠- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، عبد الرحمن علي الحجي، ط٢/دار العلم، ١٤٠٢هـ ١٩٨١م، دمشق بيروت.

٦١- تاريخ بغداد أو مدينة السلام، أحمد بن علي الخطيب البغدادي، ط/ دار الكتاب العربي، بيروت.

٦٢- تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، راجعها وعلق عليها د. حسين مونس، ط، دار الهلال.

٦٣- تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة، ط٢، دارالفكر العربي،١٩٨٠م، القاهرة.

٦٤- تاريخ حكماء الإسلام، ظهير الدين البيهقي، تحقيق: محمد كرد علي، ط/ مطبعة الترقي، ١٣٦٥هـ، ١٩٤٦م، دمشق.

٦٥- تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، يوسف كرم، ط، دار المعارف بمصر، ١٩٥٧م.

٦٦- تاريخ قضاة الأندلس، أبو الحسن بن عبد الله الحسن النباهي المالقي الأندلسي، ط، مركز الموسوعات العالمية، بيروت.

٦٧- التذكار في أفضل الأذكار في فضل القرآن وقارئه ومستمعه والعامل به وحرمة القرآن وكيفية تلاوته، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق:

ثروت محمد نافع، ط، دار التوحيد.

٦٨- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، أبو عبد الله القرطبي، ط/ المكتبة السلفية، المدينة المنورة.

٦٩- تذكرة الحفاظ، ط، محمد بن أحمد الذهبي، دار إحياء التراث العربي.

٧٠- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، عياض بن موسى السبتي، تحقيق: د. أحمد بكير محمود، ط، دار مكتبة الحياة، بيروت.

٧١- - الترهيب في الدعوة في القرآن والسنة، أنواعه - مجالاته- تأثيره، رقية بنت نصرالله بن محمد نياز، رسالة ماجستير، كلية الدعوة بالرياض، ط، غير منشورة.

٧٢- تسهيل المنطق، عبد الكريم الأثري، ط٢، مطابع سجل العرب.

٧٣- تطبيقات الرسول ﷺ للمنهج العقلي في الدعوة، استنتاج لأساليب المنهج العقلي من خلال الأحاديث النبوية، محمد بن عبد الله العثمان، بحث مكمل لدرجة الماجستير، المعهد العالي للدعوة الإسلامية، المدينة المنورة، ط/ غير منشورة.

٧٤- التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، ضبطه وفهرسه: محمد بن عبد الحكيم القاضي، ط١، دار الكتاب المصري، ١٤١١هـ ١٩٩١م، القاهرة.

٧٥- تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي/أبو السعود/، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٧٦- تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، ط٢، دار المعرفة، بيروت.

٧٧- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير القرشي /ابن كثير/، ط١، دار الريان للتراث، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م. القاهرة.

٧٨- تفسير ابن مسعود، محمد أحمد عيسوي (جامع ومحقق)، ط١، شركة

الطباعة العربية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، الرياض.

٧٩- التكملة لكتاب الصلة، محمد بن عبد الله /ابن الآبار/، ط، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م.

٨٠- التنصير، خطة لغزو العالم الإسلامي، الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التبشيري الذي عقد في مدينة جلين آيري، بولاية كلورادو في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٥م، ونشرته دار Marc.

٨١- تنوير المقاس من تفسير ابن عباس، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ط، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٨٠هـ ١٩٦٠م، القاهرة.

٨٢- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق محمد زهري النجار، ط١، مكتبة الهدى الإسلامية، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، الخبر.

٨٣- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق وتعليق: محمود محمد شاكر، راجعه وخرج أحاديثه، أحمد محمد شاكر، ط، دار المعارف مصر.

٨٤- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ط، دار الكتب المصرية، ١٣٧٤هـ ١٩٥٣م.

٨٥- الجدل بين المسلمين والنصارى في العصر الحديث، عبد الله بن عبد العزيز الشعيبي، رسالة دكتوراه، ط/ غير منشورة.

٨٦- الجدل في القرآن الكريم فعاليته في بناء العقلية الإسلامية، محمد التومي، ط، الشركة التونسية، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، تونس.

٨٧- الجزء فيه أحاديث أبي الزبير عن غير حاتم، أبو الشيخ عبدالله بن جعفر حيان الأصفهاني، تحقيق : بدر بن عبدالله البدر، ط١،مكتبة الرشد، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م، الرياض.

٨٨- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد بن عبد الحليم/ابن تيمية/،

تحقيق: علي بن حسن بن ناصر، عبد العزيز بن إبراهيم العسكر، حمدان بن الحمدان، ط١، دار العاصمة، ١٤١٤هـ، الرياض.

٨٩- الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، إسماعيل بن محمد الأصبهاني، تحقيق: محمد ربيع هادي المدخلي، ومحمد محمود أبو رحيم، ط/١، دار الراية للنشر والتوزيع، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م، الرياض.

٩٠- الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، عبد اللطيف حمزة، ط٨، دار الفكر العربي، ١٩٦٨م، القاهرة.

٩١- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، عبد الرحمن السيوطي/جلال الدين/، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٨م ١٣٨٧هـ، مصر.

٩٢- حكمة الدعوة، رفاعي سرور، ط١، مكتبة وهبة، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م، القاهرة.

٩٣- الحكمة في الدعوة إلى الله، تعريف وتطبيق، زيد بن عبد الكريم الزيد، ط١، دار العاصمة، ١٤١٢هـ، الرياض.

٩٤- الحكمة والموعظة الحسنة وأثرهما في الدعوة إلى الله في ضوء الكتاب والسنة، أحمد نافع سليمان المورعي، رسالة دكتوراه، ط، دار الأندلس الخضراء، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، جدة.

٩٥- حلية الأولياء وطبقة الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني، ط٣، دار الكتاب العربي، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، بيروت.

٩٦- الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، يحيى محمد حسن زمزمي، رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، دار التربية والتراث، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م، مكة المكرمة.

٩٧- الحوار مع أهل الكتاب، أسسه ومناهجه، خالد بن عبد الله القاسم، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة الملك سعود، نوقشت في ١٤١١هـ، ط/١ دار المسلم، ١٤١٤هـ، الرياض.

٩٨- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، أحمد أحمد بدوي، ط، دار نهضة مصر، ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م، القاهرة.

٩٩- الحياة العلمية في الأندلس في عهد الموحدين، يوسف بن علي العريني، رسالة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية، ط، غير منشورة.

١٠٠- خصائص الخطبة والخطيب، نذير محمد مكتبي، ط١/ دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م، بيروت.

١٠١- خصائص الدعوة الإسلامية، محمد أمين حسن، ط١/ مكتبة المنار، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، الأردن.

١٠٢- الخطابة أصولها تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، محمد أبو زهرة، ط١، دار الفكر العربي.

١٠٣- دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ط٣، دارالمعرفة، ١٩٧١م، بيروت.

١٠٤- الدارس في المدارس، تحقيق: جعفر الحسني، عبد القادر محمد النعيمي الدمشقي، ط، مطبعة الترقي، ١٣٦٧هـ ١٩٤٨م، دمشق.

١٠٥- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن السيوطي/جلال الدين/، ط، محمد أمين دمج، بيروت.

١٠٦- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، قاسم عبده أمين، ط٢، دار المعارف، ١٩٨٣م، القاهرة.

١٠٧- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، ط، دار الكتب الحديثة، مصر.

١٠٨- الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، أحمد غلوش، ط، دا ر الكتاب المصري، القاهرة.

١٠٩- الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، عطية الصقر، ط١، مؤسسة الصباح للنشر والتوزيع، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

١١٠- الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، محمد الراوي، ط، دار العربية، بيروت.

١١١- الدعوة الإسلامية في عهدها المكي، مناهجها وغاياتها، رؤوف شلبي، ط٣، دار القلم، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م، الكويت.

١١٢- الدعوة إلى الله، الرسالة الوسيلة الهدف، توفيق الواعي، ط١، مكتبة الفلاح، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، الكويت.

١١٣- الدعوة إلى الله على بصيرة، عبد النعيم محمد حسنين، ط١، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب الإسلامي، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م، القاهرة.

١١٤- دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم/ابن تيمية/، إعداد: محمد السيد الجليند، ط٢، مؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٤هـ ١٩٨٢م، دمشق.

١١٥- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، صحح أصله: محمد عبده، ومحمد محمود الشنقيطي، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م، بيروت.

١١٦- دلائل النبوة، أحمد بن الحسني البيهقي، تحقيق وتخريج: عبدالمعطى قلعجي، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، بيروت، لبنان.

١١٧- دليل الرسائل الجامعية في المملكة العربية السعودية، زيد عبد المحسن الحسين، ط٢، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

١١٨- الدليل الشافي على المنهل الصافي، يوسف تغري بردي، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، ط، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

١١٩- دور العاطفة في حياة الإنسان، محمد عبدالرحيم عدس، ط، دار الفكر، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م، عمان، الأردن.

١٢٠- دولة بني قلاوون في مصر، محمد بن جمال الدين سرور، ط، دار الفكر العربي.

١٢١- ديوان الحطيئة، أبو سعيد السكري (شارح)، ط، دار صادر، ١٣٨٧هـ

١٩٦٧م، بيروت.

١٢٢- ديوان الشافعي، إعداد: د. رحاب عكاوي، ط، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٢م.

١٢٣- ديوان عدي بن زيد العبادي، محمد جبار المعيبد (جامع ومحقق)، ط، دار الجمهورية للنشر والطبع، ١٩٦٥م، بغداد.

١٢٤- ديوان المتنبي، ط، دار الجيل، بيروت.

١٢٥- الديانات والعقائد في مختلف العصور، أحمد عبدالغفور عطار، ط١، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

١٢٦- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون المالكي، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، ط، دار التراث، القاهرة.

١٢٧- ذيل مرآة الزمان، ط١، دائرة المعارف العثمانية، قطب الدين موسى اليونيني، حيدر آباد، الهند، ١٣٨٠هـ.

١٢٨- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، محمد بن محمد المراكشي، ط، دار الثقافة، بيروت.

١٢٩- رجال ونساء أسلموا، عرفات كامل العشي، دار القلم، ١٤٠١هـ ١٩٨١م، الكويت.

١٣٠- الرد على المخالف من أصول الإسلام، بكر بن عبد الله أبو زيد، ط/ دار الهجرة للنشر والتوزيع، الدمام.

١٣١- الروح، محمد بن أبي بكر الدمشقي/ابن القيم/ ط، دار الرشد، الرياض.

١٣٢- روح البيان في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي البغدادي، ط٤، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، بيروت، لبنان.

١٣٣- الروض المعطار في خبر الأقطار معجم جغرافي مع مسرد عام، محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ١٩٧٥م، بيروت.

١٣٤- زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، ط١، المكتب

الإسلامي، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤.

١٣٥- زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر الدمشقي/ابن القيم/ تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، ط١/، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، بيروت.

١٣٦- الزهد، أحمد بن حنبل الشيباني، دراسة وتحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، ط١، دار الكتاب العربي، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، بيروت.

١٣٧- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، جمال الدين بن نباتة المصري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط، المكتبة العصرية، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، صيدا، وبيروت.

١٣٨- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، ط٤، المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م بيروت.

١٣٩- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء على الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، ط١، مكتبة المعارف، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م الرياض.

١٤٠- السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ط٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٧م.

١٤١- سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، موسوعة الكتب الستة، ط/ الطبعة التركية، اسطنبول، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

١٤٢- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، موسوعة الكتب الستة، ط/ الطبعة التركية، اسطنبول، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

١٤٣- سنن الدار قطني، علي بن عمر الدار القطني، تحقيق: السيد عبدالله هاشم يماني المدني، ط، دار المحاسن للطباعة، ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م، القاهرة.

١٤٤- السنن الكبرى، أحمد بن الحسني البيهقي، ط، دار المعرفة، بيروت.

١٤٥- سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني، موسوعة الكتب الستة، ط/ الطبعة التركية، اسطنبول، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

١٤٦- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، بيروت.

١٤٧- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: محمد خليل هراس، ط، مكتبة الجمهورية.

١٤٨- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد محمد مخلوف، ط، المطبعة السلفية، ١٣٤٩هـ، القاهرة.

١٤٩- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي ابن العماد الحنبلي، ط، دار الفكر.

١٥٠- شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، ط١، دارالفكر، ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م بيروت.

١٥١- شرح العقيدة الطحاوية، عليّ بن علي بن أبي العز الدمشقي، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وقدم له: عبدالله عبدالمحسن التركي وشعيب الأرنؤوط، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، لبنان.

١٥٢- شرح مشكل الآثار، أحمد بن محمد الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م، بيروت.

١٥٣- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، عياض بن موسى السبتي، تحقيق: محمد أمين قرة علي، أسامة الرفاعي، جمال السيرون، نورالدين قرة علي، عبدالفتاح السيد، ط، مكتبة الفارابي، ومؤسسة علوم القران، دمشق.

١٥٤- شهاب الدين القرافي، حياته وآراؤه الأصولية، عياضة بن نامي السلمي، ط، مكتبة الرشد، الرياض.

١٥٥- الشوارد، عبد الله بن محمد بن خميس، ط، دار اليمامة، ١٣٤٩هـ ١٩٧٤م.

١٥٦- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، ط/ الطبعة التركية،اسطنبول، ١٤٠١هـ، ١٩٨١.

١٥٧- صحيح سنن أبي داود، ناصرالدين الألباني، ط١/، المكتب الإسلامي، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م بيروت.

١٥٨- صحيح سنن الترمذي، ناصر الدين الألباني، ط١/ المكتب الإسلامي، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م بيروت.

١٥٩- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، ط/ الطبعة التركية، اسطنبول، ١٤٠١هـ، ١٩٨١.

١٦٠- الصواعق المرسلة على الجهمية العطلة، أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية، تحقيق: د. علي بن محمد الدخيل الله، ط١، دار العاصمة، ١٤٠٨هـ، الرياض.

١٦١- ضعيف الجامع الصغير وزيادته، (الفتح الكبير)، ناصر الدين الألباني، ط٢، المكتب الإسلامي، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، بيروت.

١٦٢- ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، ط٤، دار القلم، ١٤١٤هـ ١٣٩٣م، دمشق.

١٦٣- طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق: عبدالفتاح محمد الحلو، محمود محمد الطناحي، ط١، عيسى البابي الحلبي، مصر.

١٦٤- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد البصري/ابن سعد)، ط١، دار بيروت ، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م، بيروت.

١٦٥- طبقات المفسرين، عبد الرحمن السيوطي/جلال الدين/، تحقيق: علي محمد عمر، ط١، مكتبة وهبة، ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م، القاهرة.

١٦٦- طبقات المفسرين، محمد بن علي الداودي، تحقيق: علي محمد عمر، ط١، مكتبة وهبة، ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م، القاهرة.

١٦٧- العبر في خبر من غبر، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: محمد سعيد زغلول، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، بيروت.

١٦٨- العبر وديوان المبتدأ والخبر وأيام العرب والعجم والبربر...،المعروف بتاريخ ابن

خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المغربي، ط، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٧م، بيروت، لبنان.

١٦٩- العز بن عبد السلام -حياته وآثاره ومنهجه في التفسير، عبد الله بن إبراهيم الوهيبي، ط٢، عام١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

١٧٠- عصر المرابطين والموحدين في المغرب الأندلس، محمد عبد الله عنان، ط١، مطبعة لجنة التأليف، ١٣٨٤هـ ١٩٦٣م، القاهرة،

١٧١- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي، تحقيق: فؤاد سيد، ط، ١٣٨٥هـ ١٩٦٦م، القاهرة.

١٧٢- العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، ط، لجنة التأليف والترجمة، ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م القاهرة.

١٧٣- العقد المنظوم، أحمد بن إدريس القرافي، مخطوط مصورفي ميكروفيلم، برقم ١٦٧و ٣٨٦، ويحتوي على ٢٠١ لوحة، ويعود تاريخ نسخه إلى ١٥/١/٩٩٣هـ مكتبة المسجد النبوي بالمدينة.

١٧٤- العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، عبد الملك عبد الله الجويني، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، ط١/ مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

١٧٥- علم الجذل في علم الجدل، نجم الدين الطوفي، تحقيق: فولفهارت هاينريتشس، ط، دار فرانز شتانر، بفيسبادن، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.

١٧٦- العلم والبحث العلمي، دراسة في مناهج العلوم، حسين عبد الحميد أحمد رشوان، ط٤، المكتب الجامعي الحديث، ١٩٨٩م.

١٧٧- على التوراة، علي بن محمد أبو الوليد الباجي، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، ط١، دار الأنصار، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، القاهرة.

١٧٨- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، أحمد القاسم، /ابن أبي أصيبعة/، شرح وتحقيق: نزار رضا، ط، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥م، بيروت.

١٧٩- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، الحسن بن محمد بن الحسين النيسابوري، تحقيق ومراجعة: إبراهيم عطوة عوض، ط١، مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨١هـ ١٩٦٢م، مصر.

١٨٠- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، إخراج وترقيم محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي، ط، المكتبة السلفية.

١٨١- فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، ط، دار الفكر، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، بيروت.

١٨٢- الفروق، أحمد بن إدريس القرافي، ط، دار المعرفة، بيروت.

١٨٣- الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، ط٤، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م،

١٨٤- الفصل في الأهواء والملل والنحل، علي بن حزم الأندلسي، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، عبدالرحمن عميرة، ط١، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتروزيع، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، جدة.

١٨٥- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، أبو عبيدة البكري، ط، ١٣٩١هـ ١٩٧١م، دار الأمانة، بيروت، لبنان.

١٨٦- فقه الدعوة إلى الله، علي عبد الحليم محمود، ط١، دار الوفاء، ١٤١٠هـ، المنصورة، مصر.

١٨٧- فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ط١، دار القلم، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، دمشق.

١٨٨- الفقيه والمتفقه، أحمد بن علي الخطيب البغدادي، ط، دارالكتب العلمية، ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م، بيروت.

١٨٩- الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع الهجري، عبد المجيد الشرفي، ط، الدار التونسية للنشر، تونس.

١٩٠- فلسفة العصور الوسطى، عبد الرحمن بدوي، ط مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٩م القاهرة.

١٩١- الفلك الدائر على المثل السائر، ابن أبي الحديد، تحقيق: د. أحمد الحفي، ود. بدوي طبانة، ط٢، دار الرفاعي، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م، الرياض.

١٩٢- فن القصة، محمد يوسف نجم، ط٧، دار الثقافة، ١٩٧٩م بيروت.

١٩٣- فهرس مخطوطات مكتبة كوبرلي، رمضان ششن وزملاؤه، ط، منظمة المؤتمر الإسلامي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، استانبول.

١٩٤- فهرست الكتب النحوية المطبوعة، عبد الهادي الفضلي، تحقيق: طه محسن، ط١، مكتبة المنار، ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م، الأردن، الزرقاء.

١٩٥- فوات الوفيات والذيل عليها، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق: إحسان عباس، ط، دار الثقافة، بيروت.

١٩٦- في ظلال القران، سيد قطب، ط١٢، دار الشروق، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، بيروت.

١٩٧- في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، ط، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية.

١٩٨- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط١، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، بيروت لبنان.

١٩٩- القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، محمد الصادق عرجون، ط/ مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٦هـ، ١٩٦٦م، القاهرة.

٢٠٠- قرطبة في العصر الإسلامي، تأريخ وحضارة، أحمد فكري، ط، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٣م، الإسكندرية.

٢٠١- القرطبي مفسرا، علي بن سليمان العبيد، رسالة ماجستير، ط، غير منشورة.

٢٠٢- القرطبي المفسر سيرة ، منهج، يوسف عبد الرحمن الفرت، ط١، دار القلم،

١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، الكويت.

٢٠٣- القرطبي ومنهجه في التفسير، القصبي محمود زلط، ط، دار الأنصار، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، القاهرة.

٢٠٤- قواعد أساسية في البحث العلمي، سعيد إسماعيل صيني، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م بيروت.

٢٠٥- قول على قول، حسن سعيد الكرمي، ط٢، دار لبنان للطباعة والنشر، ١٩٧٥م، بيروت، لبنان.

٢٠٦- قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، أحمد مختارالعبادي، ط، ١٩٦٩م، دار النهضة العربية.

٢٠٧- الكافية في الجدل، عبد الملك الجويني، تحقيق: د. فوقية حسين محمود، ط، عيسى البابي الحلبي، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، القاهرة

٢٠٨- الكامل في التاريخ، علي بن محمد البياتي، /ابن الأثير/، ط، دار صادر، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م، بيروت.

٢٠٩- كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، عبد الملك الجويني، تحقيق: د. محمد يوسف موسى، وعلي عبد المنعم عبد الحميد، ط، مكتبة الخانجي، ١٣٦٩هـ- ١٩٥٠م،

٢١٠- كتاب الأضداد، محمد القاسم الأنباري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط، دائرة المطبوعات والنشر في الكويت، ١٩٦٠م.

٢١١- كتاب الأمثال في الحديث النبوي، عبد الله جعفر حيان الأصفهاني، ط٢، الدار السلفية، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م، بومباي الهند.

٢١٢- كتاب الجدل على طريقة الفقهاء، أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد الحنبلي، ط/ مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد.

٢١٣- كتاب الداعي إلى الإسلام، كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري، تحقيق: سيد حسين باغجوان، ط١، دار البشائر ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.

٢١٤- كتاب الرد على المنطقيين، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ط٦، المكتبة الإمدادية، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، مكة المكرمة.

٢١٥- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط، عيسى البابي الحلبي، مصر.

٢١٦- كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي العلوي اليمني، ط، دار الكتب العلمية، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، بيروت لبنان.

٢١٧- كتاب الفهرست، محمد بن إسحاق الوراق/ابن النديم/، تحقيق: رضا تجدد.

٢١٨- الكتاب المقدس، ط/ طبعة العيد المئوي، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، ١٩٨٣م، مصر.

٢١٩- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود عمر الزمخشري، ط/ دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٢٠- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني، تحقيق: أحمد القلاش، ط٤، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، بيروت.

٢٢١- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبدالله/حاجي خليفة/، ط، مكتبة المثنى، بغداد.

٢٢٢- الكلام على المسائل الصقلية، محمد شرف الدين بالتقابا، ط، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٤١م، بيروت.

٢٢٣- كيف تحاور -دليل عملي للحوار-، طارق علي الحبيب، ط١، دار المسلم، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م، الرياض.

٢٢٤- كيف تقنع الآخرين، عبد الله محمد العوشن، ط٣، دار العاصمة للنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ، الرياض.

٢٢٥- كيف ندعو الناس -محاولة لتعليم طرائق الدعوة وصنعة عرضها على الناس، عبد البديع صقر، ط، دار الاعتصام.

٢٢٦- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور ، ط، دار صادر، بيروت.

٢٢٧- اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة،جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ط، دار المعرفة بيروت.

٢٢٨- اللباب في تهذيب الأنساب، عزالدين ابن الأثير الجزري ، ط، دار صادر، بيروت.

٢٢٩- مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ط٨، مكتبة المعارف، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، الرياض.

٢٣٠- مبادىء في الأدب والدعوة، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، ط١، دار القلم، ١٩٨٢م ١٤٠٢هـ، دمشق وبيروت.

٢٣١- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، ط٢، دار الرفاعي، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م الرياض.

٢٣٢- مجابو الدعوة، عبد الله بن أبي الدنيا، تحقيق:محمد عبد القادرعطا، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، بيروت.

٢٣٣- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، سعيد عبد الفتاح عاشور، ط١، دار النهضة العربية، ١٩٦٢م، القاهرة.

٢٣٤- مجمع الأمثال، أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، ط، منشورات دار الحياة، ١٩٦٢م، بيروت.

٢٣٥- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، ط، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٢٣٦- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، أحمد بن عبد الحليم/ابن تيمية/، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي

الحنبلي، وابنه محمد، ط، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ ١٩٩١م، الرياض.

٢٣٧- محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ط٣، دار الفكر العربي.

٢٣٨- مدخل إلى الإعلام الإسلامي، إسماعيل صيني، ط، دار الحقيقة، القاهرة، ١٤١١هـ.

٢٣٩- المدخل إلى علم الدعوة، محمد البيانوني، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م، بيروت.

٢٤٠- المدخل لصناعة المنطق، أبوالحجاج يوسف بن محمد، تحقيق: ميخائيل آسين بلاثيوس السرقسطي، ط/ المطبعة الأبيرقة، مدريد١٩١٦م

٢٤١- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط١، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٣هـ، ١٩٥٤م.

٢٤٢- مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي صالح المرشد، ط١، مكتبة لينة، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م، دمنهور.

٢٤٣- مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل الشيباني، ط، دار الفكر العربي، بيروت.

٢٤٤- المسيحية نشأتها وتطورها، شارل جنيبير، ترجمة: عبد الحليم محمود، ط، المكتبة العصرية، بيروت.

٢٤٥- معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العلك، ط٢، دار المعرفة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، بيروت.

٢٤٦- معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، عبد الوهاب بن لطف الديلمي، رسالة دكتوراه، ط١/ دار المجتمع، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، جدة.

٢٤٧- معالم السنن شرح سنن أبي داود، حمد بن محمد الخطابي، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ ١٩٩١م، بيروت.

٢٤٨- المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر

الموحدين، عبد الواحد المراكشي، تحقيق: محمد سعيد العريان ومحمدالعربي العلمي، ط١، مطبعة الاستقامة، ١٣٦٨هـ ١٩٤٩م.

٢٤٩- المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة، ط، دار الفكر العربي.

٢٥٠- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق: د. أحمد فريد رفاعي بك، ط، دار المأمون، مصر.

٢٥١- معجم الأمثال العربية القديمة، عفيف عبد الرحمن، ط١، دار العلوم، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٢٥٢- معجم البلاغة العربية، بدوي طبانة، ط، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م الرياض.

٢٥٣- معجم البلدان، ياقوت الحموي، ط، دار صادر، ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م، بيروت.

٢٥٤- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر رضا كحالة، ط٢، دار العلم للملايين، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م، بيروت.

٢٥٥- معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، عمر رضا كحالة، ط، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٥٦- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، ط، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

٢٥٧- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، ١٤٠٢هـ ١٩٨١م، القاهرة.

٢٥٨- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط، دار إحياء التراث العربي.

٢٥٩- مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، محمد الغزالي، ط٤/ دار الكتب الحديثة، ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م، مصر.

٢٦٠- المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد /الراغب الأصفهاني/، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط، دار المعرفة، بيروت.

٢٦١- مفهوم الحكمة في الدعوة، صالح بن عبد الله بن حميد، ط/ وزارة الشؤون

الإسلامية، ١٤١٧هـ، الرياض.

٢٦٢- مقارنة الأديان المسيحية، أحمد شلبي، ط٥، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٧م.

٢٦٣- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، صححه وعلق عليه: عبد الله محمد الصديق، ط/ مكتبة الخانجي، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٦م.

٢٦٤- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، علي بن إسماعيل الأشعري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م.

٢٦٥- مقامع الصلبان، أحمد بن عبيدة الخزرجي، تحقيق: عبدالمجيد الشرفي، ط، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية الاجتماعية بالجامعة التونسية، ١٩٧٥م

٢٦٦- ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، محمد بن رشيد الفهري، تحقيق: محمد الحبيب الخوجة. ط١، الشركة التونسية، ١٤٠١هـ.

٢٦٧- الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط، ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م، مصطفى البابي الحلبي، مصر.

٢٦٨- من أدب الدعوة، محمد داود، ط/ دار المنار.

٢٦٩- من أساليب القرآن، إبراهيم السامرائي، ط٢، دار القران للنشر، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، عمان، الأردن.

٢٧٠- مناهج البحث العلمي، عبد الرحمن بدوي، ط، وكالة المطبوعات، ١٩٧٧م الكويت.

٢٧١- مناهج الجدل في القرآن الكريم، زاهرالألمعي، ط٣، مطابع الفرزدق

،١٤٠٤هـ الرياض.

٢٧٢- مناهج الدعوة وأساليبها، علي جريشة، ط١، دار الوفاء، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م، المنصورة.

٢٧٣- من صفات الداعية اللين والرفق، فضل إلهي، ط١، إدارة ترجمان الإسلام، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، باكستان.

٢٧٤- من قضايا الإعلام في القرآن، رمضان لاوند، ط، مطابع الهدف.

٢٧٥- المنطق، محمد رضا المظفر، ط٤، مطبعة النعمان، ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م، النجف.

٢٧٦- منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، عثمان علي حسن، ط/١، مكتبة الرشد، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، الرياض.

٢٧٧- منهج أهل السنة والجماعة في الرد على النصارى، دراسة علمية من خلال جهود الإمام ابن تيمية -رحمه الله-، عبد الراضي محمد عبد المحسن، ط١، مكتبة التربية الإسلامية لإحياء التراث الإسلامي، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، القاهرة.

٢٧٨- منهج الإمام القرطبي في أصول الدين، أحمد بن عثمان المزيد، رسالة ماجستير، ط، غير منشورة.

٢٧٩- منهج البحث العلمي عند العرب، جلال محمد موسى، ط١، دار الكتاب اللبناني،١٩٧٢م، بيروت.

٢٨٠- منهج الرسول ﷺ في دعو أهل الكتاب، محمد سيد الحبيب الشنقيطي، ط/١، مكتبة أمين محمد أحمد سالم، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، المدينة المنورة.

٢٨١- المنهج العاطفي في الدعوة استنباط لأساليبه ومجالاته من خلال السنة النبوية، فهد بن عوض المغذوي، بحث مكمل لدرجة الماجستير، المعهد العالي للدعوة الإسلامية، عام ١٤١٠هـ، المدينة المنورة، ط/ غير منشورة.

٢٨٢- منهج القرآن الكريم في دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام، حمود بن أحمد الرحيلي، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية بالمدينة

المنورة، عام ١٤٠٣-١٤٠٤هـ، ط/ غير منشورة.

٢٨٣- منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الدعوة إلى الله تعالى، عبد الله رشيد الحوشاني، رسالة دكتوراه، كلية الدعوة والإعلام، جامعة الإمام، ط، غير منشورة.

٢٨٤- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، يوسف تغري بردي الأتابكي، تحقيق: أحمد يوسف نجافي، ط، دار الكتب المصرية، ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م.

٢٨٥- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار/خطط المقريزي/، أحمد بن علي المقريزي، ط، ١٢٧٠هـ، بولاق.

٢٨٦- الموافقات في أصول الشريعة، إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: عبدالله دراز،محمد عبدالله دراز،عبدالسلام عبدالشافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ ١٩٩١م، بيروت لبنان.

٢٨٧- موسوعة أمثال العرب، إميل بديع يعقوب، ط١، دار الجيل، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م، بيروت.

٢٨٨- الموسوعة العربية العالمية، ط١/ مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، الرياض.

٢٨٩- الموسوعة العربية الميسرة، محمد شفيق غربال (مشرف)، ط٢، دار الشعب، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٧٢م.

٢٩٠- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط١، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ١٩٨٨م.

٢٩١- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط٢، دار الندوة العالمية، ١٤١٨هـ.

٢٩٢- الموضوعات، عبد الرحمن بن علي /ابن الجوزي/، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، ط١، المكتبة السلفية، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م، المدينة المنورة.

٢٩٣- الناسخ والمنسوخ، أبو جعفر النحاس، تحقيق: د. محمد عبد السلام محمد،

ط١، مكتبة الفلاح، ص١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، الكويت.

٢٩٤- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف تغري بردي الآتابكي، ط، المؤسسة المصرية العامة.

٢٩٥- النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد، محمدعاطف العراقي، ط٢، دار المعارف، ١٩٧٩م، القاهرة.

٢٩٦- النشر في القراءات العشر، محمد محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري، ط١، دار الباز، مكة المكرمة.

٢٩٧- نظرية التكليف، عبد الكريم عثمان، آراء القاضي عبد الجبار الكلامية، ط، مؤسسة الرسالة، ١٣١٩هـ ١٩٧١م، بيروت.

٢٩٨- نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، عبد المنعم ماجد، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩م.

٢٩٩- نفائس الأصول في شرح المحصول، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: د. عياضة بن نامي السلمي، رسالة دكتوراه، كلية الشريعة، جامعة الإمام، مطبوعة بالألة الكاتبة، ١٤٠٦هـ.

٣٠٠- نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب، أحمد المقري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط١، المكتبة الكبرى، ١٣٦٧هـ ١٩٤٩م، القاهرة.

٣٠١- النفس أمراضها وعلاجها في الشريعة الإسلامية، محمد الفقي، ط١، محمد علي صبيح، ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م، القاهرة.

٣٠٢- نقض المنطق، أحمد بن عبد الحليم/ابن تيمية/، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة، وسليمان عبد الله الصنيع، تصحيح، محمد حامد الفقي، ط/١، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٠هـ، ١٩٥١م.

٣٠٣- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، محمد عبد الله عنان، ط٣، عام ١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م، القاهرة.

٣٠٤- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازي، تحقيق: أحمد حجازي

السقا، ط١، المكتب الثقافي للنشر، ١٩٨٩م القاهرة.

٣٠٥- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، بهاء الدين شداد، تحقيق: د. جمال الدين الشيباني، ط١، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤م، القاهرة.

٣٠٦- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بن أحمد التنبكتي، ط١، عباس شقرون، ١٣٥١هـ، مصر.

٣٠٧- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، محمد بن أبي بكر الدمشقي/ابن القيم/ تحقيق: رضوان جامع رضوان، ط/ مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة.

٣٠٨- هداية المرشدين إلى طريق الوعظ والخطابة، علي بن محفوظ، ط٥/ دار الكتاب، ١٣٧١هـ، ١٩٥٢، القاهرة.

٣٠٩- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي، ط، وكالة المعارف، ١٩٥١م، إستانبول.

٣١٠- الوافي بالوفيات، خليل آيبك الصفدي، باعتناء: درينغ، مطبعة وزارة المعارف، ١٩٤٩م، إستانبول.

٣١١- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

• ثالثا: المجلات:

٣١٢- هذه سبيلي، مجلة يصدرها المعهد العالي للدعوة الإسلامية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامة، العدد الرابع، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ط/ إدارة الثقافة بالجامعة.

• رابعا: المراجع الأجنبية:

٣١٣- تاريخ الأدب العربي، الملحق، كارل بروكلمان، النسخة الألمانية، ط، ليدن، ١٩٣٧.

GESCHICHTE DER ARABISCHEN LITTERATUR, PROF. DR. C. BROCKELMANN/ ERSTER SUPPLEMENTBAND, LEIDEN, E.J. BRILL, 1937.

فهرس الموضوعات